

سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ (١٥٥)

شرح
عقيدة أهل السنة والجماعة

المتن والشرح

لفضيلة الشيخ العلامة

محمد بن صالح العثيمين

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

من إصدارات

مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

شرح

عقيدة أهل السنة والجماعة

ح مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية ،١٤٣٧هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
العثيمين ، محمد بن صالح
شرح عقيدة أهل السنة والجماعة ٠/مؤسسة الشيخ محمد
بن صالح العثيمين - القصيم
٥٤٩ ص ؛١٧×٢٤ سم (سلسلة مؤلفات الشيخ ابن عثيمين : ١٥٥)
ردمك : ٩-٦٨-٨١٦٣-٦٠٣-٩٧٨
١- العقيدة الإسلامية . ٢- التوحيد . أ- العنوان
ديوي : ٢٤٠ ١٨٤٤ / ١٤٣٧

رقم الإيداع: ١٨٤٤ / ١٤٣٧
ردمك: ٩-٦٨-٨١٦٣-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الرابعة
١٤٤٤هـ

يُطلب الكتاب من:
مُؤَسَّسَةِ الشَّيْخ مُحَمَّدِ بْنِ صَالِح العُثَيْمِين الخَيْرِيَّة



المملكة العربية السعودية
القصيم - عنيزة - ٥١٩١١ ص . ب : ١٩٢٩
هاتف : ٠١٦/٣٦٤٢١٠٧ - ناسوخ : ٠١٦/٣٦٤٢٠٠٩
جوّال : ٠٥٥٣٦٤٢١٠٧ - جوّال المبيعات : ٠٥٠٠٧٣٣٧٦٦
www.binothaimeen.net
info@binothaimeen com

الموزع المعتمد و الحصري في جمهورية مصر العربية
دار الدُّرَّة الدولية للطباعة و التوزيع
١٣٥ شارع مصطفى النحاس - مدينة نصر - الحي الثامن - بجوار مدارس المنهل الخاصة .
هاتف و فاكس : ٢٢٧٢٠٥٥٢ - محمول : ٠١٠١٠٥٥٧٠٤٤

سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ (١٥٥)

شرح
عقيدة أهل السنة والجماعة

المتن والشرح

لفضيلة الشيخ العلامة

محمد بن صالح العثيمين

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

من إصدارات

مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

بسم الله الرحمن الرحيم

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تقديم

إنَّ الحمدَ لله، نَحمدُهُ ونَسْتعينُه ونَسْتغفرُه، ونَعوذُ بالله من شُرور أَنْفُسنا ومِن سيِّئات أعمالِنا، مَن يَهْده اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومَن يُضْلِلْ فَلا هادِيَ له، وأَشْهَد أنْ لا إلَهَ إلا الله وحدَه لا شَريكَ لَه، وأَشْهَد أنَّ محمَّدًا عبدُه ورسولُه، أرسلَه اللهُ بالهُدَى ودِين الحقِّ؛ فبلَّغَ الرِّسالة، وأدَّى الأمانةَ، ونَصَح الأمَّة، وجاهَد في الله حقَّ جِهادِه حتَّى أتاهُ اليَقينُ، فصَلواتُ الله وسلامُه عليهِ، وعلَى آلِه وأصحابِه، ومَن تَبِعهم بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّين، أَمَّا بَعْدُ:

فقَد كانَ مِن الأعمال الجَليلة لصاحِب الفَضيلة العلَّامة شيخِنا الوالِد محمَّد بنِ صالِحِ العُثَيْمِين -رحمَهُ اللهُ تعالى-، عِنايتُه البالغةُ بتَدْرِيس المتُون العِلْميَّة وشَرْحِها والتَّعْلِيقِ عَلَيها وتَقْرِيبِها لطُلاب العِلم والدَّارِسِين، وذَلِك فِي أُسلوبٍ تميَّز بالبَيَانِ والتَّأصِيل المَنْهَجِيِّ وجَودَةِ السَّبْكِ والوُضُوحِ.

ومِن حِرْصِه -رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى- وسَعْيِه لِتَحْقِيقِ هَذا الهدَفِ تَناولَ كِتابَه المُختَصَرَ (عَقِيدَة أَهْلِ السُّنَّةِ وَالجَماعَةِ) الذِي أَلَّفَه عامَ (١٤٠٤هـ) بالشَّرْحِ والتَّقْرِيرِ فِي ضِمْن الدُّرُوسِ العِلْميَّة التِي كانَ يَعقدُها -رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى- في جامِعِه بمَدِينَةِ عُنَيْزَةَ.

وقَد سُجِّل صَوتِيًّا مِن تِلك الشُّروحِ شَرحانِ: كانَ الأوَّلُ عامَ (١٤١٦هـ) وهُو الأَشْملُ والأَوْسع، وكانَ الأَخِيرُ عامَ (١٤٢١هـ)، وبِناءً علَى ذلِكَ كانَ الشَّرْحُ الأَوَّلُ هُو المعتمدَ فِي الإعدادِ، وأُلحقَتْ إلَيْهِ الفَوائِدُ والزَّوائِدُ الموجُودةُ فِي الشَّرح الثَّانِي.

ومِن أَجْل تَعْميمِ الفائِدَةِ؛ وإِنْفاذًا للقَوَاعِدِ والضَّوابِطِ والتَّوجِيهات التِي قرَّرها شيخُنا -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- لإِخْراجِ تُراثِهِ العِلْميِّ؛ تَمَّ -بعَوْنِ اللهِ تَعالَى وتَوْفِيقِه- إِعْدادُ هذَين الشَّرحِين وتَجْهيزُهما للطِّباعة والنَّشر.

نَسْأَلُ اللهَ تعالَى أنْ يَجْعلَ هَذا العَمَلَ خالِصًا لِوَجْهِه الكَريمِ؛ نافِعًا لعِبادِه، وأنْ يَجزِيَ فَضِيلةَ شيخِنا عَنِ الإسلامِ والمُسلمِينَ خَيْرَ الجَزَاء، ويُضَاعِفَ لهُ المثُوبَةَ والأَجْرَ، ويُعْلِيَ دَرَجَتَهُ في المَهْدِيِّينَ، إِنَّه سَمِيعٌ قَرِيبٌ مُجِيبٌ.

وَصَلَّى اللهُ وسلَّم وبارَك علَى عَبدِه ورَسولِه، خاتَمِ النَّبِيِّينَ، وإِمامِ المُتَّقِينَ، وسيِّدِ الأَوَّلينَ والآخِرينَ، نبيِّنا محمَّدٍ، وعلَى آلِه وأَصْحابِه والتَّابعينَ لهُمْ بإِحْسانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّين.

القِسْمُ العِلْمِيُّ
فِي مُؤَسَّسَةِ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحٍ العُثَيْمِين الخَيْرِيَّةِ
٢٠ مُحَرَّم ١٤٣٧هـ



نُبْذَةٌ مُخْتَصَرَةٌ عَنْ
فَضِيلَةِ الشَّيْخِ العَلَّامَةِ مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحٍ العُثَيْمِين
١٣٤٧- ١٤٢١هـ

نَسَبُهُ وَمَوْلِدُهُ:

هُو صاحِبُ الفضِيلةِ الشَّيخُ العالِـمُ المحقِّق، الفَقِيه المفسِّر، الوَرِع الزَّاهد، مُحَمَّدُ بْنُ صَالِحِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ آل عُثَيْمِين مِنَ الوهبَةِ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ.

وُلِد فِي ليلةِ السَّابعِ والعِشرينَ مِن شَهرِ رمَضانَ المبارَك، عامَ (١٣٤٧هـ) فِي عُنَيْزَةَ -إِحدَى مُدن القَصِيم- فِي المملَكةِ العَربيَّةِ السُّعُوديَّةِ.

نَشْأَتُه العِلْميَّةُ:

أَلحقَهُ والدُه -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- لِيتعلَّمَ القُرآنَ الكَريمَ عندَ جَدِّه مِن جِهةِ أُمِّه المعلِّم عَبْد الرَّحمن بن سُلَيْمان الدَّامِغ -رَحِمَهُ اللهُ-، ثمَّ تعلَّم الكِتابةَ، وشيئًا مِن الحِسابِ، والنُّصُوص الأَدبيَّة؛ فِي مدرسةِ الأُستاذ عَبْدالعزيزِ بن صالِحِ الدَّامِغ -رَحِمَهُ اللهُ-، وذلكَ قبلَ أنْ يَلْتَحِقَ بمَدْرسة المعلِّم عليِّ بنِ عَبْدالله الشّحيتان -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- حيثُ حَفِظَ القُرآنَ الكَريمَ عندَه عن ظَهْرِ قَلْبٍ ولـمَّا يتجاوز الرَّابعةَ عَشْرَةَ مِن عُمُره بَعْدُ.

وبتَوْجيهٍ مِن والدِهِ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- أَقْبَلَ علَى طلَب العِلم الشَّرعيِّ، وكانَ فضيلةُ الشَّيْخِ العلَّامةُ عَبْدُ الرَّحمن بنُ ناصرٍ السّعْـديُّ -رَحِمَهُ اللهُ- يُدرِّس العُلـوم

الشَّرعيَّة والعَربيَّة فِي الجامِع الكَبِير بعُنَيْزَةَ، وقَد رَتَّب اثنَيْنِ[١] مِن طَلَبته الكِبار لِتَدرِيسِ المُبتدِئينَ مِنَ الطَّلَبة، فانضَمَّ الشَّيْخُ إلَى حَلقةِ الشَّيْخ محمَّدِ بنِ عَبْد العزيزِ المطوّع -رَحِمَهُ اللهُ- حتَّى أَدْرَكَ مِنَ العِلم -فِي التَّوْحِيد، والفِقه، والنَّحو- ما أَدْرَكَ.

ثُمَّ جَلَس فِي حَلقة شَيْخِه العلَّامَة عَبْد الرَّحمن بنِ ناصرِ السّعْديِّ رَحِمَهُ اللهُ، فدرَس عليه فِي التّفسِير، والحَديث، والسِّيرة النَّبويَّة، والتَّوحِيد، والفِقه، والأُصول، والفَرائِضِ، والنَّحْو، وحَفِظَ مُخْتَصراتِ المُتُونِ فِي هذِهِ العُلُوم.

ويُعَدُّ فضيلةُ الشَّيْخ العلَّامَة عَبْدُ الرحمن بنُ ناصرِ السّعْديُّ -رَحِمَهُ اللهُ- هُو شيخَه الأوَّلَ؛ إِذْ أخذ عَنْهُ العِلْمَ -مَعْرفةً وطَرِيقةً- أَكْثَرَ مِمَّا أخذ عَنْ غَيْرِهِ، وتَأَثَّر بمَنْهجِه وتَأصِيلِه، وطَرِيقةِ تَدْرِيسِه، واتِّباعِه لِلدَّلِيل.

وعِندَما كانَ الشَّيْخُ عَبْدُ الرحمن بنُ عليِّ بن عـودانَ -رَحِمَهُ اللهُ- قـاضيًا فِي عُنَيْزَةَ قـرَأ عليه فِي عِلـم الفَرائضِ، كـما قَـرأ علَى الشَّيْخ عَبْدِ الـرَّزَّاقِ عَفِيفِي -رَحِمَهُ اللهُ- فِي النَّحو والبَلاغَة أَثناءَ وُجودِه مُدَرِّسًا فِي تِلكَ المَدِينة.

ولـمَّا فُتِحَ المَعْهَدُ العِلْمِيُّ فِي الرِّياضِ أَشارَ عليه بعضُ إِخْوانِه[٢] أَنْ يَلْتَحِقَ بِهِ، فاستَأْذَنَ شيخَه العلَّامةَ عَبْدَ الرَّحمنِ بنَ ناصرِ السّعْدِيَّ -رَحِمَهُ اللهُ- فَأَذِنَ له، والتَحَق بالمَعْهَدِ عامَيْ (١٣٧٢-١٣٧٣هـ).

ولقَدِ انتفعَ -خلالَ السَّنتَيْن اللَّتَيْن انتظَم فِيهما فِي مَعهدِ الرِّياضِ العِلْمِيِّ- بالعُلـماءِ الَّذين كانُـوا يُدرِّسـونَ فِيه حِـينذَاكَ، ومِنْهُمْ: العـلَّامَةُ المُفَسِّـرُ الشَّيْخُ مُحَمَّدُ الأَمِين الشّنْقِيطِيُّ، والشَّيْخُ الفَقِيه عَبْدُ العزيزِ بنُ ناصرِ بنِ رشيدٍ، والشَّيْخُ المُحدِّثُ عَبْدُ الرحمنِ الإِفْرِيقِيُّ -رَحِمَهُمُ اللهُ تَعالَى-.

---

(١) هما الشَّيْخان محمد بن عَبْد العزيز المطوع، وعلي بن حمد الصالحي رحمهما الله تَعَالَى.
(٢) هو الشَّيْخ علي بن حمد الصَّالحي رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى.

وفِي أَثناءِ ذَلكَ اتَّصلَ بسَماحةِ الشَّيْخِ العلَّامةِ عَبْدِ العزيزِ بنِ عَبْدِ الله بنِ بَازٍ -رَحِمَهُ اللهُ-، فقرَأ عليه فِي المسجِد: مِن صَحِيح البُخارِيِّ، ومِن رَسائِل شَيخِ الإسلامِ ابنِ تَيْمِيَّةَ؛ وانتفَع به فِي عِلم الحَدِيث، والنَّظر فِي آراءِ فُقهاءِ المَذَاهِب والمُقارَنةِ بينَها، ويُعدُّ سماحةُ الشَّيْخِ عَبْدُ العزيزِ بنُ بازٍ -رَحِمَهُ اللهُ- هو شَيْخَهُ الثَّانِي فِي التَّحْصِيلِ والتَّأَثُّرِ بِهِ.

ثُمَّ عادَ إلَى عُنَيْزَةَ عامَ (١٣٧٤هـ)، وصارَ يَدْرُسُ علَى شَيْخِهِ العلَّامةِ عَبْدِ الرَّحمنِ بنِ ناصرٍ السّعْدِيِّ، ويُتابعُ دِراسَتَهُ انتِسَابًا فِي كُلِّيَّةِ الشَّرِيعَةِ، الَّتِي أَصْبَحَتْ جُزْءًا مِنْ جامِعَةِ الإمامِ مُحَمَّدِ بنِ سُعُودٍ الإِسْلامِيَّةِ، حتَّى نالَ الشَّهادَةَ العالِيَةَ.

تَدْرِيسُهُ:

تَوَسَّمَ فِيهِ شَيْخُهُ النَّجابَةَ وسُرْعةَ التَّحْصِيلِ العِلْمِيِّ فشَجَّعَهُ علَى التَّدرِيسِ وهُوَ ما زالَ طَالِبًا فِي حَلقتِه، فبَدَأ التَّدرِيسَ عامَ (١٣٧٠هـ) فِي الجامِعِ الكَبيرِ بعُنَيْزةَ.

ولـمَّا تخرَّجَ فِي المَعْهَدِ العِلْمِيِّ فِي الرِّياضِ عُيِّنَ مُدَرِّسًا فِي المَعْهَدِ العِلْمِيِّ بعُنَيْزَةَ عامَ (١٣٧٤هـ).

وفِي سَنَةِ (١٣٧٦هـ) تُوُفِّيَ شَيْخُهُ العلَّامةُ عَبْدُ الرَّحمنِ بنُ ناصرٍ السّعْدِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- فتوَلَّى بعدَه إمامَةَ الجامِعِ الكَبيرِ فِي عُنَيْزَةَ، وإمامَةَ العِيدَيْنِ فِيها، والتَّدْرِيسَ فِي مكتبةِ عُنَيْزَةَ الوَطَنيَّةِ التَّابعةِ لِلجامِعِ؛ وهِي التِي أَسَّسَها شيخُه -رَحِمَهُ اللهُ- عامَ (١٣٥٩هـ).

وَلـمَّا كَثُرَ الطَّلَبةُ، وصارَتِ المكتبةُ لا تكْفِيهم؛ بدَأ فَضيلةُ الشَّيْخِ -رَحِمَهُ اللهُ- يُدرِّسُ فِي المسجِدِ الجامِعِ نَفْسِهِ، واجتمَعَ إِلَيْهِ الطُّلَّابُ وتَوافَدُوا مِنَ المملكَةِ وغيرِها؛ حتَّى كانُوا يَبْلُغونَ المِئاتِ فِي بعضِ الدُّرُوسِ، وهؤلاءِ يَدْرُسُونَ دِراسَة

تَحصيلٍ جادٍّ، لَا لِـمُجرَّدِ الاستِماعِ. وبَقِيَ علَى ذَلكَ -إمامًا وخَطيبًا ومُدرِّسًا- حتَّى وفاتِهِ -رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى-.

بَقِيَ الشَّيْخُ مُدرِّسًا فِي المَعْهَدِ العِلْمِيِّ مِن عامِ (١٣٧٤هـ) إلَى عامِ (١٣٩٨هـ) عندَما انتقَلَ إلَى التَّدرِيسِ فِي كُلِّيَّةِ الشَّريعَةِ وأُصُولِ الدِّينِ بالقَصِيمِ، التَّابعَةِ لجامِعةِ الإمامِ مُحَمَّدِ بنِ سُعُودٍ الإسلامِيَّةِ، وظَلَّ أُستاذًا فِيها حتَّى وفاتِه -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-.

وكانَ يُدرِّسُ فِي المسجِد الحَرامِ والمسجِد النَّبَويِّ، فِي مَواسِم الحَجِّ ورمَضانَ والإجازاتِ الصَّيْفِيَّة، مُنذُ عامِ (١٤٠٢هـ) حتَّى وفاتِهِ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-.

وَللشَّيْخِ -رَحِمَهُ اللهُ- أُسلوبٌ تَعْليمِيٌّ فَريدٌ فِي جَودتِهِ ونَجاحِهِ، فهُو يُناقِشُ طُلَّابَهُ ويَتقبَّلُ أسئِلَتَهُم، ويُلقِي الدُّرُوسَ والمُحاضَراتِ بهِمَّةٍ عالِيَةٍ ونَفسٍ مُطْمَئنَّةٍ واثِقَةٍ، مُبْتَهِجًا بنَشْرِهِ لِلعِلْمِ وتَقْرِيبِهِ إلَى النَّاسِ.

آثارُهُ العِلمِيَّةُ:

ظَهَرَتْ جُهُودُهُ العَظِيمةُ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- خِلالَ أَكْثَرَ مِن خَمسِينَ عامًا مِنَ العَطاءِ والبَذْلِ فِي نَشْرِ العِلْمِ والتَّدْرِيسِ والوَعْظِ والإرْشادِ والتَّوْجِيهِ وإِلْقاءِ المُحاضَراتِ والدَّعْوةِ إلَى اللهِ -سُبحَانَهُ وتَعَالَى-.

ولقَدِ اهتَمَّ بالتَّأْلِيفِ، وتَحريرِ الفَتاوَى والأَجْوبة، التِي تَمَيَّزَتْ بالتَّأصِيلِ العِلْمِيِّ الرَّصِينِ، وصدَرتْ لَهُ العَشَراتُ مِنَ الكُتُبِ والرَّسائِلِ والمُحاضَراتِ والفَتاوَى والخُطَبِ واللِّقاءاتِ والمَقالاتِ، كَما صدَرَ لَهُ آلافُ السَّاعاتِ الصَّوْتِيَّةِ التِي سَجَّلَتْ مُحاضَراتِه وخُطَبَهُ ولِقاءاتِهِ وبرامِجَهُ الإذاعِيَّةَ ودُرُوسَهُ العِلْمِيَّةَ؛ فِي تَفْسِيرِ القُرْآنِ الكَريم، والشُّرُوحاتِ المُتميِّزةِ لِلحَديثِ الشَّريفِ والسِّيرَةِ النَّبويَّةِ، والمُتُونِ والمَنْظُوماتِ فِي العُلُومِ الشَّرْعيَّةِ والنَّحْويَّةِ.

وَإنفاذًا لِلقَـواعِدِ والضَّـوابِطِ والتَّوْجِيهاتِ التِي قَرَّرهـا فَضيلتُهُ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- لِنَشْرِ مُؤَلَّفاتِه، ورَسائِلِه، ودُرُوسِه، ومُحاضراتِه، وخُطبِه، وفَتاواهُ، ولقاءاتِه؛ تَقُـوم مُؤَسَّسةُ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ بنِ صالِحِ العُثَيْمِين الخَيْرِيَّةُ -بعَوْنِ اللهِ وتَـوْفِيقِه- بوَاجِبِ وشَرَفِ المَسْؤُوليَّةِ لإِخْراجِ كافَّةِ آثارِهِ العِلْمِيَّةِ والعِنايَةِ بِهَا.

وبِناءً علَى تَوْجِيهاتِه -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- أُنْشِئَ لَهُ مَوقِعٌ خاصٌّ على شَبَكَةِ المَعْلُوماتِ الدَّوْلِيَّةِ(١)، مِن أَجْلِ تَعْمِيمِ الفائِدَةِ المَرجُوَّةِ -بعَوْنِ اللهِ تَعَالَى-، وتَقدِيمِ جَمِيعِ آثارِهِ العِلْمِيَّةِ مِنَ المُؤَلَّفاتِ والتَّسْجِيلاتِ الصَّوْتِيَّةِ.

أَعْمَالُهُ وجُهُودُهُ الأُخْرَى:

إِلَى جانِبِ تِلكَ الجُهُودِ المُثْمِرَةِ فِي مَجالاتِ التَّدْرِيسِ والتَّأْلِيفِ والإِمامَةِ والخَطابَةِ والإِفْتاءِ والدَّعْوةِ إِلَى الله -سبحانه وتَعَالَى- كانَ لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ أَعمالٌ كَثيرةٌ مُوَفَّقَةٌ مِنْهَا:

- عُضوًا فِي هَيْئة كِبارِ العُلَماء فِي المَمْلكةِ العربيَّةِ السُّعوديَّة، مِن عام (١٤٠٧هـ) حتَّى وفاته.
- عضوًا فِي المَجْلِس العِلمِيِّ بجامِعةِ الإمامِ مُحَمَّدِ بنِ سُعُودِ الإسلاميَّةِ، فِي العامَيْنِ الدِّرَاسِيَّيْنِ (١٣٩٨-١٤٠٠هـ).
- عضوًا فِي مَجْلِسِ كُلِّيَّةِ الشَّريعةِ وأُصُولِ الدِّينِ، بفَرْعِ جامِعةِ الإمامِ مُحَمَّدِ بنِ سُعُودِ الإسلاميَّةِ فِي القَصِيمِ، ورَئِيسًا لِقِسْمِ العَقِيدةِ فِيها.
- وفِي آخِرِ فَترةِ تَدريسِهِ بالمَعْهَدِ العِلْمِيِّ شارَكَ فِي عُضويَّةِ لَجْنَةِ الخِطَطِ والمَناهِجِ لِلمَعاهِدِ العِلْمِيَّةِ، وأَلَّفَ عَدَدًا مِنَ الكُتُبِ المُقَرَّرَةِ فِيهَا.

---

(١) www.binothaimeen.com

- عُضـوًا فِي لجْنَةِ التَّوْعِيَةِ فِي مَوْسِـمِ الحَجِّ، مِن عـام (١٣٩٢هـ) حتَّى وفـاته -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-، حيثُ كانَ يُلقِي دُرُوسًا ومُحاضراتٍ فِي مكَّة والمَشاعِر، ويُفْتِي فِي المَسائِلِ والأَحكامِ الشَّرعيَّة.
- تَرأَّسَ جَمعيَّةَ تَحفيظِ القُرْآنِ الكَريمِ الخَيريَّةَ فِي عُنَيْزَةَ مُنْذُ تَأْسِيسِها عامَ (١٤٠٥هـ) حتَّى وفاتِه.
- أَلقَى مُحاضراتٍ عَديدةٍ داخِلَ المملكةِ العربيَّةِ السُّعوديَّةِ علَى فِئاتٍ مُتنوِّعةٍ مِنَ النَّاسِ، كما أَلقَى مُحاضراتٍ عَبْرَ الهاتِفِ علَى تَجمُّعاتٍ ومَراكِزَ إسلاميَّة فِي جِهاتٍ مُختلفةٍ مِنَ العالَمِ.
- مِن عُلماءِ المملكةِ الكِبارِ الذِين يُجيبُونَ علَى أَسئلةِ المُسْتفسِرينَ حولَ أَحكامِ الدِّينِ وأُصُولِه؛ عَقِيدةً وشَريعةً، وذَلكَ عَبْرَ البَرَامِجِ الإِذاعيَّةِ فِي المملكةِ العَربيَّةِ السُّعُوديَّةِ، وأَشهرُها بَرْنامَجُ (نُورٌ عَلَى الدَّرْبِ).
- نَذَرَ نَفْسَهُ لِلإجابَةِ علَى أَسئلةِ السَّائِلِينَ؛ مُهاتَفةً ومُكاتَبةً ومُشافَهةً.
- رَتَّبَ لِقاءاتٍ عِلميَّةً مُجَدْوَلَةً، أُسْبُوعيَّةً وشَهْرِيَّةً وسَنَوِيَّةً.
- شارَكَ فِي العَدِيد مِنَ المُؤتَمَراتِ التِي عُقِدَت فِي المملكةِ العربيَّةِ السُّعُوديَّةِ.
- ولأَنَّه يَهتمُّ بالسُّلُوكِ التَّربويِّ والجانِبِ الوَعْظِيِّ اعتنَى بتَوْجِيهِ الطُّلَّابِ وإرشادِهِم إلَى سُلُوكِ المَنْهَجِ الجادِّ فِي طَلَبِ العِلْم وتَحْصِيلِه، وعَمِلَ علَى استِقْطابِهِمْ والصَّبْرِ علَى تَعْلِيمِهِمْ وتَحمُّلِ أَسئلتِهِمُ المُتعدِّدةِ، والاهتمامِ بأُمُورِهِمْ.
- ولِلشَّيخِ -رَحِمَهُ اللهُ- أَعمالٌ عَديدةٌ فِي مَيادِينِ الخَيرِ وأَبوابِ البِرِّ ومَجالاتِ الإِحْسانِ إلَى النَّاسِ، والسَّعْيِ فِي حَوائِجِهِمْ وكِتابَةِ الوَثَائِق والعُقُودِ بَيْنَهُمْ، وإِسداءِ النَّصِيحَةِ لهُمْ بِصِدْقٍ وإِخلاصٍ.

مَكَانَتُهُ العِلْمِيَّةُ:

يُعَدُّ فضيلةُ الشَّيْخِ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- مِنَ الرَّاسِخِينَ فِي العِلْمِ الذِينَ وَهَبَهُمُ اللهُ -بِمَنِّهِ وكَرَمِهِ- تَأْصِيلًا وَمَلَكةً عَظِيمةً فِي مَعرِفَةِ الدَّلِيلِ واتِّبَاعِهِ واستِنْبَاطِ الأَحْكامِ والفَوائِدِ مِنَ الكِتابِ والسُّنَّةِ، وسَبْرِ أَغْوارِ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ مَعَانِيَ وإِعْرابًا وبَلاغَةً.

وَلِـمَا تَحلَّى بِهِ مِن صِفاتِ العُلَماءِ الجَليلةِ، وأَخلاقِهِمُ الحَميدَةِ، والجَمْعِ بَيْنَ العِلْمِ والعَمَلِ؛ أَحبَّهُ النَّاسُ محَبَّةً عَظِيمَةً، وقَدَّرَهُ الجَميعُ كُلَّ التَّقديرِ، ورَزَقَهُ اللهُ القَبُولَ لَدَيْهِمْ، واطْمَأَنُّوا لِاخْتِيارَاتِهِ الفِقْهِيَّةِ، وأَقْبَلُوا علَى دُرُوسِهِ وفَتاواهُ وآثارِهِ العِلْمِيَّةِ، يَنْهَلُونَ مِنْ مَعِينِ عِلْمِهِ، ويَسْتَفِيدُونَ مِنْ نُصْحِهِ ومَواعِظِهِ.

وقَدْ مُنِحَ جائِزَةَ المَلِك فَيْصَل -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- العَالَمِيَّةَ لِخِدْمَةِ الإِسلامِ عامَ (١٤١٤هـ)، وجاءَ فِي الحَيْثِيَّاتِ التِي أَبْدَتْها لجْنَةُ الاخْتِيارِ لِمَنْحِهِ الجائِزَةَ ما يَأْتِي:

- أَوَّلًا: تَحلِّيهِ بِأَخْلاقِ العُلَماءِ الفاضِلَةِ التِي مِنْ أَبْرزِها: الوَرَعُ، ورَحابَةُ الصَّدْرِ، وقَوْلُ الحَقِّ، والعَمَلُ لمَصْلحةِ المُسلمِينَ، والنُّصحُ لِخَاصَّتِهِم وعامَّتِهِم.
- ثانِيًا: انتِفاعُ الكَثِيرِينَ بعِلْمِهِ؛ تَدْرِيسًا وإِفتاءً وتَأْلِيفًا.
- ثالِثًا: إِلقاؤُهُ المُحاضَراتِ العامَّةَ النَّافِعةَ فِي مُختلَفِ مَناطِقِ المملكةِ.
- رابِعًا: مُشاركتُه المُفيدةُ فِي مُؤتَمَراتٍ إسلاميَّةٍ كَثِيرةٍ.
- خامِسًا: اتِّباعُه أُسلوبًا مُتميِّزًا فِي الدَّعْوةِ إِلَى اللهِ بالحِكْمَةِ والمَوْعِظةِ الحَسَنةِ، وتَقْدِيمُهُ مَثَلًا حَيًّا لِـمَنْهَجِ السَّلَفِ الصَّالِحِ؛ فِكْرًا وسُلُوكًا.

عَقِبُهُ:

لَهُ خَمْسَةٌ مِنَ البَنِينَ، وثَلاثٌ مِنَ البَنَاتِ، وبَنُوهُ هُمْ: عَبْدُ اللهِ، وعَبْدُ الرَّحْمَنِ، وإِبْرَاهِيمُ، وعَبْدُ العَزِيزِ، وعَبْدُ الرَّحِيمِ.

وَفَاتُهُ:

تُوُفِّيَ -رَحِمَهُ اللهُ- فِي مَدِينَةِ جُدَّةَ، قُبَيلَ مَغْرِبِ يَومِ الأَرْبعاءِ، الخَامِسَ عشَرَ مِنْ شَهْرِ شَوَّال، عامَ (١٤٢١هـ)، وَصُلِّي عَلَيه فِي المسجِدِ الحَرَام بَعْدَ صَلاةِ عَصْرِ يَوم الخَمِيسِ، ثُمَّ شَيَّعَتْهُ تِلكَ الآلافُ مِنَ المُصَلِّينَ والحُشُودِ العَظِيمَةِ فِي مَشاهِدَ مُؤَثِّرَةٍ، ودُفِنَ فِي مَكَّةَ المُكَرَّمَةِ.

وبَعْدَ صَلاةِ الجُمُعةِ مِنَ اليَوْمِ التَّالي صُلِّي عَلَيه صَلاةَ الغائِبِ فِي جَمِيعِ مُدُنِ المملكةِ العربيَّةِ السُّعُوديَّةِ.

رَحِمَ اللهُ شَيْخَنَا رَحْمَةَ الأَبْرارِ، وأَسْكَنَهُ فَسِيحَ جَنَّاتِهِ، ومَنَّ عَلَيهِ بمِغْفِرَتِهِ ورِضْوَانِهِ، وجَزَاهُ عمَّا قَدَّم لِلإِسْلامِ والمُسلِمِينَ خَيْرًا.

القِسْمُ العِلْمِيُّ

فِي مُؤَسَّسَةِ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحٍ العُثَيْمِين الخَيْرِيَّةِ



عقيدتنا

عقيدتنا: الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره.

فنؤمن بربوبية الله تعالى أي بأنه الرب الخالق الملك المدبر لجميع الأمور.

ونؤمن بألوهية الله تعالى أي بأنه الإله الحق وكل معبود سواه باطل.

ونؤمن بأسمائه وصفاته أي بأن له الأسماء الحسنى والصفات الكاملة العليا.

ونؤمن بوحدانيته في ذلك أي بأنه لا شريك له في ربوبيته ولا في ألوهيته ولا في أسمائه وصفاته قال الله تعالى (رب السموات والأرض وما بينهما فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سميا).

نؤمن بأنه: (الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما في السموات وما في الأرض من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤده حفظهما وهو العلي العظيم).

ونؤمن بأنه: (هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم).

ونؤمن بأن له ملك السموات والأرض (يخلق ما يشاء يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور أو يزوجهم ذكرانا وإناثا ويجعل من يشاء عقيما إنه عليم قدير).

ونؤمن بأنه (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير له مقاليد السموات والأرض يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنه بكل شيء عليم).

ونؤمن بأنه: (وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين).

ونؤمن بأنه (عنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين).

ونؤمن بأن الله (عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غدا وما تدري نفس بأي أرض تموت إن الله عليم خبير).

ونؤمن بأن الله يتكلم بما شاء متى شاء كيف شاء (وكلم الله موسى تكليما) (ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه) (وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجيا).

الصفحة الأولى من متن الكتاب بقلم فضيلة الشيخ المؤلف رحمه الله تعالى

ومن ثمرات الإيمان بالرسل :

أولاً : العلم برحمة الله تعالى وعنايته بخلقه حيث أرسل إليهم أولئك الرسل الكرام للهداية والإرشاد .

ثانياً : شكره تعالى على هذه النعمة الكبرى .

ثالثاً : محبة الرسل وتوقيرهم والثناء عليهم بما يليق بهم لأنهم رسل الله تعالى وخلاصة عبيده قاموا بعبادته وتبليغ رسالته والنصح لعباده والصبر على أذاهم .

ومن ثمرات الإيمان باليوم الآخر :

أولاً : الحرص على طاعة الله تعالى رغبة في ثواب ذلك اليوم . والبعد عن معصيته خوفاً من عقاب ذلك اليوم .

ثانياً : تسلية المؤمن عما يفوته من نعيم الدنيا ومتاعها بما يرجوه من نعيم الآخرة وثوابها .

ومن ثمرات الإيمان بالقدر :

أولاً : الاعتماد على الله تعالى عند فعل الأسباب لأن السبب والمسبب كلاهما بقضاء الله وقدره .

ثانياً : راحة النفس وطمأنينة القلب لأنه متى علم أن ذلك بقضاء الله تعالى وأن المكروه كائن لامحالة ارتاحت النفس واطمأن القلب ورضي بقضاء الرب فلا أحد أطيب عيشاً وأريح نفساً وأقوى طمأنينة ممن آمن بالقدر .

ثالثاً : طرد الإعجاب بالنفس عند حصول المراد لأن حصول ذلك نعمة من الله بما قدره من أسباب الخير والنجاح فيشكر الله تعالى على ذلك ويدع الإعجاب .

رابعاً : طرد القلق والضجر عند فوات المراد أو حصول المكروه لأن ذلك بقضاء الله تعالى الذي له ملك السموات والأرض وهو كائن لامحالة فيصبر على ذلك ويحتسب الأجر .

وإلى هذا يشير الله تعالى بقوله : (ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور) .

فنسأل الله تعالى أن يثبتنا على هذه العقيدة وأن يحقق لنا ثمراتها ويزيدنا من فضله وأن لا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا وأن يهب لنا منه رحمة إنه هو الوهاب والحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان

تمت بقلم مؤلفها محمد الصالح العثيمين في ٣٠ شوال سنة ١٤٠٤ هـ

الصفحة الأخيرة من متن الكتاب بقلم فضيلة الشيخ المؤلف رحمه الله تعالى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تَقدِيمٌ لسَماحَةِ الشَّيخ

عَبْدِ العَزِيز بنِ عَبدِ الله بنِ بازٍ

الحمدُ للهِ وحدَه، والصَّلاةُ والسَّلامُ علَى مَن لَا نبيَّ بعدَه، وعلَى آلِه وصَحْبِه، أمَّا بعدُ:

فقَدِ اطَّلعتُ علَى العَقيدةِ القَيِّمةِ المُوجَزة، الَّتِي جَمعها أخُونا العلَّامةُ فضيلةُ الشَّيخِ: محمَّدُ بنُ صالِحِ العُثَيْمِين، وسَمعتُها كُلَّها، فأَلفيتُها مُشتمِلةً علَى بيانِ عَقيدةِ أهلِ السُّنَّةِ والجَماعةِ في بابِ تَوحيدِ الله وأسمائِه وصِفاتِه، وفي أبوابِ الإِيمانِ بالملائِكَة والكُتُب والرُّسُل واليَوم الآخِر، وبالقَدَر خَيرِه وشَرِّه.

وقَد أجادَ فِي جَمعِها وأفادَ، وذَكَر فِيها ما يَحتاجُه طالِبُ العِلم وكُلُّ مُسلمٍ فِي إيمانِه بالله وملائِكتِه وكُتُبه ورُسُله واليَوْم الآخِر وبالقَدَر خَيرِه وشرِّه، وقَد ضَمَّ إلَى ذَلِكَ فَوائدَ جَمَّةً تتعلَّق بالعَقيدةِ قَد لا تُوجَدُ في كَثيرٍ مِنَ الكُتُب المُؤلَّفة في العقائِد. فجَزَاهُ اللهُ خيرًا، وزادَهُ مِن العِلم والهُدَى، ونفَعَ بكِتابِه هذَا وبسائِرِ مُؤلَّفاتِه، وجَعَلنا وإيَّاهُ وسائِرَ إخوانِنا مِنَ الهُداةِ المُهتدِينَ، الدَّاعِينَ إلَى الله علَى بَصِيرةٍ؛ إنَّهُ سَميعٌ قَرِيبٌ.

قالَهُ مُمْليهِ الفَقيرُ إلَى اللهِ تعالَى: عبدُ العَزيزِ بنُ عَبدِ اللهِ بنِ بازٍ، سامَحَه اللهُ، وصلَّى اللهُ وسلَّم علَى نَبيِّنا محمَّدٍ، وآلِه وصَحبِه.

الرَّئِيسُ العامُّ

لإِداراتِ البُحُوثِ العِلْميَّة والإِفتاءِ والدَّعوةِ والإِرشادِ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحَمْد لله ربِّ العالمين، وصلَّى الله وسلَّم عَلَى نبيِّنا محمَّد، وعَلَى آلِهِ وأصحابِه ومَن تَبِعهم بإحسانٍ إِلَى يومِ الدِّينِ، أمَّا بعدُ:

فهَذا أوَّلُ الشُّروع فِي هذِه الرِّسالة، الصَّغيرةِ لفظًا، الكبيرةِ معنًى، ومَضمونُها: هُوَ: اعتقادُ أَهْل السُّنَّة والجَماعَة فِي صِفات الله تَعالَى، وفيما يَتعلَّق باليوم الآخر، ومَا سيأتي إن شَاء الله.

واعلَمْ أنَّ العُلَماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ قسَّمُوا التَّوحيد إِلَى ثلاثةِ أقسامٍ:

١- توحيد الرُّبوبيَّة.

٢- توحيد الأُلُوهيَّة.

٣- توحيد الأَسْماء والصِّفَات.

وقسَّموها هَذا التَّقسيم بناءً عَلَى التَّتبُّع والاستِقْراء، واستِئْناسًا بقولِ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم:٦٥].

فإنَّ الآيةَ الكريمةَ تضمَّنت أنواعَ التَّوحيد الثلاثة:

فقَوْله تعالَى: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ هَذا توحيدُ الرُّبوبيَّة.

وقَوْله تعالَى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾ هَذا توحيدُ الأُلُوهيَّة.

وقَوْله تعالَى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ هَذا فِي الأَسْماء والصِّفَات؛ لأنَّ مَعْنى قَوْله: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ أَي: لَا تَعْلمُ لَهُ نظيرًا، ومُساويًا له فِي أسمائِه وصفاتِه.

وقد قالَ بَعْض النَّاس: إنَّ تقسيمَ التَّوحيد إلَى هذِه الأقسامِ الثلاثةِ بِدعةٌ؛ لأنَّ ذلِك لم يَرِدْ عنِ النَّبي صلى الله علَيْه وعَلَى آله وسلم، ومَا كانَ مِن أُمور الدِّين ولم يَرِد عنِ النَّبي صلى الله علَيْه وعَلَى آله وسلم فإنَّه بِدعةٌ!

ولكنَّنا نُجيب عَن هَذا فنَقُول: إنَّ أشياءَ كثيرةً رتَّبها العُلَماء لم تكُن مُرتَّبة فِي عَهد الرَّسُول عَلَيهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وهَذا لَا يَعْدُو أنْ يَكُونَ بيانًا وتوضيحًا، فالَّذِين قسَّمُوه إلَى ثلاثةِ أقسامٍ لم يأتُوا بزائدٍ، ولم يُنْكِروا ثابتًا، بَل أَتَوْا بما جاءَ بِه الكِتاب والسُّنَّة، ولكنْ قسَّموه باعتبارِ اختِلافِ النَّاسِ فِيه، كَما سيُبَين إن شَاء الله.

ولَو أنَّنا سَلكنا هَذا المَسْلَك الذِي سَلكه هَذا الشَّاذُّ -وهو عَدَم التَّقْسيم- لقُلنا أيضًا: إنَّ عَدَد شروطِ الصَّلاة، وأركانِها، وواجباتِها، وأركانِ الحجِّ، وواجباتِه، ومَحْظوراتِه، ومَا أشبَهَ ذلِك، لقلنا: إنَّه مِن البِدع.

ونَحن لَا نَذكرُ هَذا مُتعبِّدِين لله بِه، ولكنَّنا نَذْكر هَذا مُقرِّبين للعِلم إلَى طُلَّابه، فهُو إذَنْ: وَسِيلة ولَيْس قصدًا، فالصَّواب بِلَا شكٍّ أنَّ تقسيمَ التَّوحيد إلَى ثلاثةِ أقسامٍ، وذِكْر الأركان والشُّروط والواجِبات والمُفْسدات فِي العبادات، كلُّ هَذا جائز؛ لأنَّه مِن باب الوَسائل والتَّقريب، وحَصر الأشياءِ لطالِب العِلم، ونَحن نَذْكر أنَّ الرَّسُول عَلَيهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كانَ يَذكر الأشياءَ محدودةً بالعَدَد، مثل: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّه»(١)، و: «ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ»(٢)، وأشباهِ ذلِك، وهَذا نوعٌ مِنَ التَّقْسيم.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة، رقم (٦٢٩)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة، رقم (١٠٣١)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان غلظ تحريم إسبال الإزار، رقم (١٠٦)، من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقَد أوردَ بعضُ الطَّلَبَة أنَّ مِن النَّاس مَن قَالَ: هُناك توحيدٌ رابعٌ، وهُو «تَوْحِيدُ المُتابَعةِ»، والجوابُ عَن هَذا: أنَّ الأقسامَ الثَّلاثةَ مُرتبطةٌ باللهِ عَزَّوَجَلَّ، أمَّا هَذا فالجِهةُ مُنْفكَّةٌ، وهَذا أيضًا لَا حاجةَ لَهُ ولَا علاقةَ لَهُ بالتَّوحيد؛ لأنَّ هَذا تَوحيدُ العمَل لَا المعمولِ لَه، فَلَا علاقةَ لَهُ بتَوحيدِ الله إطلاقًا؛ صحيحٌ أنَّه يَجب عَلينا أنْ نَسْتَحْضِرَ الاتِّباعَ بالنَّبيِّ صلَّى اللهُ علَيه وعلَى آلِه وسلَّم.

والأَوْلَى أنْ يُقالَ: تَجْريدُ المتابعةِ، بمَعنى ألَّا تُتابع إلَّا الرَّسولَ ﷺ، وهَذا مَا يُعبِّر بِهِ شَيخُ الإِسْلامِ وابنُ القَيِّم رَحِمَهُمَاٱللَّهُ لهَذا المعنَى.

لكنِ الذِي وضَع «تَوْحيد المُتابَعةِ» -واللهُ أعلمُ بالنِّيَّات- أرادَ أنْ يَمنعَ التَّقْليد مُطلقًا وأنْ تُلغَى جَمِيع المؤلَّفات فِي التَّقْليد، وعلَى هَذا فأغْلبُ كُتُب الفِقْه شِرْك! لأنَّها لـم تُوحِّد المتابعةَ؛ إذْ إنَّها آراء للعُلماء تُكتَب فِي هذِه الأوراقِ وفقَط.

ونقولُ: هَذا غَلَطٌ، فمِن تَمامِ المتابعةِ أنْ تُشرَح السُّنة وتُبيَّن للنَّاس، وكُتُب الفُقَهاء مَا هيَ إلَّا للسُّنَّة، وإنْ كانَ بَعْض الفُقَهاء -عفَا اللهُ عنَّا وعَنْهم- يَتعصَّبُون لمذاهِبهم، لكنِ الأصلُ أنَّ هذِه الكُتُب -أعنِي كُتُبَ الفِقهِ- شَرْحٌ للسُّنة النَّبويَّة، فهِي لَا تَعْدو السُّنَّة، لكنَّ بعضَ النَّاس يُشدِّد فِي التَّقْليد تَشْديدًا عظيمًا، ونحنُ معَه فِيما إذَا أرادَ أن يُقدِّم قَوْلَ مُقلَّده علَى قولِ الله ورَسولِه، أمَّا إذَا كانَ مُوافِقًا لقَوْل الله ورَسوله فهَذا لَا ضررَ عَلينا فِيه؛ ومِن ذَلِك قَول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ فإذَا كانَ لَا يَستطيعُ أنْ يَعْلم الحقَّ بنَفْسه فَلْيَسأل أهلَ العلمِ، وإذَا سألَهُم فالمقصُودُ مِن سُؤالـهم: أنْ يَتبع قولَـهم، وإلَّا فلَا فائِدَةَ مِن السُّؤال؛ ولـهَذا نَقُولُ: «الجاهِلُ فَرْضُهُ التَّقْلِيدُ ولَا بُدَّ»، ولـهَذا قالَ شيخُنا عبدُالرَّحمن بنُ سعْدِي رَحِمَهُٱللَّهُ: مَذهبُ العوَام مَذهب عُلمائهم، فإذَا كانُوا فِي بَلَد فيَجِب أنْ يَتْبعُوا عُلماءَهم

وإلَّا لأَصْبح الأمرُ فَوْضَى.

وزادَ بعضُ النَّاس أيضًا: «توحِيد الحاكمِيَّة» وهَذا غَلَطٌ، فهُو خُرُوجٌ عمَّا كانَ عَلَيه العُلماء السَّابِقُون مِن وَجْهٍ؛ وجَهْلٌ بالمَعانِي مِن وجهٍ آخَرَ؛ أمَّا مِن جِهَةِ الحُكم وتَقْريره وتَنْظيم الخَلْق عَلَيه فهَذا يَتعلَّق بتَوْحيد الرُّبوبية؛ لأنَّ الحُكم لله عَزَّوَجَلَّ، وأمَّا مِن جِهة العمَل بِه فيَتعلَّق بتَوحيدِ العِبادة والأُلُوهيَّة.

وحِينئذٍ لَا حاجةَ إِلَى جَعْله قِسمًا رابعًا مادامَ داخلًا فِي الأقسامِ الثَّلاثة؛ إمَّا فِي تَوْحيد الرُّبوبية باعتِبارِ أنَّه حُكْمٌ حَكَم اللهُ بِه، وهَذا مِن تَمامِ رُبوبيَّته؛ وإمَّا بتَوْحيد الأُلُوهيَّة باعتِبار أنَّه يَجِب العمَل بِه.

لَكِن يَبْدو -واللهُ أَعْلم- أنَّ الذِي وضَعَه وضَعَه مِن أَجْل القِيامِ عَلَى الحُكَّام فيَقولُ: أَنتُم أيُّها الحُكَّام مَا وَحَّدتُم اللهَ! بَل أنتُم مشركون! حتَّى يُهيِّئ الأمرَ للخُروجِ عَليهِم -واللهُ أَعْلم بالنِّيَّاتِ- وهَذا واضحٌ مِن تَصرُّفاتِ بَعضِهم؛ وإلَّا فـ«الحاكمِيَّةُ» لَا حاجةَ لـها لأنَّ الحاكمِيَّة لَا تخرجُ عَن تَوحيد الرُّبوبيَّة وتَوحيد الأُلُوهيَّة.

وهُناكَ مَن أَضافَ قِسمًا آخَرَ إِلَى التَّوْحيد وهُو «المُوالَاةُ والبَرَاءُ مِنَ الشِّرْك، وهَذا غَلَطٌ، فالمُوالَاةُ والبَرَاء لَيْست مِنَ التَّوْحيد، ولكنَّها داخِلةٌ فِي تَوْحيد الرُّبُوبيَّة والأُلُوهيَّة، فإِيجادُ الوَلاءِ مِنَ المُؤمِنينَ والبَرَاءِ مِنَ المُشركِين هَذا تَبَعٌ للرُّبُوبية، والبَرَاء والوَلَاء تَبَعُ الأُلُوهيَّة، لكِن كَما قُلتُ: بعضَ النَّاس يُريد أنْ يُركِّزَ علَى شَيْءٍ مُعيَّن فيُدْخِله وهُو داخلٌ فِي العُمُوم.

فإِنْ قالَ قائِل: هُناك مَنْ قَسَّم التَّوحيدَ بأَنَّه «عِلْمي خَبَري» و«اعتِقادِي عَمَلي»؟

فالجوابُ: لَا بأسَ، فهَذا تَقسيمٌ مِن جِهةٍ أُخرَى، فمَثلًا تَوحيدُ الأُلُوهيَّة عَمَلٌ، وتَوحيدُ الرُّبوبيَّة عِلْمٌ، وتَوحيدُ الأَسْماءِ والصِّفاتِ عِلْمٌ.

مَسْألةٌ: هَل يُذكر عِند العَوَامِّ أَقْسام التَّوْحيد؟

الجوابُ: لَا، عِنْد العَوَامِّ لَا يُقسَّم هذِه الأَشْياء، بَلْ يُقال لهم: اللهُ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ولَا إِلَه إِلَّا هُوَ، ومَا أشبَه ذَلِكَ مِن الأَشْياء المُجْمَلة، لأَنَّه كَما قالَ عبدُ الله بنُ مسعودٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «إِنَّك لم تُحدِّثْ قَومًا حديثًا لَا تَبْلُغُه عُقُولُهم إِلَّا كانَ لبَعْضِهم فِتنةً»(١)؛ وقال عليٌّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «حَدِّثُوا النَّاسَ بِما يَعرِفُون، أَتُريدونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللهُ ورَسُولُهُ؟!»(٢).

أما تَوْحيد الرُّبوبيَّة: فلَم يُنكره أحدٌ مِنَ النَّاس، فكلُّ مَن أقرَّ بأَنَّ هذِه الخَلِيقةَ لهَا خالِقٌ فإِنَّه لم يُنكِرْه؛ إِلَّا مُكابَرةً، والمُكابَرةُ لَيْس فِيها فائِدَةٌ.

فمَثلًا: فِرعونُ أَنْكر أنْ يكونَ هُناكَ ربٌّ، وقال لقَوْمِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص:٣٨] ولكنَّ هَذا الإِنكارَ إِنكارٌ باللِّسانِ، فهُو جَحْد مَع التَّيقُّن فِي القَلْب بأَنَّ الأَمْر خِلافُ ذَلِك، ودليلُ هَذا قولُ الله تَعالَى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل:١٤]. يَعني: جَحَدوا بِها ظُلْمًا وعُلُوًّا، مَع أَنَّ أنفُسَهم مُسْتَيْقِنَةٌ بِها.

وقال موسَى عَلَيْهِٱلسَّلَامُ -وهُو يُناظِر فِرعونَ-: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء:١٠٢]. يَقُوله لفِرعونَ، ولم يُنكِرْ فِرعونُ هذا.

فدلَّ ذلِك علَى أَنَّه لَا أحدَ يُنكر رُبوبيَّة الله عَزَّوَجَلَّ ممَّن يَعتقِد أَنَّ لهِذه الخَلِيقة خالِقًا، وأمَّا مَن أَنْكره بالكُلِّيَّة فهَذا شَيْءٌ مُخالِفُ الفِطرةِ، وهؤلاءِ المُنكِرونَ لَا يُعتبَرونَ مِن ذَوِي الفُهُوم إِطْلاقًا!.

---

(١) أخرجه مسلم: في المقدمة، باب النهي عن الحديث بكل ما سمع، (ص:١١).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب العلم، باب من خص بالعلم قوما دون قوم، كراهية أن لا يفهموا، رقم (١٢٧).

وأمَّا تَوْحيد الأُلُوهيَّة: فقَد أَنْكره أُناسٌ أذكياء، عندَهم عَقل إدراكيٌّ لَا عقلٌ إرشاديٌّ، مِثل المُشركين -كفَّار قريش-، أَنكروا تَوحيد الأُلُوهيَّة -مَع إقرارِهم بتَوحيد الرُّبوبيَّة إقرارًا كاملًا-، وجَعَلوا مَع الله تَعالَى إلهًا آخرَ.

والذِي بُعِثت مِن أَجلِه الرُّسل، وأُنزلت مِن أَجْله الكُتُب هُو هَذا التَّوحيد، قَالَ الله تَعالَى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء:٢٥].

وأمَّا تَوْحيد الأَسْماء والصِّفَات: فقد أقرَّ بِه المسلمُون كلُّهم، لَكِن أنكرَه بعضُ طَوائِف مِن المُسلمين -يعني: ممَّن يُقِرُّون بتوحيد الأُلُوهيَّة وتوحيد الرُّبوبيَّة-، فأَنْكروا شيئًا مِن تَوْحيد الأَسْماء والصِّفَات، فمِنْهم مَنْ عطَّل، ومِنْهم مَنْ مَثَّل.

ولهذا انقَسَم النَّاسُ فِي بابِ الأَسْماء والصِّفَات إلَى ثلاثةِ أقسامٍ: الأول: مُمَثِّلة، والثَّاني: مُعَطِّلة، والثَّالث: أَهْل حَدِيثٍ وسُنَّة، مُثبتون علَى وَجْه لائِق بالله.

فمِن ثَمَّ اضطرَّ العُلَماء إلَى أنْ يُقسِّمُوا التَّوحيد إلَى هذِه الأقسامِ؛ لِيُبيِّنُوا للنَّاس مَن خالَف فِي هَذا التَّوْحيد ومَن وافَق.

وعلى هذا: فالأُمَّة الإِسْلاميَّة، بأَهْل سُنَّتِها، وأَهْل بِدَعِها؛ كُلُّها أُمَّةٌ مُسْلِمةٌ مَا لم تَصِل البِدَعُ إلَى حَدِّ التَّكْفِير.

وهؤلاءِ يُقرُّون بتَوحيد الرُّبوبيَّة وبتَوحيد الأُلُوهيَّة، لَكِن خاضُوا فِي الأَسْماء والصِّفَات خَوْضًا عَظِيمًا، وافترقوا فِيه فِرَقًا عَظِيمة، فلذلك اضطر العُلماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ إلَى أن يكتبوا فِي باب الأَسْماء والصِّفَات، وبَيَّنُوا للناس الحقَّ فِيها، مَا بَين مُختصَر، ومُتوسِّط، ومُطوَّل، حتَّى يَستقرَّ الحقُّ فِي قُلُوب المؤمنِين، ومِنْ ذلِك هذِه الرِّسالة، يقول مؤلفها:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَـالمِينَ[١]، وَالعَـاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ[٢]، وَلَا عُـدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ[٣]،.......................................

[١] قولُه: «**الحَمْدُ لله رَبِّ العَالمِين**» أَثنَى الله بِها علَى نفسِه فِي قَوْله تعالَى -في سُورة الفاتِحَة-: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة:٢].

[٢] وقَوْله: «**والعاقِبةُ للمُتَّقِين**» كَذلِك أخبرَ اللهُ بِها فِي كِتابه، فقالَ تعالَى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود:٤٩]، وهِي مُؤَكَّدة بـ(إن)، وهَذا يَعْني أَنَّ الإِنْسانَ يَجِب علَيه أَنْ يَنتظِرَ الفَرَج، وأَنْ يَصْبِرَ مَا دامَ مُتَّقِيًا لله عَزَّوَجَلَّ، فالعاقبةُ ستكُونُ له.

وإذا قُلنا: «ستكُون العاقبةُ له»، فلَيس المعنَى أَنَّه يَجِبُ أن يُدرِك هذِه العاقبةَ فِي حياتِه؛ ليسَ هَذا شرطًا أبدًا، فقد تكُون العاقبةُ لَهُ فِيمَا يدعُو إِلَيْه مِن الحَقِّ ولَو بعدَ مماتِه، ولهَذا نَجِد بعضَ الدُّعاة ماتَ بالتَّعذيب، ولم يَذُقْ حلاوةَ العاقبةِ التِي أَخْبَرَ الله بِهَا، لَكِن كانَ قولُه مِن بعده مَوْرُوثًا عنه، فيَكُون قَد ذاقَ طَعْمَ العاقبةِ التِي للمُتَّقِين.

[٣] وقولُه: «**ولا عُدوانَ إِلَّا علَى الظَّالمِين**» العُدوان هنا عُدوانُ مُكافأةٍ ولَيْس ابتِدَاء؛ لأَنَّ العدوانَ الابتدائيَّ ظُلمٌ، والظالم لَا يُفلِح، لَكِن العدوانُ الذِي هُو رَدْعٌ للظُّلم يكونُ علَى الظَّالمين، كمَا قَالَ الله تَعالَى: ﴿فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة:١٩٣]؛ فكُلُّ ظالمٍ نَعْتدِي عَلَيه بمِثْل ظُلْمه، واعتداؤُنا علَيه ليسَ مِن بابِ الظُّلْم، بَل هُو مِن

وأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، المَلِكُ[١]،......................

بابِ إزالةِ الظُّلم؛ فإنَّنا إذَا أدَّبْنا الظَّالم وعزَّزْنا الظَّالم فإنَّنا لم نَعْتدِ عَلَيه، بَلْ نحنُ قوَّمناه وأحسنَّا إِلَيْه؛ لقولِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عَلَيه وعلَى آلِهِ وسلَّم: «انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا» قالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ! كيفَ نَنصرُه وهُو ظالمٌ؟ قالَ: «تَمْنَعُهُ مِنَ الظُّلْمِ فَذَلِكَ نَصْرُهُ»(١).

[١] قَوْله: «المَلِكُ» أَي: ذُو المُلك التَّام والسَّيطرة التامَّة والسُّلطان القَيِّم، ولَا مُلك لأحدٍ إلَّا للهِ عَزَّوَجَلَّ ولَا سِيَّما فِي يومِ القِيامَة فإنَّ اللهَ تَعالَى يَقولُ: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ والجوابُ؟ ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ وقالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ ففِي ذلِك اليَوم تَظهرُ الملْكيَّة تمامًا؛ وفِي الدُّنيا قَدْ يَتوهَّم الإنسانُ أنَّه لَا مَلِك إلَّا مَنْ أمامَه مِنَ المُلُوك وقَد يَنْسى المَلِكَ الأوَّلَ عَزَّوَجَلَّ، أمَّا فِي الآخِرَةِ فلَا.

فهُو جَلَّوَعَلَا مَلِكٌ، وهُو مالِكٌ، ولهَذا جاءَت قِراءتانِ فِي سورة الفاتحة: (مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ) وَ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ والقراءتانِ سَبْعِيَّتانِ صَحيحَتانِ، وإِذَا ضَمَمْتَ إحداهُما إِلَى الأُخرى صار المعنى: أنَّه مَلِكٌ مَالِكٌ.

وأيُّهما أبلغُ فِي الوَصْف؟

الجَوَاب: إنْ قلتَ: «مَلِك» أخطأتَ، وإن قلت: «مالِك» أخطأتَ؛ لأنَّ «المالِك» مُلكه محدودٌ، فأنا أَمْلِك مالِي وأَمْلِك التَّصرف فِيه، لَكِن لَيْس لِي سلطانُ المَلِك، فالمَلِك سُلْطته عامَّة، ووَصْفُه: المُلك والسُّلطان.

(١) أخرجه البخاري: كتاب المظالم، باب أعن أخاك ظالمًا أو مظلومًا، رقم (٢٤٤٤)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بلفظ: «**تأخذ فوق يديه**»، وأخرجه الترمذي: كتاب الفتن، رقم (٢٢٥٥)، بلفظ: «**تكفه عن الظلم فذاك نصرك إياه**».

الحَقُّ[١]، المُبِينُ[٢]،...

لَكِن قَد يَكُون هُناكَ «مَلِك بِلَا مُلك»، أَي أَنَّه: مَلِك ولَكِن لَيْس بِمالِك، فيوجد بَعْض الملوكِ يكونُ قاصرًا ضعيفًا ويُدبِّر المملكةَ سِواهُ، فهَذا مَلِكٌ لَيْس بمالِكٍ.

وهُناكَ «مالِك ولَيْس بمَلِك»، وهَذا كثيرٌ؛ واللهُ عَزَّوَجَلَّ «مَلِكٌ مَالِكٌ»، ولهَذا جاءَت القراءتان فِي قَوْله تعالَى: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾.

فمن أَسْماء الله تعالَى «المَلِك»، يَعْني: ذُو السُّلْطة العالِيَة العُلْيَا، التِي لَيْس فَوْقها سُلْطة، ولَيْس مِثْلها سُلطة.

[١] قَوْله: «الحَقُّ» ضِدُّ الباطل، وهُو ضِدُّ اللَّعِب وضِدُّ اللَّهْو؛ فكُلُّه عَزَّوَجَلَّ حَقٌّ، و«الحَقُّ» هُو الثابِت الجَدِير بالأَمْر، واللهُ تعالَى أُلُوهيَّته ورُبُوبيَّته حقٌّ، وهُو جَدِيرٌ بذَلِك جَلَّوَعَلَا، وضِدُّه الباطلُ، ودليلُ هَذا قَوْله تعالَى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ﴾ [الحج:٦٢]. وفِي الآية الأخرى: ﴿وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلۡبَٰطِلُ﴾ [لقمان:٣٠].

و«الحَقُّ» اسمٌ مِن أَسْماء الله عَزَّوَجَلَّ، لَكِنه لَا يَنبغي أنْ يَكونَ كَما نَسمع الآن كثيرًا فِي المتأخرين: «قَالَ الحَقُّ» بَدلًا مِن «قَالَ الله»؛ فإنَّ «الله» أَشْرف الأسماءِ؛ فيقول: «قَالَ الله»؛ ولأَنَّه جاءَ فِي القُرآن كَثِيرًا ﴿قَالَ ٱللَّهُ﴾ أمَّا أنْ يقال: «قَالَ الحَقُّ» فإنَّه لَا يُعطي الهَيْبة التِي تُعْطيها «قَالَ الله».

[٢] قَوْله: «المُبِينُ» هنا لـهَا معنيان: «البيِّن»، و«الذِي أبَانَ»، وكلاهُما صحيحٌ، فاللهُ تعالَى حقٌّ بيِّن لَا يَخْفَى علَى أحدٍ.

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا[١] عَبْدُهُ[٢] ....

وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ ... تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ واحِدُ(١)

***

وَكَيْفَ يَصِحُّ فِي الأَذْهَانِ شَيْءٌ ... إِذَا احْتَاجَ النَّهَارُ إِلَى دَلِيلِ(٢)

وهو أيضًا مُبين للحقِّ، كما قَالَ الله تعالَى فِي آياتٍ متعدِّدةٍ ﴿قَدْ بَيَّنَّا ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة:١١٨]، ﴿وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام:١٠٥]، ومَا أشبه ذلِك من الآياتِ؛ وإنَّما قُلنا: إنَّ مُبين بمَعْنى بَيِّن لأنَّ أبانَ تأتي بمَعْنى: بانَ، ومِنه قَوْله: أبانَ الصُّبح، بمَعْنى: بانَ الصُّبح وظَهَر، فلهَذا جعَلنا المُبين تحتمل مَعنيَيْن: الأوَّل: «البيِّن»، والثَّاني: «المبيِّن».

[١] هُو محمَّدُ بنُ عبدِ الله بنِ عبدِ المُطَّلِبِ بنِ هاشِمٍ القُرَشِيُّ، آخِرُ الأنبياءِ، وخاتمُهم، وأفضلُهم، وأشرفُهم، صلَّى اللهُ عَلَيه وعلَى آلِهِ وسلَّم.

[٢] أَي: عبدُ الله، وعُبُودية النَّبي ﷺ لربِّه أكملُ العُبُودية وأعظمُها، ولهَذا كانَ يَقومُ حتَّى تتورّم قَدَماه، فيقال لَهُ فِي ذَلِك: كيفَ وقد غَفر اللهُ لكَ مَا تَقدَّم مِن ذَنبِك ومَا تأخَّر؟ فيَقُول: «أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا»(٣).

(١) من شعر أبي العتاهية، إسماعيل بن القاسم بن سويد. انظر: ديوانه (ص:١٢٢)، ومعاهد التنصيص (٢/ ٢٨٦).

(٢) البيت للمتنبي، انظر: ديوانه (ص:٣٤٣).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الجمعة، باب قيام النبي ﷺ الليل، رقم (١١٣٠)، ومسلم: كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة، رقم (٢٨١٩)، من حديث المغيرة ابن شعبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَرَسُولُهُ[١]، خَاتَمُ النَّبِيِّينَ[٢]،..........................

[١] «ورسولُه» الذِي أَرسله، فهُو عَبد لَا يُعْبَد، ورَسولٌ لَا يُكَذَّب.

[٢] قَوْله: «خاتَمُ النَّبِيِّين» خاتمُهم أَي: آخرُهم، فبِهِ خُتموا عَلَيهم الصَّلاة والسَّلام، كَما قالَ تعالَى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـنَ ﴾ [الأحزاب:٤٠].

ثُمَّ إنَّ الخَاتَم أَبْلغ مِنَ الخَاتِم؛ لأنَّ الخاتَم كالطابَع علَى الشَّيْء، والطابَع إنَّما يَكُون بعد التَّمام، وقَد مثَّل النَّبي ﷺ نفسَه مَع النَّبيين بقَوْله: «إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلَ الأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتًا فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ إِلَّا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ، فَجَعَلَ النَّاسَ يَطُوفُونَ بِهِ وَيَعْجَبُونَ لَهُ، وَيَقُولُونَ: هَلَّا وُضِعَتْ هَذِه اللَّبِنَةُ»، قالَ: «فَأَنَا اللَّبِنَةُ وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ»(١)؛ فهُو ﷺ خاتمُ النَّبيين ختَم الله بِه النُّبُوَّة، وهُو كالطابَع علَى نُبُوَّتِهم.

وعَلَيه؛ فمَنِ ادَّعى أَنَّ أحدًا مِنَ النَّاس يكونُ نبيًّا بعدَه ﷺ فقَد كَفَر بالله عَزَّوَجَلَّ؛ لأَنَّه كذَّبَ القُرآن.

مَسْأَلة: من قَالَ: إن مَعْنى خاتم النَّبيين أَي: زِينَة النَّبِيِّين وإن هُناكَ نبيًّا بَعْد النَّبي ﷺ، فهَل يُعتبر كافرًا إذَا قَالَ ذلِك بتأويلٍ؟

الجَواب: نَعَمْ، يُعْتَبرُ كافرًا ولَوْ بتَأْويلٍ، لَكِن يُعلَّم أنَّ هَذا التَّأوِيلَ خطأٌ، وقد جاءَت السُّنة صريحَةً غايةَ الصَّراحةِ بأَنَّه لَا نبيَّ بعد مُحمَّدٍ ﷺ؛ فقَالَ: «خُتِمَ بِي

(١) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب خاتم النبيين ﷺ، رقم (٣٥٣٥)، ومسلم: كتاب الفضائل، باب ذكر كونه ﷺ خاتم النبيين، رقم (٢٢٨٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

وَإِمَامُ الْمُتَّقِينَ[١]، ....

النَّبِيُّونَ»(١)، وقال لعليِّ بنِ أبِي طالِبٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ حِين خَلَّفَهُ فِي غَزوةِ تَبُوك فِي أَهْله؛ قالَ: «أَنْت مِنِّي بمَنْزِلَةِ هارُونَ مِنْ مُوسَى، إِلَّا أَنَّه لَا نَبِيَّ بَعْدِي»(٢)، وهَذا أمرٌ معلومٌ بالضَّرورةِ مِنَ الدِّين، لَيْس فِيه إشكالٌ.

مسألةٌ أُخرَى: كيفَ نَجمعُ بَينَ قَوْله تعالَى: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـنَ﴾ [الأحزاب:٤٠] وبَين خُروج عِيسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فِي آخرِ الزَّمان؟

الجوابُ: عِيسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لَا يأتي بنُبُوة جديدةٍ، فهُو قَد بُعث قَبلَ محمَّدٍ ﷺ لكنَّه يَأتي بإِذْن الرَّسُول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وإِقْراره؛ لأنَّ الرَّسُولَ ﷺ أَخبرَ بأنَّ عِيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لَا يَقبل إِلَّا الإِسْلامَ، وأَنَّه يَضَعُ الجِزْية، ويَقْتل الخِنْزير، ويَكْسر الصَّلِيب(٣)؛ وكل هَذا مِن شَريعةِ الرَّسُول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

[١] قَوْله: «وإمامُ المُتَّقين» أَي: قُدْوتُهم وأُسْوتُهم، فكلُّ المُتَّقين هُو إمامُهم ﷺ مِن هذِه الأمة وغيرِها، والدَّلِيل علَى هَذا قولُ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟

(١) أخرجه مسلم: كتاب المساجد، رقم (٥٢٣)، من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب غزوة تبوك، رقم (٤٤١٦)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، باب من فضائل علي بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، رقم (٢٤٠٤)، من حديث سعد ابن أبي وقاص رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري: كتاب البيوع، باب قتل الخنزير، رقم (٢٢٢٢)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب نزول عيسى ابن مريم حاكمًا بشريعة نبينا محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، رقم (١٥٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ[١] وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ[٢] ....

وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران:٨١] فأَخَذ اللهُ العَهدَ والمِيثاقَ المُؤكَّد علَى الأَنْبِياء أَنَّه إِذَا أَتَاهم رَسُولٌ مُصدِّقٌ لِـمَا مَعَهم آمَنُوا بِه واتَّبَعُوه ونَصَرُوه.

ولهذا فِي المعراج لـمَّا أُسرِيَ بالنَّبِي ﷺ وجُمع لَهُ الرُّسل صارَ إمامَهم، وصلَّوْا وَرَاءَه(١)، فهُو إِذَن: إمامُ المُتَّقِين السَّابِقين واللَّاحِقِين.

و: «المُتَّقِين» هم الذِين اتَّقَوا اللهَ بِفعْل أَوَامِره واجتناب نَواهِيهِ.

[١] قَالَ أبو العَالِية رَحِمَهُ اللَّهُ: صَلاةُ الله علَى عَبْدِهِ أَنْ يَذْكُرَهُ فِي الملأِ الأَعْلَى بِالثَّناءِ والمَدْحِ(٢).

[٢] اعلَمْ أنَّ الـ(آل) تُذكر وحدَها وتُذكَر مَع غيرِها، فإِنْ ذُكرت وحدَها فهِي جَمِيع أَتْباعِه علَى دِينه، مِثْلَ قولِه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «قُولُوا: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعلَى آلِ مُحَمَّدٍ»(٣) أَي أَتْباعه علَى دِينه، مِن قَرابَتِه وغيرِهم، ومِنَ الصَّحابة وغيرِهم، وإِذَا ذُكِرت مَعَ الأصحابِ وَحْدَهم صارَ المُرادُ بالـ(آل) الأَتْباع علَى الدِّين، وبالأَصْحاب الصَّحَابة فقط، فيكونُ عَطْفهم علَى الـ(آل) مِن بابِ عَطْف الخاصِّ علَى العامِّ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب ذكر المسيح ابن مريم والمسيح الدجال، رقم (١٧٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) علقه البخاري: كتاب التفسير، تفسير سورة الأحزاب (٦/ ١٢٠)، ووصله ابن أبي حاتم في تفسيره، كما ذكره الحافظ في الفتح (٨/ ٥٣٣).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الدعوات، باب الصلاة على النبي ﷺ، رقم (٦٣٥٧)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب الصلاة على النبي ﷺ بعد التشهد، رقم (٤٠٦)، من حديث كعب بن عجرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

بِإِحْسَانٍ[١] إِلَى يَوْمِ الدِّينِ[٢].

وإنْ ذُكِر الثَّلاثة «الآلُ، والأصحابُ، والأَتْباعُ»، صارَ «الآلُ» المؤمنِين مِن قَرابَتِه، والأصحابُ هُم الصَّحابةَ، ومَن تَبِعهم بإحسانٍ بَقِيَّةَ الأُمَّةِ.

وَلا يُورَدُ عَلَيْنا قولُ الشَّاعِرِ(١):

آلُ النَّبِـــيِّ هُـــمُ أَتْبـــاعُ مِلَّتِـــه مِنَ الأَعــاجِمِ والسُّــودَانِ والعَـرَبِ
لَــو لَــم يَكُــنْ آلُــه إلَّا قَرابَتَــهُ صَلَّى المُصَلِّي علَى الطَّاغِي أَبِي لَــهَبِ

فالشَّاعرُ يُريد أنْ يُبيِّن أنَّ الآلَ هُمُ الأَتْباع عَلَى كلِّ حالٍ، لَكِن نَقُول: هَذا البيتَ غلَط، ونحنُ لَا نَقُول: إنَّ آلَ الرَّسُولِ هم قَرابَتُه فقَط؛ بَل نَقُولُ: آلُ الرَّسُولِ هم قرابَتُه المُؤمِنون بِه، وعلَى هَذا فأَبُو طالِبٍ لَيْس مِن آلِ الرَّسُولِ، فلَا يَدْخل فِي الصَّلاة علَيهِم وإِنْ كانَ مِن آلِ الرَّسُول نسبًا، لَكِنَّه لَيْس مِنْ آلِ الرَّسُولِ بالنِّسبة للدُّعاء لَهُ، وكَذلِك أبو لهَبٍ عَمُّ الرَّسُولِ ﷺ لَيْسَ مِن آلِ الرَّسُولِ.

[١] كلمةُ «بإحسانٍ» لا بُدَّ مِنها؛ لأنَّ بَعْضَ النَّاس يدَّعي أنَّه مُتَّبع لهُمْ ولكِنْ بغَيْر إِحْسان، فانْتَبه لهَذا القَيْد الذِي نَسمع كثيرًا مِنَ النَّاس لَا يَذْكُرونَه، فيقولون: «عَلَى محُمدٍ وعَلَى آلِهِ والتَّابعين» وهذَا لَا بأسَ بِه لأنَّ المعروفَ أنَّ المُرادَ «التابِعين بإِحسانٍ» لكنْ لَا بُدَّ أنْ تُقيِّدَهُ؛ كَما قيَّده اللهُ تعالَى فِي قولِه: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾ [التوبة:١٠٠].

[٢] قولُه: «إلَى يومِ الدِّين» متعلِّق بقَوْله: «تَبِعَهُم» يَعْني: ومَن تَبِعهم إلَى يَوْم القِيامة.

---

(١) هو الحسن بن علي الهبل، انظر: ديوانه (ص:٥٢٣).

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى أَرْسَلَ رَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ بِالْهُدَى[١] وَدِينِ الحَقِّ[٢]، رَحْمَةً لِلْعَالَـمِينَ[٣]، وَقُدْوَةً لِلْعَامِلِينَ[٤]، وَحُجَّةً عَلَى العِبَادِ أَجْمَعِينَ[٥]،...........

---

[١] قَوْله: «الهُدَى»: العِلْم النَّافِع.

[٢] قولُه: «ودِين الحَقِّ»: هُو العمَل الصَّالِح

فشَرِيعةُ النَّبِي صلَّى الله علَيه وعلَى آلِه وسلَّم دائرةٌ بَين العِلم والعمَل؛ فالعِلْم بالهُدَى والعمَل الصالحُ بدِينِ الحقِّ.

[٣] قولُه: «رحمةً للعالمين» ودليل ذَلِك قَوْله تعالَى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ۝١٠٧﴾ [الأنبياء:١٠٧].

وقولُه: «رَحمةً» مفعولٌ لأَجْله، عامِلُها قولُه: «أَرسل» يَعْني: أنَّ اللهَ أَرْسله ليَرْحَم بِه العالمين؛ وهَذا هُو الواقعُ، فإنَّ الرَّسُول ﷺ أُرسل فاتَّبعه عالَـمٌ مِنَ الخَلْقِ، فرَحِمَهُمُ اللهُ بِه.

[٤] قولُه: «وقُدوةً للعامِلِين» قُدْوة بمَعْنى أُسْوة؛ فهُو ﷺ قُدْوتنا، وإمامُنا، وأُسوتُنا.

[٥] قَوْله: «وحُجَّةً علَى العِبَاد أَجْمَعين» هكَذا جاءت فِي عِبارةِ كثيرٍ مِنَ العُلَماء: «حُجَّة علَى العِباد أَجْمَعِين»، وهَذا يَقتضِي أنْ يَكونَ الرَّسُول ﷺ مُرسَلًا حتَّى إلَى الجِنِّ، وحتَّى إلَى الملائِكَة، وحتَّى إلَى جَمِيع الخَلْق؛ ولكنْ إرسالُه إلَى الجِنِّ أَمْرٌ مَعلومٌ، وأمَّا إرسالُه إلَى المِلائكة فِفيه نَظَرٌ؛ ولهَذا لَو قِيل بدلَ هذِه العِبارة: «وحُجة علَى مَن أُرْسِل إلَيْهم أَجْمَعِين» لسَلِمْنا مِنْ هَذا الإشكال، وهُو أنَّه هَل هُو مُرْسَل للمَلائكة أم لَا؟ لأنَّنا لَيْس عِندَنا عِلْمٌ أنَّه أُرسل إلَى الملائِكَة، والملائِكَة لَاشَكَّ أنَّهم

بَيَّنَ بِهِ وَبِمَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ[١]،........................

مِن عِبادِ الله؛ إِذَنْ: فالأَسْلم فِي العِبارَة أَنْ نَقولَ: «وَحُجَّةً علَى مَنْ أُرْسِل إِلَيْهم أَجْمَعِين»؛ حتَّى نَخرج مِن هذَا الإِشكالِ.

مسألةٌ: الصَّحيحُ أَنَّ الجِنَّ ليسَ فِيهم رَسُولٌ؛ لأَنَّ اللهَ تَعالَى يقولُ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ [الحديد:٢٦]، فقال: ﴿فِى ذُرِّيَّتِهِمَا﴾ والجِنُّ لَيْس فِي ذُرِّيَّتِهم نُوحٌ أَوْ إِبراهِيم، وأَيْضًا نَقُول: يقولُ اللهُ تَعالَى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ [يوسف:١٠٩].

فيَبْقَى الإِشكالُ فِي قَوْلِه تعالَى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ [الأنعام:١٣٠] أجابَ العُلماءُ عَن ذلِك بأَنَّ قَوْله: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ هَذا خِطابٌ للمَجْموعِ لَا للجَمِيع؛ وإجابَةٌ أُخرَى: أَنَّ المُرادَ بالرُّسُل هُمُ النُّذُر، كَما قالَ تَعالَى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ [الأحقاف:٢٩].

وهذَا القولُ هُو الحقُّ: أَنَّ الجِنَّ لَيْسَ مِنْهُم رُسُلٌ ولَيْسُوا أَهْلًا لِأَنْ يَكُونَ مِنْهم رَسُول، لكِنَّ مِنهم الصالِحين ومِنْهم دُون ذَلِك، ومِنْهم المسلمُون ومِنهم القاسِطُون، وكَفَاهُم فَخْرًا أن يَكُونُوا مِن ذُرِّيَّة أَخبَثِ الخَلْق -فِيما نَعْلم- عِنْد الله عَزَّوَجَلَّ ثُمَّ يَكونَ مِنْهم الصالحُ ويَكونَ مِنهمُ المُسلمُ.

[١] قولُه: «بَيَّن بِه وبِما أَنْزل علَيْه» الذِي بيَّنَ هُو الله عَزَّوَجَلَّ، وهَذا مِن لازِمِ كونِهِ تعالَى مُبيِّنًا، أَنَّه بَيَّنَ بالرَّسُول ﷺ، وبِما أَنْزَلَ عَلَيْهِ.

مِنَ الكِتَابِ[١] وَالحِكْمَةِ[٢]، كُلَّ مَا فِيهِ صَلَاحُ العِبَادِ، وَاسْتِقَامَةُ أَحْوَالِهِمْ فِي دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ[٣]، ....

[١] قولُه: «مِن الكتابِ» هُو القُرآن.

[٢] قولُه: «والحِكمة» هِي السُّنَّة.

[٣] قولُه: «كُلَّ مَا فِيه صلاحُ العِبادِ، واستقامةُ أحوالِهِمْ فِي دِينهم ودُنياهُم...» إلخ، وهَذا أمرٌ يَعْلمه مَنْ تَتبَّع رسالةَ النَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: أنَّ جَمِيعَ مَا يَحتاجُ النَّاسُ إِلَيْه فِي صَلاحِ دِينهم ودُنياهم قَد بَيَّنه الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

قَالَ أبو ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَقَدْ تُوُفِّيَ رَسُولُ الله ﷺ ومَا طَائِرٌ يُقَلِّبُ جَنَاحَيْهِ فِي السَّماءِ إِلَّا ذَكَرَ لَنَا مِنْهُ عِلْمًا»(١)؛ فقوله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ومَا طَائِرٌ يُقَلِّبُ جَنَاحَيْهِ فِي السَّماءِ» مَعْناه أنَّه بيَّن كُلَّ شَيْءٍ.

وقال رجلٌ من المشركين لسَلْمانَ الفارسيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «قَدْ عَلَّمَكُمْ نَبِيُّكُمْ كُلَّ شَيْءٍ حتَّى الخِرَاءَةَ! قالَ: نَعَمْ، كُلَّ شَيْءٍ عَلَّمَنَا، لَقَدْ نَهَانَا أَنْ نَسْتَقْبِلَ القِبْلَةَ بِغَائِطٍ أَوْ بَوْلٍ أَوْ أَنْ نَسْتَنْجِيَ بِاليَمِينِ، أَوْ أَنْ نَسْتَنْجِيَ بِأَقَلَّ مِنْ ثَلَاثَةِ أَحْجَارٍ، أَوْ أَنْ نَسْتَنْجِيَ بِرَجِيعٍ أَوْ بِعَظْمٍ»(٢)، وعلَّمنا الرَّسُول ﷺ كَيفَ نَلبس، وكَيف نَخلع، وكَيف نَقوم، وكَيف نَقْعُد، وكَيف نَنام، فَما بَقِيَ شَيْءٌ نَحتاجُ إِلَيْه إِلَّا بيَّنه لنَا.

ثمَّ إنَّه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إذَا ذكر شيئًا وتبيَّن لَهُ أنَّ المصلحةَ فِي خِلافِه رجَع، فلمَّا قَـدِم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ المدينةَ وجدَ النَّاس يُلقحُون النَّخل، وذلِك بأن يَصْعَد الإِنْسان

(١) أخرجه الإمام أحمد (٥/ ١٥٣).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الطهارة، باب الاستطابة، رقم (٢٦٢)، من حديث سلمان الفارسي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

إِلَى الفَحْل -وهُو ذَكَر النَّخل-، فيأتي مِنه بشماريخ، يَضَعُها فِي شماريخِ النَّخلة، ثمَّ تلقح وتكون تمرًا جيدًا، فلما قدِم النَّبِي ﷺ المدينة ووَجد أنَّهم يتكلَّفون بالصُّعود والنزول مرَّتين، مرَّة فِي الفَحل ومرة فِي الأُنثى، قالَ: «لَو أَنَّكُم تَركْتُمْ هَذَا»؛ وقَصْده بهذا الإرفاقُ والتَّسهيلُ عَلَيهم، فظنُّوا أن هَذا وحيٌ مِنَ الله، فتركوه، فلمَّا تركُوه صارَ الثَّمَرُ شِيصًا، يَعْنِي: فَسَد، فلمَّا حصَل هَذا قَالَ النَّبِي ﷺ: «أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأُمُورِ دُنْيَاكُمْ»[1].

وأَذِنَ لهُم أنْ يُؤبِّروا، فرَجَع عمَّا قَالَ أولًا؛ لأنَّه إنَّما يُبيِّن للنَّاس مَا يَحتاجون إِلَيْه ويَنْفَعهم، فكُلُّ مَا يحتاج النَّاسُ إِلَيْه فإنَّه أَخبرَهُم بِه، وقَدْ قالَ تعالَى فِي كتابه: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النحل:٨٩]؛ فكُلُّ شَيْءٍ مُبيَّنٌ فِي القُرآن.

وقَرأتُ قديمًا ترجمةً للشَّيخ مُحمَّد عَبْدُه، المِصريِّ المَشْهور، أنَّه كانَ فِي بارِيس، وكانَ فِي مَطْعم -والمَطْعمُ يَضُمُّ المسلمين، والنَّصارى، واليَهُود، وكُلُّ أحدٍ؛ لأنَّها بلَد كُفْر-، فجاءَه رجُلٌ مِنَ النَّصارَى وقال له: أيُّها الشَّيْخ، إنَّ كتابَكُم فِيه هذِه الآيَة: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النحل:٨٩]. فإنْ كُنتَ مؤمنًا بذلِك فأَخْبرني كَيف يُصنع هَذا الطَّعام؟ وهَل هَذا موجود فِي القُرْآن؟ قالَ: نَعَم، هَذا موجود فِي القُرْآن -فهذا النَّصرانيُّ يُريد أن يكونَ القرآنُ كتابَ مَطْبخ! يُعلِّم النَّاسَ كيفَ يَطْبُخون!- قَالَ: أَيْنَ هُو؟ فنادَى صاحبَ المَطْعم، وقال لَه: كيفَ صَنَعت هَذا الطعام؟ قالَ: صَنَعت فِيه كَذَا وكَذَا، وذكَر تَحضير الطَّعام، فقالَ: هكَذا هُو فِي القُرْآن!

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الفضائل، باب وجوب امتثال ما قاله شرعًا، رقم (٢٣٦٣)، من حديث عائشة وأنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

فتعَجَّب النصرانيُّ وقال: أَينَ؟ فقَالَ: إنَّ اللهَ تعالَى يَقُول: ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [النحل:٤٣]. وهذِه قاعدة فِي كُلِّ شَيءٍ، فليسَ خاصًّا بالعِلم الشَّرعي، بَل كُلُّ شَيْء لَا نَعْلمه نَسأل أهلَه المُخْتَصِّينَ بِه، وهَذا توجيهٌ، فوَجَّهَنا القرآنُ أنَّنا إذَا لم نَعلم الشَّيْء أنْ نَسأل أهلَ الاختصاصِ بِه، فسَأَلْنا هَذا الرجُلَ فأَخْبَرَنا! فبُهِتَ الذِي كَفَر، فما يَستطِيعُ أنْ يَقُولَ شيئًا.

إِذَنِ: نبيُّنا ﷺ علَّم النَّاس كُلَّ شَيْءٍ، وهَل عَلَّمهم مَا يَعتقِدُونَه فِي الله عَزَّوَجَلَّ فِي أَسْمَائِه، وصِفاتِه، وأَفْعالِه؟

الجَواب: نَعَم، لَا شَك، وهَذا أَوْلَى مَا عَلَّمهم، وأَوْجَبُ مَا عَلَّمَهم، فكَيف يُعلِّمُهم أنْ يَجلسَ الرجُل علَى الخِراءَةِ علَى وَجْهٍ مُعيَّنٍ، ثُمَّ لَا يُعلِّمُهم مَا هِي صِفاتُ الله عَزَّوَجَلَّ؟!

ولهَذا قَالَ شَيْخ الإِسْلام رَحِمَهُ اللَّهُ فِي قَوْل أهلِ التَّفويضِ -القائِلين: إذَا جاءَتك آيةٌ أَو حديثٌ فِي صفاتِ الله ففَوِّضْه، ولَا تَتكلَّمْ فِيه أبدًا، وكُن معَه كالأُمِّي!- يَقُول رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنَّ قَولَ هؤلاءِ مِن شَرِّ أَقوالِ أهلِ البِدَعِ والإِلْحَاد»(١).

بَل قَالَ: «إنَّ الفَلاسِفة لم يَتسلَّطُوا علَى المُسلِمين إلَّا بمِثلِ هَذا القَولِ»(٢)، لـمَّا قَالَ هؤلاءِ: نَحنُ أُميُّونَ بالنِّسبةِ لمعانِي آياتِ الصِّفاتِ وأَحاديثِها، قالُوا: أَنتُم أُميُّون، ومعنى الأُمِّي أَي جاهِل، وقالوا: نحنُ أَعْلمُ مِنكُم، إِذَن: سنُفسِّر الآياتِ والأَحاديثَ

(١) انظر: درء تعارض العقل والنقل (١/ ٢٠٥).
(٢) انظر: مجموع الفتاوى (٦/ ٢٤٠).

عَلَى مَا نُريد؛ لأَنَّنا نحنُ نَعلم أنَّ هَذا مَعناها -وهُو مُحرَّف لَا شكَّ-، ولَكِن الذِي يقولُ: «أنا أعْرف المعنَى» خيرٌ مِن الذِي يَقُول: أنا لَا أعرِفُ؛ لأنَّ الذِي يَقُول: لَا أعرِفُ قَد نادَى علَى نفسِه بأَنَّه جاهِل، وهَذا يدَّعي أَنَّه عالم فيَقول: العِلم عِندي مادُمت أنتَ جاهلًا فِي مَعاني هذِه النُّصوص!! ولَا تستطيع أن ترد علَيْه، لأنَّ غايةَ مَا عِندكَ أنْ تَقُول: لَا أعْلم، والذِي لَا يَعلمُ لَيْس معَه سِلاحٌ، فإذَا كنتَ لَا تعلم فأنَا أعلم، فالمُراد بهذا كَذَا وكَذَا!!.

مَع أَنَّه الآنَ يُوجَد فِي كتُب الذِين لَا يَعلمون مَذْهَب السَّلَف علَى وَجْهِ الحقيقةِ: أنَّ السَّلَف هُم أهلُ التَّفويضِ؛ ولهَذا جَاءَ فِي كَلامِهم أنَّ أَهْلَ السُّنَّة قِسمانِ: أهلُ تَفويضٍ، وأهلُ تَأْويلٍ؛ ويَعنون بأهل التَّأوِيل أَهْل التَّحريف، الذِين يَقُولون: «إنَّ قَوْله تعالَى: ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف:٥٤]. أَي استولَى، وقَوْله تعالَى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة:٦٤]. أَي نِعمتاهُ، وقَوْله تعالَى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ [الرحمن:٢٧]. أَي ثَواب ربِّك»، ومَا أَشبَه ذلِك!.

وهَذا كَذِب، فأَهْل السُّنَّة ليسُوا أهلَ تفويضٍ، بَل أَهْل مَعْرفةٍ وعِلم، لَكِن يُفوِّضون مَا لَا يَستطيعون الوُصول إِلَى عِلمه، وهُو الكَيفيَّة، فيَقُولون مثلًا فِي قَوْله تعالَى: ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف:٥٤]. نَعلم أن مَعْنى ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾ أَي: علَا علَى العرش، ولَكِن كيفَ ذلِك؟ لَا نَعلم. وهَذا هُو غايةُ الأدبِ مَع الله عَزَّوَجَلَّ؛ أنَّ مَا لَا يُخبِركَ اللهُ بِه من أُمور الغيَب يَجب أنْ تَكِلَ عِلمه إِلَى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فالحاصِل: أنَّ الرَّسُول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ علَّم أُمَّته كُلَّ مَا يَحتاجون إِلَيْه فِي أُمور

دِينِهم ودُنياهم، حتَّى إنَّه إذَا تكلَّم بكَلامٍ يَظن أنَّه مُناسبٌ ثُمَّ تبيَّن أنَّه لَيْس كَذلِك رجَع عَنه، كَمَا فِي قصَّة التَّأبِير(١).

وبالمناسبة فبَعْض العُلَماءِ -ولا سيما المتأخِّرون المعاصِرون- أخذوا من قَوْله: «أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأُمُورِ دُنْيَاكُمْ» مَا لَا يَحتملُه النَّصُّ، قالُوا: إن هَذا شاملٌ للتَّصرُّف، وشاملٌ للحُكم، بمَعْنى أَنَّنا نحنُ نَعلم كيفَ نَصنع البابَ، وكيفَ نَبْنِي البِناء، ومَا نُشيِّدُه من قُصور وغيرها، نَعلم هذا، ونَعلم أيضًا حُكم هذِه الأشياءِ، حتَّى قالُوا: إذَا كانَ الرِّبَا سببًا لرَفْع اقتصادِ البلدِ فإنَّه جائزٌ؛ لأنَّه داخِل فِي قَوْله ﷺ: «أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأُمُورِ دُنْيَاكُمْ» وهَذا غلَطٌ؛ لأنَّ الأحكامَ مَرْجِعُها إلَى الله عَزَّوَجَلَّ ورَسولِه ﷺ، قالَ تعالَى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [الشورى:١٠]. لَكِن الصَّنائع، وكيفَ يصنَع هذا، وكيفَ يُحوَّل من وَجْه إلَى وَجْهٍ، هَذا نعم، نحنُ أعلم بِه.

ولهَذا يأتِي الإِنْسان الذِي لَا يَعرِف الدِّين، ولَا يَعرِف العِلم الشَّرعيَّ، يَعرِف كيفَ يَصنع مُكبِّر الصَّوت، ويأتِي إِنْسانٌ عالم مِن أَبْرز العُلَماء فِي الشَّرع فلَا يَعرِف كيفَ يُشغِّل هَذا الجِهاز، فالأوَّل أَعْلم بأُمُور الدُّنْيا مِن العالِـم، والعالِـم أَعْلَم بالشَّرِيعة مِن هذا.

وقد اشتبه هَذا الحديث: «أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأُمُورِ دُنْيَاكُمْ» علَى بعضِ النَّاس فِي العَصْر الحاضِر فأباحُوا بِهِ شَيْئا معيَّنًا، وسَمَّوْهُ الرِّبَا الاسْتِثْمارِيَّ، وقالُوا: هذِه البُنُوك كُلُّها حَلالٌ؛ يَعني: لَيْس فِيها ظُلْم!!.

(١) أخرجه مسلم: كتاب الفضائل، باب وجوب امتثال ما قاله شرعًا، رقم (٢٣٦٣)، من حديث عائشة وأنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

....

ويُمْكِن أنْ نَرُدَّ عَلَيْهم: بأن الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أتي بتَمْر جيِّد، فقَالَ: «مَا هذا؟ أَكُلُّ تَمْرِ خَيْبَرَ هَكَذا؟» فقالُوا: لَا، لَكِن نَأْخُذ الصَّاع مِن هَذا بالصَّاعَيْن، والصَّاعَيْن بالثَّلاثة، فقَالَ: «هَذا عَيْنُ الرِّبَا»، وأَمَر أنْ يُباع التَّمْرُ الرَّدِيء أوَّلًا ثُمَّ يُشْتَرَى بثَمَنِه تَمْرٌ جيِّدٌ[(١)].

فهُنا هَل هُناك ظُلْم إذَا أَخَذْنا صاعًا جَيِّدًا وأَعْطينا بدَلَه بقِيمَتِه صاعَيْن رَدِيئَيْنِ قِيمَتُهُمَا كقِيمَةِ الصَّاعِ الجَيِّدِ؟ الجوابُ: لَيْس فِيها ظُلْمٌ ومَع ذلِك قَالَ الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إنَّه عَيْنُ الرِّبَا»، والغَرِيبُ أنَّ هؤلاءِ الذِين يُطَنْطِنُونَ بأنَّ الشَّرِيعةَ الإِسْلاميَّةَ إنَّما رتَّبتِ العِبادةَ فقَط؛ يَتجاهَلُون أنَّ أَطْولَ آيةٍ فِي كتابِ الله آيَةُ الدَّيْن؛ وكلُّها فِي المعاملاتِ، لَيْس فِيها شَيْء للتَّعبُّد، ثُمَّ يأْتُون يَقُولون: إنَّ الدِّين الإِسْلاميَّ لَا يُراد بِه إلَّا تَرْتِيب العِبادةِ مَع الخالِق عَزَّوَجَلَّ.

فالحاصِل: أنَّ بَعْضَ النَّاس يَتوسَّع فِي مَدْلُولاتِ الألفاظِ، حتَّى يُحمِّلَ اللَّفْظَ مَا لَا يَحْتَمِلُه؛ إمَّا لجَهْل، وإمَّا لهَوًى! والله المستعان.

والتَّأويلُ إنْ دلَّ علَيْه دليل صَحِيح فهُو متعيِّن ومحمود، أمَّا التَّحريف فمَذمُوم مطلقًا، والفرق: أنَّه إذَا استَند التأوِيل إلَى دليل صَحِيح شرعًا فهُو حق، ولكننا نَقُول: لَيْسَ هَذا تأويلًا فِي الواقع بَل هُو تَفسير وأن مَا زُعم أن الظاهر فِيه خلاف فهُو كذِب، وأما إذَا لم يدلَّ علَيْه دليل فَلَا يصح أن نسمِّيَه تأويلاً، ولهَذا نرَى أن مَن

(١) أخرجه البخاري: كتاب البيوع، باب إذا أراد بيع تمر بتمر خير منه، رقم (٢٢٠١-٢٢٠٢)، ومسلم: كتاب المساقاة، باب بيع الطعام مثلا بمثل، رقم (١٥٩٣)، من حديث أبي هريرة، وأبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

مِنَ العَقَائِدِ الصَّحِيحَةِ[١]،.......................................

سَمَّوا أنفسهم أَهْل التأويل أَنَّه غير صَحِيح لَكِن سموا أَهْل التأويل تلطيفًا للموضوع الذِين يَسلكونه أَو للمَنهج الذِي يَسلكونه، وأحقُّ مَا يُوصَفون بِهِ أن يُقال هم أَهْل تحريف؛ فمثلًا قالَ قَائِل: إن قَوْله تَعالَى: ﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾ إذَا قُلْنا المَعنَى أنَّها تجري ونَحْن نَراها بأعيُننا فهَذا التأويل، نَقُول لَيْسَ بتأويلٍ؛ لأن هَذا تأويل بِناءً عَلَى أَنَّك فهِمت أنَّ السَّفينة تجري فِي جَوف العَين وهَذا فَهم خاطِئ، ولَيْس هَذا مثل الآية، ولَا تُفيده بأي حَال مِن الأحوال، فأنتَ ادَّعيت أن هَذا تأويل بِناءً عَلَى فَهمك، والباء فِي قَوْله: ﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾ للمُصاحبة يَعْني: تجري وأعيُننا تَصْحَبُها، ومِثل أشياءَ كثيرةٍ من هَذا النَّوع ذكَرنا مِنْها طرفًا فِي كتابنا (القواعِد المثلى فِي صِفات الله وأسمائه الحسنى).

[١] قَوْله: «**مِنَ العَقائِدِ الصَّحِيحة**» العَقِيدة: هِي مَا يَحكُم بِه الإِنْسانُ فِي قَلْبه، وقَد تَكونُ صَحِيحةً، وقَد تَكونُ غيرَ صَحِيحةٍ، يَعْني يَحكُم بقَلْبِه على شَيْءٍ، فإنْ وافَق الحقَّ فهُو صحيحٌ، وإنْ خالَفه فهُو باطلٌ.

والفَرْق بَيْن العَقِيدة والعِلْم:

أولًا: أنَّ العِلم تُدْرِك الشَّيْءِ على مَا هُو عَلَيه، والعَقِيدة أنْ تَعْقِد بقَلْبك علَيه، وتُثْبته أَو تَنْفيه، فالعَقِيدة أعمُّ مِن حَيثُ إنَّه قَد يُصيب الإِنْسانُ الحقَّ والواقعَ وقَد لَا يُصِيبه، وأمَّا العِلم فإنَّه يُصِيبه قَطْعًا، وهِي أخصُّ من حَيثُ إنَّ العِلم إِدْراكٌ والعَقِيدة حُكْم؛ ولهَذا فسَّرها بعضُهم بأنَّها حُكم الذِّهن الجازِم هُو العقيدة، فإنْ طابَق الواقعَ -أو طابَقَ الشَّرعَ فِي الأُمُور الشَّرعيَّة- فحَقٌّ، وإلَّا فهِيَ باطلةٌ؛ فالعلم إِدْراك بِلَا حُكم، وأما العقيدة فهِيَ حُكم.

وَالأَعْمَالِ القَوِيمَةِ[١]، وَالأَخْلَاقِ الفَاضِلَةِ[٢]، وَالآدَابِ العَالِيَةِ[٣].

فَتَرَكَ ﷺ أُمَّتَهُ عَلَى المَحَجَّةِ[٤] البَيْضَاءِ، لَيلُهَا كَنَهَارِهَا، لَا يَزِيغُ عَنْهَا إِلَّا هَالِكٌ[٥].

ثانيًا: أنَّ العِلم يُطابق الواقعَ، والعَقِيدة قَد تُخالِف الواقعَ؛ ولهَذا قَد تَعتقِد أنَّ فلانًا تاجرٌ ولَيْس بتاجرٍ، أَو عالـمٌ ولَيْس بعالـمٍ، وتَعتقِد أن هَذا حرامٌ ولَيْس بحرامٍ، ولَكِن إذَا كُنتَ تَعلم أنَّه حرامٌ فهُو حرامٌ، مثل قَوْله تعالَى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ﴾ [المائدة:٣] فتَقُول: حرامٌ؛ لأنَّها صَريحةٌ.

فالعَقِيدةُ إِذَنْ: هِي حُكم الذِّهن الجازِم، فإِنْ طابَقَ فصَحِيحٌ، وإِنْ خالَف ففاسِد.

[١] قَوْله: «والأعمالِ القَوِيمَة» تَشْمل العِبادات؛ لأنَّها قَوِيمة، كما قالَ تعالَى: ﴿دِينًا قِيَمًا﴾ [الأنعام:١٦١].

[٢] قَوْله: «والأخلاقِ الفاضِلةِ» الأخلاق مَا يَتخلَّق بِه الإِنْسانُ فِي مُعاملة النَّاس مِن اللِّين، والبَشاشة، ومَا إِلَى ذلِك.

[٣] قَوْله: «والآدابِ العالِيَةِ» مَا يَتأدَّب بِه الإِنْسانُ فِي نَفْسِه، بحَيثُ لَا يَعْمل أعمالًا تُخِلُّ بالمُرُوءَة.

[٤] المحجَّة: الطَّرِيق.

[٥] قَوْله: «البَيْضاءِ، لَيلُها كنَهارِها، لَا يَزِيغُ عَنها إلَّا هَالِكٌ» البيضاء: ضِدُّ السَّوْدَاء، وغيرِها مِن الألوان، فهِيَ طَرِيقٌ أبيضُ نيِّرٌ لَا يَزِيغُ عَنْهُ إلَّا هَالِكٌ.

فَسَارَ عَلَى ذَلِكَ أُمَّتُهُ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا للهِ وَرَسُولِهِ ﷺ، وَهُمْ خِيرَةُ الخَلْقِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ، وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ[١]، فَقَامُوا بِشَرِيعَتِهِ، وَتَمَسَّكُوا بِسُنَّتِهِ، وَعَضُّوا عَلَيْها بِالنَّوَاجِذِ[٢]، عَقِيدَةً وَعِبَادَةً، وَخُلُقًا وَأَدَبًا[٣]، فَصَارُوا هُمُ الطَّائِفَةَ الَّذِينَ لَا يَزَالُونَ عَلَى الحَقِّ ظَاهِرِينَ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ أَوْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ تَعَالَى وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ[٤].

---

[١] قَوْله: «**فسارَ علَى ذلِك أمَّتُه الَّذِين استجابُوا لله ورسولِه ﷺ، وهُمْ خِيرةُ الخَلقِ مِن الصَّحابة والتَّابعين، والَّذِين اتَّبَعوهم بإِحسانٍ**» المقصود بـ«**خِيرة الخَلْق**» أَي: بَعْد الأَنْبياء؛ لأَنَّ أَفْضل الخَلْق هُمُ الأنبياء، ثمَّ الصِّدِّيقُون، ثمَّ الشُّهداء، ثمَّ الصَّالحون، والأَصْناف الثَّلاثة بَعْدَ النبيين كُلُّها مَوجودةٌ فِي الصَّحابة، فَفِيهم الصِّدِّيق، وفيهم الشَّهِيد، وفيهم الصَّالِح، فهُم خِيرة هذِه الأُمَّة.

[٢] أَي: تمسَّكوا بِها بأيدِيهم وعَضُّوا عَلَيْها بأسنانِهم «**بالنَّواجذ**» وهِي أقصَى الأَضْراسِ، وهُو كِناية عَن قوَّة التمسُّك بِها.

[٣] هذِه أربعةُ أشياء:

«**عقيدةً**» وهِي المبنيَّة علَى العِلم بالله وأسمائِه وصفاتِه.

«**وعبادةً**» وهِي حركات الجِسم، كالرُّكوع والسُّجود وغيرِهما.

«**وخُلقًا**» مَا يَتخلَّق بِه الإِنسان.

«**وأدبًا**» مَا يَنهجه الإِنْسان.

[٤] قَوْله: «**فصارُوا**» أَي المتمسِّكون بهذا «**هُمُ الطَّائفةَ الَّذِين لَا يَزالونَ علَى الحَقِّ ظَاهِرِينَ، لَا يَضرُّهُم مَن خَذَلهم أَو خالَفَهم حتَّى يأتيَ أَمْرُ الله تعالَى وهُمْ**

وَنَحْنُ -وَلِلهِ الحَمْدُ- عَلَى آثَارِهِمْ سَائِرُونَ[١]، وَبِسِيرَتِهِمُ المُؤَيَّدَةِ بِالكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مُهْتَدُونَ[٢]،........................

عَلَى ذلِك» وهَذا كَما حدَّث بِه النَّبِي ﷺ بأنه: «**لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الحَقِّ ظَاهِرِينَ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَـهُمْ حتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ الله**»(١).

وأَمْرُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هُو الأَمْر الكَوْنيُّ، الذِي يَقضِي بفَناء كُلِّ أهلِ الخَيْر، حتَّى لَا تَقوم السَّاعةُ إلَّا علَى شِرارِ الخَلْق، كما ثبت عَن النَّبِي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ(٢)، وكما ثَبت عَنْهُ ﷺ أَنَّه قالَ: «**لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى لَا يُقَالَ فِي الأَرْضِ: اللهُ! اللهُ!**»(٣) فيَفنَى المؤمنون كلهم ولَا يبقى إلَّا شرار الخلق. فالمُراد إِذَن: بـ«أَمْر الله» الأَمْر الكَوْني، الذِي فِيه فَناءُ الصَّالحين.

[١] قَوْله: «**ونحنُ -ولله الحَمْد- علَى آثارِهم سَائِرونَ، وبسِيرَتِهِمُ المُؤَيَّدةِ بالكِتاب والسُّنَّة مُهتدون**» هَذا خَبر عَن عَقِيدة المؤلِّف، ولَيْس مِن باب التمدُّح، وإنْ كانَ الإِنْسانُ مأمورًا بأَنْ يُثْنِيَ على الله عَزَّوَجَلَّ، ويُحدِّث بنِعْمَتِه، كما قالَ تعالَى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى:١١].

[٢] وقَوْله: «**المُؤَيَّدةِ بالكِتاب والسُّنَّة مُهتدون**» هَذا وَصْفٌ كاشفٌ، ولَيْس وصفًا مُقيِّدًا؛ لأنَّ سِيرةَ أولئك القَوم كلُّها مبنيةٌ علَى الكِتاب والسُّنَّة، وهَذا من

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإمارة، رقم (٣٦٤١)، ومسلم: كتاب الإمارة، باب قوله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق»، رقم (١٠٣٧/ ١٧٤)، من حديث معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الإمارة، باب قوله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي..»، رقم (١٩٢٤)، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب ذهاب الإيمان آخر الزمان، رقم (١٤٨)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

نَقُولُ ذَلِكَ تَحَدُّثًا بِنِعْمَةِ اللهِ تَعَالَى، وَبَيَانًا لِـمَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ عَلَيْهِ كُلُّ مُؤْمِنٍ[١].

وَنَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى أَنْ يُثَبِّتَنَا وَإِخْوَانَنَا الْمُسْلِمِينَ بِالقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيا وَالآخِرَةِ، وَأَنْ يَهَبَ لَنَا مِنْهُ رَحْمَةً، إِنَّهُ هُوَ الوَهَّابُ.

وَلِأَهَمِّيَّةِ هَذَا المَوْضُوعِ، وَتَفرُّقِ أَهْوَاءِ الخَلْقِ فِيهِ، أَحْبَبْتُ أَنْ أَكْتبَ عَلَى سَبِيلِ الِاخْتِصَارِ[٢] «عَقِيدَتَنَا»، ....

حَيثُ الجُمْلةُ، وإِنْ كانَ بعضُهم قَد يُخطِئ فَلَا يُصيبُ السُّنةَ، لَكِن من حَيثُ الجُمْلةُ: هُمْ مُصِيبُون؛ لأنَّهم علَى الكِتاب والسُّنَّة.

[١] قَوْله: «نَقُولُ ذلِك تَحدُّثًا بنِعْمةِ الله تعالَى، وبيانًا لِـمَا يَجِبُ أَنْ يَكونَ عَلَيه كُلُّ مُؤْمنٍ» إنَّما قَالَ المؤلِّف ذلِك لئلَّا يُقال: إنَّه يَفخر بنَفْسه أنْ كانَ علَى سِيرةِ هؤلاءِ، فهُو يَقُول ذلِك من بابِ التحدُّث بنِعْمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وكذَلِك لبيَان مَا يَجب أنْ يَكونَ عَلَيه كُلُّ مُؤمنٍ.

[٢] قَوْله: «ونَسأَلُ اللهَ تعالَى أنْ يُثَبِّتَنا وإخوانَنا المُسْلِمين بالقَوْل الثَّابت فِي الحَياة الدُّنْيا والآخِرَة، وأنْ يَهَبَ لَنَا مِنْه رَحْمَةً، إنَّهُ هُوَ الوَهَّابُ. ولِأَهميَّةِ هَذا الموضوعِ، وتَفرُّق أَهْواء الخَلْق فِيه، أَحْبَبْتُ أنْ أَكْتبَ علَى سبيلِ الاختصارِ» يَقُول العُلَماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ: المُختَصر هُو الذِي قَلَّ لَفظُه وكَثُر مَعْناهُ؛ لأنَّ الكَلامَ يَنقسم إِلَى ثلاثةِ أقسامٍ:

١- إطْنابٌ.

٢- واختصارٌ.

٣- واقتصارٌ.

عَقِيدَةَ أَهْلِ السُّنَّةِ والجَماعَةِ، وَهِيَ: الإِيمَانُ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَاليَوْمِ الآخِرِ، وَالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ[١]، سَائِلًا اللهَ تَعَالَى أَنْ يَجْعَلَ ذَلِكَ خَالِصًا لِوَجْهِهِ، مُوَافِقًا لَمِرْضَاتِه، نَافِعًا لِعِبَادِهِ[٢].

فالإِطْنابُ: أن يَزِيد اللفظُ علَى المَعْنَى.

والاقتِصارُ: أنْ يكونَ اللفظُ مُساويًا للمَعْنَى.

والاختِصارُ: أنْ يكونَ اللفظُ أقلَّ مِن المَعْنَى؛ بمَعْنى أنْ يكونَ ألفاظًا قليلةً ولكنَّها تَحملُ مَعانيَ كثيرةً.

[١] قَوْله: «**عَقِيدةَ أَهْل السُّنَّة والجَماعَة، وهِي: الإِيمان بالله، وملائِكَته، وكتُبه، ورسُله، واليَوْم الآخِر، والقدَر خَيْره وشَرِّه**» يَعْني أَرْكان الإِيمان السِّتَّة، وعلَى هَذا فيَكونُ هَذا الكِتابُ مُتضمِّنًا لذلك.

[٢] «**سائلًا اللهَ تعالَى أنْ يَجعل ذلِك خالصًا لوَجْهه، مُوافقًا لمَرْضاتِه، نافعًا لعِبادِه**».



عَقِيدَتُنَا[١]

عَقِيدَتُنَا: الإِيمَانُ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَاليَوْمِ الآخِرِ، وَالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ[٢].

---

[١] ثُمَّ شَرَع المؤلِّف ببيانِ العَقِيدة بالتَّفصِيل فقَالَ: «**عَقِيدتُنا**».

[٢] قَوْله: «**عَقِيدتُنا: الإِيمان بالله، وملائِكَته، وكتُبه، ورسُله، واليَوْم الآخِر، والقدَر خَيْره وشَرِّه**» هَذا مُجمَل العَقِيدة؛ ولـهَذا ذكَره شَيخُ الإِسْلام رَحِمَهُ اللَّهُ فِي (العَقِيدة الواسِطيَّة)، وبنَى كتابَه علَى ذَلِك.

والدَّلِيل علَى أن هَذا مُجمَل العَقِيدة حَدِيث عُمرَ بنِ الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حَيثُ جاءَ جِبرِيلُ إِلَى النَّبِي صلى الله عليْه وعَلَى آله وسلم فقَالَ: أَخْبرني عَنِ الإِسْلامِ، فأَخْبَره، ثمَّ قالَ: فأَخْبرني عَنِ الإِيمان فقَالَ: «**أَنْ تُؤْمِنَ بِالله وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ وَالقَدَرِ خَيْرِهِ وشَرِّهِ**»(١).

فإِنْ قالَ قائِلٌ: فِي الحَدِيث: «**أَنْ تُؤْمِنَ بِالله وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ**» ولَمْ يَقُل «وأَنْبيائه» معَ أَنَّ النُّبُوَّةَ أعمُّ؛ فهَذا محل إِشكالٍ؟

قُلنا: هذَا إِشكالٌ جَيِّد، فإِنَّ هَذَا القَوْلَ محلُّ إِشْكالٍ، والجوابُ عَلَيْهِ: أَنَّها تَدْخُل فِي الإِيمَانِ بالكُتُب: «وَكُتُبِهِ»؛ لأَنَّ الكُتُبَ أقرَّتِ الأَنْبياءَ، والرُّسلُ لـمَّا كانُوا أَشْرفَ مِن الأَنْبياءِ ذَكَرَهُمْ بِالنَّصِّ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام، رقم (٨)، من حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فَنُؤمِنُ بِرُبُوبِيَّةِ اللهِ تَعَالَى، أَيْ: بِأَنَّهُ الرَّبُّ الخَالِقُ المَلِكُ المُدَبِّرُ لِجَمِيعِ الأُمُورِ[١].

---

[١] مَعْنى «الرَّبّ»: الخالِق، فهُو الخالِق وَحْدَه، فإذَا أُضِيفَ الخَلْق إلَى الخَلْق فلَيْس المُرادُ الخَلْقَ الإلهي، بَلِ المُرادُ التَّغْيِير.

فخَلْقُ الإنْسانِ البابَ مِنَ الخشَبة لَيْسَ خَلْقًا فِي الوَاقع ولكنَّه تَغْيِير، فبَدَل مَا كانَ خشَبًا قائمًا صارَ بابًا، وأيضًا جَمِيعُ المُعدّاتِ عَلَى اختِلاف أَنْواعها مِن حديدٍ وبِلاستِيك وغَيرِها هِيَ مِنْ صُنْع الإنسانِ لَا شكَّ، لَكِن لَا يُقال: إنَّه خالِقٌ، بَلْ مُغيِّر، فنَقْلُ هَذا الحَديدِ إلَى شَكْلٍ مُعيَّنٍ، وَلْنَقُلْ «مِخْرَطَة» مَثَلًا، فالذِي يَقُوم بخَرْط الحَدِيد لَا يَخْلُقُ الحديدَ؛ إِذَنْ: لَيْسَ خالِقًا ولكِنَّهُ مُغيِّرٌ.

فالمُلْكُ التَّامُّ لِربِّ العالمينَ عَزَّوَجَلَّ؛ حتَّى مُلكي للقَلَم لَيْسَ مِلكًا تامًّا؛ لأنِّي لَنْ أستطِيعَ التَّصرُّفَ فِيه إلَّا حسبَ مَا أُذن لي؛ إِذَنْ: فالمُلكُ غيرُ تامٍّ، لكِنْ للربِّ عَزَّوَجَلَّ مُلكٌ تامٌّ، فالربُّ عَزَّوَجَلَّ يَمِلك أن يُصيب بَعِيري مثلًا بأشدِّ الأمراض والبلاء وأنا لَا أَمْلِك أنْ أَجْرحه بالمِشْرَط إلَّا لمصلحةٍ، إِذَنْ: ملْكُ بَنِي آدمَ غيرُ تامٍّ وملْكُ اللهِ تامٌّ.

فهو المدبِّر لجَمِيع الأمُور وتَدبيرُنا لحوائجِنا وأمورِ بيتِنا لَيْسَ التدبيرَ المطلَق، ولَو أرادَ الإنسانُ أنْ يُدبِّر بيتَه عَلَى وجهٍ لَا يرضاهُ اللهُ فإنَّه لَا يَمْلِك ذلِك؛ لَكِنِ الربُّ عَزَّوَجَلَّ يَمْلك الأشياءَ عَلَى مَا تَقْضِيهِ الحِكمةُ مِن خيرٍ وشرٍّ.

فإذا قِيل: كيفَ الإيمانُ باللهِ؟ فهَذا هُو التَّفصيل: **«فنُؤمِنُ برُبُوبيَّة الله تعالَى، أَي: بأنَّه الرَّبُّ الخَالِقُ المَالِكُ المُدبِّرُ لجَمِيع الأُمُور»**.

....

هذِه هِي الرُّبوبيَّة، وتتضمَّن ثلاثَةَ أشياء:

أولًا: الخَلْق، فالله تعالَى خالِق كُلِّ شَيْءٍ.

ثانيًا: المُلْك، فالله تعالَى مالِك كُلِّ شَيْءٍ.

ثالثًا: التَّدْبير، فالتَّدبير كلُّه لله.

ودليلُ الخَلْق والتَّدبير قولُ الله تَعالَى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف:٥٤]، فالخَلْق واضحٌ، والأَمْر هُو التَّدبير.

ودليل المُلْك قَوْله تعالَى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران:١٨٩].

فهذه الأمورُ الثلاثةُ هِي مَعْنى الرُّبوبيَّة.

فإن قَالَ قَائِل: أليسَ الإِنسانُ يُوصف بالرُّبوبيَّة، فيقال: ربُّ الدابَّةِ، وربُّ البَيت، وقال النَّبي ﷺ فِي الضَّالَّة: «**دَعْهَا فَإِنَّ مَعَهَا سِقَاءَهَا وَحِذَاءَهَا، تَرِدُ المَاءَ وَتَأْكُلُ الشَّجَرَ، حَتَّى يَجِدَهَا رَبُّهَا**»(١). وقال فِي حديثٍ آخرَ: «**أَنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّهَا**» كما فِي بَعْضِ أَلفاظِ البُخاريِّ(٢)؟!

فالجَوَاب أن نَقُول: الرُّبوبيَّة المُضافة للمَخْلوق لَيْسَت كالرُّبوبيَّة المُضافة إلَى الخالِق، وهَذا كما أن الإِنْسان لَهُ سَمْع والله لَهُ سَمْع، لكِن يَختلفُ معنَى السَّمعِ بالنِّسْبة للخالِق والمَخْلوق، فكَذلِك الرُّبوبيَّة.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب اللقطة، باب ضالة الغنم، رقم (٢٤٢٨)، ومسلم: كتاب اللقطة، رقم (١٧٢٢)، من حديث زيد بن خالد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان، رقم (٥٠)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وَنُؤمِنُ بِأُلُوهِيَّةِ اللهِ تَعَالَى، أَيْ: بِأَنَّهُ الإِلَهُ الحَقُّ[١]،.................

وإن قِيل: أليسَ اللهُ تعالَى قَد أَثْبت المُلك للمَخْلوقات، كما قالَ تعالَى: ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾ [النور:٦١]، ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ [النساء:٣]؟

فالجَوَاب: بَلَى، ولكِن يُقال: الفَرْق عَظِيم، فمُلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ تام شامل؛ أَي يفعل فِي ملكه مَا يشاء، شامِل لكل شَيْء سِوَى الله، أَمَّا مُلك الآدميِّ فقاصِرٌ مُقيد؛ فَلَا يَملك كُلَّ شَيْء، ثمَّ مُلْك الإِنْسان للشيء لَيْس مُلكًا مُطْلقًا يَفعل مَا يشاء، بَل هُو مُقيَّد بالشَّرع، ولهَذا نُهِيَ عَن إضاعةِ المالِ، ونُهي عَن إفسادِه، ونُهي عَن بَعْض التصرُّفات المحرَّمة، التِي يريدها الإِنْسان ولكنَّه لَا يَستطيعُ؛ لأَنَّه ممنوعٌ مِنها.

وإنْ قِيل: أليسَ للإِنْسان تَدْبير؟!

فالجَوَاب أن نَقُول: بَلَى، يُدبِّر، لَكِن لَيس مِثْل تَدْبير الله، فالله تعالَى يُدبِّر الأَمْر فِي كُلِّ شَيْءٍ، وأمَّا الإِنْسان فتَدْبيرُه خاصٌّ بنَفْسِه، أَو بملْكِه الذِي يَملِكه.

إِذَن: نُؤمِن برُبُوبيَّة الله تعالَى، أَي: أَنَّه الرَّبُّ، الخالِقُ، المالِكُ، المُدبِّر لجَمِيع الأُمُور.

[١] قَوْله: «ونُؤمِنُ بأُلُوهيَّة الله تعالَى، أَي: بأَنَّه الإِلَهُ الحَقُّ».

هذا تَوحِيدُ الأُلُوهيَّة، و«الإله» بمَعْنى المَأْلُوه، فهُو فِعَال بمَعْنى مَفْعُول. وفِعَال بمَعْنى مَفْعُول تَرِد كثيرًا فِي اللُّغة، مثل: غِرَاس، بمَعْنى: مَغْرُوس، وبِنَاء، بمَعْنى: مَبْنِيّ، وفِرَاش، بمَعْنى: مَفْرُوش؛ فـ«إله» بمَعْنى مَأْلُوه، ومَعْناهُ: المَعبُود تذلُّلًا ومحبَّةً، فقَد يَعبد الإِنسانُ الشَّيْءَ ولكِن لَيس تذلُّلًا وتَعبُّدًا لَهُ ومحبَّة، كما قَالَ

وَكُلَّ مَعْبُودٍ سِوَاهُ بَاطِلٌ[١].

وَنُؤمِنُ بِأَسْمائِه وصفاته، أَي بأَنَّه لَهُ الأَسْماءُ الحُسْنَى وَالصِّفَاتُ الكَامِلَةُ العُلْيَا[٢].

النَّبِيُّ ﷺ: «تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ، تَعِسَ عَبْدُ الخَمِيصَةِ»(١)، لَكِن تعلُّق قَلْبه بِهِ جَعَلَه كالعابِدِ له.

[١] قَوْله: «وأَنَّ كُلَّ مَعبودٍ سِواهُ بَاطِلٌ» دَلِيلُ هَذا قولُه تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران:١٨].

فَما يُعبد من دُونَ الله فإنَّه إلهٌ، لكنَّه إلهٌ باطلٌ، ومجرَّد تَسمِيَة، كَما قالَ تعالَى: ﴿ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ ﴾ [النجم:٢٣] والدَّلِيل على أنَّها «آلهةٌ» أنَّ الله تعالَى سمَّاها «آلهةً»، فقال تَعالَى: ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ [هود:١٠١]، وقالَ تعالَى: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [القصص:٨٨]. لكنَّها ألوهيَّة باطلةٌ، فهِيَ مجرَّد اسم؛ ولهَذا قَالَ المؤلِّف: «ومَا سِواهُ باطلٌ»، والدَّلِيل علَى هذِه الجُمْلة قول الله تَعالَى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ ﴾ [الحج:٦٢].

[٢] قَوْله: «نُؤمِنُ بأَسْمائِه الحُسنَى» نُؤمِن بذلِك؛ لأنَّ الله تعالَى قالَ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف:١٨٠]، وقالَ تعالَى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد، باب الحراسة في الغزو في سبيل الله، رقم (٢٨٨٦، ٢٨٨٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

[طه:٨]؛ وأن له: «الصِّفات الكَامِلَة العُلْيَا»؛ لأنَّ اللهَ تعالَى قالَ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل:٦٠]. أَيِ الوَصْفُ الأَكْمَلُ، والمَثَل بمَعْنى الوَصْف، والدَّلِيل علَى أنَّ المثل بمَعْنى الوَصْف، قَوْله تعالَى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ إلخ [محمد:١٥]. مَثَلها أَي وَصْفها.

وكَلِمَةُ «الحُسْنَى» اسمُ تَفْضِيلٍ، يَعْني: الكامِلَةُ الحُسْنِ.

و«العُليا»: أَي التِي بَلَغت الوَصْف الأَعْلى؛ والأعلَى اسمُ تَفضيلٍ؛ فصِفاتُ الله تعالَى أعلَى مَا يكونُ مِنَ الصِّفات؛ ولهَذا لَا يُوصَفُ اللهُ تعالَى بصفةٍ فِيها ذمٌّ إِطْلاقًا، بَل كُلُّ صفاتِ الله تعالَى مُنزَّهَةٌ عَنِ الذَّمِّ والقَدْح، فكُلُّها عُلْيا.

فإذا قالَ قَائِل: مَا الفَرْق بَيْنَ الأَسْماء والصِّفَات؟

قُلنا: الفَرْق بَيْنَهما: أنَّ الأسماءَ تَسَمَّى اللهُ بِهَا، أما الصِّفات فوصف الله بِها نفسه، والصِّفات أعم من الأسماء؛ لأنَّ كلَّ اسمٍ مُتضمِّن لصِفة، ولَيْس كُلُّ صِفَةٍ مُتضمِّنة للاسمِ؛ ولأنَّ الاسمَ مُشتقٌّ مِنَ الصِّفة؛ فمَثلًا: «العَلِيم» مُشتق مِن العِلْم؛ ولهَذا فالقَوْل الصَّحيح عِنْد النَّحويين أنَّ الأَصْل هُو المَصْدر والفِعلُ مُشتقٌّ مِنه واسمُ الفاعِل مُشتق مِنه واسمُ المفعُول مُشتقٌّ مِنه.

ولهَذا نَصِفُ اللهَ بأَنَّه «صانِعٌ»؛ كَمَا قالَ الله تعالَى: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النمل:٨٨]. ولَكِن لَا نُسمِّيه الصَّانِع؛ كَذلِك أيضًا نَصِفُ اللهَ بأَنَّه يَسْتهزِئ بالمُنافِقِين، ولكِن لَا نُسمِّيه المُستهزِئَ، كَذلِك نصف الله بأَنَّه يمكر بمن مكر بِه وبأوليائه، ولَا نسميه الماكرَ، ونصف الله تعالَى بأَنَّه متكلم لكِن لَا نسميه بالمتكلم؛

لأنَّ الكَلام فِي حدِّ ذاته صِفَة عليا، لَكِن باعتباره اسمًا لَا يصح أن يَكُون اسمًا لله؛ لأنَّ المتكلم قَد يتكلم بخير وقد يتكلم بشَرٍّ، أَو بما لَيْس خيرًا، وكَلام الله تعالَى منزه عَن ذَلِك؛ لِذلِك لم يأتِ المتكلم اسمًا من أَسْماء الله.

والكَلام المطلق قَد يَكُون قويًّا بليغًا وغير بليغ، وحسنًا غير حسن؛ فلذلك لم يوصف الله بالمتكلم عَلَى الإطلاق، بَل يخبر عنه بأَنَّه متكلم.

ويُوصَف اللهُ تعالَى بأَنَّه مُريدٌ؛ لأنَّ اللهَ تَعالَى قالَ: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج:١٦] لَكِن لَا يُسمى اللهُ بِه، لأنَّ الإرادةَ قَد تكونُ خيرًا، وقَد تكونُ شرًّا، وقَد لَا تكونُ خيرًا ولَا شرًّا، واللهُ مُنزَّه عَن إرادةٍ لَا خيرَ فِيها، فكُلُّ «إرادةِ الله» خَير، وأَمَّا «مُراده» ففِيه خيرٌ وشرٌّ، فمَثلًا: كُلُّ مَخْلوقٍ فهُو بإرادةِ الله، ولَيْس كُلُّ المَخْلوقات خيرًا، ففِي المَخْلوقات مَا هُو شرٌّ؛ كالسِّباع والهَوَامِّ، ومَا أَشبَهها، لَكِن إرادةُ الله لـهَا لَا شَكَّ أَنَّها خيرٌ؛ لأنَّ اللهَ لم يَخلقْها إلَّا لِحكمةٍ عَظيمةٍ.

وهَل يَصِحُّ أنْ نُسمِّيَ اللهَ بـ(عَالِـم)؟

الجَوَاب: لَا؛ لَكِن نَقُول: (عليم)، وهُو عالم بكل شَيْء، لأن (العليم) أبلغ من (العالم)، لَكِن نُخبر عَنْهُ بأَنَّه عالم، لَكِن لَا نسميه بِه.

مسألةٌ: إذَا أُطلقت أسماءُ الله تعالى عَلَى غيرِ الله؛ فإنْ قُصِدَ المَعنَى حرُم، وإِنْ كانَ مجرَّدَ عَلَمٍ فَلَا بأسَ؛ ولهَذا مِن أسماءِ الصَّحابة حَكِيم بنُ حِزامٍ، والحَكَم؛ أَمَّا إذَا قُصِدَ المعنَى فَلَا يَجوز؛ فلمَّا كُنِّيَ أَبو شُرَيْحٍ بأبِي الحَكَم مَنَع مِنه الرَّسولُ ﷺ؛ سواءٌ قُرِنَتْ أَمْ لَمْ تُقْرَنْ؛ فالكَلامُ عَلَى المعنَى.

وهَل يَجوز القسَم بالصِّفَة؟

الجَوَاب: القسَم بصِفَة الله تعالَى يجوز، وقَد جاءَ ذلِك مِن قولِ الرَّسُول ﷺ: «**لَا، وَمُقَلِّبِ القُلُوبِ**»(١)، وكَذلِك أيضًا ورَد: «**والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ**»(٢)، ومَا أَشبَه ذلِك، فيَجوزُ أنْ تَقولَ: وَعِزَّةِ الله، وقُدْرةِ الله.

واللهُ تعالَى أخبَرنا أنَّ الشَّيطانَ قالَ: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص:٨٢]، وهَذا قسَم، بدليلِ أنَّ جوابَه قُرِن باللَّام ونُون التَّوْكيد، فيَجوزُ أنْ تُقْسِمَ بكُلِّ صِفَة مِنْ صِفاتِ الله المعنويَّة، كـ(عِلْمِ الله)، و(حَياةِ الله)، ومَا أَشبَه ذلِك.

أمَّا الصِّفاتُ غَيْر المعنويَّة فَلَا يَجوزُ أنْ تُقْسِمَ بها، كأنْ تَقُول: ويَدِ الله، أمَّا (وَجْه الله) فلأنَّه لـما كانَ يُعبَّر بالوَجْهِ عَنِ الذَّات، صَحَّ أنْ تقسم فتقول: أُقْسِمُ بوَجِه الله لَأَفْعَلَنَّ كذَا وكذَا.

والأَصْل: أنَّ الصِّفة مَا قامَت بالمَوصُوف، والإِخْبار مَا أخبر بِهِ عَن الشَّيْء، والخَبَر أَوْسَع مِنَ الاسمِ إِذْ يَجُوز أنْ تُخبِر عَن الله تَعالَى بكل مَا لَا ينافي كَمالَه ولكِن لَا تُسميه بِه؛ فَـ«الصَّانِع» يُخْبَرُ بِهِ ولَا يُحْلَفُ بِه.

ويَتفرَّع علَى مَا قلناه: أنَّه لَا يُوجد فِي أسماء الله اسمٌ جامِدٌ لَا يَدُلُّ علَى صفةٍ؛

(١) أخرجه البخاري: كتاب القدر، باب ﴿يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾، رقم (٦٦١٧)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) ورد كثيرًا، ومن ذلك ما أخرجه البخاري: كتاب أصحاب النبي ﷺ، باب قول النبي ﷺ: «**لو كنت متخذا خليلا**»، رقم (٣٦٧٣)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب تحريم سب الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ رقم (٢٥٤١) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

....

لأنَّ الاسمَ الجامِدَ لَيْس فِيه معنًى، فضلًا عَن أن يكونَ معنًى حَسنًا.

فمِثالُ الجامِدِ: أسَد، وكَذلِك أيضًا رُبَّما نُسمِّي بَعْض النَّاس: خالدًا، فهَذا الاسمُ غيرُ مُتضمِّن للصِّفةِ؛ لأنَّ اللهَ تعالَى يَقُولُ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ﴾ [الأنبياء:٣٤]، ورُبَّما نُسمِّي شخصًا: عبدَ الله وهُو مِن أَفْجر عِباد الله، فليسَ عبدًا لله، ورُبَّما نُسمِّي شخصًا: مُحَمَّدًا وهُو مُذَمَّم، لَيْس عنده خَصْلة حَمِيدة، لَكِن أَسْماء الله مُتضمِّنَة للمَعْنَى.

ولِهَذا قِيل: إنَّ أَسْماء الله تَعالَى أَعْلام وأَوْصاف، فكُلُّ اسمٍ فهُو عَلَم باعتبارِ دَلالَتِه علَى الذَّاتِ، وهُو أيضًا صِفَةٌ باعتبارِ دَلالتِه علَى المَعْنَى، فأوَّل وأَوْلَى مَا يَدخُل فِي ذلِك اسمُ (الله) مَعَ أنَّ بَعْضَ العُلَماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ قالُوا: إنَّ اسمَ الله لَيْس بمُشتقٍّ، بَل هُو مجرَّد عَلَم، فنَقُول: سُبحانَ الله!! إنَّ الله تعالَى يَقُول: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف:١٨٠]. فكيفَ تَقُولُون: إنَّه مجرَّد عَلم؟! وهَذا أَوْلَى مَا يكون، وأَوَّلُ مَا يكونُ مِن الأسماءِ التِي هِي حُسنَى، فهُو مُشتقٌّ؛ والمعنَى المُشتقُّ الذِي يَدُلُّ عَلَيه اسمُ الله هُو «الأُلُوهيَّة»، وهَذا كافٍ.

فإنْ قَالَ قَائِلٌ: مَا الضابط فِي تمييز الأَوصافِ التِي تُضاف إلَى الله، بأنَّها أسماءٌ، أَو صفاتٌ، أَو أفعالٌ؟

فالجواب: إذَا كانَ الشَّيْء مشتقًّا فهُو دائر بين أن يَكُون اسمًا أَو يَكُون صِفَة، يَعْني مجرد أن يوصف بهذا الوصف، أما إذَا كانَ صِفَة فإنَّه لَا يُمْكِن أن يَكُون اسمًا مثل إِرَادَة الله مشيئة الله هذِه لَا يُمْكِن أن تكون اسمًا لأنَّها وصف، ومن ذَلِك قَوْله تعالَى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ أي صاحب الرحمة.

فالفَرق بين الاسم والصفة: إذَا كانَ المضافُ إلَى الله صِفَةً فإنَّه لَا يكونُ اسمًا، وإذَا كانَ مشتقًّا فقَد يكونُ اسمًا، وقَد يكونُ مجرَّد خبَر.

فلَو قُلت: إنَّ الله مُتكلِّم، فَلَا نَقُولِ: المتكلِّم اسمٌ مِن أَسْماءِ الله، لَكِن هُو خبَر ووَصْفٌ لله عَزَّوَجَلَّ.

فائِدَة: الفَرْق بين الصِّفة الكاشِفة والصِّفة المقيِّدة؛ أنَّ الصِّفة الكاشِفة هِيَ التِي تدلُّ عَلَى أن هَذا الوَصْف لازمٌ، وأنَّه لَا يُمْكِن أن يَكُون مُخْرِجًا لغَيْرِه.

فمَثلًا قَوْله تَعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ [البقرة:٢١] نَقُول: إن قَوْله: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ صِفة كاشِفة؛ لأنَّك لو قُلتَ: إنَّها صِفة مُقيِّدة لَكانَ لنَا رَبَّانِ ربٌّ خالِق وربٌّ غيرُ خالِق، فالصِّفة إذَا كانَ لها مَفهومٌ فهِيَ مُقيِّدة وإذَا لم يَكُن لها مَفهومٌ فهِيَ كاشِفة، يَعْني مُبيِّنة للحَقيقة، فالربُّ هُو الخالِق.

ومِثل ذَلِك قَوْله تَعالَى: ﴿وَلَا تُكۡرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمۡ عَلَى ٱلۡبِغَآءِ إِنۡ أَرَدۡنَ تَحَصُّنٗا﴾ [النور:٣٣] لَا نَقُول: مَفهومُ: إذَا لم يُرِدْن تحصُّنًا فإنَّنا نُكْرِهُهُنَّ؛ لأنَّ هذِه صِفة كاشِفة؛ يَعْني: أنَّهن يُرِدْنَ التَّحصُّن وأَنْتم تُكْرِهُونَهُنَّ عَلَى البِغاءِ وهَذا لَا يَلِيقُ.

تَنبيهٌ: تَحقيقُ العَقِيدة أهمُّ عِندي مِن كُلِّ شَيْء، وأَنَا أَحْرِصُ بقَدْر مَا أَستطِيعُ أنْ يَكُون تَقْرِيرِي فِي بابِ العَقِيدة لِقوَاعِدَ؛ لأنَّ الكَلام عَلَى كل صِفَةٍ بمُفْردها يطول، لَكِن أحبُّ أن يَكُون لدَينا قواعدُ مُهمَّةٌ، وأنْ نَعرِفَ أنَّ طَرِيقَ الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وأئمَّة الأُمَّة بعدَهم هُو الأدَب مَعَ الله ومَع رَسُوله.

ونُؤمِنُ: بوَحْدانِيَّته فِي ذَلِكَ[١]، أَيْ: بأنَّه لَا شَرِيكَ لَهُ فِي رُبُوبِيَّتِهِ، ولَا فِي أُلُوهِيَّتِهِ، ولَا فِي أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ[٢]، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾[٣]

---

[١] قَوْله: «ونُؤمِنُ: بوَحْدانِيَّته فِي ذَلِكَ» المشار إِلَيْه فِي قَوْله: «ذَلِك» الرُّبوبية والأُلُوهيَّة والأَسْماء والصِّفات.

[٢] وقَوْله: «أَيْ: أنَّه لَا شَرِيكَ لَهُ فِي رُبُوبِيَّتِهِ، ولَا فِي أُلُوهِيَّتِهِ، ولَا فِي أَسمائِه وصِفاتِه»؛ لأنَّه لَا يُمْكنُ توحيدٌ إِلَّا بهذا، فلِلتَّوحيد رُكنانِ لا بُدَّ مِنهما: إِثْباتُ الحُكم للمُوَحَّد، ونَفْيه عمَّا سِواه؛ وذلِك لأنَّ النَّفيَ عَدَمٌ محْضٌ، والإثباتُ لَا يَمْنعُ المشارَكةَ.

فإذا قُلتَ: لَا قائمَ فِي البيتِ، فهَذا نفيٌ محضٌ، فهُو عدَم، وإذَا قلتَ: فلانٌ قائمُ فِي البيتِ، أثبتَّ قيامًا فِي البَيْت، لكنَّه لَا يمنعُ المشاركةَ، فقَد يكونُ فِيه شخصٌ آخرُ قائمٌ غيرَ فُلانٍ.

وإذَا قلتَ: لَا قائمَ فِي البَيت إلَّا فلانٌ، هُنا صارَ التَّوْحِيد، وهُو أنَّك وَحَّدتَ فُلانًا بالقِيام، فنَفيتَ القِيام عَن غَيره وأثبتَّه له.

إِذَنْ: لَا يُمكن تَوْحيد إلَّا بنَفْيٍ وإثباتٍ، فنُوَحِّد اللهَ فِي رُبُوبيَّته، وأُلُوهيَّته، وأسمائِه وصفاتِه؛ ولهَذا جاءَ كَلام العُلَماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ فِي مَسألة الصِّفات أنَّنا «نُؤمِن بِها مِن غَيرِ تَحْريفٍ ولَا تَعْطِيلٍ، ولَا تكييفٍ، ولَا تَمْثيلٍ».

[٣] قَوْله: قَالَ الله تَعالَى: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أَي خالِقهما، ومالِكهما، ومُدبِّرهما؛ لأنَّ الرَّبَّ هُو الخالِق، المالِك، المدبِّر.

قَوْله: ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ ذكَر الله تعالَى (مَا بينهما) علَى أنَّه عَدِيل للسَّموات والأَرْض، وكانَ الإِنْسانُ فِي الأول يتصوَّر أنَّه لَيْس بين السَّماء والأَرْض إلَّا أشياء

﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾ [مريم:٦٥][١].

لَا تُنْسب للسَّموات والأَرْض، فِي العظَمة والقُوة، لَكِن بعد أن ترقى النَّاس فِي العِلْم -أي: عِلْم الكَوْن- تبيَّن أن بين السَّماء والأَرْض أشياءَ يَحِقُّ أن تكونَ عَدِيلةً للسَّموات والأَرْض؛ تجد فِي القُرْآن الكريم قَوْله تعالَى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾ فكَيْف نصَّ عَلَى (مَا بينهما) مَعَ أَنَّه فضاء ولَا نشاهد إِلَّا نجومًا وقمرًا وشمسًا؟ نَقُول: بَيْن السَّماء والأَرْض من مخلوقات الله العظيمة مَا يقتضِي أن يَكُون معادِلًا للسموات والأرض؛ ولهَذا تجد النَّاس الآن كلَّ وقت يطلعون عَلَى أسرار فِي الكَوْن بين السماء والأَرْض لم يَعلم عنها النَّاس من قبل.

فإنْ قَالَ قَائِل: مَا مدَى صحَّة الحَدِيث الذِي يَقُول: «مَا بَيْنَ السَّماءِ الدُّنيا وَالَّتِي تَلِيهَا خَمْسُ مِئَةِ عَامٍ، وَبَيْنَ كُلِّ سَماءٍ خَمْسُ مِئَةِ عَامٍ»(١)؟

فالجَوَاب: هَذا الحَدِيثُ صحيحٌ، صحَّحه العُلَماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ وتلقَّوْه بالقَبول، وبَعْضُ المعاصرين أَنْكره، بِناءً على أنَّ المَسافة بَيْنَ السَّماءِ والأَرْض أكثرُ بكَثِير مِن هذا؛ لَكِن يُقال: مَا قَالَه هؤلاءِ مبنيٌّ علَى الظنِّ والتَّخْمين، فإنْ ثبَت قَطعًا صِرْنا إِلَى قولِ مَن قَالَ بضَعف الحَدِيث.

[١] قَوْله تعالى: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ﴾ أَي: تذلَّلْ لَه امتثالًا لِأَمْرِه، واجتنابًا لنَهْيه.

وقَوْله: ﴿وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾ أَي: اصبر، لَكِـن (اصطَبِر) أَبْلغ من (اصْبِر)؛ لأنَّ (اصطَبِر) أصلُـها (اصْتَبِر) بالتَّاء، لَكِـن قُلبت التَّاء طاءً لعِلَّة تَصريفيَّة. وزِيادةُ المَبْنَى

(١) أخرجه الترمذي: كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة الحديد، رقم (٣٢٩٨)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ونُؤمِنُ بِأَنَّه: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ﴾[١] ....

تَدلُّ عَلَى زِيادَةِ المَعْنَى، وكلمة: «الاصْطِبار» تدلُّ علَى معاناة الصَّبر، فهِيَ أَبْلغ مِن كلمة اصْبِر.

وقَوْله: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ هَذا نَفْي بمَعْنى النَّهي، وإتيان الاستِفْهام بمَعْنى النَّفْي أبلغ من النَّفْي المجرد؛ لأن الاستفهامَ المُرادَ بِهِ النَّفْي قَد أُشْرِبَ مَعنَى التَّحدي، فكأَنَّه يتحدَّى المخاطَب: هَل تعلم لَهُ سميًّا أيْ مُشابِهًا ونَظِيرًا؟ والجوابُ: لَا؛ يَعني: لَا تَعْلم لَهُ مُضَاهِيًا ونَظِيرًا، وذلِك لكِمالِ صِفاتِه.

وهَذِه الآية اشتملت عَلَى أقسام التوحيد الثلاثة: الربوبية والألوهية والأسماء والصِّفات: فالرُّبوبيَّة فِي قَوْله تعالَى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾، والأُلُوهيَّة فِي قَوْله تعالَى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾، لأنَّ هَذا القِسم مِن التَّوحيد يُطلق علَيْه تَوْحِيد الأُلُوهيَّة وتَوحِيد العُبُوديَّة، فهُو باعتِبار الإِنْسان تَوحِيد عُبُودية وباعتِبار الله عَزَّوَجَلَّ تَوْحيد أُلُوهيَّة، أما قَوْله تَعالَى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ فهَذا فِيه توحيد الأَسْماء والصِّفات.

[١] قَوْله: «ونُؤمِنُ بِأَنَّه ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾» نحنُ فِي هَذا الكِتاب جعلنا الحُكْمَ هُو الدَّلِيلَ؛ ولـهَذا نَحرِصُ علَى أنْ يكونَ كَلامُنا هُو نَفْس الدَّلِيل، فهُنا آيَةُ الكُرْسِيِّ تَضمَّنت أسماءً وصفاتٍ، فلم نَقُل: «نُؤمِن بأَنَّه اللهُ الحيُّ القيُّومُ...»، ومَا أَشبَه ذلِك، ولكنَّنا سُقنا الآيَةَ، فصارَ الآنَ الحُكمُ داخِلَ الدَّلِيلِ.

قولُه: ﴿ٱللَّهُ﴾ لَفظ الجَلالة مبتدأٌ، وجُملةُ: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ خبرُ المبتدأِ، ومَا بعدَه أخبارٌ متعددةٌ؛ فـ﴿ٱلْحَىُّ﴾: خبرٌ ثانٍ، و﴿ٱلْقَيُّومُ﴾: خبرٌ ثالث، و﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾: خبر رابع، إِلَى آخر الآية، إِلَّا قَوْله ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾.

ومعنى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، أَي لَا معبود حقٌّ إِلَّا هُو.

فإِنْ قلتَ: مَا الفـرق بينَ قَـولِ القائلِ: «لَا معبودَ حقٌّ إِلَّا الله»، وبينَ قـولِه: «لَا معبودَ بحقٍّ إلا الله»؟

قُلنا: الفَرق بينهما أَنَّك إِذَا قلتَ: «لَا معبودَ حقٌّ إِلَّا الله» صار هَذا أَوْفق للقُرآن، قالَ تعالَى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ [الحج:٦]، وأَنَّه لَا يَحتاج إِلَى تقديرٍ، لَكِن إِذَا قلتَ: لَا معبودَ بحقٍّ فالجارُّ والمجرورُ خبرٌ متعلِّق بمَحذوفٍ، تقديرُه لَا معبودَ كائنٌ بحقٍّ، أَمَّا إِذَا قلتَ: لَا معبودَ حقٌّ فإِنَّ الخبرَ هُو الموجودُ ولَا نَحتاجُ إِلَى تقديرٍ، لَكِن لو قلت «لَا معبود موجود» فَلَا يصح، لأنك إِذَا قلت: لَا معبود موجود إِلَّا الله صارت الأصنام كلها هِيَ الله عَزَّوَجَلَّ، وهَذا منكر عظيم!.

قولُه: ﴿ٱلْحَىُّ﴾ (أل) هُنا للشُّمول، والعُموم، والكَمال، يَعْني: ذُو الحياة الكاملة التِي لم تُسبَق بعَدَم، ولَا يَلحقُها فَناءٌ، فاللهُ عَزَّوَجَلَّ حيٌّ أَزَلًا وأَبدًا، لم يَسبِقْ حياتَه عدَمٌ، ولَا يَلحقُها فَناءٌ، وحياة المخلوقين ناقصة، فهِيَ مسبوقة بعدم وملحوقة بفناء؛ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان:١].

وقَالَ الله تَعالَى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد:٣]؛ فهُو الآخِر الذِي لَيْسَ بعدَه شَيْءٌ، يَعْني لو قُدِّر للمَخْلوقات كلِّها أن تَفْنَى فاللهُ لَا يَفْنَى، فالأبديَّة ثابتةٌ بأَخْبارِ الله فيَلْزَمُنا أن نَقُول: سَمِعْنا وصَدَّقْنا، ولَيْست هذِه الأبديَّة ذاتيَّةً لنَا، لَكِنْ أبديةُ الخالقِ أبديةٌ ذاتيَّةٌ، أَمَّا نَحن فيَجُوز عَلَينا الفناءُ وإِنْ كُنَّا فِي الجنَّة؛ ولَوْلا إِخبارُ الله تَعالَى بالأبديَّة لقُلنا: أهلُ الجنَّة كأهل الدُّنيا يَجُوز عَلَيهم المَوْتُ.

فـ﴿ٱلۡحَيُّ﴾ مُتضمِّنة لمعنَى الحياةِ الكامِل، مِن كَمالِ الصِّفاتِ؛ لأنَّ الحياةَ قَد تكونُ ناقصةً، أرأيتَ حياتَنا -نحنُ- ناقِصة، لأنَّها سُبِقت بعدَم، ومَلحوقةٌ بفناءٍ، ثُمَّ إن نَفْس الحياةِ الوُجُوديَّة ناقصةٌ، فالإِنْسان يَعتريه المَرَض فِي بصَرِه، وسَمْعه، وعَقْله، وفِي بَدَنه، فهِي ناقصةٌ، لَكِنْ حياةُ الله لَا يَعتريها نَقْصٌ، فهِي حياةٌ كاملةٌ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ.

وقَوْله: ﴿ٱلۡقَيُّومُ﴾ وَزْنها مِن حَيثُ التصريفُ: (فَيْعُول)، فهُو قائِمٌ بنَفْسِه قائِم علَى غَيرِه، قَالَ اللهُ تعالَى: ﴿أَفَمَنۡ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ﴾ [الرعد:٣٣]؛ هَذا يَدلُّ علَى أَنَّه قائِمٌ علَى غَيرِه.

وقالَ تعالَى: ﴿ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ [الحج:٦٤] ﴿ٱلۡغَنِيُّ﴾ مَعْناهُ أَنَّه قائِمٌ بنَفْسه، غيرُ مُحتاجٍ لغَيْره عَزَّوَجَلَّ، فهُو قائمٌ بنَفْسه مُستغنٍ عَن كُلِّ أحدٍ، وغيرُه مُفتقِرٌ إليه، لِقَوْل الله تَعالَى: ﴿أَفَمَنۡ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ﴾ [الرعد:٣٣]، وقولِه: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ بِأَمۡرِهِۦ﴾ [الروم:٢٥].

وقَوْله: ﴿لَا تَأۡخُذُهُۥ﴾ أَي لَا تَغْلبه.

وقَوْله: ﴿سِنَةٞ﴾ هِي النُّعاس.

وقَوْله: ﴿وَلَا نَوۡمٞ﴾ النَّوم مَعروف؛ والمعنى: لَا ينام ولَا ينعس، كَما جَاءَ فِي الحديث الصَّحيح: «إنَّ اللهَ لَا يَنَامُ وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ»[1] سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب في قوله عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «إن الله لا ينام»، رقم (١٧٩)، من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾[١]............

وإنَّما انتفَى عَنْهُ السِّنَةُ والنَّوْم لِكَمال حياتِه؛ لأنَّ النَوْم لَا يَحتاجُ إلَيْه إلَّا مَن كانَ ناقصَ الحياةِ، والدَّليل علَى ذلِك: أنَّ النَّومَ يكونُ راحةً لـما مضَى، ونَشاطًا لـما يُستقبل، فكُلَّما تَعِب الإِنْسان احتاجَ إلَى النَّوم، فاللهُ عَزَّوَجَلَّ لكَمال حياتِه لَا تأخذُه سِنةٌ ولَا نومٌ، ولكَمال قيُّوميَّته أيضًا؛ لأَنَّه إذَا كانَ قائمًا علَى كلِّ شَيْءٍ، لَزِمَ مِنْ ذلِك أَلَّا يَنامَ، ولَو نامَ فمَنِ الذِي يَقومُ علَى الخَلْق؟!

إِذَن: هَذا النَّفيُ فِي قولِه تعالَى: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ مُتضمِّن لِكَمالِ حَياتِه وكَمالِ قيُّوميَّته.

[١] قولُه: ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾: ﴿لَّهُۥ﴾ خبرٌ مُقدَّم، و:﴿مَا﴾ مبتدأٌ مُؤخَّرٌ، و:﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يَعْني: مَا كانَ فيهما، وتَقديم الخَبر يدلُّ علَى الحصَر والاختِصاصِ، أَي أنَّ مَا فِي السَّموات والأَرض لله لَا يُشارِكه فِيه أَحَدٌ.

وقَوْله: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى﴾: ﴿مَن﴾ اسم استِفْهام، والاستفهامُ هُنا بمَعْنى النَّفي، و:﴿ذَا﴾ زائدةٌ، و:﴿ٱلَّذِى﴾ خبرُ المبتدأِ، يَعْني: مَن الذِي يَشفعُ عِندَه إلَّا بإذنِه.

ولَو قَالَ قَائِل: أَلَيْسَت: ﴿ذَا﴾ إذَا أَتَتْ بعدَ الاستِفْهام تكونُ اسمًا مَوصولًا، كمَا قَالَ ابنُ مالِكٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١):

وَمِثْلُ مَا ذَا بَعْدَ مَا اسْتِفْهَامِ ... أَوْ مَنْ إذَا لم تُلْغَ فِي الكَلامِ

(١) الألفية (ص:١٥).

قُلنا: بلَى، لَكِن إذَا جاءَ اسم مَوْصول بعدَها تعيَّن أن تَكون مُلغاةً، وهُنا أَتَى بعدَها اسمٌ موصولٌ، لأَنَّه لو كانَ تَركيبُ الآيةِ: (من ذا يشفع) لقُلنا: (ذا) هُنا اسمٌ موصولٌ، لَكِن لـما قالَ: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى﴾ تعيَّن أنْ نَجعلَ (ذا) مُلغاةً.

فإنْ قِيل: أَلَا يَصح أنْ تكونَ (ذا) اسمًا مَوصولًا و(الذي) أيضًا اسمًا مَوصولًا، ويكونُ هَذا مِن بابِ التَّوكِيد اللَّفْظِي، وابنُ مالكٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَقُول[1]:

ومَـا مِـنَ التوكيـدِ لفظـيٌّ يَجِـي ... مكررًا كقولِك ادْرُجِي ادْرُجِـي

قُلنا: يُمكن، ولكِن يُضعِّفه اختلافُ اللَّفظ؛ لأنَّ الأوَّل (ذا) والثَّاني (الذِي) فهُو يُضْعف كونَه توكيدًا لفظيًّا.

قولُه: ﴿يَشْفَعُ﴾ الشَّفاعَة جَعْل الوتْرِ شِفْعًا، يَعْني: الواحد يُجعَل اثنَيْن، والثلاثة أربعةً، وهِي فِي اللُّغة: التَّوسُّط للغَير بجَلْب مَنفعة أَو دَفع مَضرَّة، فإذَا توسَّطت لشخص بأنْ يَبذل لَهُ الإِنْسانُ مالًا، فهَذا توسُّط لجَلْب مَنفعة، ولَو توسَّطت لإِنْسانٍ عَلَيه دَين لشَخصٍ، وقلتَ لصاحبِ الدَّين: لَا تَحبس هَذا المَدِين، فهَذا توسُّط لدَفْع مَضرَّة.

وشَفاعةُ النَّبي ﷺ لأهلِ الجنَّةِ أن يَدخلوا الجنَّة هَذا لجَلْب مَنفعة؛ وشَفاعتُه فِي أَهْل المَوقِف أنْ يُريحهم اللهُ مِنه لدَفع مَضرَّة.

قولُه: ﴿عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾ يَعْني: إلَّا إذَا أَذِن، والإِذْن هُنا إِذْنٌ كَونيٌّ؛ يَعْني: لَا أحدَ يَشفعُ عندَ الله إلَّا بإذنِه.

(١) الألفية (ص:٤٦).

يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ[١]........

وهَاهُو مُحَمَّدٌ صلَّى اللهُ عَلَيه وعَلَى آلِهِ وسلَّم أَفْضلُ الخَلْق عِنْد اللهِ؛ لَا يَسْتطِيعُ أنْ يَشْفعَ بِدُون إِذْنِ اللهِ تعالى، حتَّى يومَ القيامةِ لَا يَشفعُ إِلَّا إذَا أَذِنَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ.

ولَا يَأْذَنُ اللهُ إِلَّا إذَا رَضِيَ عَنِ الشافِع وعَنِ المَشْفُوعِ لَهُ؛ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَوۡمَئِذٖ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوۡلٗا﴾ [طه:١٠٩]، وقال تعَالَى: ﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ﴾ [الأنبياء:٢٨].

[١] قَوْله: ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ﴾ هذِه الجُمْلةُ خبرٌ مكرَّر لقَوْله: (الله).

﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ﴾ مَا اسمٌ مَوْصولٌ يدلُّ عَلَى العُمُوم، ﴿أَيۡدِيهِمۡ﴾ أَي: أَيْدِي الخَلْق، وهُو مُستفاد من قَوْله: ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ فقوله: ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ﴾، المُراد بِه: المستقبَل والحاضِر، ﴿وَمَا خَلۡفَهُمۡ﴾ أَي الماضِي، وعلَى هَذا يكونُ علمُ الله متعلِّقًا بالماضِي فَلَا يَنساه، ومتعلِّقًا بالمستقبَل فَلَا يَجهله، وهكَذا علمُ الله عَزَّوَجَلَّ عِلم بالسابق، وعِلم باللاحِق.

قَوْله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ لـما بيَّن الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ أنَّه يَعلم الحاضِر والماضِيَ والمستقبَل، بيَّن عِلم النَّاس وهَل علم النَّاس كعِلم الله شاملٌ؟! قالَ تعالَى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾؛ ولهذا لـما سألوا عَن الرُّوح كانَ الجَواب: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [الإسراء:٨٥] فنحن لَا نعلم مَا غابَ عنَّا إِلَّا إذَا أَعْلمنا الله عَزَّوَجَلَّ بذَلِك وبِما شاءَ، فالغَيبُ مجهولٌ لكلِّ أحَدٍ.

وقَوْله: ﴿مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ هَل هِي بمَعنى: ولَا يُحيطونَ بشيءٍ مِن عِلْم نَفْسه إلَّا بما شاءَ، بمَعنى: أَنَّنا لَا نَعلم شيئًا عَن الله إلَّا بما علَّمنا، فتكونُ الآيةُ كقَوْله تَعالَى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾؛ أَو أنَّ «عِلْمه» هُنا بمَعنى المَعْلوم، أَيْ لَا يُحيطون مِمَّا يَعْلَمُه بشيءٍ إلَّا بمَا شاءَ؟.

فالجوابُ: إنَّ النَّصَّ مِن القُرآن والسُّنة إذَا كانَ يحْتمل مَعنيين علَى السَّواء ولَا يُنافِي أحدُهما الآخَرَ فإنَّ الواجبَ حَمْله علَى المعنيَيْن جَمِيعًا.

فنَقول: النَّاس لَا يُحيطون بشَيءٍ مِن عِلمه، أَي: لَا يَعلمون عَن شَيْء مِنه جَلَّوَعَلَا -من أسمائه وصفاته- إلَّا بما شاءَ، بمَا يتعلَّق بالله كالعِلم باستِوائه عَلَى العَرش ونُزوله إلَى السَّماء الدُّنيا وبأَنَّه يَضْحك إلَى رَجُلين يَقْتُل أحدُهما الآخرَ كلاهُما يَدْخل الجَنَّة، ومَا أشبَه ذلِك، كَذلِك أيضًا لَا يُحيطون بشيءٍ مِن مَعلوماتِه إلَّا بما شاءَ؛ وذلِك لنَقْص عِلم الخَلق، وكَمال عِلم الله عَزَّوَجَلَّ.

فإن قالَ قَائِل: فِي قَوْل سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ ألا نَقُول: إن هذِه تختص بمَعلُومِه؟ لأَنَّه يُقابلها آياتٌ كقوله تَعالَى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ فتكونُ فِيها مختصَّة بذاتِه، أَي: فلَا يُحيط بذاتِه عِلمًا، وفِي آيةِ الكُرْسي تكونُ مختصَّةً بمَعْلُومه؛ لقَوْله: ﴿إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ وفِي تِلْك الآيةِ لَمْ يقُل: ﴿إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾؟

فالجوابُ: حتَّى عِلمُنا بما يتعلَّق بالله نَعلمه إذَا شَاء اللهُ، ولهَذا أخبرَنا الله عَزَّوَجَلَّ بأشياءَ كثيرةٍ لَا نَعلمها بعُقُولنا، لَوْلا النَّقْل لـما آمنَّا بِهَا، وكذلِك أخبرَنا الرَّسُول ﷺ؛

وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ[١] ....

فمَن يَدْرِي أنَّ اللهَ يَنْزِل إلَى السَّماء الدُّنيا فِي الثُّلُث الآخِر؟! لَا أحدَ يَدْرِي؛ وكذلِك الاستِواءُ عَلَى العَرْش لَوْلا أنَّه جاءَ فِي الكِتابِ والسُّنة مَا عَلِمنا بِهِ لأنَّه صِفَةٌ سَمْعِيَّةٌ لم تَثْبُتْ إلَّا بالسَّمع.

[١] قولُه: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ وَسِع بمَعْنى أحاطَ، والكُرسيُّ قَالَ فِيه ابنُ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «إنَّه مَوْضِع قَدَمَي اللهِ عَزَّ وَجَلَّ»(١)، وهُو بالنِّسبة للعَرْش أَصْغر بكَثِير؛ ولهَذا جَاءَ فِي الحَدِيث «مَا السَّمواتُ السَّبْع والأَرَضون السَّبْع بالنِّسْبة للكُرسيِّ إلَّا كحَلقةٍ أُلْقِيتْ فِي فَلَاة مِن الأَرْضِ -وهِي حَلقَة الدِّرْع، وهِي حَلقةٌ صَغِيرةٌ ضَيِّقةٌ، لو أَلْقَيْتَها لضَاعَتْ فِي الأَرْض لأنَّها لَيست بشيءٍ- وإنَّ فَضْلَ العَرْشِ عَلَى الكُرسيِّ كفَضْل الفَلاةِ علَى هذِه الحَلقة»(٢)، فالكُرسيُّ إِذَنْ هُو: مَوضِع قَدَمَي الله عَزَّ وَجَلَّ، أخذناهُ عَنِ ابنِ عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

وقَد فُسِّر الكُرسيُّ بأَنَّه العَرْش، ولَيْس كَذلِك، والذِين فسَّروه بأَنَّه العَرْش قالُوا: لأنَّ عُرُوش المُلُوك هِي الكَرَاسِي التِي يَجْلسون عَلَيها. فيُقال: إنَّ الله تعالَى وصَف العَرْش بأَوْصافٍ لم يَصِفْ بِها الكُرْسِي.

وفسَّر بعضُهم الكُرسيَّ بأنَّه العِلم؛ وهَذا أيضًا بعيدٌ جدًّا، وأينَ العِلم مِنَ الكُرسي؟!.

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٣/ ٢٥٠ رقم ٣٠٣٠)، وابن خزيمة في التوحيد (١/ ٢٤٨)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٢/ ٤٩١ رقم ٢٦٠١)، والطبراني في معجمه الكبير (١٢/ ٣٩ رقم ١٢٤٠٤)، وأبو الشيخ في العظمة (٢/ ٥٥٢)، والحاكم (٢/ ٢٨٢).

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه رقم (٣٦١)، وابن بطة في الإبانة (٧/ ١٨١)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ١٦٦)، من حديث أبي ذر الغفاري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَاۚ[١] وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [البقرة:٢٥٥][٢].

والصَّواب: أنَّ الكرسيَّ مَوضِع قَدَمَي الله عَزَّوَجَلَّ، وأنَّه مَخْلوقٌ عظيمٌ لَا يَقْدُر قَدْره إلَّا اللهُ، وكَذلِك العرشُ.

[١] قَوْله: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾ لَا يؤوده: أَي لَا يُثقله، ﴿حِفْظُهُمَا﴾ أَي: حِفظ السَّموات والأَرْض؛ وذلِك لكَمال عِلمه وكَمال قوَّته عَزَّوَجَلَّ، يَحْفظ السَّموات والأَرْض بما فِيهما ولَا يَثْقُل عَليه ذلِك؛ ولكَمالِ إِحاطتِه جَلَّوَعَلَا بكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا وقُدرةً، وكونُه لَا يُثْقِلُه الحِفْظ: يَتضمَّن العِلمَ والقُوَّةَ والسُّلطانَ وكُلَّ مَا يَحتاجُ إِلَيْه الحِفْظُ.

[٢] قولُه: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ ﴿ٱلْعَلِيُّ﴾: مَأخوذةٌ مِنَ العُلُو، ووَزنها فِي التَّصريف: (فَعِيل)، فهِيَ إِذَن صِفَة مُشبَّهة؛ لأنَّ (فَعِيل) صِفَة مُشبَّهة وتأتي للمبالغة، لَكِن هُنا لَا تَصِل إِلَى المُبالغة؛ لأَنَّها صِفَة لازِمة لَا تَتعدَّى للغَيْر، فهِي إِذَنْ: صِفَة مُشبَّهة.

فاللهُ تعالَى ﴿ٱلْعَلِيُّ﴾ وَصْفًا وذاتًا، فهُو عليٌّ بذاتِه، وعليٌّ بأوصافِه وقَدْره جَلَّوَعَلَا.

قَوْله: ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾: أَي: ذُو العظَمة وهِي كَمال السُّلطان، والقُدرة والقوَّة، فهِي تَشمل القوَّة فِي كُلِّ شَيْءٍ.

وهَذِه الآيَةُ تُسمَّى آيَةَ الكُرسِيِّ، وهِي أَعْظَمُ آيةٍ فِي كِتابِ الله، وهِي التِي إذَا قرَأها الإنْسان فِي ليلةٍ لم يَزَلْ عَلَيه مِنَ الله حافِظٌ، ولَا يَقْرَبُهُ شَيطَانٌ حتَّى يُصْبِحَ(١).

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الوكالة، باب إذا وكل رجلًا، رقم (٢٣١١)، من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

وقَد سألَ النَّبيُّ ﷺ أُبَيَّ بْنَ كَعْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقَالَ: «يَا أَبَا المُنْذِرِ! أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ الله، مَعَكَ أَعْظَمُ؟» قالَ: قلتُ: اللهُ ورسولُه أَعْلم، قالَ: «يَا أَبَا المُنْذِرِ! أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ الله، مَعَكَ أَعْظَمُ؟» قالَ: قلتُ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾، فضرَب فِي صَدْرِه وقال: «لِيَهْنِكَ العِلْمُ أَبَا المُنْذِرِ»(١).

مِن فوائدِ هذهِ الآيةِ الكريمةِ:

١- انفرادُ الله تعالَى بالأُلُوهيَّة؛ لقَوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ وهَذا الانفرادُ شَهِد اللهُ بِه، وشَهِدَتِ المَلائِكَةُ بِه، وشَهِد النبيُّون بِه، وشَهِد العُلَماءُ بِه، قَالَ الله تعالَى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران:١٨].

و﴿وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾ يَدخل فِيه الأنبياءُ بطَرِيقِ الأَوْلَى؛ لأنَّ العِلْم مَوْروث عنهم، عليهم الصَّلاة والسَّلام.

والفِطْرة تَشْهَد بذَلِك أيضًا؛ لقول النَّبي ﷺ: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ علَى الفِطْرَةِ فأَبواهُ يُهَوِّدانِه، أَوْ يُنصِّرَانِه، أَوْ يُمَجِّسَانِه»(٢).

٢- إثباتُ الحياةِ لله فِي قولِه: ﴿ٱلْحَيُّ﴾ والحَيُّ ضد الميِّت، وقد جمع الله تعالَى بَيْن إِثْبات الحياةِ وانتفاءِ الموتِ فِي قَوْله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان:٥٨].

(١) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب فضل سورة الكهف وآية الكرسي، رقم (٨١٠).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه، رقم (١٣٥٨)، ومسلم: كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة، رقم (٢٦٥٨) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

....

٣- أنَّ حياةَ الله تَعالَى كاملةٌ؛ لأنَّها سِيقَتْ مَسَاقَ المَدْحِ، ولَا مَدْحَ فِي الحَياةِ إذَا لم تَكُنْ كاملةً.

ولقَد صدَق الشَّاعِرُ العَرَبِيُّ حَيثُ قَالَ(١):

لَا طِيبَ للعَيْشِ مَا دَامَتْ مُنغَّصةً ... لَذَّاتُه بِادِّكَارِ الموتِ والهَرَمِ

يعني: لَيْس هُناكَ طِيب للعيش إذَا كَانَت لذَّاتُه مُنغَّصة بتَذكُّر المَوْت وتَذكُّر الهَرَم؛ لأنَّ الإِنْسان إمَّا أنْ يَهْرَم، أَو أَنْ يَمُوتَ قَبْلَ الهَرَمِ.

وانْظُرْ إِلَى مَن بَلَغ الهَرَم كَيفَ تَكونُ حالُه، فِي ضَعْف بَصَره وسَمْعه وقُوَّته وذاكِرَتِه، وكَوْنه عالَةً علَى أَهْله؛ ولهَذا قَالَ الله تَعالَى: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ [الإسراء:٢٣]؛ لأَنَّهما إذَا بَلَغا الكِبَر صارَا عالَةً علَى غَيرِهما، فيَقُول: فِي هَذه الحالِ لَا تَضْجَرْ مِنْهما.

٤- إثباتُ القيُّوميَّة لله، أَنَّه قائِمٌ بنَفْسِه، وقائمٌ علَى غيرِه؛ لقَوْله تَعالَى: ﴿ٱلْقَيُّومُ﴾.

فإنْ قَالَ قَائِلٌ: أينَ ذِكر الحَياة وأينَ ذِكر القيُّوميَّة؟

قُلْنا: لأن الحيَّ مُشْتقٌّ من الحَياة، والقيُّوم من القيُّومية، واعلمْ أنَّ كلَّ اسمٍ من أَسْماء الله فإنَّه مُتضمِّن لصِفةٍ، ولَا عَكسَ؛ وَجْه ذلِك: أنَّ الله تَعالَى وصَف أسماءَه بأنَّها «الحُسنَى»، ولَا تكونُ حُسنَى إلَّا إذَا تَضمَّنت مَعانِيَ، أمَّا الأسماءُ الجامِدَة فلَيْس فِيها حُسن، مَا هِي إلَّا عَلَمٌ فقط.

---

(١) غير منسوب، وانظره في: أوضح المسالك (١/ ٢٣٩)، شرح ابن عقيل (١/ ٢٧٤)، همع الهوامع (١/ ٤٢٨).

....

ولهَذا لَا نُسمِّي اللهَ عَزَّوَجَلَّ بالصَّانِع، ولَا بالمُرِيد، ولَا بالمُتكلِّم، ولَا بالمُستهزِئ، ولَا بالماكِر؛ لأَنَّه لَا يَلزم مِن ثُبُوت الصِّفَة ثُبُوت الاسمِ.

وهُنا قاعدةٌ مُهمَّة: قَالَ العُلَماءُ: لَا يَتِمُّ الإِيمانُ باسمٍ مِن أَسْماء الله إِلَّا بثَلاثةِ شُرُوط إِنْ كانَ متعديًا، وبشرطَيْن إِنْ كانَ غيرَ متعدٍّ.

فـإذا كانَ مُتعدِّيًا فـلَا يتم بِه الإِيمان إِلَّا إِذَا آمَنْت بالاسمِ، والصِّفَة، والأثَـر أَو الحُكم الذِي يَترتَّب علَى هذِه الصِّفَة.

مثال ذَلِك: السَّميع من أَسْماء الله، فمَن آمَن بأَنَّ الله سَميع، لَكِن لم يُؤمن بأَنَّ لَه سمعًا، فإِنَّه لـم يُؤمن بهذا الاسمِ، ومَن آمَن بأَنَّه سَميع ذُو سَمْع لكِـن قَالَ: إِنَّه لَا يَسْمع فإِنَّه لم يُؤمِن بهَذا الاسم، إِذَنْ: لا بُدَّ أن تُؤمِن بأَنّه سَمِيع، أَي تُؤمِن بالسَّمِيع اسمًا لله، وبالسَّمْع صِفَة له، وبأَنَّه يَسمع أثرًا أَو حُكمًا.

وإذا كانَ الاسمُ غيرَ مُتعدٍّ فللإِيمانِ بِه شَرْطان: الأوَّل: إثباتُ الاسمِ، والثَّاني: إِثبات الصِّفَة.

فالحيُّ اسم مِن أَسْماء الله، تُؤمن بأَنَّه الحي، وتُؤمن بأنَّ لَهُ حياةً فقط، ولَا تُؤمن بشيءٍ ثالثٍ؛ لأَنَّه لازِمٌ غيرُ متعدٍّ، فكيفَ يكونُ لَهُ شَيْء يَتعدَّى إليه؟!.

انظر إِلَى المعتزلة؛ يَقُولون: نُؤمن بأَسْماء الله، لَكِن لَا نُؤمن بصِفاتِه، فنُؤمن بأَنَّه سَميع لَكِن بِلَا سَمع، وبَصير بِلَا بَصر؛ أعمى الله بصائرهم!.

فيُقال لهم: وهَل يُعقل أن يُوصف أَحَد بوَصْف لَيس مُتصفًا بِه؟! فهَل يُقال للأَصَمِّ: إِنَّه سَميع؟! أبدًا لَا يُقال، لَكِن نَسأل اللهَ العافيةَ، هَذا مِصداقُ قَوْلِه تعالَى:

....

﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين:١٢]، وقالَ تعالَى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥].

٥- أن الله تعالَى مُنزَّه عَنِ السِّنَة والنَّوم؛ لقَوْله تعالَى: ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾.

فإنْ قَالَ قَائِلٌ: كيفَ تَقولُون: إنَّ صفات الله تعالَى عُليَا، أَي أنَّها اشتَملت علَى أَكْملِ الأَوْصافِ، والنَّفي عَدَم، والعدَم لَيْس بشيء؟!

فيُقال: إنَّ هَذا النَّفي لَيْس لُمطلق النَّفي، بَل هُو نَفي لـما تضمَّنه مِن كَمالِ الحَياةِ والقَيُّوميَّة؛ ولهَذا لَا يُوجد فِي صِفاتِ الله نَفْي مَحْضٌ أبدًا، بَل كُلُّ نَفْي فِي صِفاتِ الله فهُو مُتضمِّن لإثباتٍ.

فنَفي السِّنة والنَّوم يَتضمَّن مِنَ الإثبات: كَمال الحَياة والقَيُّوميَّة؛ لأنَّه إذَا كَمُلَتِ الحياةُ فَلَا نَوْمَ، وانظُر إلَى أَهْل الجنَّة -جعَلني اللهُ وإيَّاكم مِنْهم- لَا يَنامُونَ، وذلِك لِكَمالِ حَياتِهم، لَا يَمَسُّهم فِيها نَصَب، ولَا يَمَسُّهم فِيها لُغُوب، أَي: لَا إعياء ولَا تعَب، فَلَا يَحتاجون إلَى النَّوم، كَما أنَّهم لَا يموتُون.

وقَوْله تعالَى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت:٤٦]، وقَوْله تعالَى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٩]؛ هَذا نَفْي، لكنَّه لَيْس نفيًا مَحْضًا؛ لأنَّ النَّفْيَ المَحْض لَا كَمالَ فِيه، بَل هُو عدَم، لَكِن: لَا يَظْلم؛ لِكَمال عَدْلِه، لَيْس فِي صِفاتِه ظُلْمٌ إطلاقًا.

إِذَنْ: فقَوْله تعالَى: ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ يَتضمَّن نَفْيَ السِّنة والنَّوم عَنِ الله، مَعَ إِثبات كَمال الحَيَاة والقَيُّومِيَّة.

....

٦- عُمُوم مُلْك الله عَزَّوَجَلَّ؛ لقَوْله تعالَى: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

٧- اختِصاصُه بذَلِك، وأنَّه لَا أحدَ يَملِك شيئًا، لَا فِي السَّموات ولَا فِي الأَرْض، سِوَى الله.

ووَجْه الاختِصَاص: أنَّه قدَّم الخبَر، والقاعِدة: أنَّ تقديمَ مَا حقُّه التأخِير يُفيد الحَصْر، يَعْني إِثباتَ الحُكْم للمَذْكُور ونَفْيه عمَّا عَدَاه؛ إذن: ملك السَّموات والأَرْض لله وحده.

فإِنْ قِيل: مَا الجَمْع بَيْن أنَّ اللهَ تعالَى أَثْبت لَنَا مُلكًا، فقالَ تعالَى: ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾ [النور:٦١]، وبيَّن أنَّ المُلك مُختصٌّ بالله تعالَى؟

قُلْنا: مُلكنا نَحنُ لَيْس كمُلك الله عَزَّوَجَلَّ، فمُلكنا محدودٌ فِي مَناطِق العَمل ومحدود فِي العمل، فملْكِي -مثلًا- محدودٌ فِيمَا بَيْن يَدَيَّ، ولَا يَشمل مَا تَحت يَدِكَ أَنْتَ، وأيضًا ملْكِي لِمَا بَيْن يَدَيَّ محدود فِي العمل، فلَيْس لِي الخِيار أنْ أَعمَل فِيه بِمَا شِئت؛ ولهَذا لَو أَردت أنْ أُحرِق مالِي لَكانَ ذلِك حَرامًا عليَّ، لَكِن الله عَزَّوَجَلَّ يَفعل مَا يَشاء، قَد يُحرِق مُلْكه بالصَّواعِق وبغَير ذلِك مِن أَنواعِ المُتْلِفات.

٨- أنَّ السَّمواتِ جَمْعٌ، أَي أكثرُ مِن واحدةٍ، وفِي القُرْآن تأتِي السَّمَوات مُفردةً، قَالَ الله تَعالَى: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ﴾ [الذاريات:٢٢]، وقالَ تعالَى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك:١٦]، وتأتِي مجموعةً أيضًا كثيرًا، قالَ تعالَى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [الإسراء:٤٤].

ومِقدارُ هَذا الجَمْع سَبْعٌ، قالَ تعالَى: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ [النبأ:١٢]،

....

وقالَ تعالَى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ﴾ [المؤمنون:٨٦]، وقالَ تعالَى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ﴾ [الإسراء:٤٤].

كما أنَّ الأَرَضين سَبْعٌ، والدَّليل قَوْله تعالَى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق:١٢].

فالمِثْليَّة هُنا فِي العَدَد، لَا فِي القُوَّة ولَا فِي السّعَةِ؛ ولَا يُمكن أنْ تَتَّحِدَ السَّمواتُ والأرضُ إلَّا فِي العَدد، فتَقتضِي المِثْلية هُنا: أنْ تكونَ الأَرَضونَ مِثلَ السَّمواتِ فِي العدد.

كما جَاءَ ذلِك مُصرَّحًا به فِي السُّنَّة، فِي قَوْل النَّبي ﷺ: «مَنِ اقْتَطَعَ شِبْرًا مِنَ الأَرْضِ ظُلْمًا طَوَّقَهُ اللهُ إِيَّاهُ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ»[(١)].

٩- قوَّة سُلطان الله عَزَّوَجَلَّ، أَي: أَنَّه ذُو السُّلطان القَوِيِّ، وتُؤخذ هذِه الفائِدة مِن قَوْله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ يَعني: لَا أحدَ يَشفعُ عندَ اللهِ إلَّا بإِذْنه.

فالمَخْلوقُ مَهما عَظُم سُلطانه فإنَّه قَد يُشفع عِندَه بِلَا إذنه، فرُبَّما تَشفع زَوجة المَلِك فِي أَعْظَم الأمورِ خطَرًا، ورُبما غُلامه أيضًا يَشفع بِدُون استِئْذانٍ مِنه، لَكِن الرَّب عَزَّوَجَلَّ لِقُوَّة سُلطانِه لَا أحدَ يَشفع عِندَه إلَّا بإذنه، بَل ولَا يَتكلَّمُ إلَّا بإِذْنِه، قالَ تعالَى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [النبأ:٣٨]، ولهذا تَجِد

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المظالم، باب إثم من ظلم شيئًا من الأرض، رقم (٢٤٥٢، ٢٤٥٣)، ومسلم: كتاب المساقاة، باب تحريم الظلم وغصب الأرض وغيرها، رقم (١٦١٠)، من حديث سعيد بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

....

المَلِك المَهِيب لَا أحدَ يَتكلَّم فِي مَجلِسِه أبدًا، إلَّا إذَا هُو تَكلَّم، قَالَ الشَّاعر[1]:

يُغْضِي حَيَاءً وَيُغْضَى مِنْ مَهَابَتِهِ ... فَمَا يُكَلَّمُ إلَّا حِينَ يَبْتَسِمُ

وهذا يدلُّ علَى كَمَال الهيبة؛ (يُغضِي حياءً)، أَي: هُو حيي يُغضِي فَلَا يستطيع أن يرفع بصره للناس، (ويُغضَى من مهابته)، انظر الفرق، فهُو يغضِي حياءً وغيره يُغضِي مِنه مهابة، (فَمَا يُكلَّمُ إلَّا حِين يبتسمُ)، أَي مَا دَامَ ساكتًا لَا أحد يتكلم، وإذَا ابتسم انفتح الباب فتكلموا.

فربنا عَزَّوَجَلَّ لَا أحدَ يَشْفع عندَه إلَّا بإذْنه، فَلَا تَشْفع الأصنامُ، ولا يَشْفَعُ النَّبيُّون ولَا غيرُهم إلَّا بإِذْن اللهِ، لكنَّه عَزَّوَجَلَّ يَأْذَنُ لِمَنْ يَشاءُ ويَرْضَى.

ولهَذا قَالَ العُلَماء رَحِمَهُمُاللَّهُ: شُروطُ الشَّفاعَة ثلاثةٌ:

١- الرِّضا عَن الشَّافِع.

٢- والرِّضا عَن المَشْفُوع له.

٣- والإِذْن للشَّافِع أنْ يَشْفع.

١٠- إِثْبَاتُ الإِذْن للهِ عَزَّوَجَلَّ، وقَدِ استدلَّ بِه مَن قالَ: إنَّ اللهَ يَتكلَّم، قالَ: لأنَّ الإِذْن هُو الكَلام، فأَذِن أيْ قالَ: اشْفَعْ؛ لقَوْله تعالَى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾.

---

(١) ديوان الفرزدق (٢/ ٣٥٤).

....

١١- بُطْلان تَعلُّق المشركِين بأَصْنامهم؛ لأنَّهم يَقُولون: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾، فيَقُول الله تَعالَى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾، إِذَن: لَا تَشْفعُ هذِه؛ لأنَّ الله لَا يَرْضاها فَلَا يَرْضى أَنْ تَشْفعَ.

وقَد أَبْطل الله تعالَى تَعلُّق المشركِين بآلهَتِهِم مِن كُلِّ وَجْهٍ، فقالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ:٢٢، ٢٣] فالله عَزَّوَجَلَّ أَبْطَلها مِن كُلِّ وَجْهٍ، فَلَا يَمْلِكون شيئًا، ولَا يُشارِكون، ولَا يُعِينُون، ولَا يَشْفَعُون.

وهذِه الأصنامُ لَا تَمْلِك شَيْئًا علَى وَجْهِ الاستِقْلال، ولَا تَمْلِك شيئًا علَى وَجْه المُشَارَكة، ولَا يُعِينُون الله بشيءٍ وإنِ انْتَفَى مُلْكُهُمْ لقَوْله تعالَى: ﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾، ولَا يَشْفعون؛ لقَوْله تعالَى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾.

فِفِي الآيةِ الكَرِيمة آيةِ الكُرْسيِّ: قَطْعُ تَعلُّق المُشركِين بآلتهم لقَوْله تعالَى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾.

١٢- عُمُوم عِلْم الله؛ لقَوْله تعالَى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾؛ لأنَّنا قُلْنا: إنَّ هَذا يَتضمَّن الماضِيَ والحاضِر والمُستقبَل، فالماضِي فِي قَوْله: ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾، والحاضِر والمُستقبَل فِي قَوْله: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾.

١٣- عَظَمة الله عَزَّوَجَلَّ؛ لقَوْله تعالَى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ وهُو كقَوْله تعالَى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه:١١٠].

١٤- قُصُور عِلْم الإِنْسان، حَيثُ لَا يُحِيط بشيء إِلَّا بما علمه الله عَزَّوَجَلَّ.

١٥- إِثْبات الكُرْسِيِّ؛ لقَوْله تعالَى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾، وقد سَبَق لنَا أنَّ الكُرْسِيَّ لَيْس هُو العَرْشَ ولَا العِلْمَ.

١٦- عَظَمة هَذا المَخْلوق الذِي هُو الكُرْسِيُّ، ونَنْتَقِلُ مِن هَذا إِلَى فائِدَةٍ ثانيةٍ وهِي:

١٧- عَظَمة الله عَزَّوَجَلَّ، ووَجْه ذلِك: أنْ عَظَمة المَخْلوق تدلُّ علَى عَظَمة الخالِق.

١٨- إِثْبات قُوَّة الله عَزَّوَجَلَّ؛ لقَوْله تعالَى: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾ أَي لَا يَثْقل عَلَيه ذَلِك -وهِي مِن الصِّفات المنفيَّة-؛ وإِثْباتُ العِلْم؛ لأَنَّ الحافِظ يحتاج إِلَى عِلم، وإِثْباتُ القُوة والقُدرة علَى الحِفظ، فتضمَّنت هذِه الجُمْلة ثلاثَ صفاتٍ، وهِي مِن الصِّفات المنفيَّة، فَلَا يَؤُوده حِفظُهما لكمالِ عِلْمه وقُدْرتِه عَزَّوَجَلَّ.

١٩- إثباتُ العُلو والعَظَمة؛ لقَوْله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾؛ فالعلو فِي قَوْله: ﴿ٱلْعَلِيُّ﴾، والعظمة فِي قَوْله: ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾.

وهذا العُلو هُو عُلوُّ المَكانَة والشَّرَف، فيكونُ علوًّا مَعنويًّا وعلوًّا ذاتيًّا أيضًا، وقدِ اتَّفقتِ الأمَّة علَى إِثْبات العُلُو المعنويِّ لله تَعالَى، لَكِن اختلفوا فِي إثبات العُلُو الذاتِي لله تعالَى إِلَى طرَفين ووسَط.

فإذا قَالَ قَائِل: كَيْف تَقُولون: إنَّ الله تعالَى عليٌّ بذاتِه، واللهُ سُبحانَه لَا يُحِيط بِهِ شَيْء مِن مَخْلُوقاتِه؟

....

فنقُول: لأنَّ اللهَ أخبَرَنا بذلِك، ونَحْن نَقُول: هُو عليٌّ بذاتِه جَلَّوَعَلَا فوقَ كُلِّ شَيْءٍ، ولَا يَلْزم مِن إِثْبات العُلُوِّ لله تعالَى أن يَكُون محدودًا تُحيط بِه المَخْلوقاتُ؛ لأنَّ العُلُوَّ فَوْقَ المخلوقاتِ فَضَاءٌ لَا شَيْءَ فِيهِ حتَّى يُقالَ: إنَّ اللهَ قَدْ أحاطَ بِه شَيْءٌ مِن مخْلوقاتِه، يَعْني: لَو قدَّرْنا -ولله المَثَلُ الأَعْلى- أنَّ المَخْلوقاتِ كُلَّها بمَنْزلة البَيْضة المُعلَّقة فِي الهَوَاء، فالذِي فَوقَها هُو الهواءُ، وهِي لَيْسَت مُحيطةً بما فوقَها؛ لأنَّ مَا فوقَها عدَم، فَما فَوْقَ السَّمَواتِ والأَرْضِ إلَّا العدَم.

إِذَنِ: الرَّبُّ عَزَّوَجَلَّ لَا يُحيط بِهِ شَيْءٌ؛ لأنَّ مَا فَوْقَ المخلوقاتِ عَدَم لَيْسَ فِيه شَيْءٌ حتَّى يُحيطَ بالله عَزَّوَجَلَّ؛ ولهَذا نَقُول: «إنَّ اللهَ فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ بذاتِه»، ولَا يَلْزَمُ مِن هَذا القَوْلِ أنْ يَكُون شَيْءٌ مُحِيطًا بِه جَلَّوَعَلَا؛ وهَذا واضحٌ ظاهرٌ.

ولذَلِك لـمَّا قَدِمَتِ امْرَأَةُ الجَهْم بنِ صَفْوانَ -أظنها إِلَى بغداد- وقِيلَ لها: إنَّ الله استَوى علَى العَرْشِ، فقالَتْ: أعوذُ باللهِ! مَحْدُودٌ علَى مَحْدُودٍ[1]. يَعْني يَلزَمُ مِن كونِه مُستويًا علَى العَرْش أنْ يَكُون العَرْش مَحْدودًا؛ لأنَّ العرشَ مَعلومٌ أنَّه مَحْدودٌ، فإنَّ لَهُ قوائمَ كَما جاءَ فِي الحَدِيث[2]، لَكِن الرَّب عَزَّوَجَلَّ لَا يُحيط بِه شَيْءٌ، إِذَن: هُو العَلِيُّ بذاتِه حقًّا.

واعْلَمْ أنَّه قَـدْ دلَّ علَى عُلُـوِّه بذَاتِـه: الكِتابُ، والسُّنَّةُ، والإجماعُ، والعقلُ، والفِطرةُ، فكلُّ الأدلَّةِ مُتطابقةٌ علَى عُلُوِّ الله تعالَى بذاتِه.

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٥/ ٥٣)، وفيه: أنها نزلت بالدباغين.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب نفخ الصور، رقم (٦٥١٨)، ومسلم: كتاب الفضائل، باب من فضائل موسى ﷺ، رقم (٢٣٧٣)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

....

أمَّا القُرْآنُ فإنَّه تَنوَّعت دلالاتُه علَى عُلُوِّ الله، فمَرَّة يَقُول الله تَعالَى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى:١]، وقالَ تعالَى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة:٢٥٥]، ومرَّة يَقُول تَعالَى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ [السجدة:٥]، ومرَّة يَقُول تعالَى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر:١٠]، ومرَّة يَقُول تَعالَى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام:١٨]، بأنواعٍ مختلفةٍ مِن التَّعبيراتِ، وكلُّها تدلُّ دلالةً قاطعةً علَى أنَّ اللهَ بذاته فَوْقَ كلِّ شَيْءٍ.

وأمَّا السُّنة فقَد ثبَت عَن النَّبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ مِن قَوْله، وفِعْله، وإِقْراره.

أمَّا القَوْل: فإنَّه ﷺ كانَ يَقُول فِي سُجُوده: «سُبْحَانَ رَبِّيَ الأَعْلَى»[١]، وكَذلِك قَالَ ﷺ: «وَالعَرْشُ فَوْقَ المَاءِ، وَاللهُ فَوْقَ العَرْشِ»[٢].

وأمَّا فِعْلُه: فإنَّه ﷺ لـمَّا قَالَ فِي عَرَفة: «أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟» قَالَ الصَّحابَةُ: نَعَم. قالَ: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ» يَرْفع إصبعَه إِلَى السَّماء ويَنْكُتُها إِلَى النَّاسِ[٣]، أَي: يَردُّها إِلَيْهِم.

وأمَّا إِقْراره: فقَد قَالَ ﷺ للجَارِيَة: «أَيْنَ اللهُ؟» قالت: فِي السَّماء؛ فأقرَّها ﷺ؛ ولهَذا قالَ: «أَعْتِقْهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ»[٤]، فسَأل بـ(أَيْنَ) الدَّالَّة علَى السُّؤال عَنِ المَكانِ.

(١) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل، رقم (٧٧٢)، من حديث حذيفة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه الدارمي في الرد على الجهمية رقم (٨١)، وابن خزيمة في التوحيد (١/ ٢٤٢-٢٤٣)، وأبو الشيخ في العظمة (٢/ ٥٦٥)، وابن بطة في الإبانة رقم (١٢٨)، عن ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ موقوفًا.

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ، رقم (١٢١٨)، من حديث جابر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه مسلم: كتاب المساجد، باب تحريم الكلام في الصلاة، رقم (٥٣٧)، من حديث معاوية ابن الحكم السلمي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

ولَا يَلْزمُ مِن إِثْباتِ أنَّ اللهَ فِي مكانٍ أن يَكُونَ المكانُ مُحيطًا بِه، ونَحْن نَعْلم أنَّ الرَّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَعْلمُ النَّاسِ باللُّغة العَربيَّة، وقَدْ قَالَ: «**أَيْنَ اللهُ**»، والذِين يُنكرون عُلُوَّ الله بذاتِه يَقُولون: (أَينَ) بمَعْنى (مَنْ)، فيَكُونُ مَعْنى (أَينَ اللهُ)؟ أَيْ مَنِ اللهُ؟! ثُمَّ هُو لَا يُطابق الجَوَابُ السؤالَ لو قُلنا «أَيْنَ» بمَعنى «مَن»، لَكِن جوابُ: «مَنِ الله؟» أنْ تَقُولَ: اللهُ خالِق السَّمواتِ والأَرْضِ مثلًا، فعلَى كلِّ حالٍ نَقُول: هَذا الحَدِيثُ فِيه إقرارٌ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ علَى عُلُو اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

مسألةٌ: أَخذ بعضُهم مِن هَذا أنَّ الأعمالَ لَا تَدخُل فِي الإِيمانِ، وهَذا لَيْسَ بصَحيحٍ، فكُلَّما ذُكِر الإِيمانُ وحدَه دخَل فِيه الأعمالُ، وكلَّما ذُكِر الإِسْلامُ وحدَه دخَل فِيهِ الأعمالُ، وإذ اقترنا فُسِّر الإِيمان بما فِي القَلْب والأعمالُ بأَنَّه فِي الجوارح.

فإنْ قالَ قائلٌ: هُو لم يَسْأَلها عَنِ الأَعْمال بل حَكَم بإِيمانها بالقَلْب؟

فالجوابُ: لَيْسَ بلازمٍ، والرسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لـمَّا سَأل عَنِ الشَّيْء سأَل لسببٍ خاصٍّ؛ فالرَّجُل الذِي قالَ: أَوْصِنِي؛ قالَ له النَّبي ﷺ: «**لَا تَغْضَبْ**» فهَل عدَم الغَضَب أهمُّ مَا يُوصَى بِه؟ والجوابُ: لَا؛ فقَرائِنُ الأَحْوال تُبيِّن السَّبَب أَنَّه خصَّ هَذا دُونَ هَذا؛ فلعلَّ هذِه الجاريةَ عاشَت بَيْن الأَصْنام والأَوْثان التِي تُعبد وَهِي فِي الأَرْض؛ فقال لها: «**أَيْنَ اللهُ**» فقالت: فِي السَّماء؛ فعَلِم أَنَّها نَبذت الأصنامَ التِي فِي الأَرْض؛ فيَكونُ بمَعنى شهادةِ أنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ.

ومسألةُ الإِيمانِ الآنَ شاعَتْ بَيْن النَّاسِ وَهِيَ فِي الحقيقةِ خَطِيرةٌ لأَنَّها رُبَّما تُؤدِّي إِلَى مَذْهب المُرْجِئة ثُمَّ يَزْدادُ النَّاسُ فَسادًا إِلَى فَسادِهِم.

....

أمَّا فِي الدَّعوة إِلَى الله عَزَّوَجَلَّ فَلَا تَغْلُوا؛ كَما فعل بَعْض النَّاس، بحيثُ يَمتحِن النَّاس، فيُمسك واحدًا مِنهم فيَقولُ: أينَ اللهُ؟! فهَلِ الرَّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أولَّ مَا يدْعُو النَّاسَ يَقولُ: أينَ اللهُ؟ أبدًا؛ بل يَدْعوهم إِلَى شهادَة أن لَا إِلَه إِلَّا اللهُ وأنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله؛ ولَا يَحِلُّ لك أن تُجابِهَ في الدَّعْوة إِلَى الله فتَقُول: أَيْنَ اللهُ!.

نَعَم؛ إِذَا كُنْتَ فِي قَوْم يُنْكِرُونَ وُجُود اللهِ فيُمْكِن لَكَ أَنْ تَقولَ للشَّخْص: أَيْنَ اللهُ؟ لِتَعْرِفَ هَل هُو مُنْكِرٌ أَوْ مُثْبِتٌ؛ لكنْ أَنْ تَجْعل هذِه هِي مُقدِّمة الدَّعْوة إِلَى الله فهَذا غَلَطٌ عَظِيمٌ؛ ولقَدْ بَلَغنِي أَنَّ بَعْض الدُّعاة أَوَّلَ مَا يَسْأل الإنسانَ يَقول له: أَيْن اللهُ؟ بل أَعْلِمْهُ التَّوْحِيدَ: شَهادةَ أن لَا إِلَه إِلَّا اللهُ وأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله، وهذِه مسألةٌ تأتِي فِيما بَعْدُ؛ وإِذَا عَلِمْتَ أَنَّ بقَلْبه: أَنَّ اللهَ فِي كُلِّ مكانٍ، أَو أَنَّ اللهَ لَيْسَ فَوْقُ فحِينئذٍ بلِّغه وبَيِّنْ لَه.

وأَمَّا دليلُ الإجماع: فإِنَّ الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ والتَّابِعين وأَئِمَّة الأُمَّة بعدَهم كُلُّهم مُقِرُّون بأَنَّ اللهَ تعالَى فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ بذاتِه، ولَمْ يَقُل أحدٌ مِنْهم إِنَّ اللهَ لَيْس فِي السَّماء.

فإِنْ قَالَ قَائِلٌ: مَا هُو الدَّلِيل علَى إِجْماعِهم؟

قُلنا: الدَّليل علَى إِجماعِهم مِن وَجْهٍ خفيٍّ، لَكِن يَنْبَغي لطالِب العِلْم أنْ يَعْلمه؛ لِـمَا فِيه مِن الفائِدَة، وهُو أن يُقال: نُصوص الكِتاب والسُّنَّة دالةٌ علَى العُلُو بالذَّات، ولم يَرِد قولٌ واحدٌ عَن الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَنَّه فسَّر هذِه الأدلَّة بخِلاف ظاهِرِها، إِذَن: هُمْ مُجْمِعُون علَى مَدْلُولها؛ ولهَذا إِذَا دلَّ الكِتاب أَو السُّنة علَى شَيْء ولم يأتِ عَن الصَّحابة مَا يُخالفه، فيَعني ذلِك أَنَّهم مُجْمِعون عَلَيه، وهَذا المَسْلك لإِثْبات الإِجماعِ قَد يَخْفى علَى كَثِير مِنَ النَّاس.

وأمَّا مِن العَقْل: فإنَّه يدلُّ عَلَى عُلُو الله تَعالَى بذاتِه، لأَنَّنا لَو سأَلْنا أيَّ عاقِلٍ: هلِ العلوُّ مِن صِفَة الكمال أَو مِن صِفَة النَّقْص؟ لقال: إنَّها صِفَة كمالٍ بِلَا شَك، فالعُلوُّ صِفَةُ كمالٍ بإجماعِ العُقَلاء.

وقَد ثَبَت لله تعالَى كُلُّ وصفِ كمالٍ، كَمَا قَالَ الله تَعالَى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل:٦٠]، والسُّفْل نَقْص، واللهُ مُنزَّهٌ عَن ذلِك النَّقْص.

فدلَّ العَقْل علَى عُلُو الله تعالَى مِن وَجْهَيْنِ:

الوَجْه الأَوَّل: ثُبُوت صِفات الكَمالِ لَه.

الوَجْه الثَّاني: انتِفاء صِفات النَّقْصِ عَنْه.

فإن قَالَ قَائِل: وهَل لنَا أن نَستدِل بالعَقْل فِيمَا يَتعلَّق بأَسْماء الله وصِفاتِه؟

قُلنا: إنَّ مَا يَتعلَّق بأُمور الأَسْماء والصِّفات فهِيَ مِن أُمُور الغَيْب، وأُمُور الغَيب تَعتمِد علَى الخَبَر المَحْض، ولَا يُمْكِن دُخُول العَقل عَلَى وجهِ التَّفصيل فِي بابِ الأَسْماء والصِّفَات؛ لأنَّ اللهَ تعالَى لَيْسَ كمِثْله شَيْء فلَا يقاسُ بخَلْقه.

وعلى هَذا فإنَّ العَقل يُدرك إِدْراكًا عامًّا بأَنَّ الرَّب لا بُدَّ أن يَكُون موصوفًا بصِفات الكمالِ؛ هَذا عَلَى سبيلِ العُموم.

ولـهَذا نستدلُّ أحيانًا علَى ثُبـوت الصِّفَة لله بالسَّمع والعَقل، فنَقـول: دليلُه من الشَّرع كَذَا، ومِن العَقـل كَذَا، لَكِـن تفاصيل ذلِك لَا يُمْكِـن إدراكها بالعَقل، ولـهَذا يُخطـئ مَن يَعتمد علَى العَقل فِي باب الأَسْماء والصِّفَات؛ لأنَّه يُـؤَدي بِـه الخطـأُ إِلَى تحريفِ الكِتاب والسُّنَّة مِن أجـل مَـا يدَّعـي أَنَّه عَقل، ولكـنَّه فِي الحقيقة

«عَقْلُ[١] عَقْلٍ»، ولَيْس عَقلًا، يَعْني: أَنَّه يَعقِل العَقْلَ عَمَّا يَنبغي أن يَكُون علَيْه، فكَيْف تَحكُم علَى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بعَقلك القاصِر، وهَل هَذا إلَّا عقلٌ للعَقْل الرَّشيد، ولهَذا ضلَّ مَن ضلَّ مِن النَّاس الذِين هُم علَى جانِب مِن الذَّكاء والعَقْل الإِدْراكي، لكنَّهُم -كَما قَالَ عنهم شَيْخ الإِسْلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ-: «أوتوا ذَكاءً ولم يُؤتَوا زَكاءً، وأُعْطُوا فُهومًا ولم يُعْطُوا عُلومًا»[٢]، نسأل اللهَ العافيةَ! فمثلًا: إذَا قَالَ قَائِل: القُدرة صِفَة كمالٍ، يُعلَم ذلِك بالعَقل، فنُثبت لله تعالى صِفَة القُدرة، لَكِن أَيْنَ نحنُ مِن الأدلَّة الكَثيرة الدالَّة علَى إثبات القُدرة؟! نأتي أولًا بالدَّلِيل السَّمعي ثُمَّ نأتي بالدَّلِيل العَقليِّ، والدَّلِيلُ العقليُّ يُؤيِّد الدَّلِيلَ السَّمعي ويَشهد بصِحته.

وأمَّا الفِطرة: فكلُّ إِنسان مَفْطور علَى أنَّ اللهَ فِي السَّماء، حتَّى الكفَّار؛ فلو دعَا الكافِر ربَّه -على وَهْلة- لرأيته يتَّجه قلبُه نحوَ السَّماء، بَل العَجوز التِي لم تَقرأ ولم تَعرف شيئًا مِن الكُتب تَعرف أنَّ الله فَوْقُ -وهِي عَجوز لَا تدرِي- لَكِن بمُقتضَى فِطرتِها، فتجدُها فِي مُصلَّاها تَقُول: يَا ربِّ! تَرفع يدَيها إِلَى الله عَزَّوَجَلَّ، فمَن أعلمَها بذَلِك؟ الجَواب: فِطرتُها، فهَذا شَيْء مَفْطور عَلَيه الخَلْق، بَل كُلُّ إِنْسان الآنَ يَدْعو ربَّه يتَّجه قلبُه للسماء: يَا ربِّ! قَالَ النَّبِي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّماءِ يَا رَبِّ! يَا رَبِّ!**»[٣]، والذِي دلَّه علَى ذلِك الفِطرةُ.

---

(١) أَي: مَنْعُ. والعَقلُ أصلُ مَعْناه المَنْعُ، ومنه العِقالُ للبَعير سُمِّي به لأنَّه يَمْنَعُ عمّا لا يليق. (تاج العروس) مادة: «عقل».

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (٥/ ١١٩).

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب، رقم (١٠١٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وقَد اجتَمع بي أناسٌ مِن هَؤلاءِ الذِين يَقُولون -والعياذُ بالله-: إنَّ الله بذاتِه فِي كلِّ مكانٍ، وكانَ ذلِك يَوْم النَّحر فِي مِنى، فقُلت لـهم: أنتُم أمسِ فِي عَرَفة؟ فقالوا: نَعم، قُلتُ: كَيْف تَدْعون الله، تَقُولون: يَا ربِّ! يَعْني أَيْدِيكم إِلَى الأَرْض أو يَمينًا أَو يسارًا؟ قالوا: لَا، نَقُول يَا ربِّ -برَفْع أيدِيهم إِلَى السَّماء-؛ إِذَنْ: رَفَعْتُم أَيديَكُم إِلَى مَن تَدْعُونَه! فقالُوا: إِنَّما نَرفع أيدِينا إِلَى السَّماء لأنَّ السَّماء قِبْلة الداعِي، فانظُر الشيطانَ كَيْف لبَّس عليهم -سبحان الله!- فأنتَ الآنَ عندَما تَسْتقبل القِبلة وأنتَ تَدْعُو قِبْلتُك الكعبةُ وليسَتْ هِيَ قِبْلة الداعِي، لكنَّك تَرْفع يَديك إِلَى المَدْعُوِّ لاشكَّ ولَا تحتاج إِلَى تحريكٍ.

إِذَنِ: العُلُوُّ المَعْنويُّ مُتَّفَقٌ عَلَيه بَيْن الأُمَّة.

والعُلُوُّ الذَّاتِيُّ مُخْتَلَفٌ فِيه؛ لأنَّ النَّاس انقسَموا فِيه إِلَى طرَفين ووسَط:

طرَفٌ قالُوا: إنَّ الله تعالَى فِي كُلِّ مكانٍ، فإِنْ جِئْت إِلَى المسجدِ فاللهُ فِيه، أَو فِي السُّوق، أَو فِي البَرِّ، أَو فِي البَحر، أَو فِي الجوِّ، أَو فِي الأماكِن القَذِرة، أَو فِي جَوف الحَيَوانات، الحَمير والكلاب؛ فالله فِيه -أعوذ بالله!-، فهم يَقُولون: إِنَّه فِي كلِّ مكانٍ -نسأل الله العافية- وهَذا كُفْر لَا إشكالَ فِيه، ولَو أَنَّك وصَفت أحدًا من المَخْلوقِين بهذِه الأوصاف لجلَدك أكثرَ مِن ثمانينَ جَلْدة، فكَيْفَ الله عَزَّوَجَلَّ! لَكِن هؤلاءِ زُيِّن لهم سُوء أَعْمالهم، فهَؤلاءِ قالُوا: الله فِي كل مكان.

فقابلهم طائفة أخرى قالُوا: إن الله تعالَى لَيْس فَوْقَ العالم، ولَا تَحْت العالم، ولَا متصلًا بالعالم، ولَا منفصلًا عَن العالم، ولَا مباينًا للعالم، ولَا محايثًا... ثمَّ سَرَدُوا

....

نَفيًا كثيرًا، وحقيقةُ قولِهم العدَم، ولهذا قَالَ محمود بن سُبُكْتِكِين رَحِمَهُ ٱللَّهُ لمحمد بن فُورَك لـمَّا وَصَف الله تعالَى بهذا؛ قالَ: بَيِّن لنَا الفَرْق بَيْن إلهٍ تَعْبدُه وإلهٍ مَعْدوم؟![1] فلَا فرقَ، ولـهَذا قَالَ بَعْض العُلَماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: لَو قِيل لكَ صِفْ لنَا العدَم، لم تَجِد وَصْفًا أدقَّ مِن هَذا الوَصْف.

فهَؤلاءِ أخطؤُوا، وهَؤلاءِ أخطؤُوا؛ **أمَّا أَهْل السُّنَّة والجَماعَة فقالُوا**: إنَّ اللهَ تعالَى فَوْقَ كلِّ شَيْء ولَيْس فِي كُلِّ مكانٍ، ولَا يَحُلُّ فِي شَيْء مِن مَخْلوقاته أبدًا، وهَل يضرُّ إذَا قُلْنا: إن الله فَوْقَ كلِّ شَيْء بِدُون إحاطةٍ بِه، هَل يضرُّ اللهَ شيئًا؟ أبدًا، ولَيْس فِيه نَقْص.

ولـهَذا نَقُول: إنَّ عُلُـو الله عَزَّوَجَلَّ بذاتـه دلَّ عَلَيه الكِتاب والسُّنَّة والإِجماعُ والعقلُ والفِطْرة، وهُوَ واضحٌ، ولله الحَمْد، ولَا إشكالَ فِيه؛ إلَّا عَلَى مَن أعمَى اللهُ بَصِيرتَهم!.

فإن قَالَ قَائِل: إن الله تعالَى يَقُول: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه:١١٠]، وقالَ تعالَى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾، وهَذا يدلُّ علَى أنَّه لَيْس لَهُ مكان؛ فإذَا كَانَت هذِه المَخْلوقات وهِي مَخْلوقاته فِي هذِه السّعة والعظمة فهُو -أيضًا- لَيْس لَهُ مكان؟

قُلْنا: نعم إن قلتم: لَيْس لَهُ مكان يحيط بِه فهَذا صَحِيح، وإن قلتم: لَيْس لَهُ مكان، أَي أنَّه لَيْس فَوْقَ كل شَيْء؛ فهَذا باطل.

---

(١) انظر: درء تعارض العقل والنقل (٦/ ٢٥٣).

....

والذين قالوا: إن الله فِي كل مكان استدلوا بآية وهِيَ قَوْله تعالَى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾ [المجادلة:٧]، وفِي الآية الأُخرَى قالَ تعالَى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد:٤].

فنَقُول: إذَا أَثْبتم المعيَّة الذاتيَّة نَفَيْتم بذَلِك أدلَّة العُلُو؛ لأنَّ كونَه عاليًا علَى كُلِّ شَيْء يَمْنع أن يَكُون مَع كُلِّ شَيْء فِي مكانِه، إِذَن: أَخَذْتم ببَعْض النُّصوص وترَكْتم بَعْضَها!.

وإِذَا قُلتم: هُو معَنا مَع عُلُوه، فهَذا هُو المطابِق للآياتِ، والمعيةُ لَا تَمْنع العُلُو أبدًا، ومِن كَلام العرَب المعروفِ: «مَا زِلْنَا نَسِير والقَمَر معَنا»؛ قالَ شَيْخ الإِسْلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي العَقِيدة الواسطيَّة[1]: «القمَر مِن أصْغر مَخْلوقاتِ الله -يَعْني الفَلَكيَّة- وهُو مَع المسافِر وغير المسافر». اهـ

وانظر إلَى قَوْله ﷺ فِي دعاء السَّفر: «**اللهُم أنتَ الصَّاحِب فِي السَّفر والخَلِيفة فِي الأَهْل**»[2] فأثبَتَ أنَّ الله هُو الصاحِب فِي السَّفر، وأنَّه الخَليفةُ فِي الأَهْل، وذَلِك لكَمال إحاطتِه بالمسافِر وبأَهْله.

فالحاصِل: أن المعيَّة لَا تُنافي العُلُو إطلاقًا، إذ قَد يَكُون الشَّيْء مِن المَخْلوقات عاليًا وهُو معَك، فكَيْف بالخالِق عَزَّوَجَلَّ؟!.

---

(١) العقيدة الواسطية (ص:٨٤).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الحج، باب ما يقول إذا ركب إلى سفر الحج وغيره، رقم (١٣٤٢)، من حديث ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا.

وَنُؤْمِنُ بِأَنَّهُ[١] ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ[٢] عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ[٣]﴾.....

[١] قَوْله: «وَنُؤْمِنُ بِأَنَّهُ» أَي الله عَزَّوَجَلَّ.

[٢] قَوْله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ سَبَق الكَلام عَلَيْها[١].

[٣] قَوْله: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾ المُراد بِهِ الغَيب المُطْلَق؛ لأنَّ الغيبَ نوعانِ: غيبٌ نِسبيٌّ، وغيبٌ مُطْلَق، والغيبُ: كُلُّ مَا غابَ عَنِ الإنْسانِ.

فالغيبُ المطلَق يختصُّ اللهُ بعِلمه، والغَيب النِّسبي يختصُّ بعِلمه مَن لم يكُن غيبًا عندَه، فمثلًا: أنتَ الآنَ لكَ أشغالٌ فِي نَفْسك، فهي بالنِّسبة لي غَيب، وبالنِّسبة لَك شهادةٌ، والغَيب الذِي اختصَّ الله بِهِ هُو الغَيْب المُطْلق، قَالَ الله تَعالَى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل:٦٥]. فمَنِ ادَّعى أنَّه يَعْلم الغيب فهُو كافر؛ لأنَّه مُكذِّب لله عَزَّوَجَلَّ فِي قَوْله تعالَى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾.

فلو قالَ مثلًا: سيكُون غدًا كَذَا وكَذَا، قُلْنا: هَذا كافِر؛ فهَذا كافِر إذَا قَالَ: أَنَا أَعْلم مَا يَكُون فِي غدٍ، أما إذَا قَالَ: أنا أتخرَّص، وبناءً عَلَى الحوادث والماجَرَيات أقولُ: سيكُون غدًا كَذَا وكَذَا، فهَل هَذا ادَّعى عِلْم الغيب؟ لَا، ولَو قَالَ: سيَقدَم فلان غدًا، بِناءً عَلَى مَا جرَى من الأحوال، فهَذا لَيْسَ علمَ الغيب، لَكِن لو قَالَ: أَنَا أَجْزِم أن سيكُون كَذَا وكَذَا غدًا، وأَعْلم ذَلِك كَما أَعْلم الحاضِر؛ قُلْنا: هَذا كَذِب وهَذا تَكْذِيب للقرآنِ.

قَوْله: ﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أيضًا يَعْلم عَزَّوَجَلَّ الشَّهادةَ، فَلَا يَخْفَى عَلَيه شَيْء، لَا مُشاهَد، ولَا غائِب.

---

(١) انظر (ص:٥٩).

هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ [١] ....

[١] قَوْله: ﴿هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ الرَّحْمَن اسمٌ مِن أَسْماء اللهِ تعالَى، والرَّحِيم كَذلِك اسمٌ من أَسْماءِ اللهِ تعالَى، فهَذانِ اسمانِ عَظِيمانِ خُتِمت بهما البَسْمَلة: بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ.

ومَعْناهما: ذُو الرَّحْمَةِ.

لَكِنِ الأَوَّلُ باعتِبارها وصفًا، والثَّاني باعتِبارها فِعلًا، وذلِك أنَّ رَحمةَ اللهِ وَصْف وفِعْل، فهُو ذُو رَحْمة، وهُو يَرْحَم، قَالَ الله تَعالَى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَفُورُ ذُو ٱلرَّحۡمَةِ﴾ [الكهف:٥٨]، وقالَ تعالَى: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرۡحَمُ مَن يَشَآءُ﴾ [العنكبوت:٢١].

وبناءً على هَذا فلَيْس فِي ذلِك تكرارٌ، يَعْني إذَا قُلْنا: الرَّحْمة الدالُّ عَلَيْها الرَّحْمَن هِي رَحْمةٌ باعتِبَارها وَصْفًا، والرَّحْمة الدالُّ عَلَيْها الرحِيم هِي رَحْمةٌ باعتِبارِها فِعلًا، حِينئذٍ نَقُول: لَيْس فِي الجَمْع بَيْن هذَيْن الاسمَيْن تكرار.

فالرَّحْمة صِفَةٌ ذاتيةٌ لله عَزَّوَجَلَّ باعتِبَارِها وَصْفًا لله تَعالَى، ومعنَى «صِفَة ذاتية»، أَي: أنَّها مِن الصِّفات اللَّازمة أبدًا وأزلًا، فهُو لم يَزَل ولَا يَزَال رَحِيمًا، وهِيَ باعتِبار تَعلُّقها بالمَرْحوم صِفَة فِعلية؛ لأنَّ الله تعالَى يَرْحم فلانًا ولَا يَرْحم فلانًا، وكُلُّ شَيْء يَكُون كَذلِك فهُو مِن الصِّفات الفِعلية.

إذَن: الرَّحمة صِفَة ذاتيَّة لله عَزَّوَجَلَّ باعتِبارها وَصفًا، وفِعلية باعتِبار تَعلُّقها بالمَرْحُوم.

وإنما قُلْنا هَذا لأنَّه جَمَع بَينَهما، فإذَا حَمَلنا هَذا علَى مَعْنى وهَذا علَى مَعْنى سَلِمنا مِـن التَّرادُف، وإذَا دار الأَمْـر بين الترادُف والتبايُن وجَب حَمْـل الكَـلام علَى التبايُن؛

ليكونَ للكَلِمة الأُخرى فائِدَة غير التَّكرار، ثمَّ إنَّ الله رَحيم باعتِبار الرَّحمة فِعلًا له، لَيْس مَعْناه أنَّه غَير مُتَّصف بالرَّحمة؛ لأنَّه لَا يَرْحم إلَّا مَن كانَ ذا رَحمة، لَكِن الرَّحمن نُظِر فِيها إِلَى الوَصْف أَكثر، وهذِه إِلَى الفِعل أَكثر، ولهَذا بِنْيَةُ كلمة: «الرَّحمن» تدلُّ علَى ذَلِك، فكلمة «فَعْلان» فِي اللُّغة العَرَبية تدلُّ علَى الامتِلاء، فتَقول: هَذا الرَّجل غَضبانُ، يَعْني ممتلئٌ غضَبًا، وكَذلِك سَكران، ونَدْمان، ومَا أَشبَه ذلِك.

فإذا ذُكر «الرَّحمن» أَو «الرَّحيم» وَحْده شَمل الوَصف والفِعل؛ كقَوله تَعالَى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [الفرقان:٦٠] فهَذا يَشْمَل الوَصْف والفِعل.

وقالَتِ الأشاعِرة -ومِن ورائِهم المعتزلةُ والجهميةُ-: لَيس لله رحمةٌ، والرَّحمة بمَعْنى الإرادة، فإنْ أثبتَّ لله رحمةً فهَذا حرامٌ علَيْك، وقَد وَصَفت اللهَ بِما لَا يَلِيق بِه!! وإذَا وَصَفْت اللهَ بالرَّحْمة وصَفَتْه بما لَا يَلِيق بِه؛ لأنَّ الرحمةَ فِيها ليُونَةٌ وسُهولةٌ، والـرَّبُّ عَزَّوَجَلَّ مُنزَّهٌ عَن ذَلِك، فالـرَّبُّ ذُو سُلطانٍ عَظيمٍ لَا يَـرِقُّ، والرَّحْمة فِيها رِقَّةٌ.

قُلْنا لهم: ماذا تَقُولون فِي قَوْله تَعالَى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾؟ وماذا تَقُولون فِي قَوْله تَعالَى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الأنعام:١٣٣]؟ وماذا تَقُولون فِي قَوْله تَعالَى: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ﴾ [العنكبوت:٢١]؟

قالوا: مَعْناها الإِرَادَة، يَعْني إِرَادَة الخَير، فمَعنى ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ أَي مُرِيد الإِنْعام والإِحْسان، أَو هُو الإِحْسان نَفْسُه.

....

فيُفسرون الرَّحمة تارةً بـ«إِرَادَة الإحسان» وتارةً بـ«الإحسان» نفسِه.

ونَقُول لهم: إِرَادَة الإحسان ناتجةٌ عَن الرَّحمة، فمَن يُرِيد الإِحسانَ إلَّا من كانَ رحيمًا، والإحسانُ نفسُه ناتجٌ عَن الإرادَة النَّاتجة عَن الرَّحمة.

وفسَّرُوا الرَّحمة بإرادةِ الإِنعام أَو بالإِنعام نفسِه دُونَ الصِّفة لله عَزَّوَجَلَّ، فقالُوا: إنَّ الرَّحمة تَقتضي اللِّين والرِّقَّة والله عَزَّوَجَلَّ منزهٌ عَن ذَلِك!

فَهُم يُثبِتُونَ الإرادَةَ بالدَّلِيل العَقلي، فيقولُون: الإرادةُ ثابتةٌ، فنُحوِّل الرَّحمة إِلَى مَعنَى الإرادة التِي نُقرُّ بهَا ونُثبتها! وبَعضُهم يقول: لَا، بَلِ الرَّحمة هِيَ الإحسان نفسُه، والإحسانُ: مثلَما أَنْعم اللهُ علَيْك بمالٍ، أَو أَنْعم الله علَيْك بعِلم، أَو أَنْعم الله علَيْك بوَلَد؛ فهَذا الإحسانُ المُرادُ بِهِ النِّعمة ويكونُ مخلوقًا عَلَى هذا؛ لأَنَّ العِلْم الذِي عِندَكَ مخلوقٌ، والولَد مخلوقٌ، والمالُ مخلوقٌ؛ فيُفسِّرونه إمَّا بالمخلوقِ أَو بالإرادَة؛ لأَنَّهم لَا يُنكرون أن يَكُون للهِ مخلوقٌ، ولَا يُنكرون الإرادةَ.

ونَقُول لـهم: إذَا أَثْبتُّم الإرادةَ فقَد شبَّهتم اللهَ بالمَخْلوقِ؛ لأَنَّ المَخْلوق لَهُ إِرَادَة، قَالَ الله تَعالَى: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾ [آل عمران:١٥٢]، وقالَ تعالَى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾ [الإسراء:١٩]، وقالَ تعالَى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ [الإسراء:١٨]، فأَثبتُّم لله إِرادَة وللمَخلوقِ إِرادَة، فيَلزم -علَى قاعدتِكم- المُماثَلَة!.

وأيضًا إذَا فسَّرْتُمُ الرَّحْمة بالنِّعم التِي أَنْعم اللهُ بِها، فإنَّ هذِه النِّعم لَا يُمْكِن أَنْ تَصْدُرَ إِلَّا عَن إِرَادَة، وإرادةُ النِّعم لَا يُمْكِن أَنْ تَصدُرَ إِلَّا عَن رَحْمَةٍ، فلَزِمَكُم ثُبُوتُ الرَّحمة علَى كُلِّ حالٍ.

وخُلَاصَةُ القَوْلِ: أنَّا نحنُ -معشرَ أَهْل السُّنَّة والجماعَة- نُثبت كُلَّ مَا أَثْبته اللهُ تعالَى لنَفْسِه مِن صِفَة، لكنَّنا نَقُول: إنَّ الصِّفَةَ التِي أَثْبتها اللهُ تعالى لنَفْسِه وللمَخْلوقِ نَظيرُها فِي الأصل: لَا تَماثُل بينهما، بَل بينهما مِن التبايُن كَما بَين الخالِق والمَخْلوق، فمَثلًا: رَحمة الخالِق واسعةٌ عَظِيمة، ورَحمة المَخْلوق قَلِيلة ضَعيفةٌ، وقد تَنْتَفي فِي مَوضِع يَجب أنْ تكُون فِيه، وقد تَكون فِي مَوضِع يَجِبُ أن لَا تَكُون فِيه.

أَلَيس بَعْضُ النَّاسِ يَرْحَمُ الزَّانِيَ؟ ويَقُول: لَا تَجْلِدوه؛ فهُو يُصلِّي، ويَصُوم، ويُزكِّي، قد غَلَبته الشَّهْوة يَوْمًا مِن الأَيَّام وزَنَى، فارْحَمُوه! هَل هُنا مَوضِع رَحمة؟! الجَوَاب: لَا، قَالَ الله تَعالَى: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ [النور:٢]، فرَحْمة المَخْلوق ناقِصةٌ، قَد تَنْتَفِي فِي مَوضِع يَجِبُ أنْ يَكُون رَحيمًا، وقَد تُوجَد فِي مَوضِع يَجِبُ أن يَكُون غيرَ رَحيمٍ.

أمَّا رحمةُ الله فهِيَ كامِلةٌ، لَا تكُون إلَّا فِي مَوضِع يَستحقُّ الرَّحمة، قالَ تعالَى: ﴿ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ﴾ [العنكبوت:٢١]، فبينَهما فرقٌ عَظِيم.

ثُمَّ إنَّ قولَكم: «إنَّ الرَّحمةَ لَا تكُونُ إلَّا مَع الرِّقَّة واللِّين»، هَذا غيرُ صَحِيح، نَجد مِن السَّلاطين الأقوِياء الذِين يُوصَفون بالجَبَروت تُوجَد مِنْهم الرَّحمة أحيانًا، إِذَن: قولُكم باطلٌ.

فالحاصِل: أن كل صِفَة أثبَتها اللهُ تعالى لنَفْسه فإنَّه لَا يَجوز أنْ نَسْتَوْحِشَ مِنها، فنَحن -واللهِ- لَسْنا أَعْلم بالله مِن الله، فإذَا أثبَت اللهُ لنَفْسه أَي صِفَة فأثبِتْها، لَكِن لَا تُمثِّل ولَا تُكيِّف؛ لأنَّ التَّمْثيل مَنفيٌّ فِي القُرْآن، والتَّكييف مَنْهي عَنْه فِي القُرْآن؛

....

قالَ تَعالَى: ﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة:١٦٩] وقالَ تعالَى: ﴿وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌ﴾ [الإسراء:٣٦].

فهذِه القاعدةُ يَجبُ أنْ تَجعلُوها في قلوبِكم، وفِي اعتِقادِكم: كُلُّ مَا أثبتَ اللهُ لنَفْسه مِن صِفَة فأثبِتُوها، لَكِنِ احترِسُوا مِن شَيْئين هُمَا: التَّمْثيل والتَّكْييف؛ لأنَّ التَّمْثيل نَفَاه اللهُ عَن نَفْسه، قالَ تعالَى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٌ﴾ [الشورى:١١]، والتَّكْييف لأنَّك إذَا كيَّفت قُلتَ مَا لَا تَعْلم.

فمَثلًا: أثبتَ اللهُ تعالى لنَفْسه أنَّه يَضْحك فنُثْبِت هَذا ولَا نُبَالي، ويَجب أنْ نُثْبت هذا، كَذلِك أَثْبَتَ اللهُ تعالى لنَفْسه أنَّه يُهَرْوِلُ بقَوْله: «وَمَنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً»[1]. كَذلِك أثبَتَ اللهُ لنَفْسه أنَّه يَجِيءُ، قالَ تعالَى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر:٢٢]، وأنَّه يَأْتِي قالَ تعالَى: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ رَبُّكَ﴾ [الأنعام:١٥٨]، فنُثْبِتُ ذَلِك، لأنَّ الذِي أَثْبَت هَذا للهِ هُو اللهُ عَزَّوَجَلَّ، وهُوَ عالم بنَفْسه وبغَيْره، فنُثْبت هَذا ولَا نَسْتوحِش؛ لأنَّك إنِ استَوْحَشْتَ مِن شَيْء ظَنَنْتَ أنَّه وَحْشَة، جاءَ إِنْسانٌ آخرُ واستَوْحَشَ مِن شَيْء تَرَى أنَّه لَيْس بوَحْشَة، وحِينئذٍ يَكُون إثباتُ الصِّفات أَو نَفيها عَن الله تعالى مَبنيًّا علَى التحكُّم العَقْلي، وإذَا رجَعْنا إلَى العُقُول فبِأَيِّ عقلٍ يُوزن مَا يُثْبَت للهِ ومَا يُنفَى عَنْه؟

ثُمَّ نَقُـول كَما قَـالَ الإمامُ مالِكٌ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أفكُلَّما جاءَنا رجُلٌ أَجْدل مِن رجُل،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥ﴾، رقم (٧٤٠٥)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب الحث على ذكر الله تعالى، رقم (٢٦٧٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

تركْنا مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُول لجَدَل هَذا الرَّجُل؟![1] يَعْني إذَا جَاءَ إِنْسانٌ يُجادِل فِي صِفَة مِن الصِّفات فهَل نَتْرُكَ مَا قالَه اللهُ تعالى ورَسُولُه ﷺ لأَجْل هَذا الرجُل؟ لَا، أبدًا، بَل نَقُول: أَنْتَ مُجادِل بالباطِل، وجَزاؤُك أَنْ نَدَعَك.

ولهَذا تَجِد أَسْلَمَ النَّاسِ قلوبًا فِي هَذا الأَمْر هُمُ السَّلَف الصَّالح.

ثُمَّ عوَامُّ النَّاس خيرٌ مِن هَؤلاءِ العُلَماء الذِين يَقُولون: إِنَّهُمُ العُقَلاء ويُنْكِرون مَا أَثْبَته الله تعالى لنَفْسه.

فأَنْتَ -يَا أخِي- لَا تَستوحِش ممَّا أثبَتَه الله لنَفْسه أبدًا، لَكِن استَوْحِش مِن شَيْئين هُما: التَّمثيل أَو التَّكييف، والباقِي أَثْبِتْهُ؛ نَعَم، لَو كانَ هُناكَ دَلِيلٌ يدلُّ علَى أنَّ الظاهِرَ غَيرُ مُراد؛ فإِنَّه يَجِبُ أن نتَّبعَ الدَّلِيلَ، مِثل قَوْله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ للإِنْسان: «**عَبْدِي جُعْتُ فَلَمْ تُطعِمْنِي، وَاسْتَسْقَيْتُكَ فَلَمْ تَسْقِنِي، وَاسْتَطْعَمْتُكَ فَلَمْ تُطعِمْنِي**»[2]. فظاهِرُ الحَدِيثِ أنَّ الله تعالَى يَجوعُ، ويُمْرَض، ويَعْطَش، وهَذا مَعلومٌ أَنَّه لَا يَلِيق باللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، واللهُ تعالَى بيَّن هَذا فِي نَفْس الحَدِيث فقالَ: «**أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فُلَانًا جَاعَ فَلَمْ تُطْعِمْهُ، وَعَطِشَ فَلَمْ تَسْقِهِ، وَمَرِضَ فَلَمْ تَعُدْه**»، فلَمَّا كانَ المَعنَى لَا يَلِيق بالله بَيَّنه اللهُ عَزَّوَجَلَّ، فدلَّ ذلِك علَى أنَّ كُلَّ مَا أَثْبَته اللهُ لنَفْسه فهُو لائِقٌ بِهِ وعلَيْنا أَنْ نُثْبته؛ هَذا بَحْثٌ مُهِمٌّ يَتعلَّق بمَسْألة: (الرَّحْمَن الرَّحِيم).

---

(١) أخرجه عنه عبدالله بن أحمد في العلل رقم (١٥٨٥)، والمروزي في تعظيم قدر الصلاة (٢/ ٦٧٠)، وابن بطة في الإبانة رقم (٥٨٢)، والبيهقي في الشعب رقم (٨١٣١).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة، باب فضل عيادة المريض، رقم (٢٥٦٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

مَسْأَلةٌ: إذَا قَالَ قَائِل: أنتُم يَا أَهْلَ السُّنَّةِ والجَماعَة عِنْدما تَأْتيكم نُصوصُ صِفات لَا تَلِيق بالله عَزَّوَجَلَّ، كالهَرْولة، والكَـلام، والمَشْي، واليَد، تَقُـولون: نتـوقَّف فيها، ونَصِف الله بما وصَف بِه نَفْسَه، مِن غَير تَمْثِيل، ولَا تَشْبيه، ونَحْن نَصْرفها عمَّا لَا يَلِيق بالله إِلَى مَا يَلِيق، فنَقُول: إنَّ هَذا مُراد بِها الإِيمان، وهَذا مُراد بِها الرَّحمة، وهَذا مُراد بِها كَذَا وكَذَا، فكَيْف نَرُدُّ عَلَى هذا؟

الجَواب: سَهْل أن نَرُدَّ عليهِم، فنَقُول: أَيْنَ دليلُكم عَلَى هَذا الصَّرف؟ فإِنْ قَالَ: البُعد عَن التَّمْثِيل والتَّشبيه؛ قُلْنا: إذَا قُلْنا يَهرول بِلَا مُشابهة، كَما أنكم تَقُولون: إنَّ لله ذاتًا لَا تُماثِلُ الذَّوَات، فهَل تُثبت لله ذاتًا؟ سيَقُول: نَعَم ، فنَقُول: أنَا لي ذاتٌ، فهَل يَلْزم لِذَاتِ اللهِ أن تَكُون مُماثلًا لي؟ سيَقُول: لَا، إِذَنْ: فالصِّفَة نَفْس الشَّيْء.

ثم نَقُول: يَا رجل! مَا مَوقِفك بَيْن يَدَي الله عَزَّوَجَلَّ يَوْم القِيامَة إِذَا قالَ لَكَ: إنِّي قُلْتُ كَذَا أَو قالَ رَسُولي كَذَا، فَما الذِي أَخْرجك عَن هذا؟ فإِذَا قَالَ: عَقْلي! فيقول: وهَل تُنزِّل كَلامِي على عَقْلك؟ وإذَا كانَ عَقْلك يَقُول كَذَا وعَقْل الثَّاني يَقُول كَذَا فإِلَى أَيِّ عَقْل نَرْجِعُ؟!

ولِهَذا تَجِدُ أَهْلَ الكَلام مِن المعتزِلَة والأشاعِرَة مُتناقِضِين، يُثبتون مِن الصِّفات مَا يَنفون نَظِيرها أَو أولى مِنْها فِي الإثبات، ويَتناقضون هُم بأنفُسِهم، فتَجِد أحدَهم يَقُول: هذِه الصِّفَة واجبةٌ لله عَزَّوَجَلَّ، والثَّاني يَقُول: هذِه الصِّفَة مُمتنعةٌ عَنِ الله، والثَّالث يَقُول: سأكُون وسَطًا، أقول: جائزةٌ ولَا أثبتُها.

فالحاصِل: أنَّه لَيْس لـهم دليلٌ، وعجَبًا مِنهم أنْ يُنزِّلـوا آياتِ الأَحْكـامِ علـى

....

ظاهِرها، ويَعملوا بظاهِرها، ويَستبيحوا الدِّماء والأَموال علَى ظاهِرِها، ثمَّ لَا يَصِفون اللهَ تعالَى بما وَصَف بِه نَفْسه؛ ولا فَرْقَ بين حُكم الله وصِفَة الله، فإذَا كَانَت أَحْكام الله تُجْرون نُصُوصَها عَلَى ظاهِرِها فأَجْروا نُصُوص صِفاتِ الله علَى ظاهِرِها.

واحتَرِزْ مِنْ شيئَين: التَّمْثِيل، والتَّكْيِيف، والحَمْد لله، وأَنَا حُجَّتِي عِنْدَ الله إذَا قَالَ لي ربِّي يَوْم القِيامَة: لِـمَ أَثْبَتَّ للهِ عَيْنَيْنِ؟ أَقُول: حُجَّتِي بذَلِك: قَوْلُك يَا رَبِّ، وقَوْلُ رَسُولِك.

مَسْأَلةٌ: فِي صِفَة الـهَرْولة قالَ الله عَن نَفْسه: «**أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً**»[1] فَلَا تَقُلْ أَنْتَ: لَا يَأْتِي هَرولةً! فهَل قالَ الصَّحابة: يَا رَسُول الله الهرولةُ حقيقةٌ أَو كِنايةٌ عَن سُرعة الإجابة؟! أبدًا. وأَنَا أَقُول: إذَا قالَ الله ورسولُه شيئًا فَلَا تُكلِّف نَفْسك، قُل: آمنْتُ بالله، ولَا تقل: كَيْف يأتي هرولةً.

ولكن الحَدِيث المشار إِلَيْه فِيه للعُلَماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ قَوْلانِ:

القَوْل الأَوَّل: أَنَّه عَلَى ظاهرِه ونَقُول: هِيَ هرولةٌ يَأتِي الله عَلَيْها عَلَى مَا أرادَ، ومَن يأتي يَوْم القِيامَة فسَوف يأتِي إمَّا هرولةً أَو مَشيًا أَو عَلَى أَي صِفَة، فكذلِك إذَا أخبَرَنا الرَّسُول ﷺ بأَنَّه عَزَّوَجَلَّ يأتِي هرولة فهُو يأتِي هرولةً، واللهُ أَعْلم.

ومِنهم مَن قالَ: إنَّ هَذا مِن بابِ بَيان أنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أَسْرع إلَى عبدِه مِن عَبدِه إلَيْه، وقالَ: إنَّ فِي الحديثِ ظاهِرًا يدلُّ عَلَى ذَلِك، وهُوَ قَـوْله: «**مَنْ أَتَانِي يَمْشِي**»

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾، رقم (٧٤٠٥)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب الحث على ذكر الله تعالى، رقم (٢٦٧٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ[١] ٱلْمَلِكُ[٢] ٱلْقُدُّوسُ[٣] ٱلسَّلَٰمُ[٤] ....

فإنَّ إتْيانَ الإنْسانِ لله تعالى يَمْشي ولَيْس كُل عِبادة فِيها مشيٌ، يَعْني لَو قدَّرنا مثَلًا أنَّ الحجَّ فِيه مشيٌ يَسعى الإنْسانُ مِن بلدِه إلَى مكَّة وأنَّ فِي بَعْض عِبادات المَناسِك مَا هُو مشيٌ كالطَّواف والسَّعي فمُمكنٌ هذا، فإنَّ الغالِب أنَّ العِباداتِ لَيْسَ فِيها مشيٌ، والإنْسان أقربُ مَا يَكُون مِن ربِّه وهُوَ ساجدٌ ومَع ذَلِك فهُو ساجِد ماكِث، ففِي الحدِيث قَولانِ: قَول أنَّنا نُجرِيه عَلَى ظاهِره ونَقُول كَما قالَ الرَّسُول عَن ربِّه ونَسكت، والقَول الثَّاني نُؤَوِّله بِناءً عَلَى أن فِيه قرينة تدل عَلَى هَذا التَّأْوِيل.

[١] قَوْله: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ تأكيد للجُمْلة الأولى ﴿ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

[٢] قَوْله: ﴿ٱلْمَلِكُ﴾ أي: ذُو المُلْك المتضمِّن للسَّيطرة الكامِلة والسُّلطان التَّامِّ، ولهَذا كانَ «المَلِك» أقوَى مِن «المالِك»، والأصل فِي الملِك أن يَكُون مالكًا، لَكِن قَد يَكُون ملكًا بِلَا مُلك، أمَّا المالك فهُو مالِك لَكِن لَيْس بمَلك.

ولهذا قُرِئ فِي الفاتحة ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ و(مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ) ليَجْمعَ بَيْن المَلَكية والمُلْكية.

[٣] قَوْله: ﴿ٱلْقُدُّوسُ﴾ مَعْناه: الطَّاهِر مِن كُل أذًى عَزَّوَجَلَّ، فهُو -سُبحانه- الطاهِر عَن كل عَيْب وكل نَقْص، وهُو بمَعْنى (السَّلام) أَو قَريب مِنه.

[٤] قَوْله: ﴿ٱلسَّلَٰمُ﴾ يَعْني السَّالم من كل نَقْصٍ حقيقيٍّ، أَو مُتوقَّع، أَو وَهْمي، يَعْني سالـم مِن كل نَقْص، لَا فِي الحاضِر، ولَا فِي الغائِب، ولـهَذا كانَ أخصَّ مِن «القُدُّوس»، وكانَ الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يقُولون فِي التَّشهد: السَّلام علَى الله مِن عباده،

ٱلْمُؤْمِنُ [١] ....

السَّلام علَى جِبريل، السَّلام علَى مِيكائيل، السَّلام على كَذَا وكَذَا، وفلانٍ وفلانٍ، فقال النَّبيُّ ﷺ: «لَا تَقُولُوا: السَّلامُ علَى اللهِ مِنْ عِبَادِهِ؛ لِأَنَّ اللهَ هُوَ السَّلَامُ»(١). وأَنْت إذَا قُلتَ: السَّلام علَى الله، فمَعْناه أنَّ اللهَ قَد يَعْتَرِيه النَّقْص، وهَذا مُسْتحِيل، ولـهَذا لَو قَـالَ إِنْسان: السَّلام علَى الله قُلْنا: لَا تَقُل هكَذا، كـمَا قَالَ النَّبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؛ لأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ هُو السَّلام.

[١] قَوْله: ﴿ٱلْمُؤْمِنُ﴾ لهَا معنيان:

الأول: أنَّه يُؤَمِّن مِن عذابِه مَن لَا يَستحقُّ العَذاب، فمُؤمن بمَعْنى مُؤَمِّن.

الثَّاني: المُؤْمِن المُصدِّق لرُسُله، قَالَ الله تَعالَى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ [يوسف:١٧]، أَي بمُصَدِّق.

فِللمُؤْمِن -إِذَنْ- مَعْنيانِ:

فالأوَّل: مِن الأمَانِ، أَي يُؤَمِّنُ، فيُقال: آمَنَه أَي أَمَّنَه، والعِباد يَدْعُون الله، فيَقُولون: «اللهُمَّ آمِنَّا فِي أَوْطَانِنا»، فهُو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مُؤَمِّن، يُؤَمِّن مَن شَاء مِن عَذابِه.

والثَّاني: المُؤْمِـن يَعْنـي: المُصدِّق، قَـالَ الله تَعـالَى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ أَي بمُصدِّق لنَا، وهذَانِ الوَصْفان كلاهُما حقٌّ لله تَعالَى، فهُو تعالَى يُؤَمِّن مَن شَاء مِن عِباده، وهُو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: مُؤْمِن بالحقِّ مُصدِّق بِه، مُؤْمن برُسله، ومُؤْمِن بكُل حقٍّ عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّ الله تعالَى يُقِرُّ الحَقَّ ويُبْطِل الباطل.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب ما يتخير من الدعاء بعد التشهد، رقم (٨٣٥)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب التشهد في الصلاة، رقم (٤٠٢)، من حديث ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

ٱلْمُهَيْمِنُ [١] ٱلْعَزِيزُ [٢] ....

[١] قَوْله: ﴿ٱلْمُهَيْمِنُ﴾ أَي: ذُو السَّيطرة والحُكم علَى كُلِّ مَن عَداهُ، فهُو مُهَيْمنٌ علَى كُلِّ شَيْء، يَفْعَلُ مَا يَشاء ويَحْكُم مَا يُريد، ومِنْ ذلِك قَوْله تعالَى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة:٤٨]، ولهَذا كانَ كتاب الله عَزَّوَجَلَّ القُرْآن ناسخًا لكُلِّ مَا سَبَقه مِنَ الكُتُب.

[٢] قَوْله: ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ يَعْني: الغالِب لكُلِّ ذِي قُوَّة، فَلَا أَحَد يَغلِب اللهَ عَزَّوَجَلَّ، بَل قَد قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة:٢١] فهُو عَزَّوَجَلَّ عزيزٌ لَا يُغْلَبُ، بَل هُو الغالِبُ.

فهُو ذُو العِزَّة، والعِزَّة هِي عِزَّة القَدْر، وعِزَّة القَهْر، وعِزَّة الِامْتِناع. فهِيَ ثلاثةُ أنواعٍ:

أولًا: عِزَّة القَدْر، يَعْني عِزَّة الشَّرَف والسِّيادة، ومَا أَشبَه ذلِك، فاللهُ تعالَى أعزُّ مَن يَكُون عَزيزًا فِي قَدْره وشَرفه وكَماله، فَلَا أحَد أشرفُ مِنه، ولَا أَعْظم مِنه قَدرًا، ولهَذا قَالَ النَّبِي ﷺ: «السَّيِّدُ اللهُ»(١)، هُو الذِي لَهُ السِّيادة المُطْلقة، وسِيادتُه ذاتيَّة عَزَّوَجَلَّ.

ثانيًا: عِزَّة الغلَبة والقَهْر، فهُو غالِب لكُلِّ شَيْء، قَالَ الله تَعالَى: ﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾ [آل عمران:٢٦].

أَيْــنَ المَفَــرُّ وَالإِلَــهُ الطَّالِــبُ ... وَالأَشْرَمُ المَغْلُوبُ لَـيْسَ الغَالِـبُ(٢)

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٤)، وأبو داود: كتاب الأدب، باب كراهية التمادح، رقم (٤٨٠٦)، من حديث عبد الله بن الشخير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) نسبه ابن هشام في السيرة (١/ ٥٣) لنفيل بن حبيب.

ٱلْجَبَّارُ [١] ....

فالذَّليل مَغلوبٌ، والعَزِيز غالِبٌ.

ومِنْ ذلِك قَوْل الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عَن المنافِقين: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ [المنافقون:٨]، ويَعْنُون بالأعزِّ أَنْفُسَهم، وبالأَذَلِّ رَسُولَ الله ﷺ وأصحابَه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ؛ فقالَ الله تعالَى مُكذِّبًا لقَولِهم: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ﴾ [المنافقون:٨]، ولَمْ يَقُل الله تعالَى: «واللهُ أَعَزُّ»؛ لأَنَّه لَو قَالَ ذلِك لأَوْهَم أَنَّ للمُنافقين عزةً، لكنَّها أَضْعف مِن العِزَّة الأُخرى، لَكِنَّ المنافقينَ لَيْس لـهم عِزَّةٌ، والغَرِيب أَنَّ المُنافِقين أذلُّ مِن الكافِرين؛ لأَنَّ الكافِر يُصرِّح بأَنَّه كافرٌ ولَا يُبالِي، أَمَّا المُنافق فهُو ذَليلٌ يَسْتَتِرُ، ويَقُول: إِنَّه مُؤمن، خَوفًا مِنَ القَتْل أَو المُنابَذَة، وهُو كاذِبٌ، فصارَ المنافِقُ أَذَلَّ مِن الكافِر؛ لأَنَّه مُنافق؛ ولِذلِك لَا عِزَّةَ لَهُ، قالَ تعالَى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون:٨].

ثالثًا: عِزَّة الِامْتِنَاع، أَي أَنَّه -تَعالَى- يَمْتنع عَليه كُلُّ نَقْص وعَيْب، أَي فِي حَقِّ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، مَأْخوذَةٌ مِن قَوْلِهم: أَرْضٌ عَزازٌ، أَي: القَويَّة الصُّلْبة؛ أَمَّا الرَّمْلُ فهُو لَيِّنٌ.

إِذَنْ: فاللهُ تعالَى لَهُ العِزَّةُ بالمَعانِي الثَّلاثةِ.

[١] قَوْله: ﴿ٱلْجَبَّارُ﴾ الجبَّارُ صِيغَةُ مُبالغةٍ مِنَ الجَبْرِ، والجَبْرُ لَهُ ثلاثةُ معانٍ: جَبْر بمَعْنى الجَبَروت، وجَبْر بمَعْنى جَبْر الكَسِير، وجَبْر بمَعْنى العُلُوِّ.

فالأَوَّلُ: مِنَ الجَبَروت، وهُو القوَّة والعَظَمة ومَا أَشْبَه ذلِك.

والثَّاني: مِنْ جَبْر الكَسِير، فكَمْ مِن كَسِير جَبَره اللهُ عَزَّوَجَلَّ، فاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ جَبَّارٌ لِكُلِّ كَسْرٍ.

ٱلْمُتَكَبِّرُ [١] ....

والثَّالث: مِنَ العُلُو، وهَذا المَعنَى قَد يَكُون غَريبًا، إِذْ كَيْف يَكُون الجَبْرُ مِنَ العُلُو؟

قَالَ ابنُ القَيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي النونية: إِنَّه مأخوذٌ مِن قولِهم للنَّخْلة الطَّويلة: هذِه نَخْلة جَبَّارةٌ، أَي: طَوِيلة(١)، والعُلُو لَاشَكَّ أَنَّه مِن صِفات اللهِ تعالَى، وإذَا كانَ قَد ثَبَت أَنَّه مِن صِفات الله، وكانَ للجَبْر الذِي بمَعْنى العُلُو أَصْل فِي اللُّغة، فَلَا مانِعَ مِن أن نَقُول: إنَّ الجَبَّار تَشْملُ ثلاثةَ مَعانٍ: الجَبَروت، وجَبْر الكَسِير، والعُلُو.

و﴿ٱلْجَبَّارُ﴾ مِن أَسْماء الله تعالى، وهِيَ صِفَة كَمال بالنِّسْبة للهِ، وصِفَة نقْص بالنِّسْبةِ للعَبْد.

فائِدَةٌ: نَتوسَّل إِلَى الله تَعالَى بالِاسم المناسِب، فتقُول: يَا جَبَّارُ اجْبُرْنِي، ورُبَّما يَصِحُّ: يَا جَبَّارُ اغفِرْ لِي، لِأَنَّ المَغْفِرَةَ مِنَ الجَبْرِ، وَلَا بَأْس أَنْ تَقُولَ: يَا جَبَّارُ انْتَقِمْ مِنْ فُلانٍ؛ فتكُون مِنَ الجَبَروت.

[١] قَوْله: ﴿ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ يَعْني: ذُو الكِبْرِياء، ولَيْس المَعنَى مُصْطَنِع الكِبْر؛ لأنَّ (تَكَبَّر) يَحْتَمل أن تكون بمَعْنى الاصْطِناع، أَي اصطِناع الكِبر، ويُحْتَمل أن تَكون: وَصْفُه الكِبْرِيَاء، والثَّاني هُو المُرادُ، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مُتكبِّر، أَي: لَهُ الكِبْرِياء، كَمَا قَالَ الله تَعالَى: ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الجاثية:٣٧]، وهَذا الوَصف بالنِّسْبة لله حقٌّ، لَكِن بالنِّسْبة للمَخْلوق باطلٌ؛ لأنَّ المَخْلوق أذلُّ

---

(١) قال ابن القيم رحمه الله:

من قولهم جبارة للنخلة الـ ـعيا التي فاتت لكل بنان

انظر: النونية (ص:٢٠٩).

....

وأقـلُّ وأضعفُ مِن أنْ يَتكبَّر، ولـهَذا قـالَ النَّبـي صلى الله علَيْه وعَلَى آله وسلم: «لَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ كِبْرٍ»[1]، فالكِبرياء لله عَزَّوَجَلَّ، وأمَّا المَخْلوقُ فلَيْس لَهُ كبرياءُ.

و﴿ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ تدلُّ عَلَى العظمة، يَعْني الذِي لَهُ الكِبْرِياء، فهُوَ مُتكبِّر عَن كُلِّ نَقْص وكُلِّ أذَى مُتَعَلٍّ علَيْه؛ وهِيَ صِفَة كَمال بالنِّسْبة للهِ، وصِفةُ ذَمٍّ للإِنْسان؛ لأنَّه لَا يَجُوز أنْ يُنازَع اللهُ فِي هذِه الصِّفة.

مَسْألة: فِي الحَدِيث مَا يَرْويه النَّبيُّ ﷺ عَن ربِّه عَزَّوَجَلَّ: «الكِبْرِيَاءُ رِدَائِي وَالعَظَمَةُ إِزَارِي»[2]؛ فهَل مِن عَقِيدة أَهْل السُّنَّة والجَماعَة فِيه أَنْ نُثْبِتَه لله تعالَى؟

الجَواب: نَعَم، نُثْبِتُ لله مَا أَثْبَتَهُ اللهُ لنَفْسِه، أَلَيْسَ اللهُ تعالى قالَ لنَا ونَحْن بَشَرٌ: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف:٢٦] فالتَّقْوَى لَا يَلْبَسُها الإنسانُ، فيَجِبُ أَنْ نُثْبِتَ لله مَا أَثْبَتَهُ لنَفْسِه ولَكِن بِدُون تَمْثِيلٍ.

فائِدَةٌ: يُقال: «التَّكبُّر عَلَى المُتكبِّر جائِزٌ» والجوابُ: أنَّ هَذا لَا يَجُوز، لَكِن إِذَا قالَ: «المُعَزِّرُ للمُتَكبِّر مَحْمُودٌ» فيَجُـوز، والمُعزِّر يَعْني المُؤدِّب، ولَا يَجُـوز أنْ نَتكبَّر عَلَـى المُتكبِّر أبـدًا، لَكِـن إذَا كَانَت لَكَ السُّلطـة والتَّأديبُ فمُـؤدِّبُ المُتكبِّر محمـودٌ،

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه، رقم (٩١)، من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٤١٤)، وأبو داود: كتاب اللباس، باب ما جاء في الكب، رقم (٤٠٩٠)، وابن ماجه: كتاب الزهد، باب البراءة من الكبر، رقم (٤١٧٤)، من حديث أبي هريرة.

وأخرجه مسلم: كتاب البر والصلة، باب تحريم الكبر، رقم (٢٦٢٠)، من حديث أبي سعيد وأبي هريرة، بلفظ: «العز إزاره، والكبرياء رداؤه، فمن ينازعني عذبته».

سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ[١] ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ[٢] ....

فمَثَلًا إنْ مَرَّ ولم يُسلِّم، فسَلِّم أَنْتَ، وإنْ مَرَرْتَ بِهِ فسَلِّم، وإلَّا إذَا صعَّر خدَّه لَكَ فهَل تُصعِّر خدَّكَ لَهُ عِنْد المُلاقاةِ؟! الجَواب: لَا.

[١] قَوْله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أَي: عمَّا يُشركون بِه مِن الأصنامِ فهُو عالٍ عَلَيْها عَزَّوَجَلَّ، منزَّه عَن أن يَكُون مِثلَها.

ويَجوز أن تكونَ «مَا» اسمًا موصولًا فيكونُ المَعنَى عَن الذِي يُشركون بِه، ويَجوز أن تكونَ «مَا» مَصدريَّةً أَي عَن شِركهم ولَا يَختلف المعنَى.

[٢] قَوْله: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ﴾ الخالِق: مَنِ اتَّصف بالخَلق، وهُو الإيجادُ بعدَ العدَم، والإيجادُ بعدَ العدَم يُسمَّى خَلقًا، وهُذا الوَصْف مِن خصائِصِه عَزَّوَجَلَّ، فَلَا خالِقَ إلَّا اللهُ.

وأمَّا مَا جاءَ فِي الحَدِيث: «أَحْيُوا مَا خَلَقْتُمْ»(١) فإنَّ الخَلق المضافَ إلَى المَخْلوق لَيْس مَعْناه إيجادًا بعدَ عدَم، ولكنه بمَعْنى تَغييرٍ وتَحويلٍ، فمثَلًا: الصَّانع يُحول صَفائح الحَديد إلَى قُدورٍ وأوانٍ، فيُقال: خلَقها قِدْرًا، وخلَقها آنيةً، لكنَّه لَيْس هُو الخَلْقَ المُختصَّ بالله تَعالَى، وهُو الإيجادُ بعدَ العدَم، فَلَا يستطيعُ أحدٌ أنْ يَقْلِبَ حقيقةَ بَعْضِ الأشياءِ إلَى حقيقةِ البَعْضِ الآخَرِ أبدًا، ولَا أن يُوجِد شيئًا مِنَ العدَم، لَكِن يُمْكِن للمَخْلوق أنْ يحوِّل شيئًا مِن صِفَة إلَى صِفَة أُخرى، فالخَلق المُضاف إلَى المَخْلوق هُو بمَعْنى التَّغيير أَو التَّحويل، ولَيْس مَعْناه التَّبديل، بَل ذلِك إلَى الله عَزَّوَجَلَّ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب البيوع، باب التجارة فيما يكره لبسه للرجال والنساء، رقم (٢١٠٥)، ومسلم: كتاب اللباس والزينة، باب تحريم تصوير صورة الحيوان، رقم (٢١٠٧/٩٦) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

ٱلْبَارِئُ[١] ٱلْمُصَوِّرُ[٢] لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ[٣] ....

[١] قَوْله: ﴿ٱلْبَارِئُ﴾ أي: الخالِق علَى غير مِثالٍ سَبَقَ؛ لأنَّ الخَلق قَد يَكُون علَى مِثالٍ سابقٍ، وقد يَكُون علَى غيرِ مِثالٍ سابِقٍ، أمَّا البارِئُ فهُو الذِي يَخْلُق علَى غير مثالٍ سبَق، أَي: لَيْس يَخْلُقُ خَلقًا يُقلِّدُ غيرَه مَثلًا، أَو يُعِيد خَلقًا آخَرَ، بَل هُو خالِقٌ خَلْقًا ابتداءً وخَلْقًا ثانيًا.

[٢] قَوْله: ﴿ٱلْمُصَوِّرُ﴾ يَعْني: جاعِل الشَّيْء علَى صُورة معيَّنة، وهَذا -أيضًا- لَا يَقْدِر عَلَيه إلَّا اللهُ، فالذِي صوَّر بني آدمَ علَى هَذا الشَّكل، وصوَّر البَعير علَى هَذا الشَّكل، وصوَّر الفَرَس علَى هَذا الشَّكل، وهَلُمَّ جرًّا، هُو الله تَعالَى، فالله تعالَى هُو المصوِّر، قَالَ الله تَعالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [آل عمران:٦]، ولهَذا لَا يستطيعُ أحدٌ أنْ يَجعل القَصِير طويلًا، ولَا الطَّوِيلَ قَصِيرًا، نَعَم يُمْكِن أن يَجْعل الطَّويل قَصيرًا إذَا قطعَ رأسَه، ولَكِن إذَا قطعَ رأسَه انتهَى، أمَّا أنْ يُقصِّره فِي خِلقته فلَا يُمكن، فالمصوِّر هُو الله عَزَّوَجَلَّ.

فإذا قَالَ قَائِل: هَل يُمْكِن للخَلق أن يَجعلوا القَبيح جَميلًا، والجَميل قَبيحًا؟

فالجَوَاب: نَعَم، يُمْكِن أن يَجعلُوا الجَميل قَبيحًا، فيُشوهونه بالجُروح حتَّى يَكُون قبيحًا، والقَبيحَ جَميلًا، يَعْني يُجرون لَهُ عَملية تَجميل، لَكِنْ مَهما كَانَت عَملية التَّجميل فلَيْسَت كالجَمال الأصليِّ، ولهَذا لا بُدَّ أن يَكُون علَى هَذا المُجمَّل علاماتٌ تدلُّ علَى أنَّه قَد أُجري لَهُ عمليةُ تَجميلٍ.

[٣] قَوْله: ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ (لَهُ) خبرٌ مقدَّم، والأسماءُ مبتدأٌ مؤخَّر، وتقديمُ الخَبر يدلُّ علَى الحَصْر، يَعْني: لَهُ لَا لغَيْره.

يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ[١] ....

والأسماءُ الحُسنَى: سَبَق الكَلامُ علَى مَعْناها وتَفْسيرِها(١).

[١] قَوْله: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ﴿يُسَبِّحُ﴾: هذِه جُمْلة فِعلية -فِعلُها مُضارعٌ- تدلُّ علَى الاستِمرار؛ لأنَّ (سبَّح) للماضِي، و(سبِّحْ) للمُستقبَل، و(يسبح) للحال، وقد تكونُ للاستِقبال وُجوبًا، مِثلَما إذَا اقتَرَنت بِها السِّين وسَوْف، وقَد تكونُ للماضِي وُجوبًا، مِثل أنْ تَقْتَرِنَ بِها (لم) الدَّالَّة علَى المُضِيِّ، وقَد تكونُ صالحةً للجَمِيع حسبَ السِّياقِ.

وهُنا: ﴿يُسَبِّحُ﴾، هَل هُو تَسْبيحٌ انقَضَى، أَو مَا زالَ ولَا يَزالُ؟ والجَوَاب: مَا زَالَ ولَا يَزالُ.

وقَوْله: ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ (مَا): اسمٌ موصولٌ، والاسمُ الموصولُ مِن صِيغ العُموم، فهَل هَذا مُطابقٌ للواقِع، وأنَّ اللهَ تعالى يُسبح لَهُ مَا فِي السَّمواتِ والأَرْض؟ الجَوَاب: لَا. لَكِنْ يُقال: التَّسبيح نَوْعانِ، تَسبيحٌ بِلسانِ الحالِ، وتَسبيحٌ بِلسانِ المقالِ:

أمَّا التَّسبيح بِلسانِ الحالِ فهُو عامٌّ، كلُّ مَا فِي السَّموات فهُو يُسبِّح لله بلسانِ الحالِ، ومَعنَى قولِنا: «بِلسانِ الحَال» أَي: أن حالَه تدلُّ علَى تَسْبيح الله.

فالكافِر مثلًا: يُسبِّح اللهَ بِلسانِ الحالِ؛ لأنَّ خِلقته ومَا فِيها مِنَ الإِبْداع والنِّظام العَجِيب الغَرِيب تَسْبيحٌ لله تعالى؛ ولأنَّ صَرْفَه عَن الهِدايَة إلَى الشَّقاء أيضًا تَسبيحٌ لله تعالَى، يـدلُّ علَى كَـمال الله عَزَّوَجَلَّ، وأنَّه جَلَّوَعَلَا يُريد أنْ تتِم كَلِمته، فجَعَل النَّاسَ

---

(١) انظر (ص:٥١).

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[1] [الحشر:٢٢-٢٤].

مُؤمِنًا وكافرًا. إِذَن: الكافرُ يُسبِّحُ بلِسان الحالِ، أمَّا بلِسانِ المَقَال فَلَا؛ لأنَّه يُشرك بالله عَزَّوَجَلَّ، ويُصرِّح بأنَّ الله لَهُ شريكٌ، وهَلُمَّ جرًّا.

والجمادات تُسبِّح لله بلِسانِ الحالِ والمَقال، قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ﴾ أي مَا من شَيْء ﴿إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء:٤٤]، وسُمع تَسبيح الطَّعام بَيْن يَدَي الرَّسُول صلَّى الله علَيْه وعلَى آله وسلم وهُوَ طَعام، وقال النَّبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إِنِّي لَأَعْرِفُ حَجَرًا كَانَ يَرُدُّ عَلَيَّ السَّلَامَ» أَو قالَ: «يُسَلِّمُ عَلَيَّ» وهُوَ حجَر؛ فهذا بلِسان المَقال؛ ولَكِن لَا نفقه هَذا التَّسبيحَ.

وأمَّا تَسبيحُها بلِسان الحالِ فنَفْقَهُهُ؛ فتَجِد هَذا الجبَل فِيه جُدَدٌ بِيضٌ وحُمْر مُختلِف ألوانُها وغَرابِيبُ سُودٌ وهو جبَل واحدٌ، بلِ الحَصاةُ الواحدةُ تَجِدُ فِيها خُطوطًا مُتميزًا بَعْضُها عَن بَعْض، والحَجَر الواحِد فِيه مَعادِن؛ وكُلُّ هَذا دليلٌ عَلَى قُدرة الله عَزَّوَجَلَّ، وعَلَى أن هَذا يُنزِّه اللهَ عَن كُل نَقص.

وأمَّا الإِنْسان المؤمِن فإنَّه يُسبح اللهَ بلسانِ الحالِ والمقالِ.

فصارَ كُل مَا فِي السَّموات والأَرْض يُسبح اللهَ بِلسان الحالِ والمَقالِ، إلَّا الكافِر فإنَّه يُسبح اللهَ بِلسانِ الحالِ، لَا بلسانِ المَقالِ.

[١] وقَوْله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾: سبَق مَعْنى «العَزيز»(١)، وأمَّا الحَكِيمُ فمادتُها (ح.ك.م)، وهَذِه المادة تدل علَى معنيين: حُكْم، وإِحْكام.

---

(١) انظر (ص:٩٧).

....

فالإِحْكام يَعْني: الإِتْقان، بأن يَكُون الشَّيْء مطابقًا للحِكمة تمامًا، فيُنزَّل مَنزلتَه؛ فتبيَّن لك الآنَ أنَّ (الحَكِيم) مُشتقٌّ مِن الحُكم والإِحْكام، الذِي هُو الإتقان.

وحُكم الله عَزَّوَجَلَّ يَكُون كونيًّا وشرعيًّا، ففِي قَوْله تَبَارَكَوَتَعَالَى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة:٥٠]، هَذا شَرْعيٌّ، وفِي قَوْله تعالَى فِي سورة الممتحنة: ﴿ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ [الممتحنة:١٠]، هَذا -أيضًا- شرعيٌّ، وفِي قَوْل الله تَبَارَكَوَتَعَالَى عَن أخِي يُوسف: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي﴾ [يوسف:٨٠]، فهَذا كونيٌّ؛ لأنَّ الله لم يَمنَعْه شرعًا أنْ يأتِيَ؛ أَي لم يمنعْه أن يَبْرَحَ الأَرْض فإذَا كانَ لم يَمْنَعْهُ فقَد أَذِن لَهُ شرعًا، فبَقِي الحُكم الكَوْني، وعَلَى هَذا فقَوْله: ﴿أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي﴾ هَذا حُكم كَوْني، وقَوْله تعالَى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾ [التين:٨]، هَذا كونيٌّ شرعيٌّ؛ فهُو حاكِم كونًا، وحاكِمٌ شَرْعًا.

فإِنْ قَالَ قَائِل: مَا الفَرْق بَيْن الحُكْم الشَّرعيِّ والحُكْم الكَوْنيِّ؟

قُلْنا: الحُكم الشَّرعي مَا أمَر الله تعالى بِه العِباد أَو نَهاهُم عَنْه، أمَّا الحكم الكَوْني فهُو مَا خلَقه الله، فكلُّ المَخْلوقات هذِه كَوْنية؛ وإِنْزال المَطَر حُكْم كَوْنيٌّ، والصَّلاة حُكْم شَرْعيٌّ.

وإذا كانَ الحُكم نوعين؛ شرعيًّا وكونيًّا، وكلٌّ مِنهما مُشتملٌ علَى الحِكْمة؛ صارتِ الأَقْسام أربعةً: حُكْم كَوْني، وحِكْمة كَوْنية، وحُكم شَرْعي، وحِكْمة شَرْعية.

والحِكْمة لها وَجْهان: الأوَّل: وَضْعها علَى هَذا الشَّيْء المعيَّن، والثَّاني: الغايَة مِنها. فكُلُّه حِكْمة، فكَوْن الإِنْسان وُضِع علَى هَذا الوَجْه فِي أَحْسن تَقْوِيم، فهَذا

لاشكَّ أنَّه حِكْمة، يَعْني لَمْ يَكُن الإنْسان كالفَرَس يَمْشِي علَى يدَيْه ورِجليه، وهُو دائمًا فِي انْحِناء، بَل كانَ قائمًا مُنتصبًا، يَتكيَّف مِن انْتِصَابٍ، إلَى رُكوعٍ، إلَى سُجُودٍ، فكَوْنُه علَى هَذا الوَجْه حِكْمة ولاشكَّ. والغايَةُ مِنْ ذلِك أن يتمكَّن مِن الإتْيان بالعِبادات المتنوِّعة مِن رُكوع، وسُجود، وقيام، وقُعود. كَذلِك الشَّرع، فالتَّشريعات كَوْنها وقَعت علَى هَذا الوَجْه فهَذا حِكْمة، فكَوْن الصَّلاة علَى هَذا الوَجْه: قِيام، ثمَّ رُكوع، ثمَّ قِيام، ثمَّ سُجود، فهَذا لاشكَّ أنَّه حِكْمة.

وكَوْن الغاية من هذِه العبادات أن يَصِل الإنْسان إلَى أسمَى الغايات، هَذا أيضًا حِكْمةٌ.

وكَوْن الحائِض تَقْضي الصَّوْم ولَا تَقْضي الصَّلاة حِكْمة شرعيَّةٌ، وإذَا تأمَّلت وَجَدْتَ أنَّ الحِكْمةَ مِنْ ذلِك هُو أنَّ الصِّيامَ لَا يَتكرَّر، والصَّلاة تَتكرَّر، فما نقَص مِنْها أَيَّام الحَيْض جُبِر فِي أيام الطُّهر، وأيضًا لَو أنَّ المَرْأَة أُلْزِمَت بقَضاءِ الصَّلاةِ لَكانَ فِي ذلِك مَشقةٌ علَيها؛ لأنَّ الصَّلاةَ تَتكرَّر فِي كل يَوْم، أمَّا الصِّيام فَلَا يأتي فِي السَّنة إلَّا مرَّةً.

والخُلاصة: أنَّه يَجِبُ أنْ تَعْلم أنَّ الحَكِيم مُشتقٌّ مِنَ الحُكم والإِحْكام، وأنَّ الحُكْم يَنْقَسِم إلَى قِسْمين: كَوْنيٌّ وشرعيٌّ، وأن الحِكْمة تنقسم إلَى قِسمين: غائيَّة، وحاليَّة أَو صُوريَّة. فكلُّ هَذا يَتضمَّنه اسمُ «الحَكيم»، وسبَق أدلَّة ذَلِك[1].

فائِدَةٌ: قَوْلُكَ: «الحِكْمَةُ» أَحْسَنُ مِن أَنْ تَقُول: «العِلَّة»؛ والحِكْمة والعِلَّة واحدٌ؛

(١) انظر الصفحة السابقة.

....

لَكِن مِنْها يَكُون غائية ومَا يَكُون سببًا، فَما أَثارَ الشَّيْءَ فهُو سَبَبٌ، ومَا كانَ غاية الشَّيْء فهُو غايةٌ، فمَثلًا: الإِنْسانُ عَلَى هذِه الصُّورة لَا شَكَّ أَنَّ هذِه حِكْمةٌ صُوريةٌ حاليَّةٌ، وكَوْنُهُ خُلِقَ عَلَى هذِه الصُّورة لِيؤَدِّيَ العِبادَةَ عَلَى الوَجْه الذِي يُرِيدُهُ اللهُ تعالى هذِه غائِيَّةٌ.

مَسْألة: هَل أحد من النَّاس نفى الحِكْمة لله تَعالَى؟

قُلْنا: نَعَم، نفَاها الأشاعِرةُ؛ يَقُولون: لَيْس لله حِكْمة، إِنَّما يَفْعل الشَّيْء لمجرَّد المَشِيئَة، ويَشرَع الشَّرعَ لمجرَّد المَشِيئة فقَط!.

فسَدُّوا علَى أَنْفسِهم وعَلَى غيرِهم مَعرِفةَ الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأَنَّ الإِنْسان كُلَّما عرَف مِن حِكْمة الله مَا عرَف، ازدادَ إِيمانًا بالله عَزَّوَجَلَّ وأَنَّه جَلَّوَعَلَا لَنْ يَفعلَ شيئًا إِلَّا لحِكْمة، ولَنْ يَشرعَ شيئًا إِلَّا لحِكْمةٍ، لَيْس عَبثًا ولَا لَعبًا، بَل لَا بدَّ مِن حِكْمة.

وهُم يَقولُون: فِعله وحُكمه تَعالَى لمجرَّد المَشِيئة لَا لحِكْمةٍ بالغةٍ. ولَا شَكَّ أَنَّ هَذا سوءَ ظَنٍّ بالله تَعالَى، وأَنَّه يَتصرَّف تَصرُّفًا عَشوائيًّا، ونَحْن نَقُول: بَل لله حِكْمةٌ بالغةٌ، لَكِن أحيانًا نَعْلمها، وأحيانًا تَقصُر عُقولُنا عَنها؛ لأَنَّنا قاصِرون.

فإِنْ قالَ قَائِل: ماذا يَقُول الأشاعرةُ فِي قَوْله تَعالَى: ﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾ [القمر:٥]؟

قُلْنا: الأشاعـرِة لَيْس عندَهم جـوابٌ، فهُناك فَـوْقَ أَلْف دَليلٍ عَلَى إِثْباتِ الحِكْمة، كـمَا ذَكَـر أَهْـل العِلْـم، لَكِـن: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور:٤٠].

وَنُؤْمِنُ بِأَنَّ لَهُ مُلْكَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ[١]: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾[٢] ....

ثُمَّ إن الحِكْمة أحيانًا تكونُ واضحةً كلُّ يَعرِفها، وأحيانًا تكُونُ خفيَّة لَا يَعْلمها إلَّا الرَّاسِخون فِي العِلْم، فحِكمة الله تعالَى ثلاثةُ أقسامٍ -من حَيثُ الظهورُ والخفاءُ-:

١- تارةً تكونُ الحِكْمةُ واضحةً لكلِّ أحدٍ.

٢- تارةً تكونُ خَفيةً علَى كُلِّ أحَدٍ.

٣- تارةً تكونُ واضحةً لأَهْل العِلْم الراسِخين فِيه، خفيَّة علَى مَنْ دُونهم.

فائِدَةٌ: الأَشْعَرِيَّة نَفَوا الحِكْمةَ، والمعتزِلَةُ أَوجَبُوا الحِكْمةَ، قالُوا: لَا بُدَّ أَنَّ كلَّ مَا فَعَله اللهُ فهُو لحِكْمةٍ، وهَؤلاءِ يقولُون: لَيْسَ لحِكْمة لِئَلَّا نُوجِب عَلَى الله بعُقُولنا! فيُقال لهم -أي للأَشْعريَّة-: نَحْن نُثبت الحِكْمةَ، ولكنا لَسْنا نَحْنُ الذِين نُقدِّر الحِكْمةَ، فالعُقُول لَا تَفْرِضُ عَلَى الله شيئًا، وإلا فنَعْلَمُ أَنَّ اللهَ لم يَخْلُقْ شيئًا عبَثًا أَوْ لَعِبًا، ولَا يَشْرعُ شيئًا عبثًا أَو لعبًا، ومَن ظَنَّ ذَلِك فقَد ظَنَّ باللهِ ظَنَّ السُّوءِ.

[١] قَوْله: «وَنُؤْمِنُ بِأَنَّ لَهُ مُلْكَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ» خلقًا وتدبيرًا، فهُو الخالِق وهُوَ المدبِّر.

[٢] قَوْله: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ (مَا) يُقال: إنَّها لغَيْر العاقِل، مَع أَنَّنا نَرى فِي المَخْلوقات مَا هُو عاقِل، فلماذا عبّر بـ(مَا) الدالَّة علَى غَيْر العاقِل عمَّا يَشْمَل العاقِل وغيرِه؟ قالُوا: لأَنَّ غيرَ العاقِل أكثرُ مِن العاقِل، وهَذا صَحِيحٌ؛ لأَنَّ هُناكَ أجسامًا كثيرة غير عاقلة، وهُناكَ صفاتٌ فِي العاقِل مَخْلوقة لله، والصِّفات نَفْسُها تُوصَف بغَيْر العَقْل، فصارَ الآن غيرُ العاقِل أكثرَ بكَثِير مِنَ العاقِل؛ لأَنَّ العاقِلَ فِيه الصِّفاتُ وهِيَ غيرُ عاقِلةٍ.

يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثٗا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوۡ يُزَوِّجُهُمۡ ذُكۡرَانٗا وَإِنَٰثٗاۖ وَيَجۡعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًاۚ[١] ....

ومن هُنا نَعرِف سِرَّ التَّعْبير فِي قَوْله تعالَى: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء:٣]، ولَمْ يَقُل (مَنْ طَابَ)؛ لأنَّه لَيْس المقصودُ عَيْنَ المرأةِ، بَل المقصودُ صفاتُها، كَما قَالَ النَّبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «تُنْكَحُ المَرْأَةُ لِأَرْبَعٍ: لِمَالِهَا، وَحَسَبِهَا، وَجَمَالِهَا، وَدِينِهَا»(١)، ولهَذا قالَ: ﴿مَا طَابَ لَكُم﴾، وسبحان الله العظيم! هَذا مِن تَعْبِيرِ القُرْآن عَجِيبٌ، لَكِن يَحتاجُ إِلَى إِنْسانٍ قَد تَمَعَّن فِي اللُّغة العَربية تمامًا.

إِذَن: عبَّر هنا بـ(مَا) الشَّامِلة للعاقِل وغيرِه تَغليبًا لجانِب غيرِ العاقِل؛ لأنَّه أكثرُ.

فقوله: «لَه مُلْك السَّموات والأَرْضِ» لَا شريكَ لَهُ فِي ذَلِك أبدًا، فلَا شريكَ ولَا مُعينَ ولَا مُسْتَقِلًّا دُونَ شَيْء فِي السَّمَواتِ والأَرْض، بَل لله عَزَّوَجَلَّ وَحْده، يَفْعل مَا يَشَاء لَا مُعقِّب لحُكْمِه.

[١] قَوْله: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثٗا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوۡ يُزَوِّجُهُمۡ ذُكۡرَانٗا وَإِنَٰثٗاۖ﴾، ﴿يَهَبُ﴾ يُعْطِي، ﴿لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثٗا﴾ أَي مِن العُقَلاء، وكَذلِك مِن غيرِهم، لَكِن أَهَم شَيْء: العُقَلاء؛ ﴿وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ المتحذْلِقُون مِنَ النَّحْوِيين والبَلاغيِّينَ ونَحوِهم قالُوا: لماذا قدَّم ذِكْر الإناثِ، مَع أنَّ الإناثَ مَكرُوهةٌ عِنْد أكثرِ النَّاس، وأخَّر الذُّكور، مَع أنَّ الذُّكُورَ مَرغوبةٌ عِنْد أكثرِ النَّاس؟ قالُوا: لسَبَبَيْنِ:

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب النكاح، باب الأكفاء في الدين، رقم (٥٠٩٠)، ومسلم: كتاب الرضاع، باب استحباب نكاح ذات الدين، رقم (١٤٦٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

....

الأوَّل: أنَّه بدأ بِمَا يَكره الإِنسانُ، إِشارَةً إِلَى أنَّ اللهَ تعالَى هُو الذِي لَهُ المُلْك، وأنَّه لَا يَخْلُق شيئًا على رَغْبةِ النَّاسِ، بَل علَى مَا تَقْتَضِيه حِكمتُه، ولكنَّه كسَر هَذا التَّقديمَ بقَوْله ﴿إِنَٰثًا﴾ نكرةً والنَّكرةُ مُنْكَرٌ.

الثَّانِي: لِيتبين أنَّ الأَمْرَ لَيْس إلَى الإِنْسان، يُقدِّم مَن شَاء ويُؤخِّر مَن شَاء، ولكنَّه جَبَر هَذا التأخِير بقَوْله: ﴿ٱلذُّكُورَ﴾ ولَمْ يَقُل: «ذكورًا»، ودُخولُ (أل) المُعَرِّفَة تدلُّ علَى عُلُو شأنِهِم، أَي الذُّكور المَرْغُوبين، فَفِيه تَنْويهٌ بالذُّكور بدُخُول (أل)؛ هكَذا قالُوا.

ونَقُول: اللهُ أَعْلم، إذَا كانَ هَذا الحِكْمة فهِيَ حِكْمة إن شَاء الله، وإلَّا فلِلَّهِ أنْ يُعبِّر بما شَاء.

ولِهَذا جَاءَ فِي نَفْس الآية ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا﴾ فقَدَّم الذُّكور هُنا؛ لعَدَم ذِكْر المَزِيَّة، ﴿يُزَوِّجُهُمْ﴾ أَي يَجْعلُهم أَزْواجًا، أَي أَصْنافًا، ذُكُورًا وإِناثًا، فيَكُون الرجُل لَهُ ذُكورٌ وإِناثٌ.

ثمَّ ذكَر قِسمًا رابعًا فِي قَوْله: ﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا﴾ لَا ذكورًا ولَا إناثًا.

وهذا هُو الواقِع، أَي هذِه القِسمة الرُّباعيَّة مُطابقةٌ تمامًا للواقع؛ لأنَّ مِن النَّاس مَن ذُرِّيَّته كُلُّهم ذُكُور، ومِن النَّاس مَن ذُرِّيَّته كلُّهم إناثٌ، ومِن النَّاس -وهُو الأَكْثر- مَن تكونُ ذريَّتُه ذُكورًا وإِناثًا. والقِسم الرَّابع قَلِيلٌ -والحَمْد لله- وهُوَ العَقِيم، ولَيْس هُناكَ قِسمٌ خامِسٌ.

فائِدَةٌ: الغالِب أنَّ الخُنْثَى يَتَّضِحُ، لَكِن قَد يَكُون مُشْكِلًا، بمَعْنى أَنَّه قَد يَبلُغ ولَا يَتبيَّن أَنَّه ذكَرٌ أَو أُنثَى، فيُقال: الخُنْثَى المُشكِل جامِعٌ بينَهما، لكِن عَلَى سَبِيل الامتِزاج.

﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾[1] [الشورى:٤٩].

---

[١] قَوْله: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ ﴿إِنَّهُۥ﴾ يَعْني: الرَّب عَزَّوَجَلَّ، الخالِق للخَلْق علَى هذِه الأَصْنافِ الأَرْبعة ﴿عَلِيمٌ﴾ بما يُصْلح حَال الإِنْسان، وبِما يَجْعل هَذا عَقيمًا، وهَذا ذُرِّيَّته ذُكورًا، وهَذا ذُريَّته إِناثًا، وهَذا مُجْتَمِعٌ.

﴿قَدِيرٌ﴾ أَي: ذُو قُدرة، والقُدرة وَصْف يَتمكَّن بِه القادِر مِن فِعل مَا يَقْدر عَلَيه بِلَا عَجْزٍ.

والقوي وَصْف يَتمكَّن به القويُّ مِن فِعل مَا يَقوَى عَلَيه بِلَا ضَعْف، فضِدُّ القوَّة الضَّعف، وضِد القُدرة العَجْز، ودليلُ هَذا قَوْله تعالَى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ [الروم:٥٤]، وقَوْله تعالَى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر:٤٤].

مِن فوائِد الآيةِ الكَريمةِ:

١- عُمُوم مُلْك الله وعُمُوم خَلْق الله عَزَّوَجَلَّ.

٢- إِثْبات المشيئَةِ لله عَزَّوَجَلَّ؛ لقَوْله: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ و﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ﴾.

٣- عُمُوم عِلْمه وقُدْرَته عَزَّوَجَلَّ؛ لقوله: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾.

٤- إِثْبات اسمَيْنِ مِن أَسْماءِ الله تعالى، وهُمَا: «عَليم» و«قَدير».

إِذَنِ: الأسماءُ فِي هذِه الآياتِ؛ أَي آياتِ (سُورة الحَشْر) خمسةَ عشرَ اسمًا، وهِي: ﴿ٱللَّهُ﴾، ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾، ﴿ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾، ﴿ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ﴾، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾؛ وأَمَّا الإِلَهُ فقَد تكون بمَعْنى «الله». وإِنْ أَفْرَدْناها صارَتْ سِتَّةَ عَشَرَ اسمًا.

....

والأسماءُ فِي آيةِ (سُورة الشُّورى) اسمانِ مِن أَسْماء الله تَعالَى، وهُما: «العَلِيم، والقَدِير»، وأمَّا الصِّفاتُ فهِيَ كَثِيرة.

وهَل يُسمَّى اللهُ تعالَى بـ«الواهِب»؛ كأَنْ تَقُول: إنَّ اللهَ هُو الوَاهِب؟

الجَوَاب: لَا؛ بَل هُو خَبَر عَن الله، ولَيْس اسمًا، بَل الاسمُ: «الوَهَّابُ».

وهَل «الستَّار» اسمٌ مِن أسماءِ اللهِ؟

الجَواب: «الستَّار» ليس من أسمائه، لكنَّه وَصْفٌ له، وأمَّا «ساتِر» فلَم تَرِد، لَكِن مَعَ ذَلِك النَّاس يقولون: «يَا ساتِر» فينادونه لَكِن عَلَى أنَّه وَصْف لَهُ.

وأمَّا «الماجِد» فقَد ورَد مِن حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1].

مَسْأَلة: اشتهر عِنْد بَعْض النَّاس في دُعائِهم أَنْ يَقُولوا: «يَا حَنَّانُ يَا مَنَّانُ» فهَل هَذا صَحِيحٌ؟

الجَواب: أمَّا «يَا مَنَّانُ» فثابِتٌ[2] وأمَّا «يَا حَنَّانُ» فلَمْ يَثْبُتْ عَن النَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[3] أنَّه

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٥/ ١٥٤)، والترمذي: كتاب صفة القيامة، رقم (٢٤٩٥)، وابن ماجه: كتاب الزهد، باب ذكر التوبة، رقم (٤٢٥٧)، من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٣/ ٢٦٥)، وأبو داود: كتاب الصلاة، باب الدعاء، رقم (١٤٩٥)، والترمذي: كتاب الدعوات، رقم (٣٥٤٤)، والنسائي: كتاب السهو، باب الدعاء بعد الذكر، رقم (١٣٠٠)، وابن ماجه: كتاب الدعاء، باب اسم الله الأعظم، رقم (٣٨٥٨)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه الإمام أحمد (٣/ ٢٣٠)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٣٨٤): رواه أحمد وأبو يعلى، ورجالهما رجال الصحيح غير أبي ظلال، وضعفه الجمهور، ووثقه ابن حبان.

وَنُؤْمِنُ بِأَنَّهُ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[١] ﴿١١﴾ ....

سمَّى اللهَ بـ«الحَنَّان»، فتقول: لَا تَقُل: «يَا حَنَّانُ»، وقُلْ: «يَا مَنَّانُ يَا بَدِيعَ السَّمَواتِ والأَرْضِ».

[١] قَوْله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ مِن جُمْلة عَقِيدة أَهْل السُّنَّة والجَماعَة: الإِيمانُ بأنَّ اللهَ تَعالَى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾.

﴿شَىْءٌ﴾: اسمُ «لَيْس» مُؤخَّر، و﴿كَمِثْلِهِۦ﴾: خَبَرُها مُقدَّم.

واختلفَ العُلَماءُ فِي الكافِ؛ هَل هِيَ زائدةٌ أَم لَا؟ فقَال بَعْضُهم: إنَّها زائدةٌ، وقال بَعْضُهم: إنَّها غيرُ زائدةٍ؛ فالذِين قالُوا إنَّها غَيرُ زائدةٍ يَلْزَمُهم أن يُؤوِّلُوا المِثْل إِلَى مَعْنًى تكُون بِهِ الكافُ غيرَ زائدةٍ. فقالُوا: المِثْل هُنا بمَعْنى الصِّفَة؛ أَي لَيْس كصِفَته شَيْءٌ. وقالُوا: إنَّ المِثْل والمَثَل يأتيانِ بمَعْنًى واحِدٍ، والمَثَل قَد أَتَى بمَعْنى الصِّفَة، كَما فِي قَوْله تعالَى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ إلخ [محمد:١٥]، فقالُوا: إنَّ المَثَل هُنا بمَعْنى الصِّفَة، وعَلَى هَذا فتكُون الكافُ هُنا غيرَ زائدةٍ؛ أَي: لَيْسَ كصِفَته شَيْءٌ.

وقال بَعْضهم: إن مِثْل بمَعْنى نفْس؛ أَي: ذات، والمعنى: لَيْس كذاته شَيْء. وعَلَى هَذا فالكاف غير زائدة.

وقال بَعْضهم: إن المِثْل بمَعْنى المماثِل، وعَلَى هَذا تكون الكافُ زائدةً؛ لأنَّك إذَا قلتَ: لَيْس كمِثْله صارَ المَعنَى أنَّك تثبتُ لَهُ مماثلًا، وأنَّ المماثل لَيْس لَهُ مماثِل. وهَذا لَا يَستقيم، قالُوا: إِذَن نَقُول: الكافُ زائدةٌ للتَّوكيد، كَمَا تُزاد الباء، وكما تُزاد (مِنْ) للتَّوكيد، فكَذلِك هُنا الكافُ زِيدت للتَّوكيد. والتَّوكيد هُنا هُو توكيد نَفْي المُماثِل؛

يَعْني: أنَّ الله لَيْس لَهُ مماثل، وعَلَى فَرْض أن يَكُون لَهُ مُماثِل فلَيْس لمُماثِله مُماثِلٌ، وعَلَى هَذا فتكُون الكافُ زائدةً للتَّوكيد.

وهذا كلُّه لأنَّ المسلمِين مُتَّفِقُون علَى أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَيْس لَهُ مِثْل، كما دلَّت علَى ذلِك آياتٌ صريحةٌ، مِثل قَوْله تعالَى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم:٦٥]، وقَوْله تعالَى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٢].

وقَوْله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ وهَذِه صِفَة من الصِّفات المنفية.

ونُفِيت المُماثَلة لكَمالِه، وعَدَم إلحاقِ أحَدٍ بِه، فهُو لكَمالِه لَا يُوجَد لَهُ مَثيلٌ أبدًا، لَا لأنَّه لَيْس بمَوْجُودٍ، بَل لأنَّه مَوْجُودٌ لكِن لَا يُماثِلُه أحَدٌ.

وفي هذِه الجُمْلة رَدٌّ علَى المُمثِّلة الذِين يَقُولون: إنَّ الله تعالَى لَهُ مَثِيل، ويُمثِّلُون اللهَ بالخَلْق -والعياذُ باللهِ-، وحُجَّتُهم فِي ذَلِك أنَّ الله تعالَى لَا يُخاطِبُنا إلَّا بما نَفْهم، حتَّى قامَ بَعْضُهم خَطِيبًا وقال: «سَلُوني عَن كلِّ شَيْء أُخْبِرْكُم بِه، وأعفُوني عَن الفَرْج واللِّحْية» نسأَلُ اللهَ العافيةَ! لأنَّ الفَرْج لَا يَحتاج إِلَيْه إلَّا مَن يَحتاج إِلَى النَّسل، واللِّحية -علَى زَعْمه- تُنافي الجَمال؛ لأنَّ الأَمْرد أَجْمل مِن ذِي اللِّحْية!! فقال: «أعفُونِي مِنْها، والباقِي أنَا مُستعدٌّ أنْ أُمثِّله لَكُم؛ فأقولُ: اليَدُ مِثْلُ يَدِي، والوَجْه كَذلِك».

وهَـذا رَأْيُ الضُّـلَّالِ المُمَثِّلَةِ، الـذِين يَعبُدون الصَّنـم، كـما قَـالَ ابنُ القَيِّـمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي مُقدّمة النُّونِية: «المُمثِّلُ يَعْبُدُ صَنمًا، والمُعطِّل يَعْبُد عدَمًا»(١) وهَذا صَحِيحٌ،

(١) الكافية الشافية (١/ ٢٢)، وانظر: الصواعق المرسلة (١/ ١٤٨).

....

فالُممثِّل يَعبُد صَنمًا؛ لأنَّه يَقُول: اللهُ مِثْلُ كَذَا، والُمعطِّل يَعْبُدُ عدَمًا؛ لأنَّ نَتِيجةَ تَعْطِيله: أنْ لَا وُجُودَ للهِ.

المهمُّ: أن هذِه الجُمْلةَ وهِيَ قَوْله: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ تَقْطَعُ حُجَّة كُلِّ مُعطِّلٍ لأنَّ عامَّة أقوالِ الُمعطِّلين يَحتجُّون عَلَيْها بهذِه الآيةِ، فيَحتجُّون عَلَيْها بأنَّ إثباتَها يَسْتلزِم المُماثَلة فنَردُّ عَلَيهم بذَلِك ونَقُول: لله عَيْنٌ ولَكِنْ لَيْست كمِثل أَعْيُنِنَا؛ لأنَّ الله تعالى يقولُ: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾، وأنَّ لَهُ وَجهًا ولَكِن لَيْسَ كوُجُوهنا؛ لأنَّ الله تعالى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾، ونُؤكِّدُ هَذا -أي ثُبُوت أَصْلِ المعنَى- بِلَا مُماثَلةٍ بالواقِع المَحْسُوس؛ فنَقُول لهؤلاءِ: ألكُمْ أَعْيُنٌ؟ سيَقُولون: بلَى؛ فنَقُول: هَل للحِمار عَيْنٌ؟ سيَقُولون: نَعَم؛ فنَقُول: هَل عَيْنُكم تُشبه عَيْن الحِمار؟ سيَقُولون: لَا؛ نَقُول: إذَا كانَ هَذا التبايُن بَين المخلُوقات بَعْضها مَعَ بَعْض فكَيْف لَا يقَع التبايُن بَين المَخلُوق والخالِق سبحانه، فالتبايُن بَين المخلُوق والخالِق أَبْين وأَوْضح وأَجْلَى وأَعْظَم، والفَرْق بَين المخلُوقات بَعْضها مَعَ البَعْض فَرْقٌ لَا يَعْدُو أنْ يَكُون اختِلافًا فِي الصُّورة والشَّكل، لَكِن الفَرْق بَين الخالِق والمخلُوقاتِ فَرْقٌ عَظِيم فِي الذَّات والصِّفات وكُلِّ شَيْءٍ.

وعلى هَذا فهَذا الجُزءُ مِن الآية يَقْطَع حُجَّة كُلِّ مُعطِّلٍ؛ لأنَّ غالِب حُجَج أَهْل التَّعطيل أنَّ إثباتَ الصِّفات عَلَى حَقِيقتِها يَسْتلزِم المُماثَلة؛ فنَقُول: إنَّ الله تَعالَى لَيْسَ كمِثْله شَيْءٌ.

ثم نَقُول أيضًا: هُو ردٌّ واضحٌ عَلَى الُممثِّلَة الذِين يُثْبِتُون صِفات الله تَعالَى مَعَ التَّمْثِيل ويَقُولون: عَيْن الله حَقٌّ ولكنَّها كأعيُنِنَا؛ لأنَّ الله لَا يُخاطِبُنا إلَّا بِما نَفْهم

فنَقُول لـهُم: هَذا مُبطِل للآيةِ الكَرِيمة، ومَا أَبْطل الحقَّ فهُـو باطِلٌ، فيكُون قولكُم هَذا باطلًا.

وقَوْله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ السَّميع مِن أَسْماء الله تَعالَى؛ قَالَ العُلَماء: إنَّ السَّمعَ يَنقسِم إلَى قِسمين: الأوَّل: سَمْع إجابَة، والثَّاني: سَمْع إِدْرَاكٍ.

فمِن سَمْع الإجابَةِ قَوْلُه تعالَى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم:٣٩]، والمعنَى أَنَّه مُجيب؛ لأنَّ مجرَّد السَّماع لَيْس فِيه ذاكَ الثَّناءُ، وهَذا توسُّل إلَى الله تعالَى أنْ يُجيبَ الله الدَّعوة، والتَّوسُّل إلَى الله تعالَى بمجرَّد إدراكِه للصَّوت لَيْس وَسِيلةً فِي الواقع، إنَّما التَّوسُّل إلَى الله لكونِه مُجيبًا للدُّعاء، فيُجِيب دُعاءَ هَذا السَّائِل.

ومِنه أيضًا قَـول المُصلِّي: «سَمِـعَ اللهُ لِـمَنْ حَمِدَهُ»، ومَعْناهـا: استَجابَ اللهُ لِـمَنْ حَمِدَهُ.

أمَّا سَمْع الإِدْراك فهُو ثلاثةُ أنواعٍ:

١- تارةً يَكُون للتَّأْيِيد.

٢- تارةً يَكُون للتَّهْديد.

٣- تارةً يَكُون لبَيان شُمُول سَمْع اللهِ عَزَّوَجَلَّ لكُلِّ شَيْءٍ.

ففي قَوْله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [آل عمران:١٨١] هَذا للتَّهديد، بدَليل قَوْله تعالَى: ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [آل عمران:١٨١] ومِثل قَوْله تعالَى:

....

﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم﴾ [الزخرف:٨٠] هَذا -أيضًا- للتَّهديد، لقَوْله تعالَى: ﴿بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف:٨٠].

وتارةً يَكُون للتَّأييد، كقَوْله تعالَى لموسَى وهارُونَ: ﴿لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه:٤٦]، هَذا لَيس المُراد مجرَّد إخبارٍ لموسى وهارون أنَّ الله يَسمعُهما ويراهُما، بَل المُراد التَّأييد والنَّصر، ومَا أَشبَه ذلِك.

وتارةً يُراد بِه بَيان شُمُول سَمْع الله لكُلِّ شَيْء، كقَوْله تعالَى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾ [المجادلة:١]، ولهَذا قالَتْ عائشةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «الحَمْد لله الذِي وَسِعَ سَمْعُه الأصواتَ، لقَد كُنْتُ فِي طَرَف الحُجْرة وإنَّه ليَخفَى عليَّ بَعْضُ حَدِيثِها»[1]، والله عَزَّوَجَلَّ مِن فَوْقِ سَبْع سمَوات يَسمع حديثَها، فهَذا المُراد بِه شُمُول سَمْع الله لكُلِّ شَيْء، فأَنْتَ إِنْ تَكلَّمت فِي بَيْتِك فاللهُ تعالَى يَسْمعُك، وإنْ تكلَّمْت فِي ملأٍ فاللهُ تعالَى يَسْمعُك، وإنْ حدَّثْتَ نفسَك فاللهُ تعالَى يَعْلم، فإنْ حرَّكْت لِسانَكَ حتَّى صارَ قولًا فالله تعالَى يَسْمعُه وإِنْ خَفِيَ، ولهَذا قَالَ الله تعالَى فِي الحَدِيث القُدسيِّ: «مَن ذَكَرنِي فِي نَفْسِه ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، ومَن ذَكَرنِي فِي مَلأٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَأٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ»[2].

---

(١) علقه البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾، (٩/ ١١٧). ووصله الإمام أحمد (٦/ ٤٦)، والنسائي: كتاب الطلاق، باب الظهار، رقم (٣٤٦٠)، وابن ماجه: في المقدمة، باب فيما أنكرت الجهمية، رقم (١٨٨).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾، رقم (٧٤٠٥)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب الحث على ذكر الله تعالى، رقم (٢٦٧٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

إِذَن: السَّمع يَنْقسم إِلَى قِسمين: الأوَّل بمَعْنى الإجابَة، والثَّاني بمَعْنى الإِدْراك، والإدراكُ ثلاثةُ أنواعٍ.

أما قَوْله: ﴿ٱلْبَصِيرُ﴾ فمَعْناها ذُو البصَر، لَكِن البَصِير يَكُون بَصيرَ عِلم، وبَصيرَ رُؤية، وكلاهُما مُراد لله تَعالَى، فالله عَزَّوَجَلَّ بَصِيرٌ بمَعْنى بَصَر الرُّؤية، فهُو يرَى كلَّ شَيْءٍ، وإنْ خَفِي وإنْ بَعُد، فإنَّه تَعالَى لَا يَغِيب عَنْهُ شَيْء، كَذلِك هُو بَصيرٌ بَصَر عِلْم، مِثل قَوْله تعالَى: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحجرات:١٨]، وقالَ تعالَى: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آل عمران:١٥] ومَا أَشبَه ذلِك، والمعنَى: عَلِيم بِه، ولهَذا جاءَت معدَّاةً بالباء (بَصِيرٌ بكذا)، ولَو كانَ البصَر هُنا بمَعْنى الرُّؤية لَقالَ: يُبْصِرُهُم، ومَا قَالَ: يُبْصِر بِهِم!

وقَوْله تعالَى: ﴿أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ﴾ [الكهف:٢٦] الظاهِر أنَّه يَشْمَل الأمرَيْن جَمِيعًا. وقَد يَقُول قَائِل: إنَّه لـمَّا ذكَر اللهَ تَعالَى السَّمع فِي قَوْله: ﴿وَأَسْمِعْ﴾ دلَّ علَى أن المُراد بقَوْله ﴿أَبْصِرْ بِهِۦ﴾ هُو بصَر الرُّؤية، لَكِن: كَوْنه شاملًا الأمرَيْن أَحْسَنُ.

ثُمَّ فِي قَوْله تعالَى: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ ردٌّ علَى المعطِّلة أيضًا، فإنْ قَالَ المعطِّلة: نحنُ نُثْبت أنَّه سَمِيع بَصِير لَكِن بِلَا سَمْع ولَا بَصَر؟

قُلْنا: هَذا باطِلٌ بجَمِيع اللُّغات، فكلُّ لُغاتِ العالم لَا تَذْكُرُ شَيئًا مُشْتقًّا إِلَّا وأَصْلُه ثابِتٌ فِي المَوْصُوف بِه، فَلَا يُمْكِن أن نَقُول للأَعْمَى: إنَّه بَصِيرٌ، ولَا للأصمِّ إنَّه سَمِيع، بَل لَا يُمكن أنْ تُثبت هذَيْن الاسمَيْن إِلَّا لـمَنِ اتَّصف بالسَّمع والبصَر عِنْد جَمِيع اللُّغاتِ، العَربيَّةِ وغيرِ العَربيَّةِ.

....

وإذَا قالُوا: إننا نثبت أنَّه سَمِيع بَصِير، كَمَا تَقُول الأشاعِرة؛ نَقُول لـهُم: أثبِتوا أنَّه حَكِيم، وأنَّه خَبِير، وهكَذا، ممَّا يُنكرونه؛ لأنَّ مَن أَثبَت شيئًا لَزِمه أنْ يُثبِتَ مَثِيله، أمَّا كَوْنه يُثبت بَعضًا ويَنفي بَعضًا فهَذا هُو الذِي يُؤمن ببَعْض الكِتاب ويَكْفر ببَعْض.

فِفِي هذِه الآيَةِ الكَرِيمَةِ: إِثْبات «السَّميع» اسمًا مِن أَسْماء الله، و«البَصِير» اسمًا مِن أَسْماء الله. وهذانِ الاسمانِ ممَّا يَتعلَّق بالإِيمانِ بِهِما ثلاثةُ أُمُورٍ؛ لأنَّهما مُتعدِّيَانِ، فنُؤمن بالسَّمِيع اسمًا، وبالسَّمْع صِفَةً، وبأنَّه يَسْمع حُكمًا وأثَرًا؛ وكَذلِك يُقال فِي البصَر.

ثُمَّ اعْلَمْ أنَّه لَا يَلزَمُ مِن إِثْبات السَّمع لله تعالَى إِثْباتُ الأُذُنِ، وكَذلِك لَا يَلْزَمُ مِن إِثْبات البصَر لله تعالَى إِثْباتُ العَيْن.

وهذا نَقُول: لَا نُثْبِت لله أذنًا؛ لأنَّه لم يَرِدْ أنَّ لله تعالَى أذنًا، ونُثبت للهِ تعالَى عَيْنًا لَا بِهذِه الآيةِ، لَكِنْ بآياتٍ أُخرَى، مِثْل قَوْله تعالَى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ [طه:٣٩] وقَوْله تعالَى: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر:١٤].

فإن قَالَ قَائِل: لماذا لَا تَقُولون: إنَّه مِن لُزُوم السَّمع إِثْباتُ الأُذُن؟

قُلْنا: لَا نَقُول ذَلِك، ألَيْسَت الأَرْض تُحدِّث أخبارَها -وهُو مَا عُمِلَ عَلَيْها مِن خَيْر أَو شَرٍّ أَو قَول أَو فِعل-، وهِي لَا أُذُنَ لها؟!.

فإنْ قِيل: مَا تَقُولون فِي قَول النَّبي ﷺ: **«مَا أَذِنَ اللهُ لشَيْءٍ مَا أَذِنَ لِنَبِيٍّ حَسَنِ الصَّوْتِ يَتَغَنَّى بِالقُرْآنِ يَجْهَرُ بِهِ»**(١) فقَالَ: **«مَا أَذِنَ»**؟

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب قول النبي ﷺ: «الماهر بالقرآن مع الكرام البررة»، رقم (٧٥٤٤)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب استحباب تحسين الصوت بالقرآن، رقم (٧٩٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

....

قُلْنا: «أَذِنَ» هنا بمَعْنى استَمَعَ، وقَد يُقال: أَذِنَ هُنا بمَعْنى الإِذْن القَدَري الكَوْني، لَكِن الأوَّل أَصَحُّ، وهُو أنَّ «أَذِنَ» بمَعْنى استَمَع، ولَا يَلْزَم مِنَ الاستِماع إلَّا السَّماع، أمَّا إِثْبات الأُذُنِ فالأُذُنُ شَيْءٌ آخَرُ فَوْقَ السَّماع، ولِذلك لَو قُطِعت أُذُنُ واحدٍ فإنَّه يَسْمع؛ لأنَّ السَّمْع مِنَ الدَّاخِل، وهَذِه الأُذُن إنَّما كَانَت علَى هذِه الصِّفَة مِن أَجْل تَنْظيم دُخُول الهَوَاء إلَى صِماخِ الأُذُنِ؛ لأنَّ الصوتَ لَهُ هواءٌ يَدْفَعُهُ، فلَوْ جاءَت الأصواتُ علَى الأُذُنِ وهِي مَخْرُوقَةٌ فقَط بِدُون هذِه التَّعَرُّجاتِ لأثَّرتْ؛ لأنَّ الإِنْسانَ دائمًا يَسمعُ الأصواتَ، لَكِن مِن حِكْمة الله عَزَّوَجَلَّ أنْ جعَل هذِه التَّعرُّجات لكَيْ يَأْتِي الصَّوْت يَمِينًا ويَسارًا فيَدخُل إلَى الصِّماخ بهُدُوء، وهَذا واضحٌ، ولذَلِك تَجِد الإِنْسان إذَا قُطِعت أُذُنه تكْثُرُ عَلَيه الآلامُ مِنَ الدَّاخِل؛ لأنَّ الهواءَ يَأْتِي بقُوَّة، فيُزعِج السَّماعَ الداخِليَّ.

مَسْأَلةٌ: هَل يَجُوز أنْ نَقُول: «إنَّ اللهَ سَمِيعٌ بِلَا أُذُنٍ»؟

الجَوَاب: لَا يَجُوز أنْ نَقُول: «إنَّ اللهَ سَمِيعٌ بِلَا أُذُنٍ»؛ لأنَّ اللهَ لم يَنْفِ الأُذُن عَن نَفْسِه، إِذَنْ: لَا يَنْبَغِي أنْ نَنفِيَها لاحتِمالِ أَنْ يَكُون لَهُ أُذُنٌ، وأيضًا: «بَصِيرٌ بِلَا عَيْنٍ»، هَذا أيضًا لَا يَصِحُّ لوجهَيْن؛ الأَوَّل: أنَّ الله أَثْبَت لنَفْسه عَيْنًا، فكَيْف نَنْفِيها؟!، والثَّاني: لَو قُدِّر أنَّ اللهَ لم يُثْبِت لَهُ عينًا فَلَا يَجُوز نَفْيُها؛ لأنَّ القاعدةَ فِي ذلِك: أنَّ كل مَا يَتعلَّق بصِفاتِ الله فإنَّه لَا يَجوز إثباتُه ولَا نَفْيُه إلَّا بدَليلٍ، إلَّا مَا عَلِمنا أنَّه لَا يَلِيق بجَلاله عَزَّوَجَلَّ، كالأشياءِ التِي تتضمَّن النَّقْصَ، مِثل مَا لو قَالَ: هَل لله أَسْنانٌ وأَضْراسٌ؟ فهُنا نَقُول: لَيْسَ لَهُ أسنانٌ ولَا أَضْراسٌ؛ لأنَّ هذِه إنَّما يَحتاجُ إلَيْها لِـمَضْغِ الأَكْل واللهُ تَعالَى لَا يَأْكُل، كَما نعلم أنَّه لَيْسَ لَهُ مَعِدَةٌ ولَا أمعاءٌ؛

لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ[١] ....

لأَنَّه هذِه يحتاجُها مَن يَحتاج إِلَى الأَكْل، ونَنْفِي ذَلِك، ثُمَّ إنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ «صَمَد»؛ قالَ بَعْض العُلَماء فِي تَفْسيرها: أَي لَا جَوفَ لَه، لأَنَّه غنيٌّ عَنِ الأَكْل.

وَلْيُنتبَه لهذه النُّقطة: لَا يُظَنُّ أَنَّنا لَا نَنفي كلَّ شَيْءٍ حتَّى يَرِد نَفْيُه بعَيْنِه، بَل إذَا كانَ إثباتُه يَسْتلزِم نَقْصًا نَفَيْناهُ؛ لأَنَّ النَّقْص ومَا يَستلزِمُه كلُّه مَنفيٌّ عَنِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

[١] قَوْله تعالى: ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ المقالِيد: جَمْعُ مِقْلَاد، وهُو بمَعْنى القِلادَة، أَي أنَّ أزِمَّة الأمُور بيَد الله عَزَّوَجَلَّ، فِي السَّموات وفِي الأَرْض، يَتصرَّف فِيها كَيْف يَشاء؛ لأَنَّه: ﴿لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ﴾ [الأنبياء:٢٣] و﴿لَا مُعَقِّبَ لِحُكۡمِهِۦ﴾ [الرعد:٤١].

فنَسأَلُ اللهَ عَزَّوَجَلَّ أنْ يُرسِّخ إيمانَنا بذَلِك؛ لأنَّ الإِنْسانَ إذَا آمَن بهَذا حقَّ الإِيمانِ رضِي باللهِ بالخَير وبالشَّرِّ؛ ولهَذا قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ! إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، إِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»(١)، فأَنْتَ إذَا آمَنْتَ بهَذا تَمامَ الإِيمان اطمَأْنَنْتَ، فإذَا أصابَك اللهُ بضُرٍّ، فتَقُول: أَنَا مَن أنَا؟! أَلَسْتُ عبدَ الله! أَلَيس اللهُ لَهُ مَقَالِيدُ السَّموات والأَرْض؟! أَلَيس اللهُ يَفْعلُ مَا يَشاء؟ بلَى، والحَمْد لله أَنَّه إذَا ابتَلَاني بضَرَرٍ أثابَنِي علَى ذَلِك، وإِذَا ابتَلَانِي بسَرَّاء امتَحَنَنِي بذَلِك، ﴿هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُ﴾ [النمل:٤٠].

ولـهَذا قَد نَقُول -أحيانًا-: إنَّ الابتِلاء بالنَّعماء أشدُّ من الابتِلاء بالضَّرَّاء؛

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب المؤمن أمره كله خير، رقم (٢٩٩٩)، من حديث صهيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾[1] [الشورى:١١-١٢].

لأنَّ النِّعمة تَحمل علَى الأشَر والبطَر، وقَلَّ مَن يَقوم بشُكرها، حتَّى قَالَ النَّبِي ﷺ: «وَاللهِ مَا الفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَإِنَّما أَخْشَى أَنْ تُفْتَحَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيا، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسَهَا مَنْ قَبْلَكُمْ، فَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ»(١)، وصدَق الرَّسُولُ ﷺ، فإنَّ الإِنْسانَ يَشْعُر أحيانًا بأَنَّه لَو كانَ فقيرًا مُحتسبًا صابرًا خَيْرٌ ممَّا لَو كانَ غَنيًّا مُتْرفًا غافلًا.

فعَلى كلِّ حَالٍ أقولُ: إذَا آمَن الإِنْسانُ بأنَّ اللهَ تعالى لَهُ مَقاليدُ السَّمواتِ والأَرْض اطمأَنَّ تمامًا ورَضِيَ، وهانَتْ عَلَيه المصائِبُ، وانظر إلَى الله عَزَّوَجَلَّ يُصبِّرُنا سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ ولَهُ المِنَّة والفَضْلُ، قالَ تعالَى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ [الحديد:٢٢]، فأَنْتَ إذَا عَلِمْتَ أنَّها بإِذْن الله فماذا تَقُول؟ تَقُول: آمَنْتُ بالله وأَنَا عَبْدُه يَفْعَلُ مَا يَشاءُ، ولهذا قَالَ تَعالَى: ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥ﴾ [التغابن:١١]، قَالَ عَلْقَمةُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهُو أَحَد أكابِرِ أصحابِ ابنِ مَسْعُودٍ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ قالَ: هُو الرجُل تُصيبه المُصِيبة فيَعلم أنَّها مِن عِنْد الله، فيَرضَى ويُسَلِّم(٢).

[١] قَوْله تعالى: ﴿يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ ﴿يَبۡسُطُ﴾ يوسِّع ﴿وَيَقۡدِرُ﴾ يُضيِّق، كَما قَالَ الله تَعالَى: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ فَلۡيُنفِقۡ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ [الطلاق:٧]، والرِّزق بمَعْنى العَطاء، والعَطاءُ نَوْعانِ: عطاءٌ يَقوم بِه البَدَن، وعطاءٌ تَقُـوم بِه الرُّوح، فالأَوَّل: كالأَكْل، والشُّرب، واللِّباس، والسَّكَن،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها، رقم (٦٤٢٥)، ومسلم: كتاب الزهد والرقائق، رقم (٢٩٦١)، من حديث عمرو بن عوف رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٣/ ١٢)، وانظر: تفسير ابن كثير (٨/ ١٦١)، وعلقه البخاري: كتاب تفسير القرآن، سورة التغابن (٦/ ١٥٥)، عن علقمة، عن ابن مسعود.

ومَا أَشبَه ذلِك، والثَّاني كالعِلْم والإِيمان، وهَذا أَعْظم مِنَّةً مِنَ الأَوَّل؛ لأنَّ الأَوَّل يُمكن أن يَعيش، وإذَا ماتَ فاللهُ أعلمُ بحالِه، لَكِن الثَّاني إذَا ماتَ فإنَّه يَمُوت علَى خَيْرٍ؛ لأنَّ عندَه مِنَ العِلْم والإِيمان مَا يَرْفعه الله بِه.

مَسْألةٌ: إذَا اكتسَبَ الإِنْسانُ مالًا حرامًا فهَل نَقُول: إنَّ هَذا المال رِزقٌ، أَم أنَّ الرِّزقَ هُو الحَلالُ؟

الجَوَاب: أمَّا الرِّزق المُطلَق فالحَلال، وأمَّا الرِّزقُ الذِي بِه قِوامُ البدَن فيَشْمَل الحَلالَ والحَرام.

وقَوْله: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ لَيْسَت مُجرَّدَ مَشيئةٍ أنَّ الله يَبْسُطُ ويَقْدِرُ، بَل هِي مَشِيئةٌ مَقرونةٌ بحِكمةٍ، كَما قَالَ الله تَعالَى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان:٣٠] فوَصَف نَفْسه بالعِلْم والحِكْمة، بعد قَوْله: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ فدلَّ ذلِك علَى أنَّ الله لَا يَشاءُ شيئًا إلَّا وهُو مَبْنِيٌّ علَى العِلْم والحِكْمة، وهُوَ كَذلك؛ فهُو جَلَّوَعَلَا يَشَاءُ الأشياءَ لَا أَحَدَ يَرُدُّهُ، لَكِن مَشِيئته تابِعةٌ لحِكْمَتِه، فمَنِ اقتَضَت حِكْمة الله تعالَى أنْ يَبْسُطَ لَهُ الرِّزْقَ بَسَطه، ومَنِ اقتَضتْ حِكمَتُه أنْ يُضيِّقَ عَلَيه رِزْقه ضَيَّقَ علَيْه، ولهَذا خَتَم الآيةَ بالعِلْم، فقالَ تعالَى: ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الشورى:١٢].

فإذا قَالَ قَائِل: مَا الحِكْمة مِن بَسْطِه الرزقَ لفُلان وتَضْيِيقه علَى فُلانٍ؟

قُلْنا: الحِكْمة مِنْ ذلِك أن فلانًا لَو وسع لَهُ فِي رزقه لَكانَ ذلِك سببًا لأَشَرِهِ وبَطَـره، فكانَ مِنَ الحِكْمةِ أنْ يُضيِّقَ اللهُ علَيْه، ومَن بُسِط لَـهُ رُبَّما يَكُون التَّضْيِيق عَلَيه

سَببًا لنُفُوره مِن ربه عَزَّوَجَلَّ، وسَخَطه منه، وغَضَبه علَيْه، فيَرْتدُّ كما قالَ تعالَى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةَ﴾ [الحج:١١]، والفِتْنة هِي الشُّبهة، أَو فَوَات مَا يُحِبُّ ويُرِيدُ، فكَثِيرٌ مِنَ النَّاس إذَا أُصيبَ بمَوْتِ حَبِيبٍ لَهُ أَو قَرِيبٍ لَهُ أَو مَا أَشْبه ذلِك انقَلَب علَى وَجْهه -والعِياذُ بالله-، وتَسَخَّط مِن قَضاء الله، وكَرِه تَدْبير الله، ومِنَ النَّاس أيضًا مَنْ يَعْبُد الله عَلَى حَرْف، فإِذَا جاءَهُ مَن يُشكِّكه فِي العِبادَة أَو مَن يُشكِّكه فِي الرَّب عَزَّوَجَلَّ انقَلَب علَى وَجْهه، ولهذا اسْأَلْ رَبَّكَ الثَّبَاتَ دائمًا.

إِذَنْ: مِن عِبادِ الله مَن يُصْلحُه الغِنَى، ومِنهم مَن يُصلحُه الفَقْر، فرُبَّما يُصِيب اللهُ الإِنْسانَ بالفَقْر بَعْد أَنْ كانَ غنيًّا لكنَّه أشِرَ وبَطِر مِن أَجْل هَذا الغِنَى، فتكُون المصلحةُ الآن فِي فَقْره، والعَكْس بالعَكْس، فمِنَ النَّاس مَنْ يَكُون مُنحرِفًا حِينَ فَقْره فإِذَا أَغْناهُ اللهُ بالمالِ رجَع إِلَى ربِّه.

قالَ تعالَى: ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فِيه عُمُوم عِلْم الله، حَيثُ قَالَ -سُبحانه-: ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ وهُو بكل شَيْء مِنَ الأَعْيان والأَوْصاف والأَحْوال الحاضِرة والمُستقبَلة والماضِيَة، فهُو عَلِيمٌ بِها جَلَّوَعَلَا، لَا يخفى عَلَيه شَيْءٌ منها.

فإِذَا آمَنْت بهذا -وهو المقصُود- خِفت اللهَ لأَنَّك مَهما اختَفَيْت فاللهُ عالِـمٌ بكَ، ومَهما أَخْطَأت فاللهُ عالمٌ بما فِي نَفْسك، قَالَ الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق:١٦].

وإِذَا آمَنْت بأَنَّ اللهَ بكُلِّ شيءٍ عليمٌ أَوْجَب لكَ ذلِك خَشْيَـةَ اللهِ، والخَـوْفَ مِنه،

....

ومُراقبته تبَارَكَ وَتَعَالَىٰ -نسأَلُ اللهَ أنْ يَرْزُقَنَا الإِخْلاصَ فِي هَذا الإِيمانِ-، لأنَّ هَذا مِمَّا يَحْمِلُ الإِنْسانَ علَى امْتِثالِ الأَمْرِ واجتِنابِ النَّهْيِ.

فيُستفادُ مِن هذهِ الآيةِ:

أوَّلًا: نَفْيُ التَّمْثِيلِ؛ لقَوْله تعالَى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١]، وانْتَفَتِ المِثْليَّة لكَمال صِفاتِه عَزَّوَجَلَّ، لَا مُماثِلَ لَهُ.

ثانيًا: الرَّدُّ علَى المُمَثِّلَة فِي قَوْله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ وعَلَى المُعطِّلَة فِي قَوْله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾.

فإن قَالَ قَائِل: بماذا يُجيب المُمثِّلة عَن هذِه الآية وغيرِها مِنَ الآياتِ التِي ورَد فِيها نَفْي مُماثلة الله عَزَّوَجَلَّ للمَخْلوقين؟

قُلْنا: لِنَعْلَمْ أنَّ كُلَّ ذِي باطِلٍ لَا يُمْكِن أنْ يَدْفع الأدلَّة الصَّحيحةَ إلَّا بمَعْنًى سَخِيفٍ لَا يُقْبل، فَهُمْ يَقُولونَ: لَيس كمِثْله شَيْء فِي الوُجُود الأزَلِيِّ، فيُحرِّفُون؛ فيُقال: سُبحان الله!! هَذا أَمْر لَا يَحْتاجُ إِلَى نَفْي! وهَذا إِنْ قلتَ: إنَّ المُراد لَيْسَ كمِثله شَيْء فِي الوُجُود الأزَلِيِّ، فهُو كقَوْل القائِل: السَّماءُ فَوقَنا والأَرْضُ تَحْتَنا!!.

ثالثًا: إِثْباتُ «السَّمِيع» «البَصِير»، وأنَّهما اسمانِ مِن أَسْماء الله تَعالَى، وكَذلِك «العَلِيم» مِن أسمائِه تَعالَى، وهُنا إِنْ لم نَجْعَلْهُ فِي هذِه الآيةِ خبَرًا وصِفَةً، لَكِن قَد جاءَ فِي آياتٍ كَثِيرة اسمُ اللهِ «العَلِيم».

رابعًا: إِثْبات السَّمع والبَصر لله عَزَّوَجَلَّ؛ وأُخِذَت من قَوْله تعالَى: ﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾، فكُلُّ اسمٍ مِن أَسْماء اللهِ لا بُدَّ أن يَتضمَّنَ الصِّفَةَ التِي اشتُقَّ مِنها.

خامسًا: عُموم مُلْك الله عَزَّوَجَلَّ وتَدْبِيرِه؛ لقَوْله تعالَى: ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

سادسًا: أنْ لَا مُشارِكَ للهِ تعالَى فِي ذَلِك، تُؤخَذُ مِن تَقْديم الخَبَر فِي قَوْله تعالَى: ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

سابعًا: أَنَّه تعالى يَبْسُط الرِّزقَ لِـمَنْ يَشاءُ ويَقْدِر، فالأَمْر بيَدِه، وعَلَى هَذا فإذَا رأَينا غَنِيًّا قُلْنا: هَذا لَيس مِن كَسْبِهِ، يَعْني: لَيس لمُجرَّد كسبه، وإلَّا لَاشَكَّ أنَّ الكَسْب لَهُ أثرٌ، لكنَّه بيَدِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

ثامنًا: أَنَّه تعالى يُضيِّق علَى مَن يَشاءُ. **فإنْ قَالَ قَائِل:** وهَل هُناكَ سببٌ غَيْرُ كَسْبِ الإِنْسان الدُّنْيويِّ لسَعَة الرِّزق؟

قُلْنا: نَعَم، مِنْها: صِلَة الرَّحِم؛ لقَوْل النَّبِي ﷺ: «**مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ**»[1].

وقَد أَشْكل هَذا علَى بَعْض العُلَماء، فقَالَ: هَذا يُنافِي قَوْله تعالَى: ﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف:٣٤]، فإنَّ الرَّسُولَ ﷺ أَخْبَر بأَنَّك إذَا وَصَلْتَ الرَّحِمَ نَسأَ اللهُ لَك فِي الأَثَر، وزادَ عُمُرك؟ فيُقال: لَا إشكالَ، فأَنْت إذَا استَشْكَلْتَ زِيادةَ العُمر، فاستَشْكِل -أيضًا- زِيادةَ الرِّزق، حتَّى الرِّزق فإنَّه مَكتُوب، فالمَلَك المُوكَّل بالأَرْحام يُؤْمَر بكَتْب رِزْقه وأَجَله.

(١) أخرجه البخاري: كتاب البيوع، باب من أحب البسط في الرزق، رقم (٢٠٦٧)، ومسلم: كتاب البر والصلة، باب صلة الرحم، رقم (٢٥٥٧)، من حديث أنس رَضِيَالِلَّهُعَنْهُ.

....

فإذا قال قائل: كَيْف نُوجِّهُ حَدِيثَ الرَّسُولِ ﷺ إذَنْ؟

قُلْنا: المُراد بِهِ الحَثُّ علَى صِلَة الرَّحِم، وإلَّا فإنَّ الأمْر مكتُوبٌ مِن قَبْل أنْ يُخْلَق الإنْسان: أنَّ هَذا واصِلٌ، وزادَ عُمُره بسَبَب صِلَتِه، وأنَّ هَذا قاطِعٌ، ونَقَص عُمُره، فنَحن نَقُول: هَذا القاطِع لَوْلا قَطيعتُه لِرَحِمِهِ لَكانَ عمُرُه مثلًا خَمْسِينَ بدلًا مِن أَرْبَعِينَ؛ لَكِن قَد قُدِّر مِنَ الأصلِ أنَّه قاطِعٌ، أَو أنَّه واصِلٌ، فالواصِلُ قَد كُتب أنَّه واصِلٌ، وأنَّ عمُرَه سَوفَ يَزْدَادُ بهَذِه الصِّلة، ولَكِن لَيْس لَهُ عِلْم بذلِك، إذَن: يَكُون مُرادُ النَّبي ﷺ الحثَّ علَى صِلَةِ الرَّحِم، وأنَّها سَبَبٌ لبَسْط الرِّزق وطُول العُمُر، كَما إنَّ الوِلادة إذَا قُلْنا: مَن أحبَّ أن يُولَدَ لَهُ فَلْيَتزوَّجْ، كَذلِك نَقُول: هَذا الرَّجُل قُدِّر لَهُ أنْ يَتزوَّجَ فِي سالِف الزَّمَن، فتَزَوَّج ووُلِد لَهُ، حتَّى دُخُول الجنَّة؛ فمَن أرادَ أنْ يَدخُل الجنَّةَ فَلْيُؤمِن بالله ورَسُوله، فنَقُول: دُخُول الجنَّة -أيضًا- لَهُ سببٌ، وقد كُتِب السَّبب والدُّخول مِنَ الأزَل؛ فالحَدِيث لَيْس فِيه إشكال.

وأما عَن إشْكالِهم فِي قَوْله تعالَى عَن نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ أنَّه قَالَ لقومه: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾ [نوح:٤]، حَيثُ قالَ: ﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ﴾ ثمَّ قالَ تعالَى: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾، فالجَوَاب علَيْه: أنْ نَقُول: بأنَّه لَا تَناقُض بينَهُما؛ لأنَّ المَعنَى أنَّ أجَل الله إذَا جاءَ بالعَذَاب لَا يُؤخَّر، فلَيْس هُو أَجَل المَوْت، بَل أَجَل العَذَاب، فاستَدْرِكُوا أمْرَكُم، واسمَعُوا وأطيعُوا، حتَّى لَا يَحِلَّ بكُمُ العذابَ، إذ إنَّ أجَل الله إذَا جاءَ لَا يُؤخَّر، وأمَّا قَوْله تعالَى: ﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أَي: أجَل المَوْت، لَا أجَل العُقوبة.

وقالَتْ مَرْيَمُ: ﴿يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ [مريم:٢٣]،

ونؤمن بأنه: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾[١]..................

وقال النَّبي ﷺ: «لَا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمُ المَوْتَ لِضُرٍّ نَزَلَ بِهِ»(١)، فهَل نَقُول: إنَّ شَرْعَنَا ورَد بخِلاف شَرْع مَرْيَمَ، أَو نَقُول: لَا منافاةَ؟ الجَوَابُ: الثَّاني؛ لأنَّ مَعْنى قولِهَا ﴿يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ يَعْني: يا لَيْتني لَـمْ أُدْرِكْ هَذا الشَّيْءَ، أَي لَيْتَ هَذا لَمْ يكُن، ولَيْسَت تتمنَّى أن يَتقدَّم مَوْتُها علَى حُصُول هَذا الشَّيْء، وهَذا فَرْقٌ.

فقَوْل الإِنْسان: «لَيْتَنِي أَمُوتُ ولَا أَعْصِيَ» هَذا صَحِيحٌ، لَكِن إذَا قَالَ: «لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذِهِ المَعْصِيَةِ»، بمَعْنى: أَنَّني مِتُّ قَبْلَ أَنْ أُدْرِكَهَا، أَو لَيْتَها لم تُدْرِكْني قَبْلَ أنْ أمُوتَ، فهَذا مَعْنًى آخَرُ.

وعلَيْه فيكُون قولُ مَرْيَمَ غيرَ مُنافٍ لشَرْعِنا؛ فإنَّ الإِنْسان لَا يَنْبَغِي أنْ يَتمنَّى الموتَ لضُرٍّ نزَل بِه، لَكِن يَسأَلُ اللهَ العافيةَ، يَقُول: «اللهُمَّ أَحْيِنِي مَا عَلِمْتَ الحَيَاةَ خَيْرًا لِي، وتَوفَّنِي إذَا عَلِمْتَ الوَفاةَ خيرًا لِي»(٢).

[١] قَوْله: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ﴾ الدَّابَّة: كُلُّ مَا يَدِبُّ علَى الأَرْض من إِنْسان أَو غيرِ الإِنسانِ.

قَوْله: ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ «مِنْ» هذِه زائدةٌ إعرابًا، لكنَّها لها مَعْنًى عَظِيمٌ، وهُو إِرَادَةُ العموم، يَعْني: أَيُّ دابَّةٍ فِي الأَرْض فرِزْقُها علَى الله عَزَّوَجَلَّ، هُو الذِي تكفل برزقها

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المرضى، باب تمني المريض الموت، رقم (٥٦٧١)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب كراهة تمني الموت لضر نزل به، رقم (٢٦٨٠)، من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٤/ ٢٦٤)، والنسائي (١٣٠٥) من حديث عمار بن ياسر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

ولهذا تجد الحيوانات والحشَرات يَسُوق اللهُ لـهَا الرِّزق، أَو يَسوقُها إِلَى الرِّزق؛ فربَّما يَكُون طُعْم بَعيد عَن جُحر النَّمل، فيَهتدِي النَّمل إِلَى هَذا الطُّعْم؛ لأنَّ اللهَ أعطاهُ قوَّة الشَّمِّ، حتَّى يَصِلَ إِلَى هَذا الطَّعام ويتغذَّى بِه.

وتأمَّل هذِه النَّمْلة -سُبحان الله- تَدَّخِر الحَبَّ، فتَحْفر الأَرْض جُحُورًا وتَدَّخِر الحَبَّ فِي تِلْك الجُحُور، وتَأْكل طرَف الحبَّة لئلَّا تَنْبُت لأنَّها لو نَبتَتْ فَسدَت؛ فإِذَا جَاءَ المطرُ ووَصَل النَّدَى إِلَى الحَبِّ أَخرجَتْهُ مِنَ الجُحْر، ونَشَرته علَى الأَرْض حتَّى يَجِفَّ، لئلَّا يَتعفَّن فِي داخِل الجُحْر ويَفْسد فإِذَا جفَّ أَدْخلَتْهُ. فمَنِ الذِي أَلْهَمَها بهذا؟ إنَّه الله عَزَّوَجَلَّ.

ثُمَّ إِنَّ النَّمل مِن أَذْكَى الحشَرات، وانظر إِلَى قِصَّتِها مَع سُلَيْمان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، حَيثُ قالت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ﴾، هَذا نداءٌ؛ ﴿ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ﴾ أَي الملاجِئ، ﴿لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ﴾ لأنَّ معَه الدَّوابَّ مِن خَيْل وإِبِل وغيرِها تَطَأ هَذا النَّمل وتَحْطمُهُ، ثمَّ اعتذَرتْ عَن سُليمانَ وجنودِه بأنَّهم ﴿لَا يَشۡعُرُونَ﴾! [النمل:١٨] فسُبحان اللهَ العَظِيم!

وحدَّثني رجُل أَنَّه كانَ عِنْد بئرٍ مَطْمُورة؛ أَي: لَيْس فِيها ماءٌ، فكانَ يَرَى حيَّةً تَخْرُج كُلَّ يَوْم فِي الصَّبَاح، وتَنْصِبُ نَفْسَها كأَنَّها عُودٌ، فيَقع عَلَيْها طائِرٌ فتأكُلُه، وهَذِه الحيةُ كَانَت عَمياءَ لَا تَستطيعُ أنْ تَسعى فِي الأَرْض تَطْلُب الرِّزقَ، فكانَ اللهُ تعالَى يَجْلِبُ لهَا الرِّزق علَى هَذا الوَجْه، يَقُول: شاهَدْتُ ذلِك مِرارًا!! حتَّى إِنَّه قَتَل الحيَّة، فوَجَد أَنَّها عَمياء!

فانظُر كَيْف ساقَ اللهُ الرِّزق إليها وهِي فِي جُحْرها، وعَمياء لَا تَستطيع الخروجَ، إِذَن: مَا مِن دابَّة فِي الأَرْض إِلَّا علَى الله رِزْقُها.

فإن قَالَ قَائِل: أَلَسْنا نَجِد أنَّ أناسًا أَو حيَوانات تمُوت مِن الجُوع؟

فالجَوَاب: بلى، لَكِن هَذا ابتِلاء وامتِحانٌ مِنَ الله عَزَّوَجَلَّ يَمْتحن بِه العِبَاد، فيَكُون كفَّارة للذِي مات مِنَ الجُوع إِذَا كانَ مُسلمًا، ويكُون عبرةً وعِظَةً للآخَرِين.

وعلَيْه فيكُون قَتْل المشركِين أولادَهم خَوفًا مِن ضِيق الرِّزق يَكُون سُوء ظَنٍّ بالله عَزَّوَجَلَّ، كَمَا يَفعل بَعْض النَّاس اليومَ يقُول: نظِّم الحَمْل حتَّى لَا يَكْثر الأولادَ وبعدئذٍ تَضِيع الأَرْزاق! فنَقُول لَهُ: يَا أخِي الرِّزق عَلَى الله عَزَّوَجَلَّ ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ [الإسراء:٣١] أكثِرْ من الأولاد يَكْثُرِ الرِّزق.

ولقَد حدَّثَني مَن أَثِقُ بِهِ رجُل يقُول: إنَّه كانَ قليلَ ذاتِ اليَدِ -وكانَ بَعْضُ النَّاس يُحذِّر مِن الزَّواج، يقُولون: مَن تزوَّج فقَد رَكِب السَّفِينة، ومَن رَكِب السَّفِينة أَوْشَك عَلَى الغرَق فلَا تَتزوَّجْ، تُنْفِقُ عَلَى نفسِك كلَّ يَوْمٍ مثلًا درهمًا فإِذَا جاءَتِ الزوجةُ فسُتنفق درهمَيْن وإنْ كَانَت أَكُولةً فثلاثة دراهم!! فيقول: لَا تتزوَّج- فيقُول هَذا الرجُل -وكانَ قليلَ ذاتِ اليَدِ-: إنَّه تزوَّج؛ يقول: واللهِ إنِّي رأيتُ زِيادةَ الرِّزق مِن حِين أنْ تزوَّجْتُ، وكانَ سِمْسَارًا يَبِيع المشالِح ويَبيع الثِّياب؛ يقُول: فصارَت الثِّياب والمشالِح تَنْهالُ عليَّ أَبيعُها، يقول: فوُلِد ابني عبدالله -وهو أَكْبر أولادِه- فلما وُلِدَ واللهِ لقَد رَأَيْتُ الرِّزق زادَ، يُقْسِمُ لِي وهُوَ صادقٌ وأَعْرِفُه ثِقَة.

....

فلَو أنّنا توكَّلنا علَى الله حقَّ توكُّله لرَزَقنا كَما يَرْزق الطَّير لكِن هُناكَ سُوء ظنٍّ واعتمادٌ علَى الأمُور الماديَّة؛ ثم يقُولون: نظِّم الحَمْل! أرأيتَ لو ماتَ هَؤلاءِ الأولادُ الذِين نظَّمت مِن أَجْلهم؟! بَقِيت بِلَا ولدٍ! فدَعِ الأرحامَ تَدْفع ولَا عليْك، فالرِّزْق علَى الله عَزَّوَجَلَّ، والنبيُّ ﷺ أَعْلم وأَحْكمُ مِنْكَ يقولُ: «**تَزَوَّجُوا الوَدُودَ الوَلُودَ**»(١).

والأمَّة إذَا كثُرت استغنَتْ عَن غَيرِها وانفتَح لها أبوابٌ مِنَ العَمَل فِي داخِل البِلَاد وخارجِ البِلاد، أرأيتمُ الصِّين مِن حيثُ القوةُ فِي الصِّناعَة لَيست إلَى ذاكَ ولَا تُساوِي الدُّولَ الأُخرَى، لَكِن لكَثْرتِها صارَ لها هَيْبةٌ وصارَت تُعدُّ مِن كِبار الأُمَم وصارَت أمةً تَنْتَشِرُ يَمِينًا وشمالًا تَنْفع وتَنْتَفع، لَكِن بَعْض النَّاس مَعَ الأسَف قومٌ ماديُّون ومَع الأسَفِ الأسَفِ أنَّهم مُسلمون، وكأنَّهم لَا يَقْرؤُون هذِه الآيَةَ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود:٦].

فإذَا قَالَ قائلُهم: أنَا أَشْعُر بأنِّي إذَا أَنْجبتُ عشرةَ أولادٍ وجَاء الحادي عشرَ تطلَّبتُ زيادةَ ريالٍ! فنقُول: يَا أخِي توكَّل على الله فقَد يُبارك اللهُ بالعَشرة فتكْفي عِشْرين أَو يَأْتي رِزقٌ آخرُ، لَكِن ضَعْف التوكُّل علَى الله هُو الذِي أَوْجب لنَا أنْ نتصوَّر هَذا التصوُّر الفاسِد؛ يقُول النَّبيُّ صلَّى الله علَيْه وعَلَى آلِه وسلَّم: «**لَوْ أَنَّكُمْ تَتَوَكَّلُونَ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا**»(٢).

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب النكاح، باب النهي عن تزويج من لم يلد من النساء، رقم (٢٠٥٠)، والنسائي: كتاب النكاح، باب كراهية تزويج العقيم، رقم (٣٢٢٧)، من حديث معقل بن يسار رَضِيَ اللهُ عَنْهُ. وأخرجه الإمام أحمد (٣/ ١٥٨)، من حديث أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه الإمام أحمد (١/ ٣٠)، والترمذي: كتاب الزهد، باب في التوكل على الله، رقم (٢٣٤٤)، وابن ماجه: كتاب الزهد، باب التوكل واليقين، رقم (٤١٦٤)، من حديث عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

فتغْدُو فِي أوَّل النَّهار خِماصًا جائِعةً ليسَ فِي بَطنِها شَيْء، وترُوح فِي آخِر النَّهار بِطانًا مُمتلِئة البُطون، فهَل هِيَ ذهَبت إلَى رِزْق مُعيَّن تَعْرفه؟ قَد يَكُون وقَد لَا يَكون، فقَد يَكُون مَثلًا هُناكَ ثِمار مُعيَّنة تَقْصِدها كُلَّ يَوْمٍ وقَد لَا يَكُون، لَكِن المهمُّ: أنَّها لَا تَرْجِع إلَّا مَمْلوءةِ البُطون لأنَّها خرَجت مُعتمدةً عَلَى رَبِّها عَزَّوَجَلَّ.

فإن قَالَ قائِل: بَعْضُ النَّاسِ عِنْدما تكلَّم فِي مَسْألة تَحْديد النَّسل يقُول: لَا نَقْصد أنْ نشُك فِي الرِّزق، ولكن مِن أَجْل التَّربية ومَا أَشْبه ذَلِك، ويَسْتدلُّون بما جَاء عن الصَّحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ أنَّهم كانُوا يَعْزِلون والقرآنُ يَنْزِل؛ فما الجَوابُ عَن ذَلِك؟

الجَواب: هَذا أيضًا غلَط، وسُوء ظَنٍّ بالله، فكَم مِن إنْسان يَتِيمٍ لَيس عندَه أبٌ صارَ مِن أحسَن النَّاسِ عِبادةً وخُلقًا، وكَم مِن إنْسان وعندَه أبُوه وأمُّه ولم يَترَبَّ، فهَذا الإِيرادُ ليسَ بصحيحٍ أبدًا، وأمَّا الصَّحابةُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ فإنَّهم يَعْزِلون لَيْسَ لتَقْليل الأولادِ لَكِن لغَرَض آخَر، مِنْها مثلًا: إذَا كَانَت أمَةً؛ فإنَّ الإِنْسانَ لَا يُحِبُّ أن تَلِد أمَته فتكُون أمَّ ولدٍ.

والعَـزْل لغَيْر التَّحْديد -أو كَما يقُولـون: التَّنْظِيم- لَا نـرَى فِيه بأسًا، لَكِـن التَّحْديد لَا شَك أنَّه غَلَطٌ عَظيمٌ.

والتَّحْديد مَعْناه ألَّا يَزِيد عَلَى خمسةٍ مثلًا، والتَّنْظيمُ أَهْوَن؛ لأنَّ التَّنظِيمَ مَعْناه: ألَّا تَحْمِل المرأةُ مَا دامَتْ تُرضِع؛ وهَذا أَهْون ولَا أكادُ أَجْزِمُ بتَحْريمه، لَكِن التَّحْدِيد الأَمْـر فِيه لَيْسَ بيَدِي، وسُبحان الله! فيُمْكِن أنِّـي حدَّدْتُ خمسةً فيَأْتِيهم حادثٌ فيَمُوتون جَمِيعًا.

﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا[١] كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾[٢] [هود:٦].

---

[١] قَوْله: ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ المُستقرُّ: هُو مَا تَسْتقِرُّ فِيه علَى الدَّوام، والمُستودَع: مَا تكُون فِيه كالوَدِيعة مَتى شَاء ربُّها أخَذها، فاللهُ عَزَّوَجَلَّ يَعْلم مُستقرَّ كُلِّ دابَّةٍ ومُستودَعها.

فالمُستقرُّ المُطْلَقُ هُو الآخِرَة، كَمَا قَالَ تعالَى: ﴿وَإِنَّ ٱلْآخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾ [غافر:٣٩]، والمُستودَع المُطْلَقُ هُو الدُّنْيا إلَى أنْ تقُومَ السَّاعةُ، كُلُّ هَذا مُستودَعٌ، فالإِنْسان فِيه وَديعةٌ، مَتى شَاء المُودِع أخَذه، كَمَا قَالَ النَّبِي ﷺ: «**إِنَّ لله مَا أَخَذَ وَلَهُ مَا أَعْطَى**»(١)، إِذَن: الله تعالى يَعْلم حَالَ العِباد فِي الدُّنْيا، وحالَ العِبادِ فِي الآخِرة، يَعْلم أنَّ مِنَّا مَن يَعْملُ صالحًا، وأنَّ مآلَه إلَى الجنَّةِ، وأنَّ مِن النَّاس مَن يَعْمل عَملًا سيئًا، وأنَّ مآلَهُ إلَى النَّارِ.

فهُناكَ استِيداعٌ مُقيَّدٌ واستِقْرار مُقيَّدٌ، فالإِنْسانُ فِي وطَنه مُستقِرٌّ، لَكِن إذَا سافَر فهُو مُستودَع، لَكِنَّ هَذا الاستِقْرارَ والاستِيداعَ مُقيَّد؛ المهمُّ: أنَّ اللهَ تعالى يَعْلم المستقَرَّ المُطْلَقَ والمُستودَعَ المُطْلَق، والمُستقَرَّ المُقيَّدَ والمُستودَعَ المُقيَّدَ.

[٢] قَوْله: ﴿كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿كُلٌّ﴾ أَي: مِن الرِّزق والمُستقَر والمُستودَع ﴿فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾، أَي فِي مكْتُوب بَيِّن ظاهِر، وذَلِك هُو اللَّوْح المحفوظ، الذِي تتفرَّع عَنْهُ بَقِيَّة الكِتابات. فإِنَّ الملَك إذَا بلَغ الجنينُ أربعةَ أشهرٍ بُعث إلَيه، فأُمر بكَتْب رِزقه وأَجَله وعَمِله وشَقيٌّ أَم سَعِيدٌ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب قول النبي ﷺ: «**يعذب الميت ببعض بكاء أهله عليه**»، رقم (١٢٨٤)، ومسلم: كتاب الجنائز، باب البكاء على الميت، رقم (٩٢٣)، من حديث أسامة ابن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وَنُؤْمِنُ بِأَنَّهُ عِنْدَهُ ﴿مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ[١] لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ[٢] وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ[٣] وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ[٤] إِلَّا يَعْلَمُهَا[٥] ....

---

[١] قَوْله: «ونؤمن بأنَّه ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾» المُراد بها إمَّا المِفْتاح الذِي تُفتح بِه الأبوابُ، وإمَّا المكانُ الذِي يُفتَح، يَعْني مُستودَعات العِلم.

مِن آيات العِلْم قَوْل الله تَعالَى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾ (عنده) خَبر مُقدَّم، و﴿مَفَاتِحُ﴾ مُبتدأ مُؤخَّر، وتَقدِيم الخبر يدلُّ علَى الحَصْر، ومفاتِح جَمْع مَفتَح، أو جَمْع مِفْتَاح، فِيها قَوْلان، والصَّحيح أنَّها تشـمل الجَمِيع، فمَفاتِيح الغَيْب عِنْد الله، وأَمْكنة الغَيب عِنْد الله عَزَّوَجَلَّ.

[٢] وقَوْله: ﴿لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ فسَّرها النَّبي ﷺ بالآيةِ الكَريمة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [لقمان:٣٤]، كَما سيأتي إن شَاء الله تَعالَى فِيما بَعْدُ.

[٣] قَوْله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ وكذَلِك: الجَوّ؛ لأنَّ مَا يُقابِل البَحْر مِنَ الجَوِّ فهُو مِنَ البَحْر، ومَا يُقابِل البَرَّ من الجَوِّ فهُو مِن البَرِّ.

[٤] قَوْله: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ﴾ ﴿مِن﴾ هذِه زائدةٌ إعرابًا، أمَّا المَعنَى فهِيَ للتَّأكِيد، يَعْني: مَا تَسقُط ورقةٌ إلَّا يَعْلَمُها، أيًّا كَانَت الوَرَقة، وفِي أَي مكانٍ، صغِيرةً كَانَت أَم كبيرةً، حيةً كَانَت أَم يابسةً، وإذَا كانَ يَعلمُ الذِي يَسقُط مِن الورقات، فمِن بابِ أَوْلَى أنْ يَعلم مَا يُستحدَث مِن الورَقات.

[٥] قَوْله: ﴿إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ هَل المُراد: «يَعْلم هذِه الورقةَ» أَو «يَعْلم الوَرَقةَ ومكانَ سُقُوطِها، وزَمانَ سُقُوطِها»؟ الثَّاني؛ لأنَّ المكانَ والزمانَ يَتعلَّق بالورَقةِ نفسِها أيضًا، فهُو يَعلم عَزَّوَجَلَّ الورَقةَ التِي تَسقُط هَل هِي صغيرةٌ أَم كبيرةٌ، يابسةٌ أَم رطبةٌ، ويَعلم كَذلِك مكانَ سُقُوطِها وزمانَ سقوطِها.

وَلَا حَبَّةٍ[١] فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ[٢] ....

[١] قَوْله: ﴿وَلَا حَبَّةٍ﴾ شامِلةٌ للصَّغيرةِ والكَبيرةِ.

[٢] قَوْله: ﴿فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ﴾ جمع ظُلْمة، وأقَلُّ الجَمْع ثلاثةٌ، فما هِيَ الظُّلُمات، لنَفْرض أنَّ حَبَّةَ خَرْدل صَغِيرة مُنْغَمِسة فِي طِينٍ فِي قاعِ البحرِ فِي ليلةٍ مُظلمةٍ ليلةٍ مُمطرةٍ ليلةٍ مُغْبَرَّةٍ؛ فالظُّلُماتُ هِيَ:

أولًا: ظُلْمَة الطِّين؛ لأنَّها مُنغمسة فِي الطِّين فِي قاعِ البَحْر.

ثانيًا: ظُلْمَة الماء؛ ماء البحر.

ثالثًا: ظُلْمَة اللَّيل.

رابعًا: ظُلْمَة السَّحاب.

خامسًا: ظُلْمَة المطَر.

سادسًا: ظُلْمَة الغُبار.

فإذَا كَانَت هذِه الحبةُ الصغيرةُ منغمسةً في هذِه الظُّلمات فإنَّ الله تَعالَى يَعْلمُها، بَل هِيَ فِي كتابٍ مُبين، فانظُر إلَى سَعَة عِلم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كَيْف يَعْلم الحَبة فِي ظُلُمات الأَرْض.

فإن قَالَ قَائِل: ألا يُمكِن أن نَقُول: إن مَعْنى قَوْله تعالَى: ﴿وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام:٥٩] إنَّها الأَرَضون السَّبْع؟

فالجَوَاب: لَاشَكَّ أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يَعْلم الحَبَّة فِي الأَرْض السَّابعة، لَكِن نحنُ نَقُول: ظُلُمات الأَرْض التِي نحنُ عليها.

وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ[١] إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾[٢] [الأنعام:٥٩].

وَنُؤْمِنُ بِأَنَّ اللهَ: ﴿عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾[٣] ....

---

[١] قَوْله تعالى: ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ﴾ هَذا أعَمُّ، فالأشياءُ كُلُّها إمَّا رَطْبةٌ وإمَّا يابسةٌ.

لو قَالَ قَائِل: أَلَا يُغني عَن هَذا قَوْله تعالَى: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٩]؟

قُلْنا: بلَى، لَكِن التَّفْصيل أشدُّ وَقْعًا فِي النُّفُوس، وأَبْيَنُ فِي التَّعْمِيم ولهَذا جاءَت هذِه الآيةُ مُفصَّلةً.

[٢] قَوْله: ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ المُراد بالكِتاب المُبين: هُو اللَّوْح المَحْفُوظ.

[٣] قَوْله تعالى: ﴿عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ السَّاعة هِي السَّاعة الكُبرى التِي يَمُوت فِيها النَّاس ثمَّ يُبْعثون.

وقَوْله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ الغَيْث هُو: المطَر الذِي تَزُول بِه الشِّدة، أمَّا المطَر الذِي لـم تَزُل بِه الشِّدَّة فلَيْس بغَيْثٍ؛ لقَوْل النَّبِي ﷺ: «**لَيْسَتِ السَّنَةُ أَنْ لَا تُمْطَرُوا، وَلَكِنِ السَّنَةُ أَنْ تُمْطَرُوا فَلَا تُنْبِتُ الأَرْضُ شَيْئًا**»(١)، السَّنَةُ يَعْني: الجَدْب، فالذِي يُنَزِّل الغيثَ هُو اللهُ عَزَّوَجَلَّ، يَعْني المطَر الذِي تَزُول بِه الشِّدَّة، وكَذلِك المطَر الذِي لَا تزول بِه الشِّدَّة لَا يُنزِّله إلَّا اللهُ، وتَنزيلُه يَحْتاجُ إلَى شَيْئينِ لا بُدَّ منهما: العِلْم والقُدرة، فكونُه يُنزِّل الغيثَ يَسْتلزِم أن يَكُون عالمًا بوَقْت نُزُوله، ومَكان نُزُوله، وهَل يَكُون غيثًا أَو لَا.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب في سكنى المدنية وعمارتها قبل الساعة، رقم (٢٩٠٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ﴾[١] ....

[١] قَوْله: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ﴾ الأَرْحام جَمْع رَحِم، وهُو: وِعاءُ الجَنِين فِي بَطْن أُمِّه، والأَرْحام هُنا شامِلة لكُلِّ ذاتِ رَحِم مِنَ الآدمِيِّينَ وغير الآدمِيِّينَ، وعِلْمُه بما فِي الأرحامِ عِلْمٌ بنَفْس الجنينِ، وعِلْم بعَمَله، ومآلِه، وأجَلِه، وغيرِ ذلِك مِن متعلَّقاتِه.

فمِن مُتعلَّقاتِ العِلْمِ: العِلْمُ بأَنَّه ذكَر أَو أُنْثى، صغيرٌ أَو كبيرٌ، حيٌّ أَو ميتٌ؛ يَخْرج حيًّا أَو ميتًا، يَبْقى طويلًا فِي الدُّنيا، يَعْمل صالحًا أَو سيئًا، مآله الجنةُ أَو النارُ، يُمرَض أَو يَصِح؛ كلُّ هذِه مِن مُتعلَّقات العِلْم بما فِي الأرحام.

وليس خاصًّا بكونه ذكرًا أَو أُنثى؛ لأن كَوْنه ذكرًا أَو أُنثى يُمْكِن أن يُعلم، وأول من يعلمه -فِيمَا نَعْلم-: المَلَك؛ لأَنَّه يقُول لله عَزَّوَجَلَّ إذا أَرْسلَه تعالى إلَى الرَّحِم قَالَ: «يَا رَبِّ أَذَكَرٌ أَمْ أُنْثى»، فيقُول الله عَزَّوَجَلَّ: إمَّا «ذَكَر» وإمَّا «أُنْثى»، فهُو يَعْلم أَنَّه ذكَر أَو أُنثى؛ والآن هُناكَ أشعَّة دَقيقة جدًّا تَنْفذ نُفُوذًا قويًّا، فيُشاهَد الجَنِين، فوصَلوا إلَى أن يَعْلموا أنَّ الذِي فِي الرَّحِم ذكَر أَو أُنْثى، وهَذا لَا يُنافي الآيَةَ؛ لأنَّ هُناكَ مُتعلَّقات أُخرَى:

فهَل يُمْكِن لهؤلاءِ أن يَعْلمُوا أَنَّه سيَخْرُج حيًّا أَو ميتًا؟ الجَوابُ: إلَى الآنَ: لَا.

وهَل يَعْلم هَؤلاءِ أَنَّه سيَبْقى طَوِيلًا فِي الدُّنيا أَو لَا؟ الجَوابُ: إلَى الآنَ لَا.

وهَل يَعْلمون أَنَّه سيَكُون عمَله صالحًا أَو سيئًا؟ الجَوابُ: لَا.

وهَل يَعْلمون أنَّ مآلَه الشَّقاءُ أَو السَّعادةُ؟ الجَوابُ: لَا.

﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾[١] ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾[٢] ....

فإن قَالَ قائِل: تَساءَلْنا فقُلنا: هَل يَعْلمون أنَّ المولودَ سيَخرُج مَريضًا أَو سيَبقَى طويلًا يُعمَّر؛ فقيَّدنا فِي الإجابَة فقُلنا: «إِلَى الآنَ لَا» فما وَجه هَذا القَيْد؟

الجَواب: قُلْنا: «إِلَى الآنَ لَا» لأنِّي أَخْشَى يومًا مِن الأَيَّامِ أن يَعرِضوا هَذا إِذَا تقدَّم الطِّبُّ؛ فيَبقى القُرْآن مَشكوكًا فِيه! ولِذَلك يَجب الاحتِراز فِي مِثل هذِه الأمُور؛ لأنَّ أعداءَ المسلمِين يَقولون: هَذا واحدٌ مِن المسلمِين يقُول: أنَّنا لَا نَعلم، ونَحْن عَلِمنا، فمِثل هذِه الأشياء يَجب الاحتِراز فِيها، فإنَّه كانَ النَّاس فِي الأَوَّل لَا يَشكون أَنَّه لَا يُعْلَم الجنينُ أَذَكرٌ أَم أنثى، لَكِن لـمَّا وصَل العِلْم إِلَى الاطِّلاع صارَ لا بدَّ مِن التَّقييد.

[١] قَوْله تعالى: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ نَفْس نكِرَة فِي سِياق النَّفْي فتَعُمُّ؛ فكُلُّ نَفسٍ لَا تَدْري ماذَا تكْسِب غدًا، وإِنْ كانَ الإِنْسان يُقدِّر أَنَّه سيَفعل غدًا كَذَا وكَذَا لكنَّه لَا يَدْرِي هَل سيَكْسِبُه؛ فقَد يُحال بَيْنه بتغيُّر الفِكر والإِرادَة، وقَد يُحال بَينه وبَينه بالعَجْز، وقَد يُحال بَينه وبَيْنه بصَرفٍ قَهْري، كإِنْسانٍ يَمْنَعه مِنْ ذَلِك، ومَا أشبَهَه مِنَ الموانِع، المهمُّ: أنَّ الإِنْسان لَا يَدْرِي ماذَا يَكْسِب غدًا.

وقال ﴿مَّاذَا تَكْسِبُ﴾، ولَمْ يَقُل: «ماذَا تَعمل» لأنَّ المَدارَ كُلَّه علَى الكَسْب؛ لأنَّ العمَل قَد يَذْهب هَباءً لَا يَنْتفع بِه الإِنْسانُ، وقَد يَكْتسِب مِنه خيرًا، إمَّا فِي الدِّين أَو فِي الدُّنْيا.

[٢] قَوْله: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ ﴿نَفْسٌ﴾ نكِرَة، فتعمُّ كُلَّ نَفْسٍ؛ فلَا تَدْرِي أَيْنَ تمُوت؟ أَتمُوت فِي بلَدك، أَم فِي بلدٍ مُجاورٍ، أَم فِي بلدٍ بَعِيد، أَم فِي البَحْر، أَم فِي الجَوِّ؛ لَا تَدْرِي أَيْنَ تمُوت.

إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴾[1] [لقمان:٣٤].

ومَا الجَواب عَنْ قَوْل الرَّسُول ﷺ: «مَنِ استطاعَ مِنكُم أن يَمُوتَ فِي المَدِينة فَلْيَمُتْ»(١)؟

الجَواب: الحديث إذَا صح بهذا اللفظ فالمعنى: الحثُّ عَلَى سُكنَى المدينةِ فقَط، ولَيْس المَعنَى أَنَّه يَجِبُ أن يَمُوت فِي المَدِينة، فكَثِيرٌ من أَهْلِ المَدِينة تكُون لهُم حاجةٌ إِلَى سَفر ويَمُوتُون فِي سَفرهم هذا.

[١] قَوْله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴾ هذِه الخَمْس هِي مفاتِح الغَيب كمَا فسَّرها النَّبِي صلى الله علَيْه وعَلَى آله وسلَّم.

أولًا: عِلْم السَّاعة: مِفتاحٌ لعالَمَ الآخِرة، والسَّاعةُ -كمَا سبَق-: هِي التِي يُبعث فِيها النَّاس، لَكِن قَد تَشمَل مَا هُو أعمُّ وهُو ساعةُ الإِنْسان؛ لأنَّ السَّاعةَ نوعانِ: ساعةٌ عامَّة لجَمِيع الخلق، وهِي القِيامَة الكُبرى، وساعةٌ خاصَّة لكُلِّ إِنْسان بنَفْسِه، وهِي القِيامَة الصُّغرَى، ولهَذا يُقال: «مَن ماتَ فقَد قامَتْ قِيامتُه»، أَي انتهَى مِن الدُّنْيا، فعِلم السَّاعةِ خاصٌّ باللهِ، ولَا أحَدَ يَعْلم مَتى تكُونُ؛ حتَّى أشرفُ الخَلْق وأَعْلَمُهم بالله لَا يَدْرِي مَتى تقُوم، ولهَذا سُئل النَّبِي ﷺ -والسائِل جِبريل- مَتى السَّاعةُ؟ قالَ: «مَا المَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ»(٢).

لَكِن لـهَا أشراطٌ وعَلاماتٌ، مِنْها مَا قَد جَاءَ وسَبَق، ومِنها مَا هُو مُستقبل.

الثَّاني: ويُنَزِّلُ الغَيث، مِفتاحُ إحياءِ الأَرْض بعدَ مَوْتِها، وإحياءُ الأَرْض بعدَ موتِها يُشبِه إحياءَ النَّاس بعدَ موتِهم، فهُو مِفتاحُ للحياةِ حياةِ النَّبات.

---

(١) أخرجه أبو بكر الدينوري في المجالسة وجواهر العلم رقم (٨١٠)، من حديث ابن عمر رَضِيَاللَّهُعَنْهُمَا.
(٢) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان، رقم (٨)، من حديث عمر رَضِيَاللَّهُعَنْهُ.

الثَّالث: ويَعلم مَا فِي الأرحام، مِفتاح لكُلِّ إِنْسان بحَسَبه؛ لأنَّ نشأة الحياةِ تكُون فِي الرَّحِم.

الرَّابع: ومَا تَدْرِي نَفْس ماذا تكسِب غدًا: مِفتاحُ الزَّمَن، فالأعمالُ فِي المستقبَل، لَا يَعلم عَنها أحدٌ إلَّا اللهُ.

الخامِسُ: ومَا تَدْرِي نَفْس بأيِّ أَرْض تَمُوت: هَذا مِفتاحُ عالَمِ الآخِرة بالنِّسْبة لكُلِّ إِنْسانٍ بحسَبه، ووَجْهُ ذَلِك: أنَّ مَن لَا يَدْرِي بأَيِّ أَرْض يَمُوت لَا يَدْرِي -قَطعًا- بأَيِّ زمَن يَمُوت؛ لأنَّ الإِنْسانَ يتحكَّم فِي المكانِ أَكْثر ممَّا يتحكَّم فِي الزَّمان، بَل الزَّمانُ لَيْس فِيه تحكُّمٌ إطلاقًا، فخَفاءُ الزمَن أبلغُ مِن خَفاء المكانِ؛ إذْ إنَّ الإِنْسانَ قَد يُقدِّر أَنَّه لَن يَرْتحلَ عَن هذِه الأَرْض، فيُقول: سَوْف يَأْتِيني أَجَلي وأَنَا هُنا، ولَكِن مَعَ ذَلِك إِذَا أرادَ اللهُ تعالى أَنْ يمُوت فِي أَرْضٍ جعَل لَهُ حاجةً فِيها فغادَر بَلَده ، فأَقُولُ: إِذَا كانَ الإِنْسانُ لَا يَدْرِي بأَيِّ أَرْضٍ يَمُوت مَعَ أَنَّه يتحكَّم فِي المكانِ فعَدَم عِلْمه بأيِّ زمَن يمُوت مِن بابِ أَوْلَى؛ لأنَّ الإِنْسان يتحكَّم فِي المكان أَكْثر ممَّا يَتحكَّم فِي الزَّمان، بَل الزَّمان لَيْسَ لَهُ تحكم فِيه إطلاقًا.

فقَد يُقرِّر الإِنْسان أَنَّه لَن يَخْرج عَن هَذا البلدِ وأَنَّه سيَمُوت فِي هَذا البلَد، فقَد يَرْتحل إنسانٌ مِن بلدِه إِلَى المدينَة، ويقولُ: أَنَا أَرْغَب أَنْ أَمُوت فِي المَدِينة لأنَّ النَّبي صلَّى اللهُ علَيْه وعَلَى آلِه وسلَّم قالَ: «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِأَهْلِ بَقِيعِ الغَرْقَدِ**»[1] فأَرْجُو أَنْ أَكُـونَ مِنْهم، فيَذهبُ إِلَى المدينَةِ مُقرِّرًا أَنَّه يمُوت فِيها، ولَكِن إِذَا كانَ الله قَد قَـدَّر أن

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجنائز، باب ما يقال عند دخول القبور والدعاء لأهلها، رقم (٩٧٤)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

....

يَمُوت فِي أَرْض جَعَل لَهُ حاجةً إليهَا فسَافَر فمات، ونَجِد النَّاس تَحْصُل لهمُ الحوادثُ فِي أَثْناء الطَّرِيق فيَمُوتون فِي نَفْس المَكَان، وهَل جرَى فِي شُعُورِهِم مِن قَبْلُ أنَّهم سيَمُوتون فِي هَذا المكانِ؟ أبدًا، فأَقولُ: إذَا كانَ الإِنْسان لَا يَدْرِي بأَيِّ أَرْضٍ يَمُوت مَع أَنَّه يتحكَّم؛ فمِن بابِ أَوْلَى أَلَّا يَدرِي فِي أَيِّ زمَنٍ يمُوت لأَنَّه لَا تحكُّم لَهُ فِيه.

مِنْ فوَائدِ الآيَةِ الكَرِيمَةِ:

أوَّلًا: أَنَّه لَا أحَدَ يَعْلمُ مَتى تَقُوم السَّاعةُ، ووَجْه ذلِك الحَصْر فِي قَوْله تعالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾.

ثانيًا: أَنَّه لَا أحدَ يَعْلم مَتى يَنْزِل المطَر الذِي بِه الغَيْث؛ لقَوْله تعالَى: ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ فإِذَا كانَ الله تعالَى هُو الذِي يُنَزِّلُ الغَيْث، فالمُنزِّل لَهُ أَعْلم بِه مِن غيرِه، وهَذا وَجْه كَوْنه عدَلَ عَن قَوْله: «ويَعلم مَتى يَنزِل الغيثَ» إِلَى قَوْله: ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾.

فإِن قَالَ قَائِل: أَلَسْنا نَسْمع فِي الإِذاعاتِ أَنَّهم يقُولون: سيكُون المطَرُ غدًا، أَو مَا أَشْبه ذَلِك؟

فالجَوَاب: مِن ثلاثةِ أوجُهٍ:

الأَوَّل: أنَّ الله تعالَى قالَ: ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ وقَد تقدَّم أنَّ الغَيْث هُو: المطَر الذِي يَكُون بِه النَّباتُ، وهَذا لَا يَعْلمه أحَدٌ، حتَّى لَو عَلِمنا أَنَّه سيَنْزل المطَر غدًا، فهَل هَذا المطَر سيكُون غَيثًا أَوْ لَا، فقد يَكُون وقَد لَا يكُون، ولَا أَحَدَ يَعْلم.

....

الثَّاني: أن هَؤلاءِ الذِين يَتكلَّمون عَن الطَّقس وأنَّه سيكُون غدًا مطَر فِي مكانٍ مَا، إنَّما يَتكلَّمون عَن أمرٍ مَحْسوسٍ لَا عَن أمرٍ غَيبيٍّ، وهُو تكيُّف الجَوِّ؛ لأنَّ هُناكَ آلاتٍ دقيقةً يُعرَف بِها أنَّ الجَوَّ مُهيَّأٌ لِنزولِ المطَر أَو غَيْر مُهيَّأ، علَى أنَّ الخَطأ فِي هَذا كَثِير.

الثَّالث: أنَّ الذِين يَتكلَّمون عَن الطَّقس هَل يَعْلمون مَتى يَنْزل المطَر بعدَ سنتَيْن أَو ثلاثٍ؟

الجوابُ: لَا، بَل هُو عِلْم مَحْصورٌ، فِي أربعٍ وعِشرينَ ساعةً، أَو ستٍّ وثلاثِين ساعةً، ومَا أَشبَه ذلِك، فهُو لَيْس للزَّمَن البَعِيد، فَلَا يُنافِي هذِه الآية.

ثالثًا: أَنَّه لَا يَعْلم مَا فِي الأرحام إلَّا اللهُ عَزَّوَجَلَّ وهَذا عامٌّ فِي جَمِيع مُتعلَّقات الحَمْل -كَما تقدَّم-، فإنْ قَالَ قَائِل: إنَّهم اليومَ يَطَّلعُون علَى أنَّ مَا فِي الرَّحِم ذكَر أَو أنثى، فهَل يُنافِي الآيَةَ؟

الجَوَاب: لَا يُنافيها؛ لأنَّ قَوْله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ﴾ يَشْمَل جَمِيع المتعلَّقات، وهَؤلاءِ لَا يَعْلمون مَا فِي الأرحام أذكَرًا أَم أُنثى إلَّا بعدَ أن يُخَلَّق، ويكُون ذكَرًا أَو أُنثى، أمَّا فِي حَال كَوْنه نُطْفة فهُم لَا يَعْلمون، وإذَا قُدِّر أنَّ الطِّبَّ ترقَّى وصارُوا يَعْلمون أهُوَ ذكَر أَم أُنثى وهُو نُطفة، قُلْنا: مُتعلَّقات الحَمْل لَيْس فِي كَوْنه ذكَرًا أَو أُنثى فقَط، بَل يَشْمَل عَمَله، وأَجَله، ورِزْقه، ومَا أَشبَه ذلِك، وهَذا لَا يُمْكِن العِلْم بِه.

رابعًا: أنَّ الإِنْسان لَا يَعْلم ماذا يَكسِب غدًا، وإنْ قَدَّر أَنَّه سيَفْعَل كَذَا فإنَّه لَا يَعْلم هَل يَحْصُل أَو لَا؟ ولِهَذا قَالَ اللهُ تعالى لِنَبيِّه: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الكهف:٢٣-٢٤].

وإذا قَالَ قَائِل: سأَزُور فُلانًا غدًا، فهَل هَذا يَعلم أَنَّه سيَزُوره؟ أَو يُخْبِر عمَّا فِي ضَمِيره ونِيَّتِه؟ الثَّاني لاشَكَّ، أَنَّه يُخبر عمَّا فِي ضَمِيره الآنَ؛ ولهَذا لَو قالَ: إنِّي سأَزُور فُلانًا غدًا، وهُو لَا يَقصِد الفِعْل وإنَّما يَقْصِد الإِخْبار عمَّا فِي نَفْسِه فإنَّه لَا بأسَ أنْ يَحذِف ذِكْر المَشِيئة، أمَّا إذَا أراد بقَوْله: سأزُور فُلانًا غدًا، يُريدُ الزِّيارةَ بالفِعل، فهُنا لا بُدَّ أن يَكُون مَقْرونًا بالمَشِيئة؛ لقَوْله تعالَى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الكهف:٢٣-٢٤]، وإنَّما يَجب أن يَقْرِنه بالمَشِيئة؛ لأَنَّه لَا يَدْرِي هَل يَفعله أَو لَا يَفعله؟ أمَّا إذَا قَالَ: سأَزُور فُلانًا غدًا، تُخْبر عَن نَفْسك؛ يَعْني: هذِه نِيَّتي، يَقصِد الإخبارَ عمَّا فِي نَفْسه فيَجُوز بِدُون ذِكْر المَشِيئة؛ ولهَذا جاءَت الآيةُ الكَرِيمة: ﴿إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا﴾ قالَ: ﴿فَاعِلٌ﴾، أمَّا إذَا قَالَ: إنِّي ناوٍ أنْ أَفْعل ذَلِك غدًا، فهَذا لَا بأسَ بِه.

فإنْ قَصَد وُقُوع الفِعْل حَرُمَ ذلِك إلَّا أن يُقيِّده بالمَشِيئة، وإنْ قَصَد الإخبارَ عمَّا فِي ضَمِيره جازَ بِدُونِ تَعْليقِ المَشِيئة؛ لأَنَّه إذَا قَصَد الإخبارَ عمَّا فِي ضَمِيره فقَد تَحدَّث عَن شَيْءٍ كائنٍ، وهُو مَا فِي الضَّمِير مِنَ العَزْم علَى الفِعْل، أمَّا إذَا قَصَد الفِعْل نَفْسه فقَد تحدَّث عَن أمرٍ مُستقبلٍ، لَا يَدْري أيكُون أمْ لَا، فَلَا بُدَّ أنْ يُقيِّدَه بمَشِيئة الله تعالَى.

خامسًا: أنَّ مَنِ ادَّعى عِلْمَ الغَيب فِي المُستقبَل فإنَّه كافرٌ، وَجه الدَّلالة: أَنَّه تَكْذيبٌ لقَوْله: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ فإذَا كُنْتَ لَا تَدْرِي ماذَا تَكسِبُ أنتَ، فعَدَم عِلْمك بما يَكْسِبه غيرُك مِن بابِ أولَى، فمَنِ ادَّعَى عِلْم الغَيب فِي المُستقبَل -سَواءٌ فِيمَا يَتعلَّق بفِعْل الله عَزَّوَجَلَّ، أَو بفِعْل النَّاس، أَو بفِعْل نَفْسه- فإنَّه يَكُون مُكذِّبًا لهذِه الآيةِ، وتكذيبُ القُرْآنِ كُفْرٌ صُراحٌ.

....

سادسًا: أنَّ الإِنْسان لَا يَعْلم مكانَ موتِه، وكَذلِك لَا يَعْلم زَمانَ موتِه، وهَذا مِمَّا انفرَد اللهُ تعالَى بعِلْمه.

وذكَر لي أحدُ الثِّقاتِ مِن أصحابِنا أنَّهم كانوا فِي حجٍّ علَى الإبل، قبلَ أنْ تأتِيَ السيَّارات، وخَرَجُوا مِن مكَّة ومعَهُم رجُلٌ أمُّه مَريضةٌ، فارتَحل النَّاسُ فِي آخِر الليلِ، وجلَس هَذا الرجُل عِنْد أمِّه يُمَرِّضُها، فلَمَّا أَصْبح فإِذَا القَوْم قَد سارُوا، فذهَب فِي أثَرهم بعدَ أن وطَّدَ مكانَ أُمِّه، فضاعَ، وكانَ ذلِك فِي الجِبال الحِجازيَّة، حَيثُ إنَّ كُلَّها رِياعٌ، فصارَ يَمْشِي حتَّى ارتفعَ النَّهار، فإِذَا بخِباء صَغِير لقَومٍ بَدْو، فذهَب إِلَيْهم، فسلَّم وسأَل عَن طريق نَجْد، فقالُوا: هُو وراءَك، وهُو بَعِيدٌ، لَكِن انتَظِر وأَنِخ البَعيرَ واستَرِحْ، وسنَدُلُّكَ، فلَمَّا أناخَ بَعِيرَه وأَنْزل أُمَّه مِن البَعير، فَما أنْ وَصَلَتِ الأَرْضَ حتَّى فاضَت رُوحُها، مَع أنَّ هَذا المكانَ لَا يَدري عَنْهُ إطلاقًا، ولَا يُفكِّر أنْ يَصِل إِلَيْه؛ لأنَّه مِن أَهْل عُنيزةَ، ولَكِن الله تعالَى قَد قضَى أنْ تَمُوتَ هذِه الأمُّ فِي ذلِك المكانِ، فضاعَ الرجُل ليَصِلَ إِلَى المكانِ الذِي عَلِم الله تَعالَى أنَّ المرأةَ ستَمُوت فِيه، وأمثالُ هَذا كَثِير، فكَثير مِن النَّاس تَجِده لَا يَخْرجُ مِن بلَدِه ولَا يُفكِّر أنْ يَخْرُجَ، فقَد تَجِدُه فلاحًا فِي فِلاحتِه مُنذ نُعومة أَظْفاره، ثمَّ إذَا قَرُب أَجَله جَعَل الله لَهُ حاجةً فِي مكانٍ مَا فسافَر إِلَيْه، ولَو أنْ يُسافِرَ للعِلاج فِي الخارِج، حتَّى يمُوتَ فِي المكانِ الذِي قَدَّر الله أنْ يَمُوتَ فِيه.

أمَّا القِصَّة الثَّانيةُ فقَد كانَ رجُل معَه أبوه يُمرِّضه فِي القَصِيم، فقرَّر الأطباءُ أنْ يَنْقلوه إِلَى مُستشفًى خارجَ القَصِيم، يَقُول الرجُل: فرَكِب الطائرةَ وهُوَ يَتكلَّم مَعَنا ويَتحدَّث؛ فلـمَّا استقلَّت الطائرةُ قبَض اللهُ رُوحَه! فسُبحان الله! إِذَن: فكانَ موضِعُه

وَنُؤْمِنُ بِأَنَّ اللهَ يَتكَلَّمُ بِمَا شَاءَ، مَتى شَاءَ، كَيْفَ شَاءَ[١]، ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا﴾[٢] [النساء:١٦٤]،..................................

فِي الجو، ومَا كانَ يَظُنُّ هَذا، فهُو أرادَ أن يَذْهَب إِلَى المُستشفَى الآخَر إلَّا ليُشفى ويَزول عَنه المَرَض، لَكِن كانَ الموت وهُوَ فِي الجَوِّ، فهَذا مِصداقُ قَوْله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ ٣٤﴾ [لقمان:٣٤].

سابعًا: عِلْم الله عَزَّوَجَلَّ وخِبرتُه، والعِلم يَشْمَل: العِلْم بالظَّواهر والبَواطِن، والخِبرَة هي: العِلْم ببواطِنِ الأُمُور، وعَلَى هَذا فهَل يُقال: إنَّ هاتَيْن الصِّفتَيْن مُكرَّرتانِ فِي الآيةِ، وأنَّ مَعْنى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ﴾ هُو مَعْنى: إنَّ اللهَ عَلِيمٌ عَلِيمٌ؟ الجَوَابُ: لَا؛ لِـمَا بَيْنَهُما مِنَ العُمُوم والخُصُوص، فالعِلْم يَشْمَل العِلمَ بالظاهِر والباطِن، والخِبْرة تَخْتصُّ بالعِلم بالباطِن، فيكُونُ فِي هذِه الآيةِ: إثباتُ اسمَيْن مِن أَسْماءِ اللهِ تعالَى، وهُمَا: العَلِيم والخَبِير، وإثباتُ صفتَيْن مِن صفاتِ الله، وهُما العِلْم والخِبرة.

[١] قَوْله: «**ونؤمن بأن الله يتكلم**» هذِه صِفَة الكَلام.

قَوْله: «**بما شَاء**» يَعْني المتكلَّم بِه.

قَوْله: «**مَتى شَاء**» يَعْني الزمَن.

قَوْله: «**كيف شَاء**» يَعْني كَيْفِيّة الكَلام.

هذِه أربعةُ أشياءَ: الأوَّل «يتكلَّم»، والثَّاني «بِمَا شَاء»، الثَّالث «مَتى شَاء»، الرابع «كَيْف شَاء».

[٢] وكَلام الله عَزَّوَجَلَّ حقيقيٌّ؛ لأنَّ اللهَ أَثْبته لنَفْسه، وأكَّده بقَوْله تَعالَى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا﴾ وهُو بحَرف، والحَرف هَذا إمَّا أن يَكُون باللُّغة العَرَبيَّة إذَا كانَ

كالقُرآن، أَو باللُّغة العِبرية كالتَّوراة، أَو بالسُّرْيَانِيَّة كالإِنْجِيل، فهُو عَزَّوَجَلَّ يَتكلَّم بأيِّ لُغة أرادَها. وكَلامه سُبحانه بصَوتٍ مَسْموع؛ لأنَّ الكَلام بِلَا صوتٍ لَيْس كَلامًا، بَل هُو حَدِيث نَفْس، ولَيْس هَذا الصَّوت مِثل أَصْوات المَخْلوقِين؛ لأنَّ الله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾.

إِذَن: عَقيدتُنا أنَّ اللهَ تعالى يَتكلَّم بكَلام هُو حَرف وصَوت؛ والحَرْف لَا يُحْصَر بنَوْع مُعيَّن، يَتكلَّم بما شَاء مِنَ اللُّغات، والصَّوْت نَقُول: إنَّه لَا يُشبه أصواتَ المخلوقِين، ولكنَّه بصوتٍ مَسْموعٍ، يُسْمَعُ، ولَهُ أَدِلَّةٌ.

وقولُنا: «**بِمَا شَاء**» يَعْني المتكلَّم بِه إنْ شَاء تكلَّم بأمْرٍ كَوْني مِثل قَوْله تعالَى للسَّموات والأَرْض: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ [فصلت:١١]، أَو كَلام بأمرٍ شرعيٍّ، مِثل كَلام الله تعالَى لرَسُوله مُحمَّدٍ ﷺ بالصَّلوات، فإنَّ الله تعالى فَرَض عَلَيه خمسِينَ صلاةً بكَلامِهِ.

وقولُنا: «**مَتى شَاء**» أَي: فِي أَيِّ وَقْت، سَوَاءٌ كانَ فِي الأزَل، أَو فِي المستقبَل، أَو فِي الحاضِر، فِي الليل أَو النهار، مَتى شَاء عَزَّوَجَلَّ.

مَسْأَلة: قُلْنا: إنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يتكلَّم مَتى شَاء، فهَل الوَقْت الذِي لم يَشأ الله سُبحانه فِيه الكَلام يُنسب إليه فنَقُول: إنَّه ساكِتٌ؟

الجَوَاب: قَالَ النَّبي ﷺ: «**وَسَكَتَ عَنْ أَشْيَاءَ رَحْمَةً بِكُمْ فَلَا تَبْحَثُوا عَنْهَا**»(١)؛

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٢٢/ ٢٢١) رقم (٥٨٩)، والدارقطني (٤/ ١٨٣)، البيهقي في السنن (١٠/ ١٢)، من حديث أبي ثعلبة الخشني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

لأنَّ الإِمْساك عَنِ الكَلام سُكُوت، لَكِن لَا نَجْزم بأنَّ هُناكَ سكوتًا مُطْلَقًا؛ لأنَّ الحوادِثَ دائِمةٌ مُستمرَّةٌ فِي كُلِّ لحظةٍ، وكُلُّ أمرٍ يَحْدُثُ فإنَّما يَقُول لَهُ: «كُنْ» فيَكُون، قالَ تعالَى: ﴿إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢]، وكلُّ شَيْءٍ يقَع فهُو مُرادٌ لله، فالسُّكوت المُطْلَق لَا أظنُّه يَكُون بالنِّسْبة لله عَزَّوَجَلَّ، لَكِن لَو شَاء لفَعَله؛ لأنَّ هَذا مِنْ صِفاتِ الأَفْعال، لَكِن يُمْكِن السُّكوت عَن شَيْءٍ مُعيَّنٍ.

وقولُنا: «كَيْفَ شَاء» يَعْني: أنَّه علَى كَيْفِيَّةٍ يَشَاؤُها عَزَّوَجَلَّ، إمَّا بصوتٍ عالٍ، وإمَّا بصَوْت مُنْخفضٍ؛ لقَوْل الله تَعالَى: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ﴾ [مريم:٥٢] وهَذا بصوتٍ عالٍ؛ ﴿وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ وهَذا بصوتٍ خَفِيٍّ.

فاللهُ عَزَّوَجَلَّ يَتكلَّم بما شَاء، مَتى شَاءَ، كَيْف شَاء، وكَلامُه -سُبحانه- بحَرْف وصَوْت، هَذا مَذهبُ أَهْل السُّنَّة والجَماعَة، وقالتِ المعتزلةُ: إنَّ الله تعالَى لَا يُوصَف بالكَلامِ، ولَا يَتكلَّم أبدًا، لكنَّه مَخْلوقٌ، خَلَقه الله عَزَّوَجَلَّ، ونَسَبه إِلَيْه خَلْقًا لَا وَصْفًا، فهُو نِسبةُ تَشْريفٍ وتكريمٍ، كَما نَسَب إِلَيْه النَّاقةَ فِي قَومِ صالِحٍ: ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ﴾، وكَما نَسَب إِلَيْه المساجِدَ فِي قَوْله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:١١٤]؛ وكَما أَضافَ إِلَيْه الكَعْبةَ فِي قَوْله: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ﴾ [البقرة:١٢٥]، وإلَّا فليس هُناكَ كَلامٌ هُو وَصْفُهُ. هَذا مَذهبُ المعتزلةِ.

وقالَ الأَشْعريَّة -الذِين تَذَبْذَبُوا بَيْنَ أَهْلِ السُّنَّة والمعتزِلَةِ-: إنَّ كَلامَ الله تعالَى هُو المَعنَى القائمُ بنَفْسه، ومَا يُسمع فإنَّه مَخْلوق خَلَقه الله تعالَى ليُعبر عمَّا فِي نَفْسه.

فالفَرْقُ -إِذَن- بَيْنَ المعتزِلَة والأشاعِرَة فِي كَلام الله تعالَى:

١- أنَّ المعتزِلَة يَقُولون: لَا نَنْسب الكَلام إِلَيْه وَصْفًا بَل فِعلًا وخَلقًا.

٢- وأنَّ الأشاعِرَة يَقُولُون: نَنْسب إِلَيْه الكَلامَ وَصْفًا، لَا باعتِبَارِ أَنَّه شَيْء مَسموعٌ، وأَنَّه بحُرُوف، بَل باعتِبار أَنَّه شَيْء قائمٌ بنَفْسه، ومَا يُسمَع أَو يُكتَب فهُو مَخْلوقٌ.

فعلَى هَذا يَتَّفق الأشاعِرَة والمعتزِلَة فِي أنَّ مَا يُسمَع أَو يُكتَب مَخْلوقٌ، فالأشاعِرَة يَقُولُون: القُرْآن -المسموع والمكتوب- مَخْلوقٌ، والمعتزِلَة يَقُولون: القُرْآن مَخْلوقٌ، لَكِنِ المعتزلةُ يَقُولُون: إِنَّ كَلامَه خَلْقُه حَقِيقةً؛ فكَما أَنَّ السَّمواتِ خَلْقه حَقيقةً، فالقرآن خَلْقُه حقيقةً، والأشاعِرَة يَقُولُون: لَيْس هَذا حقيقةً، وإِنَّما هُو عِبارةٌ عَن كَلامِ الله، ولَيْس هُو كَلامَ اللهِ.

فاتَّفقُوا علَى أنَّ الكَلامَ المَسْمُوعَ الذِي هُو الحَرْف والصَّوْت مَخْلوقٌ، لَكِنِ المعتزِلَة يَقُولُون: إِنَّه كَلامُ اللهِ حقيقةً، وأولئِكَ قالُوا: إِنَّه عبارةٌ عَن كَلامِ الله، فصارَ الأشاعِرةُ مِن هَذا الوَجْهِ أَبْعدَ عَنِ الحَقِّ مِنَ المعتزِلَة، وكِلَا الطَّائفتَيْن ضالٌّ؛ لأنَّ الكَلام ليس شَيْئًا يَقُوم بنَفْسه، بَل الكَلامُ صِفَة المتكلِّم، وإِذَا كانَ الكَلام صِفَةَ المتكلِّم، كانَ كَلامُ الله صِفتَه، وصِفاتُ الله تعالَى غيرُ مَخْلوقةٍ، إِذْ إِنَّ الصِّفات تابعةٌ للذَّاتِ، فكَما أنَّ ذاتَ الرَّبِّ عَزَّوَجَلَّ غيرُ مَخلوقةٍ، فكَذلِك صفاتُه غيرُ مَخلوقةٍ، وهَذا دَلِيلٌ عقليٌّ واضحٌ.

ثُمَّ اعلم أَنَّك إِذَا قُلت: إِنَّ كَلامَ الله مَخْلوق -سَواءٌ علَى طَرِيق الأشاعِرَة أَو علَى طَرِيقِ المعتزِلَة- بطَلَ الأَمْرُ والنَّهْيُ؛ لأَنَّك إِذَا قُلتَ: إِنَّ قَوْله تعالَى: ﴿أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ شَيْءٌ مَخْلوقٌ؛ صارَ مَعْناها: أنَّ اللهَ تعالَى خَلَق حُروفًا علَى هَذا الشَّكْل، ولَيْس لها مَعنًى،

....

كَمَا خَلَقنا نَحنُ علَى هَذا الشَّكْل أَعْضاءً: رَأْسًا وصَدرًا وبَطنًا وظَهرًا، فالكَلامُ إِذَا كانَ مَخْلوقًا صارَ عبارةً عَن صُورٍ مَخْلوقةٍ؛ فالصَّادُ علَى كَذَا، والشِّينُ علَى كَذَا، والطَّاءُ علَى كَذَا، والعَيْن علَى كَذَا، كُلُّها مَخْلوقةٌ لَا مَعْنى لها.

وإِذَا كانَ كَذلِك بطَلَ الأَمْرُ والنَّهْيُ، وصارَت: (قُل) مِثل (لَا تَقْرَبوا) كِلاهُما صُورةٌ مُعيَّنة خَلَقها الله؛ فهذِه لَا تدلُّ علَى أَمْرٍ، ولَا هذِه علَى نَهْي، ولهَذا أكَّد شَيْخ الإِسْلام ابن تَيميَّة، وابن القَيِّم، وغيرهما من العُلَماء رَحِمَهُمُٱللَّهُ علَى أنَّ مَن قالَ: إنَّ القُرْآن مَخْلوقٌ فقَد أَبْطَلَ الشَّرعَ كُلَّه؛ لأنَّ القُرْآنَ أوامرُ ونواهٍ، وحِلٌّ وحُرْمَةٌ، فإِذَا قُلْنا: إنَّ القُرْآن خُلِقَ هكَذا فلَيْس هُناكَ أمرٌ ولَا نَهيٌ، ولَا حِلٌّ ولَا حُرْمَةٌ، وإنَّما هِي حروفٌ خُلِقَتْ علَى هذِه الصُّورَةِ.

فمَثَلًا: الثُّريَّا وسُهيل، كُلٌّ مِنهُما خُلِقَ علَى صِفَةٍ، الثُّريا علَى صِفَةٍ، وسُهيلٌ علَى صِفَةٍ، فصِفَةُ سُهيلٍ أَنَّه نَجم واحدٌ، مُضِيءٌ جِدًّا، يَتلَألَأُ، وصِفةُ الثُّريَّا أَنَّها نُجُومٌ كَثيرةٌ ومُجتمِعة كعُنْقُود العِنَب خَفِيةٌ، خَلَق اللهُ كُلَّ واحِدٍ مِنْهما علَى هذِه الصِّفَة، كَذلِك حُرُوف القُرْآنِ خُلِقت علَى صِفَةٍ، فقوله: ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ [مريم:١]، لَيْسَت كـ﴿رَبِّ﴾ مثلًا، فـ﴿رَبِّ﴾ كلمتان، و﴿كٓهيعٓصٓ﴾ عدة كلمات، فاختلفتا فِي الشكل والصورة، لَكِنَّ حقيقتَهما -علَى القول بأنَّها مَخْلوقة- واحدةٌ، إلَّا أنَّ اللهَ خَلَق هَذا علَى شَيْءٍ وهَذا علَى شَيْءٍ.

يَعْني: إذَا قُلْنا: إنَّ كَلام الله مَخْلوق لَزِمَ مِنْ ذلِكَ أَنَّ القُرْآن مَخْلوقٌ، وإذَا كانَ مَخْلوقًا صارَ عِبارةً عَن صُور مُعيَّنة لحُرُوفٍ مُعيَّنةٍ، لَيْسَت تدلُّ علَى أمرٍ ولَا نهيٍ، أَي لَيس لـهَا مَعنًى.

....

وإنَّما مَثَّلْنا بسُهيلٍ والثُّريا؛ لقَوْل الشَّاعر[١]:

أَيُّهَــا الْمُــنْكِحُ الثُّرَيَّــا سُــهَيْلًا ... عَمْــرُكَ اللهَ كَيْــفَ يَلْتقِيَــانِ

لأنَّ الثُّريا مِنَ النُّجوم الشَّمالية، وسُهيلًا مِنَ النُّجوم اليَمانية الجَنُوبية؛ قالَ الشَّاعِر[٢]:

أَمَـا تَـرَى حَيْـثُ سُـهَيْلٍ طَالِعَـا ... نَجْمًا يُضِـيءُ كَالشِّهَابِ سَـاطِعَا

فمَكانُ سُهيلٍ فِي الجنوب تمامًا، لكنَّه لَا يَخرج إلَّا فِي آخِر القَيْظ.

وعلى كل حَالٍ: فنحنُ نُؤْمِن بأنَّ القُرْآن كَلامُ الله، وأنَّ اللهَ يتكلَّم بكَلامٍ هُو وَصْفُه، بحَرف وصَوت، لَكِن نَحْن لَا نعرفُ كَيْفَ يَتكلَّم؛ لأنَّ جَمِيع صِفاتِ الله كَيْفِيَّتُها مجهولةٌ، لَا يَعلمها إلَّا اللهُ، حتَّى النَّبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَا يَعلمُ شيئًا مِن كَيْفِيَّة صفاتِ الله، إلَّا مَا أَعْلمَه اللهُ عَزَّوَجَلَّ، والأدلَّة علَى ثُبُوت صِفَة الكَلامِ لله عَزَّوَجَلَّ مُتعدِّدَةٌ:

قَوْله تعالَى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا﴾ فأكَّد الكَلامَ بالمصدَر لِينفيَ احتمالَ المجازِ، وأمَّا المعتزِلَة فقالت فِي قَوْله تعالَى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا﴾ أَي: جَرَحه بمَخالِبِ الحِكْمةِ؛ لأنَّ الكَلْم فِي اللُّغة هُو الجَرْح، فيَصِير الله عَزَّوَجَلَّ قد جرَّح موسى تَجريحًا، لَكِن لَيْس بالسكين، ولَا بمخالب الصقر، إنَّما بمخالب الحِكْمة!! وهَذا تحريفٌ ظاهِرٌ، نَسأل اللهَ العافيةَ.

---

(١) البيت لعمر بن أبي ربيعة، انظر: ديوانه (ص:٢٢٩).

(٢) غير منسوب، وانظره في: مغني اللبيب (ص:١٧٨)، وخزانة الأدب (٧/ ٣).

﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَـٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾[1] [الأعراف:١٤٣]،........................

---

[١] وقَوْله تعالَى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَـٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ وأَتَيْنا بهذِه الآيةِ بعدَ التِي قَبلَها؛ لأنَّ مِن المحرِّفِين مَن حَرَّف الآيةَ التِي قَبلَها لفظًا، فكانَ يَقرؤُها: «وكلم اللهَ موسى تكليمًا» بنصب لفظ الجلالة؛ لِكَي يَقَع التَّكليم مِن مُوسَى إلَى الله، فيكُون موسى هُو المتكلِّم، فأَتَينا بالآيةِ التِي بَعْدَها وهِي قَوْله تعالَى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَـٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾، فهُنا لَا يُمْكِن أن يُقال إن المُكلِّم هُو مُوسَى؛ لأَنَّه تَعالَى قَالَ: ﴿وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ فهُو صَريحٌ أَنَّ الكَلامَ مِن الله تَعالَى.

وفي هذِه الآية ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَـٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ ردٌّ علَى الأشاعِرَة؛ مِن جِهَةِ أنَّهم يَقُولُون: إنَّ الكَلامَ مَعْنًى يقومُ بالنَّفس، لَا يَتعلَّق بالمَشِيئة، وهَذِه الآيةُ رَدٌّ تمامًا عَلَيهِم؛ لأنَّ الكَلامَ إنَّما حصَل لـما جَاءَ مُوسَى، فهُو كَلامٌ حادِث بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُن، قالَ تعالَى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَـٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى﴾، فهذِه مُحاورةٌ، وكَوْنُ الله تعالَى يُكلِّم مُوسَى محاورةً يدلُّ علَى أنَّ الكَلامَ يَتعلَّق بمَشِيئتِه، ولَيْس صِفَةً ثابتةً أزَلِيَّةً أبديَّةً، بحَيثُ لَا تَحْدُث أبدًا.

وكَذلِك مَا صَحَّ فِي حَدِيثِ أَبِي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ الله تَعالَى: «**قَسمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، فإِذَا قَالَ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ قَالَ: حَمِدَنِي عَبْدِي**»(١)، فهَذا كَلامٌ حادِثٌ لَا شَكَّ؛ لأنَّه بعدَ أنْ قَالَ المُصلِّي: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾، قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ: «**حَمِدَنِي عَبْدِي**».

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، رقم (٣٩٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا﴾[١] [طه:٥٢].

وَنُؤْمِنُ بِأَنَّهُ: ﴿لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي﴾[٢] [الكهف:١٠٩]،..

---

[١] الثَّالِث: قَوْله تعالَى: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا﴾ والفاعِل فِي قَوْله: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ﴾ هُو الله عَزَّوَجَلَّ، والنِّداء بصَوت مُرتفِع، ﴿مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ﴾ و﴿ٱلۡأَيۡمَنِ﴾ صِفَة لـ﴿جَانِبِ﴾ لَا للطُّور؛ لأَنَّه لَيْس هُناكَ طُورانِ، فالطُّور واحِدٌ، لَكِن لَهُ جانِبانِ أَيْمن وأَيْسر؛ ولهَذا فِي آيةٍ أُخرَى: ﴿وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ﴾ فجاءَتْ ﴿ٱلۡأَيۡمَنَ﴾ مَنصوبةً؛ لأنَّها صِفَة لـ﴿جَانِبَ﴾.

وقَوْله: ﴿وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا﴾ يَعْني: جَعَلْنا نُنَاجِيه، والمُناجاة: هِي الكَلام بصَوْت خَفِيٍّ. إِذَن: اللهُ تعالَى يَتكلَّم بكَلامٍ مَسمُوعٍ بصَوْتٍ رَفِيعٍ أحيانًا، وخَفِيٍّ أحيانًا، ولَا مانِعَ؛ لأَنَّه لَا نَقْصَ فِي ذَلِك، ثُمَّ أَيُّ مَساغٍ لنَا أن نَقُول: إنَّ اللهَ لَا يَتكلَّم بصَوْتٍ ولَا بحَرْفٍ، واللهُ تعالَى قَد ذكَر عَن نَفْسه أَنَّه يَتكلَّم بحَرْفٍ وصَوْتٍ.

فائِدَةٌ: المُصلِّي إذَا صلَّى ولم يَنْطِق بما يَقْرأ لَيْسَ لَهُ صلاة؛ ولَو حدَّث نفسَه فِي صلاتِه لم تكُن صلاةً، لأَنَّه لَيْسَ بكَلام، أما قَوْله تَعالَى: ﴿وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ لَوۡلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ﴾ فهنا قيد فقال: ﴿وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ فولَا لَيْسَ مطلقًا بَل قول مقيد.

[٢] قَوْله: «ونؤمن بأنَّه ﴿لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي﴾» إلخ؛ هَذا بيان لعظمة الله عَزَّوَجَلَّ وكَلامه، والمِدادُ مَا يُكتَبُ مِنه كالحِبْر مَثَلًا.

قَوْله تعالَى: ﴿لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي﴾ سُبحان الله!! البحر -علَى سعَتِه وكَثْرة مَائِـهِ وعُمقـه- يَنفَد قَبْل أن تَنْفَـدَ كلـماتُ الله! لأنَّ كلـماتِ الله عَزَّوَجَلَّ دائمةٌ،

﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ[١] وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ[٢] مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[٣] [لقمان:٢٧].

كما أنَّ خَلْقه دائمٌ، فهُو إذَا خَلَق فقَدْ أرادَ، وإذَا أراد قَالَ، كما قَالَ الله تَعالَى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾.

[١] قَوْله: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ ﴾ «لو» هذِه شَرْطية، و(مَا) هنا اسمٌ موصولٌ، و﴿أَقْلَٰمٌ ﴾ خبَر (أنّ) ومعنَى الآيةِ: ولَو أنَّ الذِي فِي الأَرْض مِن أشجارِ أقلامٌ.

والكِتابةُ فِي الآية متَّصلة (مَا) بـ (أنّ) فِي ﴿أَنَّمَا﴾ وهُو خلاف القاعدة المصطلَح عَلَيْها الآنَ؛ لأنَّ المصطلحَ عَلَيه الآنَ أنَّ (مَا) لَا تُربَط بـ (أنّ) إلَّا إذَا كَانَت للحَصْر، أمَّا إذَا كَانَت (مَا) اسمًا موصولًا، فإنَّها تُفَكُّ مِن (أنَّ)، فلو كتَبْنا هذِه الآيَةَ علَى حَسَب الاصطِلاح اليَوم لكَانَت (أنّ) وَحْدها و(مَا) وَحْدها، ونظيرُها تمامًا (كُلَّما)، فإذَا جعلْتَ (مَا) اسمًا موصولًا فإنَّك تَفْصِلها عَن (كلّ) وإذَا جعَلْت (كلّما) أداةَ شرطٍ فإنَّك تَربِطُها بـ (كل).

[٢] قَوْله: ﴿وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ﴾ الله أكبر! هذِه أَعْظَمُ مِن الآية الأُولى، فالبَحر يَمدُّه مِن بعدِه سبعةُ أبحُر، أَي: بزِيادة عَن الضِّعف الأوَّل: ستَّة أضعافٍ.

[٣] قَوْله: ﴿مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ يَعْني: لَو جُمِعَ جَميع مَا فِي الأَرْض مِن الأشجارِ وجُعلت أقلامًا، وأُضيف إلَى البَحْر سَبْعة أَبحر فإنَّه لَا تَنْفَدُ كلماتُ الله، إنَّ الله عزيزٌ حكيٌم. وهَذا يدلُّك علَى عَظَمة الرَّب عَزَّوَجَلَّ وكَثْرة مَخْلوقاتِه وإرادتِه سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، وكُل هذِه الآياتِ تدلُّ علَى إثباتِ صِفَةِ الكَلامِ للهِ تعالى.

والخُلاصةُ: أنَّ أَهْل السُّنَّة والجَماعَة -جَعَلنا اللهُ تعالَى وإيَّاكم مِنْهم وأمَاتَنا علَى ذلِك- يُؤمِنون: بأنَّ الله يتكلم بما شَاء، مَتى شَاء، كَيْف شَاء، وأنَّ كَلامَه وَصْفه لَا فِعْله، وأنَّ كَلامَه بحَرْف وصَوْت، وأنَّ كَلامَه يَكُون أحيانًا بنِداءٍ، وأحيانًا بمُناجاة؛ والنِّداء هُو الكَلام الرَّفِيع، والمُناجاة هُو الكَلام الخَفِيف، كل هَذا نُؤْمِن بِه.

وهُناك مَذاهبُ فِي كَلام الله لَكِن نَحْن نَذْكر مَذهبَيْن مشهورَيْن:

أولًا: مَذْهب الأشاعِرَة.

وثانيًا: مَذْهب المعتزِلَة.

اتَّفق الجَمِيع عَلَى أنَّ الكَلامَ الذِي هُو الحَرْف والصَّوْت مخلوقٌ، ولَكِن قالتِ الأشعريَّة: إنَّه عِبارَة عَن كَلام الله، وقالتِ المعتزِلَة: بلى، هُو كَلام الله؛ أمَّا الأشعريَّة فقالُوا: إنَّ كَلامَه هُو المَعنَى القائمُ بالنَّفس، وأنَّه لَا يَتجدَّد ولَا يَحدُث ولَا يَتغيَّر والأَمْر والنَّهي اختلَفا فِي الصُّورة فقَطْ وهما بمَعْنى واحِد.

وكلُّ هذا كَلامٌ وهذيانٌ غَريبٌ! لأنَّهم -نسألُ اللهَ العافيةَ والسَّلامةَ وأن لَا يُزيغَ قُلوبَنا- جَعَلُوا مَرجِع الصِّفات إلَى العَقْل لَا إلَى النَّقل، يَعْني مَدارِك العُلوم فِيمَا يَتعلَّق بصِفاتِ اللهِ عندَهم هُو العَقل، أمَّا النَّقل فيُعرِضون عَنْه، ويَقُولون: مَا خالَف العَقْل فإنَّنا نَسلُك فِيه أحَد أَمْرَيْن: إمَّا أنْ نُؤوِّلَه وإمَّا أن نُفوِّضَه أَي: نَقُول لَا نَدرِي؛ وقولهم: «نُؤوِّله»: يَعْني نُحرِّفه، لَكِن أَتَوْا بـ«التَّأوِيل» تَلْطيفًا:

فمَثلًا ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف:٥٤] يقولُ: «اللهُ مَا استوَى عَلَى العَرْش حقيقةً! يجب أن تَقُول: استوَى بمَعْنى استَوْلى، أَو تُفوِّض فتقُول: مَا أَدرِي مَا مَعْناه!».

ثُمَّ يقُولون -كَذِبًا أَو جَهْلًا: إنَّ مَذْهب السَّلَف هُو التَّفْويض، فالسَّلفيُّ إذَا سألْتَه: مَا معنَى ﴿ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾؟ يقُول: اللهُ أَعْلم! وإنْ قلتَ: مَا مَعنَى ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾؟ قالَ: اللهُ أَعْلم؛ وإنْ قلتَ: مَا معنَى (بَلْ عَجِبْتُ وَيَسْخَرُونَ) العجب الذِي أضافه الله لنفسه؟ قالَ: اللهُ أَعْلم؛ فهَذا مَذْهب السَّلف عَلَى مَا زَعْم الأشاعِرَة!! فجَعَلوا السَّلف جاهِلين بمَعانِي أسماءِ الله وصفاتِه وأنَّ الأسماءَ والصِّفات -آياتها وأحاديثها- كلُّها بمَنْزلة الكَلام الأَعْجمِي عِنْد الرَّجُل العَرَبي؛ فالآنَ: لَو أنَّ أحَدًا مِنَ الأعاجِم جعَل يُردِّدُ كلماتٍ بلِسانِه وأنَا لَا أَعرِف لُغتَه فلن أستفيد، ولو كرر عليَّ مرتَيْن أو ثلاثةً فلَن أَسْتفيد أبدًا، ولَا أَزْدادُ مِن مَعْناهُ إلَّا بُعْدًا.

فهُم يقُولون: كُلُّ صِفاتِ الله، نُصوصُها مِنَ الكِتاب والسُّنَّة غيرُ مَعلومةٍ لنَا، ولَا نَدرِي مَا هي!! وأنَّ هَذا هُو مَذهب السَّلَف -أيضًا- عِنْد الأشاعِرَة. وقَد كَذَبوا فِيمَا قالُوا، أَو ضَلُّوا وجَهِلوا مَا عِنْدَ السَّلَف.

المَسْلَك الثَّاني فِي آياتِ الصِّفاتِ وأحادِيثها عِنْدَ الأشاعِرَة: هُو التَّحْرِيف، الذِي يُسمُّونه (التَّأوِيل)، والتَّأوِيل: هُو التفسير، فيفسرون قَوْله تعالَى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ أَي: جَاءَ أمره، ويُفسرون «رحمك الله» أَي: «أحسن إليك، أَو أراد بك الرحمة»؛ أمَّا أنْ يَكُون اللهُ مَوْصوفًا بالرَّحمة فهَذا مُستحيلٌ عِندَهم... وهَلُمَّ جَرًّا.

هَذانِ مَذْهبانِ فِي كَلام الله تعالَى:

المَذْهب الأوَّل: مَذْهب المعتزِلَة؛ **والمَذْهب الثَّاني**: مَذْهب الأشاعِرَة؛ وكلاهُما -كمَا قَرَّرْنا- باطلٌ.

وَنُؤْمِنُ بِأَنَّ كَلِمَاتِهِ أَتَمُّ الكَلِمَاتِ صِدْقًا فِي الأَخْبَارِ[١] ....

والصَّوابُ أنْ نَقُولَ: إنَّ الله يَتكلَّم مَتى شَاء بما شَاء كَيْف شَاء، وكَلامُه بحَرْفٍ وصَوتٍ، وأدلَّة ذَلِك مِنَ القُرْآن والسُّنة ظاهِرةٌ، ولَيْس لنَا أنْ نَتحكَّم عَلَى الله تعالى بعُقُولنا.

فائِدَةٌ: «تَفْسير الزَّمَخْشرِي» جَيِّد فِيمَا يَتعلَّق بالمعنَى اللُّغوي مِن إعْراب وبَلاغة وتَحْليل وغَيْر ذَلِك؛ جَيِّد جِدًّا، وكُلُّ مَن بعدَه ممَّن يَسلك مَسْلكه عِيالٌ علَيْه، مِثل أَبِي السُّعود وغَيْره كلٌّ يَأْخذُ مِنه، لكِنْ فِي الصِّفاتِ احْذَرْهُ!! فإنَّه جَيِّد فِي سَبْك الكَلام يَقُودُك قِيادَةَ الرَّاعِي للبَهِيمة العَمْياء، تَمْشي وَراءَه، سَواء كانَ وَراؤُها أَحْجارًا أَو أَنْهارًا أَو نارًا أَو أَيَّ شَيْءٍ؛ لأَنَّه جَيِّد يَأْخُذ باللُّب؛ يقول البُلْقِينِي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنَّ فِي كِتابِ الزَّمخشرِي مِنَ الاعتِزالِيَّات ما لم أَسْتطِعْ أَخْذَه إلَّا بالمَنَاقِيش(١) -وهَذا المِنقاشُ لَا يَأْخذ إلَّا الشَّيْءَ الخَفِيَّ- فاحذَرْه فِي بابِ الصِّفاتِ، أمَّا غيرُ بابِ الصِّفات فهُو جَيِّد، وكذَلِك يَظْهر لِي مِن كَلامه في الأَحْكامِ أنَّ مَذهبَه حَنَفيٌّ، والله أعلم.

[١] قَوْله: «**وَنُؤْمِنُ بِأَنَّ كَلِمَاتِهِ أَتَمُّ الكَلِمَاتِ**» كَلِماتُ الله عَزَّوَجَلَّ أَكْملُ الكَلِماتِ فِي هذِه الأُمُور: «**صِدْقًا فِي الأَخْبَارِ وَعَدْلًا فِي الأَحْكَامِ وَحُسْنًا فِي الحَدِيثِ، قَالَ تَعالَى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾**» فلَيْس فِي كَلامِ الله تَعالَى كَذِب، ولَيْس فِي كَلِماتِه جَوْرٌ، ولَيْس فِي كَلِماته قَبِيحٌ، بَل كَلماتُه جَلَّوَعَلَا أَكملُ الكَلِمات فِي كُلِّ مَعانِي الكَمال، إنْ نَظَرتَ إلَى السِّياق وَجَدْتَه أَكملَ السِّياق، وإنْ نَظَرت إلَى المَعنَى وَجدتَه أَكملَ مَعنًى، وإنْ نَظَرت إلَى التَّنسيق بَيْن المَعانِي وجدتَه أحسنَ تَنسيقٍ... إلخ.

---

(١) انظر: الإتقان في علوم القرآن للسيوطي (٤/ ٢٤٣).

وَعَدْلًا فِي الأَحْكَامِ[١] وَحُسْنًا فِي الحَدِيثِ[٢]، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾[٣] [الأنعام:١١٥]،..

فإذا تعذَّر علَيْك فَهْم كَلام الله تَعالَى فاتَّهِم فَهْمَك ولَا تَتَّهِم الآياتِ، فَلَا تَقُل: كَيْف يَكُون كَذَا وكَذَا، مِمَّا أَخْبر اللهُ بِه؛ لأَنَّك إذَا عَجزت عَن إِدْراكِه فهَذا لِنَقْص فَهْمِك، أمَّا كَلِماتُ الله فهِيَ تامَّةٌ.

[١] وقَوْله: «عَدْلًا فِي الأَحْكَامِ» فأَحكامُه كلُّها عادِلةٌ لَيْسَ فِيها جوْرٌ، سَواءٌ الأحكامُ التَّكْليفيَّة أَو الأحكامُ الجزائيَّة؛ فإنَّ كلَّها عَدْلٌ، والأحكامُ الجزائيَّة يَعْني الثَّواب والعِقاب، وهِيَ بَيْن أمرَيْن لَا ثالثَ لهما، وهُمَا: «العَدْل» و«الفَضْل» العَدْل: جزاءُ سيِّئةٍ سيئةٌ مِثْلُها، فالفَضْل: الحَسَنة بعَشْر أمثالِهَا، فكُلُّها عَدْل.

[٢] قَوْله: «وَحُسْنًا فِي الحديث» فَلَا حَدِيثَ مِثْلُ كَلامِ الله يُعادِلُه فِي الحُسن، وفِي البَلاغة، وفِي المَوْضُوع الذِي يَتكلَّم فِيه، وفِي كُلِّ شَيْءٍ؛ والحُسْن نَأْخذه مِن قَولِ النَّبيِّ ﷺ: «أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنَّ خَيْرَ الحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ»(١).

[٣] قَوْله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ ﴿كَلِمَتُ﴾ مفتوحةُ التاءِ، والصَّوابُ كَذلِك؛ لأنَّ فِيها قِراءة: (وَتَمَّتْ كَلِماتُ رَبِّكَ صِدْقًا) ولَا تَتطابَقُ (كَلِمات) مَع (كَلِمة) فِي الرَّسْم إلَّا إذَا جَعلتَ التاءَ مَفتوحةً.

﴿صِدْقًا﴾ تمييز، وعاملها (تَمَّتْ)؛ أَي: تَمَّ صِدْقها، وتَمَّ عَدْلها، فالذِي يَلِيق أَن يُوصَف بالصِّدق هِي الأخبارُ، والذِي يَلِيق أن يُوصَف بالعَدْل هِي الأَحْكام، فيَكُون صدقًا فِي الأخبار، وعدلًا فِي الأحكام.

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة، رقم (٨٦٧)، من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقال: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾[١] [النساء:٨٧].

وَنُؤْمِنُ بِأَنَّ القُرْآنَ الكَرِيمَ كَلَامُ اللهِ تَعَالَى[٢]،.........................

---

[١] قَوْله: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ (مَنْ) اسمُ استِفْهام، والمقصُود بِها النَّفْي، وكلَّما جَاءَ الاستِفْهام مقصودًا بِه النَّفْي كانَ أعْظمَ مِن النَّفْي المجرَّد؛ لأنَّ الاستِفْهام الذِي يُقصد بِه النَّفْي استِفْهام مُشْربٌ بالتَّحدي، كأنَّ المتكلِّم يَقُول: إنْ كُنْتَ تَجِد أحدًا أحسنَ مِن هَذا فبَيِّنْه لِي! فقوله: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ أبْلغ ممَّا لَو قِيل: لَا أحَدَ أَصْدقُ مِن الله حَديثًا؛ لأنَّ الاستِفْهام هُنا يَعْني التَّحدي.

وقَوْله: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ﴾ الصِّدق، يقولُون: إنَّ مَعْناه: الإخبار بما يُطابق الواقِع، ولَا خبرَ يُطابقُ الواقِعَ أكثرَ مِن خَبر الله عَزَّوَجَلَّ، وفِي وَصْف الحَدِيث بالصِّدق، والكَلِمات بالصِّدق: دَلِيل علَى أنَّ القُرْآن كَلام الله؛ لأنَّ وَصْف الصِّدق لَا يَنطبِق إلَّا علَى الخَبر، فيُكون الله تعالَى مُتكلِّمًا بالقُرآن خبَرًا، ومُتكلِّمًا بالقُرآن تَشْريعًا.

[٢] قَوْله: «**وَنُؤْمِنُ بِأَنَّ القُرْآنَ الكَرِيمَ كَلامُ اللهِ**» القُرْآن «الكَرِيم» كِتاب الله تَعالَى، والكَرَم فِي القُرْآن يَشْمَل كَثرةَ الثَّواب فِي قِراءته، وكَثرة الخَيْرات فِي العَمَل بِه، والحُسنَ؛ لقول الرَّسُول ﷺ: «**إِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِـهِمْ**»(١)، أَي أحاسِنَها، فالقُرآن الكريمُ وُصِف بالكَرَم لهذه الأسبابِ الثَّلاثة.

وأوصاف القُرْآن فِي القُرْآن كثيرة؛ فقَد وُصِف بأنَّه كَرِيم، وبأنَّه مَجِيد، وبأنَّه عَظِيم، إلَى غير ذَلِك.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب أخذ الصدقة من الأغنياء، رقم (١٤٩٦)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام، رقم (١٩)، من حديث ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا.

تَكَلَّمَ بِهِ حَقًّا[١]، ....

فالقُرآن كَلامُ الله، تكلَّم بِه حقيقةً، والدَّلِيل علَى أنَّه كَلام الله قَوْله تعالَى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٦]. فالُمراد بكَلام الله هُنا القُرْآن بِلَا شَكٍّ، ولَا يُمْكِن أن يُقال: إنَّ الُمراد بِه كَلام الله تَعالَى الذِي يَسْمعه الُمشرِك مِنَ السَّماء، فإنَّ الُمشرِك لَن يَسْمع إلَّا مَا نَزَل مِنَ القُرْآن، ولَا يُمْكِن أنْ يَسمع كَلامَ الله مِن فَوْق سَبْع سَمَواتٍ أبدًا، فعلَى هَذا تكُون الآيَةُ نصًّا صريحًا فِي أنَّ هَذا القُرْآنَ كَلامُ الله عَزَّوَجَلَّ، وفاتَنا أنْ نَذْكُرَ هَذا الدَّلِيل فِي مَتْن الكِتاب لأَنَّه نصٌّ صَرِيحٌ.

[١] قَوْله: «تكلم بِه حقًّا» ولَيْس عبارةً عَن كَلامِه، كَما قَالَ بذَلِك الأشاعِرَة، حَيثُ قالُوا: إنَّ القُرْآن لَيْس كَلامَ الله، بَل هُو عبارةٌ عَن كَلامِ الله؛ لأنَّ الكَلامَ عندَهم هُو الَمعنَى القائِم بِالنَّفْس! فنَقُولُ نحن: إنَّ اللهَ تعالى تكلَّم بِه حقًّا.

والأشاعِرَة يَقُولون: إنَّ الكَلامَ هُو الَمعنَى القائِم بنَفْسه؛ لقَوْل الشاعِر(١):

إنَّ الكَـلامَ لفِـي الفُـؤادِ وَإنَّـما ... جُعِلَ اللِّسانُ عَلَى الفُؤَادِ دَلِـيلا

وقالُ الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: ﴿وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ﴾.

والجَوابُ عَن ذَلِك مِن وَجْهَيْن:

أمَّا الأوَّل فكَلامُ نَصْرانِيٍّ غَيرِ مُعتبَر.

---

(١) البيت نسبه البعض إلى الأخطل، وليس في مطبوع ديوانه، انظر: الموشى لأبي الطيب الوشاء (ص:٨)، وتمهيد الأوائل لأبي بكر الباقلاني (ص:٢٨٤)، والفصل في الملل والنحل للشهرستاني (٣/ ١٢٢)، ومجموع الفتاوى (٧/ ١٣٨).

....

والثَّاني معنَى «الكَلام فِي الفُؤاد»: أنَّ الكَلامَ الحَقِيقيَّ المُعتبَر مَا كانَ صادِرًا عَن الفُؤادِ مِن القَلب، أمَّا كَلامُ المَجْنونِ والهاذِي ومَا أَشْبَه ذَلِك فإنَّه لَيْسَ بكَلامٍ، فالقَلْب يُقَدِّر أوَّلًا ثُمَّ يُعبِّر عَنه اللسانُ، لَكِن هَل تَقْديرات القَلْب تُعتبر كَلامًا؟! فإنَّه إلَى الآنَ لم يَتكلَّم الرجُل.

ولهذا قالَ الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**إنَّ اللهَ تَعالَى تَجاوزَ عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا مَا لَـمْ تَعْمَلْ أَوْ تَتكَلَّمْ**» فلَمْ يَجْعل الرَّسُولُ الحَدِيثَ كَلامًا؛ فيُرَدُّ عَلَى هَذا مِن هذَيْن الوجهَيْن.

أمَّا قَوْله تَعالَى: ﴿وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ فهُنا قَيَّد القَوْل فقَالَ: ﴿وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ ولَو قال: «يقولون لَوْلا يعذبنا الله»، فهل هَذا يَعْني فِي النَّفْس أَو فِي اللِّسان؟ الجَواب: فِي اللِّسان.

وقَوْله: «**وَنُؤْمِنُ بِأَنَّ القُرْآنَ الكَرِيمَ كَلامُ اللهِ**» جَرَتْ فِي هَذا المُعْتَقَد فِتنٌ عَظيمةٌ عَلَى عَهْد المأمون، فمِن العُلَماء مَن سَلَك جانِب الرُّخصة: وقال: إنَّه مخلوقٌ خوفًا عَلَى نَفْسه مِنَ القَتْل أَو الحَبْس، وتأوَّل فِي ذَلِك قَولَ الله تَعالَى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ﴾ [النحل:١٠٦].

ومِن العُلَماء مَن تأوَّل -وفي التَّأويل مَندُوحةٌ عَنِ الكَذِب-، فكانَ يَقول إذا سُئل: القُرْآن والتَّوراة والإِنْجيل والزَّبور، هذِه كلُّها مخلوقةٌ، ويَتأوَّل أصابعَ يَدَيْه.

ومِنهم مَن صَمَّم وقالَ: القُرْآن غيرُ مخلوقٍ كالإمامِ أحمدَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهَذا واجبٌ علَيْه -أي عَلَى الإمامِ أحمدَ- أنْ يَصْمُدَ ويَقُول: القُرْآنُ غيرُ مَخْلوقٍ ولَو قُتل، لأنَّ المَقام

وَأَلْقَاهُ إِلَى جِبْرِيلَ، فَنَزَلَ بِهِ جِبْرِيلُ عَلَى قَلْبِ النَّبِيِّ ﷺ[١] ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ﴾[٢] [النحل:١٠٢]،..

فِي هذِه الحال مَقامُ جِهادٍ، والإمامُ أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ لو قَالَ: إِنَّه مخلوق لَكانَ النَّاس كلُّهم يقولون: إِنَّه مخلوقٌ؛ وهَذا حَرام.

فلِذلك نَقُول: مَن أُكره عَلَى الكُفر قَولًا أَو فِعلًا فإِنْ كانَ إمامًا حرُم علَيْه أن يُوافق، لَا تأويلًا ولَا إِكراهًا؛ لأنَّ النَّاس يَقتَدون بِه، ويَأخذون عَنه، وأَمَّا إِنْ كانَ إنسانًا عاديًّا فلَه رُخصة إمَّا بالتَّأويل أَو بالإِكراه.

المهمُّ: أنَّه جرَت مِحَنٌ عَظِيمة؛ قَالَ شَيْخ الإِسْلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لَا أظنُّ أنَّ اللهَ يُغْفِل المأمونَ عَلَى مَا أَدْخل عَلَى المسلمين مِن كَلام الفَلاسِفة والمَنْطِقيِّين»(١)؛ وذَلِك لأنَّ هَذا الرجُل -وإِنْ كانَ فِيه خَيْرٌ- لَكِنْ أَدْخَلَ عَلَى المسلِمين خَلَلًا فِي عَقائدِهِم وضَلَّ بِهِ أُمة، ومِثل هَذا ضَرَره عَظيمٌ، وحسناتُه مَغمورةٌ فِي جَنْب سيئاتِه، لكنَّنا نَقُول: هَذا الرجُل قَدِم عَلَى ربِّه، واللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَتولَّى حِسابَه.

[١] قَوْله: «**وَأَلْقَاهُ إِلَى جِبْرِيلَ**» فَسمعَهُ جِبريلُ مِن الله عَزَّوَجَلَّ، «**فَنزَلَ به جِبْرِيلُ عَلَى قَلْبِ النَّبِي ﷺ**».

[٢] قَوْله: ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ هَذا دَلِيلٌ علَى أنَّه نَزل من عِنْد الله.

ورُوح القُدُس هُو جِبْرِيل، فوُصِف بأنَّه رُوح لأنَّه يَنْزِل بالوَحْي الذِي بِه حياةُ القُلوب، وأُضيفت الرُّوح إِلَى القُدُس -وهُو النَّزاهَة والطَّهارة- لأنَّ جِبريلَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ

---

(١) ذكره السفاريني في لوامع الأنوار البهية (١/ ٩).

﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ[١] لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ[٢] ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾[٣] [الشعراء:١٩٢-١٩٥].

لَهُ مِن الطَّهارة والنَّزاهة والقُوة والأَمانة مَا استحقَّ أنْ يَكُون هُو السَّفيرَ بَين اللهِ وبَين رُسُله عَليهم الصَّلاة والسَّلام.

[١] قَوْله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ وذكَر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ القلبَ لأَنَّه وِعاءُ الحِفظ، وذلِك أن الإِنْسان إذَا سَمِع شيئًا فإِنَّ هَذا المسموعَ قَد لَا يَتعدَّى الآذانَ، فيَسمعُه بأُذُنه لَكِن لَا يَصِل إِلَى قَلْبه، والسَّماع النَّافع: مَا وَصَل إِلَى القَلْب؛ ولِذلك قالَ تعالَى: ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ لأنَّ القَلْب وِعاء الحِفْظ.

[٢] قَوْله: ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ اللَّام للتَّعليل، وقد كانَ ﷺ بنُزول هَذا القُرْآن مِن المنذِرين.

[٣] قَوْله: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ أَي: بلُغة عَربيَّة، ﴿مُّبِينٍ﴾، أَي: فَصِيح، بَيِّن، واضِحٍ، يَتبيَّن بِه المَعنَى بِدُون خَفاءٍ.

هذِه آياتٌ من القُرْآن الكريم، ومذهب أَهْل السُّنَّة والجَماعَة رَحِمَهُمُ اللَّهُ فِي القُرْآن الكريم أنَّه كَلام الله عَزَّوَجَلَّ، مُنزَّل غير مَخْلوق؛ مِنه بدَأ وإِليه يَعُود، ويَقُولون: مَعنَى «مِنه بدأ»: أَي ابتَدأ، فلَيْس مِن جِبريل، ولَا مِن الهواء، بَل مِن الله عَزَّوَجَلَّ بَدَأ. وقَوْله: «وإِليه يعُود» قالوا: إن لـهَا معنيَيْن:

الأول: أَنَّه يعود إِلَيْه فِي آخر الزمان؛ حيث ينزع من المصاحف والصدور، فإِنَّه لَا تقوم السَّاعة حتَّى ينزع هَذا القُرْآن من المصاحف والصدور، ويبقى النَّاس بِلَا قرآن، ويكون هَذا فِي آخر الزمان إِذَا أعرض النَّاس عَنْهُ.

....

فإنَّ الله تعالَى يحمي هَذا القُرْآن مِن أن يُبتذل، ويَكون بَين أيدِي أُناس لَا يُقيمون لَهُ وَزنًا، كَما أَنَّه -سُبحانه- يُسلط علَى الكَعبة -فِي آخِر الزَّمان- مَن يَهدمها؛ لأنَّ أهلَها -أي أَهْل الكَعبة- لَا يُقيمون لهَا وَزنًا، بَل المَعاصِي والكُفر والشِّرك عندَها، حِينئذٍ يُسلَّط عَلَيْها هَذا الرجُل فيهدِمها، بينَما لم يُسلَّط عَلَيْها صاحِب الفِيل، وعَجز أن يَصِلَ إليها، ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ [الفيل:٣-٥]؛ لأنَّ الله تعالَى يَعلم أن هَذا البيت يُبعث فِيه رَسُول، وسَوف يُعْمر بطاعة الله، أمَّا فِي آخِر الزَّمان، فَلَا عُمران بعدَه؛ ولِذلك يُسلَّط عَلَيْها مَن يَهدمها، حتَّى لَا يَبقى بيتُ الله الحرام عِنْد قومٍ لَا يَعبَؤُونَ بِه، ولَا يَهتمُّون بِه، فنَزْع القُرْآن مِن المصاحِف والصُّدور كهَدْم الكَعْبة، إذَا كانَ النَّاس لَا يَرفعون رأسًا بالقُرآن، ولَا يَرون فِي مُخالفته بأسًا، وصار عندَهم بمَنزلة الأُلْعُوبة، ورُبَّما قالُوا: هَذا أساطيرُ الأوَّلين، ومَا أَشبَه ذلِك، حِينئذٍ يُرفع؛ هَذا مَعنَى قولهم: «وإلَيْه يَعُود».

والمعنى الثَّانِي: وإلَيْه يَعُود وَصْفًا، أيْ: لَا يُوصَف أحَد بأنَّه تكلَّم بالقُرآن سِوَى الله عَزَّوَجَلَّ.

والمعنَيان كلاهُما صَحِيحٌ.

فإن قَالَ قائل: هل يَصحُّ لنَا أن نُعبِّر بأنَّ القُرآن خرَج مِن اللهِ أو أنَّ كلام الله يخرج منه؟

الجَوَاب: لو قِيل: «كَلام الله» فقَط، واقتَصَرْنا عَليه؛ والحَقيقةُ أَنِّي أرَى أن الأَوْلَى بِنَا أَلَّا نتكلم فِي شَيْء لم يتكلَّم فيه السَّلَف؛ فإنَّه أسلَم وأَحسن، ومِنْ ذلِك مَا كُنا

وَنُؤْمِنُ بِأَنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ عَلِيٌّ عَلَى خَلْقِهِ، بِذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ؛ لِقَوْله تَعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾[1] [البقرة:٢٥٥]،...

نقُول فِي مسألة (الحَدِيث القُدسي): هل هُو كَلام الله، أو هُو مَا رواه النَّبِي ﷺ بالمعنَى، فيَنْبغي ألَّا نقُول هكَذا، بَل نقُول: «الحَدِيثُ القُدسِي هو مَا رواه النَّبِي ﷺ عَن ربِّه»، ونَسْكت، لَكِن لَو سُئلنا هل تُلحِقونَه بالقرآن فِي الأحكام؟ لَقُلنا: لَا نُلحِقه بالقُرآن؛ لأَنَّه لَا يُتعبَّد بتِلاوته، ولَا يُشترَط له الطَّهارة، وكلُّ الأحكام التِي تَنْطبق علَى القُرآن لَا تَنْطبق عليه.

فأَنَا أرَى أخيرًا -وهُو الذِي أَدْعُو إليه الآنَ- ألَّا نَتكلَّم فِي مِثل هذِه المسائلِ إلَّا بما قَالَ السَّلَف، لَكِن إذا اضطُرِرْنا لا بُدَّ أن نتكلَّم.

[١] قَوْله: «وَنُؤْمِنُ بِأَنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ عَلِيٌّ عَلَى خَلْقِهِ، بِذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة:٢٥٥] وقَوْله: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام:١٨]».

أَمَّا عُلُوه بالصِّفاتِ فقَد أَطْبقت عَلَيه الأُمَّة سُنيُّها وبِدْعيُّها، قالُوا: بأَنَّ الله عليٌّ بصِفاته، ودليلُ عُلُوه بصِفاتِه قَوْله تعالَى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [النحل:٦٠] فصِفاتُه أعلَى الصِّفاتِ، ولَا يُمْكِن أحدًا أنْ يُماثِلَه فِي الصِّفات، إلَّا أَهْل التَّمْثِيل وهَؤلاءِ كُفَّار، لَا يعدون من أَهْل الملة.

وأمَّا العليُّ بذاتِه فهَذا محل النِّزاع والجِدال بَيْن طوائفِ الأُمة، فأَهْل السُّنَّة والجَماعَة يَقُولون: إنَّه عليٌّ بذاتِه، كَما هُو عليٌّ بصفاتِه.

وأهلُ البِدَع انقسَمُوا فِي ذَلِك إِلَى قسمَيْن:

قِسمٌ قالَ: إنَّه بذاتِه فِي كُل مكانٍ، إنْ كُنْت فِي المسجِد فهُو فِي المسجِد، وإن كُنْت فِي المرحاض فهُو فِي المرحاض -والعياذ بالله- بذاتِه!.

وقسمٌ آخَرُ عَلَى العَكْس مِن ذَلِك قالُوا: لَا يُوصَف بأنَّ الله فَوْقُ ولَا تَحت ولَا متصلٌ عَن العالم ولَا منفصلٌ عَن العالم ولَا داخِل العالم ولَا خارِج العالم. حتَّى قالَ بَعْض العُلَماء: إذا قِيل: صِفِ العدم! لم تَصِفْه بأكثرَ مِن هَذا؛ ولهَذا لـما حضَر مُحمَّد بن فُورَك -وهُو مِن أئمَّة المُتكلِّمين- إلَى محمود بن سُبُكْتِكِين رَحِمَهُ اللَّهُ القائِد المشهور، تَناظر معَه فِي هذِه المسألة، فقال ابن فُورَك: أنا لَا أقول: إن الله فوقٌ، ولَا تَحْت، ولَا يمين، ولَا شمال، فقالَ له: إنَّ ربَّك عَدَمٌ[1]؛ فإذَا لَمْ يَكُن كذَلِك فهُو عَدَم.

فالخلاصة: أَن النَّاس فِي عُلُو الله بذاتِه انقسَمُوا إلَى ثلاثةِ أقسامٍ هِيَ أولًا: أَهْل السُّنة والعَقِيدة يقُولون: إنَّ اللهَ فَوْقَ السماءِ بذاتِه بائنٌ مِن خَلْقه، وقِسْم يقولُ: إنَّ الله فِي كلِّ مكانٍ، وقِسم يقُول: إنَّ الله لَا متَّصل ولَا مُنْفصل، يَعْني لَا يُوصَف الله بعُلُو ولَا نُزُول ولَا شَيْء؛ وهَذه أقسام النَّاس فِي العُلُو الذاتي.

أمَّا العُلُـو المعنَوِي وهُوَ عُلُـو الصِّفات فإنَّهم مُطْبِقـون علَيْه مَا عَدَا المُمثِّلة -الذِين يُمثِّلون اللهَ بخَلْقه، فإنَّهم قَد انتقَصُوا صِفات الخالِق- ونَرَى أنَّهم كُفَّار؛ لأنَّ كلَّ إنسانٍ يقول: إنَّ اللهَ مِثْل الخَلْق هُو مُكذِّب لقَوْل اللهِ تَعالَى لَيْسَ كمِثْله شَيْء وتَكْذيبُ القُرْآنِ كُفْرٌ.

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٣/ ٣٧).

فالمعركَة الدائِرة بَيْن أَهْل التّعطيل وأهل السُّنة الذِين يَقُودُهم الرَّسُول ﷺ والسَّلف الصَّالح هُو العُلُو بذاتِه: هَل الله علي بذاته أم لَا؟

ونَقُول: إنَّ الله عليٌّ بذاته جَلَّوَعَلَا، وقَد دلَّ عَلَى ذَلِك القُرْآن والسُّنة والإِجْماع والعَقل والفِطرة، فأنواعُ الأدلَّة كلُّها دلَّت عَلَى عُلُو الله بذاتِه:

أمَّا الكتاب فَما أكثر مَا يَصِف اللهُ نَفْسَه: بأَنَّه العليُّ، وأَنَّه الأَعْلى، وأَنَّه فَوْقَ عِبادِه، وأنَّ الأشياءَ تَنْزِل مِن عِندِه وتَصْعد إِلَيْه وتُرفع إليه، ومَا أَشْبه ذَلِك، وهَذا يدلُّ دَلالةً قاطعةً عَلَى أنَّ الله تعالَى عالٍ بذاتِه.

أمَّا السُّنة فقَدِ اتَّفقَت بجَمِيع أنواعِ الدَّلالاتِ عَلَى عُلُو اللهِ بذاتِه: القَوْليةُ والفِعْليَّة والإِقْراريَّة.

أمَّا القوليَّة فإنَّ النَّبي ﷺ كانَ يقول فِي سُجُوده: «**سُبْحَانَ رَبِّيَ الأَعْلَى**»[(١)].

وَجْه الدَّلالة: أنَّه وَصَف اللهَ تَعالَى بأَنَّه «الأَعْلى» حِين كانَ الإِنْسان الساجدُ هُو الأَسْفَلَ؛ فأعلَى شَيْء فِي الإِنسان هُو الرأسُ الذِي مِنه الجَبْهة؛ يَضَعُها الساجِدُ عَلَى الأَرْض مُوازِيًا لقَدَمَيْه؛ فِفي هذِه الحالِ التِي وَضَع الإِنْسان نَفْسَه فِي أَسْفَل شَيْء يَتذكَّر الرَّبَّ الأَعْلى الذِي هُو فَوْقَ كلِّ شَيْءٍ، والرَّسُول ﷺ كانَ يقول فِي سُجُوده: «**سُبْحَانَ رَبِّيَ الأَعْلَى**».

أمَّا الفِعْليَّة فإنَّه ﷺ خَطَب النَّاس فِي يَوْم عَرَفة؛ فقالَ: «**أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟**» قالوا:

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل، رقم (٧٧٢)، من حديث حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

نعم. قالَ: «أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟» قالوا: نعم. قالَ: «أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟» قالوا: نعم. قالَ: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ» يَرْفع أَصْبعَه إلى السَّماء ويَنْكُتُها إِلَى النَّاس[١]؛ «اللهُمَّ اشْهَدْ» يَعْني عليهم؛ فيشير إِلَى الله. وهَذِه سُنَّة فِعْلية تدلُّ عَلَى أنَّ الله تَعالَى فَوْقَ كل شَيْءٍ.

فإِنْ قالَ مبتدعٌ: هَذا يُراد بِهِ عُلُو الصِّفة ولَيْس عُلُوَّ الذَّاتِ، ولَا دليلَ عندَكم عَلَى تَعْيِينه أَنَّه عُلُو الذَّاتِ، وأيضًا لـمَّا أشارَ النَّبيُّ ﷺ بأصْبعِه هَل هِيَ إِشارَةُ تَوحيدٍ أَم إِشارَةُ جِهَةٍ؛ لأنَّ الإشارةَ تَقتضِي رؤيةَ الْمُشِير إِلَى المشارِ إِلَيْه، ولم يَرَ اللهَ تَعالَى فِي ذَلِك الوَقْت فكَيْف يُشِير إِلَيْه؟

فالجواب: أَمَّا الأوَّل فنَقُول: مَن قالَ لكُم: إنَّ الْمُراد عُلُو الصِّفة؟! فقَوْله: «سُبْحَانَ رَبِّيَ الأَعْلَى» مُطْلق، ويُناسِب نُزُولَ الإِنْسانِ الحسيَّ العُلُوُّ الحسيُّ، وأَمَّا إِشارَة التَّوحِيد، فهَل قَالَ: «لَا إله إِلَّا الله» حتَّى يوحِّد؟! بَل قَالَ: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ».

وأَمَّا كَوْن الْمُشَار إِلَيْه لَا يُشار إِلَيْه إِلَّا إِذَا رُئِي فهَذا غيرُ صَحِيحٍ، فاللهُ تَعالَى يُشِير للقُرآن بذَلِك كَثيرًا، ويُشير لجَزاءِ الْمُؤمنين بذَلِك كثيرًا، ويُشير إِلَى أشياءَ كثيرةٍ إِنَّما تُفهَم وهِيَ لَا تُرى.

أَمَّا الإِقْرارِيَّة؛ فإِنَّ جارِيَةَ مُعاوِيَة بنِ حَكَم سأَلَـها النَّبي ﷺ: «أَيْنَ اللهُ؟» قالت: فِي السماء، قالَ: «أَعْتِقْهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ»[٢] فأقرَّها عَلَى قولـها فِي السماء وقال: «أَعْتِقْهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ» وهَذِه سُنَّة إقراريَّة.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ، رقم (١٢١٨)، من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب المساجد، باب تحريم الكلام في الصلاة، رقم (٥٣٧)، من حديث معاوية ابن الحكم السلمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

....

هذِه دَلالةُ الكِتابِ والسُّنة عَلَى عُلُو الله تعالى.

أمَّا دَلالةُ الإجْماع فما أحَدٌ مِنَ السَّلَف -الصَّحابة والتَّابعين وأئمَّة الأُمة بعدَهم- مَا قالَ مِنْهم أحَدٌ: إنَّ الله تَعالَى لَيْسَ فِي السَّماء أبدًا؛ وكونُهم يَقْرَؤُون هذِه النُّصوص ولَا يُعارِضُونها ولَا يُفسِّرونَها بما يُنافيها يدلُّ عَلَى أنَّهم قالُوا بِهَا، وأنَّ هذِه عَقيدتُهم فيَكُون فِي هَذا إجماعٌ مِن السَّلف عَلَى أنَّ الله تَعالَى عالٍ بذاتِه.

وطَريقُ إثباتِ الإجماع بهَذا الوَجْه يُعتبر مِن أَحْسن مَا يكُون.

فلَو قالَ قَائِل: أَرُونَا حرفًا واحدًا عَن الصَّحابة والتَّابعين أنَّهم أثبتُوا عُلُو الله بذاته!.

نَقُول: لَا حاجة إلَى النَّقل، فهُم يقرؤون القُرْآن ويَسمعون السُّنة، ولا أحدَ مِنْهم قالَ: إن الله لَيْسَ فَوْقَ سمَواتِه، وهَذا كما قالَ شَيْخ الإِسْلام ابن تيميَّة(١): كُلُّ آثارِ السَّلف مَا فِيها أثَرٌ واحدٌ عَن السَّلف يقُول: إنَّ اللهَ لَيْسَ فَوْقَ السَّماءِ، وحينئذٍ يكُونُونَ مُجْمِعِينَ عَلَى مُقتضَى هذِه الأدلَّة، وهُوَ أنَّ اللهَ بذاتِه فِي السَّماء.

أمَّا العَقْل فيُقال: ماذَا تَقُول أيُّها المنكِر لعُلُو الله: هَل العُلُو صِفَة كَمال أَو صِفَة نَقْص؟ سيَقُول: صِفَة كَمال، فكلٌّ يَعرِف أنَّ العُلُو صِفَة كَمال، فإذَا كانَ صِفَة كَمال، فهَل الرَّبُّ مَوصوفٌ بالكَمال؟ سيقُول: نَعَم. ففِي الأَصْل هُو لم يُنكر عُلو الله بذاتِه إلَّا طَلبًا للكَمال كَما يَدَّعِي.

إذَنْ: ثَبت لَهُ صِفات العُلُو لأنَّ العُلُوَّ صِفَةُ كَمالٍ بإجماعِ العُقَلاء.

---

(١) مجموع الفتاوى (٦/ ٥٧٨).

أَمَّا الفِطرةُ فتَجِد العَجُوز التِي لم تَدْرس العَقِيدةَ الوَاسطيَّة ولَا عَقيدةَ الطَّحاوِي ولَا الإبانةَ ولَا غيرَها إذَا دَعَت ربَّها عَزَّوَجَلَّ؛ تَقُول: يَا رَبِّ! وتُشير إِلَى فَوْقُ، وهَذا دليلٌ فِطريٌّ لَا يَحتاج إِلَى تَدْريس ولَا إِلَى تَعْليم.

ولهَذا لـما كانَ أَبُو المَعَالِي الجُوَيْنِيُّ -عفَا الله عنَّا وعَنْه- يُقرِّر أَنَّ الله لم يَسْتوِ عَلَى العَرْش، فأنكر استواء الله على العرش لأَنَّه من الأشعرية -ولكنَّه إن شَاء الله رجَعَ-؛ قالَ لَهُ أبو جَعفر الهمَذاني: يَا أستاذُ! دَعنا مِن ذِكر العَرش والاستِواء عَلَى العَرش، مَا تَقُول فِي هذِه الفِطرة: مَا قالَ عارِفٌ قَط: «يَا اللهُ» إِلَّا وجَد مِن قَلبه ضرورةً بطَلَب العُلُو -عارفٌ يَعْني عابدٌ- فجَعَل يَضْرب عَلَى رأسِه ويقولُ: حيَّرني الهمَذاني! حيَّرني الهمَذاني![1] ومَعْناها: لَيس عِندي جوابٌ عَلَى هَذا، فكلُّ إنسانٍ يقول: «يَا الله» حتَّى الذِي يُنكر عُلوَّ الله يتَّجه قَلبه إِلَى السماءِ.

وفِي مرَّةٍ مِنَ المَرَّات كُنَّا يَوْمَ العيد -في مِنى- فجاءَنا طائفةٌ مِن الإخوانِ -ولَا أحبُّ أن أَذْكر نِسبتهم- وجاؤوا -وهُم طلبة علم- وكُنْت لَا أعرفُ لُغتهم، فجاءني بَعْض الإِخوة مِن السُّعوديين، وقال: إنَّ الإخوانَ حضَروا وأحبُّ أن تَتكلَّم فِي شَيْء مِن العقيدةِ لَا سيما فِي العُلُو؛ قلتُ: خَيْرًا إن شَاءَ اللهُ، فحضَرنا وتكلَّمنا بأشياءَ لَيست مِنَ العَقِيدة تَأنِيسًا لَـهُم وتأليفًا لـهم؛ لأَنَّك لو باشَرْتَهم بالكَلام فِي العَقِيدة لَنفَروا، وقالُوا: هَذا جَاءَ يُصحِّح عَقِيدتَنا؟!.

فكلَّمْناهم بما تَيسَّر، ثُمَّ انتقَلْنا إِلَى ذِكْر العُلُو، وبدَأْتُ أقولُ لـهم -مِثلَما قُلت

---

(١) انظر: منهاج السنة النبوية لابن تيمية (٢/ ٦٤٢-٦٤٣)، وسير أعلام النبلاء (١٨/ ٤٧٥).

....

لكُم-: إنَّ العُلُـو دلَّ علَيْه الكتابُ والسُّنة والإِجْمـاع والعقْـل والفِطْـرة؛ فبَدؤُوا يَتراطَنُون وبَعْضهم وقَف، فقَلت فِي نَفْسي: هل وقَفوا إِجلالًا وإعظامًا لهذا المعنى، أَم يُريدون أن يَقْتلوني؟! فَلَا أَدْري! المهمُّ: قامُوا يَتراطَنُون جدًّا، ويَردُّ بَعْضهم عَلَى بَعْض، فأَمْسكت مِنَ الكَلام أَخْشَى مِنَ الفِتْنة وهدَّأْتُهم، وقُلت: المَقصُود الوُصولُ إلى الحَقِّ وهكَذا، فقُلت لهُم: بالأمسِ كُنتم بعَرَفةَ تَدْعُون الله عَزَّوَجَلَّ فكَيْف تَرفعون أَيدِيَكم عِنْدَ الدُّعاء؟ قالوا نَقُول هكَذَا؛ بِرَفْع أَيدِيهم إلى السَّماء، فقُلت: تُوجهون الخِطابَ لمن؟ قالُوا: لله، فقُلت: كَيْف «لله»؟ تُوجِّهون الخِطاب إِلَى مَن لَيْسَ الله فِيه؟! قالُوا: لأنَّ السَّماء قِبْلةُ الدَّاعِي، فقُلتُ: إِذَا كَانَت السماءُ قِبلةَ الدَّاعِي فَلَا بُدَّ أَنْ يَستقبِل القِبلةَ بجَمِيع بدَنِه؛ وعَلَى هَذا فَلَا تَدْعُوا اللهَ إِلَّا وأَنْتم عَلَى ظُهُوركم مُسْتَلْقِينَ عَلَى ظُهُوركم حتَّى يَكُون البَدَن كُلَّه مُوجَّهًا إلى القِبلة! وهَذا كَلامٌ سَخِيفٌ -نَسأَلُ اللهَ العافيةَ- لَكِنْ مَن لم يَجعَلِ اللهُ لَهُ نورًا فَما لَهُ مِن نُورٍ، واللهِ ولَو تُرِك هَؤلاءِ وفطرتَهم مَا ضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبيل فِي مَسْألةِ العُلُو أبدًا.

وعَلى كُلِّ حَالٍ: هذِه أدلَّةٌ خَمسةٌ عَلَى عُلُو اللهِ بذَاتِه فَوْقَ سمَواتِه[1]، ولَا بأسَ بهَذا البَسْط فِي هَذا الأَمْر فرُبَّما تَجِدُون مَن يُجادِلُكُم.

وإِنَّهم يُورِدُونَ عَلَى هَذا إِشكالًا:

أولًا: يَقُولون: إنَّكم إذَا قَرَّرْتُم ذلِك فقَد خالَفْتُم القُرْآن، قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ﴾ [الملك:١٦]، وقالَ تعالَى: ﴿أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗا﴾ [الملك:١٧]، وقـالَ تعالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي فِي ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٞ

---

(١) انظر (ص:٧٧).

....

وَفِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَٰهٞ﴾ [الزخرف:٨٤]، وقالَ تعالَى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأنعام:٣]، فهذِه أربعُ آياتٍ، كلُّها تدلُّ علَى عَدَم العُلُو. وقالُوا: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ إنْ قُلتم: إنَّ «في» تُفيد الظَّرفية فقَد حصَرتم الله فِي السَّماءِ؛ لأنَّ الظَّرْف أَكْبر مِن المَظْروف، فتكُون السَّماءُ محيطةً بِه، وأَنْتم لَا تَقُولون بأَنَّ السَّماءَ تُحِيط بِه، فإمَّا أن تَقُولوا: إنَّ السَّماءَ محيطةٌ بِهِ وهُو فِيها، وإمَّا أنْ تُنكرُوا أنْ يَكُون فِي السَّماء.

ونَقُول: الجَوَاب عَن هَذا بأحَدِ وَجْهَيْنِ:

الأوَّل: إمَّا أنْ يَكُون قَوْله: ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ بمَعْنى علَى السَّماء، و(فِي) تَأتي بمَعْنى (على) كَما فِي قَوْله تعالَى: ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأنعام:١١]، أَي علَى الأَرْض، إذ لَيْس مَعْناه أن الإِنْسان يَحفر خنادقَ فِي الأَرْض ويَمْشي فِيها.

وقَوْله تعالَى: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ﴾ [طه:٧١]، أيْ: علَيها، فإِذَا جعلت (فِي) بمَعْنى (على) زالَ الإشكالُ، فيكون اللهُ تعالى فَوْقَ السَّماءِ لَا فِي جَوْفِها.

الثَّاني: أنَّ المُراد بالسَّماء العُلُو؛ لأنَّ فِي اللُّغة العَرَبيَّة: كُل مَا علاكَ فهُو سماءٌ، حتَّى سَقْف البِناء، يقال لَهُ: سَماءٌ؛ بالنِّسْبة لنَا، فيكُون مَعنَى ﴿مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ أَي مَن فِي العُلُو.

فإذا قَالَ قَائِل: أَرُونا شاهِدًا علَى أن السَّماء بمَعْنى العُلُو؟ قُلْنا: قَالَ الله تَعالَى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا﴾ [الرعد:١٧]، والماءُ نازلٌ مِنَ السَّحابِ، والسَّحابُ مُسخَّرٌ بَيْن السَّماء والأَرْض، كَما قالَ تعالَى: ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [البقرة:١٦٤].

فتبيَّن أنَّ السَّماء فِي الآية الأُولى ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ [الرعد:١٧]، بمَعْنى العُلُو، وعَلَى هَذا فنَقُول ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ أيْ: من فِي العُلُو المطلَق الذِي لَا يَكُون معه أحد، فهُو «الظاهر الذِي لَيس فوقه شَيْء».

وأمَّا قَوْله تعالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف:٨٤] فمِن المعلومِ أنَّ الشَّخص الواحِدَ لَا يَكُون فِي مكانَيْن فِي آنٍ واحِدٍ، فهَذا مُستحيلٌ، لَكِن مَعْنى قَوْله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ﴾ هُو كقولك: (فلانٌ أميرٌ فِي مكَّةَ، وأميرٌ فِي المدينةِ) يَعْني: أنَّ إِمْرتَه فِي هَذه وفِي هذه، وأمَّا مكانُه ففِي واحدةٍ مِنهما، إمَّا فِي مكَّة، وإمَّا المَدِينة. والآيةُ كَذلِك، يَعْني هُو إلَهُ مَنْ فِي السَّماء، وإلَهُ مَنْ فِي الأَرْض؛ ولِذَلك قالَ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ﴾ فلَمْ يَقُل: «فِي السَّماء» فقَط، ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ ولَمْ يَقُل: «فِي الأَرْض» فَقَط.

وأمَّا قَوْله تعالَى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ [الأنعام:٣]، فنَقُول: الجَواب فِيها مِن وَجهَيْن:

الأوَّل: إمَّا أن نَجعل (الله) مُتعلِّقًا بِما فِي السَّموات والأرض، فتكُون كقولِه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف:٨٤] أيْ: أنَّه مَأْلُوهٌ فِي السَّموات، ومَأْلُوهٌ فِي الأرض. وعلَى هَذا يَكُون الجارُّ والمَجْرُور والمَعْطُوف مُتعلِّقًا بلفظِ الجَلالة.

الثَّاني: أن نَقُول: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، ونَقِف، ثُمَّ نَستأنِف ونَقُول: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾، ويكُون قَوْله: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ﴾ مُتعلقًا بقَوْله: ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾، ويكونُ جَلالُ الآيةِ وعَظَمتُها: أنَّه مَع كَوْنه فِي السَّموات فإنَّه يَعْلم سِرَّكم

....

وجَهْرَكم فِي الأَرْض، فلَيْس عُلُوُّه فِي السَّموات بمانِعٍ مِن عِلمه بسِرِّكُم وجَهرِكُم فِي الأرض.

وبهذا تَلْتَئِمُ الأدلَّة، ويَبقى العُلُو الذاتي ثابتًا بخمسةِ أدلَّة؛ جِنسًا لَا فَردًا؛ لأنَّ دلالةَ القُرْآن والسُّنة لَا تُحصى.

وقَد خالَف فِي العُلُو الذاتي لله تعالَى طائفتانِ:

الطَّائفة الأُولى: قالُوا: إنَّه فِي كلِّ مكانٍ بذاتِه -والعِياذُ بالله-؛ فهُو فِي المسجد، وفِي السُّوق، وفِي البَرِّ، وفِي البَحر، وفِي الجو، وفِي الأماكِن المُحترمة، وفِي الأماكن القَذِرة، وفِي كلِّ مكانٍ. وهَل هُو يَتجزَّأ أَو مُتعدِّد؟!! لأَنَّه يلزم -علَى قولهم- إمَّا أن يَكُون متجزئًا بَعْضه هنا وبَعْضه هنا، أَو متعددًا، أَو يَكُون مُتمزِّقًا فِي الواقع! فإذَا قُلْنا: هُو فِي المسجد، وفِي السُّوق، وبينَنا وبَين السوق جُدران، فمَعْناه أَنَّها مزَّقته، أَو نَقُول: إنَّه حَالٌّ فِي الجِدار أيضًا وفِي الطِّين، واللَّبِن، والحَديد، ومَا أَشبَه ذلِك.

لِـهَذا؛ فالقَول بأَنَّه «في كُلِّ مكانٍ» مقدمةٌ للقَول بأَنَّه حالٌّ فِي كلِّ شَيْءٍ.

ولهذا قَالَ ابن القَيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ -عَن هَذا القَول- إنَّه أَخْبث مِن قَول النَّصارَى[1]، فالنَّصارى خَصُّوا الحُلول بعِيسى ابن مَرْيَم، فلَم يجعلوه فِي كُل مكانٍ، ثمَّ خَصُّوه بمكانٍ طاهِر، مِن أولي العَزم، وهَؤلاءِ قالُوا: إنَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فِي كُل مكانٍ، وفِي كُل شَيْء! فيكُون حُلول هَؤلاءِ أَخْبث مِن حُلول النَّصارَى؛ لأَنَّهم لم يُنزِّهوه عَن أَي

(١) انظر: مدارج السالكين (٣/ ٤٧٥).

شَيْء، ولـم يخصُّوه بالطاهِر؛ فأقولُ: إنَّ هَؤلاءِ القَوم يقُولون: إنَّ الله بذاتِه فِي كُل مكانٍ.

فإنْ قالَ قَائِل: إنَّ الله عَزَّوَجَلَّ فِي كُل مكانٍ فِي السَّماء فَما الجَواب عَن ذَلِك؟

قُلْنا: لَيْسَ مَعنَى «في السَّماء» فِي نَفْس السَّمَوات السَّبْع، أبدًا؛ بَل هُو فوقَها، وقد قُلْنا: إنَّ «في السماء» بمَعْنى: عَلَى السَّماء أَو «في السَّماء»: فِي العُلُو، والعُلُو لَيْسَ هُو السَّمَوات الأَجْرام، وإلَّا فمَعْلومٌ أنَّه لَا يَجوز أنْ نَعتقدَ أنَّ اللهَ تُحيط بِه السماء، بَل وهُوَ عَلَى العَرش لَا يَجوز أنْ نَعتقِدَ بأَنَّه مُفتقِر للعَرش، بحيثُ لو زالَ العَرش لسَقط، كَما لو زالَ الكُرسي مِن تَحت الإِنْسان لسقَط.

الطَّائفة الثَّانية: قالُوا: لَا يَجوز أنْ تَصفَ اللهَ بأَنَّه فِي أَيِّ مكانٍ إطلاقًا، فَلَا تقُل: فِي السَّماء ولَا فِي الأرض، ولَا مُتصل بالعالم ولَا مُنفصل عنه، ولَا مجانِب ولَا محايِث، ولَا يَمين ولَا شمال، ولَا فَوْقُ ولَا تَحت، ولَا تَصفه بأيِّ وَصْف من هذا، فلهذا جَعَلوا الله تعالَى عدمًا! حتَّى قَالَ بَعْض العُلَماء: لَو قَالَ لك قَائِل: صِف لي العَدَم، مَا وَجَدْتَ أَشْملَ ولَا أشدَّ إحاطةً للعَدَم مِن هَذا الوَصْف.

فالحَمْد لله الذِي هَدانا، فنحنُ نُؤْمِن بأنَّ الله تعالَى فوقَنا معنًى وذاتًا.

فإن قَالَ قَائِل: تَنَطَّعْتُم حِين قُلتم: «إنَّ اللهَ عليٌّ بذاتِه»؛ فقَوْلكم «بذاتِه»، هَذا تَنطُّع، وقد قَالَ النَّبي ﷺ: «**هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ**»(١)؟

(١) أخرجه مسلم: كتاب العلم، باب هلك المتنطعون، رقم (٢٦٧٠)، من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

....

فقُلنا: إنَّنا لم نَتنطَّع، ولكنَّا أَردنا أنْ نَدفَع قولَ سُوءٍ، وهُم الذِين يَقُولون: إنَّ الله لَيْس عَلِيًّا بذاتِه، فنَقُول: بَل هُو عليٌّ بذاتِه، ولَوْلَا أنَّهم أَحْوَجُونا إلَى هَذا القَول مَا قُلناه، ولَاقْتَصَرْنَا علَى قِراءة القُرْآن والحَدِيث، ولم نَزِدْ حَرْفًا واحدًا، ولَكِن ماذا نَعمل فِي دَفْع هَذا العُدْوان علَى الشَّريعة، وعَلَى الخالِق عَزَّوَجَلَّ!؟

فنَحنُ نَقُول: «بِذاتِه» ضَرورةً، كَما قَالَ بَعْض السَّلَف فِي ﴿ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ [الأعراف:٥٤]؛ قَالَ: «استوى بذاته»، وبَعْضهم أَنْكر هذا، وقال: لماذا تَقُولون: «بذاته»!؟ فنَقُول لهم: نحنُ لم نَقُل «بذاتِه» تنطُّعًا، إنَّما قُلْنا «بذاته» ردًّا علَى من يَقُول: «استوى استواءً معنويًّا لَا ذاتيًّا»، وأن مَعْناه المُلك والقَهْر والاستِيلاء.

وكَذلِك النُّزول إلَى السَّماء الدُّنْيا بَعْض العُلَماء قَالَ «يَنزِل بذاته»، فقال آخرون: هَذا تنطع، لماذا تَقُولون «بذاته»، والرسول ﷺ لَمْ يَقُل «ينزل بذاته»!؟ قُلْنا: نعم الرَّسُول ﷺ لَمْ يَقُل «ينزل بذاته»؛ لأنَّه يخاطب قومًا يَفْهمون أن الفِعْل إذَا أُضيف إلَى الفاعل فهُو مُضاف إلَى ذاتِ الفاعِل.

فالصَّحابة لـما قَالَ لهم رسُول الله ﷺ: «**يَنْزِلُ رَبُّنَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا**»[1] فَهِمُوا أنَّ اللهَ هُو الذِي يَنزل، فلَم يَحْتَج إلَى أن يَقُول: «بذاته»، لَكِن لـمَّا جاءَنا قومٌ يَقُولون: إنَّ نُزُولَه مَعنويٌّ ولَيْس ذاتيًّا، أَو إنَّ نُزُولَه يَتعلَّق بغيره لَا بذاتِه، اضطُرِرْنا إلَى أنْ نَقُول بذاتِه؛ دَفْعًا لهذا القولِ الجائرِ، ولَيْس تَعَنُّتًا.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التهجد، باب الدعاء والصلاة من آخر الليل، رقم (١١٤٥)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل والإجابة فيه، رقم (٧٥٨)، من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

وَقَوله: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ[١] وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾[٢] [الأنعام:١٨].

وقد قَالَ الشاعِرُ الحَكِيم(١):

الْبَسْ لِكُلِّ حَالَةٍ لَبُوسَهَا

فكُل إنسانٍ نُخاطِبُه بِما يَعْرِفُ.

المهمُّ: أَنَّه قَد تَبيَّن أنَّ اللهَ عالٍ بذاتِه وصِفاتِه علَى جَمِيع الخَلْق، والأدلَّة كَثيرةٌ، وقد ذكَرنا مُجملَها، وأنَّها تَنقسم إلَى خَمسةِ أنواعٍ، لَا خَمسة آحادٍ، وهِي القُرْآن، والسُّنة، والإِجْماع، والعَقْل، والفِطْرة.

قَوْله تعالَى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ﴾ فالعليُّ صِفَة مُشَبَّهة، والصِّفَة المُشَبَّهَة تدلُّ علَى الثُّبُوت والاستِمْرار، فهُو العَليُّ عُلُوًّا لازِمًا ذاتِيًّا؛ ولهَذا كانَ عُلُوُّه علَى جَمِيع الخَلق مِن صِفاتِه الذاتيَّة اللازِمة، حتَّى لو قُلْنا: إنَّه يَنْزل إلَى السَّماء الدُّنْيا؛ فإنَّ ذلِك لَا يُنافِي عُلُوَّه؛ لأنَّ الله لَيْس كمِثْله شَيْء فِي جَمِيع صِفاتِه.

قَوْله: ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾ يَعْني ذَا العَظَمة، التِي لَا أعظمَ مِنها، فهُو لَا أَعْظم مِنه فِي سُلطانه، ومُلكه، وقَهره، وغَير ذَلِك.

[١] قَوْله: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ القاهِر أَي الغالِب، ﴿فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ وهِي فَوقيَّة مَعنويَّة ذاتيَّة.

[٢] قَوْله: ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ فالحَكِيم ذُو الحُكْمِ والحِكْمَة، وأمَّا قولُنا: «ذُو الحُكْمِ» فمَعْناه: أنَّ الله لَهُ الحُكْمُ، كَما قالَ تعالَى: ﴿لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص:٨٨].

---

(١) البيت لبَهْيَس الفزاري، انظر: أمثال العرب (ص:١١١) للمفضل الضبي، ونهاية الأرب (٣/ ١٢).

....

وحُكم الله نَوعانِ: كَونيٌّ، وشرعيٌّ[1]:

ومِثال الكَوْني قَول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عَن أخِي يُوسُف: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِي ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [يوسف:٨٠] ﴿يَحْكُمَ﴾ فهُنا حُكم كَوْني، أَي يُقَدِّر لي ذَلِك.

وأمَّا الحُكم الشَّرعي فمِثل قَوْله تَعالَى فِي سورة الممتحَنة: ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الممتحنة:١٠] أي حُكمُه الشَّرعي، وقوله: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ شَرْعًا ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا﴾ شرعًا.

أمَّا قَوْله تَعالَى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [التين:٨] فشرعًا وكونًا.

وعلى كلِّ حَالٍ: الحُكمُ كَوني وشَرْعي.

وأمَّا الحِكْمة فتكُون فِي الكَوْني وتكُون فِي الحُكم الشَّرعي، فَما مِن حُكم يَحْكم الله بِهِ إلَّا وهُوَ مُطابِق للحِكمة تمامًا، سَوَاءٌ كانَ هَذا الحُكم كونيًّا أَو كانَ شرعيًّا.

ومَا هِيَ الحِكْمة؟ الحِكْمة وَضْع الشَّيْء مَوضعَه اللائِق بِهِ، بحيثُ لَا يقُول العَقل: لَيتَه لم يُوضَع هُنا؛ هذِه هِيَ الحِكْمة؛ أي: وَضْع الشَّيْء فِي مَوْضِعه.

ثُم اعْلَم أنَّ الحِكْمة نوعانِ:

النَّوع الأَوَّل: حِكْمة كَوْن الشَّيْء عَلَى هَذا الوَجْه.

---

(١) انظر (ص:١٠٥).

....

النوع الثَّاني: الغايةَ مِن هَذا الشَّيْء.

فـ«كَون الشَّيْء عَلَى هَذا الوَجْه» يَعْني صورة الشَّيْء؛ فمَعناه: لماذا كانَ الآدميُّ قائمًا عَلَى قدمَيْه ورأسُه فَوْقُ وكَانَت البهائِم بالعَكس، ولماذا كانَ الليلُ مُظلمًا والنَّهارُ مُبصِرًا، وهَلُمَّ جَرًّا! وهُوَ مُوافقٌ تمامًا للحِكمة.

ثُم «الغايَةُ مِن ذَلِك»؛ أَي الثَّمرة، وأَضْرب مثلًا بالصَّلاة كَوْنها عَلَى هَذا الوَجْه حِكْمة؛ فقِيام ثُمَّ رُكوع ثُمَّ خُرور للسُّجود هذِه حِكْمة؛ فينْتَصِب الإِنْسان أولًا ثُمَّ يَكُون بَين القُعود والانتِصاب فِي الرُّكوع ، ثُمَّ يَسْجد ، ولماذا كَانَت تُقطع عَلَى وِتْر؟ لأنَّ الله تَعالَى وِتر، ثُمَّ مَا الغايةُ مِن هذِه الصَّلاة؟ تَكفيرُ الخَطايا.

وتَقسيمُنا للحِكْمة إِلَى غائيَّـةٍ وصُوريَّة لأنَّ الثَّمَرات قَـد تَحْصـل بغَيْر هـذِه الصُّورة، لَكِن كَوْن الله جَعَل هذِه الثَّمرة المعيَّنة بهذِه الصُّورة المُعيَّنة فهذِه حِكْمةٌ، والدَّلِيلُ هُو الواقِع، فمِن حِكْمةِ الله فِي كَون الشَّيْء عَلَى هَذا الوَجْه حِكْمة، وكَون ثَمَراتِه حِكْمة أُخرى، والفائِدَة: لِأَجْل أنْ نَعرِفَ أَنَّ حِكْمة اللهِ واسعةٌ، ولَيْسَ أَنْ تَحْصُلَ الغايةُ عَلَى أَي صِفَة كَانَت، بَل عَلَى صِفَةٍ مَربوطةٍ مُناسبة، وانظُر الآنَ إِلَى الوُضوء مُكفِّر للخَطايا، لَكِن تَكفِيره للخَطايا فِي حَال السَّبرات أشدُّ وأَكْثر؛ إِذَنْ: فهُو التَّناسُب.

إِذَنْ: فالحِكْمة لها مُتعلَّقانِ، المتعلَّق الأوَّل: كون الشَّيْء عَلَى هَذا الوَجْه؛ والثَّاني: الغايَةُ مِنهُ.

وانظُر إِلَى المَطَر الآنَ يَرْوِي الأَرْضَ فكَونُه يَأتي مِن فَوْق وكَوْنه يَأتي رَذاذًا هَذا

حِكْمةٌ، ولو كانَ يأتي عَلَى الأَرْض ماشيًا لم يَستفِد أعلَى الجِبال مِنه، ولَو كانَ يُصَبُّ صَبًّا كأَفْوَاهِ القِرَب لتَهدَّم البِناءُ وتَضرَّر النَّاسُ لكنَّه جَاءَ رَذاذًا ومِن فَوق لكي يَشْمَل كُلَّ الأَرْض، وجَاء رذاذًا لِئلَّا يَضُرَّ.

ثُمَّ الغايةُ مِن إِنْزال المَطَر غايـةٌ عَظِيمة لَيْسَ الإِنْبات فَقَـط، بَل والشُّرب: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ﴾ [الواقعة:٦٨-٦٩] فنبَات الأَرْضِ والشُّرب؛ وزَوال الغُبْرة.. إِلَى غَير ذَلِك مِن الفَوائِدِ الكَبِيرة.

إِذن: «الحَكِيم» مُشتقٌّ مِن الحُكـم والحِكمة، والحُكـم إمَّا كَـوْني أَو شَرْعـي، والحِكْمة إمَّا فِي الغاية أَو فِي الصُّورة؛ ففِي الغايَة الثَّمرات، وفِي الصُّورة كَون الشَّيْء عَلَى هَذا الوَجْه؛ هَذا هُو مَعنَى «الحَكِيم».

فائِدَة: قُلْنا: إنَّ اللهَ لَا يَفْعل إلَّا لِحِكْمة وغايةٍ؛ فهَل تَرْجع للخَالق أَو المَخْلُوق؟

الجوابُ: تَرْجع للمَخْلوق والخالِق؛ أمَّا رُجوعُها للمَخْلوق فلِكَوْنها مِن مَصْلحتِه، وأمَّا رُجوعُها للخالِقِ فلِبيانِ كَمال صِفتِه وأنَّه تعالَى لَا يَفْعل شيئًا عَبَثًا، كَما قالَ تَعالَى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ [الدخان:٣٨] وفِي آيةٍ أُخرى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الحجر:٨٥] وفِي آيةٍ ثالثةٍ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا﴾ [ص:٢٧]، فالحِكمة تعُود عَلَى الخَالِق والمَخلوق.

وقَوْله تعالَى: ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾: يَعْني العليم، لَكِنِ «الخَبِيرُ» أَخَصُّ مِنَ «العَلِيم»؛ لكَوْنها تَتعلَّق ببَواطِن الأُمُور وخَفايَاها، فهِيَ أخصُّ مِنَ العِلْم.

وَنُؤْمِنُ بِأَنَّهُ: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾[١] [يونس:٣]،..

[١] لـمَّا ذكَر المؤلِّفُ آياتِ العُلُو العامِّ ذكَر العُلُوَّ الخاصَّ.

فالعُلو العامُّ مِنَ الصِّفات الذاتيَّة التِي لم يَزَل الله ولَا يَزال مُتصفًا بِهَا، والعُلُو الخاصُّ هُو الاستِواءُ علَى العَرشِ، دليلُه قَوْله: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ [يونس:٣].

قَوْله: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أوَّلها الأحَد وآخِرُها الجُمُعة، وهِي هذِه الأيامُ المعرُوفَة.

فإنْ قَالَ قَائِل: كَيْف تكُون بهذِه الأيَّامِ المَعْروفة، وهَذِه الأيَّام المعروفة مُترتِّبة علَى الشَّمس، وحِين خَلق السَّموات والأَرْض لَيْس هُناكَ شَمس؟

قُلْنا: إنَّه بالتَّقدير؛ لأنَّ الله خَلق الأَرْض فِي يومَين سابقَين علَى خَلق السَّموات، وهذانِ اليومانِ لَيْس فِيهما شَمس، فيُقال: إنَّ هَذا بالتَّقدير، أيْ: بمِقدار سِتةِ أيَّامٍ، ثمَّ استَوى علَى العَرش.

قَوْله: ﴿ثُمَّ﴾ أَي بَعْد خَلق السَّموات والأَرْض استَوى علَى العَرش؛ فهَل هُو قَبل ذَلِك مُستوٍ علَى العَرش أَو لَا؟ والجَوَاب: إنْ قُلْنا «لَا» أَخطأنا، وإن قُلْنا «نعَم» أَخْطأنا؛ لأنَّ الله أَخبرنا أنَّه بَعْد خَلْق السَّموات والأَرْض استوى علَى العَرش، وسكَت عمَّا قَبل ذَلِك، فالواجِب علَيْنا السُّكوت. ونَقُول: اللهُ أَعْلم.

مَسْألةٌ: مَا صحَّة قَول بَعْضهم: إنَّ الحِكْمة مِن خَلق السَّموات والأَرْض فِي ستَّة أيامٍ أنه تعالى يُعلِّمَ عبادَه المؤمنِين التدرُّج فِي الأَحْكام؟

الجَوَاب: رُبَّما تكُون هذِه مِن الحِكْمة، فالإِنْسان قَد يَستنبِط الحِكْمَةَ بما يَظهر؛ لأنَّ الله قادرٌ عَلَى أن يَخلُقَها بلحظةٍ بكلمةٍ واحِدة؛ قَالَ العُلَماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ: إنَّ الله عَلَّم عِبادَهُ التَّأَنِّيَ والإِحْكامَ، وأنَّ الإِحْكام أهمُّ مِنَ العَجَلة، وقالَ الطَّبائِعيُّون: إنَّ هذِه المَخْلوقات لهَا أسبابٌ تَنشأ كَما يَنشأ الحَمْل فِي البَطْن، وهَذِه الأَسْباب تَفاعَلت حتَّى تكوَّنت سماءً وأرضًا، وهَذِه المدَّة تحتاج إلَى طول؛ ولهَذا يُفسر الطَّبائِعيُّون «الأيامَ» بغَيْرِ أيامِنا هذِه، فيَقُولون: هِي أيامٌ طويلةٌ إمَّا خمسونَ ألف سنة، أَو غيرها؛ لأنَّهم يَرون هَذا التدرُّج بِناءً علَى التفاعُل وترتُّب المسبَّبات علَى أسبابِها.

أمَّا نحنُ فنَقُول: إنَّ الله لَو شَاء لخَلَقها بلَحْظة، كَما أنَّ الجَنِين فِي البَطْن لَو شَاء الله لخَلَقه بلَحْظة، وخَرَج بلَحْظة، لَكِنَّ اللهَ قدَّره حسَب النُّمُو وتَتابُع الأسبابِ.

وقَوْله: ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ أيْ: علَا علَيْه، واعْلَم أنَّ: ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾ تأتِي فِي اللُّغة العَرَبيَّة علَى أوجهٍ:

الوَجْه الأوَّل: مُطلقة، **الوَجْه الثَّاني**: مُقيَّدة بـ(على)، **الوَجْه الثَّالِث**: مُقيَّدة بـ(إلَى)، **الوَجْه الرابع**: مَقرُونة بالواو.

فإذا جاءَت مُطْلقة صار مَعْناها الكَمال، ومِنها قَوْله تعالَى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ [القصص:١٤]، أيْ: كَمل فِي خِلقته وعَقله.

والمقيَّدة بـ(على) تكُون بمَعْنى العُلُو، ومِنه قَوْله تعالَى: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ﴾ [المؤمنون:٢٨]. أَي علوت، وقَوْله تعالَى: ﴿لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ [الزخرف:١٣] أَي علوتم علَيْه.

....

والمقيَّدة بـ(إلَى) تكون بمَعْنى القَصْد، ومِنه قَوْله تعالَى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ [فصلت:١١]، علَى أحدِ القَوْلين.

والمقرُونة بـ(الواو) تكُون بمَعْنى التَّساوِي، كقولِهِم: «استوَى الماءُ والخشبةَ» وهَذا المِثال يَذْكره النَّحْويُّون فِي التَّمْثِيل لِواو المعيَّة، ومعنَى «استوى الماءُ والخشبةَ» أَي تساوَى الماءُ والخشبةَ، والخشبةُ هِي التِي تكُون فِي أعلَى البِئر.

فهذِه أربعةُ أوجهٍ تَرِد علَيها: «استوَى».

ولم تَرِد «استوَى» مُقترنةً بـ(على) بمَعْنًى غَيْر العُلُو، لَكِن وَرَد عَن بَعْض السَّلَف رَحِمَهُمُٱللَّهُ أنَّه عَبَّر بقَوْله: ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ أَي ارتَفَع، و«ارتَفَع» بمَعْنى عَلَا، وبَعْضهم قَالَ: ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ أيْ: صَعِد علَيْه، و«صَعِد» علَى الشَّيْء بمَعْنى عَلَا علَيْه، فهذِه ثلاثُ كلماتٍ بمَعْنى واحِدٍ.

وبَعْضهم قالَ: استوَى علَى كَذَا، أيْ: استقَرَّ، مِثل قَوْله تعالَى: ﴿لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ أَي: استقررتم.

فهذِه أربعةُ ألفاظٍ كُلها ورَدت عَنِ السَّلَف فِي تَفْسِير قَوْله تعالَى: ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ وقَد ذكَرها ابنُ القَيِّم رَحِمَهُٱللَّهُ فِي (النُّونية) وقال: إنَّها ورَدت عَن السَّلَف[1].

لَكِنَّ المَعنَى الواضِحَ الظاهِرَ: أَنَّها بمَعْنى علَا، أمَّا الاستقرارُ فهُو شَيْء زائدٌ علَى العُلُو، فلو أَنَّا اقتصَرْنا علَى أَنَّها بمَعْنى «علَا» لَكانَ جيدًا، وإن قُلْنا «عَلَا واستقَرَّ» فَلَا مانِع إن شَاء الله تَعالَى.

---

(١) النونية (ص:٨٧).

وَاسْتِوَاؤُهُ عَلَى العَرْشِ: عُلُوُّهُ عَلَيْهِ بِذَاتِهِ، عُلُوًّا خَاصًّا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ وَعَظَمَتِهِ، لَا يَعْلَمُ كَيْفِيَّتَهُ إِلَّا هُوَ جَلَّ وَعَلَا[١].

وقَد ذكَر اللهُ تعالى الاستِواء عَلَى العَرْش فِي القُرْآن الكريم فِي سَبْعة مَواضعَ كُلُّها بهذا اللفظِ: ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾.

[١] قَوْله: «**وَاسْتِوَاؤُهُ عَلَى العَرْشِ: عُلُوُّهُ عَلَيْهِ بِذَاتِهِ، عُلُوًّا خَاصًّا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ وَعَظَمَتِهِ، لَا يَعْلَمُ كَيْفِيَّتَهُ إِلَّا هُوَ جَلَّ وَعَلَا**»؛ لأنَّ لَدَيْنا عُلُوَّيْنِ: عُلُوٌّ عامٌّ، وعُلو خاصٌّ.

فالعُلُو العامُّ: عُلُو اللهِ تعالى علَى كُلِّ شَيْءٍ مِنَ السَّموات والأرضِ والجِبال والآدمِي، وغَير ذَلِك، وقَد دلَّت عَلَيه آياتُ العُلُو، كَما سبَق.

والعُلُو الخاصُّ: هُو عُلُوه علَى العَرْش، وهُو استواؤُه علَيْه.

ويَظهَر ذلِك بالمِثال: إِنْسان علَى كُرْسي فِي السَّطْح، فهُناكَ عُلُو عامٌّ وهُناكَ عُلُو خاصٌّ، فكَوْنُه علَى الكُرْسي هَذا خاصٌّ بالكُرسي، وكَوْنه عاليًا علَى البَيت كلِّه هَذا عامٌّ.

فعُلو الله عَزَّوَجَلَّ على كُلِّ المَخْلوقات عامٌّ، وعلُوه علَى العَرش خاصٌّ؛ ولهَذا لَا يَحِلُّ أنْ نَقُولَ: إنَّ اللهَ استَوى علَى السَّماء، ولَا أنَّه استوَى علَى المَخْلوقات، بَل نَقُول: استوَى علَى العَرْش خاصَّةً؛ ولهَذا قُيِّد بقَوْله: «عُلُوٌّ خَاصٌّ».

ولَا نَقُـول: «استوَى عَلَى السَّماء» لأنَّ الاستِواءَ علـوٌّ خاصٌّ، كـما قرَّر شَيْخ الإِسْلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي «الرِّسالَة العَرْشية» وغيرُه مِنَ العُلَماء.

المهمُّ: أنَّ «استوَى عَلَى كَذَا» هَذا خاصٌّ بِه، لَا يَتناولُه غيرُه، لَكِـن إِذَا كانَ العَرْش فَـوْقَ المَخْلوقـاتِ كلِّها لَـزِمَ مِنِ استِواء الله عَلَى العَـرْش أن يَكُـون عـاليًا

....

لَا مُستويًا، بَل عاليًا عَلَى جَمِيع المخلوقاتِ؛ لأنَّ العُلُو مِنَ الصِّفاتِ الذَّاتيَّة لَا يُمْكِن أن يَنفكَّ اللهُ تعالى عَنْها أبدًا، والاستِواء مِنَ الصِّفاتِ الفِعليَّة، فالاستِواء على العَرْش عُلُوٌّ خاصٌّ، وأنَا لَا أَسْتطيع أنْ أقولَ: استَوى علَيْه أَي عُلُوًّا مُباشرًا؛ لأنِّي أَتحاشَى مِن كَلِمة «مُباشِر»، لَكِن بالنِّسْبة لِي أَنَا عَلَى السَّرِير فهَذا عُلُوٌّ مُباشِر، لَكِن عُلُوِّي عَلَى الأَرْض غَير مُباشِر، وهَذا يُقرِّب لَكَ هَذا الشَّيْء، ولَا حَرَج أنْ نُقرِّب المِثالَ للمَعانِي لَا للمُماثَلة، كَما قالَ الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: **«إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَما تَرَوْنَ القَمَرَ...»**(١).

فالمهمُّ: أنَّ «استَوى عَلَى الشَّيْء» علَا علَيْه عُلُوًّا خاصًّا، وبالنِّسْبة لي ولَك نَقُول: «مُباشر»، لَكِن بالنِّسْبة لله لَا نَقُولُ: «مُباشر» ولَا «غَيْر مُباشِر»؛ ولهَذا غلَّطُوا ابن الجَوْزي فِي قَوْله: «إنَّ اللهَ خلَق آدمَ بِيَدِهِ ومَا مَسَّهُ» قالوا: لَيْسَ لك الحق فِي أن تَقُول: «مَا مسه» وكذَلِك إذَا قلتَ: «استَوى عَلَى العَرْش ومَا مَسَّه»، أَو «استَوى علَيْه وَمَسَّهُ» لَيْسَ لَك حَقٌّ.

مَسْأَلة: هَل استواء الله علَى العرش يَعْني احتياجَه إلَيْه؟

الجَوَاب: لَا، بَل هُو علَى العَرْش وهُو المُمسِك للعَرْش سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لأنَّ العَرْش مُفتقِر إلَى اللهِ، واللهُ تعالَى غَنِيٌّ عَنه، لَكِن لكَمال عَظَمته وسُلطانه استَوى علَى العَرْش، بَعْد خلق السَّموات والأرض، حِين تَمَّ مُلك السَّموات والأرض،

(١) أخرجه البخاري: كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة العصر، رقم (٥٥٤)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل صلاتي الصبح والعصر والمحافظة عليهما، رقم (٦٣٣)، من حديث جرير بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وجَاء دَوْر السَّيْطرة، واللهُ تعالَى لَهُ السَّيطرة والهَيْمَنة علَى كلِّ شَيْء مِن قَبل ومِن بَعد؛ ولهَذا يُذكر الاستِواء علَى العَرْش بَعْد خَلْق السَّموات والأرض، وبَعد كَمال الخَلْق الذِي أرادَ أن يَكُون العالم فِيه.

مَسْألةٌ أُخرَى: هَل يَجوز لنَا السُّؤال عَن مَاهيَّة العَرْش؟

الجَوَاب: لَا، لَكِن نَقُول: إنَّه عَرْش عَظِيم، أَوْسع مِنَ المَخْلوقات كلِّها؛ ولـهَذا جَاءَ فِي الحَدِيث: **«مَا السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرَضُونَ السَّبْعُ بِالنِّسْبَةِ لِلْكُرْسِيِّ إِلَّا كَحَلْقَةٍ أُلْقِيَتْ فِي فَلَاةٍ مِنَ الأَرْضِ، وَإِنَّ فَضْلَ العَرْشِ عَلَى الكُرْسِيِّ كَفَضْلِ الفَلَاةِ عَلَى تِلْكَ الحَلْقَةِ»**[1] إِذَن: لَا يَقْدُرُ قَدْرَ العَرْشِ أحدٌ إِلَّا خالِقُه **عَزَّوَجَلَّ**، ولـهَذا جَاءَ عَنِ ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قالَ: «الكُرْسِيُّ مَوْضِعُ قَدمَي اللهِ **عَزَّوَجَلَّ**، والعَرْش لَا يَقْدُرُ قَدْرَهُ إِلَّا اللهُ **عَزَّوَجَلَّ**»[2].

فالواجِب علَيْنا السُّكوت؛ لأنَّ مَسائِلَ الغَيْب يَجِب الاقتِصارُ بِها علَى لَفْظها فقَط، ومَا دلَّت عَلَيه مِن المَعْنَى، أمَّا الكَيْفِيَّة والحَقِيقة فَلَا.

وقَوْله: «**يَلِيقُ بِجَلَالِهِ وَعَظَمَتِهِ، لَا يَعْلَمُ كَيْفِيَّتَهُ إِلَّا هُوَ جَلَّ وَعَلَا**» كثيرًا مَا تَسأَلُ طالبَ العِلْمِ فتَقُول: مَا مَعْنَى «استوى» فِي قَوْله تعالَى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه رقم (٣٦١)، وابن بطة في الإبانة (٧/ ١٨١)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ١٦٦)، من حديث أبي ذر الغفاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٣/ ٢٥٠ رقم ٣٠٣٠)، وابن خزيمة في التوحيد (١/ ٢٤٨)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٢/ ٤٩١ رقم ٢٦٠١)، والطبراني في معجمه الكبير (١٢/ ٣٩ رقم ١٢٤٠٤)، وأبو الشيخ في العظمة (٢/ ٥٥٢)، والحاكم (٢/ ٢٨٢).

....

فيقُول لك: «مَعْناه استِواء يَلِيق بجَلاله»؛ فهَذا لم يُجِب؛ لأنَّ قَوْله «استواء يَلِيق بجَلاله» يَقُوله النَّافِي المُعطِّل أيضًا؛ حَيثُ يَقُول: «استواء يَلِيقُ بجَلَالِه، يَعْني: استِيلاء يَلِيق بجَلَالِه!».

بَل الواجب علينا أن نَقُول: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه:٥] أي عَلَا عَلَيه علوًّا يَلِيق بجَلَاله، غَير مُحتاج إِلَى العَرْش، بَل كُلُّ شَيْءٍ مُحتاجٌ إلَيْه، واللهُ غَنِيٌّ عَن كُلِّ شَيْءٍ.

ثُمَّ إِنَّنَا لَا نَعْلم كَيْفِيّة استوائِه سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ؛ لأنَّ هَذا مِن أُمُور الغَيْب، وقَد أَخبَرنا عَنْهُ ولم يُخْبِرْنا عَن كَيْفِيّته ولَو كانَ ذلِكَ خَيْرًا لنا لَأَخْبَرَنَا، فوَجَبَ عَلَيْنا الوُقُوفُ علَى مَا وَرَد ولَا نَتعدَّاهُ، ولهَذا لـمـا سُئل الإمامُ مالكٌ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يَا أبَا عبدِالله ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ كَيْف استَوَى؟ فأَطْرق برَأْسه حياءً وخجلًا، وأخَذ يَتصبَّب عَرَقًا مِن شِدَّة مَا ورَد علَى قَلْبه، فأَنْطَقه اللهُ تعالَى بهَذِه الكَلِمات التِي تَنَاقلَها العُلَماء، وارتَضَوْها، وجَعَلوها أساسًا لبَقِية الصِّفات، فقال: «يَا هذا! الاستِواء غَير مَجْهُول، والكَيْف غَيْر مَعْقول، والإِيمان بِه واجِبٌ، والسُّؤال عَنْهُ بِدْعة، ومَا أُراكَ إِلَّا مُبتدِعًا»، أَي: مَا أَظُنُّك، أَو: «مَا أَراكَ إِلَّا مُبتدِعًا»: أَي مَا أَعْلَمُك إِلَّا مُبتدِعًا؛ ثمَّ أَمر بِه فأُخرج مِن المَسجِد[1]؛ لأَنَّه سأَلَ عَن كَيْفِيّة الاستِواء.

ورُوي هَذا النَّقل بلَفظ: «الاستِواء مَعلومٌ، والكَيف مَجْهول، والإِيمان بِه واجِبٌ، والسُّؤال عَنْهُ بِدْعة» وهَذا نَقْلٌ للنَّص بالمعنَى، وإِلَّا فإِنَّ المنقولَ بالسَّند

---

(١) أخرجه اللالكائي في اعتقاد أهل السنة رقم (٦٦٤)، والبيهقي في الأسماء والصفات رقم (٨٦٧)، وأبو نعيم في الحلية (٦/ ٣٢٥)، والدارمي في الرد على الجهمية رقم (١٠٤).

....

«الاستِواء غير مجهول...» والمعنَى أَنَّه معلوم فِي اللغة العَرَبيَّة، فمَعنَى «استوَى عَلَى كَذَا» فِي اللُّغة العَرَبيَّة، أَي: علا علَيْه.

«والكَيْف غَيْر مَعْقُول» أَي لَا يُدركه العَقْل، فإِذَا لم يُدرِكْه العَقْل صار مَرْجعه إِلَى السَّمْع، وإِذَا لم يَرِدْ بِه السَّمع فالعَقْل يُوجِب التَّوقُّف، فمَهْما أَردنا أن نَتصوَّر كَيْف استوَى لَا نَستطيع أبدًا، واللهِ لو قِيل لَك: إنَّ فلانًا مُستوٍ علَى سَرِيره فِي بَيْته الآنَ، فلَنْ تَستطيعَ أن تَتصوَّرَ كَيْفِيّة استِوَائِه، هَذا وهُو بشَرٌ، ومَوْجُود عندَك فِي الأَرْض، فكَيْف بالخالِق سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؟ فواللهِ مَنِ ادَّعَى كَيْفِيّة استِوائِه علَى عَرْشه فهُو كاذِب، راجِمٌ بالغَيب.

«والإِيمانُ بِه واجِبٌ»، أَي: بالاستِواء علَى أَنّه غَيْر مجْهول، وأنَّه العُلُو. وكَوْن الإِيمان بِه واجبًا؛ لأَنَّه جَاءَ فِي الكِتاب والسُّنَّة، ومَا جَاءَ بِه الكِتاب والسُّنَّة مِن أخبارِ اللهِ ورَسولِه فإنَّه يَجِبُ الإِيمانُ بِهَا.

«والسُّؤال عَنْهُ بِدْعة»، أَي: عَن الاستِواء، والمُراد عَن كَيْفِيّة الاستِواء.

وكانَ السُّؤال عَنْهُ بِدْعة لوَجْهَيْنِ:

الوَجْه الأوَّل: أنَّ السُّؤال عَنْهُ سُؤالُ دِينٍ، وسُؤالٌ عَن عَقِيدة، ولم يَرِدْ ذلِك عَن الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فَما مِنْهم أحَدٌ سأَل النَّبِيَّ صلى الله علَيْه وعَلَى آله وسلم عَن كَيْفِيّة الاستِواء، مَع شِدَّة حِرْصهم عمَّا يَتعلَّق بالرَّب عَزَّوَجَلَّ، ومَع وُجُود المُجِيبِ بالتَّأكِيد، وهُو الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فإذَا كانَ السببُ موجودًا، والمانِعُ مفقودًا، لِزَم مِنه وُجُود الشَّيْء، لَكِـن لم يَسألوا عَنه، فلم يَقُولوا: يَا رَسُول الله كَيْف استوَى؟

....

وذلِك لِأَدَبِهم مَع اللهِ تعالى ورَسولِه ﷺ، وعِلْمهم بأنَّ هَذا أَمْر لَا يُمْكِن الوُصُول إِلَيْه، ولم يَأْتِ مِثل هذِه الإِيرادات إِلَّا مِنَ الخَلَف الخالِفِين.

الوَجْه الثَّاني لكَوْنه بِدْعةً: أنَّ السُّؤالَ عَنِ الكَيْفِيّة مِن سِماتِ أَهْل البدع، فهُمُ الذِين يَقُولون: كَيْف استوَى، وكيفَ يَنْزل، وكيفَ يَأْتِي، وكَيْف يَدُه، وكيفَ وَجْهُهُ، ومَا أَشبَه ذلِك؟ فَلَا أحَد يَسأل عَن الكَيْفِيّة إِلَّا وهُوَ مُبتدِع.

وهَل نَقُول مِثل مَا قَالَ الإمام مالكٌ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي جَمِيع الصِّفات؟

الجواب: نَعَم، كُلُّ الصِّفات نَقُول فِيها مِثل ذَلِك، فإِذَا قِيل: كَيْف يَنْزل الله تعالَى إِلَى السَّماء الدُّنْيا؟ نَقُول: النُّزول مَعلومٌ، والكَيف مَجْهول، والإِيمان بِه واجِبٌ، والسُّؤال عَنْهُ بِدعةٌ، وإذَا قِيل: كَيْف وَجْه الله؟ نَقُول: إنَّ الوَجْه مَعلومٌ، والكَيف مَجْهول، والإِيمان بِه واجبٌ، والسُّؤال عَنْهُ بِدْعةٌ.

فهَذِه -فِي الحَقِيقة- قاعدةٌ عَظيمةٌ أَلْهمها الله تَعالَى الإمامَ مالكًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فصارَتْ نِبْراسًا يَسِيرُ عَلَيه النَّاسُ.

ونَعُود فنَقُول: إنَّ طَرْد الإِمام مالِك رَحِمَهُ ٱللَّهُ لهذا الرجُل طردٌ فِي مَحَلِّه، والواجِبُ: دَفْع فَسَاد المُفْسِد مَهْما كانَ ولَو فِي أَشْرف البُقَع.

والشَّاهِد: أَنَّنا نُؤْمِن بأنَّ هَذا الكَلام الذِي قاله الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: مِيزانٌ قِسطٌ فِي جَمِيع الصِّفات مَعْناها مَعلوم وكَيْفِيّتها مجهولةٌ، والسؤال عَن الكَيْفِيّة بدعة والإِيمان بِهَا واجب.

أما أَهْل البِدَع فيَقُولون: استوى بمَعْنى: استَوْلى، ومَلَك، وقَهَر، وهَذِه صِفَة

مَعنوية، ولَيْسَت صِفَة حِسيَّة، فيقُولون فِي قَوْله تَعالَى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ أَي مَلَكه وقَهَره! ولَا شَكَّ أَنَّ قولَهم باطِلٌ مِن وُجُوه -ومَا سأَذْكُرُه مِنَ الوُجُوه ليُبنى عَلَيه بَقِيَّة مَا يَكُون مِنَ الصِّفات-:

الوَجْه الأَوَّل: أَنَّ هَذا خِلافُ ظاهِر اللَّفظ، ومَا كانَ خلافَ ظاهِرِ اللَّفظ فإِنَّه لَا يجُوز العُدُول إِلَيْه إِلَّا بدَلِيل، وما كانَ ظاهرَ اللَّفظ فإِنَّه لَا يجُوز العُدُول عَنْه إِلَّا بدليلٍ، لاسيَّما فِي الأُمُور السَّمْعِيَّة التِي لَا تُدرَك إِلَّا بالسَّمع، كالأُمُور الغَيْبِية المَحْضَة؛ فإِنَّه لَا يجُوز مُخالَفة ظاهِرِها إطلاقًا، أَمَّا الأُمور العَقْليَّة فرُبَّما يَصرف الإِنْسانُ اللَّفظَ عَن ظاهِره لدَلالةٍ عَقليةٍ.

الوَجْه الثَّاني: أَنَّه خِلافُ إجماعِ السَّلَفِ، فَما مِن أَحد مِنَ السَّلَف قالَ: ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ أَي مَلَكه أَو قَهَره؛ إطلاقًا.

الوَجْه الثَّالث: أَنَّه يَلْزم عَلَيه لوازمُ باطِلة، مِنها:

أولًا: أن يَكُون العَرش مُلكًا لغير الله، ثمَّ مَلَكه بالمُغالَبة، ووَجْهُ هَذا اللازمِ أَنَّه قالَ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ فإِنَّ «ثُم» تُفيد التَّرتيب، وأَنَّ هَذا الاستِيلاء لَمْ يَكُن إِلَّا بَعْد خَلْق السَّموات والأَرْض، ومِنَ المَعْلوم أَنَّ العَرْش مَمْلُوك لله قَبْل خَلْق السَّمَوات والأَرْض.

ثانيًا: أَنَّنا إِذَا قُلْنا: «استوَى» بمَعْنى «استَوْلَى»، جازَ لَنا أَنْ نَقُول: إِنَّ اللهَ استوَى علَى الأَرْض، لأَنَّه مُسْتولٍ عَلَيها، ولَا أَحَدَ مِنَ العُلَماء -عُلماء الأُمَّة- يَقُول: إِنَّه يجُوز أن تَقُول: إِنَّ اللهَ استوى علَى الأَرْض أبدًا.

....

الوَجْه الرَّابع: أن هَذا مخالِف للُّغة العَربيَّة، فلَم تأتِ «استَوى» فِي اللُّغة العَربيَّة بمَعْنى «استولَى» أبدًا، وارْجِع إلَى القَوامِيس كلِّها، ستَجِد أنَّ استوى لم تَكُن بمَعْنى استَوْلَى؛ لَكِن زعَم بَعْضُهم أنَّ استَوى تأتِي فِي اللُّغة العَرَبيَّة بمَعْنى استولى، واستَدلَّ بقَوْل الشاعِر:

قَدِ اسْتَوى بِشْـرٌ عـلَى العِـراقِ مِـنْ غَـيْرِ سـيْفٍ أَوْ دَمٍ مُهْـراقِ

قَالَ: هُنا «استوى» بمَعْنى «استولى»؛ لأنَّه لَا يُمْكِن أن نَقُول: استوَى علَى العِراق، أَي يَعلو عَليْها.

فجَوابُنا علَى هَذا البَيت أنْ نَقُول:

أولًا: أنَّ هَذا البيتَ لَا يُعرف قَائِلُه، وإذَا كانَ الحَدِيث النَّبوي إذَا كانَ راوِيه مجهولًا لَا يُقبل فهَذا مِثله أَو أَوْلَى!! فقائِل هَذا البَيت غَير مَعروف، ولَو قَبلنا كُلَّ بيتٍ مَصنوعٍ شاهدًا علَى اللُّغة العَرَبيَّة، وحاكمًا عَليها، لَكانَ كُلُّ واحِد يَستطيع أن يَنظِم مَا شَاء مِن الأبياتِ، ويَقُول: هَذا مَعْناه كَذَا؛ لقَول الشاعِر العَربِي الفَصيح، ثمَّ يأتِينا مِن عِندِه بأبياتٍ كُلُّها هُراء!!.

ثانيًا: لَو فُرض أن قَائِله مَعروفٌ فمَتى قالَه؟ أَليس اللِّسان العَربِي قَد تَغيَّر مُنذ أنِ انتشَرَتِ الفُتُوحات؟! بلَى؛ فيَجُوز أن يَكُون هَذا مِن بَعد مَا تَغيَّر اللِّسان.

ثالثًا: علَى فَرْض أنَّ قَائِله مَعروف، وأنَّه قَبْل أن يَتغيَّر اللِّسان، فإنَّنا نَقُول: ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾ هُنا بمَعْنى عَلَا عُلُوًّا مَعنويًّا، أَي صارَت لَهُ الكَلِمة العُليا فِي العِراق، فإنْ سُلِّمَ الأَمْر فهَذا واضِحٌ، وإنْ لم يُسلَّم وقال: لَا تَأتِي استَوى بمَعْنى العُلُو المعنوِي، قُلْنا: استَوى هنا بمَعْنى استولَى؛ لوُجُود المانِع مِنَ العُلُو الحسيِّ، فيُحمل علَى الاستِيلَاء.

وبهذا عُرف أنَّه لَا دَلِيلَ لَمِن فسَّر استِواء الله علَى عَرْشه بأنَّه: استيلاؤُه علَيْه.

وأمَّا مَن فسَّر الاستِواءَ بالجُلُوس، فإنَّ بَعْض العُلَماء قالَ: «استَوى عَلَى العَرش يَعْني جلَس علَيْه» لكِن لَا يجوز أن نُطلقها إلَّا إذَا جاءَت عَن الله ورسولِه، ولَا نَقُول هكَذَا، وبَعضُهم تَجاوَز، لكِن نَحْن نَقُول: لَا نَتعدَّى القُرْآن والحَديث كَما قالَ الإمامُ أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فهذِه أمورٌ غَيبية لَا نُدركها؛ فمَثَلًا: الشَّجَر الأَخْضر تخرج منه النار بضرب الزنْد وهُوَ شجَر أخضَر رَطْب وبارِد، فتَخرج منه النارُ وهِيَ حارَّة يابِسة، كَما قالَ تَعالَى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا﴾ فقُدرة الله فَوْقَ قُدرتنا، ولَا أحدَ يَتصوَّر مَا لله عَزَّوَجَلَّ مِن الكَمال والقُدرة أبدًا، فَلَا تَتجاوَزِ القُرْآنَ والحَدِيث فِي الصِّفات إطلاقًا، لَا تَجاوَزْها ولَا تَقْصُرْ عَنها، واجعَلْ نَفْسَك تابعًا لِنُصوص الكتابِ والسُّنة حتَّى تَستريحَ وحتَّى لَا يَلعب علَيْك الشَّيْطانُ.

وهَذِه مَسائلُ دَحْض، ومَزِلَّة، فَيَجِبُ علَى الإِنْسان أنْ يَسْلُك مَا سَلَكه السَّلَف فِيها، وهُو الأَخْذ بظاهِر النُّصوص، مَع العِلْم أن هَذا الظاهِرَ لَا يُمْكِن أنْ يُحْمَل علَى مُماثَلة اللهِ بالخَلْق؛ لقَوْله تعالَى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١].

ولقَوْله تعالَى: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [النحل:٧٤]، ولقَوْله تعالَى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة:٢٢] والآياتُ فِي هَذا كَثيرةٌ.

ولا يُمْكِن أن يُكيَّف؛ لقَوْله تعالَى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ﴾ إلَى قَوْله تعالَى: ﴿وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:٣٣]، ولقَوْله تعالَى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الإسراء:٣٦].

....

فابنُوا العقيدةَ عَلَى هَذا، وخُذوا بالظاهِرِ فِي كُلِّ شَيْء، فإذَا قَالَ قَائِل: أليسَ الله قَد قالَ: «عَبْدِي! جُعْتُ فلَمْ تُطْعِمْنِي، عَبْدِي! مَرِضْتُ فلَمْ تَعُدْنِي»؟![1].

نَقُول: بَلَى، قَد قَالَه، لَكِن هَل سَكَتَ الله؟ لَا، بَل بيَّن، فقَالَ: «أمَا عَلِمت أنَّ عَبديَ فُلانًا جاعَ فلَمْ تُطعِمْه، ومَرِض فلَمْ تَعُدْه» فإذَا أرادَ اللهُ خِلافَ الظاهِرِ فَلَا بُدَّ أنْ يُبيِّنَه أَو يُبيِّنه رَسُولُه، فإذَا لم يُبيِّنه اللهُ ورسولُه عُلم أنَّ الظاهِرَ مَقصُودٌ.

فإنْ قَالَ قَائِل: أنَا أَقُول: «إنَّ اللهَ استوَى»، كَما قَالَ القُرْآن ولَا أَزِيد علَى ذلِك شيئًا؟

قُلْنا: يَقُول شَيْخ الإِسْلام رَحِمَهُ اللَّهُ: هَذَا القَول مِن شَرِّ أَقْوال أَهْل البِدَع والإِلْحاد، الذِين يُفوضِّون، ويُسمَّوْن أَهْلَ التَّفْوِيض، وأَهْل التَّجْهيل؛ لأنَّ هَذا القَوْل فَتَح البابَ للفلاسِفة والباطِنيَّة وغيرِهم أنْ يَقُولوا بباطلهم، إِذْ قالُوا: إذَا كُنتم أَنتم جُهَّالًا لَا تَعرفونَ الُمراد فنَحن الذِين نَعرِفُه! ولهَذا حَكَم رَحِمَهُ اللَّهُ بأنَّ هَذا القَولَ مِن شَرِّ أقوالِ أَهْلِ البِدَع والإِلْحاد، وصَدَق رَحِمَهُ اللَّهُ، وقَد ذكَر هَذا رَحِمَهُ اللَّهُ فِي كِتابه: «العَقْل والنَّقْل» وهُو: «دَرْءُ تَعارُضِ العَقْل الصَّرِيحِ وَالنَّقْلِ الصَّحِيحِ»[2].

فهَل يُمكن أنْ يَكُون أَشْرف مَا فِي القُرْآن -وهُو مَا يَتعلَّق بأَسْماء الله وصِفاتِه- غيرَ مَعلومٍ!؟ أبدًا! هَذا لَا يُمكن.

مَسْأَلَةٌ: الصِّفاتُ الفِعْليَّة أَليسَتْ مِثل الكَلام فِي أنَّ أَصْلَها ذَاتيَّة؟

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة، باب فضل عيادة المريض، رقم (٢٥٦٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) درء تعارض العقل والنقل (١/ ٢٠٥).

الجَواب: لَا، فمَثلًا الاستِواء عَلَى العَرْش لم يَسْبق خَلْق العَرْش، لَكِن قَد يقُول قَائِل: إنَّ الاستواءَ عَلَى العَرْش نَوْع مِنَ الأَفْعال، وأنَّ جِنْسَ الأفعالِ صِفَةٌ ذاتيَّة؛ ولَا مانِع مِن هَذا أنْ نَقُول: جَميعُ الصِّفاتِ الفِعليَّة تَرْجِعُ إِلَى جِنس الصِّفات الذاتيَّة؛ لأنَّ جِنْسها مَا زالَ ولَا يَزال اللهُ تَعالَى مَوْصوفًا به.

كَما لا بُدَّ أنْ نَعْلم أنَّ كُلَّ شَيْءٍ يَتعلَّق بإِرادتِه ومَشِيئته فهُو صِفَة فِعْليَّة، وأنَّ الفِعْل جِنْس يَدْخل تَحتَه أَنْواع، والأَنْواع يَدْخل تَحْتها آحادٌ، فمثلًا الفِعْلُ جِنْسٌ يَدْخل فِيه: الكَلام والنُّزول والاستِواء والرِّزق والإِحْياء والإماتة؛ فهُو جِنْس يَشْمَل كُلَّ فِعْل يَصْدُر مِن اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وهَذا الجِنْسُ يَكُون فِيه أنواعٌ، فالكَلام جِنْسٌ، مِن أَنواعِهِ: خَبَر واستِخْبار، وأَمْر ونَهْي؛ وهَذِه الأَنْواع لَـهَا آحادٌ؛ فقوله تعالى: ﴿أَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ﴾ هَذا واحدٌ، وقوله: ﴿وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ﴾ هَذا واحِدٌ؛ وكُلُّه أَمْر، فصِفاتُ الأَفْعال واسِعَةٌ لَا نُحْصِيها.

مَسْأَلةٌ: إِذَا قالَ قَائِل: إِذَا قُلْنا: «اليَد مَعلومةٌ» فمَعْناه: مِثْل هذِه اليَدِ! فهَل هَذا صَحِيح؟

فنَقُول: لَيْسَ بصَحيحٍ أبدًا! فلو قُلْنا: إنَّ للجَمَل يدًا فهَل نَقُول: مِثْل هذِه اليَدِ؟ وهَل للهِرِّ يَدٌ مِثْل هذِه اليَدِ؟ وهَل للأَسَد يدٌ مِثْل هذِه اليَد؟ لَا، أبدًا، فَلَا يَلْزم مِن إِثْبات الحَقِيقة التَّمْثِيلُ إطلاقًا.

وإِثباتُ الحَقِيقة أَوْجَب لبَعْض النَّاس التَّحريف والتَّعطيل ولبَعْض النَّاس التَّمْثِيل، فالمُمَثِّلة قالُـوا: لَا نَعْقِلُ يَـدًا حَقيقيةً إِلَّا مِثل يَـدِ المَخْلوق، وأَهْل التَّحرِيف

....

قالُوا: إذَا كُنَّا لَا نَعْقل إلَّا مِثل هَذا المخلُوق لَزِمَ مِنْ إِثْباتِها التَّمْثِيل، والتَّمْثِيلُ ممنوعٌ؛ إِذَنْ: يَجِب أَن نَنْفيَ اليَدَ الحَقِيقية ولَيْس فِيها إشكالٌ!!

فنَقُول: إِنَّك لَو أَرَدْتَ أنْ تَجعلَ اليَدَ يَدًا مَعْنويَّة أَخْرَجْتَها عَن الظاهِر، فَلَا بُدَّ أَنْ تَقُول: اليَدُ مَعلُومةٌ، عَلَى أنَّ نَظِيرَها بالنِّسْبة لنَا أَبْعاضٌ؛ ولهَذا صِفاتُ الله عَزَّوَجَلَّ مِنْها صِفاتُ مَعانٍ، ومِنها صِفاتٌ نَظِيرها بالنِّسْبة لنَا أَبْعاضٌ، مِثْل الوَجْه والعَين واليَد والقَدَم، لكننا لَا نَقُول: إنَّها بالنِّسْبة لله أَبْعاض؛ لأنَّ البَعْض فِي اللُّغة هُو مَا يُمْكِن وُجُود الأَصْل دُونه ومَا يَنقُص الأَصْل بفَقْده، فلِهذا يَتحاشَى العُلَماء أنْ يقولوا: إنَّها أَبْعاض، لَكِن نَظِيرها بالنِّسْبة لنَا أَبْعاض؛ ولهَذا تُسمَّى الصِّفات الخَبَرية ولَا يُقال: الصِّفات المعنويَّة؛ لأنَّها مَقصُورة عَلَى الخَبَر.

فائِدَةٌ: «المعطِّلة» مَأْخوذ مِنَ التَّعطيل، والتَّعطيل هُو التَّخلية، والتَّعطيل يُفسَّر بتَفْسِيرين: تَعْطيل النُّصوص عَن مَعْناها، وتَعْطيل الخالِق عَن صِفاتِه، وكُلُّ هَذا وقَع فِيه أَهْل التَّعطيل، فعطَّلوا النُّصوص عَن مَعْناها الذِي أرادَ اللهُ بِهَا ورسولُه، وعطَّلوا الخالِق مِن أَوْصافِه التِي ثَبَتت لَهُ بالكِتاب والسُّنة.

ولكنَّه يَنْقسِم إلَى أقسامٍ: تَعْطيل كُلِّيّ وتَعْطيل جُزْئي، وتَعْطيل عامّ وتَعْطيل خاصّ؛ لأنَّ بَعْضَ المعطِّلة قَدْ يُعطِّلون بَعْض الصِّفات دُونَ الصِّفاتِ، فالأشاعِرَة -مَثَلًا- أَثبتُوا سبعَ صِفاتٍ وعطَّلوا الباقِيَ، وبَعْضُ أَتْباعِهم أثبتُوا كُلَّ الصِّفات إلَّا الصِّفاتِ الفِعليَّةَ، فقالُوا: جَمِيع الصِّفاتِ المعنويَّة ثابتةٌ إلَّا الصِّفاتَ الفِعليَّة والخَبَرية، فمَنَعوا أفعالَه الاختِياريَّة، وقالُوا: إنَّ الله لَا يَنزل ولَا يَستوِي ولَا يَضحَك ولَا يَفرَح ومَا أَشْبه ذَلِك. وعَلَى كُل حَال: فالأُمَّة مَلَايين المَلَايين، وهُناك أَهْواء وآراء تَختلف.

....

أمَّا الممثِّلة فيقال: إن أول من قالَ بالتَّمْثِيل هِشام بنُ الحَكَم الرَّافضي، هَذا الأَصْل، وأنَّ بَعْضهم -والعياذ بالله- يَصِف اللهَ بصِفة الإنسانِ، يقُول: إنَّه شَخْص لَهُ شَعر ووَجْه أَبْيض مُستدير ويَذكر مِن صِفات الجمال إلَى مَا لَا نِهايةَ لَه، حتَّى قالَ بَعْضهم اسأَلُوني عَن كُل شَيْء واعْفُوني عَن الفَرْج واللِّحية، ويقول: هَذا مِن الوَرَع! نَسأَلَ اللهَ العافيةَ ممَّا ابتلاهم بِهِ.

وحقيقةً: أنَّ الأَمْر كما قالَ شَيْخ الإِسْلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ حيثُ يقُول: كُلُّ مُمثِّل مُعطِّل، وكُلُّ مُعطِّل مُمثِّل[١]؛ وكانَ المعطِّل مُمثِّلًا وهُوَ يَنفي لأَنَّه إنَّما عطَّل وهُوَ يَعتقِد أنَّ الإثباتَ يَسْتلزِم التَّمْثِيلَ؛ فمَثَّل أوَّلًا بمَفْهُومِه، ثُمَّ عطَّل ثانيًا بمَنْطُوقِه، وقالَ: مادامَ يَقْتضِي التَّمْثِيلَ فأنَا لَا أُثبتُه! والمُمثِّل مُعطِّل لأنَّه عطَّل اللهَ مِن كَماله، حَيثُ مثَّله بالناقِص، ومَن مَثَّل الكامِلَ بالناقِص انْتَقصَهُ، حتَّى قِيل[٢]:

أَلَـمْ تَـرَ أَنَّ السَّيْفَ يَـنْقُصُ قَـدْرُهُ ... إِذَا قِيل إِنَّ السَّيْفَ أَمْضَى مِنَ العَصَا

وقالَ الشاعِر[٣]:

إِذَا وَصَفَ الطَّائِيَّ بِالبِخْلِ مَادِرٌ ... وَعَيَّرَ قُسًّا بِالفَهَاهَةِ بَاقِلُ

وَقَالَ السُّهَا للشَّمْسِ أَنْتِ ضَئِيلَةٌ ... وَقَالَ الدُّجَى لِلصُّبْحِ لَوْنُكَ حَائِلُ

فَيَا مَوْتُ زُرْ إِنَّ الحَيَاةَ ذَمِيمَةٌ ... وَيَا نَفْسُ جِدِّي إِنَّ دَهْرَكِ هَازِلُ

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٥/ ٢٧).

(٢) غير منسوب، وممن ذكره ابن كثير في تفسيره (٨/ ٤٢٦).

(٣) الأبيات لأبي العلاء المعري، انظر: سقط الزند (ص:١٩٤-١٩٥).

....

فانظُرِ الآنَ «مادِرٌ» مِن أَبْخل النَّاس يَقُول لحاتِمِ: إنَّه بَخِيل، والسُّها -خَفِيٌّ لَا يُشاهَد-، يقُول للشَّمْس: أَنْتِ ضَئِيلة، والدُّجى يقول للصُّبح: لونُك حائِلٌ، وعيَّر قُسًّا بالفَهَاهَة باقلٌ، فَقُسٌّ الذِي هُو مِن أَفْصح النَّاس وأَبْلغهم يُعيره بالفَهاهَة باقِل؟! فبعد هَذا ليس فِي الحياةِ خَيْرٌ فيَا مَوْت زُرْ! إنَّ الحياةَ ذَمِيمة، ويَا نفسُ جِدِّي فإنَّ دَهْرَك هَازِلٌ

فإذَا وفَّق الله عالـمًا مِنَ العُلَماء المتبحِّرين فِي هَذا البابِ، وأَتى بالأدلَّة النَّقلية والعَقليَّة فسَوْف يَمُـوعُ هَؤلاءِ كَما يَمُـوعُ المِلْح فِي الماء؛ لأنَّهم لَيْسَ عِندَهم دليلٌ؛ وزُعماؤُهم ورُؤساؤُهم يقولُون عِنْد الموت: أَمُوت عَلَى عَقِيدة أُمِّي! قَالَ الرَّازِيُّ[1]:

نِهَايَـــةُ إِقْـــدَامِ العُقُـــولِ عِقَـــالُ وَأَكْثَـــرُ سَـــعْيِ العَالَـــمِينَ ضَـــلَالُ
وَأَرْوَاحُنَا فِي وَحْشَـةٍ مِـنْ جُسُـومِنَا وَغَايَـــةُ دُنْيَانَـــا أَذًى وَوَبَـــالُ
وَلَـمْ نَسْتَفِدْ مِنْ بَحْثِنَا طُولَ عُمْرِنَـا سِـوَى أَنْ جَمَعْنَـا فِيـهِ قِيـلَ وَقَـالُوا

فلَيْس عِندَهم عِلْم أبدًا! لَكِن المُشكِل: أنَّ بَعْض النَّاس خوَّاف يَهاب، فتَجده إذَا رأى شَجرة تَتحرَّك مِن بُعْد قَالَ: هَذا عَدوٌّ معَه سَيف وبُندق! وهَرَب! وإلَّا فَلَا يُمْكِن لأحد أنْ يقُومَ بالباطِل عَلَى حَقٍّ أبدًا، قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ كلماتٌ عَظِيمةٌ: ﴿نَقْذِفُ﴾ نَرمِي بشِدَّة، ﴿فَيَدْمَغُهُ﴾ يَصِل إلَى أُمِّ الدِّماغ، ﴿فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ يَمُوت حَالًا ولَا يَتأخَّر، لَكِن أَيْنَ الضَّارِب؟!

---

(١) انظر طبقات الشافعية للسبكي (٨/ ٩٦)، وعيون الأنباء (٢/ ٢٨).

وَنُؤْمِنُ بِأَنَّهُ تَعَالَى مَعَ خَلْقِهِ وَهُوَ عَلَى عَرْشِهِ[1]،.........

وأنَا أَتمنَّى أنْ يَكُونَ فِي الإِنْتَرْنِت مَواقعُ تُعالِج مِثلَ هذِه الأشياءِ بِدُون مُهاجَمَة؛ فالمُهاجَمَةُ لَا تُفيد، لَكِن باللِّين والهُدُوء يَحْصُل الخَيْرُ الكَثيرُ.

[١] قَوْله: «وَنُؤْمِنُ بِأَنَّهُ تَعَالَى مَعَ خَلْقِهِ وَهُوَ عَلَى عَرْشِهِ» لـمَّا ذَكَر علُوه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الذاتيَّ والوَصْفي، وذكَر استواءَه علَى العَرْش وهُو عُلُوه علَى عَرْشه عَزَّوَجَلَّ علَى صِفَة لَا يَعْلمها إلَّا الله، ذَكَر المعيَّة، وذلِك لأنَّ الإِنْسان قَد يُشكِل عَلَيه الجَمْع بَيْن العُلُو والمعيَّة، وكَذلِك القُرْب.

فقال: «وَنُؤْمِنُ بِأَنَّهُ تَعَالَى مَعَ خَلْقِهِ وَهُوَ عَلَى عَرْشِهِ» قَوْله: «وَهُوَ عَلَى عَرْشِهِ» جُمْلة حاليَّة، فالمعيَّة فِي اللُّغة العَربيَّة كَلِمة تَقْتضي المُصاحَبة، فقَولُنا: «مَع كَذَا» أَي: مُصاحِب له، وهَذِه المُصاحَبة تَختلف باختِلاف مَوارِدها، وبحَسب القَرائن والسِّياق، فتُفسَّر فِي كُلِّ مَوضِع بحَسَبه.

فمَثلًا إذَا قُلتَ: خَلَطْتُ الماءَ مَع اللَّبَن، فهذه مَعيَّةُ امتزاج، فيَمتزِج أحدُهما فِي الآخَر، ويَختلِط حتَّى لَا يَتميَّز واحدٌ عَنْ ثانٍ، وإذَا قُلتَ: الزَّوْجة مَع زَوْجها، فهذِه مُصاحَبة ومُقارنة، لَكِن لَا يَلْزَم الاختِلَاط ولَا الالتِصاقُ، ولَا الحُلُول فِي مَكانٍ واحدٍ، بَل رُبَّما تكُون الزَّوجة فِي المَشْرق والزَّوج فِي المَغْرب، ويُقال: القائِدُ مَعَ الجُند، مَع أَنَّه فِي غُرفة العَمَليات يُوجِّه والجُند فِي مَيْدان القِتال، فبَيْنهم مَسافة، ومَع هَذا يُقال: مَعَهم.

وأَبْلغ مِنْ ذلِك أنَّ العَرَب يَقُولون: «مَا زِلْنا نَسِير والقَمَرُ مَعَنا»، فهُم يَسِيرون فِي الأَرْض، والقَمَر فِي السَّماء، ومَع ذلِك يَقُولون: إنَّه مَعَنا.

فتبيَّن الآنَ أنَّ المعيَّة لَا تَسْتلزِم الاختِلاط، ولَا الحُلولَ فِي مَكانٍ، وإنَّما تُفسَّر بحَسَب مَا يَقْتضِيه السِّياقُ والقرائِن، فنَحن نُؤْمِن بأنَّ اللهَ نَفْسه معَنا حَقيقةً وهُو علَى عَرْشه فِي السَّماء، ولَا يَلْزم مِنْ إيمانِنا بأنَّه مَعَنا حَقِيقةً أن يَكُون مُشاركًا لنَا فِي المكانِ أبدًا، وإذَا كَانَت المعيَّة بيْن المَخْلوقاتِ لَا تَقْتضي المشارَكة، فالمعيَّة بيْن الخالِق والمَخْلوق مِن بابِ أَوْلَى.

فنُؤمِن بأنَّ اللهَ مَعَنا، والدَّلِيل علَى ذلِك قَوْله تعالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد:٤]. فانظُر إلَى هذِه الضَّمائر، تَجِد أنَّها تَعُود إلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فقَوْله تعالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أَي: اللهُ نَفْسُه، ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ أَي: اللهُ نَفْسُه، ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أَي: اللهُ نَفْسُه، ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ أَي: اللهُ نَفْسُه، ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ أَي: الله تَعالَى، ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ إِذَن: كُلُّ الضَّمائِر تَعُودُ إلَى اللهِ تَعالَى.

وإذَا عَرَفْنا أنَّ المعيَّة لَا تَسْتلزِم الاختِلاط والامتِزَاج، ولَا تَستلزِم الحُلول فِي المكانِ، عَلِمْنا أنَّ مَعيَّةَ اللهِ لخَلْقه مَعيةٌ حَقيقيَّةٌ، ولَا تَحتاج إلَى أن تُفسَّر بشيءٍ آخَرَ، فهِيَ معيَّة حَقيقيةٌ، لكنَّه لَا يَلْزم مِنْها أن يَكُون اللهُ مَعَنا فِي المكانِ كَما قالَتِ الجَهْميَّة، بَل هُو معَنا وهُو علَى عَرْشه، وقَد سبَق أنَّ العرَب مِن أُسلوبِها أنْ تَقُول: «القمَر معَنا»، وهُو فِي السَّماءِ، ولَا يَعُدُّون هَذا تَناقُضًا، ولَا يَعدُّونه خُرُوجًا عَن مُقتَضَى المَعنَى الذِي تُفِيده المعيَّة، فَلَا حاجةَ إلَى أنْ تُحرَّف، كَما قَالَ ابنُ تَيميَّةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ

....

فِي (العَقِيدة الواسطيَّة): «إنَّه معَنا حَقٌّ علَى حقِيقتِه، لَا يحتَاجُ إلَى تَحْرِيفٍ»[١]، ومراد شَيْخ الإِسْلام بالتَّحريف إِخراجُ الكَلام عَن ظاهِره ولَا دَلِيلَ علَى وُجوب إِخراجِه عَن ظاهِره، بَل نَقُول: يَجِبُ أن يُصان عَن المَعنَى الباطِل الذِي لَا يدلُّ علَيْه: وهُو أنَّه مخالِط لنَا فِي المكانِ أَو مُمتزِج بنَا، فإنَّ هَذا مُستحِيلٌ.

وقَد ذُكر عَن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ السَّموات السَّبْع والأَرضين السَّبع فِي كفه كخردلة فِي كفِّ أحدِنا[٢]؛ فمَن كانَ هَذا شأنَه فإنَّنا لَا نُحيط بِهِ عَزَّوَجَلَّ، ويَجِبُ عَلَينا أن نُؤْمِن بما وَصَف بِهِ نَفْسه، فنَقُول: هُو فَوْقَ السَّماء حقيقةً، ومَعنا حَقيقةً؛ كَما وَصَف نَفْسه.

وإِذَا آمَنْتَ بأنَّ اللهَ معَك، يَعْلمُك ويُشاهِدُك، ولَا يَخْفَى عَلَيه شَيْء مِن أَحْوالِك، حِينئذٍ يَقْوَى خَوْفُك مِن الله عَزَّوَجَلَّ، ويَتِمُّ لكَ مُراقبةُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّك لَو كُنْت فِي حُجرة مُظلمة -لَيْس عِندَك أحدٌ- تَقُول: اللهُ عَزَّوَجَلَّ مَعِي وهُو علَى عَرْشه، فتَخْشاه وتخافُه، ولَا تَفْعل شيئًا يُغضِبُه.

قَوْله: «مَعَ خَلْقِهِ وَهُوَ عَلَى عَرْشِهِ» نَقُول: «مَعَ خَلْقِهِ» حقيقةً لَا مجازًا، «وَهُوَ عَلَى عَرْشِهِ» حقيقةً، ولَا تَناقُض؛ لأنَّ هَذا جائِز فِي حَقِّ المَخْلوقِ، ففِي حَقِّ الخالِق مِن بابِ أَوْلى؛ ولأنَّه علَى فَرْض أنَّه لَا يَجُوز فِي حَقِّ المَخْلوقِ -أنْ يَكُون الشَّيْءُ عاليًا شاهِقًا للعُلُو وهُو مَعَك-، فإنَّه جائِزٌ فِي حَقِّ الله؛ لأنَّ الله تعالَى لَا يُقاس بخَلْقه.

---

(١) العقيدة الواسطية (ص:٨٤).

(٢) أخرجه عبد الله بن أحمد في السنة رقم (١٠٩٠)، والطبري في التفسير (٢٠/ ٢٤٦).

وعَلَى هَذا؛ فإن قَالَ قَائِل: كَيْف يُجمَع بَيْن العُلُو والمَعِية؟

قُلْنا: يُجمع بَيْنهما مِن وُجُوهٍ ثلاثَةٍ:

الوَجْه الأول: أن الله تعالَى وصَف نَفْسَه بِهِمَا بأنَّه عالٍ وبأنَّه معنا، ولَا يُمْكِن أنْ يَجْمَع اللهُ لنَفْسه بيْن شَيْئيْنِ مُتناقِضَيْنِ أَبَدًا، فالجَمْع بينَهما يدلُّ علَى إمكانِ اجتماعِهما؛ لأنَّ المتناقضَيْن لَا يُمْكِن اجتماعُهما، واللهُ قَد وَصَف نَفْسه بهَذا وهَذا، فقَال تعالَى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ وفِي آخرِها قالَ تعالَى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾. فإذَا كانَ اللهُ قَد جَمَع بَينَهما لنَفْسه دلَّ علَى عَدَم التَّناقُض؛ لأنَّه لَا يُمْكِن الجَمْع بَيْن النَّقِيضَيْنِ.

الوَجْه الثَّاني: أنَّ العُلُو لَا يُنافِي المعيَّة، ولـهَذا كانَ مِن أَساليب العَرَب أنَّهم يَقُولُون: مَا زِلْنا نَسِير والقَمَر مَعَنا، أَو مَا زِلْنا نَسِير والنَّجْم الفُلاني معَنا، كَما ذكَره شَيْخ الإِسْلام فِي (العَقِيدة الواسِطية)[1]، وكَما ذكَره فِي الفَتْوى الحَموية وغيرِهما مِنْ كُتُبه[2].

الوَجْه الثَّالِث: لَو فُرِض أنَّ بينَهما تَناقضًا فِي حَقِّ المَخْلوق فإنَّه لَا يَلْزم وُجُوده فِي حَقِّ الخالِق؛ لأنَّ اللهَ لَيس كمِثله شَيْء، فَلَا يُقاس بخَلقه، فَما كانَ مُمتنِعًا فِي حَقِّ المَخْلوقِ لَا يَلْزم أن يَكُون مُمْتنعًا فِي حقِّ الخالِق، ومَا كانَ مُمْتنعًا فِي حَقِّ الخالِق لَا يَلْزم أنْ يَكُون مُمْتنعًا فِي حَقِّ المَخْلوق، أَلَيْس اللهُ تعالَى لَا تَأْخذه سِنة ولَا نَوْم، والمَخْلوقُ تَأْخذُه السِّنة والنَّوْم؟!

(١) العقيدة الواسطية (ص:٨٤).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (٥/ ١٠٣).

يَعْلَمُ أَحْوَالَـهُمْ، وَيَسْمَعُ أَقْوَالَـهُمْ، وَيَرَى أَفْعَالَـهُمْ، وَيُدَبِّرُ أُمُورَهُمْ؛ يَرْزُقُ الفَقِيرَ، وَيَجْبُرُ الكَسِيرَ، يُؤْتِي المُلْكَ مَنْ يَشَاءُ، وَيَنْزِعُ المُلْكَ مِمَّنْ يَشَاءُ، وَيُعِزُّ مَنْ يَشَاءُ، وَيُذِلُّ مَنْ يَشَاءُ، بِيَدِهِ الخَيْرُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ[١].

وَمَنْ كَانَ هَذا شَأْنُهُ كَانَ مَعَ خَلْقِهِ حَقِيقَةً، وَإِنْ كَانَ فَوْقَهُمْ عَلَى عَرْشِهِ حَقِيقَةً[٢]، ....

وكَذلِك الإِنْسان لَا يَلِيق أنْ يُوصَف بالتَّكبُّر، واللهُ تعالَى مَوْصُوف بِه وهُو مِن كَمالِه.

فالحاصِل: أنَّه لَا يَلْزم ممَّا يَكُون مُمتنعًا شرعًا أَو قَدرًا فِي حَقِّ المَخْلُوق أنْ يَكُون مُمتنعًا فِي حَقِّ الخالِق وبالعَكْس.

[١] ثُمَّ قالَ: «**يَعْلَمُ أَحْوَالَـهُمْ، وَيَسْمَعُ أَقْوَالَـهُمْ، وَيَرَى أَفْعَالَـهُمْ، وَيُدَبِّرُ أُمُورَهُمْ؛ يَرْزُقُ الفَقِيرَ، وَيَجْبُرُ الكَسِيرَ، يُؤْتِي المُلْكَ مَنْ يَشَاءُ، وَيَنْزِعُ المُلْكَ مِمَّنْ يَشَاءُ، وَيُعِزُّ مَنْ يَشَاءُ، وَيُذِلُّ مَنْ يَشَاءُ، بِيَدِهِ الخَيْرُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**».

قَوْله: «**يَعْلَمُ أَحْوَالَـهُمْ**» هذِه من مُقتَضَيات المعيَّة، ومُستلزماتِها.

[٢] ثُم قالَ: «**وَمَنْ كَانَ هَذا شَأْنُهُ كَانَ مَعَ خَلْقِهِ حَقِيقَةً، وَإِنْ كَانَ فَوْقَهُمْ عَلَى عَرْشِهِ حَقِيقَةً**» ولا مانِعَ، ولَيْس فِي هَذا أَيُّ تَناقُضٍ، ولَا أَيُّ وَصْفٍ لَا يَلِيق باللهِ، إِذِ الذِي لَا يَلِيق باللهِ أَنْ نَفْهم مِنَ المَعِيَّة الاختِلَاطَ، والحُلول فِي المَكان، كَما قالَتِ الجَهْميَّة.

ولهذا لـما ظهَر هَذا القولُ المبتَدَعُ الضالُّ صارَ السَّلَف يَقُولون: «هُو مَعَنا بعِلْمه» ففسَّروا المعيَّةَ بلَازِمِها، وهُو العِلْم، علَى أنَّ لازِمَ المعيَّة لَيْسَ العِلْمَ فقَط،

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[1] [الشورى:١١].

كما صرَّح بذلِك ابن كَثِير رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي (التَّفسير)(١)، وصرَّح بِهِ أيضًا ابنُ رجَبٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي (جامِع العُلُوم والحِكَم)(٢)، بَل هُو معَنا بعِلمه، وسَمْعه، وبَصَره، وسُلطانه، وقُدْرته، ورُبوبيَّته، وغَير ذلِك مِن مَعانِي الرُّبوبيَّة، لَكِنْ فسَّرها مَن فسَّرها مِن السَّلَف بالعِلم ردًّا علَى الجَهْمية، الذِين قالُوا هُو معَنا بذاتِه فِي مَكانِنا!.

ولهذا فِي عِبارة بَعْضهم -وهُوَ عَبد الله بنُ المُبارك- قالَ: «ولَا نَقُول كَما يَقُول الجَهْمِيَّة: إنَّه معَنا هَهُنا» وأشارَ إلَى الأَرْض(٣)، وهَذا هُو الذِي حَذَّرَهُ السَّلَف، وفسَّروها بالعِلْم، وهُو تَفْسيرٌ ببَعْض اللَّوَازِم، ولَيْس باللوازِم كُلِّها. والقَصْد مِنه الرَّدُّ علَى الجَهْميَّة الحُلُوليَّة.

كما أن بَعْض السَّلَف قالَ: «هُو مُسْتوٍ علَى عَرْشه بذاتِه» مَع أنَّ «بذاتِه» غَير وارِد، لَكِن قالَ: «بذاته» ردًّا علَى مَن قالَ: إنَّ الاستواء هُو الاستيلاء، فهُو استِواء مَعْنويٌّ لَا ذاتِيٌّ، وكَما عَبَّر بَعْضُهم بقَوْله: «يَنْزِل إلَى السَّماءِ الدُّنْيا بذَاتِه»، ردًّا علَى قَوْل مَن يَقُول: إنَّ الذِي يَنْزِل أَمْرُه، أَو رَحْمتُه، أَو مَلَكٌ مِن مَلائِكته، فيَجِب أنْ نَعْرِف أنَّ السَّلَف قَد يُفسِّرون الشَّيْءَ بالمَعْنَى، أَي بِلَازِمِهِ، حَذَرًا مِنْ مَعْنًى باطِلٍ اتَّخَذَهُ النَّاسُ فِي ذَلِك الوَقتِ.

[١] قَوْله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ إشارَة إلَى المعيَّة مَع الفَوْقيَّة، لو قُدِّر أنَّها مُمتنِعةٌ فِي حَقِّ المَخْلوقِ فَلَا تَكُون مُمتنعةً فِي حَقِّ الخالِق؛ لأنَّ الله تعالَى لَيْس كمِثْله شَيْء.

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٥٢٨).

(٢) جامع العلوم والحكم (١/ ٤٧١).

(٣) أخرجه ابن المقرئ في معجمه رقم (٢٩١)، والبيهقي في الأسماء والصفات رقم (٩٠٣).

ولَا نَقُولُ كَمَا تَقُولُ الحُلُولِيَّةُ -مِنَ الجَهْمِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ- إِنَّه مَعَ خَلْقِهِ فِي الأَرْضِ[١]، ونَرَى أَنَّ مَنْ قَالَ ذَلِكَ فَهُوَ كَافِرٌ أَوْ ضَالٌّ[٢]؛ لِأَنَّهُ وَصَفَ اللهَ بِمَا لَا يَلِيقُ بِه مِنَ النَّقَائِصِ.

---

[١] قَوْله: «ولَا نَقُولُ كَمَا تَقُولُ الحُلُولِيَّةُ -مِنَ الجَهْمِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ-، إِنَّه مَعَ خَلْقِهِ فِي الأَرْضِ» فالجَهْمِيَّة يَقُولُون: إنَّ اللهَ مَعَ خَلْقِه حالٌّ فِي الأَرْض.

[٢] قَوْله: «ونَرَى أَنَّ مَنْ قَالَ ذَلِكَ فَهُوَ كَافِرٌ أَوْ ضَالٌّ» كافِرٌ إنْ بلَغَتْهُ الحُجَّة، وأنَّ هَذا مُستحِيل علَى اللهِ، وأنَّه نَقْصٌ فِي حقِّه، أَو ضالٌّ إنْ لَمْ يَكُن كَذلِك.

فعَلى كُلِّ حَالٍ: هَذا القَوْل مَرْفُوضٌ، لَكِن قَائِله إمَّا أن يَكُون كافرًا، وإمَّا أنْ يَكُون ضالًّا، حسَب مَا تَقْتضِيه حالُه؛ «لِأَنَّهُ وَصَفَ اللهَ بِمَا لَا يَلِيقُ بِه مِنَ النَّقَائِصِ».

ثمَّ اعْلَمْ: أنَّ مُقتَضى المعيَّة عامٌّ وخاصٌّ، فإِذَا كانَ المقصُودُ بذَلِك بيانَ إحاطَةِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بالخَلْق فهِيَ مَعيَّة عامَّة، كقَوْله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد:٤]. وكقَوْله تعالَى: ﴿وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾ [المجادلة:٧]. فهذِه يُسمِّيها العُلَماءُ مَعيَّة عامَّة، والمقصُود بِها بَيان إحاطَةِ الله عَزَّوَجَلَّ.

وتكُون المعيَّةُ للتَّهْديد، كَما فِي قَوْله تعالَى: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ [النساء:١٠٧]. فالمقصُود بذَلِك تَهديدُ هَؤلاءِ ووَعِيدُهم.

وقَد يَكُون المُراد بِها النَّصْر والتَّأْييد، وهَذِه قَد تُقيَّد بوَصْف، وقَدْ تُقيَّد بشَخْصٍ، فالمُقيَّدة بوَصْف مِثْل قَوْله تعالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل:١٢٨]. وكقَوْله تعالَى: ﴿وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال:٤٦]. فهُنا

لم تُقيَّد بشَخْص، بَل قُيِّدت بوَصْف فمَن كانَ مُتَّقيًا مُحْسِنًا كانَ اللهُ معَه، ومَن كانَ صابرًا كانَ الله مَعَه، وقَدْ تُقيَّد بشَخْصٍ كقَوْله تعالَى: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة:٤٠]. وكقَوْله الله تعالَى لموسى وهارون: ﴿لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه:٤٦].

هذِه أربعةُ أَنْواعٍ:

الأوَّل: أنْ يَكُون المقصُود بِها بيانَ الإحاطَةِ.

الثَّاني: أنْ يَكُون المقصُود بِها التَّهديدَ.

الثَّالث: أن يَكُون المقصُود بِها النَّصْرَ والتَّأييدَ، لَكِنْ مُقيَّد بوَصْف.

الرَّابع: أنْ يَكُون المقصُود بِها النَّصْرَ والتَّأييدَ، ولَكِنْ مُقيَّد بشَخْصٍ.

وكُلُّ هذِه الأنواعِ لَا تُنافِي عُلُو الله عَزَّوَجَلَّ، فإنَّ هذِه المعيَّةَ ثابتةٌ علَى وَجْهِ الحَقِيقةِ، لَكِن لَا تُنافي عُلُو الله، فهُو مَع خَلْقه، وهُو علَى عَرْشِه.

فإنْ قَالَ قَائِل: أَلَيس اللهُ تعالَى يَقُول: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ﴾ [ق:١٦]. والإِنْسان يَشْمَل المُؤمِن والكافِر، والعابِد وغَيْر العابِد، والداعِي، وغَير الدَّاعِي؟

قُلْنا: إن شَيْخ الإِسْلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَقُول: نحنُ أَقْرَبُ إِلَيْه بمَلائِكَتِنا، لأَنَّه قَيَّد القُرب بقَوْله تعالَى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ﴾.

ولكِن يَرِد عَلَى هَذا أنْ يُقال: كَيْف يُضِيفُ اللهُ القُرْبَ إِلَيْه والمُراد قُرْبُ مَلائِكته؟!

وَنُؤْمِنُ بِمَا أَخْبَرَ بِهِ عَنْهُ رَسُولُهُ ﷺ أَنَّهُ يَنْزِلُ كُلَّ لَيْلَةٍ[١] ....

قُلْنا: لَا غَرَابَةَ، كَما أَضافَ القِراءةَ إِلَيْه، والمُراد قِراءة مَلائِكته، قالَ تعالَى لرسوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ [القِيامَة:١٧] فالقارئ هُو جِبريل، فالله تَعالَى يُضيف الشَّيْء لنَفْسه ومُراده مَلائِكته؛ لأنَّ مَلائِكتَه يَفعلـون بأَمْره، فأُضيف إِلَيْه فِعلهم، لأنَّه هُـو الآمِـر لـهم جَلَّ وَعَلَا.

فالحاصِل: أنَّ القُرب -كَما قَالَ شَيْخ الإِسْلام رَحِمَهُ اللَّهُ- خاصٌّ ولَا يَكُون عامًّا.

مَسْأَلةٌ: قَوْلُ بَعْضِهم: «اللهُ استَوَى عَلَى العَرْشِ لَكنَّه مَوْجُود فِي كُلِّ مَوْجُود» يَجِبُ أَنْ نُطَهِّرَ أَلسِنتَهم مِنه، وهَذا يَحتاجُ إِلَى وَقْت إِذَا كانَ مُعتادِين ذَلِك؛ أَمَّا عِندَنا -فِي الحَقِيقةِ- فِي بِلادِنا فَلَا يُوجَد هَذا الكَلام، ويُمكِن أَنْ يُوجَد فِي بِلادٍ فِيها بَقَايَا صُوفيَّة ومَا أَشْبه، فيُقال: لَا يَجُوز أَنْ تَقُولَـها، لَكِـن قُل: «إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ، وَبِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ».

[١] قَوْله: «**وَنُؤْمِنُ بِمَا أَخْبَرَ بِهِ عَنْهُ رَسُولُهُ ﷺ أَنَّهُ يَنْزِلُ كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّماءِ الدُّنْيا، حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ**».

نُؤمِنُ بقُلُوبِنا، ونَعتقِدُ ذَلِك، وأَنَّه حَقٌّ علَى حَقيقتِه؛ لأنَّ نَبيَّه مُحَمَّدًا ﷺ -وهُو أَعْلَمُ النَّاسِ بِه، وأَصْدق النَّاسِ خَبَرًا، وأَحْسنُ النَّاسِ حَدِيثًا- أَخْبَرَ بِه عَن ربه، بأنَّه يَنْزِلُ إِلَى السَّماء الدُّنْيا كُلَّ لَيلةٍ، حِينَ يَبقَى الثُّلُث الآخِر(١).

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التهجد، باب الدعاء والصلاة من آخر الليل، رقم (١١٤٥)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل والإجابة فيه، رقم (٧٥٨)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

إِلَى السَّماءِ الدُّنْيا[١]، ....

والفِعْل «يَنْزِل» مُضافٌ إِلَى اللهِ، فيكُون نُزُوله هُو بنَفْسه عَزَّوَجَلَّ، ولَا حاجةَ أن نَقُول «بذاتِه»؛ لأنَّ كُلَّ فِعْل أَضافَه اللهُ إِلَى نَفْسه، فهُو مَنْسُوب إِلَيْه نَفْسه.

[١] قَوْله: «إِلَى السَّماءِ الدُّنْيا» «الدُّنْيا» القُربَى مِنَ النَّاس، وهِي أَسْفَل السَّموات، يَنْزِل جَلَّوَعَلَا نُزُولًا يَلِيق بِه سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، ولَا يُمْكِن أَنْ نَتصوَّر كَيْفِيّته، ولَو حاوَل الإِنْسانُ تَصوُّر كَيْفِيَّتِه لأَنْكَره؛ ولهَذا فالذِين حاوَلُوا أَنْ يَتصوَّروا الكَيْفِيّة أَنْكرُوه، فقالُوا: كَيْف نُؤْمِن بأَنَّه عالٍ ثمَّ يَنْزِل إِلَى السَّماء الدُّنْيا، هَذا مُستحِيل، فنَقُول: لَا تُحاول أَنْ تَتصوَّر الكَيْفِيّة؛ لأَنَّه نُزول يَلِيق بِه، ولَا يُنافِي كَماله، والصَّحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ لـمَّا حدَّثهم الرَّسُول ﷺ بنُزُولِه تعالى إِلَى السَّماء الدُّنْيا لم يَقُولوا: كَيْف يَنْزِل يا رَسُول الله؟ وهُم لَيسُوا بأَغْبِياء لَا يَعْرِفون، بَل يَعْرِفون، لَكِن عِندَهم مِنَ الأَدَب مَعَ الله ورَسولِه ﷺ مَا مَنَعَهم أَنْ يَسأَلُوا كَيْفَ يَنْزِل، فيُؤْمِنون أَنَّه يَنزِل سُبحانَه، وبذَلِك يَكُون أَقْرَب إِلَى العِباد.

فإِنْ قَالَ قَائِل: كَيْفَ يَنزِل؟ **قُلْنا:** اللهُ أَعْلم، وأَنتَ مُبتدِع، ولـهَذا لـما سُئل الإِمامُ مالِك رَحِمَهُٱللَّهُ عَن كَيْفِيّة الاستِواء قالَ: «مَا أُراكَ إِلَّا مُبتدِعًا». أو: «مَا أَراكَ إِلَّا مُبتدعًا» فقُل: يَنزِل، ولَا تَقُل: كَيْف يَنزِل؛ لأَنَّ الرَّسُول ﷺ أخبرَنا أَنَّه يَنْزِل ولم يُخبِرْنا كَيْف يَنْزِل، ولَو كانَ ذلِك خيرًا لنَا لأَخبَرَنا.

فإِن قَالَ قَائِل أيضًا: هَل إِذَا نَزَل الله تعالى إِلَى السَّماء الدُّنْيا يَخْلُو مِنه العَرْش؟

قُلْنا: أَمَّا أديبًا فَلَا تَبحث عَن هذا، وأَقُول لِمَن سأَلَني: أَنتَ مُبتدِع، لأَنَّ الصَّحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ لـمَّا حدَّثَهُم رَسُولُ الله ﷺ عَن هَذا لم يَسأَلُوا: هَل يَخْلُو مِنه العَرْش أَمْ لَا؟!

حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ[١]،...

وأنَا أَعْجَب أن يَتكلَّم شَيْخ الإِسْلام بمِثل هَذا ويَبْحثه، لَكِن شَيْخ الإِسْلام مُضطرٌّ إلَى البَحْث فِي هذا؛ لأنَّ النَّاس تكلَّمُوا فِيه، والتَّبِعة علَى مَن تكلَّم بِه أولًا، وإلَّا فلَا تَجِد حَرْفًا واحدًا أنَّ أحدًا مِن الصَّحابة سَأَل عَن ذَلِك، ونَحْن لَسْنا مُكلَّفِين بعِلم هذا، لَو كُنَّا مُكلَّفِين بِه لَعَلَّمَنَا اللهُ إيَّاه أَو رَسُولُه، فالسُّكوت هُنا هُو الواجِب، ولَكِن إذَا ابْتُلِينا فنَقُول: للعُلَماءِ فِي ذلِك ثلاثةُ أَقْوالٍ:

الأوَّل: يَخْلُو مِنه العَرْش.

والثَّاني: لَا يَخْلُو مِنه العَرْش.

والثَّالث: التَّوقُّف، ونَقُول: اللهُ أَعْلم.

وشَيْخ الإِسْلام يَمِيل إلَى أنَّه لَا يَخْلُو مِنه(١)؛ لأنَّ اللهَ ذَكَر الاستِواء ولَم يَسْتثْنِ وَقتًا مِنَ الأوقاتِ، وقالَ: إنَّ الجَمْع بَيْن الاستِواء علَى العَرْش والنُّزول بالنِّسْبة لله عَزَّوَجَلَّ مُمكِنٌ، وإنْ كانَ بالنِّسْبة للمَخلوق غَيْرُ مُمْكِنٍ؛ لأنَّ المَخْلوقَ مَحْدودٌ، وإذَا انشغَلَتْ بِه جِهةٌ خَلَتْ مِنه جِهةٌ أُخرى، أمَّا الرَّبُّ عَزَّوَجَلَّ فَلَا يُقاسُ بالخَلْق.

وأنَا أرَى أنْ يُطَهَّرَ اللِّسانُ عَن هَذا الإِيرادِ مِنَ الأَصْل.

[١] قَوْله: «**حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ**» اللَّيلُ يَبْتدِئ -بالإِجْماع- مِنْ غُرُوب الشَّمْس؛ لقَوْله تعالَى: ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ﴾ [البقرة:١٨٧]. أَي إلَى غُرُوب الشَّمْس، وقالَ النَّبِي ﷺ: «**إذَا أَقْبَلَ اللَّيْلُ مِنْ هَاهُنَا**» أَي: مِنَ المَشْرِقِ، «**وَأَدْبَرَ النَّهارُ مِنْ هَاهُنَا**»

(١) مجموع الفتاوى (٥/ ١٣١).

أَي مِنَ المَغْرِبِ **«وَغَرَبَتِ الشَّمْسُ»**[١].

وَنِهايَةُ اللَّيلِ فِيها قَوْلان لأَهْل اللُّغة:

قِيل: بطُلُوع الفَجْر.

وقِيل: بطُلُوع الشَّمْس.

ونَحن نَقُول: أمَّا فَلَكيًّا فإنَّه يَنْتهي بطُلُوع الشَّمْس؛ لأنَّ طُلُوع الشَّمس وغُروبَها هُو الفاصِلُ بَيْن اللَّيْل والنَّهار، ولَيْس الضَّوء الذِي يَكُون مِنَ الشَّمس، ولَو كانَ الضَّوء الذِي يَكُون مِنَ الشَّمس لقُلْنا: إنَّ اللَّيلَ لا يَدْخُل إلَّا إذَا غابَ الشَّفَق.

وأمَّا اللَّيلُ الشَّرعي فإنَّه يَنْتهِي بطُلُوع الفَجْر؛ لِقَول النَّبي ﷺ: **«اجْعَلُوا آخِرَ صَلَاتِكُمْ فِي اللَّيْلِ وِتْرًا»**[٢]، وقَوْله ﷺ: **«إذَا خَشِيَ أَحَدُكُمُ الصُّبْحَ صَلَّى رَكْعة واحدة، فأوترت مَا صلى»**[٣]؛ فدلَّ ذَلِك علَى أنَّ آخِرَ اللَّيلِ هُو طُلُوع الفَجْر، ويدلُّ لهذا أيضًا أنَّ الصائِم يَبتدِئ صَومه بطُلُوع الفَجْر.

وعلَى هَذا فالليلُ شَرعًا مِن غُرُوب الشَّمس إلَى طُلُوع الفَجْر، وفَلَكًا مِن غُرُوب الشَّمس إلَى طُلُوع الشَّمس، والذِي يُحْمَل عَلَيه كَلام الرَّسُول ﷺ هُو الليلُ الشَّرعيُّ،

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصوم، باب الصوم في السفر والإفطار، رقم (١٩٤١)، ومسلم: كتاب الصيام، باب بيان وقت انقضاء الصوم، رقم (١١٠١)، من حديث عبد الله بن أبي أوفى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الوتر، باب ليجعل آخر صلاته وترا، رقم (٩٩٨)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب صلاة الليل مثنى مثنى، رقم (٧٥١)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب الحلق والجلوس في المسجد، رقم (٤٧٢)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب صلاة الليل مثنى مثنى، رقم (٧٤٩)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

....

وعَلَى هَذا فنَقُول: إنَّ ثُلثَ الليلِ الذِي يَبتدِئ ليلُه مِنَ الغُرُوب ويَنْتهِي بطُلُوع الفَجْر، وهَذا هُو الأَقْرب.

مَسْأَلةٌ: فِي بَعْض الأحاديثِ ورَد نُزُول اللهِ فِي الثُّلُث الأَوْسط، وفِي بَعْض الأحادِيثِ فِي الثُّلث الأَخِير، فَما الجَمْع بَيْنهما؟

نَقُول: الثُّلث الأَوْسط هُو الذِي يُطابق قَولَ الرَّسُول ﷺ: «**أَفْضَلُ القِيَامِ قِيَامُ دَاوُدَ، كَانَ يَنَامُ نِصْفَ اللَّيْلِ، وَيَقُومُ ثُلُثَهُ، وَيَنَامُ سُدُسَهُ**»[1]. وكَذلِك النَّبي ﷺ كثيرًا مَا كانَ يَنامُ آخِرَ الليلِ، ويَقُوم ثُلثَه ويَنامُ سُدُسَه؛ لِقَوْل عائِشَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «مَا أَلْفَيْتُهُ سَحَرًا إِلَّا نَائِمًا»[2]، فالأَوْسط يَكُون ابتداءُ النُّزول فِيه مِنَ النِّصف، فيُحمَل الحَدِيثانِ -لأَنَّ كِلَيْهِما صَحِيحٌ- علَى أنَّ النُّزُولَ الإِلهيَّ إمَّا أَنَّه مِنَ النِّصف إِلَى آخِرِ الليلِ، لِلجَمْع بَيْن الحَدِيثين فِي المِقْدار، أَو يُقال: إنَّ اللهَ تعالى يَنْزِل إِلَى السَّماء مرَّةً ثُلث الليلِ الأَوْسط، ومرَّةً ثُلثَ الليلِ الأَخِير.

فإِنْ قِيل: أَلَا يُمْكِن أن نَقُول: إنَّه فِي الأَوَّل يُرسل مَلائِكتَه، وفِي الأَخِير يَنْزِل هُو؟ **فالجواب:** لَا يُمكن، فقَوْله: «**يَنْزِلُ**» أَي: يَنزِلُ هُو عَزَّوَجَلَّ.

وقَوْله: «**يَنْزِلُ كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّماءِ الدُّنْيا، حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ**» قَالَ فِيه بَعْض المُتحَذْلِقِينَ المُتعَيْلِمِينَ: إنَّه يَلْزَم مِن هَذا أَنْ يَكُون اللهُ دائمًا نازِلًا فِي السَّماء

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التهجد، باب من نام عند السحر، رقم (١١٣١)، ومسلم: كتاب الصيام، باب النهي عن صوم الدهر (١١٥٩)، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب التهجد، باب من نام عند السحر، رقم (١١٣٣)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب صلاة الليل، رقم (٧٤٢).

فيَقُولُ: «مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟»[١].

الدُّنْيا؛ لأنَّ ثُلثَ الليلِ الأخِير دائمًا مَوْجُود يَدُور علَى الأَرْض؟

فنَقُول: مَا أَجْهَلكم بالله وصِفاتِه عَزَّوَجَلَّ، هَل تَعتقِدون أنَّ الله يَخفَى عَلَيه ذلِك حِينما أَخْبر عَنْهُ نبيُّه ﷺ وأقرَّه اللهُ علَيْه؟ إنْ قالُوا: نَعَم؛ فقَد كَفروا، وهَؤلاءِ لَا كَلامَ مَعَهم.

وإنْ قالُوا: لَا، قُلْنا: آمِنوا بالنَّصِّ كمَا جَاء، وأنَّه مَتى كانَ الثُّلث الأخِير علَى وَجْه الأَرْض فالنُّزول الإِلَهي مَوْجُود، ومَتى طَلَع الفَجْر فهُو مَعْدُوم.

فأَنَا -مثلًا- فِي هذِه الجِهَة مِنَ الأَرْض أَعْرِف مَتى يَكُون الثُّلُث الآخِر مِنَ الليلِ، ومَتى يَطلُع الفَجْر، فأُؤْمِنُ بأَنَّه فِي هَذا الوَقْت النُّزُول الإلهي بالنِّسْبة لهَذا الوَجْه مِنَ الأَرْض ثابِتٌ، وبالنِّسْبة لمَن عِندَهم نَهار أَو عندهم ليلٌ لم يَصِل الثُّلث فإنَّ النُّزول مَعْدوم، والرَّب عَزَّوَجَلَّ لَا يُقاس بالخَلْق، وعَلَى هَذا فآمِنْ بأُمُور الغَيْب كمَا جاءَت، ولَا تُكلِّف نَفْسك فِي شَيْء يُوجِب لَكَ أنْ تُنكِر مَا ثَبَت.

[١] قَوْله: «فيَقُول: «مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟» فِيه دَلِيل علَى تعرُّض الرَّب عَزَّوَجَلَّ للكَرَم، والعَطَاء، والنِّعمة، والفَضْل فِي قَوْله: «مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ»: فـ(مَن) اسْمُ استِفْهامٍ، يدلُّ علَى التَّشْجِيع والتَّشْوِيق.

و«يَدْعُونِي» كأنْ يَقُول: يا رَبِّ!.

قَوْله: «مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ» كأنْ يَقُول: أَسْأَلُكَ الجنَّةَ.

....

قَوْله: «مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ» كأنْ يَقُول: يَا ربِّ اغفِرْ لِي.

فذكَر اللهُ تعالى مَا يَزُول بِه السُّوء، ومَا يَحصُل بِه المَطلُوب، فَما يَزُول بِه السُّوء فِي قَوْله: «مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي»؛ لأنَّ الذُّنُوب سببٌ للسُّوء، فإذَا غُفرت زالَ أثرُها، ومَا يَحْصُل بِه المَطْلُوب ففِي قَوْله: «مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ».

أمَّا قَوْله «يَا رَبِّ» فهُو دُعاءُ الرَّبِّ عَزَّوَجَلَّ؛ لِظُهور الافتِقار إلَيْه قبل أن يَقُول: يَا ربِّ اغفِر لي أَو يَا ربِّ أعطِني، هكَذا جَاءَ الحَدِيث عَن النَّبِي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

وكَوْنه فِي الثُّلث الأخِير مِن الليل لأنَّه ألذُّ مَا يَكُون مِن النَّوم، فيَهجر المرءُ فِراشَه، ويَقوم إلَى رَبِّه يَتعرَّض لِفَضْله وكَرَمِه، ولهَذا كانَ الجزاءُ أنَّ الله تعالى يَستجِيب لَهُ إذَا دَعاهُ، ويُعطيه إذَا سأَلَه، ويَغفر لَهُ إذَا استغفَرَه.

وقَوْلُ السَّلَف وأئمَّة أَهْل السُّنَّة أنَّ هَذا النُّزولَ حَقِيقيٌّ، وأن هَذا القَوْل حَقِيقيٌّ، وأنَّ الاستِجابَةَ والإِعطاءَ والمغفِرَة كُلها حَقيقةٌ، مَوْصوفٌ بِها الرَّب عَزَّوَجَلَّ.

وانحَرَفَ مَنِ انحَرَفَ مِنَ النَّاس، وقال: إنَّ الذِي يَنزِل إلَى السَّماء هُو أمْر الله، وتَحذْلَق آخَرُ وقالَ: الذِي يَنزِل هِيَ الرَّحمة، وتَحذْلَق ثالِث، وقال: إنَّ الذِي يَنزِل مَلَك مِنَ المَلائِكة، ولَكِن اللهَ تعالى أضافَهُ إلَى نَفْسه؛ لأنَّ هَذا مَلَك نَزَل بأَمْره، فهُو كقَوْله تعالَى: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾.

وسببُ ذلِك: أنَّهم ظنُّوا نُزُول الرَّبِّ عَزَّوَجَلَّ كنُزُول المَخْلوق، فقالُوا: إذَا نَزَل لَزِم ألَّا يَكُون عاليًا، ولَزِم أنَّ السَّماء تُقِله، وأنَّ الثانيةَ فَما فوقها تُظِلُّه، وهَذا مُستحِيل علَى الله عَزَّوَجَلَّ، فيَقُولـون لنَا: لَا تَجعلُـونا نَعتقِد فِي اللهِ مَا لَا يَلِيق بِه، فيُخوِّفُـونَنا باللهِ

....

إذَا قُلْنا: إنَّ اللهَ يَنْزل نَفْسُه، ويَأْتُون إلَى العاميِّ المِسْكِين ويَقُولون لَهُ مِثلَ هَذا الكَلام، فيَقُول: أَسْتغفِر اللهَ وأَتوبُ إلَيْه، والحَقُّ مَا قُلتُم أنَّه يَنْزِل أَمْرُه، أَو رَحْمتُه، أَو مَلَكُه!! هكَذا أدَّى بِهم التَّصوُّر الفاسِد إلَى تَحريفِ النَّصِّ.

لَكِن لَو قالُوا: إنَّنا لَا يُمْكِن أن نُدرك صِفاتِ رَبِّنا؛ أَي لَا نُدرك كَيْفِيّتها، وكُنْهَهَا، فَلَا نَقُول: كَيْف يَنْزِل، وكَيفَ السَّماء تُقِلُّه، أَو تُظِلُّه، ونَقُول: كَمَا قَالَ الرَّسُول ﷺ، وكَما قَالَ الصَّحابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: سَمِعْنَا، وَآمَنَّا، وصَدَّقْنا، ولَا نَتجاوُز هَذا لَكانَ هُو الواجِب، ثُمَّ إنَّنا مَعَكم فِي نَفْي أنْ تَكُون السَّماءُ تُقِلُّه أَو تُظِلُّه، وأنَّه مُستحِيلٌ عَنِ الله، لَكِن هَذا لَيْس لازمًا لصفات الله تَعالَى.

ثم نَقُول لهم: إذَا قلتم: إن الذِي ينزل أمره فقد كذبتم القُرْآن؛ لأنَّ الله تعالَى يَقُول: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ [السجدة:٥]، فمُنتهى الأَمْر هُو الأَرْض، وأَنْتم جَعَلْتُم مُنتهَى الأَمْرِ هُو السَّماء الدُّنْيا.

وإذا قُلْتُم: الذِي يَنْزِلُ الرَّحْمَة فَما فائدتُنا نحنُ مِن رحمةٍ لَا تَصِل إلَيْنا، بَل تَقِفُ عِنْد السَّماء الدُّنْيا؛ فَما الفائِدَة حتَّى يحثَّنا الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بهذا الأُسْلوب؟!

وإذا قُلْتُم: إنَّه مَلَك؛ فهَل يُمْكِن لأيِّ أحَدٍ مِنَ المَخلوقين أنْ يَقُول-وبِاسمِ اللهِ-: «**مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ**» هَل يُمكِن أنْ يَنْطِقَ المَلَك بهذا؟ أبدًا، لَا يُمكن، ثمَّ إنَّه فِي بَعْضِ ألفاظِ الحَدِيثِ: «**مَنْ ذَا الذِي يَسْأَلُ عَنْ عِبَادِي غَيْرِي، مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ**»(١)، فهَل هَذا يُمكِن أنْ يَقَع مِنْ مَلَكٍ؟!

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٤/ ١٦)، وابن ماجه: كتاب إقامة الصلاة، باب ما جاء في أي ساعات الليل أفضل، رقم (١٣٦٧)، من حديث رفاعة الجهني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

....

فإنْ قالَ قَائِل: ذكَرنا أَنَّنا نُؤْمِن بأنَّ اللهَ مَعَ خَلْقه وهُوَ عَلَى عَرْشه؛ وأنَّ أَحَد السَّلف فسَّرها بِلازِمِها، فهَل نُزُول اللهِ إِلَى السَّماء الدنيا أيضًا يُمْكِن أن يُفسَّر بلازمه؟

فالجَواب: لَا يُمكن، فمَا عَلِمنا أحدًا فسَّرها بلازِمها، لكنَّهم أنكروا عَلَى مَن فسَّرها بأنَّها نُزُول الرَّحمة، أَو أنَّها نُزُول المَلَك مِن المَلائِكة وأَنْكروا هذا.

وإنْ قِيل: إِذَنْ: فمَا هُو الضَّابط فِي تَفْسِير الصِّفات بِلازِمِها أَو عَدَمِه؟

فالجَوابُ: الواجِبُ: تَفْسير الصِّفات بحَقِيقة مَعْناها، ولَا نَلْجأ لِتَفْسيرها باللازِم إِلَّا إِذَا كُنَّا نُخاطب مَن لَا يَتَّسع ذِهْنُه للحَقِيقة، فمَثلًا: السَّلف فسَّروا المعيَّة: بالعِلم لأنَّه شاعَ فِي وَقْتِهم قَوْل الجَهْمية: أَنَّه مَعَنا بذَاتِه فِي الأَرْض، والعاميُّ لَا يَفْهم أن يَكُون الله فِي السَّماء وهُوَ معنا، فلَا يَتصوَّر ذَلِك تمَامًا، ففَسَّروها بالعِلم؛ ولهَذا عَبَّر بَعْض السَّلف فقَالَ: ولَا نَقُول: إنَّه هَاهُنا كمَا تَقُول الجَهْمِيَّة.

وأَنَا أُحذِّركم ثُمَّ أُحذِّركم أنْ تُخالِفوا ظاهِرَ النُّصوص، لَكِن إِذَا كَانَت عُقُولكم لَا تُدرِك هَذا بالنِّسْبة لله فصَدِّقُوا علَى مَا أرادَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ.

فنَحن نَعلَمُ أنَّ الشَّمس تَدْنوَ مِنَ الخلائِق يَوْم القِيامَة قَدْر مِيل، ويَعْرق النَّاس، حتَّى يَصِل العَرَق فِي بَعْض النَّاس إِلَى رَأْسِه، وهُم فِي مَوْقِف واحِدٍ، فهَل هَذا يُعْقَل فِي الدُّنْيا؟ لَا، لَكِن أُمُور الآخِرة وأُمُور الغَيْب فَوْقَ مَا نَتصوَّر، ولم يُخبِرْنا اللهُ مِن أُمُور الغَيْب إِلَّا بِمَا يُمْكِن أن نُحِيطَ بِه، أمَّا مَا لَا يُمْكِن فقَد أَخْفاهُ فَلَا نَعْلمه نَحنُ.

وَنُؤْمِنُ بِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَأْتِي يَوْمَ المَعَادِ لِلْفَصْلِ بَيْنَ العِبَادِ[١]؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا[٢] ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا[٣] ﴿٢٢﴾ ....

وخُلاصةُ القَوْل: أنَّنا نُؤمِن بأنَّ اللهَ تعالَى يَنزِل إِلَى السَّماء الدُّنْيا حِين يَبْقَى ثُلث اللَّيل الآخِر، فيَقُول: «مَنْ يَدْعُوني فأَسْتَجِيبَ لَه، مَنْ يَسْأَلُنِي فأُعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتغفِرُني فأَغْفِرَ لَهُ». إِلَى أنْ يَطْلُعَ الفَجْرُ.

[١] قَوْله: «وَنُؤْمِنُ بِأَنَّه سُبْحَانَهُ يَأْتِي يَوْمَ المَعَادِ لِلْفَصْلِ بَيْنَ العِبَادِ» نُؤْمِن بذلِك، ونُصدِّق، ونَجزِم بِه، وكأنَّنا نُشاهِدُه رَأْيَ العَيْنِ؛ لأنَّ الله تعالَى أَخبَرَنا بِذَلِك، وثِقَتُنا بِما أَخبر اللهُ بِه أَبْلَغ مِن ثِقَتِنا بِما نَراهُ؛ لأنَّ أَعيننا قَد تَرى السَّاكِنَ مُتحرِّكًا، والمُتحرِّك ساكنًا، والأَسْودَ أَبيَض، أَو بالعَكْس، ولَكِن مَا أَخبر اللهُ تعالى بِه فهُو حَقٌّ.

وقَوْله: «يَأْتِي يَوْمَ المَعَادِ لِلْفَصْلِ بَيْنَ العِبَادِ»، والدَّلِيل علَى هذِه الصِّفَة قَوْله تعالَى: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر:٢١-٢٢] تُدَكُّ حتَّى لَا يَبقى علَيْها حَجَر، ولَا جِبال، ولَا أَوْدِية، قالَ تعالَى: ﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ [طه:١٠٦-١٠٧].

[٢] وقَوْله: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ هَل المُراد التَّأكِيد فِي ﴿دَكًّا دَكًّا﴾، أَو المُراد دَكًّا بعدَ دَكٍّ؟

الجَواب: فِيه احتِمالان: أن يَكُون المُراد التَّوْكيد، أَو أنَّه دكٌّ ثُمَّ دكٌّ آخرُ أشدُّ مِنْه.

[٣] قَوْله: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ أَي بعدَ دَكِّ الأَرْض، والخِطَابُ للرَّسُول ﷺ أَو لِكلِّ مَن يَتأَتَّى خِطابُه.

والمُراد بقَوْله: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ أَي علَى ظاهِره، والقاعِدَة: أنَّنا نُؤمِن بالنُّصوص

وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَۚ[١] يَوْمَئِذٖ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكۡرَىٰ ﴾[٢] [الفجر:٢١-٢٣].

علَى ظاهِرِها فنَقُول: جَاءَ ربُّك أَي: جَاءَ الله نفسُه حقيقةً؛ لأَنَّ الله أَضافَهُ إِلَى نَفْسِه فعلَيْنا أنْ نُضِيفَه إِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

﴿وَٱلۡمَلَكُ﴾ المُراد الجنس، فيَشْمَل جَمِيع المَلائِكة؛ لأَنَّ الذِي وَرَد أَنَّ مَلائِكة السَّماء تَنْزل فتُحيط بالخَلْق، ثمَّ مَلائِكة السَّماء الثَّانية تُحيط بالجَمِيع، ثمَّ الثَّالثة... وكُلَّما اتَّسعَت الدَّائِرة كانَ العَدَد أَكْثر، وهكَذا السَّموات، فأَهْل السَّماء الثَّانية، والثَّالثة أَكْثر مِنَ الثَّانِية، وهَلُمَّ جرًّا، وذَلِك لأَنَّ السَّمَواتِ كُلَّما ارتَفعَتِ اتَّسعَتْ.

﴿صَفّٗا صَفّٗا﴾ حَالٌ مِن «المَلَك»؛ أَي المَلائِكةُ تَأْتِي صُفوفًا صُفوفًا، أَهْل السَّماء الدُّنْيا، ثمَّ الثَّانية، ثمَّ الثَّالثة، وهَكَذا، فتكُون الصُّفوف سَبعةً.

[١] قَوْله: ﴿وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَ﴾ أَي جِيءَ بالنَّار، يُجاءُ بِها تُقادُ بسَبْعِين أَلْفَ زِمامٍ -أعاذَنِي اللهُ وإِيَّاكم مِنها-؛ كُلُّ زِمام يَقُوده سَبعُونَ أَلْف مَلَك، وفِيه دَلِيل علَى قُوَّة المَلائِكة، ولَا يَعْلم مَدَى قُوَّتِهم إِلَّا اللهُ عَزَّوَجَلَّ، فيُؤتَى بِهَا، وحِينئذٍ تَفِرُّ القُلُوب، والنَّار تَطَّلِعُ علَى الأَفْئِدة فتَصِل إِلَى قاعِ القَلْب مِن هَيْبتِها وخَوْفِها وكُلُّ إِنْسانٍ يَخافُ؛ لأنَّ الإِنْسانَ لَا يَعْرِف مَصِيرَه؛ لأَنَّه حتَّى الآنَ لم يَتبيَّن الأَمْر.

[٢] قَوْله: ﴿يَوْمَئِذٖ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكۡرَىٰ﴾ أَي: لَا ينفعه التَّذكُّر ذلِك اليَوْم، ولهَذا قالَ تعالَى: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكۡرَىٰ﴾ يَعْني: مَا أَبعدَ الذِّكْرَى لَه، فالذِّكرَى تَنْفع فِي الدُّنْيا قَبْل حُلُول الأَجَل، لَكِن بَعْدَ حُلُولِ الأَجَل لَا ذِكْرَى، لَكِن يَتذكَّر الإِنْسانُ يَوْمَ القِيامَةِ فيَقُول: صَدَق اللهُ ورَسولُه؛ ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ [يس:٥٢]، ولَكِن لَا تَنْفَعُ حِينئذٍ.

....

فَفِي هذِه الآياتِ: إِثباتُ مَجِيءِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ حقًّا، وكَما قُلْنا قَبْل قَلِيلٍ، ونَقُوله وسنَقُوله إِلَى أَنْ نَلْقى اللهَ عَزَّوَجَلَّ: أَنَّ كُلَّ مَا أَضافَه اللهُ إِلَى نَفْسه فهُو ثابتٌ لَهُ لَا لِغَيْرِه، ويَجِيءُ علَى وَجْهٍ يَلِيقُ بجَلَالِه وعَظَمَتِهِ، ولَا نَعرِفُ عَنْ كَيْفِيّته شَيْئًا.

وهَل يَجِيءُ بسُرعة أَو بِبُطْءٍ؟ نَقُول: لَا نَدْرِي، ولَكِن فِي بَعْض الأَحْيان نَعْرِف كَيْف يَجِيءُ، كَما جاءَ فِي الحَدِيث: «**مَنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً**»[1]، ولَكِن يَوْمَ القِيامَة لم يَذْكُرْ: هَرْولَةً أَو مَشْيًا، فَلَا نَعْرِفُ علَى أَيِّ صِفَةٍ يَأْتِي.

وكَذلِك المَلائِكةُ تَجِيءُ، لَكِن لَا نَعْلَم كَيْف تَجِيءُ، وإِنَّما نَعرِف أَنَّها تَأْتِي صَفًّا صفًّا؛ لأَنَّ هذِه أُمورٌ غَيبيَّة، لَا تُدرِكُها العُقُول، ولَا يَدْخُل فِيها القِياسُ، فعَلَينا أَنْ نُؤْمِن بِها كَما جاءَت، نَقُول: هَذا مَا قَالَ اللهُ تعالى ورَسولُه ﷺ وعَلَيْنا أَنْ نُصدِّق، ونَتأدَّب مَعَ اللهِ، ولَا نَتكلَّم بِما لم نُكلَّف بِه.

وانظر إِلَى الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ -واللهِ مَا نَحنُ أَشدُّ مِنهُم حُبًّا للعِلْم، ولَا أَشدُّ تَعظيمًا للهِ ورَسولِه ﷺ- ومَع ذَلِك لم يَقُولوا للرَّسُول ﷺ إِذَا حدَّث بشيءٍ عَن هَذا فلَا يَسأَلُون عَن كَيْفِيّته، ولم يَقُولوا: إِنَّ هذِه تَستبعِدُها عُقُولُنا، فَلَا نُصدِّق بِهَا! بَل يَقُولُون: سَمِعْنا وأَطعْنا.

والآنَ لَو تَقرأ مِثل هذِه الآياتِ والأَحاديثِ عِنْد عَجوزٍ مِن النَّاس لوجَدْتَ أَنَّها تَرتَعِدُ مِن خَشيةِ الله، وتُؤمِنُ أَنَّ هَذا حَقٌّ، وأَنَّ اللهَ يَجِيءُ حَقًّا.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾، رقم (٧٤٠٥)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب الحث على ذكر الله تعالى، رقم (٢٦٧٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

....

ولهذا صرَّح كثير مِن كِبار المُتكلِّمين أنَّهم يتمنَّوْن أنْ يمُوتوا على دِين العجائِز؛ لأنَّهم عرَفوا أنَّهم يَسيرُون تائِهِينَ فِيمَا يَسِيرُونَ بِه ممَّا يَدَّعُونه عقلًا، وأنَّ السَّلامة هِي التَّصدِيق دُونَ التعرُّض لأيِّ شَيْءٍ، ثمَّ لَو كَانَت عُقولُنا تُدرِك مَا فِي هذِه الآياتِ وغَيرِها مِنَ الحقائِق لبيَّنَهُ اللهُ لنَا، لَكِن برَحْمَتِه أخفاهُ عَنَّا، حتَّى نكُون مُذعِنين تمامًا للخَبر، ولَو كانَ الإِنْسان لَا يُصدِّق بالخَبر إلَّا مَا أَدْركَه عَقلُه لَكانَ الحقُّ تابِعًا للأَهْواء! قالَ تعالَى: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون:٧١].

فأَرجُو أنْ يُبصَّرَ النَّاسُ بهذه الأُمُور؛ لأنَّ أُمُور الغَيب لَيْس فِيها قِياس، وكَذلِك مَا يَتعلَّق بالبارِي لَا يُمْكِن أن يُقاس بخَلْقِه أبدًا، آمِنُوا بهَذا، فمَثلًا: جَهنَّم يُؤتَى بِهَا تُقاد بسبعِين ألف زِمامٍ، فهَل نحنُ الآنَ نَعرِفُ هذِه الأَزِمَّة؟ وهَل نَعرِف غلاظَتَها وقُوَّتها؟ والجَواب: لَا، فقد يَكُون الزِّمام أَغْلَظ مِن ألفِ مِتر! فلَا نَدرِي، لَكِن نُؤْمِن بأنَّها تُقادُ بأَزِمَّة، كُلُّ زِمامٍ لَيْسَ يَقُوده واحدٌ بَل سبعُونَ ألف مَلَك.

وقَد يَقُول قَائِل: كَيْف يُؤتَى بِها إِلَى الأَرْض وهِي بهَذه الصِّفَة؟

نَقُول: آمِن بهَذا، فصدِّق أولًا، وإذَا صدَّقت سَهُل علَيْك الأمر، أمَّا أنْ تَعرِض النُّصوص علَى عَقْلك إنْ أقرَّها صدَّقت وإلَّا أوَّلت أَو كَذَّبت! فهَذا لَيْس بصَحيحٍ، فأنتَ لستَ عبدًا لله بَل عَبدٌ لهَوَاكَ، ولَا قِياسَ فِي أُمُور الغَيْب.

وأهمُّ شَيْء: تمَامُ الاستِسلام لله فِعلًا للمَطلوب، وتَصديقًا بالخبَر، ولَو أَردنا أنْ نَفتحَ بابَ العَقلِ لَقال أحدُهم: لماذا يُفرَض علَينا خَمسُ صَلَوات لِمَ لَمْ تكُن عَشْرًا أَو ثلاثًا، أَو اثنتَيْن فِي الصَّباح وفِي المسَاء؟

وَنُؤْمِنُ بِأَنَّهُ تَعَالَى: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾[١] [هود:١٠٧].

وَنُؤْمِنُ بِأَنَّ إِرَادَتَهُ تَعَالَى نَوْعَانِ[٢]:

فهذِه الأمُور لَا يُمْكِن أن يُدرِكها العَقل، فعَلينا أن نُسلِّم حتَّى نكُون مُسْلِمِين لله حقًّا. أسألُ اللهَ لي ولكُم السَّلامَة.

[١] قَوْله: «**وَنُؤْمِنُ بِأَنَّه تَعَالَى: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾**» هذِه الآياتُ فِي الإرادَةِ، ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ فعَّال صِيغة مُبالغة، فكُلُّ مَا أراده فعَله عَزَّوَجَلَّ، لَا يَمْتَنِع عَلَيه شَيْءٌ، وكانَ النَّبي ﷺ يَقُول: «**لَا مانِعَ لِـمَا أَعْطَيْتَ وَلَا مُعْطِـيَ لِـمَا مَنَعْتَ**»(١) أما المَخْلوق فلَيْس فعَّالًا لـما يُريد؛ لأَنَّه قَد يُرِيد الشَّيْءَ ويَعجز عَنه، وقَد يُريدُه مَع القُدرة ثمَّ يُحال بَينه وبَينه، لَكِن الله عَزَّوَجَلَّ لَا يُسأل عمَّا يَفعل؛ لِقَوْل الله تَعالَى: ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾ أَيْ أَنَّ كُلَّ مَا فَعَله فهُو لِحِكْمة، لَا عَبَثًا، ولِذَلِك لَا يُسأل عمَّا يَفعل، أمَّا غيرُه مِنَ الفاعِلِين فإنَّه يُسأل: لِـمَ فَعَلْتَ هَذا؟، فيَقُول: فَعلْتُ لكَذا وكَذَا وقَد تكُون هذِه الغايةُ مَذمومةً.

فإذا قَالَ قَائِل: هذِه بالنِّسْبة لـما لَمْ يَكُن، فيكُون واضحًا؛ يَعْني يُريد الشَّيْء المعدُوم فيكُون، لَكِن إذَا أرادَ أن يُعدِم شيئًا، فهَل يَصِح أن نَقُول: إنَّه فعَّال لـمَّا يُريد؟ نَقُول: نَعَم؛ لأنَّ الإِعْدام داخِل فِي الفِعْل.

[٢] قَوْله: «**وَنُؤْمِنُ بِأَنَّ إِرَادَتَهُ تَعَالَى نَوْعَانِ**» لَو قَالَ قَائِل: مَا الذِي دلَّنا علَى أَنَّها نَوعانِ؟ قُلْنا: أنَّ كثيرًا مِن مِثل هَذا التَّعبير يَدلُّ عليَه التتبُّع والاستِقراء، يَعْني أَنَّنا تَتبَّعْنا آياتِ الإرادةِ فوَجْدناها لَا تَخْرجُ عَن هذَيْن النَّوْعَيْنِ:

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب الذكر بعد الصلاة، رقم (٨٤٤)، وأخرجه مسلم: كتاب المساجد، باب استحباب الذكر بعد الصلاة، رقم (٥٩٣)، من حديث المغيرة بن شعبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

كَوْنِيَّةٌ: يَقَعُ بِهَا مُرَادُهُ، وَلَا يَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ مَحْبُوبًا لَهُ[١]،.................

أَوْلًا: إِرَادَة «كَوْنيَّة» يَعْني أرادَ هَذا الشيءَ كَوْنًا.

[١] قَوْله: «يَقَعُ بِهَا مُرَادُهُ، وَلَا يَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ مَحْبُوبًا» فقَد تكُون فِيمَا يُحِبُّ ومَا لَا يُحِبُّ، فمَثلًا المَعاصِي هِي مُرادةٌ لله كَوْنًا، لكنَّها لَيْست محبُوبةً لله تَعالَى.

والطَّاعاتُ إِذَا فعَلها العَبْد هِيَ مُرادةٌ لله كَوْنًا، وهِيَ محْبُوبةٌ للهِ تَعالَى.

إِذَنِ: الإِرادةُ الكَوْنيَّة يَقَع بِها المُراد، ولَا يُمْكِن أن يَتخلَّف؛ لأَنَّه تعالَى فعَّال لِـمَا يُرِيد، ولَا يَلْزَمُ أنْ يَكُونَ المُراد بِهَا محْبُوبًا للهِ عَزَّوَجَلَّ فقَد يُرِيدُ مَا لَا يُحبُّه.

فإذا قَالَ قَائِل: كَيْف يُرِيد ما لَا يُحِبُّ؟ هَل أَحَد يُجْبِرُه؛ لأَنَّنا لَا نَرَى أحدًا يُرِيد مَا لَا يُحِبُّ إِلَّا مَعَ الإِكرَاهِ؟

فالجَوَاب: لَا مُكرِه لَه، لكنَّه سُبْحَانَهُوَتَعَالَى يُرِيد مَا لَا يُحبُّ لَمصْلَحة تَرْبُو علَى مَفْسَدة كَوْنِه يَكرهُه الله عَزَّوَجَلَّ، فكُفر الكافِرين مُرادٌ لله عَزَّوَجَلَّ، ولَوْلَا ذلِك لَانتفَتِ الحِكْمةُ مِنَ الخَلْق كُلِّه، قالَ تعالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن:٢]. ولَوْلَا هَذا الاختِلاف لبَطَل الأَمْر والنَّهي، ولَا يُمكن أنْ يَكُون الأَمْر والنَّهي سارِيَ المفعُول مُفيدًا إِلَّا باختِلاف النَّاس إِلَى مُؤمِن وكافِر، وعاصٍ ومُطيع.

وانظُر إِلَى قَوْلِ الله تَبَارَكَوَتَعَالَى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ أَي: ولهَذا الاختِلاف خَلقهم؛ ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود:١١٩]. ولَوْلَا أنَّ الله خَلقَهم مُختلِفِين مَا تمَّتْ كَلِمة الله، بمَلْءِ جهنَّم مِنَ الجِنَّة والنَّاس أَجْمعِين؛ لأَنَّه لَا يُمْكِن أن يَدخل النَّارَ مَن لَيْس بأهلِها.

وَهِيَ الَّتِي بِمَعْنَى المَشِيئَةِ[١]، كَقَوْله تعالَى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة:٢٥٣]،..........................

ثم لَو كانُوا علَى أمَّة واحِدة وهِي الدِّين، فأين أَهْل جهنم؟ فيكون خَلق جهنَّم عَبثًا، بَل وخَلق الجنَّة عبثًا؛ لأنَّهم إذَا كانوا كُلهم علَى مِلة واحِدة فإنَّه لَيْس مِن المعقُول أن يَشذ واحِد ويَعصي.

ولـمَّا قَالَ رجلٌ مِن المُعتزلة: سُبحانَ مَن تنزه عَنِ الفَحشاء؛ ردًّا علَى قَول مَن يَقُول: إن المَعاصِي تقَع بإرادةِ الله -وهُو يريد أن المَعاصِيَ تقع بغَيْر إِرَادَة الله، والصواب أن يَقُول: سُبحان من لَا يأمر بالفحشاء؛ لأنَّ الله تعالَى يَقُول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ [الأعراف:٢٨]-؛ فقال لَهُ السُّنِّيُّ: سُبحانَ مَن لَا يَكُون فِي مُلكه إِلَّا مَا يَشاء، وهَذا ردٌّ دامِغ علَيْه؛ لأنَّه مَا دَامَ النَّاس فِي ملك الله عَزَّوَجَلَّ، فتقُول: إنَّ المَعاصِيَ تقَع مِن غَير إرادتِه إذَن: كانَ فِي مُلكه مَا لَا يَشاء!! فهُو سُبحانه لَا يقَع فِي مُلكه إِلَّا مَا يشاء. فقال المعتزِليُّ: أرأيتَ إنْ جنَّبني الهدَى، وقضَى عليَّ بالردَى -أَي بالهلاك- أَحْسَنَ إليَّ أَم أساءَ؟ فقال السُّنيُّ: إنْ منَعك مَا هُو لَك فقَد أساءَ، وإنْ منَعك مَا هُو فَضلُه فذلِك فَضْل الله يُؤتيه مَن يَشاءُ، والهِداية فَضل من الله؛ أرايتَ لَو أنَّ عشرةَ فقراء يُريدون النَّوال مِنك، فأَعطيت خمسةً، ومنَعت خمسةً، فهَل أسأت إلَى الخمسةِ الآخَرين؟ لَا، ولكِن خصصت الذِين أعطيتهم بفضلك!! فأُفحم الرجل، وأُلقم حجرًا.

[١] قَوْله: «وهي التِي بمَعْنى المشيئة» يَعْني الإرادة الكَوْنية مُرادفَة للمَشِيئة تمامًا، فمعنَى «أرادَ» أَي: شَاءَ، مِثال ذلِك: قَوْله تعالَى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾؛ أَي: مَا يَشاء، أَي يَفعل مَا يشاء، والإرادةُ هُنا كَونيَّة؛

﴿إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْۚ هُوَ رَبُّكُمْ﴾[١] [هود:٣٤].

وَشَرْعِيَّةٌ: لَا يَلْزَمُ بِهَا وُقُوعُ الْمُرَادِ، وَلَا يَكُونُ الْمُرادُ فِيهَا إِلَّا مَحْبُوبًا لَهُ[٢]، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾[٣] [النساء:٢٧].

لأنَّ اقتِتالَـهم لَيْس محبوبًا إلَى الله، وكلُّ مَا لَيْس محبوبًا إلَى الله فإنَّه مُرادٌ بالإرادة الكَوْنيَّة.

[١] قَوْله: ﴿إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْۚ هُوَ رَبُّكُمْ﴾ هذِه إِرَادَة كونية؛ لأنَّه لَا يُريد شرعًا أن يُغوِيَ عِبادَه، بَل قَالَ الله تَعالَى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء:٢٦].

[٢] ثانيًا: «وشَرْعيَّة: لَا يَلْزم بِها وُقُوع المُرادِ، ولَا يَكُون فِيها إلَّا محبوبًا له» أَي لله تَعالَى، فهِيَ عَكْس الإرادةِ الكَوْنية تمامًا، لَا يَلزم بِها وُقُوع المُراد، بَل قَد يُريد الله الشَّيْءَ شرعًا ولَا يَقَع، ولَا يَكُون فِيها إلَّا محبوبًا لله فهِيَ تُرادِف المحبَّة، فَلَا يُمْكِن أن يُريد الله مِن عِبادِه شرعًا مَا يَكرهه أبدًا، بَل مَا يَكرهه اللهُ قَد حَرَّمه علَى عباده، مثال ذَلِك: قَوْله تعالَى: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾.

[٣] وقَـوْله تعالَى: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ فـالإرادةُ هنا شَرعية لَا كونيَّة؛ لأنَّها لَو كَانَت كونِيَّةً للَزِم أن يَتوبَ علَى كُل النَّاس، إِذْ إنَّ الإرادةَ الكَوْنيةَ لا بُدَّ فِيها مِن وُقُوع المُراد بِهَا، ولَو كَانَت هذِه كونيةً لَكانَ النَّاس كُلُّهم قَد تابَ اللهُ عَليهم، ولَكِن ﴿يُرِيدُ﴾ أَي: يُحِب أن يَتوب عَليكم، وهَذا أيضًا هُو المِيزانُ للإرادةِ الشَّرعية: أنْ تَحِلَّ مَحَلَّها المحبةُ، أَي: تكُون بمَعْنى المحبَّة، فالمحبةُ والإرادةُ الشَّرْعية بمَعْنى واحِدٍ، والمشيئة والإرادةُ الكَوْنية بمَعْنى واحِدٍ.

وَنُؤْمِنُ بِأَنَّ مُرَادَهُ الكَوْنِيَّ وَالشَّرْعِيَّ تَابِعٌ لِـحِكْمَتِهِ[١]،.....................

ونَأخذ أمثلةً عَلَى ذَلِك: كُفْر أبي لـهَب مُرادٌ بالإرادة الكَوْنية؛ لأنَّ الله يُبغِض الكُفر، وكُل مَا وقَع ممَّا يُبغضه اللهُ فهُو مُرادٌ بالإرادةِ الكَوْنية، وإيمانُ أبي بَكر وقَع بالإرادتَيْن جَمِيعًا: الكَوْنية والشَّرعية، وكُفر الكافِر مُراد بالإرادةِ الكَوْنية، وإيمان الكافِر -وهُو لم يُؤمن- مُرادٌ بالإرادة الشَّرْعية لأنَّ اللهَ يُحب مِنه أن يُؤمِن، ولَيْس مُرادًا بالإرادةِ الكَوْنية لأنَّه لم يُؤمِن.

الخُلاصَة: أنَّ الإرادة تَنقسم إلَى قِسمين -بدَليل التتبُّع-:

١- إرَادَة كونيَّة، وهِي التِي يَقع بِها المُرادُ، وتكُون فِيمَا يُحبه الله ومَا لَا يُحب وتُرادِف لَفظ المَشِيئة.

٢- إرَادَة شرعيَّة وهِي التِي لَا يَلزم وُقوع المُراد بِهَا، ولَا تكُون إلَّا فِيمَا كانَ محبوبًا لله، وهِي تُرادف المحبَّة.

وإنَّما قسَّم العُلَماء الإرادة إلَى هذَين القِسمين لئلَّا يُقال: إنَّ الذِي يَكرهه الله لَا يُريده، كما قَالَ بذَلِك المعتزِلَة، فيُقال: إنْ أردتُم لَا يُريده شرعًا فحقٌّ، وإنْ أردتُم لَا يُريده قَدَرًا فباطِلٌ.

[١] قَوْله: «وَنُؤْمِنُ بِأَنَّ مُرادَهُ الكَوْنِيَّ وَالشَّرْعِيَّ تابِعٌ لِحِكْمَتِهِ» وهَذا مُهِمٌّ؛ فمَا أرادَه اللهُ تعالَى -كَونًا أَو شرعًا- فإنَّ الحِكْمةَ تَقتضِيه؛ لأنَّ مُرادَه تابعٌ لِحِكْمَتِه، ودليلُ ذلِك قَوْله تعالَى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإِنْسان:٣٠]. ففِي هَذا إِشارَةٌ إلَى أنَّ مَشيئَةَ اللهِ تابعَةٌ لِحِكْمَته.

فالمهمُّ: أن نَعلم أنَّ كُلَّ شَيْءٍ قَضاهُ الله وقَدَّره أَو شَرَعه، فهُو لِحِكْمةٍ، ولَا يُمْكِن أن يقَع سَفَهًا، أَو لَغْوًا، ولَا لَعِبًا إِطْلاقًا.

قالَ تعالَى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ﴾ [المؤمنون:١١٥-١١٦]، وقالَ تعالَى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الدخان:٣٨-٣٩]، وقالَ تعالَى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص:٢٧].

فكُلُّ شَيْءٍ خَلَقه الله مِن دَقيقٍ أَو جَليلٍ مِنَ العالَمِ العُلويِّ أَو السُّفلي، مِن الناطِق وغيرِ الناطِق، مِن المتحرِّك وغيرِ المتحرِّك، مِن النامِي وغيرِ النامِي، فإنَّه لحِكْمةٍ، لَكِن لَا يَلزم أن نَعلم تِلْك الحِكْمة؛ لأنَّ عُقولنا أقْصر مِن أن تُدرك حِكْمة الله عَزَّوَجَلَّ، ولهَذا لـما سُئل الرَّسُول ﷺ عَن الرُّوح التِي بين جَنبَيْنا، والتِي نَمُوت بفَقْدها، وهِي أخصُّ شَيْء بِنَا، وأدنَى شَيْء إلينا؛ لـمَّا سُئل عَن الرُّوح قِيل لَهُ: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء:٨٥]. كأنَّ الله تعالَى يَقُول: مَا بَقِي عَليكُم إلَّا أن تَسألُوا عَن الرُّوح؟ مَا أكثرَ العُلُوم التِي فاتَتْكم! وهَذا صَحِيحٌ.

إِذَنْ: يَجِبُ عَلَينا أَنْ نَعْلَم عِلمَ اليَقِين أنَّ اللهَ تعالَى لَا يُقدِّر شيئًا إلَّا لحِكْمة، حتَّى وإِنْ كانَ ظاهرُه أنَّه ضَرَرٌ علينا، فهُو لحِكْمة، فمثلًا: الفَيضانَات التِي دمَّرت البِلاد، وأَغْرَقت الزُّرُوع، وأَهْلكت المَوَاشيَ وأَهْلكت بَعضَ النَّاس، هِي مَكروهَةٌ لنَا، لكنَّها لحِكْمة، فالذِين قُتلوا فِي هَذا شُهَداء؛ لأنَّ الغَرِيق شَهِيدٌ، والذِي يمُوت بهَدم شَهِيدٌ، ومَا أعظمَ الشَّهادة، فهِيَ تُساوي الدُّنْيا كُلَّها.

بَل يودُّ الإِنْسانُ أن يمُوت شَهيدًا، ولَا يَعِيش ألفَ سَنةٍ، إلَّا أن يَكُون فِي زِيادةِ خَيْرٍ، والأموالُ التِي فُقِدَتْ قَد تكُون لحِكْمة، ألَمْ يَقُل الرَّسُول ﷺ: «واللهِ مَا الفَقْرَ

....

أَخشَى عَلَيْكُمْ وَإِنَّمَا أَخْشَى أَنْ تُفْتَحَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا»(١)، رُبَّمَا تَبقَى هذِه الزُّروع وهَذِه القُصور، وتكُون فِتنةً تُعيننا علَى المَعاصِي، وتَصدُّنا عَنِ الطاعات، وبفَقْدها نَلجأ إلَى الله، ونَعرف قَدْر أنفسِنا، وهَذا خَيْر، وهُو الأَنْفع للمَرْء فِي دِينِه ودُنياه.

وإذا حصَلت حُروب طاحِنة أفْنَتِ الرِّجال، وأَيْتَمَتِ الأطفالَ وأَرْمَلت النِّساء، فإنَّا نَعلم أن هَذا بقَضاء اللهِ وقدَره، ولَكِن الله قدَّره لِحِكْمة، قَد تَظهر لنَا سريعًا أَو لَا تَظهر، لَكِن نَعلم أنَّها لِحِكْمة، وإذَا أَوْجب الله عَلَيْنا شيئًا كالقِتال -كَمَا قالَ تعالَى-: **﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡ﴾** [البقرة:٢١٦]. فإنَّا نَعلم -وإِنْ كانَ القتال كُرهًا لنَا- أن فِيه مصلحةً لنَا، ولذلِك قالَ تعالَى: **﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾**.

فالذِين قُتلوا فِي الحُروب وهُم يُدافعون عَن أَنفسِهم شُهداء، حتَّى وإِنْ كانَ الإِنْسان يدافع عَن نَفْسه لنَفْسه، فهُو شَهيد، فعَن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: جَاءَ رجل إلَى رَسُول الله ﷺ فقَالَ: يَا رَسُول الله أرأيتَ إن جَاءَ رجل يريد أَخذ مالِي؟ قالَ: **«فَلَا تُعْطِهِ مَالَكَ»** قالَ: أرأيتَ إن قاتلَنِي؟ قالَ: **«قَاتِلْه»** قالَ: أرأيتَ إن قتلَنِي؟ قالَ: **«فَأَنْتَ شَهِيدٌ»** قالَ: أرأيتَ إن قتلتُه؟ قالَ: **«هُو فِي النَّارِ»**(٢)، مَع أن هَذا يُدافع عَن مالِه، فكانَ شَهيدًا، فهَؤلاءِ الذِين قُتلوا شُهداء، ولَا نَقُول لكُلِّ واحد شَهِيد؛ لأَنَّنا لَا نَشهد لكُلِّ واحِد بعَيْنه، ولَكِن -علَى سبيل العُمُوم- مَن قُتل دُونَ مالِه فهُو شَهِيد،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها، رقم (٦٤٢٥)، ومسلم: كتاب الزهد والرقائق، رقم (٢٩٦١)، من حديث عمرو بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من قصد أخذ مال غيره بغير حق كان القاصد مهدر الدم، رقم (١٤٠)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

....

ومَن قُتل دُونَ دَمِه فهُو شَهِيد، ومَن قُتل دُونَ أهله فهُو شَهِيد، والشَّهادة ليسَت هيِّنَةً، فهِيَ مَرتبةٌ عَظيمةٌ عاليةٌ، قالَ تعالَى: ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ وَنُورُهُمۡ﴾ [الحديد:١٩].

مَسْألةٌ: هَل يُشترط للشَّهادة أنْ يَنوِيَ الإنْسان أنَّه إذَا ماتَ يَكُون شهيدًا؟

فالجَوَاب: لَا، لَيْس شَرطًا؛ لأَنَّه قَد لَا يَعلم الإنْسان فِي ذَلِك، فرُبما يُدافع عَن نَفْسه بمُقتضَى الطَّبيعة والفِطرة، ويكُون شَهيدًا وهُو لَا يَدرِي.

إِذَن: فهَذا الذِي هُو فِي ظاهِر الحالِ مَضرَّة عَلَينا، ومَكروهٌ لنَا، وعاقبتُه حَميدةٌ: حِكْمةٌ؛ أما مَا يَنفعُنا فالحِكمة فِيه ظاهِرةٌ، وأنَّه إحسانٌ مِنَ الرَّبِّ عَزَّوَجَلَّ، فإنَّه يُعِينُنا -إذَا كُنَّا صادِقين- علَى البِرِّ والتقوى، وخيرُ النَّاس مَنِ استعانَ بنِعَم الله علَى طاعَةِ الله.

فالحاصِل: أنَّنا نَعلم ونُؤمن ونَشهد بالله: أنَّ كُلَّ مَا قدَّره الله عَزَّوَجَلَّ مِن خَير أَو شَر، أَو فِتنة، أَو حَرب، أَو سِلْم، أَو غير ذلِك؛ فهُو لِحِكْمة، لَكِن قَد نَعلمها وقَد لَا نَعلمها، ومَا أَحلَى أنْ يُصابَ الإِنْسانُ بمُصِيبة ثمَّ يَتصبَّر ويَصبِر، ويَجد حَلاوةً عَجيبةً، حَلاوةً وطُمأنينةً فِي القَلْب، وراحةً فِي النَّفْس، لَا يجدها فِي أَعْظم وَعْظٍ، فلَو وَعَظك إِنْسانٌ مِن الصَّباح إِلَى الصَّباح فلَا يُؤثِّر فِيك تأثِيرَ بَعْض المَصائِب، حتَّى إنَّ المَعاصِيَ إذَا فَعَلها الإِنْسان ثمَّ استَحضَر عَظَمة اللهِ، وخَجِل مِن الله، واستَحْيَا مِن الله، ورَجَع إلَى الله، يَجِد لَذَّةً عَظِيمة للطَّاعة، التِي كانَ يَفْعلها مِن قَبْل كأنَّها عادةٌ، فهذِه مَصالِح عَظيمة، إذَا تأمَّلها الإِنْسانُ يَجِد أنَّ فِيمَا يَكرهُه الإِنْسانُ خيرًا، قَد يَعْلمه وقَدْ لَا يَعْلمه.

فَكُلُّ مَا قَضَاهُ كَوْنًا، أَوْ تَعَبَّدَ بِهِ خَلْقَهُ شَرْعًا فَإِنَّهُ لِحِكْمَةٍ[١]، وَعَلَى وَفْقِ الحِكْمَةِ[٢]،

[١] قَوْله: «فَكُلُّ مَا قَضَاهُ كَوْنًا، أَوْ تَعَبَّدَ بِه خَلْقَهُ شَرْعًا، فَإِنَّهُ لِحِكْمَةٍ» وهَذِه الحِكْمَةُ الغائِيَّةُ.

[٢] قَوْله: «وَعَلَى وَفْقِ الحِكْمَةِ» هذِه الحِكْمة الصُّورِية، هُو لِحِكْمةٍ الغاية مِنْها حميدة، وعَلَى وفق الحِكْمة، أَي: الصُّورة التِي هُو عَلَيْها مُوافِقة للحِكْمة تمامًا.

فإن قَالَ قَائِل: مَا الفَرْقُ بَيْن الحِكْمة الغائيَّة والحِكمة الصُّورية؟ قُلْنا: الحِكْمة الغائيَّة هِي غايَةُ الشَّيْء والفائِدَة مِنه وثَمَراتُه، كالطاعات -مثلًا- فالحِكمة مِنْها أن يُثاب العَبْد علَى فِعْلها.

أمَّا الصُّورية: فهِيَ كَوْن الشَّيْء علَى وَجْه مُعيَّن، فمَثلًا الواجِب فِي الذَّهَب والفِضَّة فِي الزَّكاة رُبُع العُشر، والواجِب فِي الزَّرع الذِي يُسقى بِلَا مَؤُونَةٍ العُشر، والواجِب فِي الذِي يُسقَى بمَؤُونةٍ نَصْف العُشر، فهذِه اختِلافاتُ تَقْديرٍ لكنَّها علَى وَفْق الحِكْمة، والغايَة مِن الجَمِيع الثَّواب علَى أداءِ الزَّكاة، ونَفْع الفُقَراء، وتَنْمِية المالِ، ودَفْع السُّوء عَنه، ومَا أَشْبَه ذلِك.

فلو قالَ قَائِل: مَا الحِكْمة فِي كَون أَكْل لَحْم الإِبِل يَنقُض الوُضوء؟

نَقُول: الله أعلم، لَكِن نَعْلم أنَّه لِحِكْمة، وقد ذَكَر بَعْض العُلَماء: أن الحِكْمة مِن ذَلِك: أنَّ الإبل خُلقت مِن الشَّياطين كَما جاءَ فِي الحَدِيث(١)، أَي خُلِقَت ذاتَ فِعلٍ شَيْطاني، ولَيْس المعنَى: أنَّها خُلقت مِنَ النَّار لَا خُلِقت مَبْنِيَةً عَلَى الشَّيْطنَة والغِلظة، كقَول الله تَعالَى: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الأنبياء:٣٧] مَعَ أنَّنا مَخْلُوقون مِن تراب،

(١) أخرجه الإمام أحمد (٤/ ٨٥)، وابن ماجه: كتاب المساجد، باب الصلاة في أعطان الإبل، رقم (٧٦٩)، من حديث عبد الله بن مغفل المزني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

سَواءٌ عَلِمْنَا مِنهَا مَا نَعْلَمُ، أَوْ تَقَاصَرتْ عُقُولُنَا عَنْ ذَلِكَ ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [التين:٨]. ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[١] [المائدة:٥٠].

لَكِن: ﴿مِنْ عَجَلٍ﴾ يَعْني: لأنَّ هَذا هُو وَصْفُنا اللازمُ لنَا، فالشَّيطنة بالنِّسْبة للإِبل هَذا هُو الأَصْل؛ إلَّا أنَّ اللهَ ذلَّلها لنَا -والحَمْد لله-، فمِن العُلَماء مَن قَالَ: إنَّنا أُمرنا بالوُضوء مِن أكْل لحم الإبِل لأنَّنا إذَا تَغذَّيْنا بهذَا اللَّحْم مِن هَذا الحَيَوان المبنِي عَلَى الشَّيطنة اكتَسبْنا مِن طِباعِه، والماءُ يُزيل أثَر ذَلِك وهُوَ الوُضوء، ولهَذا أُمِر الإِنْسان إذَا غَضِب أنْ يَتوضَّأ.

[١] قَوْله: «سَواءٌ عَلِمْنَا مِنْها مَا نَعْلَمُ، أَوْ تَقَاصَرتْ عُقُولُنَا عَنْ ذَلِكَ» فإِنَّه لحِكْمة ثمَّ استدل المؤلِّف لِذلك بقَوْله تعالَى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [التين:٨]؟ بلى، وبقَوْله تعالَى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة:٥٠] فـ«مَنْ» استِفْهام بمَعْنى النَّفْي، أَي: لَا أَحدَ أحسنُ مِن الله حُكمًا، لَا الكَوْنيَّ ولَا الشَّرعيَّ، ولَا أَحدَ أَحْكمُ مِن الله عَزَّوَجَلَّ، قالَ تعالَى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ فإذَا عرفت أن الله أحكم الحاكمين، عَلِمت أنَّ مَا قدَّره اللهُ فهُو لحِكْمة عَظِيمة، إنْ أَدْركْتَها فذاكَ، وإنْ لم تُدركها فسَلِّمِ الأَمْرَ إلَى مَن يَعْلمُها، وهُو الله عَزَّوَجَلَّ، والله أعلم.

فائِدَةٌ: فِي قَوْله تَعالَى ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ تَقُول: فِي الصَّلاة «سبحانك! فبَلَى» أَو فِي غَير الصَّلاة؛ لأنَّ اللهَ يَسْتفهِم مِنكَ: أَليس اللهُ بأَحْكم الحاكِمين؟ فتَقُول: «بلى»، ويقول: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر:٣٦]، ويقول: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ﴾ [الزمر:٣٧] ومَا أَشْبه ذَلِك؛ فتقول: «بَلَى».

فإن قالَ قَائِل: بَعْض النَّاس يَزِيد فيَقُول: «بَلَى، ونَحْن عَلَى ذَلِك مِنَ الشَّاهِدِينَ»؟

فالجوابُ: لَيْسَ بلازِمٍ، لَو قُلتَ: «بَلَى» كَفَى.

وَنُؤْمِنُ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَى يُحِبُّ أَوْلِيَاءَهُ وَهُمْ يُحِبُّونَهُ[١]، ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:٣١]،.........................

---

[١] قَوْله: «وَنُؤْمِنُ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَى يُحِبُّ أَوْلِيَاءَهُ وَهُمْ يُحِبُّونَهُ» أَي: نُؤْمِن بأنَّ الله تعالَى يُحِبُّ ويُحَبُّ، فهُو مَحْبُوبٌ لأَوْليائِه، وأَوْلياؤُه محْبُوبُون لَدَيْه، فالمحبَّة مُتبادَلة، ودَليلُ ذلِك قَوْله: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:٣١]، ففِي هذِه الآية إِثباتُ المحبَّة للهِ تعالى، وإثباتُ المحبَّةِ مِنه، فإثباتُ المحبَّة للهِ بقَوْله تعالَى: ﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ﴾ وإثباتُ المحبَّة مِنه لقَوْله تعالَى: ﴿يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾، وهَذِه الآيةُ يُسمِّيها السَّلَفُ: «آيَة المِحْنَة»؛ أَي: الامتِحان؛ لأنَّها نَزلت فِي قَوْم يَدَّعُونَ أنَّهم يُحِبُّونَ اللهَ، فأَنْزَلَ اللهُ ذَلِك، وجَعَل هَذا هُو المِيزانَ، فإِنْ كانُوا صادِقِين فِي محبَّتهم لله فلْيتَّبِعوا الرَّسُول ﷺ، وإذَا اتَّبَعوا الرَّسُول ﷺ كانَ الجزاءُ أعظَمَ ممَّا يَدَّعون، فهم يَدَّعون أنَّهم يُحِبُّون الله، وهَذا شرَفٌ لهم، لَكِن الجزاء إذَا اتَّبَعوا الرَّسُول ﷺ أن الله يُحِبُّهم، وهَذا هُو الشأنُ العَظيمُ والمقصود الأَعظَمُ، وهُو أن يُحِبَّك الله، فليسَ الشَّأنُ أن تُحِبَّ الله، فإنَّك قَد تَصدُق وقد لَا تصدُق، لَكِن الشأن كُلَّه أن يُحِبَّك الله، وإِذَا أَحبَّك الله عَزَّوَجَلَّ نادى جِبريلَ: يَا جِبريلُ إِنِّي أُحِبُّ فُلانًا فأَحِبَّه. فيُنادِي جِبْرِيلُ فِي السَّماء: إنَّ الله يُحِبُّ فُلانًا فأَحِبُّوه. فيُحِبُّه جِبريلُ، ويُحِبُّه أَهلُ السَّماء، ثُمَّ يُوضَع لَهُ القَبول فِي الأَرْض، فيُحِبُّه أَهل الأرض، ويَقبَلونه.

والظاهِرُ: أنَّه للمُؤمِنين الذِين يُحِبُّون الله؛ وأَقولُ هذا: لأنَّ الكُفَّار يُبغِضون الرَّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَا شَكَّ وهُوَ أَحبُّ النَّاس إلَى الله -فيما نعلَم-؛ فالظَّاهِر أن العِبْرة بمَحبَّة المُؤمِنين، وقَد يُقال: إن قَوْله: «يُوْضَعُ لَهُ القَبُولُ» أَعَمُّ من المَحبَّة، وهَذا أَيْضًا يَرِد علَيْه مَسْألة أنَّ الكُفَّار لَا يَقبَلونه؛ فالظَّاهِرُ: أن المُراد بذَلِك أَوْلياءُ الله،

....

يَعْني الذِين يُحِبُّون الله: يُحِبُّون هذا، وهَل هذِه المَحبَّةُ مَحبَّة حَقيقية، أَم هِي مَجاز عَن الإثَابَة؟

الجَوابُ: مَحبَّة حَقيقيةٌ، ولَيْسَت مَجازًا عَن الإثابة؛ لأنَّ الإثابةَ شَيْءٌ والمَحبة شَيْءٌ آخَرُ، بَل الإثابة دَلِيل المَحبَّة؛ لأنَّ الله تعالَى لَا يُثيب أحَدًا إلَّا حَيثُ يُحِبُّه عَزَّوَجَلَّ.

وقدِ انقَسَم النَّاس فِي المَحبَّة إلَى ثلاثةِ أَقْسام:

قِسْم قَالَ: إن الله يُحِبُّ ويُحَبُّ.

وقِسْم بالعَكْس: إن الله لَا يُحِبُّ ولَا يُحَبُّ.

وقِسْم قالوا: إن الله يُحَبُّ ولَا يُحِبُّ.

فالأقوال إِذَن ثلاثةٌ، والقِسْمة العقْلية تَقتَضِي رابِعًا، وهُو أن الله يُحِبُّ ولَا يُحَبُّ، لكِنِّي لَا أعلَمُ قَائِلًا بهذا.

والقولُ المُتعَيِّن بِلَا شَكٍّ: هُو أنَّ الله يُحِبُّ ويُحَبُّ كما فِي هذِه الآيةِ والآياتِ التِي بعدها قالَ تعالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ [المائدة:٥٤] ولَا يَجِد أَحدٌ طَعْم المَحبَّة إلَّا إذَا فعَل مَا يَكُون سببًا لها وهُو اتِّباع الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

وكُلَّما كانَ الإِنْسان للرَّسُول ﷺ أَتبَعَ كَانَت مَحبَّة الله لَهُ أعظَمَ، ومَحبَّة الله يَجِد الإِنْسان فِيها لذَّةً عظيمةً، لَا يُقارِبها أكبَرُ لذَّةٍ فِي الدُّنْيا، لذَّة عَظيمة، وأُنْسًا بالله عَزَّوَجَلَّ، وفرَحًا بِه، ونورًا فِي القَلْب، ونورًا فِي الوَجْه لَا يُماثِله شَيْءٌ.

وأمَّا الذِين قالُـوا: إن الله لَا يُحِبُّ ولَا يُحَبُّ، شُبِّه علَيْهم. وقالُـوا: إن المَحَبَّة لَا تكون إلَّا بين نَظيرين، كالرجُل والمَرأة، والرجُل والرجُل، والمَرأة والمَرأة، ولَا تكون بين شَيْئين مُختَلِفَيْن، فَلَا مَحبَّةَ بين الإِنْسان والجَمَل، وإذَا كانَ هَذا فِي المَخْلوقات المُتباينة فامتِناعه فِي الخالِق من بابِ أَوْلى؛ لأنَّ الخالِق عَزَّوَجَلَّ مُبايِن للمَخْلوق أَعظَمَ مُبايَنةٍ، فَلَا يُمْكِن أن الله يُحِبُّ ولَا أن يُحَبَّ! هذِه شُبْهتهم!

وهَذِه الشُّبْهةُ مَنْقوضة:

أَوَّلًا: بالنَّصِّ الصريح عَلَى ثُبوت المَحبَّة من الله ولله، والقِياسات العَقْلية إذَا عارَضتها النُّصوص الشَّرْعية كَانَت باطِلة، ولهَذا قالُوا: لَا قِياسَ مَع النَّص، والقِياس المُبطِل للنَّصِّ فاسِد الاعتِبار.

ثانيًا: ادِّعاؤُهم أن المَحبَّة لَا تكون إلَّا بين شَيْئَيْن مُتجانِسين خطَأ، بَل قَد تكون المَحبَّة بين شَيْئَيْن بينهما أعظَمُ التَّبايُن، فمَثَلًا: المَحبَّة بين الإِنْسان وبَعيره الذِي يَرْكَبه ثابِتة؛ واسأَلِ الجَمَّالين، حتَّى إن الجَمَل يَعرِف صاحِبه من بين الرِّجال، ولَا يَجلِس إلَّا عِنده، إذَا دعَتِ الحاجة إلَى قُرْبه منه، ففي أيام الشِّتاء يَقُول الجَمَّالون: إذَا نزَلْنا وأَضرَمْنا النَّار دَنَتِ الجِمالُ مِنَّا، وكل جَمَل يَأوِي إلَى صاحِبه، ويَجلِس إلَى جَنْبه، بَل إن الإِنْسان قَد يُحِبُّ جَمادًا، فقد يَكُون اعتاد أن يَكتُب بقلَم مُعيَّن فتكون كِتابته بِهِ واضِحةً وجَميلةً، فتَجِده يُحِبُّ هَذا القَلَم دُونَ الآخَر، الذِي لم يَعتَدْ علَيْه، أَو لَهُ سَيَّارة يَأْلَفها، قَد بُورِك لَهُ فِيها فيُحِبُّها أكثَر.

إِذَنْ: فمَحبَّة الله تعالَى تَتَعلَّق بالأَشْخاص، كالمُتَّقين والمُحسِنين، ومَا أَشبَه ذلِك،

....

وتَتَعلَّق بالأَعْمال كحَديث ابنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَيُّ الْعَمَلِ أَحبُّ إِلَى اللهِ»(١). وتَتعلَّق أيضًا بالأماكِن: «فَإِنَّ أَحبَّ البِقاعِ إِلَى اللهِ مَساجِدُها»(٢)، وكلُّ ذلِك حقٌّ علَى حَقيقته.

فالحاصِل: أن شُبْهَتهم التِي اعتَلُّوا بِها شُبْهة يُكذِّبها الواقِعُ.

وأَمَّا الذِين قالُوا: إنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ، ولكنَّه يُحَبُّ. فإنهم قالُوا: إن مَحبَّة الإِنْسان لله لَا تُنكَر؛ ولَا يُمْكِن لأحَدٍ أن يُنكِرها لأَنَّه أَمْر فِطْرِيٌّ غريزيٌّ، ولَكِن مَحبَّة الله للعَبْد هِي المُنكَرة؛ لأنَّ المحبَّة فِيها رَخاوة، وفيها شَيْء من اللُّيونة، والرَّبُّ عَزَّوَجَلَّ مُنزَّهٌ عَن ذَلِك، فالله لَا يُحِبُّ، وكل آية أَو حَديث يَأتِي فِيها أن الله يُحِبُّ فالمُراد بِها الإثابةُ، أَو إِرَادَة الثواب، وهَؤلاءِ هُمُ الأشاعِرة!

وقولُـهم باطِلٌ؛ لأننا نَقُول: إن الله أَثبَت فِي القُرْآن، وكذَلِك السُّنَّة أَثبتَتْ: أن الله تعالَى يُحِبُّ، ومعلوم أَنَّه لَا قِياسَ ولَا نظَرَ مَع وُجُود النَّصِّ، ومَحبَّة الله للعَبْد أَثَرها ظاهِر؛ إذ يَجِد الإِنْسان أن الله يَشرَح صَدْره للإسلام، ويُنوِّر قَلْبه، ويُحِبُّ العَبْد الطاعة، وهَذا يَدُلُّ علَى مَحبَّة الله له، وأَنَّه عَزَّوَجَلَّ اعتنَى بِه.

فالصَّوابُ إِذَن: أنَّ المَحبَّة ثابِتة من الجانِبَيْن، ثابِتة من الله للعَبْد، ومن العَبْد لله.

والسبَب الوحيد لكَوْن الله تعالى يُحِبُّك هُو اتِّباع الرَّسُولِ صلى الله علَيْه وعَلَى آله وسلم قالَ تعالَى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:٣١]

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المواقيت، باب فضل الصلاة لوقتها، رقم (٥٢٧)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال، رقم (٨٥).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب المساجد، باب فضل الجلوس في مصلاه بعد الصبح وفضل المساجد، رقم (٦٧١)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وبِهَذا نَعرِف أن كُلَّ مَنِ ابتَدَع فِي شَريعة مُحَمَّد ﷺ شَيْئًا من العِبادات فإن مَحبَّته لله وللرسولِ ﷺ ناقِصة وضَعيفة ونَقْصها وضَعْفها بحسَب مَا ابتَدَع من البِدْعة، عَكْس الذِين يَقُولون: إنَّنا نَفعَل ذلِك مَحبَّةً للرَّسُول ﷺ، ونَقُول لهم: إن كُنْتم صادِقين فاتَّبِعوا الرَّسُول ﷺ، أَمَّا أَنْ تَبتَدِعوا فِي دِينه فهَذا أكبَرُ الطَّعْن فِيه، وفِي كِتاب الله:

أَمَّا كَوْنها طَعْنًا فِي كِتاب الله فلأَنَّ الله تعالَى يَقُول فِي كِتابه: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة:٣]، والبِدْعة يَراها مُبتَدِعها دِينًا، وهِي لم تُوجَد فِي القُرْآن، ولَا فِي السُّنَّة، إِذَن فالآيةُ غير صادِقة!! لأنَّ الدِّين لم يَكمُل إلَّا بهذه البِدْعةِ علَى زَعْم المُبتَدِع!.

وأَمَّا كَوْنها طَعْنًا فِي الرَّسُول ﷺ فنَقُول: إمَّا أن يَكُون الرَّسُول ﷺ عالِمًا بأنَّها مَشروعة، وإمَّا أن يَكُون جاهِلًا؛ لأَنَّه لم يَعمَل بِها قَطْعًا، فإِنْ قُلْتم: إنَّه جاهِل فقَدْ وصَمْتُموه بالجَهْل، وإن قلتم: إنَّه عالِمٌ فقَدْ وصَمْتموه بالخِيانة؛ لأَنَّه لم يُبيِّنها للناس، لَا بقَوْله ولَا بفِعْله ولَا بإقراره، فمَسائِل البِدَع عَظيمة لَيْسَت هَيِّنة، وإن كَانَت البِدْعة فِي ذاتها هَيِّنة فإن أَثَرها عَظيم.

ولهذا تَجِد هَؤلاءِ المُبتَدِعين من أبعد النَّاس عَن اتِّباع الرُّسُل، تَجِدهم يَجتَهِدون جُهْدهم فِي هذِه البِدْعة، لكنَّهم مُفرِّطون كثيرًا فِي أمور مَشروعةٍ أهمَّ منها، وتَأَمَّلْ أَحْوالَهم تَجِدْ ذَلِك، فرُبَّما يَخرُج من هَذا المَوْلِدِ إلَى القَبْرِ يَدْعوه ويَعبُده، وربَّما لَا يَصِلُ إلَى هَذه الحالِ، لكنَّه عِنده فُتورٌ فِي الطاعات، فنَوافِلُه قَليلة، وصومه قَليلٌ، صدَقَته قَليلةٌ، كَثِير النظَر إلَى المُحرَّم من النِّساء والمُرْدان وغير ذَلِك، وهَذا هُو الواقِعُ، فكَيْف تَقُول: إنَّكَ ابتَدَعْتَ هَذا مَحبَّةً لله ورَسولِه ﷺ؟!

﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾[١] [المائدة:٥٤]، ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[٢] [آل عمران:١٤٦]،..

[١] قَوْله: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة:٥٤] هَذا جَوابٌ لشَرْط محذوفٍ، والتَّقديرُ: إذَا ارتَدَدْتم عَن الدِّين فاللهُ غَنيٌّ عَنْكم، ولن تَضُرُّوه شيئًا، بَل يَأتِي بقَوْم غيركم يُحِبهم ويُحِبُّونه، وفِي قَوْله: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ إثباتُ المَحبَّة من الجانِبَيْن، كَما قالَ تعالَى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾ [محمد:٣٨].

[٢] قَوْله: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ أَيِ: الصابِرين علَى شَريعة الله، والصابِرين علَى أقدار الله، وشَريعة الله أَوامِرُ ونواهٍ، فهم صابِرون علَى الأوامِر، وصابِرون عَن النَّواهِي، وصابِرونَ علَى الأَقْدار، فمَن كانَت هذِه حاله فإن اللهَ يُحِبُّه.

مَسْأَلةٌ: أيُّهما أعظَمُ الخُلَّة أَو المَحبَّة؟

الجَواب: الخُلَّة أعلى مَراتِب المَحبَّة، ولذلك الذِين يَقُولون: «إبراهيمُ خَليلُ الله، ومُحمَّدٌ حَبيبُ الله» انتَقَصوا مُحمَّدًا ﷺ؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ: «**إِنَّ اللهَ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا**»(١)؛ ولهَذا فإن المَحبَّة يُوصَف بِها كل مُؤمِن، وإن الله: ﴿يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران:٧٦]، و﴿يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤٦]، لَكِن الخُلَّة لَا نَعلَم أحَدًا يُوصَف بِها إلَّا اثنَيْن وهُما مُحمَّدٌ ﷺ وإبراهيمُ ﷺ فقَطْ، حتَّى إنَّه لَا يَجوزُ أن نَقُول: موسى خَليلُ الله، ولَا أن نَقُول: عِيسى خَليلُ الله، ولَا أن نَقُول: نُوحٌ خَليلُ الله؛ لأنَّ هَذا الوَصْفَ لَا يَكُون إلَّا لاثنَيْن وهما مُحمَّد وإبراهيمُ عليهما الصَّلاة والسَّلام.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب المساجد، باب النهي عن بناء المساجد، على القبور، رقم (٥٣٢)، من حديث جندب بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

﴿وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾[1] [الحجرات:٩]،............

ولكن أيُّهما أفضلُ؟

نَقُول: محُمَّد عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أفضلُ من الجَميع؛ يَقُول الناظِمُ:

وأَفْضَلُ الخَلْقِ علَى الإِطْلاقِ   نَبيُّنا فَمِلْ عَن الشِّقَاقِ

[١] قَوْله: ﴿وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ [الحجرات:٩] أَقسِطوا أَي: اعدِلوا فِي أَنفُسِكم، وفِي أَهليكم، وفِي مُعامِليكم، ففي الجَميع يجَب العَدْل، حتَّى فِي أنفسكم؛ ولهَذا لـمَّا أَراد عبدُ الله بنُ عمرِو بن العاص رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا أن يقوم اللَّيْل كلَّه، ويَصوم النهار كلَّه، قَالَ لَهُ الرَّسُول ﷺ: «إِنَّ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا»(١)، وقد أَوْجَب العُلَماء رَحِمَهُمُٱللَّهُ علَى أن مَن خاف علَى نَفْسه الموتَ من الجَوْع أن يَأكُل، وعَلَى مَن خاف الموت من العطَشِ أن يَشرَب، ولَا يَقُول: لِي أن أُهلِك نَفْسي؛ لأنَّ الله تعالَى يَقُول: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا﴾ [النساء:٢٩].

وبهَذا نَعرِف خطَأ مَن يَتبرَّع بشيء من أعضائِه لأحَدٍ من النَّاس، فبَعْض النَّاس يَتبرَّع بكُلْيَته لواحِد من النَّاس تعطَّلَتْ كُلْيَتاه، فقال: أنا أُريد أن أَتبرَّع لَهُ بكُلْيَتي؛ فيُقالُ له: هَل كُلْيَتُك لك؟ الجَوَابُ: لَيْسَت لكَ، حتَّى تَتبرَّع بِها لأَحَد، بَل ولَا أن تَبيعَها وأنتَ حُرٌّ؛ لأنَّ الحُرَّ لَا يُباعُ، ثُمَّ إذَا قدَّرنا أنَّه لَا يَضُرُّك، وأنَّه يَنفَعه، أَفلَيْس هُناكَ احتِمالٌ -ولَو واحِدًا فِي المِئَة- أن جِسْمه لَا يَستَجيب لها؟ فإِذَنْ: فقَدِ ارتَكَبْنا مَفسَدة يَقينًا لَمصلَحة ليست يَقينِيَّـةً، ثمَّ هَل تَأمَن نَفْسَك إذَا تَبرَّعت بكُلْية أن

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التهجد، رقم (١١٥٣)، ومسلم: كتاب الصيام، باب النهي عن صيام الدهر، رقم (١١٥٩)، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا.

....

تَبقَى الباقية صالِحةً دائِمًا!؟ فقَدْ يَأتيها مرَضٌ، وإذَا أَتاها المَرَضُ فمَعْناه أَنَّك أَهلَكْت نَفْسك؛ لأَنَّك لَن تَعيش بِلَا كُلًى؛ لأنَّ الكُلْية تَمَتصُّ جَمِيع السموم التِي فِي الأَطْعمة والأَشرِبة، ولَو تَخلَّت الكُلْية عَن العَمَل لانتَشَرَت فِي الجسم السُّموم وهلَكَ.

ثمَّ إن الظاهِرَ لي -وأَقولُه لَيْس عَن شَرْع ولَا عَن طِبٍّ- أن هاتَيْن الكُلْيَتَيْن تَتَعاوَنان، وأَنَّه إذَا انفَرَدَت إحداهما ثَقُل الحِمْل عليها، وصار هَذا أَقرَبَ إلَى تعَبها وفَسادِها.

فإن قَالَ قَائِل: وهَل التَّبرُّع بالدَّمِ يَدخُل فِي التَّصرُّف فِيمَا لَا حَقَّ لَهُ بِه؟

قُلْنا: لَا؛ لأنَّ التَّبرُّع بالدَّمِ يَأتِي خَلَفُهُ.

والمُهِمُّ أن نَقُول: إن الإِنْسان مَأمور بالعَدْل، حتَّى مَع نفسه، ولَيْس لَهُ أن يُهلِك أَو يُتلِف شَيْئًا من أَطرافِه، كمَا أَنَّه لَيس لَهُ أن يُهلِك أَو يُتلِف شَيْئًا من حَياته، وقد نَصَّ فُقَهاء الحَنابِلة رَحِمَهُمُ اللَّهُ فِي كُتُبهم علَى أَنَّه يَحرُم قَطْع عُضوٍ من المَيِّت ولَو أَوصَى بِه، ذكَروا هَذا فِي باب غُسْل الميت فِي كِتاب الجَنائِز[1]، يَعْني: لَو أَنَّ إِنسانًا مثَلًا قالَ: أَتبرَّع بعد مَوْتي بعَيْنيَّ، أَو بكُلْيتي، أَو بقَلْبي لفُلان، لقُلْنا: يَحرُم أن يَتبرَّع بِهَا، حتَّى ولَو كانَ بعد مَوْته، ولن يَنتَفِع بِهَا، نصَّ علَى ذلِك أَهْل العِلْم؛ ووجهُ ذلِك قول الرَّسُول ﷺ: «كَسْرُ عَظْمِ المَيِّتِ كَكَسْرِهِ حَيًّا»[2] يَعْني فِي الحُرْمة والتَّحريم،

(١) انظر: المغني (٢/ ٣٤٣)، والشرح الكبير (٢/ ٣٢٤)، وحاشية الروض المربع (٣/ ٤٦).

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٦/ ٥٨)، وأبو داود: كتاب الجنائز، باب في الحفار يجد العظم، رقم (٣٢٠٧)، وابن ماجه: كتاب الجنائز، باب النهي عن كسر عظام الميت، رقم (١٦١٦)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

والإِنْسان إِذَا أَتاه مرَضٌ من عِنْد الله، واختار الله لَهُ أن يَموتَ فهُو إن لم يَمُتِ اليومَ مات غدًا، وربَّما يَكُون المَوْتُ خَيْرًا له، فكَمْ من إِنْسانٍ يَكُون بَقاؤُه علَى الحياة شَرًّا، كَما فِي الحَدِيث: «**شَرُّكُمْ مَنْ طَالَ عُمْرُهُ وَسَاءَ عَمَلُهُ**»(١).

والإِنْسان المُؤمِنُ إِذَا انتَقَل من الدُّنْيا لَيس يَنتَقِل إِلَى دارٍ أَسْوأَ، بَل يَنتَقِل إِلَى دارٍ خَيْرٍ من دارِه؛ ولذلك نَدعو للمَيِّت ونَحْن نُصلِّي علَيْه، ونَقُول: اللهُمَّ أَبدِلْه دارًا خَيْرًا من داره، وربَّما يَحصُل عِنْد هَذا الذِي أُصيب بمَرَض فِي كُلْيَته من الإنابة إِلَى الله والرُّجوع إليه، وتَلَقِّي الموت باستِعْداد تامٍّ، وهَذا أَفيَدُ بكثير من أن تَبقَى حياتُه أيامًا ثمَّ يموتُ.

ولهَذا لـمَّا جاءَ ملَك المَوْت إِلَى مُوسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ليَقبِض رُوحه لطَمه مُوسى، حتَّى فقَأَ عَيْنه، فرَجَع ملَك الموت إِلَى الله، فقَالَ: أَرسَلْتني يَا ربِّ إِلَى رجُلٍ لَا يُريد الموت، قَالَ الله عَزَّ وَجَلَّ: مُرْه أن يَضَعَ يدَه علَى جِلْد ثَوْر، وله من السِّنين بقَدْر مَا تَحْتَ يَدِه من هذِه الشَّعَراتِ، وهِي كَثيرة، علَى أَنَّنا لَا نَعلَم عَن كَيْفِيَّة يَدِ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، هَل هِي كَبيرة، أَو صغيرة، لَكِن لَا شَكَّ أَنَّها أَكبَرُ من يَدِ الإِنْسان الآنَ؛ لأَنَّ الخَلْق يَتَناقَص، حتَّى وَصَل إِلَى هذِه الأُمَّةِ، ثُمَّ إن الثَّوْر تَختَلِف -بالنِّسْبة للثِّيران- بالنِّسْبة لرَصْف الشعر، كَما تَختَلِف رُؤُوس بني آدمَ، والمُهِمُّ: أنَّها ستكون كثيرةً، قَالَ موسى: ثمَّ ماذا؟ قالَ: ثمَّ الموت. قَالَ: «فَمِنَ الْآنَ»؛ لأنَّ عُمرك ولَو طال فكأَنَّما تَلبَث ساعةً من نَهار، والآنَ مثَلًا: نحـنُ مُتَفاوِتون فِي الأَعْـمار، الكَثيرُ مِنَّا والقليل،

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٥/ ٤٠)، والترمذي: كتاب الزهد، رقم (٢٣٣٠)، من حديث أبي بكرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿وَأَحۡسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[١] [البقرة:١٩٥].

كلُّ الماضي سَوَاءٌ، كأنَّه لَمْ يَكُن، فقَالَ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: فَمِنَ الآنَ، ولَكِن أَسأَل ربِّي أن يَكُون مَوْتي حول البلاد المُقدَّسة، فانتَقَل إِلَى هُناكَ.

ومات هُناكَ عِنْد الكَثيب الأَحْمر، فقال النَّبِيُّ ﷺ: «لَوْ كُنْتُ ثَمَّ لَأَرَيْتُكُمْ قَبْرَهُ»(١)، لَكِنِ الحَمْدُ لله أَنَّه لَا يُعلَم الآنَ، بَل ولَا يُعلَم قَبْر من قُبور الأنبياء السابِقين، إِلَّا قَبْر رَسُول الله ﷺ، حفِظَه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي هَذا المَكانِ.

فالحاصِل أننا نَقُول: إن الإِقْساطَ واجِبٌ فِي كل شَيْءٍ، حتَّى فِي النَّفْس، وفِي الأَهْل والأَوْلاد، فقَدْ كانَ السَّلَف يَعدِلون بين أَوْلادهم فِي التَّقْبيل، فإِذَا قبَّل الصَّبيَّ مَرَّةً قبَّل الثَّانيَ مرَّةً، وإن قبَّله مَرَّتَيْن -والثَّاني يَنظُر- قبَّلَه مرَّتَين، يُريدون العَدْل حتَّى فِي التَّقْبيل، ومَتى عَوَّد الإِنْسان نَفْسه علَى العَدْل أَعانَه الله علَيْه، فيَجِب العَدْل بين الأَوْلاد فِي العَطِيَّة، والعَدْل بين الزوجات، والعَدْل بين الخَصْمين، وفِي كلِّ شَيْءٍ.

قَوْله: ﴿يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ ولَيْس القاسِطين، وقالَ تعالَى: ﴿وَأَمَّا ٱلۡقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبٗا﴾ [الجن:١٥]، والفَرْق بين القاسِطِ والمُقسِط: أن القاسِطَ هُو الجائِرُ، والمُقسِط هُو رافِعُ الجَوْر، أَيِ: العادِل.

[١] قَوْله: ﴿وَأَحۡسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [البقرة:١٩٥]، وهَذا انتِقال إِلَى مَا هُو أكمَلُ، فالإحسان أكمل من العدل، قالَ تعالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾ [النحل:٩٠]. الإحسان فِي كل شَيْ، سَوَاءٌ فِي مُعامَلة الخالِق، أَم فِي مُعامَلة المَخْلوق، فالإِحْسانُ فِي مُعامَلة الخالِق: أن تَعبُد الله كأَنَّك تَراه، فإِنْ لم تَكُن تَراهُ فإنَّه يَراكَ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحديث الأنبياء، باب وفاة موسى وذكره بعد، رقم (٣٤٠٧)، ومسلم: كتاب الفضائل، باب من فضائل موسى ﷺ، رقم (٢٣٧٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أمَّا الإِحْسان فِي مُعامَلة الخَلْق:

فقَدْ حدَّده الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بحَدٍّ لَا جَوْرَ فِيه، ولَا إشكالَ فِيه، فقَالَ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»(١)، فهذه قاعِدةٌ.

والقاعِدةُ الأُخرى قَالَ ﷺ: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزَحْزَحَ عَنِ النَّارِ وَيَدْخُلَ الجَنَّةَ فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَأْتِ إِلَى النَّاسِ مَا يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ»(٢)، والشاهِدُ مِنْ ذلِك قَوْله: «وَلْيَأْتِ إِلَى النَّاسِ مَا يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ» فهَذا هُو الميزانُ، بأن تُحسِن إلَى عِباد الله فِي مالِكَ، وفِي بدَنكَ، وفِي جاهِك، وفِي كل مُعامَلة.

أمَّا «بالبَدَن» فأَنْ تُعين الرَّجُلَ على حَمْل مَتاعه، أَو علَى إناخة بَعيرِه، أو علَى أَيِّ شَيْءٍ.

والإحسان فِي المال بأَنْ تُعطيَه زَكاة أَو صدَقة أَو هِبة أَو هَدية أَو عَطية أَو نفَقة فالزَّكاة: هُو القَدْر الواجِبُ إخراجُه فِي الأموال، والصدَقة مَا قَصَد بِه الإِنْسان التَّقرُّب إلَى الله عَزَّوَجَلَّ، بغَضِّ النَّظَر عَن كون الفَقير يَنتَفِع بها أَو لَا يَنتَفِع والهَديَّة: مَا قُصِد بِها التَّودُّد والإكرام، والهِبَة: مَا قُصِد بِها مُجرَّد انتِفاع المُعطَى، فلم يُرِد المُعطِي التَّقرُّب إلَى اللهِ بهذا، ولَا تَودُّدًا إلَى المُعطَى، بَل أَعطاه هكَذا، والعَطية: التَّبرُّع بالمال فِي مرَض المَوْت، والنَّفَقة: هِي مَا يَجِب إِعْطاؤه لَمن تَجِب نَفَقتُه بالمَعروف.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، رقم (١٣)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من خصال الإيمان أن يحب لأخيه المسلم ما يحب لنفسه من الخير، رقم (٤٥)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الإمارة، باب الأمر بالوفاء ببيعة الخلفاء الأول فالأول، رقم (١٨٤٤)، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وَنُؤْمِنُ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَى يَرْضَى مَا شَرَعَهُ مِنَ الأَعْمَالِ وَالأَقْوَالِ، وَيَكْرَهُ مَا نَهَى عَنْهُ مِنْهَا ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ﴾[١] ....

وكَذلِك تُحسِن إِلَى الخَلْق بجاهِكَ، بالشَّفاعَة الجائِزة، وذلِك بالتَّوسُّط، أمَّا الشَّفاعَة المُحرَّمة فَلَا تَجوز، مثل أن تَشفَع فِي إسقاط واجِبٍ، فإذَا بلَغَتِ الحُدود السُّلْطان فلَعَن اللهُ الشافِعَ والمُشفَّع له، واللهُ أَعلَمُ.

ففي هَذا: إثبات المَحبَّة لله عَزَّوَجَلَّ، فنُثبِت أن الله تَعالَى يُحِبُّ ويُحَبُّ؛ ويَجِب علينا هذا، ونَحْن نُدرِك ذَلِك بأَنْفُسنا، إذ يُدرِكُ العَبْد أنَّه يُحِبُّ ربه لـما غَذَاهُ بِهِ من النِّعَم وأَمَدَّه بكُلِّ مَا يَحتاج، ولهَذا جاءَ فِي الأثَر: «أَحِبُّوا اللهَ لِـمَا يَغْذُوكُمْ بِهِ مِنَ النِّعَمِ»(١).

[١] قَوْله: «**نُؤْمِنُ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَى يَرْضَى مَا شَرَعَهُ مِنَ الأَعْمَالِ والأَقْوالِ، وَيَكْرَهُ مَا نَهَى عَنْهُ مِنْهَا**» إذَنْ: نُثبتُ أن الله يَرضَى، وأَنَّه يَكرَه، رِضًا حَقيقيًّا وكراهة حَقيقيَّةً، فيُوصَف الله تعالَى بالرِّضا والكراهة، وقد أَنكَر المُعطِّلة أن يَكُون الله مَوْصوفًا بهما، وقالُوا: مَا جَاءَ من النُّصُوص بالرِّضا فالمُراد بِه الثَّواب، أَو إِرادَة الثواب، ومَا جَاءَ بالكَراهة فالمُراد بِه العِقاب، أَو إِرادَة العِقاب، وهَذا بِناءً علَى مَذهَبهم الفاسِد، ومَعلومٌ أن هَؤلاءِ المُعطِّلةَ يَبنون تَعْطِيلهم علَى أدِلَّة عقْلية، وهِي فِي الحَقيقة لَيْست عَقليَّةً، بَل هِي وَهْمية؛ فيَتوهَّمون أن إثباتَ هذِه الصِّفَةِ يَستلزِم التَّمْثِيل، فيُنكِرونها، والدَّلِيل علَى هَذا قَوْله: ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ﴾ [الزمر:٩]، وإذَا كانَ الله غَنيًّا عَنَّا فهَل يَتضرَّر؟

الجَوَاب: لَا، بَل الذِي يَتضرَّر هُو الكافِر.

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب المناقب، باب مناقب أهل بيت النبي ﷺ، رقم (٣٧٨٩)، من حديث ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا.

وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر:٧]، ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾[١] [التوبة:٤٦].

---

[١] قَوْله: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ هَذا نَفيُ الرِّضا، فهُو بمَفهومه يَدُلُّ علَى أنَّه يَرضَى مِنْهم الإِيمان؛ ولهَذا صرَّح بِه فِي قَوْله: ﴿وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ وفِي هذِه الآيَةِ دَلِيل علَى أن شُكْر النِّعْمة من الإِيمان، وكُفْرها من الكُفْر، ودليلُ الكراهة قَوْلُه: ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ [التوبة:٤٦]، اللهُمَّ أَجِرنا، هذِه الآيةُ خَطيرةٌ جِدًّا ومِيزانٌ! ﴿كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ﴾ أَي: فِي الجِهاد، ﴿فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾، فاحْذَرْ وفَتِّشْ! إِذَا رأَيْت نَفْسك مُتكاسِلًا عَن الخَيْر، فاخشَ أن يَكُون الله كَرِهَ انبعاثَك فِي الخير، ثمَّ أَعِدِ النَّظَر مرَّةً ثانِيةً، وصَبِّرْ نَفْسك، وأَرغِمها علَى الطاعة، فاليومَ تَفعَلها كارِهًا، وغدًا تَفعَلها طائِعًا هَيِّنةً علَيْك.

والمُهِمُّ: أن هذا فِيه تَحذيرٌ شَديدٌ لمَن رأَى مِن نَفْسه أنَّه مُثبَّط عَن الطاعة، فلَعَلَّ الله تعالَى كَرِهَ أن يَكُون هَذا الرجُلُ من عِباده المُطيعِين له، فثَبَّطه عَن الطاعة، نَسأَلُ الله أن يُعينَنا علَى ذِكْره، وشُكْره، وحُسْن عِبادته.

والشاهِدُ من هذِه الآيةِ قَوْلُه: ﴿كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ [التوبة:٤٦] لَمْ يَقُل: وقال لَهُمْ: اقعُدوا مَع القاعِدين؛ لأنَّ الله لَا يَأمُر بالفَحْشاء، لَكِن ﴿وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟﴾! والقائِلُ هُو النَّفْس؛ فالنَّفْس تُحدِّث الإِنْسان تَقُول: اقعُدْ لَا تَذهَب، والشَّيْطان كَذلِك يُثبِّط عَن الخَيْر، وجَليسُ السُّوء كَذلِك؛ ولهَذا حُذِف الفاعِل -أيِ: القائِل-؛ لِيَكون أشمَلَ؛ فالَّذِين يَقُولون: اقعُدوا مَع القاعِدين هم عِدَّة، ذكَرْنا ثلاثةً مِنْهم: النَّفْس، والشَّيْطان، وجَليس السُّوء.

وَنُؤْمِنُ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَى يَرْضَى عَنِ الذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ[١] ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾[٢] [البينة:٨].

---

[١] قَوْله: «وَنُؤْمِنُ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَى يَرْضَى عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ» وهَذا إثباتُ الرِّضا السابِق، لَكِن السابِق رِضا الأعمال، واللاحِق رِضا العامِل؛ ولهَذا فصَلْناها، وإلَّا فالصِّفَة واحِدة، وهِي الرِّضا.

إِذَنِ: اللهُ تعالَى يرضَى عَن العمَل، ويَرضَى عَن العامِلِ.

[٢] قَوْله: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ [البينة:٨] سبَق أن ذكَرْنا أن أَهْل التَّحريف -من الأشاعِرة وغيرِهم- لَا يُؤمِنون برِضا الله عَزَّوَجَلَّ، ويَقُولون: إن المُراد بالرِّضا هُو الثَّوابُ، أَو إِرادَةُ الثَّواب، وإنَّما قالُوا: إِرادَة الثَّواب؛ لأنَّهم يُثبِتون الإرادةَ، فيَكون قَوْله تعالَى: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ -علَى كَلامِهم- أَثابَهم، وقالُوا أيضًا: الإِنْسان لَا يرضَى عَن الله، بَل يَرضى بالله، فيَكون مَعْنَى ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ أَي: عمِلوا له، أَو عمِلوا لطَلَب رِضاهُ.

فإن قَالَ قَائِل: مَا عِلَّةُ الأشاعِرةِ فِي نفي الرِّضا عَن الله؟

قُلْنا: عِلَّتُهم فِي ذلِك أَنَّهم يَقُولون: لأن الرِّضا انفِعالٌ يَعتَلي الإِنْسانَ بحُصول مَا يُناسِبه، واللهُ مُنزَّهٌ عَن الانفِعال، وعن الأَفْعال.

ويَقُولون كلِمةً عَجيبةً، وهي: «سُبْحانَ مَن تَنزَّهَ عَن الأبعاض، والأَغْراض، والأَعْراض»، وهَذِه كلِماتٌ إذَا سمِعَها العامِّيُّ صاحَ، وقال: سُبحانه! سُبحانه!

فقولهم: التَّنزُّه عَن الأبعاض. يُنكِرون بِه الوَجْه، واليَدَيْن، والقَدَم، والساق؛ لأنَّ هذِه أبعاضٌ.

....

والأعراضُ جَمِيع الصِّفات الفِعْلية، يَقُولون: إن صِفاتِ الفِعْل عَرَضٌ يَزول، فالإِنْسان يَغضَب ثمَّ يَبرُد غَضَبه، واللهُ لَا يَغضَب؛ لأنَّ هَذا عرَضٌ، ومِثْله -أيضًا- الاستِواء علَى العَرْش بعد أن لَمْ يَكُن مُستَوِيًا علَيْه، هَذا عرَضٌ، فهُو مُنزَّهٌ عنه، فكُلُّ الأفعال الاختِيارية عِنْدهم فاللهُ مُنزَّهٌ عنها.

والأغراضُ أَيِ: الحِكَمُ، فهُمْ يَقُولون: لَيس فِيه شَيْء مُعلَّلٌ بحِكْمة إطلاقًا، لَا فِي الشَّرْع ولَا فِي القَدَر، وإنَّما يَفعَل الله تعالَى مَا يَشاءُ بِدُون حِكْمة، وعَلَى رَأْيِهم: يَجوز أن يَفعَل الله تعالَى مَا هُو سَفَهٌ!!.

والرَّدُّ عليهم أن نَقُول لهم: ماذا تُريدون بالأَبْعاض؟ هَل تُريدون: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لَيْس لَهُ بَعْض؟ فنَحْن نُوافِقُكم علَى نَفي اللَّفْظِ، فلَا نَقُول: إن اللهَ بَعْضٌ. ولَا نَقُول: إن اليَدَ بَعْضٌ من الله تَعالَى. بَل نَقُول: إن اليَدَ بَعْضٌ مِنَّا، ولَكِن نُنزِّهُ اللهَ عَن الأبعاض؛ لأنَّ ذلِك يُوهِم مَعْنًى باطِلًا؛ وهُو أن بَعْض الشَّيْء مَا جاز انفِصالُه عَن الشَّيْءِ مَع بَقاء الشَّيْء دونَه، فمثَلًا يُمْكِن للإنسان أن تَنفَصِل يَدُه عنه ويَبقَى مَعَ انفِصالها، فهَل نَقُول: إن يَدَ الله تعالَى يَلحَقها هَذا الجائِزُ؟! أبدًا! لَا نَقُول بِه، ولهَذا لَا تَجِد فِي كَلام عُلَماء السَّلَف: أن اليد بَعْضٌ من اللهِ، أَو الوَجْه، أَو العَيْن، أَو السَّاق، أَو القدَم، ونَقُول: يدٌ حَقيقيَّة، تَليقُ بِه سُبحانه، ولَا تُماثِل أَيدِيَ المَخْلوقين قَطُّ.

قَوْله: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾ أَي: الثَّوابُ المُشار إلَيْه، ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾ [البينة:٨]، فمَن خَشِيَ الله عَزَّوَجَلَّ واتَّقاه فإن الله تعالَى يَرضَى عنه، وسيَرضَى عَنِ الله تعالَى بِما يُثيبُه.

وَنُؤْمِنُ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَى يَغْضَبُ عَلَى مَنْ يَسْتَحِقُّ الغَضَبَ مِنَ الكَافِرِينَ وَغَيْرِهِم[١] ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾[٢] [الفتح:٦]،..

---

[١] قَوْله: «وَنُؤْمِنُ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَى يَغْضَبُ عَلَى مَنْ يَسْتَحِقُّ الْغَضَبَ مِنَ الْكَافِرِينَ وَغَيْرِهِمْ» والغضَبُ ضِدُّ الرِّضا، فمِن عَقيدة أَهْل السُّنَّة والجَماعَة: أن الله مَوْصوف بالغضَب علَى مَن يَستَحِقُّه من الكافِرين وغير الكافِرين، وفِي دُعاء اللعان: ﴿وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ﴾ [النور:٩]، فالغَضَب صِفَة من صِفاتِ الله الفِعْلية.

أمَّا أَهْل التَّعطيل فيقُولون: إن الغضَبَ لَا يُوصَف اللهُ به؛ لأنَّ الغضبَ غَلَيان دَمِ القَلْب، والله عَزَّوَجَلَّ لَا يُوصَف بهذا، فنقُول: نَعَم، الغَضَب هُو غَلَيان دَمِ القَلْب؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ أَخبَرَ بأَنَّه «جَمْرَةٌ يُلْقِيهَا الشَّيْطَانُ فِي قَلْبِ ابْنِ آدَمَ»(١) فتَنتَفِخ الأَوْداج، وتَقِف الشُّعور، ويَحمَرُّ الوَجْه، لَكِن هَذا غضَب المَخْلوق، أمَّا غضَب الخالِق فلَيْس من هذا، بَلْ هُو غضَبٌ يَليق بجَلاله وعظَمَتِه عَزَّوَجَلَّ.

[٢] قَوْله: ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [الفتح:٦] هَذا وَصْف لقَوْله تعالَى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ والشاهِدُ من هَذا قَوْلُه: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾.

---

(١) أخرجه أحمد برقم (١١١٩٣)؛ والترمذي: كتاب الفتن، باب ما جاء ما أخبر النبي ﷺ أصحابه، رقم (٢١٩١).

﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[١] [النحل:١٠٦].

وظَنُّ السُّوء بالله -أَجمَعُ مَا قِيل فِيه-: أن يُظَنَّ فِي الله تعالى مَا لَا يَليقُ بِه، فمَن ظَنَّ أن الله لَا يَنصُر أَوْلياءَه فقَدْ ظَنَّ بِه ظَنَّ السُّوء، ومَن ظَنَّ أن الله تعالى ناقِصٌ فِي صِفاتِه فقد ظَنَّ بِه ظَنَّ السُّوء، ومَن ظَنَّ أن الباطِلَ يَعلو الحَقَّ عُلُوًّا دائِمًا مُستَمِرًّا فقد ظَنَّ بالله ظنَّ السُّوء، ومَن ظَنَّ أن الله لَا يَبعَث العِباد ويُجازيهم فقد ظَنَّ بِه ظَنَّ السُّوء، وهَلُمَّ جَرًّا.

فظَنُّ السُّوء قاعِدتُه: أن يُظَنَّ بالله مَا لَا يَليق بِه، قَالَ الله تَعالَى: ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ أَي: علَيْهم يَدورُ السَّوْء ويُحيطُ بِهِم من كل ناحية، ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾.

[١] قَوْله: ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل:١٠٦]، «لَكِن» استِدْراك ممَّا سبَقَ فِي قَوْله: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

إِذَنْ: فنَحن نُؤْمِن بالغَضَب، ويُفسِّرُ أَهل التَّعطيل الغَضَبَ بالانتِقام، أَو إِرادَة الانتِقام، ولَكِن يُقال لهم: إن هَذا غلَطٌ يُكذِّبه القُرْآن، قَالَ الله تَعالَى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف:٥٥]، آسَفونا بمَعْنى: أَغضَبونا، انتَقَمْنا مِنهم، فجَعَل الانتِقام نَتيجةَ الغضَبِ، ومَعلوم أن الشَّرْط والجَزاء يَختَلِفان، فالشَّرْط: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا﴾، والجزاء: ﴿ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ فهُما شَيْئان مُتغايِران، فالقُرآن يُكذِّب قَوْلَهم: إن الغَضَب هُو «الانتِقامُ»، وكَذلِك أيضًا «إِرادَة الانتِقام» لَيسَت

هِي الغَضَبَ؛ لأنَّ الغاضِبَ يَغضَب أوَّلًا، ثمَّ يُريد أن يَنتَقِم ثانيًا، ثمَّ يَنتَقِم ثالِثًا، ولَكِنَّ نَفيَهم للغضَب الحَقيقيِّ مَبنيٌّ علَى الدَّلِيل الوَهميِّ الذِي سمَّوْه: عَقْليًّا.

فإن قَالَ قَائِل: هَل يُوصَف اللهُ بالحُزْن كما يُوصَف بالغَضب؟

فالجَوابُ: لَا، لَا يُوصَف؛ لأن الحُزْن دَليلٌ عَلَى الضَّعْف، والغَضب دَليل عَلَى القُوَّة؛ فالغَضَب صِفَة كَمال فِي محَلِّه، والحُزْن صِفَة نَقْص عَلَى كل حَال؛ لأن المَحزون عاجِزٌ عَن دَفْع مَا نزَلَ بِه، والغضَبُ دَليلٌ عَلَى أن الغاضِبَ قادِرٌ عَلَى الانتِقام؛ ولهَذا لَا يَجوز أن نَصِفَ الله بالحُزنِ، ويَجِب أن نَصِفَه بالغَضَب حيثُ وصَفَ نَفْسه تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فيُوصَف اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بالغضَبِ الحَقيقيِّ حيث وصَفَ نَفْسَه، ولَا يُوصَف بالحُزْن لأنَّه نَقْص، وهَذا كقَوْلنا: إن اللهَ يُوصَف بالخِداع حيث كانَ الخِداعُ كَمالًا، ولَا يُوصَف بالخِيانة أبَدًا؛ لأنَّ الخِيانةَ نَقْص، والخِداع قُوَّةٌ.

فائِدَة: من المَعلوم أنَّ كُلَّ وَصْف يَتَّصِف الله بِهِ فهُو أَكْملُ الأَوصافِ، ولله المَثَل الأَعْلى، أمَّا بالنِّسْبة للمَكْر والخِداع والاستِهْزاء والكَيْد هَذا فِي مَوْضعه؛ ولهَذا لَا يُوصَف الله بِهِ عَلَى الإطلاقِ يُوصَف الله بِهِ مُقابَلة من عامَلَ الله بِهِ يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال:٣٠]، فكَوْن الله أشَدَّ مَكْرًا مِنْهم فهذِه صِفَة كَمالٍ الآنَ.

ولله المَثَلُ الأَعلى! لو مكرَ بك عَدُوُّك وكُنْت أَعظَمَ منه مَكْرًا هَذا كَمالٌ؛ ولهَذا يُقال: الحَرْب خَدْعةٌ. وذكَروا أنَّ عليَّ بنَ طالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لـمَّا أَراد أَنْ يُبارِزه عمرُو ابن وُدٍّ -والمُبارَزة إذَا التَقى الصَّفَّان بَعْضُهم بعضًا خَرجَ مَن يُبارِز من أَجْل أن تنكَسِر

قُلوب المَهزومين فِي المُبارَزة قبل ابتِداء الحَرْب- فبارَزَه عَمرُو بنُ وُدٍّ ولـمَّا خرَج عَمرُو بنُ وُدٍّ من صَفِّه صرَخَ عَليُّ بنُ أبي طالِب: مَا خرَجْت لأُبارِز رَجُلَيْن. فظَنَّ عَمْرُو بنُ وُدٍّ أن تَبِعَه آخَرُ من جُنْده فالتَفَتَ وإذَا السَّيْف برَقَبَته؛ فهَذا مَكْر، ولكِن مَكْرٌ محمودٌ؛ لأن عَمرَو بنَ وُدٍّ مَا خرَجَ إلَّا ليَقتُل عليَّ بنَ أبي طالِبٍ.

وقَوْله: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾﴾ [الطارق:١٥-١٦]، بالمُقابِل قالوا: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة:١٤-١٥] يَعْنِي: يَستَهزِئون بالإِيمان بالله؛ ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ [النساء:١٤٢].

لَكِن انظر إلَى قَوْله تَعالَى: ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ [الطور:٤٢] مَا قالَ: فأنا أَكيدُهم؛ لأنَّه لم يَذكُر مَن يَكيدون بِهِ، فهُمْ يَكيدون كَيدًا بالرسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ ولَمْ يَقُل: أَكيدُ بهم.

أمَّا قَوْله: ﴿وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ [الرعد:١٣]، فإن هذِه الصِّفةَ ليسَتْ وَصْفَ المِحال، بَل وَصْف شِدَّتِه فِي محَلِّه، يَعْني: إذَا كانَ المِحال صِفةَ كَمالٍ فهُو شَديدُه عَزَّوَجَلَّ، مِثل قَوْله: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ ۖ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال:٣٠]. وقَوْله: ﴿قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ [يونس:٢١]، فَلَا إِشْكالَ فِيه؛ لأن هذِه صِفَة لصِفة: ﴿شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ فهُو وَصْف للصِّفة المِحال، والمِحال ذكَرْنا أنَّه صِفَة لَا يُوصَف بِهِ عَزَّوَجَلَّ عَلَى الإطلاق.

فالحاصِلُ: أن مِن الصِّفاتِ التِي يَتَّصِف بِهَا مَا لَا يُوصَف بِهَا وَصْفًا مُطلَقًا، بَل لَا يُوصَف إلَّا مُقيَّدًا بالمُقابَلة، حتَّى يَتبيَّنَ أنَّ اللهَ تعالى أَعْلى وأَعظَمُ من هَؤلاءِ.

وَنُؤْمِنُ بِأَنَّ للهِ تَعَالَى وَجْهًا مَوْصُوفًا بِالجَلالِ وَالإِكْرَامِ[١]، ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾[٢] [الرحمن:٢٧].

---

[١] قَوْله: «**وَنُؤْمِنُ بِأَنَّ للهِ تَعَالَى وَجْهًا مَوْصُوفًا بِالجَلالِ وَالإِكْرَام** ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:٢٧]» وَجْهُ الله عَزَّوَجَلَّ صِفَة من صِفاتِه، لَكِن هَل هُو صِفَة مَعنَويَّة، أَو صِفَة فِعْلية، أَو صِفَة خَبَرية؟ **الجَوَاب**: أَنَّه صِفَة خبَرية، ولَيْس صِفَة مَعنَويَّة ولَا فِعْلية، والضابِطُ فِي الصِّفات الخبَرية المَحْضة مَا قاله شَيْخ الإِسْلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): من صِفاتِ الله مَا مُسَمَّاه أبعاضٌ لنَا وأَجزاءٌ لنَا، فالوَجْه مُسَمَّاه بالنِّسْبة لنَا بَعْضٌ، واليَدُ بَعْضٌ، فهذه صِفاتٌ خبَرية مَحضة، العَقْل لَا يُدرِكها، ولَوْلَا أن الله أَخبَرَنا عنها مَا علِمنا بِهَا، ولَيْست مَعنَوية أيضًا، حتَّى بعد أن أَخبَرَنا الله بِهَا، بَل هِي صِفَة نَظيرُ مُسمَّاها أَجزاء وأَبعاضٌ، وهَذا هُو الفَرْق بين قولنا وقول مَن يَقُول: المُراد بالوَجْه الثَّواب، وقالُوا: إن قَوْله تعالَى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:٢٧]، أَي: ثوابُه! فحمَّلوا الثَّواب مَا لَا يَحتَمِل، فهَلِ الثَّواب مَوْصوف بالجَلال والإكرام؟! أَبدًا، لَا يَستَحِقُّ هَذا الوَصْفَ إِلَّا وَجْه الله عَزَّوَجَلَّ.

إِذَن: نُؤْمِن بأن لله وَجهًا حَقيقيًّا، ولَكِن لَو سُئِلْنا عَن كَيْفِيَّته نَقُول: الله أَعلَمُ، ولَا يَحِلُّ لنَا أن نَتكلَّم بهذا إطلاقًا، بَل نَقُول: لَهُ وَجْه يَليق بجَلاله وعظَمته، ونُؤمِن بِه؛ لأَنَّ الله تعالَى أَخبَرَنا عنه، ووَصَف بِه نَفْسه، ولكنَّنا لَا نَتعرَّض لكَيْفِيَّته؛ لأَنَّه لَا إحاطةَ لنَا بذلِك.

[٢] وقَوْله: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:٢٧] **ذُو الجَلال** أَي: ذُو العَظَمة والإكرام من الله للناس ومن النَّاس له، ففيها الوَجْهان: فهُو مُكْرِم لعِباده

---

(١) انظر: التدمرية (ص:٧٧)، تقريب التدمرية (ص:٦٨).

وَنُؤْمِنُ بِأَنَّ للهِ تَعَالَى يَدَيْنِ كَرِيمَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ، ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾[1] [المائدة:٦٤]، ....

المُطيعين لَهُ بالثَّواب، وهُو مُكْـرَم من عِباده الذِين يَتذَلَّلون له، ويَعبُدونه، فالإكـرام هنا مَصدَرٌ صالِحٌ لأَنْ يَقعَ من الله لَمَنْ يَستَحِقُّ الإكرام، أَو من العِباد لله عَزَّوَجَلَّ وهُو أَهْلٌ للإِكْرام.

فإن قَالَ قَائِل: فِي آيةٍ أُخْرى فِي سورة الرحمنِ قَالَ الله تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:٧٨] فلِماذا قَالَ: ﴿ذِى ٱلْجَلَٰلِ﴾ وفِي قَوْله: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ قَالَ: ﴿ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾؟

قُلْنا: أمَّا قَوْله: ﴿ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ فالوَصْف للرَّبِّ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ.

وأمَّا قَوْله: ﴿ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ فالوَصْفُ للوَجْه لَا للرَّبِّ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ.

فتبَيَّن بهذا أن الوَجْهَ صِفَة حقيقيَّة قائِمةٌ؛ ولهَذا لـَمَّا جاءَت كلِمةُ ﴿ٱسْمُ﴾ وهِي لَيسَت من صِفاتِ الله، صار النَّعتُ للمُضاف إِلَيْه وهُو ﴿رَبِّكَ﴾.

فائِدَة: قالَ بَعْض السَّلَفِ: إذَا قرَأْتَ قَوْله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ فَصِلِ الآيةَ بعدَها: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾؛ فتقولُ: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾؛ يَقول: صِلِ الآيَةَ: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ بالآية التِي قَبْلها حتَّى يَتبَيَّن لك كَمال الله عَزَّوَجَلَّ: أنَّ كلَّ مَن عَلَيْها -أَي: عَلَى البَسيطة- فانٍ، وأمَّا الله فَلَا، وهَذا حقٌّ.

[١] قَوْله: «وَنُؤْمِنُ بِأَنَّ للهِ تَعَالَى يَدَيْنِ كَرِيمَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ» «يَدَيْن» هذِه تَثنية، «كَريمَتَيْن» وَصَفها بالكَرَم، «عظيمتين» وَصَفَها بالعَظمة، ولَا بُدَّ لكُلِّ واحِد من هذِه الأَوْصافِ من دَليلٍ:

﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[1] [الزمر:٦٧].

أَمَّا دَلِيل التَّثْنية فقَوْله تعالَى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [المائدة:٦٤]، وقالَ تعالَى للشَّيْطان: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ [ص:٧٥].

والدَّلِيل علَى أنهما كَريمتان قَوْله تعالَى: ﴿مَبْسُوطَتَانِ﴾ والبَسْط ضِدُّ القَبْض؛ ولهَذا جاءَ الحَدِيث مُفسِّرًا لذلك: «**يَدُ اللهِ مَلْأَى، سَحَّاءُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ**»(١)، قَالَ العُلَماءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ: السَّحَّاءُ كَثيرة العَطاء، وهَذا يَدُلُّ علَى أنهما كَريمَتان، فوالله لَا أَحَدَ أكرَمُ من الله، يَدُه مَلأَى، سَحَّاءُ الليل والنهار، قَالَ الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ**» أَخبِروني: هَل هُو قَليلٌ أَم كَثِيرٌ لَا يُحصَى؟ «**فَإِنَّهُ لَمْ يَغِضْ مَا فِي يَمِينِهِ**»(٢) أَي: لم يَنْقُص، الله أكبَرُ! وهَذا دَلِيل علَى عَظَمة كَرَم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وكَثْرة خَيْراته.

[١] وأَمَّا كَوْنُهما عظيمَتَيْن فلِقَوْله تعالَى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر:٦٧]، أَي: مَا عظَّم هَؤلاءِ المُشرِكون الله حَقَّ تَعظيمه، حَيثُ جعَلوا لَهُ أَنْدادًا لَا تُساوِي شَيْئًا، ولَا تَنفَع، ولَا تَضُرُّ، ولَيْس لهَا قُوَّةٌ، ولَا سَمْعٌ، ولَا بصَرٌ، ﴿وَٱلْأَرْضُ﴾ الجُمْلة حالِيَّة، أَي: والحال أن الأَرْض ﴿جَمِيعًا﴾ بما فِيها من جِبال

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾، رقم (٤٦٨٤)؛ ومسلم: كتاب الزكاة، باب الحث على النفقة وتبشير المنفق بالخلف، رقم (٩٩٣).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب التفسير، باب سورة هود باب قوله: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾، رقم (٤٦٨٤)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب الحث على النفقة، رقم (٩٩٣)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وأنهار وأشجار وغيرها ﴿قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ والقَبْضة -بالنِّسْبة لنَا- هِي مَا يَقبِض عَلَيه الإِنْسان، فالأَرْض جَمِيعًا قَبْضته يَوْم القِيامَة، وقد جَاءَ فِي الحَدِيث: «أَنَّ اللهَ يَجْعَلُ الْأَرْضَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالثَّرَى عَلَى إِصْبَعٍ، وَالشَّجَرَ عَلَى إِصْبَعٍ...» إلخ[1].

وكلُّ هَذا يَدُلُّ علَى عظَمته سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

زِدْ علَى هَذا: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ فالسَّمواتُ علَى عِظَمها وسَعَتها مَطويَّاتٌ بيَمينه، قالَ تعالَى: ﴿يَوۡمَ نَطۡوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلۡكُتُبِ﴾ [الأنبياء:١٠٤]، والتَّشبيهُ هنا للطَّيِّ بالطَّيِّ، ولَيْس مَعْناه أن السَّمواتِ مِثْلُ سِجِلِّ الكُتُبِ، بَل هِي أَعظَمُ بكَثير، لَكِن لسُهولَتِها علَى الله صارَتْ كطَيِّ السِّجِلِّ للكُتُب؛ لأَنَّ النَّاس كانوا فِي الزمن السابِقِ إذَا كَتَبوا كِتابًا -فليس هُناكَ ظُروف يُدخَل فِيها-، فإنهم يَطوُون هَذا الكِتاب، ثُمَّ يَضعون عَلَيه الشَّمْع، ثُمَّ الختْمَ علَى الشَّمْع، ويَبِينُ الختمُ؛ لأَنَّ الشَّمْع ما دامَ حارًّا فهُو لَيِّن؛ فكانوا يَتَراسَلون بهذه الطَّريقةِ.

فإذا قالَ لنَا قَائِل: هَل لنَا أن نَسأَل ونَقُول: يَدَا الله يَمينٌ وشِمال، أَم هِي يَمينٌ؟

فالجَوَابُ: لَا؛ لأَنَّ الصَّحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ لم يَسأَلوا عنها، لَكِن السُّنَّة جاءَت «بِأَنَّ كِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ»[2]، وجاءَت «وَيَأْخُذُ الْأَرْضَ بِشِمَالِهِ»[3]، فمِن العُلَماء مَن أَنكَر

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ﴾، رقم (٤٨١١)، ومسلم: كتاب صفة القيامة والجنة والنار، رقم (٢٧٨٦)، من حديث ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الإمارة، باب فضل الإمام العادل، رقم (١٨٢٧)، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا.

(٣) أخرجه مسلم: كتاب صفة القيامة، رقم (٢٧٨٨)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ.

كلِمةَ الشِّمال، وقال: لَا نَقُول: إن لله شِمالًا. بَل نَقُول كَمَا قَالَ الرَّسُولُ ﷺ: «**كِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ**» ومن النَّاس مَن أَثبَتَها، وقال: إنَّما جاءَت فِي صَحِيح مُسلِم. والجَمْع بينها وبين قَوْله: «**كِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ**» مُمكِن وسَهْل؛ لأنَّ الرَّسُول ﷺ لـمَّا ذكَر اليَمين قالَ: «**وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ**» من اليُمْن، وهُو البَرَكة، وإنَّما قالَ: «**كِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ**»؛ لئَلَّا يَظُنَّ الظانُّ أن كون الأُخرى شِمالًا يَقتَضِي نَقْصَها؛ كَمَا هُو شَأْن المَخْلوق، فالمَخْلوق يَمينه أَقْوى، وهِي أداة الأَخْذ والبَسْط وغير ذَلِك، فقَالَ: «**كِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ**»، فيُبيِّن أَنَّه لَا نَقْصَ فِيها، وإن كَانَت تُوصَف بالشِّمال، مثل قَوْله تعالَى: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [النساء:٩٥]، والقاعِدةُ عِنْد العُلَماء: «**أنَّه مَتى أَمكَنَ الجَمْع وَجَب المَصيرُ إلَيْهِ**»، ولَا نَقُول: هذِه شاذَّةٌ، أَو هذِه غيرُ صحيحةٍ. فإذَا أَمكَن الجَمْع فاجْمَعْ.

فالخُلاصةُ: أننا نُثبِتُ بأن لله شِمالًا، وأنَّ مَعنَى قول الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**كِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ**» أَي: مِن اليُمْن وهُوَ البَرَكة، وأَنَّه لـمَّا قَالَ: «**اخْتَرْتُ يَمِينَ رَبِّي، وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ مُبَارَكَةٌ**» إنَّما ذكَرَ ذَلِك لئَلَّا يَتوهَّم واهِمٌ بأن الشِّمال ناقِصةٌ فقال: «**كِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ**».

فإن قَالَ قَائِل: وهَل مِن أدِلَّة إثبات اليَدَيْن لله عَزَّوَجَلَّ قَوْله تعالَى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ﴾ [الذاريات:٤٧]؟

فالجَوابُ: لَا، لأن (أَيْد) مَصدَر: آدَ، يَئِيدُ؛ بمَعْنى قَوِيَ، فهِيَ مَصدَر، ولَيْس المُراد بِهِ أَيدِيَ الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّها لم تُضَفْ إلَى الله، فلَمْ يَقُلْ: «وَالسَّماءَ بَنَيْناها بِأَيْدِينا» ومَا لم يُضَفْ إلَى الله فلَا تجوزُ إِضافَتُه إلَى الله.

وقد ظَنَّ بَعْض النَّاس -الذين هُمْ صِغار فِي العِلْم- أنَّ مَن فَسَّر (أيدٍ) فِي قَوْله: ﴿بِأَيْيْدٍ﴾ بالقُوَّة فقد حرَّف! والجوابُ: لَا، لأننا نَسأَل سُؤالًا سَهْلًا: هَل أَضافَها الله لنَفْسِه؟ لَا. إِذَنْ: لَا يَجوز أن نُضيفها إِلَى الله، وهَل لَهُ وَجْه بالعَرَبيَّة أن تكون بمَعْنى القُوَّة؟ الجَوابُ: نعَمْ؛ ففي اللغة العَرَبيَّة: آدَ، يَئيدُ، أَيْدًا؛ فهَذا مَعنَى الآية.

وهَل لله أصابعُ؟ والجَوَاب: نعَمْ. لله أَصابعُ، وهَل ثُبوتُ الأصابعِ لله من لازِمِ ثُبوت اليَدِ له؟ والجَوَابُ: لَا، لَكِن الأصابع جاءَت بأدِلَّةٍ أُخرى، منها: «قُلُوبُ بَنِي آدَمَ بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ»[1]، وهَذا الحَدِيثُ فرِحَ به المُعطِّلة وقالُوا: هَذا يَدُلُّ علَى أن اليَدَ غيرُ اليَدِ الحَقيقيَّة، وأن الإِصبَع غيرُ الإِصبَع الحقيقيِّ. فقُلْنا: لماذا؟ قالُوا: لأن أَصابعَ الرَّبِّ عَزَّوَجَلَّ يَقُول الرَّسُول ﷺ فِيها: «بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ» ونَحْن لَا نَشعُر بأن فِي صُدورنا أصابعَ لله حَقيقةً! فتبَيَّن أن تَأويلَنا صَحِيحٌ، وأن قَوْله: «بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ» كِناية عَن القُدْرة والسُّلْطة علَى بني آدَمَ، فهِيَ كقَوْله تعالَى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ [الأنفال:٢٤]، وهذا الكَلامُ مِنْهم لَيْس تَحريفًا، بَل هُو تَحقيقٌ لَا شَكَّ، وشُبْهة قَوِيَّة؛ لأنَّهم قالُوا: إن قُلْتم بالحقيقة فَلَا بُدَّ أن نَشعُر بأن هُناكَ أصابعَ قابِضةً علَى القَلْب فيكون بين إِصبَعَيْنِ!!

فنَقُول لـهم: لَا تَنظُروا للنُّصوص بعَيْن أَعوَرَ، بَلِ انظُروا للنُّصوص من كلِّ جانِب، فهَل يَلزَم من كون القُلوب بين إِصبَعَيْن من أَصابع الرَّحْمن المُماسَّة؟

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب القدر، باب تصريف الله تعالى القلوب كيف شاء، رقم (٢٦٥٤)، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا.

وَنُؤْمِنُ بِأَنَّ للهِ عَيْنَيْنِ اثْنَتَيْنِ حَقِيقِيَّتَيْنِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾[1] [هود:٣٧]،..

والجَوَابُ: لَا تلزَم، أَلَمْ يَقُلِ الله تَعالَى: ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة:٢٤]، ومِن المَعلوم أَنَّ السَّحاب لَا يَمَسُّ السَّماء ولَا الأرضَ! إِذَنِ البَيْنِيَّة لَا تَستلزِم المُماسَّة، فإِذَا كَانَت لَا تَستلزِم المُماسَّة فالقُلوب بين إِصْبَعين من أَصابع الرَّحْمن، ولَا يَلزَم المُماسَّة.

وبِهَذا نَجمَع بين الأدِلَّة، ونَقُول: قُلوبُنا بين إِصبَعَيْن من أصابع رَبِّنا -ونَسأَل الله أن لَا يُزيغَها- ولَكِن لَا يَلزَم من هَذا المُماسَّةُ، ونُؤمِن بأنَّها حقٌّ علَى حَقيقتها، لَكِن كَما قُلْنا: إن الله عَزَّوَجَلَّ بحِكْمته أَنزَل النُّصُوص، وجعَل بَعْضها مُتَشابِهًا امتِحانًا من الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى؛ ليَبتَلِيَ مَن فِي قَلْبه زَيْغ، مِمَّن هُو راسِخٌ فِي العِلْم؛ ولهَذا قالَ تعالَى: ﴿ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ﴾ [النساء:١٦٢]، فِي قَوْله تعالَى: ﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾، ثمَّ قالَ: ﴿ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ﴾ ولَمْ يَقُلْ: والعُلَماء. إِشارَة إِلَى أن المَسأَلة تَحتاج إِلَى رُسوخٍ فِي العِلْم، وإِحاطةٍ بالنُّصوص، وفَهْمٍ للمَعنَى، والراسِخون فِي العِلْم يَقُولون: إنَّه لَا تَشابُهَ، ولَا تناقُضَ، بَل كُلٌّ من عِنْد رَبِّنا، ومَا يَتذكَّر إِلَّا أُولو الأَلْباب.

[١] قَوْله: «عَيْنَيْنِ» الأَفصَح كَسْر النُّون، فالمَشهور كَسْر النُّون فِي المُثَنَّى وفَتْحها فِي جَمْع المُذكَّر السالِمِ، وقد تُفتَح فِي المُثنَّى، ومنها قولُ الشاعِرِ(١):

أَعْـرِفُ مِنْهَـا الجِيـدَ وَالْعَيْنَانَـا ... وَمَنْخِـرَيْنِ أَشْـبَهَا ظَبْيَانَـا

---

(١) البيت ينسب لرجل من ضبة، انظر: كتاب الشعر لأبي علي الفارسي (ص:١٢٣)، وخزانة الأدب (٧/ ٤٥٢).

هكَذَا استَدَلَّ النَّحويُّون، والقائِلُ رجُلٌ من بني ضَبَّة؛ ولذلِكَ يَقَع فِي النَّفْس شَكٌّ من أن هَذا مَصنوع؛ لأنَّه جَمْع بين لُغَتَيْن: أَعرِف مِنْها الجِيدَ والعَيْنانَ. فألزَمَ المُثنَّى الألِف ولم يَنصِبْه بالياء، ثُمَّ قَالَ: ومَنخِرين نصَبه بالياء، والعرَبيُّ لَا يُمْكِن أن يَأتِيَ بلُغَتَيْن، فالعرَبيُّ لُغتُه ولهْجتُه واحِدة؛ فلِذلِكَ القولُ بأنَّه مَصنوعٌ -يَعنِي: مَكذوب- قولٌ قوِيٌّ.

وقَوْله: «**نُؤْمِنُ بِأَنَّ للهِ عَيْنَيْنِ اثْنَتَيْنِ حَقِيقِيَّتَيْنِ**» قَوْله: «**للهِ عَيْنَيْنِ**» هذِه تَثْنية، «**اثْنَتَيْنِ**» تأكيد، «**حَقِيقِيَّتَيْنِ**» نَفيٌ للمَجاز، فالله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ لَهُ عَيْنان اثنَتانِ حَقيقِيَّتان.

والدَّلِيل: قَوْله تعالَى: ﴿وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا﴾، فإن قَالَ قَائِل: الدَّلِيل لَا يُطابِق المَدلولَ، لأنَّنا قُلْنا: «عَيْنَيْنِ»، واستَدْلَلْنا ﴿بِأَعۡيُنِنَا﴾! ومن شَرْط الدَّلِيل أن يَكُون مُطابِقًا للمَدلولِ، فكَيْف ذَلِك؟!

فالجَوابُ: أَنْ نَقُولَ: إن وَجهَ المُطابَقة أن قَوْلَه: ﴿بِأَعۡيُنِنَا﴾ جَمع لَفْظًا لَا مَعنًى؛ لأنَّ الثابِتَ أن للهِ عَيْنَيْن اثنَتَيْنِ، والجَمْع هنا إمَّا أن يُراد بِه مُطلَق التَّعدُّد، وإمَّا أن يُراد بِه التَّعظيمُ، فإن أَرَدْنا مُطلَق التَّعدُّد فهُو علَى قول مَن يَقُول: إن أَقَلَّ الجَمْع اثنانِ، وإذَا قُلْنا: المُراد بِه التَّعظيمُ صار المُرادُ بهذا الجَمعِ التَّعظيمَ، لَا حَقيقةَ العَدَد، وكِلاهما صَحِيح، يَعْنِي: إن قُلْنا: بأن الجَمْع يَدُلُّ علَى مُطلَق التَّعدُّد -ولَو اثنَيْنِ- فالأمر واضِحٌ، وإن قُلْنا: إنَّه يَدُلُّ علَى ثلاثةٍ فأكثَرَ، ولكِنَّه جُمع هنا للتَّعظيم، فهُو أيضًا واضِحٌ.

ووجهُ كَوْنِه للتَّعظيم: أنَّه أُضيف إلَى مَا يَقتَضي العدَد، وهُو (نا)، وهِي هنا لا شَكَّ أنَّها للتَّعظيم؛ لأنَّ الله واحِدٌ عَزَّوَجَلَّ، فإذَا كَانَت للتَّعظيم فإن تَعظيمَ المُضاف

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «حِجَابُهُ النُّورُ، لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ»[١].

إِلَيْه اكتَسَب مِنه المُضاف تَعظيمًا، فصار ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ ولَيْس لله تعالَى أكثَرُ من اثنَتَيْن، فهَذا تَقريرُ وَجْه الاستِدْلال بالآية.

[١] قَوْله: «وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «حِجَابُهُ النُّورُ، لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ»(١)، أَي: حِجاب الرَّبِّ عَزَّوَجَلَّ الذِي احتَجَب بِه عَن المَخْلوقات النُّورُ، وهُو نُور عَظيم عَظيم عَظيم!! لَا يُشابِه نُورَ الشَّمسِ، ولَا غَيره ممَّا نُشاهِد، بَل هُو أعظَمُ، ومَع ذلِك لَو كشَفَه لأَحرَقَت سُبُحاتُ وَجْهه مَا انتهى إِلَيْه بَصَرُه من خَلْقه.

والسُّبُحات هي: البَهاءُ والعظَمة والجَلالُ.

فلو كُشِف هَذا النُّورُ الحائِلُ بين الله وبين الخَلْق لأَحرَقَتْ سُبُحات وَجْهه مَا انتهى إِلَيْه بصَرُه من خَلْقه.

والشاهِدُ من هَذا الحَدِيثِ: «بَصَرُهُ» حَيثُ أَثبَت لله بَصَرًا.

وقَوْله: «لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْه بَصَرُهِ» لَا يُقال: إن هَذا دَلِيلٌ علَى أن بصَر الله لَهُ مُنتَهى، ولَكِن فِيه دَلِيل علَى أن المُبْصَر لَهُ مُنتَهًى دُونَ البصَر، وإذَا كانَ يَحترِق مَا انتهى إِلَيْه البَصَر من خَلْقه، صار كل الخَلْق يَحترِق من النُّور العَظيم، لـو كَشَف الله حِجابـه الذِي احتَجَب بِهِ عَـن الخَلائِـق لاحتَرَقَتِ الخَلائِقُ كلُّـها من

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب في قوله ﷺ: «إن الله لا ينام»، رقم (١٧٩)، من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَأَجْمَعَ أَهْلُ السُّنَّةِ عَلَى أَنَّ العَيْنَيْنِ اثْنَتَانِ[١]، ....

النور العَظيم؛ لقوله: «لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ» وهُوَ بَهاؤُه ونُورُه، عظَمته «مَا انْتَهى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ»، فسُبْحانَ اللهِ العَظيمِ! وهَذا تَمثِيلٌ عَظيم جِدًّا.

فدل ذلِك أيضًا أن هاتَيْنِ العَيْنَيْنِ يُبصِر بهما جَلَّوَعَلَا؛ لأنَّ العَيْنَيْنِ هُما أداة الإبصار، ولَو لم يَرِد «مَا انْتَهى إِلَيْهِ بَصَرُهُ» مَا كُنَّا نَعقِل إلَّا أن للعَيْنَيْن إبصارًا، وإلَّا لكَانَت هذِه العَيْنُ ناقِصةً، فتَقرَّر لدينا عَقيدة، وهِي أن لله عَيْنَيْن، اثْنَتَيْن حَقيقيَّتَيْن، بدليل أن بهما بَصَرًا، والدَّلِيل أن بهما بصَرًا قَوْله: «مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ».

فإن قَالَ قَائِل: من أَيْنَ لك: أن الله يَرَى بعَيْنه؟ فالجَوَابُ: أن نَقُول: إن العَيْن عِنْد الإطلاق تُفيد مَعْنَى النَّظر بِهَا، ثُمَّ إن عِندنا هَذا الدَّلِيل: «مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ».

[١] قَوْله: «وَأَجْمَعَ أَهْلُ السُّنَّةِ عَلَى أَنَّ الْعَيْنَيْنِ اثْنَتَانِ» نَقَل هَذا الإجماعَ أبو الحسَنِ الأَشعريُّ وغيره، مِمَّن اعتنَوْا بنَقْل الآثار، علَى أن أَهْل السُّنَّة أَجمَعوا علَى أن لله عَيْنَيْن اثنَتَيْن فقَطْ، وأمَّا مَن قالَ: بَل لَهُ أَعيُنٌ كثيرة لَا تَنحَصِر باثنَتَيْن، فقولُه خطأٌ -لَا شَكَّ- مِن وَجْهين:

أَوَّلًا: أنَّه مُخالِف لإِجْماع السَّلَف.

وثانيًا: أنَّه مُخالِف للدَّلِيلِ، والدَّلِيل سبَقَ الكَلام عَليه.

وهنا دَلِيل أَوْضَحُ: «قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ فِي الدَّجَّالِ: «إِنَّهُ أَعْوَرُ، وَإِنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ بِأَعْوَرَ»(١).

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الفتن، باب ذكر الدجال، رقم (٧١٣١)، ومسلم: كتاب الفتن، باب ذكر الدجال، رقم (٢٩٣٣)، من حديث أنس رَضِيَاللَّهُعَنْهُ.

وَيُؤَيِّدُهُ قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ فِي الدَّجَّالِ: «إِنَّهُ أَعْوَرُ، وَإِنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ بِأَعْوَرَ»[1].

---

[١] قَوْله: «وَيُؤَيِّدُهُ قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ فِي الدَّجَّالِ: «إِنَّهُ أَعْوَرُ، وَإِنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ بِأَعْوَرَ» الدجَّالُ هُو رجُلٌ من بني آدَمَ، يَبعَثه اللهُ فِي آخِر الزمان فِتْنة للناس، يَدَّعي أَوَّلَ مَا يَظهَر -كَما قَالَ بَعْضُ المُؤَرِّخين- النُّبوَّة، ثُمَّ فِي التالي يَدَّعي أَنَّه ربٌّ وإلَهٌ، ويُعطيه الله عَزَّوَجَلَّ من الآيات مَا بِه فِتْنة للمُفتَتَنين، حَيثُ يَأتِي إِلَى القَوْم، ويَدعوهم إِلَى نَفْسه، وأَنَّه ربٌّ فإِذَا أَبَوْا أَصبَحوا مُمحِلين؛ أَي: أن أرضَهم يَموت نَباتُها، ولَا يَبقَى لهم شَيْءٌ، وكذَلِك أيضًا بَهائِمُهم تَموتُ، وإِذَا دعا القومَ فأَجابوا دَعْوَته دعا السَّماء فأَمطَرَت، وهم يُشاهِدون: يَا سماءُ أَمطِري. فتُمطِر، ويا أرضُ أَنبِتِي. فتُنبِت، فتَعود إِلَيْهم سارِحَتُهم أوفَرَ مَا تكون لَحْمًا وشَحْمًا وضَرْعًا، وهَذِه فِتْنة عَظيمة لَا سِيَّما عِنْد البادِية، فهَذا الرجُلُ الدَّجَّال يَفتِن النَّاس، ومن شِدَّة الفِتْنة والذُّهول لَا يَتدبَّر الإِنْسان تَدبُّرًا عَقْليًّا، يَعرِف بِه أن هَذا لَيْس بإِلهٍ؛ ولهَذا أَعطانا رَسُولُ الله ﷺ آيةً، بَل آياتٍ علَى أَنَّه لَيْس بإِلَهٍ، فقَالَ: «وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ لَنْ تَرَوْا رَبَّكُمْ حَتَّى تَمُوتُوا»(١).

وهَذِه الآيةُ يَعقِلها القَلْبُ، ولَكِن رُبَّما لشِدَّة الأَمْر يَنسَى هذِه الآيَة، وهُناك آيةٌ حِسِّيَّة، وهِي أَنَّه مَكتوب بين عَيْنَيْه كافِرٌ(٢)، يَقرَؤُه كلُّ مُؤمِن، الكاتِبُ وغيرُ الكاتِب، فحتَّى الذِي لَا يَعرِف الكِتابة أَو القِراءة، فهذه آية حِسِّيَّة، لَا يَذهَل عنها الإِنْسان؛ لأَنَّه يُشاهِد الرَّجُل، كَذلِك هُناكَ عَلامة حِسِّيَّة أُخرى، وهِي أَنَّه أَعوَرُ، فإِحْدى عَيْنَيْه عَـوراءُ، والرِّوايات مُختَلِفة هَل اليُمنَى أَو اليُسرَى؟ والمُهِمُّ أَنَّه أَعـوَرُ،

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الفتن، باب ذكر ابن صياد، رقم (١٦٩)، من حديث ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الحج، باب التلبية إذا انحدر في الوادي، رقم (١٥٥٥)؛ ومسلم: كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ، رقم (١٦٦).

وهَذِه عَلامة فارِقة؛ لقوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إِنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ بِأَعْوَرَ».

ووجهُ الدَّلالة من هَذا الحَدِيثِ -علَى أن الله لَهُ عَيْنانِ فقَطْ-: هُو أَنَّه لَو كانَ لله أكثَرُ من عَيْن لكَانَت هذِه الكَثْرة كَمالًا؛ لأنَّ كل صِفَة يَتَّصِف الله بِها فهِيَ كَمال، ويَحصُل بِها العَلامة الفارِقة بين الدَّجَّال والرَّبِّ، فإذَا كانَ الله عَزَّوَجَلَّ لَهُ ثلاثُ أَعيُنٍ، وهَذا الدَّجَّالُ لَهُ عَيْنان، فيَكفِي أن يَتميَّز الخالِق من هَذا الدَّجَّالِ! فلمَّا لم يَذكُر الثلاث عُلِم أنَّه لَيْس لله ثلاثٌ، وأن لَهُ اثنَتَيْن فقَطْ، يُشارِكه فيهما الدَّجَّال فِي كون عَيْنَي الدَّجَّال اثنَتَيْن، لَكِن تَتَميَّز عينُ الخالِق عَزَّوَجَلَّ بأنَّها كامِلة، لَيْس فِيها نَقْص، وعَيْنُ الدَّجَّال بأنَّها عَوْراءُ.

وبِهَذا يَتَقرَّر تَقرُّرًا تامًّا تَنبَني عَلَيه العَقيدة: بأن الله لَيْس لَهُ إِلَّا عَيْنانِ اثنَتانِ، وهُو مَا أَجمَعَ عَلَيه أَهْل السُّنَّة، فهَذا الذِي نُؤْمِن بِه، ولَيْس لله أكثَرُ من عَيْنَيْن.

وبِهَذا نَعرِف أن عَيْن الله عَزَّوَجَلَّ جاءَت مَرَّة بالإفراد، ومرَّةً بالجَمْع فقَطْ، ومرَّةً بالتَّثْنية، لكِنَّه حَديثٌ ضَعيف، وهُو أن النَّبِيَّ ﷺ قالَ: «إِذَا قَامَ أَحَدُكُمْ يُصَلِّي فَإِنَّه بَيْنَ عَيْنَي الرَّحْمَنِ»[1]، فهَذا الحَدِيثُ ذكَرَه ابنُ القَيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «الصواعِق المُرسَلة»[2]، إِلَّا أَنَّه ضَعيف، لكنَّنا -فِي الحقيقة- فِي غِنًى عَنْهُ بحديث الدَّجَّال.

(١) أخرجه محمد بن نصر المروزي في تعظيم قدر الصلاة (١/ ١٨٠) رقم (١٢٨)، والعقيلي في الضعفاء الكبير (١/ ٧٠)، وأبو القاسم الأصبهاني في الترغيب والترهيب (٢/ ٤٢٠)، رقم (١٩٠٨)، كلهم من طريق إبراهيم الخوزي، عن عطاء بن أبي رباح، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، مرفوعا. وإبراهيم الخوزي متروك الحديث، انظر تهذيب الكمال (٢/ ٢٤٣).

(٢) الصواعق المرسلة (١/ ٢٥٦).

....

فإذا قَالَ قَائِل: مَا الجَمعُ بين المُفرَد والجَمْع فِي قَوْله تعالَى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾ [طه:٣٩]، وقَوْله تعالَى: ﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر:١٤]؟

قُلْنا: الجَمْعُ بينهما سَهْلٌ فإن عَيْن مُفرَد، وفِي أُصول الفِقْه: أن المُفرَد المُضاف يَعُمُّ، فإذَا كانَ يَعُمُّ فإن قَوْله: ﴿عَيْنِىٓ﴾ لَا يَمنَع التَّعدُّد؛ لأَنَّه يَشْمَل كل مَا ثَبت لله من عَيْن، أَمَّا الجَمْع فإِنَّما جُمِع للتَّعظيم، والجَمْع للتَّعظيم لَا يَسْتَلْزِم التَّعدُّد، فَضْلًا عَن أن يُحصَر العدَد باثنَيْن، أَرأَيْتَ قول الله تَعالَى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ [مريم:٤٠]. وقَوْله تعالَى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾ [الحجر:٩]، فهَذا الجَمعُ لا يَسْتلزِم التَّعدُّد، بَل هُو للتَّعظيمِ فقَطْ، إِذَن: ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ جَمَعها للتَّعظيمِ فَلَا يَسْتَلْزِم التَّعدُّد، هَذا إِذَا لم نَقُلْ: إن الجَمْع يَدُلُّ علَى مُطلَق التَّعدُّد.

وأَمَّا مَا ورَدَ من أن الله لَهُ عَيْنان اثنَتَان، بصيغة التَّثْنية فهَذا نصٌّ فِي العدَد، فيُؤخَذ بِه، فنَحنُ نُؤْمِن بأن لله عَيْنَيْن، ومَا ذُكِر بصيغة الإفراد فهُو يَعُمُّ الواحِدَ وأكثَرَ، ومَا ذُكِر بلَفْظ الجَمْع فهُو علَى سَبيل التَّعظيم.

وكَذلِك يُقال فِي اليَدَيْن، فاليَدان ورَدَت علَى ثَلاثة وُجوهٍ: إفراد، وتَثنية، وجَمْع.

فمِن الإفراد قَوْلُه تعالَى: ﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ [المؤمنون:٨٨]، وقَوْله تعالَى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ [الملك:١].

ومن الجَمْع قَوْله تعالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا﴾ [يس:٧١]، ومن التَّثْنية قولُ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة:٦٤]، وقَوْله تعالَى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ [ص:٧٥].

وَنُؤْمِنُ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام:١٠٣].

وَنُؤْمِنُ بِأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يَرَوْنَ رَبَّهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القِيامَة:٢٣][1].

والجَمْعُ بينهما أن نَقُول: أمَّا مَا جاءَ بلَفْظ الإفراد فهُو مُفرَد مُضافٌ، فيَكون عامًّا، ولَا يمنَع التَّعدُّد، وأمَّا مَا جاءَ بلَفْظ الجَمْع مثل قَوْله تعالَى: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ المُراد بِه التَّعظيمُ، وأمَّا مَا جاءَ بلَفْظ التَّثْنية فهُو نصٌّ فِي العدَد، فيَكون حَقيقة الأَمْر أن لَهُ يَدَيْن اثنَتَيْن.

[١] قَوْلُه: «وَنُؤْمِنُ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام:١٠٣].

وَنُؤْمِنُ بِأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يَرَوْنَ رَبَّهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القِيامَة:٢٣]». هَاتَانِ آيَتَانِ تدُلَّانِ عَلَى صِفَة واحِدَةٍ، وهِي أَنَّ اللهَ تَعالَى يُرَى، فمَتَى يُرَى؟ أَيُرَى فِي الدُّنيا أَم فِي الآخِرَةِ؟

نَقُول: أمَّا فِي الدُّنيا فَلَا يُرَى يقظَةً أبدًا، فما رَآهُ أحدٌ يقظَةً أبدًا؛ لأنَّ بَنِي آدَمَ لَا يحتَمِلُونَ النَّظرَ إِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، إذْ إنَّ أبْدانَهُمْ ضَعِيفَةٌ لا تحتَمِلُ، ولهذا لـمَّا قَالَ مُوسَى: ﴿رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف:١٤٣]. فقَالَ اللهُ لَهُ: ﴿لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى﴾ [الأعراف:١٤٣]، وذَلِكَ لأجلِ أنْ يَعلَمَ مُوسَى أنَّه لا يُمْكِن أنْ يَرَى اللهَ، ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ اندكَّ الجبَلُ، وهُـو حَجرٌ أصَـمٌّ، واندَكَّ: صَـارَ تُرابًا، فمُـوسَى عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ عجَز عَنْ مُقاومَةِ

هَذَا المَشْهَدِ، ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ أَيْ: سقطَ عَلَى الأَرْضِ مَغشِيًّا عَلَيهِ: ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف:١٤٣].

وبِهَذَا عَرَفْنَا أَنَّهُ لَا يُمكِن أَنْ يَرَى أَحَدٌ رَبَّهُ فِي الدُّنيا؛ لعدَمِ احْتِمَالِهِ لذَلِكَ، وإِذَا كَانَ الجَبَلُ عَجزَ عَن ذَلِكَ فالبَشَرُ مِنْ بَابِ أَوْلَى.

فَإِنْ قَالَ قَائِل: هَلْ رَأَى النَّبِيُّ ﷺ رَبَّهُ لَيْلَةَ المِعْرَاجِ؟

فالجَوَابُ: لَا، لَمْ يَرَهُ، ولهَذَا سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ -نفسه-: هَل رَأَيتَ رَبَّكَ؟ قَالَ: «**نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ؟**»[(١)]، وفِي رِوَايَةٍ: «**رَأَيْتُ نُورًا**»[(٢)]، وهَذَا النُّور هُوَ نُورُ الحِجَابِ، فقَالَ: «**نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ**»، يَعْنِي كَيْفَ أَرَاهُ مَعَ وُجُود هَذَا النُّورِ الَّذِي يَحْجُبُ مَا بَيْنِي وَبَيْنَهُ؟! ويُفَسِّرُ ذَلِكَ قَوْلُهُ: «**رَأَيْتُ نُورًا**». إِذَن: لَمْ يَرَ الرَّسُولُ ﷺ رَبَّهُ بِإِقْرارِه هُوَ صَلَوَاتُ اللهِ وسَلَامُهُ عَلَيْه عَلَى نَفْسِهِ.

فَإِنْ قِيلَ: أَلَمْ يَرْوِ ابنُ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَأَى رَبَّهُ[(٣)]؟

فالجَوَابُ: بَلَى، ولَكِنْ قَالَ شَيْخُ الإِسْلامِ رَحِمَهُ اللهُ[(٤)]: إِنَّ ابْنَ عبَّاسٍ لَمْ يَقُل: رَآهُ بعَيْنِهِ، بَلْ رَآهُ بفُؤادِهِ، والمَعْنَى أَنَّه لقُوَّةِ يقِينِهِ صَارَ كَأَنَّهُ رَآهُ؛ لقَولِ النَّبِيِّ ﷺ: «**الْإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ...**»[(٥)].

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب في قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**نور أنى أراه**»، رقم (١٧٨/ ٢٩١)، من حديث أبي ذر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) مسلم (١٧٨/ ٢٩٢).

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب معنى قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً﴾، رقم (١٧٦).

(٤) انظر: مجموع الفتاوى (٦/ ٥٠٩).

(٥) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان، رقم (٥٠)، ومسلم:

....

ومَا قَالَهُ شَيْخُ الإِسْلامِ هُو الحَقُّ، وهُو أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لمْ يَرَ رَبَّهُ يقَظَةً، ولَا يُمْكِنُ أنْ يَرَاهُ.

أَمَّا مَنَامًا فَفِيهِ الحَدِيثُ المشهُورُ: أنَّ اللهَ تعالى قَالَ: «أَتَدْرِي فِيمَ يَخْتَصِمُ الملأُ الأَعْلَى»(١). وقَدْ شَرَحهُ ابْنُ رَجَبٍ(٢) رَحِمَهُ اللَّهُ شَرْحًا جَيِّدًا وَافِيًا: أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ رَآهُ فِي المَنَامِ.

إِذَنْ: تَعيَّنَ أَنْ يَكُونَ الإِيمَانُ بِرُؤيَةِ المُؤمِنينَ رَبَّهُم يَوْمَ القِيامَةِ، وذَلِكَ فِي عَرَصَاتِ القِيامَةِ، ويَرَونَهُ -أيضًا- إِذَا دَخَلُوا الجَنَّةَ:

أَمَّا رُؤيَتُهُم إِيَّاهُ فِي عَرَصَاتِ القِيامَة فَهِيَ رُؤيَةُ امْتِحَانٍ واخْتِبَارٍ.

وأَمَّا رُؤيتُهُم إِيَّاهُ بعْدَ دُخُولِ الجَنَّةِ -أَسْأَلُ اللهَ أَنْ يجعَلَنَا وإِيَّاكُم مِمَّنْ يَرَاهُ فِي ذَلِكَ المَكَانِ- فَهِيَ رُؤيَةُ إِكْرَامٍ، يُكْرِمُهُم عَزَّوَجَلَّ إِذَا كَشَفَ الحِجَابَ لَهُمْ عَن وَجْهِهِ فيَرونَهُ، ولَا يَرَونَ نَعِيمًا أَنْعَمَ ولَا أَلَذَّ مِنَ النَّظَرِ إِلَى وَجْه اللهِ عَزَّوَجَلَّ، ولهَذا جَاءَ فِي الحَدِيثِ: «أَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ»(٣).

فإِذَن فِي عَرَصَاتِ القِيامَةِ يَرَونَهُ رُؤيَةَ امْتِحَانٍ واخْتِبَارٍ، وذَلِكَ أَنَّهُ يجْتَمِعُ المُؤمِنُونَ والمُنافِقُونَ، ثُمَّ يَأتِيهِمُ اللهُ تعَالَى فِي الصُّورَةِ الَّتِي يأتِيهِمْ عَلَيْهَا، كَمَا يَشَاءُ عَزَّوَجَلَّ،

= كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان، رقم (٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(١) أخرجه الإمام أحمد (١/ ٣٦٨)، والترمذي: كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة ص، رقم (٣٢٣٣، ٣٢٣٤)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) في رسالته (اختيار الأولى في شرح اختصام الملأ الأعلى)، انظر: مجموع رسائل ابن رجب (٤/ ٣).

(٣) أخرجه الإمام أحمد (٤/ ٢٦٤)، والنسائي: كتاب السهو، باب نوع آخر من الدعاء «أي بعد الذكر»، رقم (١٣٠٥)، من حديث عمار بن ياسر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

ثمَّ يَأمرُهُمْ بالسُّجودِ، فمَنْ كَانَ يسجُدُ للهِ فِي الدُّنيا طَواعِيَةً عَن إيمانٍ يسجُدُ للهِ عَزَّوَجَلَّ، ومَنْ لَمْ يسجُدْ فِي الدُّنيا فإنَّ ظهرَهُ يقِفُ، ولَا يستطِيعُ السُّجودَ، قَالَ اللهُ تَعالَى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾ [القلم:٤٢-٤٣] أي فِي الدُّنيا ﴿وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾ لَيْسَ فِيهِم بلَاءٌ ولَا يسجُدُونَ، أمَّا فِي الجنَّة فهِيَ رُؤيَةُ إكْرامٍ يأذَنُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ لَهُم فيزُورَونَهُ، ثُمَّ يكشِفُ عنهُمُ الحِجَابَ فيَرونَهُ.

فنَحْنُ نُؤْمِن بأنَّنا نَرى رَبَّنَا يَوْمَ القِيامَة، عَلَى الوَجْهِ الَّذِي جَاءَ فِي الكِتابِ والسُّنَّة، رُؤيَةً حقِيقيَّةً بالعَينِ لَا بالقَلْبِ، أكَّدَهَا الرَّسُولُ ﷺ أشْرَفُ الخَلْقِ، وأعلَمُ الخَلْقِ باللهِ، وأنْصَحُ الخَلْقِ للخَلْقِ، وأصْدَقُ الخَلْقِ فِيمَا يَقُولُ، قَالَ: «**إنَّكُمْ سَتَرَونَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرونَ القَمَرَ لَيْلَةَ البَدْرِ، لَا تُضَامُونَ فِي رُؤْيَتِهِ، وَكَمَا تَرونَ الشَّمْسَ صَحْوًا لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ**»[1]. أكَّدها تأكِيدًا بَالِغًا، وكَانَ هَذا القَولُ يَرِدُ عَلَى القَلْبِ مُؤمِنًا بِه، ومُصدِّقًا بِه؛ لأَنَّهُ صَرِيحٌ لَا يَحْتملُ التَّأوِيلَ.

والأدِلَّةُ عَلَى رُؤيَةِ اللهِ تعالَى: الكِتابُ والسُّنَّةُ والإجمَاعُ.

أمَّا مِنَ القُرْآنِ ففِي عِدَّةِ آياتٍ:

الآيَةُ الأُولَى: قَولُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام:١٤٣].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة العصر، رقم (٥٥٤)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل صلاتي الصبح والعصر والمحافظة عليهما، رقم (٦٣٣)، من حديث جرير بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

....

ووَجْهُ الدَّلالَةِ: أنَّ نَفْيَ الإدْرَاكِ يَدُلُّ على وُجود أَصْلِ الرُّؤيةِ، إذْ لو لَمْ يَكُن أَصْلُ الرُّؤيةِ موجُودًا لكَانَ نَفْيُ الإدْرَاكِ لغْوًا لا فَائِدَة مِنْهُ.

والعَجَبُ أنَّ الَّذِينَ أنكَرُوا رُؤيَةَ اللهِ استَدَلُّوا بِهذِهِ الآيَةِ أَيْضًا، فنَقُول: الحَمْدُ للهِ أنَّكم حمَلْتُم مِشعَلًا يُحرِقُكُم! لأنَّ هذِهِ الآيَةَ دَلِيلٌ عَلَيْهِم بِلَا شَكٍّ؛ لأَنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ لَمْ يَقُل (لَا تَرَاهُ الأَبْصَارُ)، بَلْ قَالَ: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ﴾ وهَذَا يَدُلُّ عَلَى أنَّ الأَبْصَارَ تَرَاهُ، لَكِن لَا تُدرِكُهُ، كَمَا نَرَى الشَّمسَ الْآنَ، وَمَعَ ذَلِكَ بمُجرَّدِ العَيْنِ لَا نُدرِكُها.

الآيَةُ الثَّانيَةُ: قَوْلُهُ تعالَى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القِيامة:٢٢-٢٣] فِي يَوْم القِيامَةِ الوُجُوهُ تختَلِفُ: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ [عبس:٤٠-٤١] ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ [القِيامة:٢٤-٢٥] ووُجُوهٌ عَلَيْها نضْرَة النَّعيمِ، كَمَا قَالَ تعالَى: ﴿وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ [الإنسان:١١] أَي: نَضْرَةً حسَنَةً، ولذَلِكَ ﴿نَّاضِرَةٌ﴾ بالضَّادِ، ولَيْسَتْ بالظَّاءِ، لأنَّها مِنَ النَّضارَةِ، وهِيَ الحُسْنُ.

﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ هذِهِ الوُجوهُ النَّاضِرَةُ النَّيِّرَةُ الحَسَنَةُ أَهْلٌ لأَنْ تَرى الرَّبَّ عَزَّوَجَلَّ، فتَنْظُرَ إِلَى اللهِ، ولهَذَا قَالَ: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾، وتَأَمَّلْ كَيْفَ قالَ تعالَى: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ ولَمْ يَقُل (نَاظِرَةٌ إِلَى رَبِّها) فقَدَّمَ المُتعلَّقَ عَلَى المتعلِّق لفَائِدَتَينِ: الأُولَى: مُراعَاةُ الفَواصِلِ، والثَّاني: الحَصْرُ، أَي: كأنَّها لا تَنْظُرُ إلَّا إِلَى اللهِ؛ لأَنَّ جَمِيعَ مَا تَنْظُر إِلَيْه لَيسَ شَيْئًا بالنِّسْبةِ إِلَى النَّظرِ إِلَى اللهِ.

الآيَةُ الثَّالِثَةُ: قَوْلُ اللهِ تعالَى ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦] والدَّلِيلُ:

....

أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ فَسَّرَ الزِّيادَةَ بالنَّظَرِ إِلَى وجْهِهِ عَزَّوَجَلَّ[1]، وأَعْلَمُ الخَلْقِ بمَعَانِي كتَابِ اللهِ رَسُولُ اللهِ صلَّى اللهُ علَيْه وعَلَى آلِهِ وسَلَّم.

إِذَن: هذِه الآيَةُ فِيهَا دَلِيل علَى رُؤيَةِ اللهِ، والَّذِي دَلَّنا عَلَى أنَّ فِيهَا دَلِيلًا هُو الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

الآيَةُ الرَّابعَةُ: قَوْلُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين:١٥]. يَعْني بذَلِكَ: الفُجَّارَ، أمَّا المُؤمِنونَ فهُمْ غَيْرُ محجُوبينَ؛ لأَنَّهم لَو كَانُوا محجُوبِينَ لَمْ يَكُن هُنَاكَ فَرْقٌ بينَهُمْ وبَيْنَ الفُجَّارِ، وَلهَذَا جَاءَ عَنِ الإِمَامِ الشَّافعيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّه قَالَ: «مَا حَجَبَ هَؤلاءِ فِي الغَضَبِ إِلَّا وهُو لمْ يحتَجِبْ عَنِ الأَبْرَارِ فِي الرِّضَا»، وهَذَا اسْتِنْبَاطٌ جيِّدٌ؛ لأَنَّه لَو كَانَ الجَمِيعُ محجُوبِينَ مَا كَانَ هُناكَ فائِدَةٌ، فذِكْر اللهِ أَنَّ هَؤلاءِ محجُوبُونَ عَنِ اللهِ يدُلُّ عَلَى أَنَّ الأبرَارَ -وَهُمْ ضِدُّهُم- غَيْرُ محجُوبِينَ عَنِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

الآيَةُ الخَامِسَةُ: قَوْلُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ [المطففين:٢٢-٢٣]. فَماذَا يَنظُرونَ؟ الجَوابُ: قَد تقدَّمَ فِي نَفْسِ السُّورَةِ القَولُ عَنِ الفُجَّارِ فِي قَوْلِهِ تعالَى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾؛ إِذَنِ المُؤمِنونَ يَنظُرُونَ إِلَى رَبِّهِم أَوَّلَ مَا يدْخُلُونَ فِيهَا، ثمَّ ينظُرُونَ إِلَى مَا أَمَدَّهُمُ اللهُ فِيهَا مِنَ النَّعيمِ، مِنَ الزَّوجَاتِ، ومِنَ الأَشْجَارِ، ومِنَ الأنهَارِ، ومِنْ كُلِّ شَيْءٍ، فهُمْ يَنظُرُونَ إِلَى كُلِّ مَا أَنْعَمَ اللهُ بِهِ علَيْهِمْ، وأَعْظَمُهُ النَّظَرُ إِلَى وَجْهِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، رقم (١٨١)، من حديث صهيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الآيَةُ السَّادِسَةُ: قَوْلُهُ تعالَى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق:٣٥] هَذِهِ الآيَةُ لَيْسَتْ صرِيحَةً جِدًّا، ولَكِن لقَائِلٍ أنْ يَقُولَ: المزِيدُ هُنَا هُوَ الزِّيَادَةُ فِي قَوْلِهِ ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦] فنُفسِّرُ المزِيدَ بأَنَّ مِنْهُ النَّظَرَ إِلَى وَجْهِ اللهِ.

فهَذِهِ سِتُّ آيَاتٍ، مِنْهَا مَا هُو صَرِيحٌ جِدًّا، ومِنْهَا مَا هُو دُونَ ذَلِك، لكنَّهَا كلَّها تَدُلُّ عَلَى رُؤيَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

أَمَّا الأَحَادِيثُ فإنَّها مُتواتِرَةٌ عَنِ الرَّسُولِ ﷺ كَما قِيلَ(١):

مِمَّا تَوَاتَرَ حَديثُ مَنْ كَذَبْ ... وَمَنْ بَنَى للهِ بَيْتًا واحْتَسَبْ
وَرُؤْيَةٌ شَفَاعَةٌ والحَوْضُ ... ومَسْحُ خُفَّينِ وهَذِي بَعْضُ

هكَذَا نظَمَها بَعْضُ المُحدِّثِين، وقَوْلُهُ: «هَذِي بَعْضُ» يَعْني لَيْسَتْ هَذِه كُلَّ المُتواتِرِ، بَل هُناكَ أَحَادِيثُ كِثِيرَةٌ مُتواتِرَةٌ.

والشَّاهِدُ مِنْ هَذينِ البَيْتَينِ قَوْلُهُ: «ورُؤيَةٌ»؛ والأَحَادِيثُ المُتواتِرَةُ تُفيدُ اليَقِينَ القَطعِيَّ، الَّذِي لَا يُمْكِنُ مُعارضَتُهُ، وَلَا دَفْعُهُ.

إِذَنْ: فالآنَ عِنْدَنَا القُرْآنُ، ومُتواتِرُ السُّنَّة.

والدَّلِيلُ الثَّالثُ إجمَاعُ السَّلَفِ عَلَى ذَلِكَ، فَمَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الصَّحَابَةِ، ولَا التَّابعِينَ، وَلَا الأَئمَّةِ مِنْ بعدِهِمْ، قَالَ: إنَّ اللهَ لَا يُرَى.

(١) ذكرهما الكتاني في نظم المتناثر (ص:١٨)، نقلًا عن الشيخ أبي عبد الله محمد التاودي في حواشيه على الجامع الصحيح.

وهَذَا أطْلَقَ بَعْضُ العُلَماء رَحِمَهُمُ اللهُ الكُفْرَ عَلَى مَنْ أنْكَرَ رُؤيَةَ اللهِ، وقَالَ: إذَا لَمْ يُؤمِنْ بهَذَا مَعَ هَذِه الأدِلَّةِ الظَّاهِرَةِ، النَّاصعَةِ، القطعِيَّةِ، فقَدْ أنْكَرَ مَعلُومًا بالضَّرورَةِ مِنَ الدِّينِ، وأطْلَقُوا الكُفْرَ عَلَى مَنْ نَفَى رُؤيَةَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

لَكِن هَل لنَا أنْ نَقُول: اللهُمَّ مَنْ أنْكَرَ رُؤيتَكَ فِي الآخرَةِ فاحْرِمْهُ مِنْهَا؟!

والجَوَاب: نعَمْ، نحْنُ نَقُول مَا قَالَه هُو لنفْسِهِ، هُو يَقُول: أنَا محرُومٌ مِنْهَا، فهَل دعَونا عَلَيه عُدْوانًا؟

الجواب: لَا؛ لأنَّه محرُومٌ عَلَى حَدِّ قَوْله، سَوَاءٌ دَعَونا عَلَيه أَم لم نَدْعُ. وهُوَ يقُول: لَو قُلْتُم: اللهُمَّ اجعَلْهُ مِمَّن ينظُرُ إليكَ يَوم القِيامَة لكُنْتُم مُعتدِينَ فِي الدُّعاءِ!! لأنَّه يرَى أنَّ رُؤيَةَ اللهِ أمْرٌ مُحَالٌ وأنه ممَّا هُو مُمتنِعٌ عَلَى اللهِ، وأنَّ هَذَا حَرَامٌ.

لَكِن فِي ظَنِّي أنَّهُ فِي قَرَارَةِ نفسِهِ لَو قُلْنا أمَامَهُ: «أسْأَلُ اللهَ أنْ يحرِمَكَ مِنْ رُؤيتِهِ يَوْمَ القِيامَةِ»، سَيَقْشَعِرُّ جِلدُهُ وسينقَبضُ قلْبُه! وإنْ كَانَ هُو بلِسَانِهِ لَا يصْدُق، فسَوْفَ يَرَى أنَّ هَذَا الدُّعاءَ عظِيمٌ؛ لأنِّي أنَا أدْعُو بِهِ وأنَا مُؤمِنٌ بأنَّ اللهَ يُرَى حَقًّا، وأنَّنِي إِذَا قُلْتُ: اللَّهُمَّ مَنْ أنْكَرَ رُؤيتَكَ فِي الآخِرَة فاحْرِمْهُ مِنْهَا، أنَّه دُعَاءٌ مِنْ قَلْبٍ، فسَوفَ يتأثَّرُ بِلَا شَكٍّ، حتَّى وإنْ صمَّمَ عِنادًا، وقَالَ: هَذَا حقٌّ، واللهُ تعَالَى لَا يُرَى فِي الآخِرَةِ، وأنْتَ دَعَوتَ بمَا يُوافِقُ الوَاقِعَ، فإِنِّي لَا أظُنُّ أنَّ قلبَهُ يُؤمِنُ بهَذَا أبدًا.

الخُلاصَةُ: نَحْنُ -والحَمْدُ للهِ- نُؤمِن بأَنَّ اللهَ يُرَى فِي الآخِرَةِ فِي عَرصَاتِ القِيامَة، وبعْدَ دُخولِ الجنَّةِ؛ ففِي عَرَصَاتِ القِيامَة اختبَارًا وامتحَانًا، وبعْدَ دُخُولِ الجنَّةِ إكْرَامًا

وامتِنَانًا، وكذَلِكَ نُؤْمِن بأَنَّ الرُّؤيَةَ حَقٌّ عَلَى حَقِيقَتِهَا بالعَيْنِ، كَمَا قَالَ أَنْصَحُ الخَلْقِ وأفصَحُ الخَلْقِ: «**كَمَا تَرونَ الْقَمَرَ لَيْلَةَ البَدْرِ**»؛ والتَّشبِيهُ هُنَا لتَحْقِيقِ الرُّؤيَةِ، لَا لتَمْثِيلِ المَرئِي بالمَرئِي.

ونُؤمِنُ بأَنَّ هَذِه العَقِيدَةَ مَبنيَّةٌ عَلَى ثَلاثَةِ أُسُسٍ أُصُولٍ عظِيمَةٍ؛ الكِتَابُ والسُّنَّةُ وإجمَاعُ السَّلف، فَمَا أحَدٌ مِنَ السَّلفِ قَالَ إنَّ اللهَ لَا يُرَى؛ ونُؤمِنُ بأَنَّ الكُفَّارَ محجُوبُونَ عَنِ اللهِ؛ لقَولِهِ تعَالَى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾؛ والَّذِي يَرَاهُ فِي عَرَصَاتِ القِيَامَةِ هُمُ المُؤمِنُون والمُنافِقُون فَقَطْ.

والحِكْمَةُ مِنْ ذَلِك -أَيْ مِنْ تمكِينِ المُنافِقِينَ مِنْ رُؤيتِهِ-: إظهَارُ الحسْرَةِ عَلَى هَؤُلاءِ المُنافِقِينَ حسْرَةً عظِيمَةً، فيُؤمَرُون بالسُّجودِ فَلَا يستَطِيعُون ويسجُدُ المُؤمِنُون فتَبْقَى رُؤيَةُ اللهِ لَهُمْ وهَؤُلاءِ يُضْرَبُ بينَهُمْ بسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُه فِيهِ الرَّحمَةُ وظَاهِرُهُ مِنْ قِبلِهِ العذَابُ فيَزْدَادُونَ حَسْرَةً لأَنَّ رُؤيَةَ الإنسَانِ مَا يُحِبُّ ثُمَّ حِرمَانَهُ مِنْهُ أشَدُّ مِنْ عدَمِ رُؤيتِهِ بالكُلِّيَّةِ؛ هَذَا مَا يتعَلَّقُ برُؤيَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

فائِدَة: إنْ قَالَ قَائِل: رُؤيَةُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ فِي الجَنَّةِ مُتكرِّرَةٌ أَم مرَّةٌ واحِدَةٌ؟

فالجَوابُ: لَا أدْرِي؛ وقَدْ وَرَدَ أَنَّ يَوْم المزِيدِ يَوْم الجُمعَةِ: أَنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ يأذَنُ لأَهْلِ الجنَّةِ أنْ يَزُورُوهُ يَوْمَ الجُمعَةِ، يَعْنِي مَا يُقَابِلُ يَوْم الجُمعَةِ، ولهَذَا جَاءَتْ عبارَةُ شَيْخِ الإسلَامِ فِي (العِقيدَة الوَاسطِيَّة) قَالَ: «ويَرَونَهُ بعْدَ دُخولِ الجَنَّةِ كَمَا يَشَاءُ اللهُ»[1].

(١) العقيدة الواسطية (ص:٩١).

وَنُؤْمِنُ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَى لَا مِثْلَ لَهُ؛ لِكَمَالِ صِفَاتِهِ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[1] [الشورى:١١]........................

مَسْأَلَةٌ: عِنْدَمَا يَأْتِي اللهُ عَزَّوَجَلَّ للفَصْلِ بَيْنَ الخَلَائِقِ، هَلْ يَرَاهُ الْمُؤْمِنُونَ أَمْ لَا؟

الجَوَابُ: يحْتَمل أَنَّهُم يرونَهُ، ولَكِنَّ الظَّاهِرَ أَنَّهُم لَا يَرْونَهُ؛ لأَنَّ اللهَ تعَالَى يَقُول: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [البقرة:١٠] وقَال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ [الفرقان:٢٥] فيَوْمَ القِيامَة تشقَّقُ السَّماءُ بالغَمامِ الأَبْيضِ النَّيِّر، وتنزِلُ المَلائِكَةُ، ثُمَّ يَأْتِي الجبَّارُ عَزَّوَجَلَّ فِي ظُلَلٍ مِنَ الغَمامِ، وهَذا يَقْتَضِي أَنَّهُم لَا يرونَهُ.

[١] بَعْدَ أَنْ تكلَّمْنا عَلَى شَيْء مِنَ الصِّفَاتِ -وآخِرُهَا رُؤيَةُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، أَي رُؤيَةُ الْمُؤْمِنِينَ رَبَّهُم- نذْكُرُ هُنَا الصِّفاتِ الَّتِي يُسمِّيها بَعْضُهم «السَّلبيَّة» ويُسمِّيها بَعْضُهم «الصِّفات المَنفيَّة» وهَذا التَّعبيرُ أحسَنُ. فيُقَالُ: صِفَاتُ اللهِ ثُبوتيَّةٌ ومَنفيَّةٌ، أَي ثَابِتَةٌ ومَنفيَّةٌ.

وضَابِطُ الصِّفَاتِ المَنفيَّة:

أوَّلًا: أنَّه يَنْتَفِي عَنِ اللهِ تعالى كُلُّ صِفَةِ عَيْبٍ.

ثَانِيًا: أنَّه يَنْتَفِي عَنِ اللهِ تعالى كُلُّ صِفَة نَقْصٍ فِي كَمال.

ثالثًا: أنَّه يَنْتَفِي عَنِ اللهِ تعالى كُلُّ مُماثلَةٍ للمَخْلوقِينَ.

فالصِّفَاتُ المَنفيَّةُ عَن اللهِ تعالى:

أوَّلًا: صفَاتُ العَيْبِ، فَلَا تُذكَرُ للهِ إطْلاقًا، مِثْلُ العَمَى، فهُو مَنفِيٌّ عَنِ اللهِ؛

حتَّى لَو لمْ يَرِدْ فِي الشَّرعِ أنَّ اللهَ تعَالَى لَيْس بأَعْورَ، فإنَّنا نَقُول: إنَّه لَا يُمكِنُ أنْ يَكُونَ أعْمَى؛ لأنَّ العَمَى نَقْصٌ، ولهَذا عَابَ إبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ على أَبِيهِ حِينَما قَالَ لَهُ: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ﴾ [مريم:٤٢].

ثانيًا: كُلُّ نَقْص فِي صِفَة كَمالِهِ، يَعْني: أنَّ صِفَاتِه الكَامِلَةَ لَا يُمْكِن أنْ يعتريهَا نَقْص، مثالُ ذَلِكَ: «بصرُهُ» لَا يُمْكِن أن يَضعُفَ، و«سَمْعُهُ» لَا يُمْكِن أن يضْعُفَ، و«قُوَّتُه» لَا يُمْكِن أن تَضْعُف أبَدًا.

والفَرْقُ بَيْنَ الأَوَّلِ والثَّاني: أَنَّ الأوَّلَ نَنْفِي عَنْهُ صِفَةَ العَيْب مُطْلَقًا، والثَّاني نَنْفِي عَنْهُ عَيْب صِفَة الكَمالِ، وهُو نَقْصُها.

ثالثًا: مُماثَلَةُ المَخْلوقِينَ، فيَجِبُ نَفيُ مماثَلَةِ اللهِ تعَالَى للمَخْلوقِ، حتَّى وإنْ كَانَت كَمالًا فِي المَخْلوقِ.

فإنْ قالَ قَائِل: فِي القَاعِدَةِ: إنَّ جَمِيعَ الصِّفاتِ المَنفيَّةِ السَّلبيَّةِ هِيَ مُثبِتةٌ لكَمال ضدِّهَا، وقِيلَ: إنَّ هَذا مِنْ تَقابُلِ العَدَم بالمَلَكةِ[1]، فكُلُّ مَا هَذا شَأْنه فَلَا يتَّصِفُ بِهِ اللهُ؟

فالجَوَابُ: هَذا غَلَطٌ، ونَقُول: مَنْ قَالَ أنَّ اللهَ لَا يَقبَلُ هَذا النَّفْيَ؟ يَعْني إذَا قالَ: إنَّه لَا يَمُوتُ؛ نَنْفِي عنهُ المَوتَ لأنَّه لَا يَقْبَلُ الموتَ، كَما تَقُولُ الكِتَابُ لَا يمُوتُ؟! ونَقُول: مَنْ قَالَ: إنَّ هَذا مِنْ بَابِ تَقابُلِ العدَمِ والمَلَكةِ؟! ثُمَّ إنَّهُم يقُولُونَ: إنَّ اللهَ

(١) عن معنى (تقابُل العدَم والمَلَكة)، انظر: المنتقى من فرائد الفوائد، لفضيلة الشيخ رَحِمه اللهُ تعالى (ص:١٨).

....

لَا يُوصَفُ بالوُجُودِ ولَا بالعَدَمِ، والوُجُودُ والعدَمُ تقَابُلهما مِنْ بَابِ تَقَابُلِ السَّلبِ والإيجَابِ، وقَدِ اتُّفقَ عَلَى امتناعِهِ، ثُمَّ إذَا قُلْتَ: إنَّه لَا يَقْبَلُ صَارَ أشَدَّ، يَعْني: فمَا لَيْسَ بسَمِيع ولَا بَصِيرٍ وهُوَ قابِلٌ لذَلِكَ أحسَنُ حَالًا ممَّن لَا يقبَلُ أنْ يَكُون سَمِيعًا أَو بَصِيرًا.

قَوْله: «ونُؤْمِنُ بأَنَّ اللهَ تعالَى لَا مِثْلَ لَهُ لكَمالِ صِفَاتِهِ» لَا لعَدَمِ صِفَاتِهِ؛ فلَيْسَ لعدَمِ صفَاتِهِ لَيْسَ لَهُ مِثْلٌ لأنَّه مَا مِنْ مَوجُودٍ إلَّا ولَهُ صِفَة؛ لَيْسَ هَذا المُرادَ، بَل المُرادُ: لكَمال صفَاتِهِ.

أمَّا أَهْل التَّعطِيلِ فقَالُوا: «لَا مِثْلَ لَهُ لعَدَم صفَاتِهِ» عَلَى زَعمِهِمْ، فأنْكَرُوا صِفَاتَه، يَعْني أَنَّه لَا يُوصَفُ بأيِّ صِفَة للمَخْلوقِ، ونَحْن نَقُولُ: «لَا مِثْلَ لَهُ لكَمال صِفَاتِهِ»، لَا أحَدَ يُدانِيه فِي صفَاتِهِ، فانْتَبِهْ للفَرْقِ، فكُلُّ أَهْلِ التَّعطِيل لَو سأَلْنَاهُم لمَاذَا عطَّلْتُم؟ لقَالُوا: لأَنَّكُم لَو أثْبَتُّمْ كَذَا لَكَانَ مُشَابِهًا أَو مُمَاثِلًا للمَخْلوقِ، فَصَارَ عندَهُم لَا مِثْلَ لَهُ لعَدَمِ صِفَاتِهِ؛ لأَنَّه لَيْس لَهُ عنْدَهُم صِفَة، وهَذا لَا شَكَّ أَنَّه قَولٌ مُنكَرٌ، بَل نَقُولُ: لَا مِثْلَ لَهُ لكَمالِ صِفَاتِهِ.

والدَّلِيلُ علَى ذلِك قَوْلُهُ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ ﴿شَىْءٌ﴾ نكِرَةٌ فِي سِياقِ النَّفْيِ، فتكُونُ عَامَّة لَا يُماثِلُهُ شَيْء مِنْ مَخْلوقَاتِهِ أبَدًا؛ لكَمال صِفَاتِهِ.

قَوْلُه: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ أَي: ذِي السَّمعِ الكَامِلِ، والبَصَرِ الكَامِلِ، وقَدْ سَبَقَ الكَلَامُ عَن هذِه الآيَةِ بنَفْسِهَا فَلَا حَاجَةَ لإِعَادَةِ الكَلَامِ علَيْهَا[١].

---

(١) انظر (ص:١١٣).

وَنُؤْمِنُ بِأَنَّهُ: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾[١] [البقرة:٢٥٥]. لِكَمَالِ حَيَاتِهِ وَقَيُّومِيَّتِهِ[٢].

---

[١] قَوْله: «ونُؤمِنُ بأَنَّهُ ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾» السِّنَةُ نُعَاسٌ، وهُو مُقدِّمَةُ النَّوم، والنَّومُ معرُوفٌ، وبَعْضُهم قَالَ: النَّومُ بأَنَّهُ: غَشيَةٌ ثَقِيلَةٌ، تَعتَرِي الدِّماغَ، فيَفقِدُ الإِنْسَانُ الإحسَاسَ! وأَنا لَو أتصوَّرُ أنَّ هَذا هُو النَّومُ ما نِمْتُ! فالنَّومُ هُو النَّومُ.

وانظُرْ إِلَى التَّعبِير: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ﴾ أَيْ: لَا تَغلِبُه، بيْنَما البَشَرُ الأصِحَّاءُ يَغلِبُهمُ النَّومُ، وكَذلِكَ النُّعاسُ، ولِذَلِكَ يَقُولُ العَوامُّ: النَّومُ سُلطَانٌ جَائِرٌ، فالنَّومُ لَا يرحَمُ، فمَتَى جَاءَ النَّومُ للإِنْسانِ فلا بُدَّ أن ينامَ، لَكِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ لَا تَأْخُذُه سِنَةٌ ولَا نَوْمٌ.

وهَل يَنامُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ باخْتِيَارٍ؟

الجَوَاب: أَنَّه عَزَّوَجَلَّ لَا ينامُ باختيَارِهِ؛ لقَولِ النَّبِي ﷺ: «**إِنَّ اللهَ لَا يَنَامُ وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ**»(١) يَعْنِي: لَا يَلِيقُ بِه أنْ يَنامَ عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّ النَّومَ نَقْصٌ، يُستَفادُ مِنهُ بنَقْضِ تَعَبٍ سَابِقٍ، وتَجدِيدِ قُوَّةٍ لاحِقَةٍ؛ ولهَذَا إِذَا نَامَ الإِنْسانُ بعْدَ التَّعبِ يستَرِيحُ، ثمَّ يقُومُ نَشِيطًا، فَلَا يُمكِنُ أَنْ يَكُون أَحَدٌ مُحتَاجًا إِلَى نَومٍ إِلَّا وهُو نَاقِصٌ، أَمَّا الرَّبُّ عَزَّوَجَلَّ فهُو كَامِلُ الحَيَاةِ، لَا يَحْتَاجُ إِلَى نَومٍ.

[٢] قَوْلُهُ: «**لِكَمَالِ حَيَاتِهِ وَقَيُّومِيَّتِهِ**» لأَنَّ الحَيَاةَ النَّاقصَةَ تَحتَاجُ إِلَى النَّومِ، والقِيَامُ النَّاقِصُ ينامُ فِيه القَائِمُ عَلَى الشَّيْءِ، واللهُ تعَالَى قَائِمٌ على كُلِّ شَيْءٍ، قَالَ اللهُ تَعالَى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد:٣٣]: والمُعادِلُ مَحْذُوفٌ، والتَّقدِيرُ كمَنْ لَا يملِكُ شَيْئًا؛ ولـهَذا قَالَ تعالَى بعْدَهَا: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾ فاللهُ عَزَّوَجَلَّ قـائمًا عَلَى

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب في قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**إن الله لا ينام**»، رقم (١٧٩)، من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَنُؤْمِنُ بِأَنَّهُ لَا يَظْلِمُ أَحَدًا؛ لِكَمَالِ عَدْلِهِ[١]،.........................

كُلِّ شَيْءٍ، فَلَا يُمْكِن أن يُوجَدَ فِي الأَرْض ولَا فِي السَّماء إِلَّا بأَمْرِهِ جَلَّوَعَلَا، وإِذَا كَانَ كَذلِكَ؛ فهَلْ يَلِيقُ أنْ يَنَامَ؟ الجَوَابُ: لَا، إِذْ لَو نَامَ لفَاتَتِ القَيُّوميَّةُ، فلِكَمالِ حيَاتِهِ وكَمَالِ قَيُّوميَّتِهِ: لَا تَأْخُذُه سِنَةٌ ولَا نَوْمٌ.

[١] قَوْلُهُ: «**وَنُؤْمِنُ بِأَنَّهُ لَا يَظْلِمُ أَحَدًا، لِكَمَالِ عَدْلِهِ**» والظُّلْمُ هُو النَّقْصُ والعُدوَانُ، فالظُّلْمُ يَدُورُ عَلَى هَذَيْنِ الأَمْرَينِ، إمَّا نَقْصٌ وَاجِبٌ، وإمَّا عُدْوَانٌ، فمثلًا إِذَا أَوْفيْتَ مَنْ يَطْلُبُكَ مِئَةً بثَمانِينَ عَلَى أنْ لَا يُطالِبَكَ غَيرَهَا، فهَذَا يُسمَّى نَقْصًا، وإمَّا أنْ تَعتَدِيَ عَلَى آخرَ، وتَأْخُذَ مِنْ مَالِهِ، فهَذَا عُدوَانٌ، وكِلَاهُما ظُلْمٌ، وأَصْلُ الظُّلمِ فِي اللُّغةِ النَّقْص، قَالَ اللهُ تَعالَى: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ [الكهف:٣٣] أَيْ: لَمْ تَنْقُص.

فاللهُ عَزَّوَجَلَّ لَا يَظْلِمُ، يَعْني لَا يُمْكِن أن يُحمِّل أحدًا إِثْمَ مَا لَمْ يَعْمَلْهُ، ولَو حمّله لَكانَ هَذا عُدْوَانًا، ولَا يُمْكِن أن يَنْقُصَ ثوَابُ أحَدٍ لعَملِ عَمِلَه، فهَذَا نَقْصٌ، قالَ تعَالَى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه:١١٢] أَيْ: لَا يَخَافُ ظُلْمًا بزِيادَةِ سيِّئاتِهِ، ولَا يَخَافُ هَضْمًا بنَقْصِ حَسَنَاتِهِ، فلِكَمالِ عَدْلِ اللهِ لَا يظْلِمُ.

وقُلْنَا: «**لكَمال عدْلِهِ**»؛ لأَنَّ انْتِفَاءَ الظُّلمِ قَد يَكُون لعَجزِ مَنْ أَرَادَ أنْ يظْلِمَ، فمَثلًا لَو قُلْنا عَن فُلَانٍ: مَا شَاءَ اللهُ، البَارِحَةَ كُلَّ اللَّيلِ لَمْ يَسْرِقْ؛ لكَونِ الأَبْوابِ مُغلَقَةً، فإِنَّ هَذَا لَا يُعدُّ كَمالًا، وذَلِكَ لعَجْزِهِ عَنِ السَّرقَةِ.

وقَـدْ يُنْفَى الظُّلْمُ عَنِ الشَّيْءِ؛ لأَنَّه غَيْرُ قَـابِلٍ لَهُ أَصْلًا، مِثْلَ أَنْ تَقُـول: الجِدَارُ

وَبِأَنَّهُ لَيْسَ بِغَافِلٍ عَنْ أَعْمَالِ عِبَادِهِ؛ لِكَمَالِ رَقَابَتِهِ وَإِحَاطَتِهِ[١].

لَا يَظلِمُ، أَو قُلْتَ: إنَّ جِدَارَنا جِدَارٌ رَفِيقٌ بالنَّاس، يستَظِلُّون بِهِ ولَا يَظلمُهُم، فإنَّ هَذَا لَيْسَ مدْحًا؛ لأنَّه غَيرُ قابِلٍ لأَنْ يتَّصِفَ بالظُّلمِ؛ فهَلْ كَوْنُ اللهِ لَا يظْلِمُ أحدًا؛ لأنَّه غَيْرُ قَابِلٍ؟! يَعْنِي لَيْسَ مِمَّن يَظلِمُ؟! لَا، إِذَنْ لَا يظْلِم؛ لكَمال عدْلِهِ، لَا لعَجْزِهِ عَنِ الظُّلمِ؛ لأَنَّهُ قَادِرٌ، ولَا لكَونِهِ لَا يَقْبَلُ الاتِّصَافَ بالظُّلمِ؛ لأَنَّهُ يَستَطِيعُ أنْ يتَّصِفَ بذَلِكَ، وحَاشَاهُ مِنْ هَذَا عَزَّوَجَلَّ، ولهَذَا جَاءَ فِي الحَدِيثِ القُدُسيِّ: «**يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي**»(١)؛ ولَو كَانَ لَا يقْدِرُ أنْ يظْلِمَ لَمَا تَمَدَّحَ بهَذَا عَزَّوَجَلَّ، فهُو يمْدَحُ نفْسَهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ويُثْنِي عَلَيْهَا؛ لأَنَّهُ حَرَّمَ الظُّلْمَ عَلَى نفْسِهِ، ولَو كَانَ غَيْرَ قَادِرٍ مَا كَانَ مَدْحًا.

إِذَنِ: اللهُ عَزَّوَجَلَّ لا يظلِمُ، ولَا بُدَّ أنْ تَقُول بعْدَهَا: لكَمَالِ عَدْلِهِ، والدَّلِيل قَوْلُه تعَالَى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٩].

[١] قَوْلُهُ: «وَبِأَنَّهُ لَيْسَ بِغَافِلٍ عَنْ أَعْمَالِ عِبَادِهِ؛ لِكَمَالِ رَقَابَتِهِ وَإِحَاطَتِهِ» أيْضًا؛ فاللهُ عَزَّوَجَلَّ لَيْسَ بغَافِلٍ؛ لقَوْلِهِ تعالَى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة:١٤٤]. ولَيتَنِي أتَيْتُ بِهِ فِي المَتْنِ، فسُبْحَان مَنْ لَهُ الكَمَالُ، وإلَّا فكَانَ يجِبُ أنْ نَذْكُرَ الدَّلِيلينِ عَلَى نَفْيِ الظُّلمِ وعَلَى نَفْيِ الغَفْلَةِ.

ولِمَاذَا لَا يَغْفُلُ عَزَّوَجَلَّ؟

الجَوابُ: لكَمَالِ رَقَابَتِهِ وإحَاطَتِهِ، فكُلُّ شَيْءٍ يعلمُهُ جَلَّوَعَلَا فِي وَقْتِهِ وفِي حِينِهِ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم (٢٥٧٧)، من حديث أبي ذر الغفاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَنُؤْمِنُ بِأَنَّهُ لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ فِي السَّموات وَلَا فِي الأَرْضِ؛ لِكَمَالِ عِلْمِهِ وَقُدْرَتِهِ[١]، ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[٢] [يس:٨٢].

---

[١] قَوْلُهُ: «وَنُؤْمِنُ أَنَّهُ لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الأَرْضِ لِكَمَالِ عِلْمِهِ وَقُدْرَتِهِ» فاللهُ عَزَّوَجَلَّ لَا يُعجِزُهُ شَيْءٌ فِي السَّمَواتِ ولَا فِي الأَرْضِ، وهَل لَا يُعجِزُه شَيْء لكَونِهِ غَيْرَ قَابلٍ لوَصْفِهِ بالعَجْزِ؟!

الجواب: لَا؛ بَل لكَمالِ عِلمِهِ وقُدرتِهِ، فهُو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كاملُ القُدرَةِ وكَامِلُ القُوَّةِ.

واقْرَأْ قَوْلَ اللهِ تعالَى -ولَيتَنِي أَتَيْتُ بهَذِهِ الآيَةِ أيضًا فِي المَتْنِ-: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر:٤٤]. فلَمَّا قَالَ: مَا كَانَ اللهُ ليُعجزَهُ، علَّلَ -سُبْحَانَه- بأَنَّه كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا، فلِعِلْمِهِ لَا يَعْجَزُ، ولقُدرتِهِ لَا يَعْجَز؛ لأَنَّ العَاجِزَ عَنْ تَحصِيلِ الشَّيْء إمَّا لجَهْلِهِ بأَسْبَابِ حُصُولِهِ، وإمَّا لعَجزِهِ عَنْ إيجَادِهِ.

فلَوْ قَالَ لَكَ شَخْصٌ: اصْنَعْ لِي مَسجِّلًا، وأَنْتَ لَا تَعْرِفُ، فإنَّكَ لَا تَقْدِرُ، لَا لعَجْزِكَ بَلْ لكَوْنِكَ جَاهِلًا، ولَو كَانَ عِنْدَك عِلْمٌ تمامًا بالصِّناعَةِ، لكنَّكَ أَشَلُّ، فإنَّكَ لَا تَقْدِرُ أيْضًا، وذَلِكَ للعَجْزِ عَنْهُ، ولهَذَا قَالَ تعالَى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ لمَاذَا؟ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾.

[٢] قَوْلُهُ: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ ﴿كُن﴾ كَلِمَةٌ وَاحِدَةٌ فيكُونُ، وانْظُرْ إِلَى الخَلَائِقِ، كَمْ عددُهُم مُنْذُ أَنْ خَلقَهُمُ اللهُ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ، لَا أحدَ يتصوَّرُ العددَ، فَضلًا عَن إحصَائِهِ، ومَعَ ذَلِكَ يَقُول اللهُ عَزَّوَجَلَّ:

وبِأَنَّهُ لَا يَلْحَقُهُ تعَبٌ، وَلَا إِعْيَاءٌ؛ لِكَمَالِ قُوَّتِهِ[١]: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾[٢] [ق:٣٨] أَيْ مِنْ تَعَبٍ ولَا إِعْيَاءٍ.

﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس:٥٣] فكُلُّهم مُحضَرُون بصَيْحَةٍ واحِدَةٍ، وقَالَ تعَالَى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ [الصافات:١٩]. ﴿فَإِذَا هُمْ﴾ «إذَا» الفُجائيَّةُ، الدَّالَّةُ عَلَى فوريَّةِ الحُصُولِ، قَالَ تعَالَى: ﴿فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات:١٤] علَى وَجْهِ الأَرْضِ، هَذِه قدرَةٌ عظِيمَةٌ، سُبحَانَ القَدير عَلَى كُلِّ شَيْءٍ!.

إِذَن: لَيْسَ يُعجزُهُ شَيْء لكَمَالِ قُدرتِهِ؛ لأَنَّه إذَا أَرَادَ شَيْئًا قَالَ لَهُ: كُنْ فيَكُونُ.

[١] قَوْله: «**وَنُؤْمِنُ بأَنَّه لَا يَلْحَقُهُ تعَبٌ، وَلَا إِعْيَاءٌ؛ لِكَمَالِ قُوَّتِهِ**»: قَوْلُهُ: «**لَا يَلْحَقُهُ تعَبٌ وَلَا إِعْيَاءٌ**» يَعْنِي: فِيمَا يفْعَلُ، مَهْمَا عَظُمَ.

[٢] ودَلِيلُ ذَلِكَ: قَوْلُهُ تعَالَى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق:٣٨] وهَذِهِ الجُمْلَةُ مُؤَكَّدَةٌ بالقَسَمِ المَدلُولِ عَلَيْه باللَّامِ، و«قَدْ».

وقَوْلُهُ: ﴿مِن لُّغُوبٍ﴾ أَي: مِنْ تَعَبٍ وإِعْيَاءٍ؛ لكَمَال القُدرَةِ والقوَّة، فهُوَ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لَا يَمسُّه مِنْ لُغوبٍ، لأَنَّهُ كَامِلُ القُوَّة والقُدرَةِ.

فهَذَا الكَلَام كُلُّه فِي الصِّفاتِ المَنفيَّةِ.

واعْلَمْ أَنَّ الصِّفاتِ المَنفيَّةَ يُرادُ بِهَا شَيْئَانِ:

الأَوَّلُ: نَفْيُ تِلْكَ الصِّفَة المُعيَّنةِ، وهَذَا وَاضِحٌ، مِثْلَ قَوْلِهِ تعالَى: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة:٢٥٥] فواضِحٌ أَنَّ السِّنَة والنَّوم منفيَّانِ عَنِ اللهِ تعالى.

وَنُؤْمِنُ بِثُبُوتِ كُلِّ مَا أَثْبَتَهُ اللهُ لِنَفْسِهِ، أَوْ أَثْبَتَهُ لَهُ رَسُولُهُ ﷺ مِنَ الأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ[١]، لَكِنَّنَا نَتَبَرَّأُ مِنْ مَحْذُورَيْنِ عَظِيمَيْنِ، هُمَا: التَّمْثِيلُ وَالتَّكْيِيفُ.

فالتَّمْثِيلُ: أَنْ يَقُولَ بِقَلْبِهِ أَوْ لِسَانِهِ: صِفَاتُ اللهِ تَعَالَى كَصِفَاتِ المَخْلُوقِينَ[٢].

الثَّانِي: ثُبُوتِ كَمَال الضِّدِّ، وإنْ شِئْتَ فقُلْ: إثبَاتُ كَمَالِ الضِّدِّ، فكِلاهُمَا وَاحِدٌ؛ مِثْلَ قَوْلِهِ تعَالَى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٩]، فضِدُّ الظُّلْمِ العَدْلُ، إِذَن: لَا يظْلِمُ رَبُّكَ أحَدًا؛ لأَنَّه كَامِلُ العَدْلِ.

إِذَن: لَيْسَ فِي صِفَاتِ اللهِ نَفْيٌ مَحْضٌ إطْلاقًا، يَقُول شَيْخُ الإِسْلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «لأَنَّ النَّفْيَ المحْضَ عدَمٌ مَحْضٌ، والعدَمُ المحْضُ لَيْس بشَيْءٍ، فضْلًا عَن أنْ يَكُون مدْحًا وكَمَالًا»(١) وهَذا تعلِيلٌ جيِّدٌ؛ فالعَدَمُ عَلَى اسْمِهِ عَدَمٌ.

[١] قَوْلُهُ: «ونُؤمِنُ بثُبوتِ كُلِّ مَا أَثْبَتَهُ اللهُ لنَفْسِهِ، أَو أثْبتَهُ لَهُ رَسُولُه ﷺ مِنَ الأَسْمَاء والصِّفَات» فكُلُّ مَا أثبتَهُ اللهُ لنفسِهِ وجَبَ علَيْنا الإِيمَانُ بِهِ، والتَّصدِيقُ بِهِ، واعتِقَادُهُ، وأَنَّهُ حَقٌّ، وكَذلِكَ مَا أَثْبَتَهُ لَهُ رَسُولُه صلَّى اللهُ علَيْه وعَلَى آلِهِ وسَلَّم، نُؤْمِنُ بِهِ عَلَى الوَجْه الَّذِي أَرَادَ اللهُ ورسُولُه ﷺ لَا نُبدِّلُ، ولَا نُحرِّفُ، ولَا نُغيِّر.

[٢] قَوْلُه: «لكنَّنَا نتبرَّأُ مِنْ محذُورَين عظِيمَين: هُمَا: التَّمْثِيلُ كَأَنْ يَقُولَ بقَلْبِهِ أَوْ لسَانِهِ: صفَاتُ اللهِ كصِفَاتِ المَخلوقِينَ» هَذَا هُو التَّمْثِيلُ، ونَحْن نتبَرَّأُ مِنَ التَّمْثِيل، تصْدِيقًا لقَولِ اللهِ تعَالَى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ وامتِثَالًا لقَوْلِهِ تعَالَى: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ واتِّبَاعًا للعَقْلِ فِي امْتِنَاعِ قِيَاسِ الخَالِق بالمَخْلُوقِ، فهَذِهِ ثَلَاثَةُ أدِلَّةٍ فِي نَفْيِ التَّمْثِيل.

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (١٧/ ١٠٩).

ولهَذَا نَقُولُ: التَّمْثِيل تكذِيبٌ للخَبَرِ، وعِصَيانٌ للأَمْرِ، ومُجانَبَةٌ للعَقْلِ؛ فتكْذِيبٌ للخَبَرِ فِي قَوْلِه تعَالَى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾، وعصْيَانٌ للأَمْرِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَلَا تَضْرِبُواْ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ ومُجَانَبَةٌ للعَقْلِ فِي قِيَاسِ الخَالِق عَلَى المَخْلوقِ، فالتَّمْثِيلُ مُمتنِعٌ شَرْعًا وعَقْلًا.

مَسْأَلَةٌ: وَرَدَ فِي اسْتِعْمَالِ بَعْض أَهْلِ العِلْم قولُهُمْ: «بِلَا تمثِيلٍ»، ووَرَدَ قولُهم: «بِلَا تَشْبِيهٍ»؛ فَما الأَقْرَبُ للصَّوَابِ؟

نَقُولُ: الأقرَبُ للصَّوابِ أنْ نَقُول: «بِلَا تمثِيلٍ»، لَا «بِلَا تَشْبِيهٍ»؛ لوُجُوه:

الأَوَّلُ: أنَّ التَّمْثِيلَ هُو لغَةُ القُرْآنِ، قَالَ تعالَى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١] وقَالَ تعالَى: ﴿فَلَا تَضْرِبُواْ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [النحل:٧٤] والمحَافظَةُ عَلَى لفْظِ النَّصِّ أَوْلَى مِنَ الإتيَانِ بلَفْظٍ جَدِيدٍ.

فاحْرِصُوا عَلَى أن يَكُون تعبِيرُكُمُ التَّعبيرَ القُرآنيَّ أَوِ النَّبويَّ:

١- لأَنَّ أَحْسَنَ الكَلَام وأبلَغَ الكَلَام وأبْيَنَ الكَلَام كَلَامُ اللهِ ورَسُولِهِ.

٢- لأَنَّها تجْمَعُ بَيْنَ المَسَائِلِ والدَّلَائِلِ.

٣- لأَنَّه لَا أَحَدَ يعتَرِضُ عَلَيْك، فلَوْ عَبَّرْتَ مِنْ عنْدِكَ رُبَّما تُناقَشُ فِي عِبارَتِكَ، أَمَّا إِذَا كُنْت تُعبِّر بِما قَالَهُ اللهُ ورَسُولُه بلَفْظِهِ فَلَا أَحَدَ يَعتَرِضُ علَيْك.

الثَّانِي: أنَّ مَنْ قَالَ: «بِلَا تَشْبِيه» إنْ أَرَادَ مُطلَقَ التَّشْبِيهِ فخَطَأٌ، وإنْ أَرَادَ التَّشْبِيهَ المُطلَقَ مْن كُلِّ وَجْه فهُو لَغْوٌ.

....

يعْني: إنْ أرَادَ مُطلَقَ التَّشبِيهِ أنَّ اللهَ تعَالَى لَا يُشَابِهُ الخَلْقَ فِي أَيِّ شَيْء فهَذَا غَلَطٌ؛ لأنَّه لا بُدَّ مِنَ الاشْتِرَاكِ فِي أَصْلِ المَعْنَى، فمَثَلًا: العِلْم، فالخَالِق لَهُ عِلْمٌ، والمَخْلوقُ لَهُ عِلْمٌ، فقَدِ اشتَرَكَا فِي أَصْلِ المَعْنَى، فهَذَا نَوْعُ تَشَابُهٍ، وكَذلِكَ القُدرَةُ، والسَّمْعُ، والبَصَرُ، فهُنَا اشْتِرَاكٌ فِي أَصْل المَعْنَى، وهَذَا الاشْتِرَاكُ فِي أَصْل المَعنَى نَوْعٌ مِنَ المُشابَهَةِ، فَلَا يَصِحُّ أنْ نَقُول: بِلَا تَشْبِيهٍ عَلَى وَجْه الإطْلَاقِ.

وإنْ أرَادَ التَّشبِيهَ المُطلَقَ فقَالَ: «مِنْ غَيْرِ أنْ يُشَابِهَهُ مُطلَقًا»، فهَذَا لَغْوٌ؛ لأنَّه مَا مِنْ أَحَدٍ يَقُول: إنَّ الخَالِق والمَخْلوقَ مُتَماثِلَانِ سَوَاءٌ بسِوَاءٍ، ومَا أحَدٌ قَالَهَا أبَدًا، حتَّى الَّذِينَ قَالُوا بتَعدُّدِ الآلِهَةِ، لَا يَقُولُون: إنَّها مُتَساوِيَةٌ؛ لأَنَّ النَّاس ثَلاثَةُ أقْسَامٍ:

قِسْمٌ قَالَ بتَوحُّدِ الآلِهَةِ.

وقِسْمٌ قَالَ بتَعدُّدِهَا.

وقِسْمٌ نَفَاهَا مُطلَقًا.

وممَّنْ نَفَاهَا مُطلَقًا فِرْعَونُ، قَالَ تعَالَى عَنْهُ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص:٣٨]. وهُوَ كَاذِبٌ فِيما قَالَ؛ لأنَّ مُوسَى قَالَ لفِرْعَونَ وهُوَ يُحاجُّه: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَـٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء:١٠٢]. فماذَا قَالَ فِرعَونُ؛ هَل قَالَ «مَا عَلِمْتُ» أَو سَكَتَ؟

الجواب: سكَتَ إقرَارًا، واللهُ عَزَّوَجَلَّ يَقُولُ: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل:١٤].

لَكِـنْ هُناكَ مَنْ يُقرُّ بأنَّ هُناكَ خَالِقَيْن وهُمُ المَجُوسُ الثَّنَوِيَّةُ قَالُوا: إنَّ للعَالَـم

وَالتَّكْيِيفُ: أَنْ يَقُولَ بِقَلْبِهِ أَوْ لِسَانِهِ كَيْفِيَّةُ صِفَاتِ اللهِ تَعَالَى كَذَا وَكَذَا[١].

خالِقَيْن: نُورٌ وظُلمةٌ، فالخَيرُ صادِرٌ عَنِ النُّورِ، والشَّرُّ صَادِرٌ عَن الظُّلمَةِ، ومَعَ ذَلِكَ لَمْ يَقُولُوا بتَساوِيهِمَا، بَل قَالُوا: النُّورُ خَيْرٌ مِنَ الظُّلمَةِ؛ لِأَنَّ النُّورَ وُجُودُ إضَاءَةٍ، والظُّلمَةُ عَدَمٌ، والوُجودُ خَيْرٌ مِنَ العَدَمِ؛ وقَالُوا أَيْضًا: النُّورُ خَيْرٌ مِنَ الظُّلمَةِ فِي آثَارِهِ ومَخْلُوقَاتِهِ؛ لأَنَّهُ يَخْلُقُ الخَيْرَ، والظُّلمَةُ تَخْلُقُ الشَّرَّ، وقَالُوا -أيضًا-: النُّورُ قَدِيمٌ؛ ولهُمْ فِي الظُّلمَةِ قَولَانِ: هَلْ هِيَ حَادِثَةٌ، أَو غَيْرُ حَادِثَةٍ؛ يَقُولُ شَيْخُ الإِسْلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لَمْ يَقُل أحَدٌ بإِثْبَاتِ خَالِقَيْن مُتكَافِئَيْن(١).

وعَلَى هَذَا فإِذَا قُلْتَ: «بِلَا تَشْبِيهٍ» وأَرَدْتَ بذَلِكَ المُشَابَهَةَ المُطلَقَةَ فهَذَا لَغْوٌ مِنَ القَوْلِ؛ لأَنَّه لَمْ يَقُل بِه أحَدٌ.

الثَّالِثُ: إذَا قُلْتَ: «بِلَا تَشْبِيهٍ»؛ فإِنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَرَى أَنَّ إِثْبَاتَ الصِّفَاتِ تَشْبِيهٌ، وعَلَى هَذَا فإِذَا قُلْتَ: «بِلَا تَشْبِيهٍ» صَارَ المَعْنَى «بِلَا» إِثْبَاتِ صِفَاتٍ، لَكِن إِذَا قُلْتَ: «بِلَا تَمْثِيلٍ» صَارَ لَيْس هُنَاكَ احْتِمَالٌ.

ولهَذا صَارَ التَّعبِيرُ بنَفْيِ التَّمْثِيل أَوْلَى؛ للوُجُوهِ الثَّلاثَةِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا.

[١] قَوْلُهُ: «**والتَّكْيِيفُ؛ أَنْ يَقُولَ بقَلْبِهِ أَو لِسَانِهِ: صِفَاتُ اللهِ تعَالَى كَذَا وكَذَا**» فنتبَرَّأُ مِنَ التَّكْيِيفِ، وهُوَ أَنْ يَقُولَ الإِنْسَانُ بقَلْبِهِ أَو لِسَانِهِ: إنَّ كَيْفِيَّةَ صفَاتِ اللهِ تعَالَى كَذَا وكَذَا؛ والدَّلِيلُ عَلَى تَحرِيمِهِ قَولُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿ **قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ** ﴾ [الأعراف:٣٣].

---

(١) انظر: درء تعارض العقل والنقل (٩/ ٣٤٤).

....

فمَنْ كَيَّف أيَّ صِفَةٍ مِنْ صِفَاتِ اللهِ فقَدْ قَالَ علَى اللهِ مَا لَا يعْلَمُ؛ لأَنَّ اللهَ أَخْبَرَ عَنِ الصِّفَةِ ولَمْ يُخْبِرْ عَن كَيْفِيَّتِها، ولهَذَا قَالَ بَعْضُ العُلَماءِ: إذَا قَالَ لَكَ الجَهْميُّ: إنَّ اللهَ ينْزِلُ إِلَى السَّماءِ الدُّنيا، فكَيْف يَنْزِلُ؟ فقُلْ لَهُ: إنَّ اللهَ أخبرَنَا أنَّه يَنْزِلُ، ولَمْ يخْبِرْنَا كَيْف يَنْزِلُ، وهَذَا جَوابٌ سَدِيدٌ.

وهُنَاكَ دَلِيلٌ آخَرُ علَى تحرِيمِ التَّكْييفِ، وهُوَ قَوْلُ اللهِ تعَالَى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الأعراف:٣٦]. أَي: لَا تَتَّبِعْ شَيْئًا لَا تعْلَمُه، والمُكيِّفُ اتَّبعَ مَا لَا يَعْلَمُ قَطْعًا، وإلَّا فمِنْ أَيْنَ يَدْرِي أنَّ كَيْفِيّة صِفَاتِ اللهِ كَذَا وكَذَا، وأنَّ كَيْفِيَّةَ اسْتِوَائِهِ كَذَا وكَذَا، وأنَّ كَيْفِيَّةَ نُزولِهِ إِلَى السَّماءِ كَذَا وكَذَا، وكَيْفِيَّةَ وَجْهِهِ كَذَا وكَذَا.

فصَارَ التَّكْييفُ مُمتَنِعًا أيضًا بدَلِيلَيْنِ: الأَوَّلُ قَوْلُهُ تعالَى: ﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:٣٣] والثَّاني: قَوْلُه تعالَى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الأعراف:٣٦]

فإِنْ قَالَ قَائِلٌ: مَا الفَرْقُ بَيْنَ التَّكْييفِ والتَّمْثِيلِ؟

قُلْنا: التَّمْثِيلُ أنْ يَذكُرَ كَيْفِيَّةَ الصِّفَة مقيَّدَةً بمُماثِلٍ، فيَقُولُ: يَدُ اللهِ مِثْلُ يَدِ الإِنْسَانِ، فمَنْ مَثَّلَ فقَدْ كَيَّفَ، أَمَّا التَّكْييف فهُوَ أَنْ يَذْكُرَ كَيْفِيَّةً لَا تُقيَّدُ بمُماثِلٍ، بَلْ يُكيِّفُ كَيْفِيَّةً تَصوَّرَهَا فِي عَقْلِهِ، ثُمَّ يقُولُ: كَيْفِيَّتُها كَذَا وكَذَا.

وعَلَى هَذَا فكُلُّ ممَثِّلٍ مُكيِّفٌ، ولَيْسَ كُلُّ مُكيِّف مُمثِّلًا، فالمُكيِّفُ قَدْ يَذْكُرُ كَيْفِيَّةً لَيْسَ لَـهَا نَظِيرٌ، أَمَّا المُمثِّلُ فإنَّهُ يذْكُرُ كَيْفِيَّةً لَـهَا نَظِيرٌ.

وأَيُّهما أعظَمُ، التَّمْثِيلُ أَمِ التَّكْيِيفُ؟ نَقُول: التَّمْثِيلُ أعظَمُ؛ لأَنَّهُ تَكْذِيبٌ للخَبَرِ، وعِصَيانٌ للأَمْرِ.

وَنُؤْمِنُ بِانْتِفَاءِ كُلِّ مَا نَفَاهُ اللهُ تَعَالَى عَنْ نَفْسِهِ، أَوْ نَفَاهُ عَنْهُ رَسُولُهُ ﷺ، وَأَنَّ ذَلِكَ النَّفْيَ يَتَضَمَّنُ إِثْبَاتًا لِكَمَالِ ضِدِّهِ[١]، وَنَسْكُتُ عَمَّا سَكَتَ اللهُ عَنْهُ وَرَسُولُهُ[٢].

---

[١] قَوْلُه: «ونُؤمِنُ بانْتِفَاءِ كُلِّ مَا نفَاهُ اللهُ عَنْ نَفْسِهِ، أَوْ نَفَاهُ عَنْهُ رَسُولُه ﷺ، وأنَّ ذَلِكَ النَّفْيَ يتضَمَّنُ إثْبَاتًا لكَمَالِ ضِدِّهِ» فما نفَاهُ اللهُ تعالى عَنْ نَفْسِهِ نُؤْمِن بأَنَّهُ مُنتَفٍ عَنِ اللهِ؛ لَأَنَّ اللهَ تعالى أَخْبَرَ بأَنَّهُ مُنتَفٍ عَنْهُ، فيَجِبُ عَلَيْنَا الإِيمَانُ بذَلِكَ، لَكِنْ نَزِيدُ عَلَى هَذَا: «إِثْبَات كَمال الضِّدِّ»، لأَنَّنا نُؤْمِن بأَنَّهُ لَا يُوجَدُ نَفْيٌ محْضٌ فِي صفَاتِ اللهِ، إذْ إِنَّ النَّفْيَ المحْضَ عَدَمٌ محْضٌ، والعَدَمُ المحْضُ لَيْس بشَيْءٍ، فضْلًا عَنْ أنْ يَكُونَ كَمالًا، واللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إنَّما نَفَى مَا يَنْفِي مِنْ صفَاتِهِ ليُبيِّنَ كَمالَهُ، لَيْس لأَنْ يَنْفِيَ ذَلِك فقَطْ.

[٢] قَوْلُه: «وَنَسْكُتُ عَمَّا سَكَتَ اللهُ عَنْهُ ورسُولُهُ» فما أَثْبَتَهُ اللهُ أَثْبَتْنَاهُ، ومَا نفَاهُ نفَيناهُ، ومَا سكَتَ عَنْهُ سَكَتْنا عنه، هَذا هُو العَقْلُ، وهُو مُقتضَى الشَّرع أيضًا.

وعَلَى هَذا فإذَا قَالَ قَائِل: مَا تَقُول فِي الجِسْم؟ أَو فِي الجِهَةِ؟ أَو فِي الحَيْز؟ أَو فِي الحَدِّ الَّذِي بدَأَ المُتكلِّمُون يَتخَبَّطُونَ فِيهِ، وتَوصَّلُوا بنَفْيِهِ إِلَى نَفْيِ الصِّفَاتِ عَنِ اللهِ، فمَثلًا يَقُولُ لَكَ: إِذَا أثبَتَّ أنَّ للهِ يَدًا حَقيقِيَّةً فقَدْ جسَّمْت، أَي جعَلْتَ للهِ جِسْمًا، أتقُولُ: إنَّ اللهَ جِسْمٌ؟

فأقُولُ: إنَّ اللهَ تعَالَى لمْ يصِفْ نفْسَهُ بأَنَّهُ جِسْمٌ ولَا بأَنَّهُ غَيْرُ جِسْمٍ، فمَوقِفُنا عقْلًا ونظَرًا: السُّكوتُ، فَلَا نَقُول: إِنَّ اللهَ جِسْمٌ أَو غَيْرُ جِسْمٍ، ونَقُول: أَمَّا «لَفْظُ» الجِسْمِ فَلَا أُثبتُه ولَا أَنفِيه، وأَمَّا «مَعْناه» فإِنْ أَرَدْتَ بالجِسْمِ المُركَّب مِنْ دَمٍ ولحْمٍ وعظْمٍ وعصَبٍ ومَا أَشْبَه ذَلِكَ، فاللهُ تعَالَى منزَّهٌ عنْهُ، ولَا إِشْكَالَ فِيهِ، وإِنْ أَرَدْتَ بالجِسْمِ مَا يقُومُ بنَفْسِهِ، ويتَّصِفُ بالصِّفَاتِ اللَّائقَةِ بِهِ فأَنَا أَقُولُ بهَذَا المَعْنَى.

وَنَرَى أَنَّ السَّيْرَ عَلَى هَذَا الطَّرِيقِ فَرْضٌ لَا بُدَّ مِنْهُ[١]،......................

وعَلَيْه فنَقُولُ: أَمَّا اللَّفظُ فإنَّنَا لَا نُثْبِتُهُ ولَا نَنفِيهِ، وأَمَّا المَعْنَى فإنَّنا نَستَفْصِلُ.

ولـهَذَا يُسمِّي أهْلُ التَّعطِيلِ أَهْـلَ السُّنَّة والجَماعَـة: (المُجسِّمَـة) و(المُمثِّلَـة) و(حَشويَّة) و(ونَوابِت)؛ فالحَشويَّةُ مِنَ الحَشْوِ، يَعْني ليسُوا بذَاكَ النَّاس، والنَّوابِتُ الَّتِي تكُونُ عَلَى جَالِ الزَّرعِ -أَيْ أطْرَافِهِ-، وهِيَ لَا خَيْرَ فِيها!!

ونَحْن نَقُول: صِفُونَا بِما تُرِيدُونَ، فإنَّ إخْوَانَكُم قَدْ وَصفُوا الرُّسلَ بأَنَّهُم مَجَانِينُ، وسَحَرَةٌ، قَالَ تعَالَى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ﴾ [الذاريات:٥٢].

فأَنْتُم صِفُونَا بِما تُرِيدُونَ!.

مَسْأَلَةٌ: هَلِ الصِّفَاتُ المسكُوتُ عَنْهَا مَحصُورَةٌ؟

الجَوَابُ: لَا؛ لَيْسَتْ محصُـورَةً، وكُلُّ صِفَة لـم يَصِفِ اللهُ بِهَا نفسَهُ نَسْكُتُ عَنْهَا.

[١] قَوْلُهُ: «وَنَرَى أَنَّ السَّيْرَ عَلَى هَذَا الطَّرِيقِ فَرْضٌ لَا بُدَّ مِنْهُ» هَذَا حُكْمُ السَّيرِ عَلَى مَنْهَجِ السَّلَف، ونَرَى أَنَّهُ فَرْضٌ، لا بُدَّ مِنْ أَنْ يَسِيرَ الإِنْسَانُ عَلَى هَذِه القَاعِدَةِ وَهِيَ:

أ- إِثْبَاتُ مَا أَثْبَتَهُ اللهُ لنَفْسِهِ.

ب- نَفْيُ مَا نَفَاهُ اللهُ عَنْ نَفْسِهِ، مَعَ اعتِقَادِ ثُبُوتِ ضَدِّهِ.

ج- السُّكوتُ عَمَّا سَكَتَ اللهُ عَنْهُ.

وَذَلِكَ لِأَنَّ مَا أَثْبَتَهُ اللهُ لِنَفْسِهِ، أَوْ نَفَاهُ عَنْهُ -سُبْحَانَهُ-، فَهُوَ خَبَرٌ أَخْبَرَ اللهُ بِهِ عَنْ نَفْسِهِ، وَهُوَ -سُبْحَانَهُ- أَعْلَمُ بِنَفْسِهِ، وَأَصْدَقُ قِيلًا، وَأَحْسَنُ حَدِيثًا، وَالعِبَادُ لَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا[١].

وَمَا أَثْبَتَهُ لَهُ رَسُولُهُ، أَوْ نَفَاهُ عَنْهُ، فَهُوَ خَبَرٌ أَخْبَرَ بِهِ عَنْهُ، وَهُوَ أَعْلَمُ النَّاسِ بِرَبِّهِ، وَأَنْصَحُ الخَلْقِ، وَأَصْدَقُهُمْ، وَأَفْصَحُهُمْ[٢].

فَفِي كَلَامِ اللهِ تَعَالَى وَرَسُولِهِ ﷺ كَمَالُ العِلْمِ، وَالصِّدْقِ، وَالبَيَانِ، فَلَا عُذْرَ فِي رَدِّهِ، أَوِ التَّرَدُّدِ فِي قَبُولِهِ[٣].

---

[١] قَوْلُه: «وذَلِكَ لأَنَّ مَا أَثْبَتَهُ اللهُ لنفْسِهِ، أَو نفَاهُ عنهَا سُبحَانَهُ، فهُو خَبَرٌ أَخْبَرَ اللهُ به عَن نفْسِهِ، وهُو -سُبحَانَهُ- أعلَمُ بنفْسِهِ، وأصدَقُ قِيلًا، وأحسَنُ حَدِيثًا، والعِبَادُ لَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا» وإِذَا كَانَ كَذَلِكَ وَجَبَ تفْويضُ الأَمْرِ إِلَى اللهِ، وتَصدِيقُ خَبرِهِ فِيمَا أَخْبَرَ بِهِ.

[٢] قَوْلُه: «وَمَا أثبتَهُ لَهُ رَسُولُه، أَو نفَاهُ عَنْهُ، فهُوَ خَبَرٌ أخبَرَ بِهِ عَنْهُ، وهُو أعلَمُ النَّاسِ بَربِّهِ، وأنصَحُ الخَلْقِ، وأصدَقُهُم، وأفصَحُهُم» وهَذَا أَمْرٌ لَا جِدَالَ فِيهِ، فأعلَمُ النَّاس باللهِ، وأنصحُهُم للخَلْقِ، وأصدَقُهم، وأفصَحُهُم، هُو الرَّسُولُ ﷺ.

[٣] قَوْلُهُ: «فَفِي كَلَامِ اللهِ تعَالَى ورَسُولِهِ ﷺ كَمَالُ العِلْمِ والصِّدقِ والبَيَانِ؛ فَلَا عُذْرَ فِي رَدِّهِ، أَو التَّرَدُّدِ فِي قَبولِهِ» وهَذِهِ قَاعِدَةٌ مُهِمَّةٌ، نسْأَلُ اللهَ أَنْ يجعَلَنَا مِنْ أَهْلِ السُّنَّة، المُتَّبِعِينَ للآثَارِ والأَخْبَارِ الصَّحِيحَةِ.

فائِدَة: أَنَا الآنَ أَرَى أَنَّ الأَوْلَى بِنَا أَلَّا نتكلَّمَ فِي شَيْءٍ لَمْ يتكلَّمْ فِيهِ السَّلفُ وأَنَّ هَذَا أَسْلَمُ وأَحْسَنُ، هَذَا هُوَ الأَفْضَلُ، ومِنْ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَقُولُ فِي مَسْأَلَةِ الحَدِيثِ

القُدُسيِّ: هَلْ هُوَ كَلَامُ اللهِ أَمْ رَوَاهُ الرَّسُولُ بالمَعْنى؟ فيَنبَغِي أَلَّا نَقُول هَكَذَا، ونَقُول الحَدِيثُ القُدُسيُّ مَا رَوَاهُ النَّبيُّ ﷺ عَنْ رَبِّهِ ونَسكُتُ، لَكِن إذَا سُئِلْنا هَل تُلحقُونَه بالقُرآنِ فِي الأَحْكَامِ أَو لَا؟

فنَقُول: لَا نُلحِقُه بالقُرآنِ لأَنَّه لَا يُتعبَّدُ بتِلَاوتِهِ ولَا يُشتَرَطُ لَهُ الطَّهارَةُ، وكُلُّ الأَحكَامِ الَّتِي تَنْطَبِقُ عَنِ القُرْآن لَا تَنْطِبقُ علَيْه.

فأَنَا أَرَى أَخِيرًا -وهُوَ الَّذِي أَدْعُو إِلَيْه الْآنَ-: أَنْ لَا نتكَلَّم فِي مِثْلِ هَذِه المَسَائِلِ إِلَّا بِمَا قَالَ السَّلفُ لَكِن إذَا اضطرِرْنا لَا بُدَّ أن نتكَلَّم، فمَثَلًا: القَائلُونَ: هَلِ اللهُ جِسْمٌ أَو غَيْرُ جِسْمٍ؟ فَلَا نتكلَّمُ، لَكِن نُؤْمِنُ بأَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بَائِنٌ مِنْ خَلقِهِ وأَنَّ لَهُ وجْهًا وأَنَّ لَهُ يَدًا وأَنَّ لَهُ عَيْنًا وأَنَّه يَنزِلُ ويَستوِي وأَمَّا نَقُولُ جِسْمٌ أَو غَيْرُ جِسْمٍ هَذا مَا ورَدَ، لَكِن يجِبُ أَنْ نَستفْصِلَ فِي المَعْنَى نَقُول: إنْ أَرَدْتَ بالجِسْمِ الشَّيْءَ المُركَّبَ مِنْ أَجْزَاءٍ يَفْتَقِرُ بَعْضُهُ إِلَى بَعْض ويَنْقُص بفَقْدِ بَعْضِهَا مَثَلاً، فاللهُ تعَالَى بهَذَا المَعْنَى لَيْسَ بجِسْمٍ، ولئِنْ أَردْتَ بالجِسْمِ مَا هُوَ مَوْصُوفٌ بالصِّفَاتِ اللَّائقَةِ بِهِ فهَذَا جِسْمٌ لَكِن مَا نُطلِقُ لفْظَ الجِسْمِ، وبذَلِكَ نَسلَمُ مِنْ إيرادَاتٍ كَثِيرَةٍ سَوَاءٌ أَوْرَدَهَا الشَّيطَانُ عَلَى قُلوبِنا أَو أَوْرَدَها أَوْلِياءُ الشَّيطَانِ عَلَيْنَا.



فَصْـلٌ

وَكُلُّ مَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ صِفَاتِ اللهِ تَعَالَى -تَفْصِيلًا أَوْ إِجْمَالًا، إِثْبَاتًا أَوْ نَفْيًا-؛ فَإِنَّنَا فِي ذَلِكَ عَلَى كِتَابِ رَبِّنَا وَسُنَّةِ نَبِيِّنَا مُعْتَمِدُونَ[١]،.........

---

[١] قَوْلُه: «**وَكُلُّ مَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ صِفَاتِ اللهِ -تعَالَى تفصِيلًا أَو إجمَالًا، إثْبَاتًا أَو نَفْيًا- فإِنَّنَا فِي ذَلِكَ عَلَى كِتَابِ رَبِّنا وسُنَّةِ نَبِيِّنا مُعتَمِدُونَ**» مِثَالُ التَّفْصِيلِ: مَا ذَكَرَهُ اللهُ تعَالَى فِي آخِرِ سُورَةِ الحَشْرِ: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحشر:٢٢-٢٤] كُلُّها اشْتَمَلَتْ عَلَى أَسْمَاءٍ تَفصِيليَّةٍ، مُفصَّلَةٍ فِيهَا الصِّفَاتُ.

ومَا ذُكِرَ إجمَالًا مِثْلُ قَوْلِهِ تعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف:١٨٠] هُنَا أجمَلُ، فلَمْ يَعُدَّ اسْمًا واسْمًا واسْمًا، بَل قَالَ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾؛ وكَذلِك فِي الصِّفَاتِ، مِنْها مَا يُذكَرُ إجمَالًا، مِثْلُ قولِ اللهِ تعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل:٦٠] أَيِ الوَصْفُ الأكْمَلُ، ومِنْهَا مَا يُذكَرُ تَفْصِيلًا.

فكُلُّ ذَلِكَ -الَّذِي ذَكَرْنَاهُ- عَلَى كِتَابِ رَبِّنَا وسُنَّةِ نَبيِّنا مُعتمِدُونَ؛ لأَنَّهُما أَصْلُ الأدِلَّةِ، فَلَا دَلِيلَ أَقْوَى مِنْ كِتَابِ اللهِ وسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ، وكُلُّ دَلِيل سِوَاهُما إنِ انْبَنَى عَلَيْهِمَا فهُوَ حَقٌّ، وهُوَ مِنْهُما، وإِنْ خَالفَهُما فهُوَ بَاطِلٌ.

وعَلَى هَذَا يَتبيَّنُ لَنَا بُطلَانُ مَذْهَبِ الأشَاعِرَةِ، والمُعتزِلَةِ، والجَهْميَّةِ؛ لأنَّه مَبنِيٌّ عَلَى العَقْلِ، الَّذِي ادَّعَوْا أنَّه عَقْلٌ، وهُو فِي الحَقِيقَةِ ضَلَالٌ، ولَيْسَ بعَقْلٍ، لكنَّهُم هُمْ يَرونَ أنَّهُ عَقْلٌ، وأنَّهُم إنَّمَا يُثبِتُونَ للهِ تعالى مَا دَلَّ عَلَيه العَقْلُ، وَمَا لَا يدُلُّ عَلَيهِ العَقْلُ فهُوَ عنْدَهُم مُنتفٍ عَنِ اللهِ، ولَوْ كَانَ مَذْكُورًا فِي كِتَابِ اللهِ وسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ.

إِذَن: يَكُون أَصْلُ التَّلقِّي للعَقِيدَةِ: الكِتَابَ والسُّنَّة، ولهَذَا قَالَ: «**عَلَى كِتَابِ رَبِّنَا وسُنَّةِ نَبيِّنَا مُعتَمِدُونَ**»، فلَا نَعتَمِدُ عَلَى سِوَاهُما ممَّا يُذكَرُ أنَّه عقْلٌ.

فإذَا قَالَ قَائِلٌ: العَقْلُ يَدُلُّ على أنَّ الرَّبَّ لَا يَحْزَنُ لكَمَال سُلطَانِهِ وقُدرَتِه؛ فننفِي عَنْهُ الحُزْنَ؟

الجَوَاب: هَذا حَقٌّ دلَّ عَلَيهِ الكِتَابُ والسُّنَّة؛ لقَوْلِهِ تعالَى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ والحُزْنُ نَقْص فِينَا كَمَا فِي مَدلُولِ هَذِه الآيَةِ، فنَقُول: لَا تفْرَحُوا عَلَيْنَا أنَّكُم أنكَرْتُمُ الحُزْنَ؛ لأنَّ العَقْلَ يُنكِرُه، فإنَّنا نَقُول لَكُمْ: إنَّ النَّصَّ أنْكَرَه أيْضًا؛ لأنَّنا إِذَا قَرأْنا قَوْلَهُ تعالَى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أي الوَصْفُ الأكْمَلُ، لَزِمَ أنْ لَا يَحْزَنَ، إذْ لَا يَحْزَنُ إلَّا مَنْ كَانَ نَاقِصًا. وإذَا قَالُوا: نحنُ لَا نُثْبِتُ الغضَبَ للهِ، لأنَّ العَقْلَ يُنكِرُه. قُلْنا: هَذَا مَردُودٌ، لأنَّ العَقْلَ يَقْتَضِيه، فإنَّ الغضَبَ عِنْد وُجُود سَبَبِهِ كَمالٌ؛ ثُمَّ إنَّ النَّصَّ أَتَى بِهِ، قَالَ تعالَى: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ [النساء:٩٣] فِي القَاتِلِ عَمْدًا، فكَيْف نُنكِرُه؟!

ووَجْهُ كَونِ الغَضَبِ صِفَةَ كَمالٍ عِنْد وُجُودِ السَّبَبِ: أنَّه يَدُلُّ على قُوَّةِ الغَاضِبِ، وقُدرَتِهِ عَلَى الانْتِقَامِ، ولهَذَا لَو أنَّ الإنْسَانَ ضَرَبَهُ مَنْ هُو أقْوَى مِنْهُ فإنَّه يَحْزَنُ،

وَعَلَى مَا سَارَ عَلَيْهِ سَلَفُ الأُمَّةِ وَأَئِمَّةُ الهُدَى مِنْ بَعْدِهِمْ سَائِرُونَ[١].

ولَا يَغْضَبُ؛ لأَنَّه لَا يَستَطِيعُ أنْ يَنتَقِمَ لنَفْسِهِ، فتَجِدُه يحْزَنُ، ويَبْكِي، ويَشتَكِي، لَكِن لَو ضَرَبَهُ مَنْ دُونَهُ انْتفَخَ عَلَيهِ غَضَبًا، وانتَقَمَ مِنْهُ؛ لأَنَّه قَوِيٌّ، فالغَضَبُ -عِنْد وُجُودِ سَببِهِ- كَمال، ولَيْسَ بنَقْص، ونَحْن نعلَمُ أنَّ اللهَ لَا يغضبُ إلَّا عِنْدما يُوجَدُ مُوجِبُ الغضَبِ.

وعَلَى هَذا؛ فالعُمدَةُ فِيمَا نُثبتُهُ للهِ عَزَّوَجَلَّ أَو نَنْفِيهِ عَنْهُ شيئَانِ فَقَطْ، هُمَا: الكِتَابُ والسُّنَّة، فَمَا فِيهِمَا مِنْ أَسْماءِ اللهِ وصِفَاتِهِ وَجَبَ عَلَيْنَا قَبولُهُ والإِيمَانُ بِه، ومَا نفَاهُ اللهُ ورَسُولُهُ ﷺ وَجبَ عَلَيْنا نَفْيُه، وَمَا سَكَتَ عَنْهُ اللهُ ورَسُولُه ﷺ نظَرْنا إنْ كَانَ صِفَةَ نَقْص نفَيْناهُ، وهَذَا عَلَى القَاعِدَةِ: أنَّ اللهَ مُنزَّهٌ عَنِ النَّقْصِ، وإنْ لَمْ نَعلَمْ أَنَّه نَقْصٌ وَجَبَ عَلَيْنَا أنْ نتوقَّفَ فَلَا نَنْفِيهِ وَلَا نُثْبِتُهُ.

[١] قَوْلُهُ: «وَعَلَى مَا سَارَ عَلَيهِ سَلَفُ الأُمَّةِ، وأئِمَّةُ الهُدَى مِنْ بَعدِهِمْ سَائِرُونَ» سلَفُ الأُمَّةِ هُمُ القُرُونُ المُفضَّلَةُ، الَّذِينَ قَالَ فِيهِم الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلونَهُم، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُم»(١) هَؤلاءِ هُمْ سلَفُ الأُمَّةِ، قَالَ: وأئِمَّةُ الهُدَى مِنْ بعدِهِمْ، ولَمْ يَقُل: «الأئِمَّةُ مِنْ بعدِهِمْ»؛ لأَنَّ الأئِمَّةَ مِنْ بَعْدِ السَّلَفِ الصَّالِحِ صَارُوا أئمَّةَ هُدًى وأئِمَّةَ ضَلَالٍ، ونحْنُ نتَّبعُ أئمَّةَ الهُدَى مِنْ بَعدِهِمْ، أمَّا أئِمَّةُ الضَّلالِ فَمَا أكْثرَهُم فِي هَذِه الأُمَّة الإِسْلاميَّةِ، ونَحْنُ بَريئُونَ منْهُم، ولكنَّنا أتْباعٌ لأئِمَّةِ الهُدَى.

---

(١)أخرجه البخاري: كتاب الشهادات، باب لا يشهد على شهادة جور إذا أشهد، رقم (٢٦٥٢)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، رقم (٢٥٣٣)، من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَنَرَى وُجُوبَ إِجْرَاءِ نُصُوصِ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فِي ذَلِكَ عَلَى ظَاهِرِهَا، وَحَمْلِهَا عَلَى حَقِيقَتِهَا اللَّائِقَةِ بِاللهِ عَزَّوَجَلَّ[١].

ولَكِن هَلْ نحنُ أَتْبَاعٌ لـهُمْ عَلَى الخَطَأِ والصَّوابِ؟

الجواب: لَا، فَما عَلِمْنا أَنَّهُم أخطَؤُوا فِيهِ سألْنَا اللهَ لـهُمُ العفْوَ، وخَالفْنَاهم فِي خَطئِهِم إِلَى الصَّوابِ.

[١] قَوْلُه: «**وَنَرَى وُجُوبَ إِجْرَاءِ نُصُوصِ الكِتَابِ والسُّنَّةِ فِي ذَلِكَ عَلَى ظَاهِرِهَا، وحَمْلِهَا عَلَى حقيقَتِهَا اللَّائِقَةِ باللهِ عَزَّوَجَلَّ**» المُؤلِّفُ يتكلَّمُ بلِسَانِ أَهْلِ السُّنَّة، ولَيْسَ يتكلَّمُ بلِسَانِ نَفْسِهِ ويُعظِّمُ نفسَهُ، فيقُولُ: «**وَنَرَى وُجُوبَ إجْرَاءِ نُصُوصِ الكِتَابِ والسُّنَّةِ فِي ذَلِكَ**» أَي فِيمَا وَصَفَ اللهُ بِهِ نفْسَهُ.

وقَوْلُه: «**وحَمْلِهَا**» أَيْ وَوُجوبِ حَمْلِهَا «**عَلَى حَقيقَتِهَا اللَّائقَةِ باللهِ عَزَّوَجَلَّ**».

ووَجْهُ الدَّلالَةِ عَلَى هَذَا: قَولُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف:٣]. يَعْنِي: صَيَّرْناه بِلِسَانِ العَرَبِ مِنْ أَجْلِ أَنْ تفْهَمُوه.

وقَالَ تعالَى: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف:٣] فأمَرَنا باتِّبَاعِهِ عَلَى الفَهْمِ الَّذِي نفهَمُهُ بمُقتَضَى اللُّغَةِ العَرَبيَّة؛ لأنَّ اللهَ تعالَى قَالَ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ إِذَنِ: الدَّلِيلُ عَلَى وُجُوبِ إجرائِهَا عَلَى ظَاهِرِهَا هَاتَانِ الآيتَانِ.

وعَلَى هَذَا فإِذَا دَلَّ الكِتَابُ والسُّنَّة عَلَى مَعْنًى نفهَمُهُ بمُقتَضَى اللُّغةِ العَرَبيَّة وَجَبَ عَلَيْنَا أَنْ نَتَّبعَهُ.

ومِنْ ذَلِكَ قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الحديد:٤] يَعْنِي عَلَا عَلَيْه.

والدَّلِيل عَلَى أنَّ «اسْتَوى عَلَى كَذَا» فِي اللُّغَةِ العَرَبِيَّة بمَعْنَى (عَلَا عليْه) قَوْلُ اللهِ تعَالَى: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ﴾ [المؤمنون:١٢] وقَالَ تعَالَى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ [الزخرف:١٢-١٣].

فَما دلَّ عَلَيه القُرْآن بمُقتضَى اللُّغةِ العَرَبيَّة فخُذْ بِهِ ولَا تَحْزَنْ؛ لأنَّ هَذَا هُوَ الَّذِي أمرَكَ اللهُ بِهِ: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ ولِهَذَا قَالَ: «نَرَى وُجُوبَ إِجْرَاءِ نُصُوصِ الكِتَابِ والسُّنَّة فِي ذلِكَ عَلَى ظَاهِرِهَا».

قَوْلُهُ: «وحَمْلِهَا عَلَى حَقِيقَتِهَا» هَذا مِنْ تَمَامِ إجْرائِهَا عَلَى ظَاهرِهَا: أنْ نحمِلَها عَلَى حَقِيقَتِهَا، لَكِن قَالَ: «اللَّائِقَةِ باللهِ» وهَذَا مَحطُّ الفَائِدَة، يَعْنِي لَا عَلَى ظَاهِرِهَا المُماثِلِ للمَخْلُوقِ، بَلْ نَرَى حَمْلَهَا عَلَى ظَاهرِهَا اللَّائِقِ باللهِ.

ولِهَذَا لَو قَالَ لَكَ قَائِل: «مَعْنَى (اسْتَوَى اللهُ عَلَى العَرْشِ): عَلَا عَلَيْه، كَما يعْلُو أحدُنَا عَلَى الكُرسيِّ»، فقُلْ لَهُ: لَا؛ لأنَّكَ لَو فسَّرتَها بهَذَا التَّفسِير، لفَسَّرتَها عَلَى الوَجْه الذِي لَا يَلِيقُ باللهِ؛ لَأنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ فِي كِتَابِهِ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

والعجَبُ أنَّ المعطِّلَةَ والمُحرِّفةَ يَقُولُون: إنَّ ظَاهِرَ الصِّفاتِ الَّتِي جَاءَت فِي الكِتَابِ والسُّنَّة ظَاهرُهَا التَّمْثِيل فيَجِبُ أن تُصرَفَ عَنْ ظَاهرِهَا؛ لأنَّ التَّمْثِيل مُمتنِعٌ. وهَذَا لَيْس بصَحِيح؛ أَي أنَّ ظَاهِرَ الصِّفات التِي جَاءَت فِي الكِتابِ والسُّنَّة التَّمْثِيل؛ لأنَّ اللهَ تعَالَى لم يذْكُرْ صِفَةً مطلَقَةً، حتَّى نَقُول: تَشتَرِكُ فِيهَا المَوصُوفَاتُ، بَل ذَكَر صِفَةً مُضافَةً إلَى اللهِ، والصِّفَةُ تَتبَعُ المَوصُوفَ، فإذَا قِيلَ: يَدُ إِنسانٍ، لم يَفهَمْ أحَدٌ

وَنَتبَرَّأُ مِنْ طَرِيقِ الْمُحَرِّفِينَ لَـهَا، الَّذِينَ صَرَفُوهَا إِلَى غَيْرِ مَا أَرَادَ اللهُ بِهَا وَرَسُولُهُ[١].

إِلَّا اليَدَ الإِنْسانيَّةَ، وإِذَا قِيلَ: يَدُ جَمَلٍ، لَا يَفهَمُ أحدٌ أنَّها كيَدِ الإِنْسانِ، فالصِّفاتُ الَّتِي أَضَافَهَا اللهُ أَضافَها إِلَى نفْسِهِ، ولَمْ يَذْكُرْ صِفَةً مُطلقَةً حَتَّى نَقُولَ: تَشتَرِكُ فِيهَا جَمِيعُ المَوصُوفاتِ لكنَّهُ ذَكَرَها صِفَةً مُقيَّدَةً، وعَلَى هَذا فلَنْ يَكُون ظَاهِرُها التَّمْثِيل.

إِذَنْ: وُجُوبُ إِجْرَائِهَا عَلَى ظَاهِرِهَا: حَمْلُها علَى الحَقِيقَةِ اللَّائقَةِ باللهِ، لَا المماثَلَةُ للمَخلُوقِ.

[١] ولـهَذا قَالَ: «**وَنَتبَرَّأُ مِنْ طَرِيقِ الْمُحرِّفِينَ لَـهَا، الَّذِينَ صَرَفُوهَا إِلَى غَيْرِ مَا أَرَادَ اللهُ بِهَا وَرَسُولُهُ ﷺ**» نَتبَرَّأُ بِقُلُوبِنا، وأَلْسِنَتِنا، وَسُلُوكِنا، مِنْ طَرِيقِ هَؤُلاءِ الَّذِينَ صَرَفُوهَا إِلَى غَيْرِ مَا أَرَادَ اللهُ بِهَا وَرَسُولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

مِثالُ ذَلِكَ: قَالَ اللهُ تعالَى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف:٥٤] قُلْنَا: اسْتَوى عَلَى العَرشِ يَعْنِي: عَلَا عَلَيْه، وَهَل هُو كعُلوِّ الإِنْسانِ عَلَى السَّريرِ؟ الجواب: لَا، لأَنَّ هَذَا لَا يَلِيقُ باللهِ، بَل عَلَا عَلَيْه عُلوًّا يَلِيقُ بِهِ عَزَّوَجَلَّ. فإِنْ قَالَ قَائِل: اسْتَوَى عَلَيْه أَي اسْتَولَى عَلَيْه. فهَؤُلَاءِ نَتبَرَّأُ مِنْ طَرِيقَتِهِمْ، وَنَرَى أَنَّهُم عَلَى ضَلَال؛ لأَنَّهم صرَفُوا ذلِكَ إِلَى غيرِ مَا أَرَادَ اللهُ بِهَا ورَسُولُه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وإِذَا قِيلَ: مَا دَلِيلُكُم عَلَى أَنَّ اللهَ تعالَى أَرادَ بقَوْلِهِ: ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ أَي عَلَا علَيْه، أَلَا يجُوزُ أَنْ يَكُونَ مُرادُ اللهِ اسْتَولَى عَلَيْه؟ فالجَوَابُ: لَا يجُوزُ؛ لأَنَّه لَو جَازَ ذلِكَ لكَانَ اللهُ تعالَى لَـمْ يجْعَلِ القُرْآنَ تِبيَانًا، ولَـمْ يجْعَلْه فُرقَانًا، إِذْ إِنَّ اللهَ أَنْزَلَ القُرْآنَ

وَمِنْ طَرِيقِ المُعَطِّلِينَ لَـهَا، الَّذِينَ عَطَّلُوهَا عَنْ مَدْلُولِـهَا، الَّذِي أَرَادَهُ اللهُ وَرَسُولُهُ[١].

بلِسَانٍ عَرَبيٍّ مُبِينٍ، واللِّسانُ العَربيُّ المُبِينُ يَقتَضِي أنَّ مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ عَلَا عَلَيه لَا غيْرَ، فالَّذِين قَالُوا: «اسْتَولَى عَلَيه» صرَفُوه إِلَى غَيْرِ مَا أَرَادَ اللهُ، ونَشْهَدُ بذَلِكَ شهَادَةً عِنْدَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ أنَّهم صرَفُوه إِلَى غيرِ مَا أَرَادَ اللهُ، ونَشْهَدُ أنَّ اللهَ لَمْ يُرِدْ بقَوْلِهِ: ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾ استَوْلَى.

فإِذَا قَالَ قَائِل: هذِه الشَّهادَةُ عظِيمَةٌ! كَيْف تجْزِمُ بِهَا؟

قُلْت: أجْزِم بِهَا بأَمْرِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، قَالَ تعَالَى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ وقَالَ تعَالَى: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم﴾ فأَمَرنا اللهُ عَزَّوَجَلَّ أن نتَّبعَ القُرْآن، علَى مَا نَزَل باللُّغةِ العَربيَّة، وهُو نَزَلَ باللُّغةِ العَربيَّة عَلَى أَنَّ: ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾ بمَعْنَى عَلَا، فأَنَا أَشْهَدُ عَلَى اللهِ أَنَّه أرَادَ بقَوْلِهِ: ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ أَيْ: عَلَا عَلَيْه؛ لأَنَّه أمَرَنِي أنْ أَتَّبعَ مَا أُنْزِلَ عَلَيْه، بمُقتَضَى اللِّسانِ العَربيِّ.

فنَحْنُ نتبَرَّأُ مِنْ طَرِيقِ الَّذِينَ حَرَّفُوا الكَلِمَ عَنْ مَواضِعِهِ، وصَرَفُوا المَعنَى إِلَى غَيرِ مَا أَرَادَ اللهُ ورسُولُه، مِثْلَ الأشَاعِرَةِ، والمعتَزِلةِ، والجَهمِيَّةِ، ومَنْ سَلَكَ سَبيلَهُم، كُلُّ هَؤُلاءِ مُحَرِّفُون للكَلِمِ عَنْ مَواضِعِهِ، وَاقِعُون بِمَا وَقَعَتْ فِيهِ الأُمَمُ مِنْ قَبلِنَا.

[١] قَوْلُهُ: «وَمِنْ طَرِيقِ المُعطِّلِينَ لَـهَا، الَّذِينَ عَطَّلُوها عَنْ مَدلُولِـها الَّذِي أَرَادَ اللهُ ورَسولُهُ ﷺ».

هَذَا طَرِيقٌ آخَرُ غَيرُ الأَوَّلِ، إذ الأَوَّلُ: تَضمَّنَ التَّعطِيلَ والتَّحرِيفَ؛ لأَنَّ الَّذِي يَقُـولُ: اسْتَوَى بمَعْنَى اسْتَولَى، عطَّلَ النَّصَّ عَنْ مَعْنَاهُ الَّذِي أَرادَه اللهُ، وأثْبتَ لَهُ مَعْنًى

وَمِنْ طَرِيقِ الغَالِينَ فِيهَا، الَّذِينَ حَمَلُوهَا عَلَى التَّمْثِيلِ، أَوْ تَكَلَّفُوا لِـمَدْلُولِـهَا التَّكْيِيفَ[١].

جَدِيدًا مِنْ كِيسِهِ! أما الطَّرِيقُ الثَّانِي فقد عطَّلُوا النَّصَّ عَنْ مُرادِ اللهِ، ولَكِن لم يُثْبِتُوا لَهُ مَعنًى، وهَذا طَرِيقُ مَنْ يُسمَّوْنَ بالمُفَوِّضَة أَهْلِ التَّجهِيل، الَّذِين إِذَا قِيلَ لَهُم مَا مَعنَى قَوْلِهِ: ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ قالُوا: لَا نُثبِتُ لَهُ مَعنًى، اللهُ أَعْلَمُ!! فهَؤُلاءِ عطَّلُوا النُّصُوص عمَّا أَرادَ اللهُ بِهَا، إِذْ أَرَادَ اللهُ تعالى بِهَا أَنْ يُثْبِتَ اسْتِوَاءَهُ عَلَى العَرْشِ، وهَؤُلاءِ قَالُوا: لَا نعْلَمُ، نحْنُ نقْرَأُ القُرْآن لَكِن لَا نُفسِّره. ونَقُول: أَنْتُم مُعطِّلَةٌ! عطَّلْتُم النَّصَّ عمَّا أَرادَ اللهُ بِهِ.

[١] وقَوْلُهُ: «**وَمِنْ طَرِيقِ الغَالِينَ فِيهَا، الَّذِينَ حَمَلُوهَا عَلَى التَّمْثِيل، أَو تكلَّفُوا لَمدلُولِـها التَّكْيِيفَ**» هَذا الطَّرِيقُ الثَّالِثُ، وهُمُ المُمثِّلَةُ، الَّذِين غَلَوا فِي الإِثْبَاتِ، فأَثْبَتُوا للهِ مَا أَثْبَتَهُ لنفْسِهِ، لَكِن غَلَو فِي ذَلِكَ، والغُلوُّ معْنَاه الزِّيادَةُ، ومِنْهُ غَلْيُ القِدْرِ؛ لأَنَّهُ إِذَا غَلَا ارْتَفَعَ، فَقَالُوا: نُثْبِتُ أَنَّ اللهَ اسْتَوَى عَلَى العَرشِ حقِيقَةً، وأَنَّ مَعْنَى الاسْتِوَاء كَمَا يَستَوِي أَحَدُنا عَلَى الكُرسيِّ، وقَالُوا أيضًا: للهِ يَدٌ، ويَدُهُ كأَيْدِينَا. ونحْنُ نتبَرَّأُ مِنْ هَذَا الطَّرِيقِ؛ لأَنَّ فِيها غُلوًّا.

فَصِرْنَا نتبَرَّأُ مِنْ ثَلَاثِ طُرُقٍ:

الأَوَّلُ: طَرِيقُ المُحرِّفِينَ، الَّذِين أَثْبتُوا لَـهَا مَعْنًى لَا يُرِيدُهُ اللهُ ورَسُولُه.

الثَّانِي: طَرِيقُ المُعطِّلَةِ، الَّذِين عَطَّلُوها عَنِ المَعنَى المُرَادِ، لَكِن لم يَذكُرُوا مَعْنًى آخَرَ، وهَؤُلاءِ هُمُ المُفوِّضَةُ.

الثَّالث: طَرِيقُ الغَالِينَ فِي الإِثْبَاتِ، الَّذِينَ أَثْبَتُوها مَعَ التَّمْثِيلِ.

فإذَا قَالَ قَائِل: لِـمَ لَا نَسْلُكُ الطَّرِيقَ الوَسَطَ مِنْ هَذِهِ الطُّرُقِ الثَّلاثِ، وهِيَ السُّكوتُ والتَّفويضُ؟

نَقُول: هَذَا حَرَامٌ؛ لأَنَّ السُّكوتَ يَعْنِي التَّعطِيلَ، واللهُ عَزَّوَجَلَّ يَقُولُ: ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [ص:٣٩]. يَقُولُ شَيْخُ الإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ عَن قَوْلِ المُفَوِّضَةِ: إِنَّه شَرُّ أَقْوَالِ أَهْلِ البِدَعِ والإِلحَادِ[١]، وبَعْضُ النَّاسِ يظُنُّه خيرًا، وهُو شَرٌّ.

والعَجَبُ أنَّ بَعْض المُطَّلِعِينَ الَّذِين نُحسِنُ الظَّنَّ بِهِمْ، يَظُنُّ أنَّ هَذَا مَذْهَبُ أَهْلِ السُّنَّة، ومذْهَبُ السَّلَف، وهِي طَرِيقَةُ التَّفويضِ وعَدَمِ الخَوْضِ، وأنْ نَقُول: لَا نعْلَمُ، ولهَذَا حُكِي عنْهُمُ العبَارَةُ الكَاذِبَةُ، المُتناقِضَةُ، البَاطلَةُ، وهِيَ قَولُهم: «طَرِيقُ السَّلَفِ أَسْلَمُ، وطَرِيقُ الخَلَفِ أعْلَمُ وأحْكَمُ» وحقِيقَةُ الأمْرِ: أنَّ طَرِيقَ السَّلَف: «أسلَمُ، وأعلَمُ، وأحْكَمُ».

فإنْ قَالَ قَائِل: قالَ شَيْخُ الإِسْلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنَّ طَرِيقَ المُفوِّضةِ هُوَ شرُّ أقوالِ أَهْلِ البِدَعِ والإِلحَادِ»، وطَرِيقُهُم احْتَوَى أمْرًا واحِدًا، وهُو السُّكوتُ، أمَّا طَرِيقُ المُحرِّفَةُ فقَدِ احْتَوَى أمْرينِ التَّعطِيل ثُمَّ التَّمْثِيل، فكَيْفَ يَكُونُ طَرِيقُ المُفَوِّضَةِ شَرًّا مِنْ هَؤُلاءِ؟

فالجَوَابُ: لأَنَّ طَريقَ المُفَوِّضَةِ قَدْحٌ فِي القُرْآن، إذْ إنَّه يَقتَضِي أنَّ القُرْآنَ أَتَى بكَلَام لَا فَائِدَة مِنْهُ، بَل مُجَرَّدُ لَغْوٍ، وقَدْح فِي الرُّسُلِ أيْضًا؛ لأنَّهم يَتكلَّمُون بكَلَام لَا يفْهَمُون مَعْناه، فرَسُولُ اللهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَقُول: «**يَنْزِلُ رَبُّنَا إِلَى السَّماءِ الدُّنيَا**»[٢].

---

(١) انظر: درء تعارض العقل والنقل (١/ ٢٠٥).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب التهجد، باب الدعاء والصلاة من آخر الليل، رقم (١١٤٥)، ومسلم:

وَنَعْلَمُ عِلْمَ اليَقِينِ أَنَّ مَا جَاءَ فِي كِتَابِ اللهِ تَعَالَى أَوْ سُنَّةِ نَبِيِّهِ ﷺ فَهُوَ حَقٌّ لَا يُنَاقِضُ بَعْضُهُ بَعْضًا[١]؛ لِقَوْلِهِ تعالَى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢]........................

ولَا يَعرِفُ مَعْنَى «يَنزِلُ»!! ويَقُولُ: (إِنَّ اللهَ يَقُولُ كَذَا وكَذَا) وهُو لَا يَعرِفُ مَعْناه!! فهُو قَدْحٌ فِي الرُّسُلِ، وقَدْحٌ فِي المُرْسَلِ بِهِ، وقَدْحٌ فِي المُرسِلِ أَيْضًا، ولهَذَا يَقُول: إِنَّ أَقْوَالَ أَهْلِ التَّفوِيضِ فَتَحَتْ بَابَ الفَلسَفَةِ، والمَنَاطِقَةِ، والبَاطِنِيَّةِ؛ لأَنَّ البَاطِنِيَّةَ يَقُولُون: نحْنُ نعْلَمُ مِنْ كِتَابِ اللهِ مَا لَا تَعلَمُونَه أَنْتُمْ، فأَنْتُمْ جُهَّالٌ، ونحْنُ أَصْحَابُ العِلْم! فمِنْ أَجْلِ هَذِهِ اللَّوازِمِ البَاطِلَةِ صَارَ مِنْ شرِّ أَقْوَالِ أَهْلِ البِدَعِ والإِلْحَادِ.

فإِنْ قَالَ قَائِل: إِنَّ الكَلامَ فِي الأَسْمَاءِ والصِّفَات دَائِرٌ بَيْنَ الإثْبَاتِ المُطلَقِ وبَيْنَ الإِنْكَارِ، ونَحْن لِكَي نَسْلَمَ مِنَ الإِنْكَارِ والجَحْدِ، ونَسْلَمَ مِنَ التَّمْثِيل نَدَعُ آيَاتِ الأَسْمَاءِ والصِّفَات تمرُّ كَمَا هِيَ، ونسْلَمُ فِي آخِرَتِنَا، ولَا نُسأَلُ عَنْهَا!!.

فالجَوَابُ أَنْ نَقُول: إِنَّ هَذَا هُو مذْهَبُ أَهْل التَّفوِيضِ، ونَقُولُ: قَولُكَ هَذَا مِنْ شرِّ أَقْوَالِ أَهْلِ البِدَعِ؛ لأَنَّ اللهَ تعالى أَنْزَلَ القُرْآنَ باللَّفْظِ والمَعْنَى، وأَمَرَنا بتَدبُّرِهِ، فكَيْفَ نتَدَبَّرُ شَيْئًا لَا يُمكِنُ الوُصولُ إِلَى مَعْنَاهُ؟!.

[١] قَوْله: «ونَعْلَمُ عِلْمَ اليَقِين أَنَّ مَا جَاءَ فِي كِتَابِ اللهِ تعالَى أَو سُنَّة نبيِّهِ ﷺ فهُوَ حَقٌّ، لَا يُنَاقِضُ بَعْضُهُ بَعْضًا».

قَوْلُهُ: «عِلْمَ اليَقِين» وهَذا أَعْلَى دَرجَاتِ العِلْم.

= كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل والإجابة فيه، رقم (٧٥٨)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

....

قَالَ العُلَماءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ: وهُنَا ثَلاثُ حقَائقَ: عِلْمُ اليقِين، وعَيْنُ اليقِين، وحَقُّ اليقِين؛ وكُلُّهَا مذكُورَةٌ فِي القُرْآن؛ قَالَ اللهُ تعالَى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾ [التكاثر:٥]، وقَالَ تعالَى: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾ [التكاثر:٧]، وقَالَ تعالَى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ [الواقعة:٩٥].

والفَرْقُ بينَهُم: أنَّ عِلْمَ اليقِينِ خَبَرٌ، وعَيْنُ اليقِين مُشاهَدَةٌ، وحَقُّ اليقِين ذَوْقٌ.

مِثَالُ ذَلِكَ: قَالَ رَجُلٌ لآخَرَ: إِنِّي مَعِي تُفَاحَةٌ حَمْرَاءُ، والرَّجُلُ صَدُوقٌ، فهَذَا عِلْمُ اليقِينِ، ثُمَّ أخْرَجَها مِنْ جَيبِهِ وقَالَ: انْظُرْ هَذه! فهَذَا عَيْنُ اليقِينِ؛ ثُمَّ أخَذَهَا النَّاظِرُ وأكَلَها فهَذَا حَقُّ اليقِينِ.

فنَحْنُ نعْلَمُ عِلْمَ اليقِينِ لأنَّنا نتكَلَّمُ عَنْ خَبَرٍ؛ فإِنَّ مَا جَاءَ فِي كِتَابِ اللهِ تعَالَى أَو سُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ فهُوَ حَقٌّ لَا شَكَّ فِي هَذَا، ولَا يَلحَقُنا أدْنَى شَكٍّ حتَّى لَوْ كَانَت عقُولُنا لم تَبْلُغْه فإِنَّنا نُؤْمِن بِهِ.

وقَوْلُهُ: **«عِلْمَ اليَقِين»** مِنْ بَابِ إِضَافَةِ الشَّيْءِ إلَى جِنْسِهِ؛ لأَنَّ العِلْمَ عِلْمانِ: نَظرِيٌّ يحْتَملُ التَّشكِيكَ، وعِلْمٌ يَقينيٌّ لَا يحْتَملُ التَّشكِيكَ، والمُرادُ هُنَا عِلْمُ اليقِينِ الَّذِي لَا يحْتَملُ التَّشكِيكَ: أنَّ مَا جَاءَ فِي كِتَابِ اللهِ أَو سُنَّة رَسُولِهِ صلَّى اللهُ علَيْه وعلَى آلِهِ وسَلَّمَ فهُوَ حَقٌّ بِلَا شَكٍّ، قَالَ تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ [النساء:١٧٠].

ومِنْ أُصُولِ الدِّينِ أنْ نَشْهَدَ بأَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ حَقٌّ، والسَّاعَةَ حَقٌّ، فكَذلِكَ مَا جَاءَ بِه الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فهُوَ حَقٌّ **«لا يُنَاقِضُ بَعْضُهُ بَعْضًا»**.

....

قَوْلُهُ: «**لَا يُنَاقِضُ بَعْضُهُ بَعْضًا**» المُنَاقَضَةُ هِيَ النِّسبَةُ بَيْنَ شَيْئَينِ لَا يَجْتَمِعَانِ ولَا يَرْتَفِعَانِ، هَذَا هُو الأَصْلُ إِذَا قَسَّمْنا الكَلَامَ إِلَى أَرْبَعَةِ أَقْسَام: تَنَاقُضٍ، وتَبَايُنٍ، وتَضَادٍّ، وتَمَاثُلٍ، وهَذِه هِيَ النِّسبُ الأربَعُ؛ فالتَّناقُضُ: هِيَ النِّسبَةُ بَيْنَ شَيْئَينِ لَا يَجْتَمِعَانِ، وَلَا يَرتفِعَانِ، والتَّضادُّ: النِّسبَةُ بَيْنَ شَيئَينِ لَا يَجْتَمعَانِ ويَرتفِعَانِ، والتَّباينُ: النِّسبَةُ بَيْنَ شَيئينِ مُفترِقَينَ لَا يُمْكِن اجتِمَاعُهُما، والتَّماثُلُ: النِّسبَةُ بَيْنَ شَيئَينِ مُتساويينِ.

فمَثلًا: «الحَرَكَةُ والسُّكونُ» النِّسبَةُ بينَهُما التَّناقُضُ؛ لأَنَّهُما لَا يَجْتَمعَانِ ولَا يَرتفِعَانِ، ومَعْنَى «لَا يجتَمِعَانِ»: يَعْنِي لَا يَكُونُ الشَّيْءُ سَاكِنًا مُتحرِّكًا أَبَدًا فِي آنٍ وَاحِدٍ، ولَا يَرتَفعَانِ؛ لأَنَّهُ لا بُدَّ أن يَكُونَ الشَّيْءُ إمَّا مُتحرِّكًا وإمَّا سَاكِنًا.

فـ«الوُجودُ والعَدَمُ» النِّسبَةُ بينَهُما التَّناقُضُ؛ لأَنَّ الشَّيْءَ إمَّا مَوجُودٌ وإمَّا مَعدُومٌ، فَهُما لَا يَجْتمعَانِ، أَيْ لَا يُمكِنُ أَنْ يَكُونَ الشَّيْءُ مَعدُومًا مَوجُودًا فِي آنٍ وَاحِدٍ، ولَا يَرتفعَانِ إِذْ لا بُدَّ أن يَكُونَ الشَّيْءُ إمَّا مَوجُودًا وإمَّا مَعدُومًا.

و«السَّوادُ والبَيَاضُ» النِّسبَةُ بينَهُما التَّضادُّ؛ لأَنَّهُما لَا يَجْتمعَانِ، فَلَا يُمكِنُ أَنْ يَكُونَ الشَّيْءُ أَسْودَ أبيضَ فِي آنٍ واحِدٍ، ويَرتفعَانِ فيَكونُ الشَّيْء أحمَرَ مَثَلًا، إِذَنْ: فالنِّسبَةُ بينَهُما التَّضادُّ.

و«الحَجَرُ والإِنْسان» النِّسبَةُ بينَهُما التَّبايُن، وهُمَا مُتبايِنَانِ بينُونَةً كَامِلَةً، لَا يُمْكِن أن يجْتَمِعَا، فيَكُونُ الإِنسانُ حَجَرًا، والحَجرُ إِنْسانًا، وذَاتُهما تُبايِنُ إحدَاهُما الأُخرَى.

و«البَشَرُ والإِنْسان» النِّسبَةُ بينَهُما التَّماثُل.

وَلِأَنَّ التَّنَاقُضَ فِي الأَخْبَارِ يَسْتَلْزِمُ تَكْذِيبَ بَعْضِهَا بَعْضًا، وَهَذَا مُحَالٌ فِي خَبَرِ اللهِ تَعَالَى وَرَسُولِهِ ﷺ[١].

عَلَى كُلِّ حَالٍ: نَحْن فِي قَولِنَا «حَقٌّ لَا يُنَاقِضُ بَعْضُه بعْضًا» نُرِيدُ بذَلِكَ أنَّه لَا يُمْكِن إطْلَاقًا أن يَكُون القُرْآنُ أَو السُّنَّةُ يدُلّانِ على شَيئَينِ النِّسبَةُ بينَهُما التَّنَاقُضُ، والدَّلِيل: قَوْلُهُ تعالَى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ والاستفْهَامُ هُنَا للتَّوبيخ والإنكَارِ، يَعْنِي لِمَاذَا لَا يتدَبَّرُون القُرْآن؟ لَو تدبَّرُوا القُرْآن لَما وَجَدُوا فِيه اخْتِلَافًا ولَا تَنَاقُضًا، وهُمْ يَقُولُونَ: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ [النحل:١٠٣]. ولَو كَانَ الَّذِي يُعلِّمُه بَشرًا لوُجِدَ التَّنَاقُض والاختِلَافُ فِي القُرْآنِ، فليتَدَبَّرُوا القُرْآن هَل فِيه تَنَاقُض؟! يَقُولُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢]. أَيْ لَيْسَ اخْتِلَافًا سَهْلًا؛ لأنَّه لا بُدَّ أن يَتنَاقَضَ وأنْ يختَلِفَ.

فإنْ قَالَ قَائِل: نجِدُ فِي القُرْآن أشْيَاءَ ظَاهِرُها التَّعارُض والتَّنَاقُض، فَما موقِفُنا نحْوَ هَذَا؟ سيَأتِي بيَانُ ذَلِكَ(١).

[١] قَوْلُهُ: «ولأَنَّ التَّنَاقُضَ فِي الأَخْبَارِ يَسْتلْزِمُ تكذِيبَ بَعْضِهَا بَعْضًا، وهَذَا مُحَالٌ فِي خَبرِ اللهِ ورَسُولِهِ ﷺ».

يَعْنِي: لَوْ أَخْبَرَ اللهُ بخَبَرٍ، ثُمَّ أَخْبَر بِمَا يُنَاقِضُ ذَلِكَ الخَبَرَ، لَزِمَ مِنْ ذلِكَ أنْ يَكُونَ أحدُهُما كَاذِبًا، وهَذَا يُنزَّه عَنْهُ كَلامُ اللهِ، وكَلَامُ رَسُولِهِ ﷺ، بَل وهَذا مُحالٌ فِي خَبَرِ اللهِ ورَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

---

(١) انظر (ص:٢٩٩).

وَمَنِ ادَّعَى أَنَّ فِي كِتَابِ اللهِ تَعَالَى أَوْ فِي سُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ أَوْ بَيْنَهُمَا تَنَاقُضًا[١] فَذَلِكَ لِسُوءِ قَصْدِهِ، وَزَيْغِ قَلْبِهِ، فَلْيَتُبْ إِلَى اللهِ تَعَالَى وَلْيَنْزِعْ عَنْ غَيِّهِ[٢].

---

[١] قَوْلُهُ: «**وَمَنِ ادَّعَى أَنَّ فِي كِتَابِ اللهِ تعالَى أَو فِي سُنَّة رَسُولِهِ ﷺ أَو بيْنَهُما تَنَاقُضًا**». الفَرقُ بَيْنَ قَولِنا: «**فِي كِتَابِ اللهِ، أَو فِي سُنَّة رَسُولِهِ ﷺ**»، وقَولِنا: «**أَوْ بينَهُما**» ظَاهِرٌ، فقَولُهُ: «**فِي كِتَابِ اللهِ**» يَعْني بَعْضَهُ مَعَ بَعْضٍ، وقَوْلُهُ: «**في سُنَّة رَسُولِ اللهِ ﷺ**» يَعْنِي بَعْضُها مَعَ بَعْضٍ، قَوْلُهُ: «**بينَهُما**» يَعْني بَيْنَ الكِتَابِ والسُّنَّة.

[٢] قَوْلُهُ: «**فذَلِكَ لسُوءِ قَصْدِهِ، وزَيْغِ قَلْبِهِ، فَلْيَتُبْ إِلَى اللهِ تَعَالَى، وَلْيَنْزِعْ عَنْ غَيِّهِ**» فأيُّ إِنْسَان يَقُول: إنَّ القُرْآن مُتناقِضٌ فإِنَّه سَيِّئُ القَصْدِ، وزَائِغُ القَلْبِ -والعِيَاذُ باللهِ-، وأيُّ إِنْسَان يَقُول فِي السُّنَّةِ الثَّابتَةِ عَنِ الرَّسُولِ ﷺ: إنَّ فِيهَا تناقُضًا فهُوَ سَيِّئُ القَصْدِ زَائِغُ القَلْبِ؛ لأَنَّه مَا أَرادَ بذَلِك إِلَّا أنْ يَصْرِفَ النَّاس عَن كتَابِ اللهِ وسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ، فهُوَ سَيِّئُ القَصْدِ وزَائِغُ القَلْبِ.

ودَلِيلُ هَذَا قَولُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين:١٠-١٤]. وإِلَّا فمَنْ قلبُهُ صَافٍ فلَا يُمْكِن أنْ يَدَّعِيَ أنَّ فِي القُرْآن أَو فِي السُّنَّةِ تَنَاقُضًا، أَو بينَهُما تَنَاقُضًا.

وَمِنْ أمثِلَةِ مَنْ يَدَّعِي التَّنَاقُضَ فِي القُرْآن قولُـهُم: إِنَّ القُرْآنَ يَقُولُ: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:٢٣]. ففِي هَذِه الآيَةِ أنْكَرُوا أَنَّهُم مُشرِكُون، وأقسَمُوا عَلَى ذَلِك، لَكِن فِي آيَةٍ أُخرَى يَقُولُ تعالَى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء:٤٢].

يَعْنِي: ويَومَئِذٍ لَا يكْتُمُونَ اللهَ حدِيثًا، فكَيْف الجَمْعُ بَيْنَ هَاتَينِ الآيَتَينِ، فآيَةٌ يَقُول اللهُ فِيهَا: إنَّهُم يُنكِرُون أنْ يُشرِكُوا، وآيَةٌ يَقُولُ اللهُ فِيها: إنَّهُم لَا يَكتُمُونَ اللهَ؟

نَقُول: نعَمْ، هَذا ظَاهرُهُمَا التَّعارُض، لَكِنَّ الجَمْعَ أنْ نَقُول: إنَّ لهُمْ حَالَينِ:

الحَالُ الأُولَى: أنَّهم يُنكرُون فِيهَا الشِّركَ، لعَلَّهُم يَسْلَمُون.

الحَالُ الثَّانيَةُ: أنَّهم يُقرُّونَ؛ لأنَّهَا تَشهَدُ علَيْهِم ألسِنَتُهُم وأيدِيهِمْ وأرجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكسِبُون، وهَذَا مُمكِنٌ؛ لأنَّ يَوْمَ القِيامَة مُدَّتُه خمسُونَ ألْفَ سَنَةٍ، تتغيَّرُ فِيهَا الأحْوَالُ.

مثَالٌ آخرُ: يَقُولُ اللهُ تعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [البقرة:١-٢]. ويَقُولُ اللهُ تعَالَى فِي آيَةٍ أُخرَى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة:١٨٥]. فمَرَّةً يَقُولُ للمُتَّقِينَ، ومرَّةً يَقُول للنَّاسِ، هَذَا تَنَاقُضٌ!!

نَقُول: لَيْسَ فِيهِ تناقُضٌ؛ لأنَّ قَوْلَهُ: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ يَعْني هِدَايَة الدَّلالَةِ والتَّوفِيقِ والانْتِفَاعِ، وقَوْلُهُ: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ هدَايَة الدَّلالَةِ فقَطْ، فالقُرآنُ يَهدِي كُلَّ أَحدٍ، ويُبيِّنُ لكُلِّ أَحدٍ، لَكِن الَّذِي يَنْتَفِعُ بِهِ همُ المُتَّقُونَ، وهَكَذا كَثِير مِنَ الآيَاتِ علَى هَذَا الوَجْه، ويُمكِنُ الجَمْعُ بينَهُما، لَكِن الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ يَأتِي بهَذَا للتَّشكِيكِ.

وقَدْ أَلَّفَ الشَّيْخُ مُحَمَّد الأَمِين الشّنقِيطِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ صَاحِبُ (أَضْوَاء البَيَانِ) رِسَالَةً سَمَّاهَا (دَفْع إيهَامِ الاضْطِرَابِ عَنْ آيِ الكِتَابِ) ذَكَرَ فِيهِ مَا بَلَغَهُ علْمُهُ مِنَ الْآيَاتِ الَّتِي ظَاهِرُهَا التَّناقُضُ، وجَمَعَ بينَهَا، فليُرجَعْ إِلَيْهِ فإنَّه مُفيدٌ.

وَمَنْ تَوَهَّمَ التَّنَاقُضَ فِي كِتَابِ اللهِ تَعَالَى أَوْ فِي سُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ أَوْ بَيْنَهُمَا، فَذَلِكَ إِمَّا لِقِلَّةِ عِلْمِهِ[١]، أَوْ قُصُورِ فَهْمِهِ[٢]، ....

---

[١] قَوْلُهُ: «وَمَنْ تَوهَّمَ التَّناقُضَ فِي كِتَابِ اللهِ، أَوْ فِي سُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ أَو بينَهُمَا، فذَلِكَ إِمَّا لِقِلَّةِ عِلْمِهِ» يَعْني أنَّ عِلْمَهُ قَليلٌ، لَمْ يُراجِعْ ولَمْ يُدرِكِ العِلْمَ، وَمَنْ كَانَ عِلْمُهُ قَلِيلًا فنادِ عَلَيه بالجَهْلِ!.

[٢] قَوْلُهُ: «أَوْ قُصُورِ فَهمِهِ» يَعْني أنَّ عِلْمَهُ وَاسِعٌ، لكنَّه قَاصِرُ الفَهْمِ، والنَّاس يختَلِفُون فِي فَهْمِ كتَابِ اللهِ وسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ اختِلَافًا عظِيمًا، فمِنَ النَّاس مَنْ يفْهَمُ مِنْ آيَةٍ واحِدَةٍ عشْرَ مَسَائِلَ، وآخَرُ لَا يفهَمُ مِنْها إِلَّا مَسْأَلَةً واحِدةً؛ ولهَذا لـمَّا قَالَ أَبُو جُحيفَةَ لعَليِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هَلْ عَهِدَ إِلَيْكُمُ النَّبِيُّ ﷺ بشَيْءٍ؟ قَالَ: «لَا، والَّذِي فَلَقَ الحَبَّةَ، وبَرَأَ النَّسمَةَ إِلَّا فَهْمًا يُؤتِيهِ اللهُ تعَالَى فِي كتابِهِ» فقَالَ «إِلَّا فَهْمًا».

فالنَّاس يختَلِفُون اختِلَافًا عظِيمًا فِي الفَهْمِ، فمَثَلًا: انظُرْ إِلَى هَذَا الفَهْمِ الدَّقِيقِ أنَّ أَقَلَّ الحَمْلِ الَّذِي يُمْكِن أن يَعِيشَ الجَنِينُ فِيهِ هُو سِتَّةُ أشهُرٍ، ولَيْسَ فِي القُرْآن ولَا فِي السُّنَّةِ، لَكِن أُخِذَ مِنْ آيتَينِ فِي كِتَابِهِ، قَالَ اللهُ تعَالَى: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف:١٥]. أَي سَنتَانِ ونِصْفٌ، وقَالَ تعَالَى: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾ [لقمان:١٥]. فإِذَا أَسْقطْنا عَامَينِ مِنْ ثَلاثِينَ شَهْرًا ستبْقَى سِتَّةُ أَشْهُرٍ، تَكُون هِيَ أَقَلَّ الحَملِ، وأَمْثَالُ هَذَا كَثِير.

ولهَذَا يُذكَرُ أنَّ بَعْضَ الحُفَّاظِ كَانَ يحْفَظُ كِتَابَ (الفُروعِ) -وهُوَ كتَابُ فِقْهٍ أَلَّفَه مُحَمَّد بنُ مُفلِحٍ أحَدُ تلَامِيذِ شَيْخ الإسلَامِ ابْنِ تيمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ، وكَانَ مِنْ أعْلَمِ النَّاس

أَوْ تَقْصِيرِهِ فِي التَّدَبُّرِ[١]، فَلْيَبْحَثْ عَنِ العِلْمِ، وَلْيَجْتَهِدْ فِي التَّدَبُّرِ، حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُ الحَقُّ[٢]، ....

بآرَاءِ شَيْخ الإسلامِ فِي الفِقْهِ، حتَّى كانَ تلميذُ شَيْخ الإسلامِ ابْنُ القَيِّمِ يَرجِعُ إِلَى مُحَمَّد بْنِ مُفلحِ صَاحِبِ (الفروع) فِيمَا يتعَلَّق بفِقْهِ شَيْخ الإسلَامِ ابْنِ تيمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ- وكَانَ أَحَدُ الطَّلَبَةِ قَد حَفِظَ الكِتَابَ مِنْ أَلِفِهِ إِلَى يَائِهِ حِفظًا تَامًّا كَمَا يَحْفَظُ الفَاتِحَةَ لَكِن لَا يَفْهَمُ شَيْئًا إِطْلاقًا، فكَانَ طُلَّابُ العِلْم يَأْتُون إِلَيْهِ لأَنَّ الكُتُبَ فِي ذَلِكَ الوَقْتِ قَليلَةٌ، يقُولُون: مَاذَا ذكَرَ صَاحِبُ (الفُروع) فِي الفَصْلِ الفُلانيِّ مَثَلًا، فيَسرُدُ عليهِمُ الفَصْلَ والبَابَ وكُلَّ شَيْءٍ، حتَّى كَانُوا يُلَقِّبُونَه -مَعَ الأَسَفِ- بـ«حِمَارِ (الفروع)»؛ لأَنَّ الحِمَارَ يحمِلُ أسْفَارًا ولَا يَفهَمُ مَعْناها، وفِي الحقِيقَةِ كَانَ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُوصَفَ بهذَا، بَلْ يَنْبَغِي أن يُوصَفَ بـ«حَافِظِ (الفُرُوع)».

وعَلَى كُلِّ حَالٍ أقُولُ: إنَّ النَّاس بَعْضهم يَكُون قَاصِرَ الفَهْمِ: يحفَظُ ولَا يفْهَمُ.

[١] قَوْلُهُ: «أَوْ تَقْصِيرِهِ فِي التَّدبُّر» قَد يَكُون الإِنْسَانُ عنْدَهُ عِلْمٌ وَاسِعٌ، وعندَهُ فَهْمٌ ثَاقِبٌ، لكنَّه لَا يتدَبَّرُ، ولَا يتَأَمَّلُ، وإِذَا جَلَسَ ينْظُرُ فِي القُرْآنِ أَوِ السُّنَّةِ ليتَدَبَّر ضَاقَ صدْرُه، ثمَّ أغْلَقَ الكِتَابَ، وهَذَا يُوجَد فِي كَثِيرٍ مِنْ طَلَبَةِ العِلْم اليَوْمَ، فتَجِدُهُ لَيْس عندَهُ جَلَدٌ للمُراجَعَةِ والتَّدبُّر، يرِيدُ علْمًا يَكُون مُبَرَّدًا، دُونَ أن يتولَّى طبْخَهُ ونُضجَهُ.

[٢] قَوْلُهُ: «فَلْيَبْحَثْ عَن العِلْم، ويجْتَهِد فِي التَّدبُّر، حتَّى يتبَيَّنَ لَهُ الحَقُّ» إذَا فعَلَ ذَلِكَ، واجتهَدَ وتَدبَّرَ ولَمْ يتبيَّنْ لَهُ الأَمْرُ، فَمَاذَا يصْنَعُ؟

فَإِنْ لَمْ يَتبيَّنْ لَهُ، فَلْيَكِلِ الأَمْرَ إِلَى عَالِـمِهِ، وَلْيَكُفَّ عَنْ تَوَهُّمِهِ، وَلْيَقُلْ كَمَا يَقُولُ الرَّاسِخُونَ فِي العِلْمِ: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران:٧]. وَلْيَعْلَمْ أَنَّ الكِتَابَ وَالسُّنَّةَ لَا تَنَاقُضَ فِيهِمَا وَلَا اخْتِلَافَ[١].

---

[١] يَقُول: «**فَإِنْ لَمْ يتبيَّنْ لَهُ فليَكِلِ الأَمْرَ إِلَى عَالِه، وليَكُفَّ عَنْ تَوهُّمِهِ، وليَقُلْ كَمَا يَقُولُ الرَّاسِخُون فِي العِلْم. قَالَ تعالَى:** ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ **وليَعْلَمْ أَنَّ الكِتابَ والسُّنَّة لَا تناقُضَ فيهِمَا، ولَا بينَهُما، ولَا اخْتِلَافَ**» فإِذَا وَصَلَ إِلَى هَذَا الحَدِّ يَقِف، ومِنْ ذَلِكَ مَا يتعلَّقُ بصفَاتِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فإِنَّ هَذَا معركٌ ضَنْكٌ، وبَابٌ ضيِّقٌ، وكثِيرٌ مِنَ الطَّلَبةِ اليَوْمَ يُريدُون أَنْ يُوسِّعُوا هَذَا البَابَ، وأَنَّى لَـهُم ذَلِكَ؟ اللَّهُمَّ إِلَّا بكَسْرِهِ، والكَسْرُ مَعْناه الهدْمُ والدَّمارُ، فبَعْضُ الطَّلَبةِ اليَومَ يتعمَّقُ فِي البَحْثِ عَنْ صِفَاتِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، ويُثبِتُ مَا لَيْس بلَازِمٍ، فمَثَلًا يَقُول: إِنَّ خُلُوفَ فَمِ الصَّائمِ أطْيَبُ عِنْد اللهِ مِنْ رِيحِ المِسْكِ، فهَلْ يلْزَمُ مِنْ ذلِكَ أَنَّ اللهَ يَشمُّ؟ وهَل يلزَمُ إِذَا كَانَ اللهُ يَشمُّ أَنْ يَكُون لَهُ أَنفٌ؛ لأَنَّ الأَنْفَ أَداةُ الشَّمِّ!! ويَقُول -أيضًا-: للهِ أَصَابعُ كَمَا ثَبَتَ فِي الحَدِيثِ، فكَمْ عَدَدُ أَصَابع اللهِ؟ عشَرَةٌ، عِشْرُون، أَقَلُّ، أَمْ أَكثَرُ، وأَمثَالُ ذلِكَ كَثِير.

وكُلُّ هَذَا مِنَ التَّنطُّعِ المُحرَّمِ؛ لأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**هَلَكَ المُتنطِّعُونَ**»(١). قَالَ ذلِكَ تَحْذِيرًا مِنَ التَّنطُّعِ، ولأَنَّ الصَّحَابَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ أَصْفَى مِنَّا قُلوبًا، وأَغزَرُ مِنَّا عُلُومًا، وأَقْوَى مِنَّا فُهُومًا، وأَشَدُّ مِنَّا حِرْصًا، ومَعَ ذَلِكَ لَمْ يَسْأَلُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ عَن مِثْلِ ذلِكَ إِطْلَاقًا، ولـمَّا قَالَ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ لَا يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا**»(٢). هَلْ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب العلم، باب هلك المتنطعون، رقم (٢٦٧٠)، من حديث ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب التهجد، باب ما يكره من التشديد في العبادة، رقم (١١٥١)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب فضيلة العمل الدائم، رقم (٧٨٢)، من حديث عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا.

هَلِ اللهُ يَمَلُّ؟ لَا، وأيُّ إِنسان يَقُولُ ذَلِكَ نَقُولُ لَهُ: هَاتِ الدَّلِيلَ أَنَّهم قَالُوا: هَلِ اللهُ يَمَلُّ، بَل سَكَتُوا وعَرَفُوا المُرادَ، وهَكَذا يجِبُ عَلَيْنَا فِي هَذِهِ المسأَلَةِ الضَّيِّقَةِ الضَّنكِ، أَلَّا نُحاوِلَ التَّعمُّقَ فِي البَحْثِ عَنْ صفَاتِ اللهِ، بَلْ مَا جَاءَنَا قَبلْنَاهُ وكَفَى بِنَا فَخْرًا، ومَا لَمْ يَجِئ إِلَيْنا سَكَتْنَا عَنْهُ، هَذَا هُو الأَدَبُ مَعَ اللهِ ورَسُولِهِ ﷺ.

مَسْأَلة: إِنْ قَالَ قَائِل: عَرَفْنا شُيوخًا لَيسُوا بِأَقَلَّ فِي الفَهْمِ والفِقْهِ والاجْتِهَادِ فِي العِلْمِ الشَّرعيِّ مِنْ غَيرِهِم، وظَاهِرُ حَالِهِمْ تُنبِئ أَنَّهُم يقصِدُون بذَلِكَ وَجْهَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ ولَا يُرِيدُون بذَلِكَ تضْلِيلَ النَّاس، ولكِنَّهُم عَلَى غَيرِ الجَادَّةِ فِي المُعتَقَدِ وغَيرِهِ فكَيْف يُفسَّر ذَلِك، فَلَا لقُصورٍ فِي فَهمٍ ولَا عَلَى نيَّةٍ -فِيمَا يُظَنّ- تَضْلِيلٍ، ولكِنَّهُم ضَالُّونَ؟

فالجَوابُ: لَا يُمْكِن إِلَّا أَنْ يَكُون أحدَ الأُمُورِ لأَنَّهُم لَوْ صَدَقُوا اللهَ لكَانَ خَيْرًا لـهُمْ، ولَا تُفكِّرْ أَنَّ إِنسانًا يُرِيدُ الحَقَّ ويَبْحَثُ عَنِ الحَقِّ فِي مَظَانِّهِ وهُمَا الكِتَابُ والسُّنَّة ولَا يَهتَدِي إِلَيْه أبَدًا، لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ فِي قُلُوبِهِمْ شَيْء.

فإِنْ قِيلَ: لعَلَّهُ سببٌ آخَرُ وهُوَ أَنْ يَنشَؤُوا فِي مَنْشَأٍ أَو بيئَةٍ لَا يَكُونُ سَارِيًا إِلَّا ذَاكَ المُعتقَد ولَا يَعرِفُونَ غَيرَهُ، يَعْنِي مَثَلًا لَا تُوجَدُ كُتُبٌ مَثَلًا دِينيَّةٌ، وكُلُّ عُلَماءِ ذَلِكَ البَلَدِ عَلَى عَقِيدَةٍ مُعيَّنَةٍ ولَمْ يَعرِفُوا غَيْرَهَا، فهَل يُمْكِن أَنْ يَكُون سَبَبًا ويُعذَرُون بكَونِهِمْ لَمْ يَنْتَهِ إِلَيْهِمْ عِلْمُ هَذَا؟

الجَوابُ: هَذا من ناحِيَةِ الحُكْم عَلَيْهِم فِي الآخِرَةِ لَا شَكَّ أَنَّهُم يُعذَرُون، فكُلُّ إِنْسَانٍ لَمْ تبلُغْهُ الرِّسالَةُ كُلِيَّةً أَو جُزئيَّةً فإِنَّهُ يُعذَرُ عِنْد اللهِ عَزَّوَجَلَّ، لَكِن بشَرْط أَنْ يعلَمَ اللهُ تعَالَى مِنْ نِيَّتِهِ أَنَّه لَوْ عَلِمَ بالحَقِّ لاتَّبَعَهُ.

وخُلاصَةُ مَا سَبَقَ: أَنَّ القُرْآنَ لَا يُمكِنُ أَنْ يَكُون فِيه تَنَاقُضٌ، واستَدْلَلْنا ذَلِكَ بقَوْلِهِ تعَالَى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ فقَولُهُ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ﴾ تُشِير إِلَى أَنَّه قَد يَكُونُ فِي القُرْآن مَا ظَاهِرُه التَّعارُضُ، فيَحتَاجُ إِلَى تَدبُّر وتَأمُّل، حَتَّى يَتبيَّنَ أَنَّه لَا اخْتِلَافَ فِيهِ، ولَا تَنَاقُضَ.

وَسَبَقَ -أيضًا- أَنَّه لَا تَنَاقُضَ فِي السُّنَّةِ الصَّحيحَةِ، الوَارِدَةِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ؛ لأَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ مَعْصُومٌ مِنَ الكَذِبِ، وكَلامُهُ مِنَ التَّناقُض، كَذلِكَ سبَقَ لنَا: أَنَّه لَا تنَاقُض بيْنَ مَا جَاءَ فِي القُرْآن، ومَا صَحَّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ؛ لأَنَّ الكُلَّ مِنْ عِنْد اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وسبَقَ لنَا: أَنَّ مَن ادَّعَى التنَاقُض فهُو كاذِبٌ، وأَنَّ مَنْ ظَنَّ التَّناقُضَ فذَلِكَ لِقِلَّةِ علْمِهِ وسُوءِ قَصْدِهِ.

بقِيَ أَنْ يُقالَ: هَل يُمكِنُ أَنْ يَكُونَ هُنَاكَ تناقُضٌ بيْنَ مَا جاءَت بِه الشَّرِيعَةُ وبيْنَ الأَمْر المحسُوسِ؟

الجَوابُ: لَا، لَا يُمْكِن أَبدًا أن يَكُونَ القُرْآنُ أَوِ السُّنَّةُ يدُلَّان عَلَى شَيْء مُخَالِفٍ للمَحسُوسِ إطْلاقًا.

فمَثَلًا: لَو قَالَ قَائِل: إنَّ القُرْآن يدلُّ علَى أنَّ الأَرْض غَيْرُ كُرويَّةٍ؛ لقَوْلِهِ تعَالَى: ﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية:٢٠]. مَعَ أَنَّ الوَاقِعَ يشْهَدُ بأَنَّها كُرويَّةٌ، فَماذَا نعْمَلُ؟ أنُصدِّقُ ظَاهِرَ القُرْآن، أَم نُصدِّقُ الوَاقِعَ؟ نَقُول: لَا تناقُضَ أصْلًا حتَّى نُصدِّقَ هَذَا علَى هَذَا؛ لأَنَّ قَوْلَهُ تعَالَى: ﴿كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ يَعْنِي: لكِبَرِهَا واتِّساعِها كأَنَّها سَطْحٌ، وإِلَّا فهِيَ لَا شَكَّ إنَّها مُدوَّرَةٌ، وهُوَ أَمْرٌ لَا يُمْكِن أن يَختَلِفَ فِيهِ اثْنَانِ.

وكَذلِك أيضًا: لَو قَالَ لنَا قَائِل: إنَّ المطَرَ ينْزِلُ مِنَ السَّماءِ إِلَى السَّحابِ -يَعْنِي يَصبُّ أوَّلًا مِنَ السَّماء إلَى السَّحابِ- ثمَّ يُمطِرُ؛ لأنَّ اللهَ تعَالَى يَقُول: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ [المؤمنون:١٨]. ويَقُولُ تعَالَى: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ﴾ [القمر:١١]. مَع أنَّ الوَاقِعَ يُخَالِفُ ذَلِكَ، فالإِنْسَانُ فِي الطَّائرَةِ فَوْقَ السَّحابِ، والسَّحابُ تحتَهُ ممطِرٌ، وهُو لَا يَرَى أنَّ المَاءَ ينزِلُ عَلَى السَّحابِ، ثُمَّ يُخرِجُه السَّحابُ رذَاذًا، قُلْنا: لَا تناقُضَ؛ لأنَّ المُرادَ بالسَّماءِ العُلُوُّ، فأنْزَلَ مِنَ السَّماء أَي: مِنَ العُلُوِّ، وعلَى هَذَا فَقِسْ، إِذَنْ: هَذِه قاعِدَةٌ تُضافُ إِلَى القَاعِدَةِ السَّابقَةِ، وهُو أنَّه لَا تناقُض بيْنَ المعْلُوم حِسًّا والمَعلُومِ شَرْعًا أبَدًا.

وهَل يُمْكِن أن يتَنَاقَضَ المَعلُومُ شَرْعًا بالمعْلُومِ عقْلًا؟

الجَوَابُ: لا بُدَّ أن نُقيِّدَ: لأَنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَرَى المَوهُومَ معقُولًا، كَما فعَلَ أَهْل التَّعطِيلِ فِي صِفَاتِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وفِي اليَوْم الآخِرِ؛ فقَالُوا: مَا وردَ مِنَ القُرْآن فِي صفَاتِ اللهِ، فإِنَّ ظَاهِرَهُ التَّمْثِيل، فيَجِبُ أنْ «نُؤوِّلَه» عَلَى قولِهِمْ؛ والصَّحِيحُ: «أنَّهم حَرَّفُوه».

فإِذَنِ: العَقْلُ لـمَّا كَانَ أمرًا لَا يُدرَك بالمشاهَدَةِ والنَّظَرِ، فإِنَّنا لَا يُمْكِن أن نَقُول بانْتِفَاءِ ذَلِكَ؛ لأنَّ العَقْلَ قَد يَكُون عقْلًا سَقِيمًا وهمِيًّا، فَما هِيَ إِلَّا ظُنُونٌ وأوهَامٌ يَظنُّها صاحِبُها عُقُولًا.

فعِنْدَنا -ولله الحمد- خَمْسُ قَواعِدَ مُهمَّةٌ جِدًّا:

الأُولَى: أنَّ القُرْآنَ لَا يُناقِضُ بَعْضُه بعْضًا.

الثَّانيَةُ: أنَّ السُّنَّةَ لَا يُناقِضُ بَعْضُها بعْضًا؛ والمُرادُ بـ«السُّنَّة»: الَّتِي ثَبَتَتْ عَنِ الرَّسُولِ ﷺ.

الثَّالثَةُ: أنَّ القُرْآنَ والسُّنَّة لَا تَناقُضَ بينَهُما.

الرَّابعَةُ: أنَّ الأدلَّةَ السَّمعيَّةَ لَا تُعارِضُ الأدِلَّةَ الحِسِّيَّة.

الخَامسَةُ: أنَّ الأدِلَّةَ الشَّرْعيَّة لَا تُناقِضُ الأدِلَّةَ العقْليَّةَ الصَّريحَةَ.

وقَدْ أَلَّفَ شَيْخُ الإِسْلامِ ابْنُ تيمِيَّةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ كتَابًا يُسمَّى (مَوافقَة صَحِيحِ المنقُولِ لصرِيحِ المَعقُولِ)، فَلَا تَنَاقُضَ بَيْنَ مَا صَحَّ بِه النَّقلُ، ومَا كَانَ فِيهِ العَقْلُ صَرِيحًا.



فَصْلٌ

وَنُؤْمِنُ بِمَلَائِكَةِ اللهِ تَعَالَى وَأَنَّهُمْ: ﴿عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ۝٢٦ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾[1] [الأنبياء:٢٦-٢٧].

---

[١] الإِيمَانُ بالمَلائِكة هُوَ الرُّكنُ الثَّاني مِنْ أركَانِ الإِيمَانِ، حَسَبَ تَرتِيبِ النَّبِيِّ ﷺ حِينَ قَالَ لِجبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «الإِيمَانُ أَنْ تُؤمِنَ بِاللهِ ومَلَائِكَتِهِ...»(١).

والمَلائِكَةُ عَالَـمٌ غَيبِيٌّ -هَذَا الأَصْلُ فِيهِمْ- فلَا نُشاهِدُهُم، وأعطَاهُمُ اللهُ تعَالَى قوَّةً عظِيمَةً وسُرعَةً بَالغَةً وجَلَدًا لَا يَملُّون مَعَهُ العِبَادَةَ: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾.

قَوْلُهُ: «ونُؤمِنُ بمَلائِكَةِ اللهِ وأَنَّهُم: ﴿عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ۝٢٦ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾» يقُولُ: «بمَلَائِكَةِ اللهِ» أضَافَ المُؤلِّفُ المَلائِكَةَ إِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، لوُرودِ إِضَافَةِ اللهِ المَلائِكَةَ إِلَى نَفْسِهِ فِي قَوْلِهِ تعَالَى: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام:٦١].

وقَوْلُهُ: ﴿عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ والمُكرِمُ لـهُمْ هُوَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ، وقَدْ يُكرِمُهُم غَيْرُ اللهِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تعَالَى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ [الذاريات:٢٤]. فالمَلائِكَةُ هُنَا أكرَمَهُم إبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لأَنَّهُم جَاؤُوا فِي صُورَةِ البَشَرِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان، رقم (٥٠)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان، رقم (٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

خَلَقَهُمُ اللهُ تَعَالَى مِنْ نُورٍ[١] ....

﴿لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ﴾ يَعْنِي: أَنَّهُم لَا يَتَقَدَّمُون بَيْنَ يَدَيْهِ، فيَقُولُونَ مَا لَا يَقُولُ، ولَا بالفِعْلِ أَيْضًا، ولهذَا قَالَ: ﴿وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ﴾، فقَوْلُهُ: ﴿بِأَمۡرِهِۦ﴾: البَاءُ للسَّببيَّةِ، وكَذلِكَ -أيضًا- للمُصَاحَبَةِ، أَي يَعمَلُون عَمَلًا عَلَى حَسَبِ مَا أَمَرهُمْ بِهِ، ويَعملُون عَمَلًا بِسَبَبِ أَمْرِهِ فيُبادِرُونَ بالعَمَلِ.

[١] قَوْلُهُ: «**خَلَقَهُمُ اللهُ تَعَالَى مِنْ نُورٍ**» كَمَا صَحَّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «**أَنَّهُم خُلِقُوا مِنْ نُورٍ**»(١).

فإِنْ قَالَ قَائِل: كَيْفَ يُخلَقُون مِنْ نُورٍ وهُمْ أَجْسَامٌ؟

فالجَوَابُ على ذلِكَ مِنْ وَجْهَينِ:

أَوَّلًا: أَنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاس يَقُولُ: إِنَّ النُّورَ جِسْمٌ.

ثانيًا: أَنْ نَقُول: إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، فهُو قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِمَّا لَيْس بجِسْمٍ جِسْمًا، كَمَا أَنَّه قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُحوِّلَ مَا لَيْس جِسْمًا جِسْمًا. أَرَأَيتُمُ الموتَ فإِنَّه يُؤتَى بِهِ يَوْم القِيامَة في صُورَةِ كَبْشٍ، ويُنادَى أَهْلُ النَّارِ، وأَهْلُ الجنَّة: هَل تَعرِفُونَ هَذَا؟ فيَقُولون: نَعَمْ، فيُذبَحُ بَيْنَ الجنَّةِ والنَّارِ، فهُنَا جَعَلَ اللهُ تعالَى المَوْتَ -وهُوَ أَمْرٌ معنَويٌّ- جِسْمًا، واللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، بَلِ الأَعْمَالُ الصَّالحَةُ -عَلَى القَوْلِ: بأَنَّ الَّذِي يُوزَنُ هُوَ العَمَلُ، وهُوَ الصَّحِيحُ- تُجعَلُ يَوْمَ القِيامَة أجسَامًا، وتُوزَنُ، وعَلَى المُسلِمِ إِذَا أَخبَرَ اللهُ تعالى ورَسُولُه ﷺ بشَيْءٍ أَنْ يُؤمِنَ، بِدُونِ تَشكِيكٍ وَلَا تَشكُّكٍ، وبـدُونِ «كَيْف»، وبدُونِ «لِـمَ»، فَـلَا تسْأَلْ عَنْ «كيْف»؛ لأَنَّ قُـدرَةَ اللهِ تعالَى فَـوْق

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزهد، باب في أحاديث متفرقة، رقم (٢٩٩٦)، من حديث عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

فَقَامُوا بِعِبَادَتِهِ وَانْقَادُوا لِطَاعَتِهِ[١]، ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾[٢] [الأنبياء:١٩-٢٠]. حَجَبَهُمُ اللهُ عَنَّا فَلَا نَرَاهُمْ[٣]،

عَقْلِكَ، ولَا «لِـمَ»؛ لأنَّ حِكْمَةَ اللهِ فَوْقَ إدراكِكَ، بَلْ علَيْك أن تُسلِّمَ، وتَقُول: صَدَقَ اللهُ ورسُولُه صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

[١] قَوْلُه: «فقَامُـوا بِعِبَادَتِـهِ، وانْقَـادُوا لطَاعَتِهِ» قَامُـوا بأجْسَامِهِمْ بالعِبَادَةِ، وانْقَادُوا فلَمْ يَكُن مِنْهم اسْتِكْبَارٌ، كَما قَالَ تعَالَى: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ يَعْني: لَا يستكبِرُون فيتْرُكُون، ولَا يستحْسِرُون فينْقُصُون.

[٢] قَوْلُهُ: «﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾» اللهُ أكبَرُ! ﴿ٱلَّيْلَ﴾ هُنَا ظَرْفُ زَمَانٍ، ﴿وَٱلنَّهَارَ﴾ معطُوفٌ عَلَيْه، فلَمْ يَقُل: يُسبِّحُونَ فِي اللَّيلِ، بَل قالَ: يُسبِّحُون اللَّيلَ والنَّهارَ، إِذَن: تَسبِيحُهم مُستَمرٌّ فِي كُلِّ آنٍ ولحْظَةٍ، ولَو كَانَ التَّسبِيحُ فِي بَعْض الآنَاتِ لقَالَ: «في اللَّيلِ والنَّهارِ» إِذَن: هُمْ يُلهمُون التَّسبيحَ كَما نُلهَمُ نحنُ النَّفسَ دائمًا بِدُونِ تُكلُّفٍ، وهُمْ كَذلِك: يُسبِّحُونَ اللَّيلَ والنَّهارَ لَا يَفتُرُونَ.

[٣] قَوْلُهُ: «حَجَبَهُمُ اللهُ عَنَّا، فَلَا نَرَاهُمْ»: والحِكمَةُ مِنْ ذلِكَ مِنْ وَجْهَينِ:

الوَجْهُ الأَوَّلُ: أن يَكُونَ إيمَانُنا بِهِمْ إيمَانًا بالغيْبِ، والإِيمانُ بالغَيْبِ هُو الَّذِي يُمدَح عَلَيه الإِنْسَانُ، وهُو الَّذِي ينفَعُ الإِنْسانَ.

أمَّا الإِيمانُ بالمُشاهَدَةِ فَلَا يُحمَدُ عَلَيه الإِنْسَانُ، ولَا ينْتَفِعُ بِه ذَلِكَ الانتِفَاعَ، ولهذَا إِذَا حضَرَ المَوتُ وآمَنَ الإِنْسَانُ بعْدَ حُضُورِ المَوْتِ لَا ينفَعُهُ الإِيمانُ لأنَّه الْآنَ مُشاهَدٌ.

الوَجْهُ الثَّانِي: لئَلَّا ننزَعِجَ لَو كُنَّا نَرى المَلائِكة معَنَا، عَنِ اليَمِينِ وعَنِ الشِّمالِ قَعِيدٌ، ويحضُرُونَ الـدُّروسَ، ويَجْلِسُـون عَلَى أبْوَابِ المسَاجِدِ يَـوْم الجُمُعَةِ، يَكتُبُـونَ

وَرُبَّمَا كَشَفَهُمْ لِبَعْضِ عِبَادِهِ فَقَدْ رَأَى النَّبِيُّ ﷺ جِبْرِيلَ عَلَى صُورَتِهِ لَهُ سِتُّ مِئَةِ جَنَاحٍ قَدْ سَدَّ الأُفُقَ[١]. وَتَمَثَّلَ جِبْرِيلُ لِمَرْيَمَ بَشَرًا سَوِيًّا[٢]،.........................

الأَوَّلَ فالأَوَّلَ، ومَا أَشبَه ذلِكَ، لرُبَّما كَانَ مِنْ هَذَا قَلَقٌ وانْزِعَاجٌ، لاسِيَّما مِنْ صِغَارِ العُقُولِ؛ لهَذَا كَانَ مِنَ الحِكْمةِ أنْ يَحْجُبَهُمُ اللهُ عَنَّا.

[١] قَوْلُهُ: «**وَرُبَّمَا كَشَفَهُمْ لبَعْضِ عِبَادِهِ، فَقَدْ رَأَى النَّبِيُّ ﷺ جبرِيلَ عَلَى صُورَتِهِ، لَهُ سِتُّ مِئَةِ جَنَاحٍ، قَدْ سَدَّ الأُفُقَ**» «رُبَّمَا» هذِهِ للتَّقليلِ، «سِتَّ مئَةِ جَناحٍ»(١) لِـمَلَكٍ وَاحِدٍ، «قَدْ سَدَّ الأُفُقَ كُلَّه»(٢) حَتَّى كَانَ الرَّسُولُ ﷺ فِي غَارِ حِرَاء لـمَّا رَآهُ لَا يَرَى السَّماءَ إطْلاقًا، يَعْني قَد انْحجبَتِ السَّماء عَن رَسُولِ اللهِ ﷺ بما شَاهَدَه مِنْ جِبرِيلَ، ويحْتَمِلُ أنْ يَكُون قَدْ سَدَّ الأُفُقَ، يَعْنِي الأُفُق الشَّرقيَّ، أَوِ الغَربِيَّ، أَو الشَّماليَّ، أَوِ الجَنوبِيَّ، لَكِنَّ الظَّاهرَ الأَوَّلُ.

فإنْ قَالَ قَائِل: كَشْفُ المَلائِكةِ لبَعْضِ عِبادِ اللهِ؛ هَلْ هَذَا الأَمْرُ مَا زَالَ سَارِيًا أَمْ هُو خَاصٌّ بزَمَنِ النُّبوَّةِ؟

فالجَوابُ: الظَّاهرُ أَنَّه قَد يُكشَفُ لسَبَبٍ، مِثْلَ مَا لَوْ ضَاعَ أَحَدٌ مِنَ النَّاس فأَكْرَمَهُ اللهُ تعَالَى بالمَلَكِ يَدلُّه، فَهَذَا قَدْ يكُونُ.

[٢] قَوْلُهُ: «**وَتَمَثَّلَ جَبْرِيلُ لمَريمَ بَشَرًا سَوِيًّا**» أَي تَامًّا، تَامُّ البَشريَّةِ، كأَنَّه إِنْسانٌ تَامٌّ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم: آمين، رقم (٣٢٣٢)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب في ذكر سدرة المنتهى، رقم (١٧٤)، من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم: آمين، رقم (٣٢٣٥)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب معنى قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾، رقم (١٧٧)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

فَخَاطَبَتْهُ وَخَاطَبَهَا[١]، وَأَتَى إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَعِنْدَهُ الصَّحَابَةُ بِصُورَةِ رَجُلٍ لَا يُعْرَفُ وَلَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، شَدِيدِ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدِ سَوَادِ الشَّعْرِ، فَجَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَي النَّبِيِّ ﷺ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ، وَخَاطَبَ النَّبِيَّ ﷺ، وَخَاطَبَهُ النَّبِيُّ ﷺ، وَأَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَصْحَابَهُ أَنَّهُ جِبْرِيلُ[٢].

---

[١] قَوْلُهُ: «**فَخَاطَبَتْهُ وَخَاطَبَهَا**» كَمَا قَالَ تعالَى: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾ [مريم:١٧-١٩]. ﴿لِأَهَبَ﴾ أُعطِيَكِ بِدُونِ ممازَجَةٍ وبدُونِ مُخالطَةٍ، فهُنَا صَارَ خِطَابٌ بَيْنَ جِبريلَ ومَرْيمَ، وشَاهَدَتْهُ وكَأَنَّهُ بَشَرٌ.

[٢] قَوْلُهُ: «**وَأَتَى إِلَى النَّبِيِّ ﷺ -وعنْدَهُ الصَّحابَةُ- بِصُورَةِ رَجُلٍ لَا يُعرَفُ، ولَا يُرَى عَلَيه أَثَرُ السَّفرِ، شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعْرِ، فَجَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَأَسْنَدَ رُكبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَي النَّبِيِّ ﷺ، وَوَضَعَ كَفَّيهِ عَلَى فَخِذَيهِ، وَخاطَبَ النَّبِيَّ ﷺ وَخَاطَبَهُ النَّبِيُّ وأَخبَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَصْحَابَهُ بأَنَّه جِبرِيلُ**» كَمَا فِي حَدِيثِ عُمرَ ابْنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهُو مَشْهورٌ، معرُوفٌ(١).

فإِنْ قَالَ قَائِل: كَيْفَ نُوفِّق بَيْنَ كَوْنِ المَلائِكةِ يَظهَرُون لبعْضِ النَّاس، وبَيْنَ قَولِنا: «إِنَّهُم مِنْ عَالمِ الغَيْبِ»؟

فالجَوابُ: الأشيَاءُ النَّادرَةُ لَا تخرِمُ القَواعِدَ الثَّابتَةَ، فالأَصْلُ أَنَّهم لَا يظْهَرُون، وهُمْ مِنْ عَالَمِ الغَيْبِ، وكَذَلِكَ الجِنُّ الأَصْلُ أَنَّهم مِنْ عَالمِ الغَيْبِ، ومَعَ ذَلِكَ قَد يُشاهَدُون. فالأَشْيَاءُ النَّادرَةُ لَا حُكْمَ لَـهَا.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام، رقم (٨).

وَنُؤْمِنُ بِأَنَّ لِلْمَلَائِكَةِ أَعْمالًا كُلِّفُوا بِهَا[١].

فَمِنْهُمْ جِبْرِيلُ: الْمُوَكَّلُ بِالوَحْيِ، يَنْزِلُ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ أَنْبِيائِهِ وَرُسُلِهِ[٢].

وَمِنْهُمْ مِيكَائِيلُ: الْمُوَكَّلُ بِالْمَطَرِ وَالنَّبَاتِ[٣].

---

[١] قَوْلُهُ: «**وَنُؤْمِنُ بأَنَّ للمَلائِكَةِ أعْمالًا كُلِّفُوا بِهَا**» الأوَّلُ: إيمانٌ بوُجودِهِمْ، وكَيْفِيَّة أجسَامِهِمْ، الثَّانِي: أعْمالهم.

[٢] قَوْلُهُ: «**فَمِنْهُمْ جِبْرِيلُ المُوكَّلُ بالوَحْيِ، يَنْزِلُ به مِنْ عِنْدَ اللهِ، عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ أَنْبِيائِهِ وَرُسُلِهِ**» وبناءً عَلَى ذلِكَ: فإنَّ جِبْرِيلَ أفضَلُ الرُّسُلِ؛ لأَنَّ اللهَ تعالَى خَصَّهُ بالوَحْيِ، الَّذِي هُوَ إبْلاغُ الشَّرائِعِ إلَى الخَلْقِ، وشرَفُ العَمَلِ يَدُلُّ عَلَى شَرْفِ العَامِلِ.

[٣] قَوْلُهُ: «**ومِنْهُم مِيكَائِيلُ، المُوَكَّل بالمَطَرِ والنَّبَاتِ**» فالمُوكَّلُ بالمَطَرِ فِي أَيِّ مَكَانٍ مِنَ الأَرْضِ، وبالنَّبَاتِ فِي أَيِّ مكانٍ مِنَ الأَرْض هُو مَلَكٌ وَاحِدٌ، لَكِنَّ قُدرَةَ المَلائِكَةِ لَا تُنسَبُ إلَيْهَا قُدرَة النَّاس، بَلْ ولَا الجِنُّ، فالمَلَكُ أقْوَى مِنَ الجِنِّ، وأقْدَرُ، فَفِي قِصَّةِ سُليمانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَالَ تعالَى: ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ [النمل:٣٨]. وكَانَ لَهُ وَقْتٌ مُحَدَّدٌ يقُوم فِيهِ: ﴿قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ فالَّذِي عِنْدَه عِلْمٌ مِنَ الكِتَابِ قَالَ العُلَماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ: إنَّه دَعَا اللهَ باسْمِهِ الأعْظَمِ، فحملَتِ المَلائِكَةُ عَرْشَ بَلْقِيس إلَى أنِ أستقَرَّ عِنْدَ سُليمانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فهَذا أبْلَغُ مِنَ الأَوَّل بِلَا شَكٍّ، يَقُولُ: ﴿فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي﴾ ﴿فَلَمَّا﴾ الفَاءُ تَدلُّ عَلَى التَّرتيبِ والتَّعقِيبِ.

وَمِنْهُمْ إِسْرَافِيلُ: المُوَكَّلُ بِالنَّفْخِ فِي الصُّورِ حِينَ الصَّعْقِ وَالنُّشُورِ[١].

وقَوْلُهُ: ﴿مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ﴾ أَوْرَدَ بَعْض النُّحاةِ إِشْكَالًا عَلَى هَذَا، وهُوَ: أَنَّ المعرُوفَ أَنَّ الظَّرفَ والجَارَّ والمَجرُورَ يَكُون عَامِلُهما محذُوفًا، تَقُولُ: زَيدٌ فِي البَيْتِ، أَيْ: مُستقِرٌّ فِي البَيْتِ، ولَا يصِحُّ أَنْ تَقُول مُستقِرٌّ فِي البَيْتِ، وهُنَا قَالَ: ﴿مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ﴾.

وأَجَابُوا عَنْ ذَلِكَ: بأَنَّ الاستِقْرَارَ نوعَانِ: استِقْرَارٌ عَامٌّ وهُو مُتعلَّقُ الظَّرفِ، والجَارِّ والمَجرُورِ، وهَذَا لَا يُذكَرُ، واستقرَارٌ خَاصٌّ، وهَذَا لا بُدَّ مِن ذِكرِهِ، فيَكُونَ ﴿مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ﴾ يَعْنِي رَآهُ، وكَأَنَّهُ بَقِيَ فِي هَذَا المكَانِ مُدَّةً، حَتَّى صَارَ مُستقرًّا فِي هَذَا المَكَانِ، ولَيْسَ المُرادُ بذَلِكَ الاستِقرَارَ العَامَّ؛ لأَنَّه لَو كَانَ كَذلِكَ مَا ذُكِرَ المُتعلَّق.

[١] قَوْلُهُ: «وَمِنْهُم إسرَافِيلُ المُوكَّلُ بالنَّفْخِ فِي الصُّورِ، حِينَ الصَّعقِ والنُّشورِ» إسرَافِيلُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هَذَا المَلَكُ مُوكَّلٌ بالنَّفخِ فِي الصُّورِ، وكَّلَهُ اللهُ تعالَى بالنَّفخِ فِيهِ.

و«الصُّورُ» قَالَ العُلَماءُ فِي وَصْفِهِ: إنَّه قَرْنٌ عَظِيمٌ وَاسِعٌ، سِعَتُهُ مَا بَيْنَ السَّماءِ والأَرْضِ، يُنفَخُ فِيهِ، وإِذَا كَانَ النَّافِخُ ملكًا -والمَلَكُ قَوِيٌّ- والمَنْفُوخُ فِيهِ قَرْنًا وَاسِعًا -سعَةَ السَّماءِ والأَرْضِ-؛ فإِنَّ صَوتَهُ سيَكُونُ شَدِيدًا، ولهَذَا يَفزَعُ النَّاس، ويَصْعَقُون، يَعْنِي: يَمُوتُون مِنْ شِدَّةِ مَا سَمِعُوا، ثُمَّ يَنفُخُ فِيهِ أُخرَى فإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ.

ولهَذَا قَالَ: «حِينَ الصَّعْقِ»، وهِيَ وَاحِدَةٌ، «والنُّشُورِ» هَذِهِ الثَّانيَةُ؛ ولهَذَا كَانَ الرَّاجِحُ أَنَّ النَّفخَ فِي الصُّورِ اثْنَتَانِ: نفخَةُ الصَّعقِ، وهِيَ نَفْخَةُ الفَزَعِ؛ لَكِنْ يَفزَعُونَ أَوَّلًا ثُمَّ يَصْعَقُون؛ ونفخَةُ البَعْثِ.

وَمِنْهُمْ مَلَكُ المَوْتِ: المُوَكَّلُ بِقَبْضِ الأَرْوَاحِ عِنْدَ المَوْتِ[١].

وَمِنْهُمْ مَلَكُ الجِبَالِ: المُوَكَّلُ بِهَا[٢].

فائِدَةٌ: إِسرَافِيلُ وَرَدَ أَنَّه مِنْ حَمَلَةِ العَرْشِ(١)، أَمَّا جِبرِيلُ وميكَائِيلُ فلَمْ يَرِدْ.

[١] قَوْلُهُ: «ومِنْهُم مَلَكُ المَوْتِ، المُوكَّلُ بقَبْضِ الأَرْوَاحِ عِنْدَ المَوْتِ» ويدُلُّ لهٰذَا قَولُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة:١١].

ووَرَدَ فِي بَعْضِ الإسرَائيليَّاتِ أنَّ اسمَهُ عزرائيلُ، ولَيْس كَذلِكَ، ولهٰذَا لَا يَحِلُّ لنَا أنْ نُسمِّيَهُ عزرائيل؛ لعَدَمِ ثُبُوتِ ذَلِكَ عَنِ المَعْصُومِ، بَل نَقُول كَمَا قَالَ رَبُّنا عَزَّوَجَلَّ مَلَكُ المَوْتِ.

فإِنْ قَالَ قَائِل: كَيْف نجْمَعُ بَيْنَ قَوْلِهِ تعالَى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر:٤٢] وقَوْلِهِ: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ﴾ [السجدة:١١] وقَوْلِهِ: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام:٦١]؟

فالجَوابُ: أَمَّا إسنادُ الوَفَاةِ إِلَى اللهِ فهُوَ إسنادُ الأَمْرِ إِلَى أَهْلِهِ؛ لأنَّ هَؤُلَاءِ الرُّسلِ الَّذِينَ يَقبِضُونَ الأَرْوَاحَ إنَّما يَقبِضُونها بأَمْرِ اللهِ، كَمَا تَقُولُ: بَنَى المَلِكُ المَدِينَةَ، أَيْ أَمَرَ بِبِنائِهَا، إِذَنِ: اللهُ يتَوفَّى الأَنْفُسَ؛ لأنَّها بأَمْرِهِ وإنَّما أَضَافَ اللهُ الوَفَاةَ إِلَى مَلَكِ المَوْتِ؛ لأَنَّهُ الَّذِي يتولَّى قَبْضَ الأَرْوَاحِ، وأَضَافَهُ إِلَى الرُّسُلِ؛ لأنَّهم يأخُذُونَ الرُّوحَ بعْدَ أنْ يَقبِضَها مَلَكُ المَوْتِ، لَا يَدعُونَها فِي يدِهِ طَرْفَةً، ثمَّ يُكفِّنُونها بالكَفَنِ الَّذِي مَعَهُمْ.

[٢] قَوْلُهُ: «وَمِنْهُمْ مَلَكُ الجِبَالِ المُوكَّلُ بِهَا» كَمَا جَاءَ فِي الحَدِيثِ الصَّحِيحِ،

---

(١) أخرجه أبو الشيخ في العظمة (٢/ ٦٩٧-٦٩٨)، وأبو نعيم في الحلية (٦/ ٦٥-٦٦)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

حِينَ رَجَعَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ أَهْلِ الطَّائِفِ، بعْدَ أنْ دَعَاهُمْ ولم يُفِقْ إلَّا فِي قَرْنِ الثَّعالِبِ؛ لأنَّ أَهْلَ الطَّائفِ أسَاءُوا مُعامَلتَهُم إيَّاهُ ﷺ حَيثُ اصْطَفُّوا صَفَّين، وجَعلُوا يهتِفُون بالسُّخريَةِ بِهِ، وجَعَلَ سُفهَاؤُهم يرمُونَهُ بالحِجارَةِ، حَتَّى أَدْمَوْا عَقِبَه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فطُرِدَ مُشرَّدًا عَلَى هَذَا الوَجْه، وهَذَا أمْرٌ صَعْبٌ أكثَرَ ممَّا فعلَهُ أَهْلُ مَكَّةَ بِهِ عِنْدَ الهجرَةِ، ولذَلِكَ لَمْ يُفِقْ ﷺ إلَّا فِي قَرْنِ الثَّعالِبِ.

فأَتَاهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وسَلَّم عَلَيْه، وَقَالَ: هَذَا مَلَكُ الجِبالِ، يَعْنِي: مُرْهُ بِمَا تشَاءُ، «يُقرِئُك السَّلامُ، ويقُولُ: إنْ شِئتَ أطْبَقْتُ الأخْشَبَينِ علَيْهِمْ»، فقَالَ النَّبِيُّ ﷺ -مَعَ هَذِه الشِّدَّةِ العَظِيمَةِ-: «**بَلْ أَسْتَأْنِي بِهِمْ، لَعَلَّ اللهَ أَنْ يُخْرِجَ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ**»[(١)]. اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ! وهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ ﷺ أبْعَدُ النَّاسِ عَنِ الانْتِقَامِ لنَفْسِهِ وإلَّا لكَانَتْ هَذِهِ فُرْصَةً أنْ يُطبِقَ عَلَيْهِمُ الأخْشَبَيْنِ ويَهلِكُوا جَمِيعًا، لكنَّه ﷺ لَيْسَ يدْعُو النَّاسَ لنَفْسِهِ، وإنَّما هُوَ كَما أَمَرَهُ رَبُّهُ بقَوْلِهِ تعَالَى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل:١٢٥].

ومِنْ هُنَا نَنْطَلِقُ إلَى: أَنَّهُ يجِبُ عَلَى الدَّاعيَةِ أنْ يُشْعِرَ نَفْسَهُ بِأَنَّهُ يدْعُو إلَى اللهِ، لَا إلَى فَرْضِ السَّيطَرَةِ، أَو إتمامِ الكَلِمَةِ، أَو إبْرَادِ الغيرَةِ؛ لأَنَّ هَذَا خَطَأٌ، ادْعُ إلَى سَبيلِ رَبِّكِ، فأَيُّ وسيْلَةٍ يحصُلُ بِهَا المقصُودُ ولَو كَانَ فِيهَا غضَاضَةٌ علَيْك فاعْمَلْهَا، حتَّى لَو شَاهَدْتَ الرَّجُل يفعَلُ المُنكَرَ أمَامَكَ لكِنْ ترْجُو أنْ يَصلُحَ فاصْبِرْ؛ لأنَّ هَذَا

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم: آمين والملائكة في السماء، رقم (٣٢٣١)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين، رقم (١٧٩٥)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

هو المَقصُودُ، ولَيْسَ أَنْ تُطفِئَ حرارَةَ الغيرَةِ، أَو أَنْ تَنْتَقِمَ لنفْسِكَ، بَلِ المَقصُودُ إصْلَاحُ هَذا الرَّجُل وهِدايتُهُ إِلَى دِينِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

لَا تكُنْ مِمَّن يدْعُو إِلَى نَفسِهِ، بَل كُنْ مِمَّن يدْعُو إِلَى رَبِّهِ بالحِكْمَةِ والمَوعِظَةِ الحسَنَةِ، حَتَّى لَوْ أفْضَى الحَالُ إِلَى أَنْ تَضْحكَ فِي وَجْه الفَاسِقِ، مِنْ أَجْلِ إدْخَالِ السُّرورِ عَلَيْه، واستعِدَادِهِ لقَبُولِ مَا تقُولُ فَافعَلْ، فَقَدْ تنَازَلَ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ حَقٍّ كَبيرٍ، رَجَاءَ الإصْلَاحِ، وذَلِكَ فِي غزْوَةِ الحُديبيةِ.

حَيْثُ حصَلَ مِنْ جُمْلة الشُّروطِ الثَّقيلَةِ أَنْ يُرَدَّ هَذَا الَّذِي جَاءَ مُعتمِرًا إِلَى بَيْتِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، بينَما لَوْ جَاءَ أعرَابيٌّ مِنْ أَخْبَثِ النَّاس شِرْكًا ليَعتَمِرَ فإنَّه لَا يُرَدُّ، وهَذِه غضَاضَةٌ عظِيمَةٌ.

ومِنْهَا: أَنَّه الْتَزَمَ ﷺ بألَّا يُكتَبَ: بِسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ، وذَلِك لـمَّا أمْلَى عَلَى الكَاتِبِ: اكْتُبْ بسْمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ، قالُوا: مَا نَعرِفُ الرَّحمنَ، قَالَ: مَاذَا أَكْتُبُ؟ قالُوا: اكتُبْ باسْمِكَ اللَّهُمَّ، قَالَ: اكتُبْ باسْمِكَ اللَّهُمَّ، مَعَ أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ يعلَمُ أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هُوَ الرَّحمنُ.

ومِنْهَا: أَنَّه لـمَّا قَالَ: هَذَا مَا قَضَى عَلَيه رَسُولُ اللهِ قالُوا: لَا تَكْتُبْ رَسُولَ اللهِ، لَو نعْلَمُ أَنَّك رَسُولُ اللهِ مَا قَاتلْنَاكَ، ولَا صَدَدْنَاك، قَالَ: مَاذَا أَكْتُبُ؟ قَالُوا: اكتُبْ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ، قَالَ: اكتُبْ: «مُحَمَّد بْن عبدِ اللهِ»، ولكِنَّهُ قَالَ: «**واللهِ إِنِّي لرَسُولُ اللهِ وَإِنْ كَذَّبتُمُونِي**»، حتَّى لَا يفْهَمَ فَاهِمٌ زَوالَ وَصْفِ الرِّسالَةِ لَهُ.

ومِنْهَا: أَنَّ مَنْ جَاءَ مِنْهم مُسلِمًا وَجبَ أَنْ نَـرُدَّهُ إِلَيْهـم، ومَنْ ذَهَبَ مِنَّا إِلَيْهـم لَا يردُّونَـهُ، وهَذَا مِنْ أَثْقَـلِ مَا يكُـونُ، ومَعَ ذلِكَ قَبِلَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ لأَنَّهم

وَمِنْهُمْ مَالِكٌ: خَازِنُ النَّارِ[١].

وَمِنْهُمْ مَلَائِكَةٌ مُوَكَّلُونَ بِالأَجِنَّةِ فِي الأَرْحَامِ[٢]، ....

أَبوا أن يُجْرُوا الصُّلحَ إِلَّا عَلَى هَذَا، وبِدُونِ أَي تنازُلٍ مِنْهُم، وقَدْ أَقْسَمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حِين برَكَتِ النَّاقَةُ أَنْ لَا يسأَلُوه خُطَّةً يُعظِّمُون بِهَا حُرمَاتِ اللهِ إِلَّا أجابَهم إِلَيْهَا، وإِلَّا مَنْ يَستطِيعُ هَذَا؟! ومِن ثَمَّ فَعَلَ عُمرُ مَا فَعَلَ نحْوَ هَذَا الشَّرطِ(١).

وعَلَى كُلِّ حَالٍ: فالمَقصُودُ مِنْ هَذَا هُوَ أَنَّ الإِنْسانَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يدعُوَ إِلَى اللهِ للهِ تعالى لَا لنَفْسِهِ.

انْطَلَقْنَا بهَذَا الكَلَامِ مِنْ قَولِ الرَّسُولِ ﷺ لمَلَكِ الجِبَالِ: «**أَسْتَأْنِي بِهِمْ لَعَلَّ اللهَ أَنْ يُخرِجَ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعبُدُ اللهَ**»، وقَدْ تحقَّقَ هَذَا التَّوقُّع والرَّجَاءُ فخَرَجَ مِنْ أَصْلَابِ هَؤُلاءِ مَنْ جَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللهِ، وقَاتَلَ فِي سَبِيلِ اللهِ، وعَلَا بِهِ دِينُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، والمسْأَلَةُ مَشهُورَةٌ مَعرُوفةٌ.

[١] قَوْلُهُ: «**وَمِنْهُم مَالِكٌ خَازِنُ النَّارِ**»؛ لقَوْلِ اللهِ تعَالَى: ﴿**وَنَادَوْا يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّـٰكِثُونَ**﴾ [الزخرف:٧٧]. فنُؤمِنُ بأَنَّ هَذَا المَلَكَ اسْمُهُ «مَالِكٌ» وأَنَّهُ خَازِنُ النَّارِ.

[٢] مِنْ عَقِيدَةِ أَهْلِ السُّنَّةِ والجَمَاعَةِ الإِيمَانُ بالمَلائِكَةِ، مَعَ أَنَّ المَلائِكَةَ عَالَمٌ غَيبيٌّ، لَكِنَّ هذِه فائِدَةُ الإِيمَان؛ أَنْ يُؤمِنَ الإنسَانُ بالغَيبِ كَمَا يُؤمِنُ بالمشَاهدَةِ، ونَحْن رُبَّمَا نَتَّهِم أعيننا وأسمَاعَنَا، ولَكِن لَا نتَّهمُ خَبرَ اللهِ ورسُولِهِ، فنُؤمِنُ بوُجودِ المَلائِكَةِ -كَمَا سَبَقَ- وبِمَا ثَبَتَ مِنْ أعمَالِهِمْ ووظَائِفِهِمْ.

---

(١) قصة صلح الحديبية: أخرجها البخاري: كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد، رقم (٢٧٣١)، من حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وَآخَرُونَ مُوَكَّلُونَ بِحِفْظِ بَنِي آدَمَ[١]، وَآخَرُونَ مُوَكَّلُونَ بِكِتَابَةِ أَعْمَالِـهِمْ، لِكُلِّ شَخْصٍ مَلَكَانِ[٢]، ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٧-١٨]...

ومِنْ ذَلِك: «مَلائِكَةٌ مُوكَّلونَ بالأجِنَّةِ فِي الأرْحَامِ» دَلِيلُ ذلِكَ حدِيثُ عبدِ اللهِ ابنِ مسعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: حدَّثنا رَسُولُ اللهِ ﷺ وهُوَ الصَّادِقُ المَصدُوقُ «إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا نُطفَةً، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يُبْعَثُ أَوْ يُرْسَلُ إِلَيْهِ المَلَكُ فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحُ، وَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، بِكَتْبِ رِزْقِهِ، وَعَمَلِهِ، وَأَجلِهِ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ»(١).

[١] قَوْلُهُ: «وَآخَرُونَ مُوكَّلُونَ بِحِفْظِ بَنِي آدَمَ» قَالَ اللهُ تعالَى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد:١١].

[٢] قَوْلُهُ: «وَآخَرُونَ مُوكَّلُونَ بكتَابَةِ أعمالِهِمْ، لِكُلِّ شَخْصٍ ملكَانِ، ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾» هذَانَ ملكَان مُوكَّلانِ بحِفْظِ الأعمالِ، أحدُهما: عَنِ اليَمِينِ، والثَّاني: عَنِ الشِّمالِ، ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ﴾ أَيْ: مُراقِبٌ حافِظٌ، ﴿عَتِيدٌ﴾ حَاضِرٌ لَا يغِيبُ عَنْهُ.

وقَوْلُه: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ﴾ أَهْلُ النَّحوِ يَقُولُونَ: إِنَّ ﴿مِن﴾ هُنَا «زَائِدَةٌ زائِدَةٌ»، ومَعْنَى «زَائِدَةٌ زَائِدَةٌ» أَيْ: زَائِدَةٌ فِي اللَّفْظِ وزَائِدَةٌ فِي المَعْنَى، يَعْنِي: تُفِيدُ مَعْنًى زَائِدًا عمَّا لَـو لَـمْ تَكُنْ موجُودَةً، والمَعْنَى الزَّائِدُ هُوَ التَّوكِيدُ؛ لأَنَّه لَو كَانَ تَرْكِيبُ الآيَةِ: (مَا يلفِظُ قَـوْلًا إِلَّا لَدَيْهِ) لدَلَّ ذلِكَ عَلَى أَنَّ الرَّقيبَ والعَتِيدَ حَاضِرانِ عِنْد كُلِّ قَوْلٍ،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، رقم (٣٢٠٨)، وأخرجه مسلم: كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه، رقم (٢٦٤٣).

....

لَكِن إِذَا قالَ: (مِنْ قَوْلٍ) صَارَ أبلَغَ فِي النَّفْي، ونظِيرُ ذلِكَ قَوْلُهُ تعَالَى: ﴿أَن تَقُولُوا مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ [المائدة:١٩]. أَي مَا جَاءَنا بَشِيرٌ ولَا نَذِيرٌ.

وقَوْلُهُ: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ﴾ نكِرَةٌ فِي سِيَاقِ النَّفْي، مُؤَكَّدَةٌ بـ﴿مِن﴾ الزَّائِدَةِ إِعْرَابًا، الَّتِي أَفَادَتِ الزِّيادَةَ معْنًى.

إِذَنْ: أيُّ قَوْلٍ فإِنَّ لَدَيْهِ الرَّقِيبَ العَتِيدَ، ويَكتُبُ أيَّ قَوْلٍ؟ نَقُول: أمَّا الحسَنَاتُ فتُكتَبُ ولَا إشكَالَ، وأمَّا السَّيِّئاتُ فتكتَبُ ولَا إشكَالَ، وأمَّا الكَلَامُ الَّذِي لَا يدْخل فِي هَذَا ولَا هَذَا فظَاهِرُ الآيَةِ الكَرِيمَةِ أَنَّه يُكتَبُ ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ﴾ [ق:١٨]. أَيَّ قوْلٍ يَقُول، فيُكتَبُ كُلُّ شَيْء، واللهُ عَلَى كُلِّ شَيْء قَدِيرٌ. فإِذَا كَانَ صُنْعُ الإِنْسانِ لشَرِيطِ التَّسجِيلِ يُسجِّلُ كُلَّ مَا يَلفِظُ بِه الإِنْسَانُ، فَما بَالُك بِمَا فِي أيْدِي المَلائِكةِ، الَّذِينَ هُمْ مُسخَّرُون بأَمْرِ اللهِ تعَالَى؟!

وقالَ بَعْض العُلَماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ: إِنَّهُم لَا يَكتُبون إِلَّا مَا يترَتَّبُ عَلَيه ثوَابٌ أَو عِقَابٌ.

ودخَلَ رَجُلٌ عَلَى الإِمَامِ أحمَدَ رَحِمَهُ اللَّهُ، فوَجَدَهُ يئِنُّ مِنْ مَرَضٍ ألَمَّ بِه، فقَالَ لَهُ: إِنَّ طَاوُسًا -وهُو أحَدُ التَّابعينَ المَشهُورينَ رَحِمَهُمُ اللَّهُ- يَقُول: إِنَّ المَلائِكةَ تكتُبُ حتَّى أَنِينَ المَريضِ فِي مرَضِهِ، فأمْسَكَ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنِ الأنِينِ، خَوْفًا مِنْ أَنْ يُكتَبَ[1].

وهَذَا يدلُّ علَى أنَّ كُلَّ شَيْء يَلفِظُ بِه الإِنْسَانُ فهُو مَكتُوبٌ عَلَيْه، لَكِنَّ الجزَاءَ عَلَى حَسَبِ العَمَلِ، فيُجزَى بالحسَنَةِ الحسنَةُ بعَشَرَةِ أمثَالِهَا، ويُجزَى بالسَّيِّئةِ سيِّئةٌ بمِثْلِهَا.

---

(١) انظر: المناقب لابن الجوزي (ص:٥٤٦)، والآداب الشرعية (٢/ ١٧٥).

وَآخَرُونَ مُوَكَّلُونَ بِسُؤَالِ الْمَيِّتِ، بَعْدَ الِانْتِهَاءِ مِنْ تَسْلِيمِهِ إِلَى مَثْوَاهُ[١]، ....

والمسْألَةُ عِنْدِي مُحتمِلَةٌ لهَذا وهَذَا.

مَسْأَلَةٌ: وَرَدَ أنَّ المَلَكَ الَّذِي عَنْ يَمِينِ الإِنْسان يَأمُرُ المَلَكَ الَّذِي عَن يسَارِهِ إِذَا أذْنَبَ الإِنْسان ذنبًا ألَّا يكتبُه، حتَّى ينظُرَ أيتُوبُ أَمْ لَا؛ فهَل هَذا صَحِيح أَمْ لَا؟

الجَوابُ: هَذَا الحَدِيث فِيه نظَرٌ، والظَّاهِرُ أَنَّها تُكتَبُ كالحسَنَةِ فَوْرًا، ثمَّ إِذَا تَابَ تَابَ اللهُ علَيْه.

مَسْألةٌ أُخْرَى: هَل يَدْخُلُ فِي الكتَابَةِ الأعْمالُ القَلبيَّةُ، الَّتِي لَا يَتلفَّظُ بِها الإِنْسَانُ؟

نَقُول: أَمَّا الهَمُّ فيُكتَبُ، وأَمَّا مُجَرَّدُ حَدِيث النَّفْس فَلَا يُكتَبُ؛ فإِنَّ الإِنْسَانَ إِذَا حَدَّثَ نفسَهُ بشَيْءٍ فإِنَّه مَعفُوٌّ عَنْهُ، لَكِن إِذَا هَمَّ بِهِ، وعَزَمَ عَلَيه كَتَبَتْهُ المَلائِكَةُ.

[١] قَوْلُهُ: «وَآخَرُونَ مُوكَّلُون بسُؤَالِ المَيِّت، بَعْدَ الانتِهَاءِ مِنْ تَسليمِهِ إِلَى مَثْوَاهُ» قَوْلُهُ: «آخرُونَ مُوكَّلُون بسُؤَالِ المَيِّتِ» هَلْ هَذَا السُّؤَالُ يَكُون عِنْد الدَّفنِ أَو بعْدَ الدَّفنِ أَو مَاذَا؟ المؤلِّفُ يَقُول: «بعْدَ الانتِهَاءِ مِنْ تَسليمِهِ إِلَى مَثْوَاهُ» فإِذَا سُلِّمَ إِلَى مَثْوَاهُ حضَرَ المَلَكَانِ.

وعَلَى هَذَا فالإِنْسَانُ المَيِّتُ الَّذِي وُضِعَ فِي ثَلاجَةِ المَوْتَى لمُدَّةِ يَومِينَ أَوْ ثَلاثَةٍ -مَثَلًا- لَا يُسْأَلُ؛ لأَنَّه حتَّى الْآنَ لَمْ يُسلَّم إِلَى عَالَمِ الآخِرَةِ، بيْنَما الإِنْسَانُ الَّذِي مَاتَ فِي البَحْرِ -والشَّاطِئُ بَعِيدٌ- ثمَّ غَرِقَ فِي المَاءِ فإِنَّه يُسأَلُ.

وعَلَى هَذَا فتُعتَبَرُ العِبَارَةُ: «بعْدَ الانتِهَاءِ مِنْ تَسلِيمِهِ إِلَى مَثْوَاهُ» عبَارَةً دَقِيقَةً أَمَّا قَبْلَ ذَلِكَ فإِنَّه لَا يُسأَلُ، حَتَّى لَو بَقِيَ مُدَّةً طَوِيلَةً فإِنَّه لَا يُسأَلُ.

يَأْتِيهِ مَلَكَانِ، يَسْأَلَانِهِ عَنْ رَبِّهِ، وَدِينِهِ، وَنَبِيِّهِ[١]. فَـ: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ ﴾[٢]........................

---

[١] قَوْلُه: «يَأتِيه مَلَكَانِ، يَسأَلَانِهِ عَنْ رَبِّهِ ودِينِهِ ونَبيِّه» ثَلاثِ مَسَائِلَ، وعَلَى هَذَا بَنَى شَيْخُ الإِسْلام مُحَمَّدُ بْنُ عبدِ الوهَّابِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ رِسالتَهُ المَعرُوفةَ بـ(الأُصول الثَّلاثَة) علَى أنَّه يُسأَلُ عَنْ رَبِّهِ ودِينِهِ ونَبيِّه.

وهَؤُلاءِ المَلائِكة الَّذِين يَأْتُونَ فِي القَبْرِ هَلْ هُمُ المَلائِكَةُ المُوكَّلون بحِفْظِ الأعْمالِ وكِتَابَتِهَا أَمْ هُمْ غيرُهُم؟

الجَوابُ أنْ نَقُول: اللهُ أعلَمُ، فهَذِهِ أُمُورٌ غيبيَّةٌ لَا نتكلَّمُ فِي شَيْءٍ مِنْها إلَّا بِما جاءَ بِهِ النَّصُّ فاللهُ أعلَمُ، ويحتَمِلُ أنْ يُقَالَ لهؤُلاءِ الَّذِين يَكتبُون أعمالَ بَنِي آدَمَ: انْتَهى عملُكم فاختَبِرُوا هَذَا الرَّجُل، ويحتَمِلُ أنْ يُقَالَ: إنَّ هَؤلاءِ المَلائِكة خاصُّونَ بسُؤالِ الأمْوَاتِ.

المُهمُّ: أنَّه لَيسَ لنَا كَبِيرُ فائِدَةٍ أنْ نَعرِفَ هَلْ هُمُ المَلائِكَةُ الَّذِينَ يَكتُبُونَ أعمالَنا أَمْ هُمْ مَلائِكةٌ آخَرُونَ؛ فهَذَا لَيسَ لنَا فِيه شَيْء، والمَلائِكَةُ عددُهُم لَا يُحصِيه إلَّا اللهُ عَزَّوَجَلَّ.

[٢] قَوْلُهُ: «فـ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ ﴾» يُثبِّتُ اللهُ الَّذِين آمَنُوا بالقَولِ الثَّابتِ، وهُو قَوْلُ الحَقِّ، ويُضلُّ اللهُ الظَّالمينَ فَلَا يَقولُونَ بالحَقِّ، ولهَذَا كَانَ المُؤمِنُ يَقُول -أسأَلُ اللهَ أنْ يجعلَنِي وإيَّاكُم منْهُم- بِدُونِ تَلعثُم ولَا تَذكُّرٍ: «رَبِّي اللهُ، ودِينِي الإِسْلَامُ، ونَبيِّي مُحَمَّد ﷺ»، يُجِيبُ جَوَابًا مُطَابِقًا للحَقِّ، وغَيْرُ المُؤمِنِ -وَهُوَ الظَّالمُ- يَقُولُ: «هَاهْ هَاهْ لَا أَدْرِي».

﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾[١] [إبراهيم:٢٧].

وَمِنْهُمُ: المَلَائِكَةُ المُوكَّلُونَ بِأَهْلِ الجَنَّةِ[٢]،........

وكلمَةُ «هَاهْ هَاهْ» تَدُلُّ عَلَى أنَّ الرَّجُل يُرِيدُ أنْ يتذَكَّر، ولَكِن يعجَزُ -كَمَا لَو كلَّمَكَ إِنْسَانٌ وقُلْتَ: هَاه هَاه، كأَنَّك تتذَكَّرُ شَيْئًا- وهَذَا ممَّا يزِيدُهُ حسْرَةً؛ لأَنَّ فَقْدَ الإِنْسَانِ لمَا حَصَلَ أعظَمُ مِنْ فَقْدِهِ ممَّا لَمْ يَحْصُلْ، ولهَذَا لَو كَسَبْتَ عشْرَةَ دَرَاهِمَ، ثمَّ ضَاعَتْ أشَدُّ ممَّا لَو لم تكْسِبْ شَيْئًا، فهَذَا المُنافِقُ الَّذِي يَقُولُ: هَاه هَاه لَا أدْرِي، فقَدَ شَيْئًا عَجزَ عَنْ إدْرَاكِهِ، فصَارَ هَذَا أشَدَّ حَسْرَةً.

[١] قَوْلُهُ: «﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾» ولهَذَا أمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بعْدَ الفَرَاغِ مِنْ دفْنِ المَيِّت أن نَقِفَ عَلَيْه، وأنْ نَستَغْفِرَ لَهُ، فكَانَ إذَا دُفِنَ المَيِّتُ وَقَفَ عَلَيه وَقَالَ: «**اسْتَغْفِرُوا لأَخِيكُمْ واسْأَلُوا لَهُ التَّثْبِيتَ فَإِنَّه الْآنَ يُسْأَلُ**»(١) يَعْنِي يَقُول: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ، اللهُمَّ اغْفِرْ لَهُ، اللهُمَّ اغْفِرْ لَهُ؛ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ؛ اللَّهُمَّ ثَبِّتْهُ، اللَّهُمَّ ثَبِّتْهُ، اللَّهُمَّ ثَبِّتْهُ؛ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ؛ لأَنَّ مِنْ عَادَةِ الرَّسُول ﷺ غَالبًا: أنَّه كَانَ إذَا دَعَا دُعَاءً ثَلاثًا، فهَؤُلاءِ المَلَائِكَةُ إِذِنْ: مُوكَّلُون بسُؤَالِ المَيِّتِ.

[٢] قَوْلُهُ: «**ومِنْهُمُ المَلَائِكَةُ المُوكَّلُون بأَهْلِ الجَنَّة**» أَي: مَلَائِكَةٌ مُوكَّلُون بتهنِئَةِ أَهْل الجنَّة، وإدْخَالِ السُّرورِ عَلَيْهِمْ، قَالَ تعالَى: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد:٢٣-٢٤] فيَكُونُ عِند الإِنْسَانِ سُرُورٌ عظِيمٌ أنْ تتلَقَّاهُ المَلَائِكة يَقُولُون: سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُم فنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ.

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الجنائز، باب الاستغفار عند القبر للميت، رقم (٣٢٢١)، من حديث عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۝٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾[1] [الرعد:٢٣-٢٤].

---

[١] وقَوْلُهُ تعَالَى: ﴿يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۝٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم﴾ يدُلُّ عَلَى أنَّ فِي الجنَّة أبْوابًا كَثِيرَةً، مِنْ كُلِّ بَابٍ يَقُولُونَ: سَلَامٌ عليكُمْ بِمَا صَبَرْتُم، ويدُلُّ عَلَى أنَّ الدَّاخِلَ يَقُول عِنْد دُخولِهِ: «سَلَامٌ عَلَيْكُمْ»، كَما جاءَت بِه السُّنَّةُ(١)، فعِنْدمَا تَستَأذِنُ عَلَى إِنْسانٍ تَقُول: السَّلامُ عليكُمْ.

وقَوْلُه تعَالَى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ البَاءُ هُنَا للسَّببيَّةِ، وقَوْلُهُ: ﴿صَبَرْتُمْ﴾ أَيْ عَلَى الأُمورِ الثَّلاثِةِ، المعرُوفَةِ عِنْد العُلَماء وهِي: الصَّبرُ عَلَى طَاعَةِ اللهِ؛ والصَّبرُ عَنْ مَعصِيةِ اللهِ؛ والصَّبْرُ عَلَى أَقْدَارِ اللهِ، وأعْلَى هَذِهِ الأَنْواعِ: الصَّبْرُ عَلَى الطَّاعَةِ، ثمَّ الصَّبْرُ عَنِ المعصيَةِ، ثُمَّ الصَّبْرُ عَلَى الأَقْدَارِ.

وهَذَا هُوَ الأَصْلُ فِي هَذِهِ الأَنْوَاعِ الثَّلَاثَةِ: أنَّ أعْلَاها الصَّبْرُ عَلَى الطَّاعَةِ؛ لأَنَّ فِي الصَّبْرِ عَلَى الطَّاعةِ: مُعانَاةً لحَمْلِ النَّفسِ علَيْهَا، ومُعانَاةً لإِتْعَابِ الجَسدِ بِهَا، أَمَّا الصَّبْرُ عَنِ المعصِيَةِ فمُعانَاةٌ لكَفِّ النَّفسِ عَنِ المعصيَةِ فَقَطْ، لَكِنَّ الجِسْمَ مُرتَاحٌ؛ لأَنَّه تَرْكٌ فقَطْ، أَمَّا الصَّبْرُ عَلَى أَقْدَارِ اللهِ فلَيْسَ فِيهِ مُعانَاةٌ، إلَّا أنَّ الإِنْسان يُفكِّر ويَقُول: الأَمْر قَد وَقَعَ، صَبَرْتُ أَم لَمْ أَصْبِرْ.

ولهَذا قَالَ بَعْضُ العُلَماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ فِيمَن أُصِيبَ بمُصيبَةٍ: «إمَّا أنْ يَصْبِرَ صَبْرَ الكِرام، وإمَّا أنْ يسلُو سُلُوَّ البَهائِم»؛ لأَنَّ المُصيبَةَ مَهْما عَظُمَتْ سَوْفَ تُنْسَى، بحَسَبِ الشَّواغِلِ عَنْ ذِكْرِها، فرُبَّما يَنْسَى الإِنْسانُ مُصيبَتَهُ إِذَا كَانَ طَالبَ العِلْم،

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٢/ ٢٣٠)، وأبو داود: كتاب الأدب، باب في السلام إذا قام من المجلس، رقم (٥٢٠٨)، والترمذي: كتاب الاستئذان، باب ما جاء في التسليم عند القيام وعند القعود، رقم (٢٧٠٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَقَدْ أَخبَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ البَيْتَ المَعْمُورَ فِي السَّمَاءِ يَدْخُلُهُ -وَفِي رِوَايَةٍ: يُصَلِّي فِيهِ- كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ، ثُمَّ لَا يَعُودُونَ إِلَيْهِ آخَرَ مَا عَلَيْهِمْ[١].

بمُجرَّدِ أنْ يجْلِسَ مجْلسًا أَو مجْلسينِ لأنَّه اشْتَغَلَ بالعِلْمِ، والتَّاجِرُ رُبَّما أن يَنْسَى المُصيبَةَ إِذَا جلَسَ فِي دُكَّانِهِ ضَحْوَةً أَو عشيَّةً، يَعْنِي: بحَسَبِ الحَالِ، أَمَّا الإِنْسانُ الَّذِي لَيْسَ عندَهُ شُغْلٌ فهَذَا سَيَبْقَى الحُزْنُ فِي قَلبِه مُدَّةً وآخِرُ الأَمْرِ أن يَنْسَى!.

فصَارَ الصَّبْرُ يَنقَسِمُ إِلَى ثَلاثَةِ أنْواعٍ: الصَّبْرُ عَلَى طَاعَةِ اللهِ، وعَنْ مَعصِيَةِ اللهِ، وعَلَى أقْدَارِ اللهِ، والصَّائِمُ يحْصُلُ لَهُ الصَّبْرُ عَلَى الأُمورِ الثَّلاثَةِ، فإِنَّه يَصْبِرُ عَلَى طَاعَةِ اللهِ فيَصُومُ، ويَصْبِرُ عَلَى مَعصِيَةِ اللهِ فَلَا يُفطِرُ، ويَصْبِرُ عَلَى أقْدَارِ اللهِ بالجُوعِ، والعَطَشِ، والـهُزَالِ، ومَا أَشْبَه ذلِكَ، فصَبْرُ يُوسُفَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حصَّل لَهُ الأَنْواعَ الثَّلاثَةَ، إذْ صَبَرَ عَلَى طَاعَةِ اللهِ فِي صَبْرِهِ عَلَى التَّوحيدِ، وصَبَرَ عَنْ مَعصِيَةِ اللهِ حَيْثُ كفَّ نفسَهُ عَنْ فِعْلِ الفَاحشَةِ بامرَأَةِ العَزيزِ، وصَبَرَ عَلَى أقْدَارِ اللهِ يَعْنِي السِّجْنِ، وأيضًا صَبَر عَلَى الدَّعوَةِ إِلَى اللهِ لـمَّا استَفْتَاهُ صَاحِبَا السِّجْنِ، قَالَ تعَالَى: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾ [يوسف:٣٩].

وهَذِه المسأَلَةُ يجِبُ عَلَى الدَّاعيَةِ أنْ يَتنبَّهَ لَـهَا، فالَّذِي جَاءَ يسأَلُ يَكُونُ مُستعِدًّا أنْ يَمْتَثِلَ لمَا تَقولُ فانْتَهِزِ الفُرصَةَ؛ فمَثَلًا: لَوْ جاءَكَ إِنسانٌ ليسْأَلَ، وهُو حَالِقٌ لحْيَتَهُ فأفْتِهِ وأَرِهِ وَجْهَ بِشْرٍ وطَلَاقَةٍ، ثمَّ قُلْ لَهُ همْسا بأُذُنِهِ إِنْ كَانَ حولَكُم أَحدٌ، وإِن لمْ يَكُن حولَكُم أَحدٌ فبالكَلَامِ العَاديِّ؛ لأنَّ انتهازَ الفُرصِ فِي مِثْلِ هذِهِ الأُمُورِ مُهمٌّ جدًّا.

[١] قَوْلُهُ: «قَدْ أخبَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ البَيْتَ المَعمُورَ يدخُلُه -وفِي رِوَايَةٍ: يُصلِّي فِيهِ- كُـلَّ يَوْمٍ سَبْعُـون أَلْفَ مَلَكٍ، ثُمَّ لَا يَعُودُون إِلَيْه آخِرَ مَا عَلَيْهِمْ» كُلَّ يَوْم -ومَا

أَكْثَرَ الأَيَّامَ! ومَا أضعفَنَا أنْ نُحصيهَا!- يدْخُل هَذا البَيْتَ المَعْمُورَ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ، ثمَّ لَا يَعُودُون إِلَيْهِ، وعَلَى هَذَا فيدْخُلُه فِي الأُسبُوعِ الوَاحِدِ أَرْبَعُ مِئَةٍ وتِسعُونَ أَلْفَ ملَكٍ، ومَا أكثَرَ الأسَابيع المَاضيَة، والمُستقبلَةُ لَا نَدرِي لكنَّها كثيرَةٌ، وهَذَا يدُلُّ عَلَى كثرَةِ المَلائِكةِ، وأنَّهُم عَالَمٌ، بَل قَالَ الرَّسُولُ ﷺ: «أَطَّتِ السَّماءُ، وَحُقَّ لـهَا أَنْ تَئِطَّ، مَا مَنْ مَوْضِعِ أَرْبَعَةِ أَصَابعَ إِلَّا وَفِيهِ مَلَكٌ قَائِمٌ للهِ، أَوْ رَاكِعٌ، أَوْ سَاجِدٌ»[1]، والأَطِيطُ: صَريرُ الرَّحْلِ المُحمَّلِ، فمَثَلًا: البَعِيرُ يَكُون علَى ظَهرِهَا رَحْلٌ، ثمَّ تُحمَّل، وعِنْدمَا تمشِي تَسمَعُ لَهُ صَريرًا.

فهَذَا مَوضِعُ أَرْبَعِ أَصَابعَ فِي السَّماء بيْنَما الأَرْض فِيها آلَافُ الأميَالِ، لَيس فِيها رَاكِعٌ ولَا سَاجِدٌ! ولَكِنَّ السَّماءَ مَعمُورةٌ بالعُبَّادِ الَّذِين يعْبُدُونَ اللهَ عَزَّوَجَلَّ.

وهُمْ أقدَرُ مِنَ الجِنِّ عَلَى مَا تفعَلُه الجِنُّ ولَا يفعَلُه الإنْسُ، ومن ذلك قصَّةُ سُليمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لـمَّا جَاءَهُ الهُدهدُ بخَبَرِ مَلِكَةِ سَبأٍ وسَبأٌ فِي الجَنُوبِ فِي اليَمَنِ وسُليمَانُ فِي الشَّامِ، قَالَ: ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ وكَانَ لَهُ وقتٌ محدَّدٌ يقُومُ فِيهِ، فالمَعْنَى: آتيكَ الآنَ قبْلَ أنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ ﴿وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾﴾ فالجِنُّ فيهِمْ أَقْوِيَاءُ وفِيهِمْ أُمنَاءُ، وفِيهِمْ صَالحُونَ، وفِيهِمْ طَلَبَةُ عِلْمٍ، وفِيهِمْ عَابِدُونَ.

ثُمَّ قَالَ تعالَى: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ فأيُّهما أَسرَعُ؟

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ١٧٣)، والترمذي: كتاب الزهد، باب في قول النبي ﷺ: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلًا»، رقم (٢٣١٢)، من حديث أبي ذر الغفاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الجَوابُ: الثَّاني، ولهَذَا قَالَ تعَالَى: ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي﴾ حَالًا رَآهُ، فرَآهُ ثَابتًا مُستقرًّا كَأَنَّ لَهُ أيَّامًا؛ فقَالَ: ﴿هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي﴾؛ قَالَ العُلَماءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ: إنَّ الَّذِي عنْدَهُ عِلْمُ الكِتَابِ دَعَا اللهَ عَزَّوَجَلَّ فأَتَتْ بِهِ المَلائِكَةُ والمَلائِكَةُ أقْوَى مِنَ الجِنِّ.



فَصْلٌ

وَنُؤْمِنُ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَى أَنْزَلَ عَلَى رَسُلِهِ كُتُبًا[١]، حُجَّةً عَلَى العَالَمِينَ، وَمَحَجَّةً لِلْعَامِلِينَ[٢]، يُعَلِّمُونَهُمْ بِهَا الحِكْمَةَ وَيُزَكُّونَهُمْ[٣].

---

[١] قَوْلُه: «وَنُؤْمِنُ بِأَنَّ اللهَ تعَالَى أَنْزَلَ عَلَى رُسلِهِ كُتبًا» أيضًا نُؤْمِن بالكُتُبِ، وأنَّ كُلَّ رَسُولٍ معَهُ كِتَابٌ، قَالَ تعَالَى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾ [الحديد:٢٥] وقَالَ تعَالَى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾ [البقرة:٢١٣].

وعَلَى هَذَا يَكُونُ كُلُّ رَسُولٍ معَهُ كِتَابٌ، ولَا يلزَمُ أَنْ يَكُون مَع كُلِّ نبيٍّ كِتَابٌ، فنُؤمِنُ بأَنَّ مَعَ كُلِّ رَسُول كتَابًا؛ والشَّواهِدُ فِي هَذا كثيرَةٌ، وذَلِك أنَّ كُلَّ رَسُولٍ لَهُ أمَّةٌ خَاصَّةٌ ينزِلُ لَـهَا كِتابٌ خاصٌّ بشَرائعِهِمْ، كَمَا قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة:٤٨].

[٢] قَوْلُهُ: «حُجَّةً عَلَى العَالمينَ ومَحجَّةً للعَامِلِينَ» «مَحجَّةً» يَعْني: طَرِيقًا، فالكُتُبُ حُجَّةٌ ومَحجَّةٌ، «حُجَّةٌ» يَعْني بيِّنَةٌ تقُومُ عَلَى العِبَادِ، ولَا عُذْرَ بَعْدَ ذَلِك، و«مَحَجَّةٌ» أَيْ: طَريقًا يَسلُكُه العَامِلُونَ.

[٣] قَوْلُهُ: «يُعلِّمُونَهم بِهَا الحِكْمَةَ»، ومِنْ أَحْكَمِ الحِكَمِ أَنْ تَعبُدَ اللهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ لأَنَّكَ إِذَا عَبَدْتَ اللهَ وَحْدَه لَا شَرِيكَ لَهُ فقَدْ وَضَعْتَ العِبَادَةَ مَوضِعَهَا، و«الحِكْمَة» يُقالُ فِيهَا: هِيَ وَضْعُ الأَشْيَاءِ فِي مَوضِعِهَا.

وَنُؤْمِنُ: بِأَنَّ اللهَ تَعَالَى أَنْزَلَ عَلَى كُلِّ رَسُولٍ كِتَابًا؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الحديد:٢٥]، وَنَعْلَمُ مِنْ هَذِهِ الكُتُبِ:

أ- التَّوْرَاةَ: الَّتِي أَنْزَلَـهَا اللهُ تَعَالَى عَلَى مُوسَى ﷺ، وَهِيَ أَعْظَمُ كُتُبِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، ﴿فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ﴾[1] [المائدة:٤٤].

قَوْلُهُ: «ويُزَكُّونَهُمْ»: أَي: يَشْهَدُون لَهُمْ بالعَدَالَةِ والصِّدْقِ، أَو يُعلِّمُونَهُم العَدَالَةَ والصِّدْقِ.

[١] قَوْلُهُ: «ونُؤمِنُ: بِأَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مَعَ كُلِّ رَسُولٍ كِتَابًا لقَوْلِهِ تعالَى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الحديد:٢٥]. ونعلَمُ مِنْ هذِهِ الكُتُبِ:

أوَّلًا: التَّوراة الَّتِي أنزلَـها اللهُ عَلَى مُوسَى ﷺ وهِيَ أعظَمُ كُتُبِ بَنِي إسرَائِيلَ ﴿فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ﴾» والَّذِي نَعلَمُه مَكتُوبًا فِي التَّورَاةِ أمُورٌ مِنْهَا: فِي القِصَاصِ، قَالَ تعالَى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ﴾ إلخ [المائدة:٤٥]. وفِيهَا صِفَةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ مكتُوبةً فِي التَّوراةِ، والإنْجِيلِ، قَالَ تعالَى: ﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [الأعراف:١٥٧].

ب- الإِنْجِيلَ: الَّذِي أَنْزَلَهُ اللهُ تَعَالَى عَلَى عِيسَى ﷺ، وَهُوَ مُصَدِّقٌ لِلتَّوْرَاةِ، وَمُتَمِّمٌ لَـهَا[١] ....

والعجَبُ أنَّ بَنِي إسرَائِيلَ لِخُبْثِهِمْ ومَكْرِهِمْ وكُفْرِهِمْ جَحَدُوا ذَلِكَ، مَعَ أَنَّه مَوجُودٌ فِي التَّوراةِ والإنجيلِ: محمَّد عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، بَل قَالَ اللهُ تعالَى: ﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [البقرة:١٤٦]. وخَصَّ الأبناءَ لأَنَّ الابْنَ فِي قَلْبِ أَبِيهِ أَغْلَى مِنَ البِنْتِ، فهُو يَعتَنِي بِهِ أكثَرَ، فهُمْ يَعرِفُونَ أبناءَهُم، ولَكِن -والعِياذُ باللهِ- لَـمَّا جاءَهُم مَا عرَفُوا كَفُروا بِهِ.

فـ«نُؤمِنُ بالتَّوراةِ» أَيْ بأَنَّ اللهَ أنْـزَلَ كِتَابًا يُسمَّى: «التَّـوراة» عَلَى مُوسَـى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، لَكِن هَل هِيَ التَّورَاةُ المَوجُودَةُ فِي أَيْدِي اليَهُودِ اليَوْمَ؟

الجَوابُ: لَا؛ لأَنَّ التَّورَاةَ المَوجُودةَ عِنْدَ اليَهُودِ اليَوْمَ مُحَرَّفَةٌ قَطْعًا، إِذْ إِنَّ التَّوراةَ الحقيقيَّةَ فِيهَا ذِكْرُ الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وأوصَافُهُ ووُجوبُ الإِيمان بِهِ، وكُلُّ هَذا جَحَدهُ اليَهودُ، لَكِن نُؤْمِن بأَنَّ اللهَ أنْزَلَ عَلَى عبْدِه مُوسَى كِتَابًا يُسمَّى: «التَّوراة».

[١] قَوْلُهُ: «**الثَّاني: الإنْجِيلُ: الَّذِي أَنْزلَهُ اللهُ عَلَى عِيسَى ﷺ وهُوَ مُصدِّقٌ للتَّورَاةِ، ومُتَمِّمٌ لَـهَا**» وهَذَا الكِتَابُ مُتمِّمٌ للتَّورَاةِ؛ لأَنَّ الأُمَّ فِي كُتُبِ بَنِي إسرَائِيل هِيَ التَّورَاةُ، وهُو مُتمِّمٌ للتَّورَاةِ؛ لقَولِهِ ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ﴾ أَي أَعْطَيناهُ إِيَّاهُ ﴿هُدًى وَنُورٌ﴾.

وإِذَا قَالَ قَائِل: كَيْف الجَمْعُ بَيْنَ قَوْلِهِ تعالَى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ﴾ وبَيْنَ كَوْنِه مُنزَّلًا؟

فالجَوابُ: أنَّ قَوْلَهُ: ﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ [آل عمران:٤]. فِيهَا تَصرِيحٌ بـأَنَّ اللهَ تعَالَى أنـزَلَ الإنجِيلَ، كَـمَا أَنْـزَلَ التَّـورَاةَ

﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوۡعِظَةً لِّلۡمُتَّقِينَ ﴾[1] [المائدة:٤٦] ....

والقُرآنَ، وكَوْنُهُ أعطَاهُ إِيَّاهُ هُوَ كقَوْلِهِ تعَالَى: ﴿وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴾ [النساء:١٦٣]. ومَا أَشْبه ذلِكَ ممَّا يَذكُره اللهُ تعَالَى إيتاءً.

[١] قَوْلُهُ: «﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ ﴾» وقَالَ: ﴿وَمُصَدِّقًا ﴾ مَعَ أَنَّه وَصْفٌ، ولَا يُعطَفُ الوَصْفُ عَلَى أَصْلِهِ، يَعْني لَو قَالَ: الإِنجِيلَ ومُصدِّقًا، فمُصدِّقًا عَطفٌ عَلَى الإنجِيلِ، قُلْنا: لَا يَصِحُّ، لكنَّهَا حَالٌ مَعطوفَةٌ عَلَى الجُمْلةِ الحَاليَّةِ قَبْلَها: ﴿فِيهِ هُدًى وَنُورٌ ﴾، وإِنَّما جَعَلْنَا هَذِهِ الجُمْلةَ حَالًا، لأَنَّ مَا قَبْلَها مَعْرِفَةٌ، والقَاعِدَةُ فِي اللُّغةِ العَرَبيَّة: أنَّ الجُمَلَ بعْدَ المَعارِفِ أحْوالٌ، وبعْدَ النَّكِرَاتِ صِفَاتٌ. ﴿وَمُصَدِّقًا ﴾ أَي: حَالَ كَوْنِهِ مُصدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيهِ مِنَ التَّورَاةِ.

والتَّصدِيقُ لِمَا بَيْنَ يَدَيهِ لَهُ مَعْنَيانِ:

الأَوَّلُ: أَنَّه يَشْهَدُ بِصِدْقِ مَا سَبقَهُ.

الثَّاني: أَنَّه يَشْهَدُ بتَصدِيقِهِ، أَي: أَنَّه وَقَعَ تَصدِيقًا لَهُ.

فعَلَى الوَجْهِ الأَوَّلِ: أَنَّه نَزَلَ مُصدِّقًا لِمَا سَبقَهُ، يَعْنِي حَاكِمًا بتَصدِيقِهِ، بأَنْ يَكُونَ مَا سَبقَهُ قَدْ أَخْبرَ بِهِ، وقَالَ: سَينْزِلُ كِتَابٌ عَلَى عِيسَى مَثَلًا، فيَكُونُ نُزولُ هَذَا الكِتَابِ عَلَى عِيسَى تَصدِيقًا للخَبَرِ الَّذِي نَزَلَ فِي الكِتَابِ الأَوَّلِ.

أَمَّا المَعْنَى الثَّاني: أَنَّه يُحكَمُ بأَنَّ مَا سبقَهُ صِدْقٌ، فهَذَا سَوَاءٌ تَعرَّضَ لَهُ الكِتَابُ الأَوَّلُ أَمْ لَمْ يتعرَّضْ، ونَقُول: يَشْهَدُ بأَنَّ الكِتَابَ السَّابِقَ حقٌّ وصِدْقٌ، وهَكَذَا نَقُول فِي وَصْفِ القُرْآن: بأَنَّهُ مُصدِّق لِمَا بَيْنَ يَدَيهِ، يَعْني يَقُول: إنَّ التَّوراةَ حَقٌّ، والإِنْجِيلَ حقٌّ،

﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾[1] [آل عمران:٥٠].

ج- الزَّبُورَ: الَّذِي آتَاهُ اللهُ تَعَالَى دَاوُدَ ﷺ[2].

أَو أنَّه نَزَلَ تَصدِيقًا لَهُ؛ لأنَّ التَّوراةَ قَالَتْ: سينزِلُ قُرآنٌ عَلَى مُحَمَّد، والإنجِيلُ قَالَ: سينزِلُ قُرآنٌ عَلَى مُحَمَّد، بَل ظَاهِرُ قَوْلِهِ تعالَى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء:١٩٦]. أنَّ هَذَا الإخبَارَ كَانَ فِي جَمِيعِ الكُتُبِ، والمسْأَلَةُ هَذِهِ تحتَاجُ إِلَى تأمُّلٍ؛ لأَنَّهُ قَالَ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء:١٩٧]. قَدْ يَقُول قَائِلٌ: إنَّ المُرادَ بزُبُرِ الأوَّلينَ هُنَا التَّوراةُ والإنجِيلُ؛ لقَولِهِ: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

قَوْلُهُ: «﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾» هُدًى: دَلَالَةٌ، موعظَةٌ، توفِيقٌ، والهُدَى هُنَا يَكُون مَعْناه الدَّلالَة؛ لأنَّ الموعِظَةَ هِيَ الامتِثَالُ، وقَوْلُهُ: ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ لأنَّهم هُمُ المُنتفِعُون بِهِ.

[١] وَقَالَ تعالَى فِي وَصْفِ عِيسَى ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران:٥٠] إِذَنْ فهُو مُكمِّل؛ ولهَذا أَحَلَّ اللهُ فِي الإنجِيلِ بَعْض مَا كَانَ مُحَرَّمًا على بَنِي إِسْرَائِيلَ، وهَلِ الإنجِيلُ الَّذِي فِي أَيْدِي النَّصارَى اليَومَ هُوَ الإنْجِيلُ الَّذِي نَزَلَ عَلَى عِيسَى؟ الجَوابُ: لَا، بَل هُو مُحرَّفٌ مُغيَّرٌ مُبدَّلٌ.

[٢] قَوْلُهُ: «ثَالِثًا: الزَّبُورُ الَّذِي آتَاهُ اللهُ تعالَى دَاوُدَ ﷺ» الزَّبُورُ بمَعْنى الكِتَابِ، قَالَ تعالَى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء:١٠٥].

وهَذَا قَدْ يَكُونُ مَوجُودًا فِي بَعْضِ الكُتُبِ القَدِيمَةِ، وغَالِبُه مَوَاعِظُ وزَوَاجِرُ.

د- صُحُفَ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى، عَلَيْهِمَا الصَّلاة والسَّلَامُ[١].

هـ- القُرْآنَ العَظِيمَ: الَّذِي أَنْزَلَهُ اللهُ عَلَى نَبِيِّهِ محمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ[٢]:........

[١] قَوْلُهُ: «والرَّابِعُ: صُحُفُ إِبْرَاهِيمَ ومُوسَى عَلَيهِمَا الصَّلاة والسَّلام» وصُحُفُ مُوسَى قِيلَ: إنَّهَا التَّوراةُ، وقِيلَ: غَيرُهَا، واللهُ أعلَمُ، ولَكِن نَقُولُ كَمَا قَالَ اللهُ تعَالَى: ﴿صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ [الأعلى:١٩].

فإِنْ قَالَ قَائِل: لِمَاذَا قَدَّمَ صُحفَ مُوسَى وهِيَ مُتأَخِّرَةٌ عَن صُحُفِ إبْرَاهِيمَ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾، وفِي سُورَةِ الأَعْلَى قدَّمَ صُحفَ إبْرَاهِيمَ؟

قُلْنا: أُذكِّر دائِما أنَّ القُرْآن نَزَلَ بأَعْلَى البَلَاغَةِ، وأنَّ تَنَاسُبَ الكَلَامِ -وَلَوْ بالأَلْفَاظِ ونَبَرَاتِهَا- مِنَ البَلَاغَةِ، فهُنَا قَدَّمَ صُحُفَ إبْرَاهِيمَ فِي سُورَةِ الأَعْلَى؛ لأَنَّهَا مُنَاسِبَةٌ لرُؤُوسِ الآيَاتِ، وفِي الثَّانِي قَدَّمَ صُحُفَ مُوسَى وأخَّرَ صُحُفَ إبْرَاهِيمَ؛ لأَنَّ اللهَ تعالَى وَصَفَ إبْرَاهِيمَ بأَنَّه الَّذِي وَفَّى، واللهُ أَعْلَمُ بِمَا أَرَادَ اللهُ فِي كِتَابِهِ.

كُلُّ هَذا نُؤمِن بِهِ ونُصدِّقُ ولَكِن لَا يلْزَمُنا أنْ نُؤْمِن بِمَا فِي أيْدِي هَؤُلَاءِ الكَفَرَةِ، لأَنَّهَا مُبدَّلَةٌ ومُغيَّرَةٌ.

[٢] هَذَا الكِتَابُ المُنَزَّلُ عَلَى مُحمَّد ﷺ -أسْأَلُ اللهَ أنْ يجعَلَنِي وإِيَّاكُم مِنْ أَهْلِهِ التَّالِينَ لَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ- هُوَ أَشْرَفُ وأعمُّ الكُتُب، وأنفَعُها، وأَقْوَمُها، قَالَ اللهُ تعالَى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء:٩]، ويُرْوَى أنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَأَى فِي يَدِ عُمَرَ بنِ الخَطَّاب صحِيفَةً مِنَ التَّوراةِ فغَضِبَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ(١)؛ لأَنَّه لَا يُمْكِن أن يُوجَدَ أَهْدَى مِنَ القُرْآن، وفِيهِ كِفايَةٌ عَن كُلِّ مَا سِوَاهُ.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٣/ ٣٨٧) من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾[١] [البقرة:١٨٥]. فَكَانَ: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾[٢] [المائدة:٤٨].

---

[١] قَوْلُه: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾؛ أَي كُلِّهم، ونَقُولُ: إنَّ اللهَ تعَالَى تارَةً يَقُولُ هُدًى للنَّاس، وتَارَةً يَقُول هُدًى للمُتَّقِين، والجمْعُ بينَهُما: أنَّ الأوَّل: فهُو هِدَايةُ الدَّلالَةِ، أَي هُدًى للنَّاسِ كُلِّهم، وأَنَّ الثَّانيَ فهُوَ هدايَةُ التَّوفِيق.

وقَوْلُهُ: ﴿وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ أَيْ: علَامَاتٍ، بيِّناتٍ، وَاضحَاتٍ، ﴿مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾، الهُدَى أَيِ: العِلْمُ النَّافِعُ، والفُرقَانُ أَيْ: مَا يُفرَّقُ بِه بَيْنَ الحَقِّ والبَاطِلِ، وبَيْنَ الصِّدْقِ والكَذِبِ، وبَيْنَ الجَوْرِ والعَدْلِ، وبَيْنَ أولياءِ اللهِ وأَعْدَاءِ اللهِ، ولهَذَا لَا تَجِدُ فُرقَانًا أَكْثَرَ ممَّا فِي القُرْآنِ الكَرِيم، والإِنْسانُ إِذَا آتَاهُ اللهُ الكِتابَ أَعْنِي: القُرْآنَ حَصَل لَهُ مِنَ الفُرقَانِ فِيمَا مَا يَكُونُ إشْكَالًا كَبِيرًا فِي حَقِّ غَيرِه، وإِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَزُولَ عَنْكَ الإشكَالَاتُ فعلَيْكِ بالقُرآنِ، فإِنَّ القُرْآن فُرقَانٌ، يُفرِّقُ بَيْنَ الحَقِّ والبَاطِلِ، وبَيْنَ الصِّدقِ والكَذِبِ، وبَيْنَ الجورِ والعَدْلِ، وأولياءِ اللهِ وأعْدَاءِ اللهِ، فَلَا شَيْءَ أعظَمُ مِنْ فُرقانِ القُرْآن أبَدًا، ولَكِن بسبَبِ إعْراضِ النَّاسِ عَنْهُ وانْشغَالِهِمْ بغَيرِهِ صَارُوا لَا يجِدونَ ذَلِكَ الفُرقَانَ الَّذِي يَتبيَّنُ لَـهُمْ بِهِ الحَقُّ؛ لأنَّهم مُعرِضُونَ، وإِلَّا -واللهِ- لَو رَجَعُوا للقُرْآنِ الكَرِيمِ لوَجدُوا الفُرقَانَ الَّذِي يُفرِّقُونَ بِه بَيْنَ الحَقِّ والبَاطِلِ، بَل إنَّ اللهَ يجعَلُ فِي قَلْبِ العَبْدِ نُورًا يُمْكِن أن يَهتَدِيَ بِمَا يُكرِمُه اللهُ بِه مِنَ العِلْم.

[٢] قَوْلُهُ: «فكَانَ: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾» المُرادُ بِهِ الجِنْسُ، مِنَ الكِتَابِ أَيْ مِنَ الكُتُبِ، فكُلُّ مَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الكُتُبِ فهُو مُصدِّقٌ لَـهَا، وسَبَقَ مَعْنَى التَّصدِيقِ لِـمَا بَيْنَ يَدَيْه(١).

---

(١) (ص:٣٣١).

فَنَسَخَ اللهُ بِهِ جَمِيعَ الكُتُبِ السَّابِقَةِ، وَتَكَفَّلَ بِحِفْظِهِ عَنْ عَبَثِ العَابِثِينَ وَزَيْغِ المُحَرِّفِينَ[١]..

وقَوْلُهُ: ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ وهَذِهِ فِيهَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ القُرْآن نَاسِخٌ لِمَا قَبْلَهُ، وأَنَّ كُلَّ مَا خَالَفَ القُرْآن فِي الكُتُبِ السَّابقَةِ فالقُرآنُ حَاكِمٌ ببُطْلانِهِ، ومعْنَى «الهيمنَة» السَّيطرَةُ، والسُّلطةُ التَّامَّةُ، وهَذَا يَقتضِي أنَّ جَمِيع مَا فِي الكُتُبِ السَّابقَةِ مَنسُوخٌ بهَذا القُرْآنِ الكَريمِ.

وقَدْ أَجْمَعَ العُلَماءُ رَحِمَهُمُ اللهُ عَلَى أنَّ شريعَةَ مَنْ قَبلَنَا إِذَا وَرَدَ شَرعُنا بخِلَافِهَا فهِيَ مَنسُوخَةٌ، واخْتلفُوا فِيمَا إِذَا لَمْ يَرِدْ شَرعُنا بخِلَافِهَا، فقِيلَ: إنَّها شَرْعٌ لَنَا، وقِيلَ: لَا، والمسألَةُ مَبسُوطَةٌ فِي أُصولِ الفِقْهِ.

[١] قَوْلُهُ: «**فنَسَخَ اللهُ بِه جَمِيعَ الكُتُبِ السَّابقَةِ، وتَكفَّل بحفْظِهِ عَنْ عَبَثِ العَابِثِينَ، وزَيغِ المُحرِّفِينَ**» بينَما الكُتُبُ السَّابقَةُ لَمْ يتكفَّلِ اللهُ بحِفْظِهَا، ولهَذَا وَقَعَ فِيهَا التَّحريفُ والكِتْمَانُ، قَالَ تعالَى: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ [الأنعام:٩١]. ولَكِنَّ هَذَا القُرْآن محفُوظٌ؛ لأنَّه لَا يُوجَدُ كِتَابٌ أعظَمُ تواتُرًا مِنْهُ، ولَا كِتَابٌ يقرَؤهُ الصَّغيرُ والكَبِيرُ مِنَ الأُمَّةِ مِثْلُه.

ولهَذَا لَو أَنَّ أكبَرَ عَالِمٍ زَادَ فِي القُرْآن لرَدَّ عَليه العَامِيُّ، وهَذَا مِنْ نعمَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وحفْظِهِ للقُرآنِ الكَريمِ، قَالَ تعالَى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر:٩] فَلَا يُمْكِن أن يُحْذَفَ مِنْهُ شَيْء لَا تَعلَمُه الأُمَّةُ، ولَا أَنْ يُزَادَ فِيهِ شَيْء لَا تعلَمُ الأُمَّةُ بزِيادَتِهِ.

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[١] [الحجر:٩]؛..........

وبهذَا نعرفُ عِظَمَ ضَلَالِ الرَّافضَةِ، الَّذِين زَعمُوا أنَّ فِي القُرْآن مَا لَيْسَ مِنْهُ، وأنَّه حُذِفَ مَا هُو مِنْهُ، فكَذَبُوا عَلَى اللهِ، وكَذَبُوا عَلَى الأُمَّةِ الإِسْلاميَّةِ، وهُمْ يدَّعُونَ أنَّهم هُمُ المُسلِمُونَ، وكُلُّ دَعْوَى بِلَا بيِّنةٍ فإِنَّهَا بَاطِلَةٌ، فهُمْ إمَّا أنْ يَقُولُوا: هَذَا القُرْآن الَّذِي بَيْنَ أيْدِينا هُوَ كَلَامُ اللهِ، وهُوَ الَّذِي نَزَلَ عَلَى مُحَمَّد، أَو يُنكِرُونَهُ أصْلًا، أمَّا أنْ يُقِرُّوا أنَّه كِتَابُ اللهِ، ثمَّ يَقُولُون: إنَّهُ وَقعَ فِيهِ حَذْفٌ أَو زيادَةٌ فهَذَا غيْرُ مُمكِنٍ؛ لأنَّهم إذَا أقَرُّوا أنَّ هَذَا كَلَام اللهِ لزِمَهُم أنْ يَقُولُوا: لَا زِيادَةَ فِيهِ ولَا نَقْص؛ لأنَّ كَلَامَ اللهِ محفُوظٌ، تكفَّلَ اللهُ بحِفْظِهِ ولَا يُزَادُ فِيهِ ولَا يُنقَصُ.

فإنْ قَالَ قَائِل: نَجِدُ التَّحرِيفَ فِي كِتَابِ اللهِ؟

قُلْنَا: لَكِن هَلْ وَجدْتَ تَحرِيفًا لم يُرَدَّ علَيْه؟ بَلْ كُلُّ تَحرِيفٍ لكِتَابِ اللهِ فإِنَّ اللهَ قيَّضَ لَهُ مَنْ يُبطِلُه ويُبيِّنُه، وعَلَيْهِ فَلَا يُنافِي حِفْظَهُ، بَل قَد يَكُون هَذا أبلَغَ فِي حِفْظِهِ: أنْ يَعتَدِيَ عَلَيْهِ مُعتَدٍ بالتَّحريفِ ثُمَّ يُقيِّض اللهُ لَهُ مَنْ يُبيِّنُ بُطلَانَهُ؛ لأَنَّ اللهَ تعالَى قَدْ يُسلِّطُ عَلَى شَرعِهِ أَو بَعْضِهِ مَنْ يُنكِرُه حتَّى يَقُومَ قَائِمٌ لينصُرَهُ، ويَتبيَّنُ بذَلِكَ الحَقُّ مِنَ البَاطِلِ.

[١] قَوْلُهُ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ هذِهِ الآيَةُ الكَرِيمَةُ فِي غَايَةِ مَا يَكُونُ مِنَ العَظَمَةِ. ففِيهَا تَوْكِيدٌ بـ«إنَّ» فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّا﴾ الأُولَى، وكَذلِكَ ضَمِيرُ الفَصْلِ ﴿نَحْنُ﴾، ولهَذَا لَو كَانَت الآيَةُ (إِنَّا نزَّلْنا) لاستَقَامَ الكَلَامُ، ولَكِن قَالَ: ﴿نَحْنُ﴾ إِشَارَةً إِلَى التَّوكِيدِ، وأنَّه نَزَلَ مِنْ عِنْدَ اللهِ لَا مِنْ عِنْدِ غَيرِهِ، ثمَّ جَاءَت بصِيغَةِ العَظَمَةِ، إِشَارَةً إِلَى عَظَمَةِ مُنْزِله عَزَّوَجَلَّ، ثمَّ أكَّدَ حِفْظَهُ بقَوْلِهِ: ﴿وَإِنَّا﴾ وهَذِهِ للتَّوكِيد، ﴿لَحَٰفِظُونَ﴾ اللَّامُ للتَّوكيدِ أيْضًا، وقدَّمَ المَعمُولَ ﴿لَهُۥ﴾ علَى العَامِلِ ﴿حَٰفِظُونَ﴾ إِشَارَة

لِأَنَّهُ سَيَبْقَى حُجَّةً عَلَى الخَلْقِ أَجْمَعِينَ، إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ[١].

إِلَى العِنَايَةِ بِهِ، وإِلَّا فَإِنَّ اللهَ يحفَظُ القُرْآنَ وغَيرَهُ، لَكِنَّ تخصِيصَهُ بالذِّكرِ إِشَارَة إِلَى العِنَايَةِ بحِفْظِهِ.

[١] قَوْلُهُ: «لأَنَّهُ سَيبْقَى حُجَّةً عَلَى النَّاس أجمعِينَ إِلَى يَوْم القِيَامَة» «إِلَى يَوْمِ القِيَامَة» يَعْنِي إِلَى قُربِ يَوْم القِيامَة؛ لأَنَّه قَدْ جَاءَ فِي الآثَارِ أَنَّ القُرْآنَ يُنزَع فِي آخِرِ الزَّمانِ مِنَ الصُّدورِ ومِنَ المصَاحِفِ، حتَّى يُصبِحَ النَّاس لَيْس فِي مَصَاحِفِهِمْ ولَا فِي صُدُورِهِمْ حَرْفٌ مِنَ القُرْآن(١)، وهَذَا -واللهُ أَعْلَمُ- إِذَا أَعْرَضَ النَّاسُ عَنْ كِتَابِ اللهِ، ولَمْ يَعمَلُوا بِهِ، ولَمْ يرفَعُوا بِهِ رَأسًا؛ فحِينَئذٍ سيبْقَى فِي مجتَمَعٍ لَيسُوا أَهْلًا لَهُ -لأَنَّهُم أَهَانُوهُ- فيَرفَعُه اللهُ عَزَّوَجَلَّ حمَايَةً لكِتَابِهِ مِنَ الإِهَانَةِ.

كَمَا أَنَّ الكعبَةَ -شرَّفَها اللهُ- حُفِظتْ مِنَ الفِيلِ، ومُنِعَ مِنَ الوُصولِ إِلَيْهَا، وسيُسلَّط عَلَيْها رَجُلٌ مِنَ الحَبَشَةِ، قَصِيرُ القَامَةِ، أَفْحَجُ الرِّجلَينِ، فينَقُضُها حجَرًا حَجَرًا، اللهُ أكبَرُ! الفِيلُ يُصدُّ عَنهَا وهَذَا الرَّجُلُ القَصِيرُ المَهِينُ يُسلَّطُ عَلَيْهَا، وهَذَا -واللهُ أعلَمُ- يَكُون إِذَا أَهَانَ النَّاسُ بَيْتَ اللهِ بالمَعاصِي، والفُسوقِ، والفُجُورِ، وغَيرِ ذَلِك، حتَّى يُصبِحَ بَيْتُ اللهِ لَا مقامَ لَهُ فِيهِمْ، فيُسلَّطُ عَلَيهِ هَذَا الرَّجُل يَنقُضُه حَجَرًا حَجَرًا.

والظَّاهرُ أَنَّ التَّوراةَ والإِنجِيلَ نَزَلَا عَلَى مُوسَى وعِيسَى عَلَيهِما السَّلامُ مَرَّةً وَاحِدَةً؛ لأَنَّه لَيسَ هُنَاكَ كِتَابٌ نَزَلَ مُفرَّقًا إِلَّا القُرْآن، ولهَذَا قَالَ تعَالَى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةً وَٰحِدَةً﴾؛ يَعْنِي كسَائِرِ الأَنبياءِ، فقَالَ اللهُ تعَالَى مُبيِّنًا

---

(١) أخرجه ابن ماجه: كتاب الفتن، باب ذهاب القرآن والعلم، رقم (٤٠٤٩)، من حديث حذيفة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

أَمَّا الكُتُبُ السَّابِقَةُ فَإِنَّهَا مُؤَقَّتَةٌ بِأَمَدٍ يَنْتَهِي بِنُزُولِ مَا يَنْسَخُهَا وَيُبَيِّنُ مَا حَصَلَ فِيهَا مِنْ تَحْرِيفٍ وَتَغْيِيرٍ[١]؛ وَلِهَذَا لَمْ تَكُنْ مَعْصُومَةً مِنْهُ، فَقَدْ وَقَعَ فِيهَا التَّحْرِيفُ وَالزِّيَادَةُ وَالنَّقْصُ[٢].

أنَّ لَهُ فَائِدَة عظِيمَةً؛ أعْنِي تَنْجِيمَ القُرْآنِ فقَالَ: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أَيْ أَنْزَلْنَاهُ ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان:٣٢] فلَوْ نَزَل جُمْلَةً واحِدَةً مَا كَانَ هُنَاكَ تَثْبِيتٌ للفُؤَادِ كَمَا لَوْ نَزَلَ مُفرَّقًا، فإِذَا نَزَل مُفرَّقًا تجدَّدَ الوَحْيُ؛ وهَذِهِ وَاحِدَةٌ.

الثَّانيَةُ: بَيَّنَ اللهُ تعالَى الحِكْمَةَ الأُخْرَى، فقَالَ: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء:١٠٦].

[١] قَوْلُهُ: «**أَمَّا الكُتُبُ السَّابقَةُ فإنَّها مُؤَقَّتةٌ بأمَدٍ يَنتَهِي بنُزُولِ مَا يَنسَخُها، ويُبيِّنُ مَا حصَلَ فِيهَا مِنَ تَحرِيفٍ وتَغْيِيرٍ**» فالكُتُبُ السَّابقَةُ مُؤَقَّتةٌ بوَقْتٍ، هُوَ وَقْتُ دَوَامِ الرِّسالَةِ بالنِّسْبَةِ للرَّسُولِ الَّذِي نَزَلَ عَلَيهِ الكِتَابُ؛ لقَوْلِ النَّبيِّ ﷺ: «**وَكَانَ النَّبيُّ يُبعَثُ إِلَى قَومِهِ خَاصَّةً وبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً**»(١). يَنتَهِي بنُزولِ مَا يَنْسَخُها، ويُبيِّنُ مَا حَصَلَ فِيهَا مِنَ التَّحرِيفِ والتَّغيِيرِ.

[٢] قَوْلُهُ: «**ولِهَذَا لَمْ تكُنْ معصُومَةً مِنْهُ، فقَدْ وَقَعَ فِيهَا التَّحرِيفُ، والزِّيادَةُ، والنَّقْصُ**» هَذَا فِي الكُتُبِ السَّابقَةِ؛ لأنَّ أصْلَها لَيْسَت نازِلَةً للدَّوامِ، بَلْ هِيَ مُؤَقَّتةٌ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب قول النبي ﷺ: «**جعلت لي الأرض مسجدا وطهورا**»، رقم (٤٣٨)، ومسلم: كتاب المساجد، باب جعلت لي الأرض مسجدا وطهورا، رقم (٥٢١)، من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾[1] [النساء:٤٦].

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾[2] ....

---

[١] قَوْلُهُ: «﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾» ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ هَذَا فِيهَا شَيْءٌ محذُوفٌ، أَيْ مِنَ الَّذِين هَادُوا قَوْمٌ يحرِّفُونَ الكَلِمَ عَنْ مَواضِعِهِ، والَّذِينَ هَادُوا هُمُ اليَهُودُ، واليَهُودُ أَجْرَأُ النَّاسِ عَلَى اللهِ ورُسُلِهِ، يَصفُون اللهَ بالنَّقْصِ والعَيْبِ، ويَقتُلُونَ الأنبياءَ بغَيْرِ حَقٍّ، ويحرِّفُونَ الكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ، عِنْدَما قِيلَ لَـهُمْ: «قُولُوا حِطَّةٌ»، قَالُوا: «حِنْطَةٌ» فهُمْ أَجْرَأُ النَّاس عَلَى اللهِ ورُسُلِهِ وكُتُبِهِ، قاتَلَهُم اللهُ أَنَّى يُؤفكُون.

[٢] وقَالَ تعَالَى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ وهُمْ كَذَبَةٌ، لكنَّهُم يَشتَرُون بِه ثَمنًا قَلِيلًا، وهُوَ أَنْ يبقَى لهُمْ جاهٌ لَدَى المُلوكِ، فيَكتُبُ للمُلوكِ مَا يُريدُ، ثمَّ يَقُول: هَذَا مِنْ عِنْدِ اللهِ، فيَمشِي المَلِكُ عَلَى ذَلِك، أَو تمْشِي العَامَّةُ عَلَى ذَلِك، ليَبْقَى لَهُمُ الجَاهُ والرِّئاسَةُ.

وهَلْ فِي هَذِهِ الأُمَّةِ مَنْ عَمِلَ هَذَا العَمَلَ؟

الجَوابُ: نَعَمْ، فِي هَذِهِ الأُمَّةِ مَنْ يُحرِّفُ نُصوصَ الكِتَابِ والسُّنَّة إرْضَاءً للرُّؤسَاءِ والسَّلاطِينِ، وهَؤُلَاءِ يُسمَّوْن عُلَماءَ الدَّولَةِ والسَّلاطِين؛ لأنَّ العُلَماءَ -فِيمَا نَرَى- ثَلاثَةُ أقْسَامٍ:

الأَوَّلُ: عَالِـمُ دولَةٍ: وهُوَ الَّذِي يَنظُرُ مَا تَشتَهِيهِ الدَّولَةُ، فيَلوِي أعناقَ النُّصُوصِ إِلَى مَا تُرِيدُ.

فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾[١] [البقرة:٧٩].

﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾[٢] [الأنعام:٩١].

الثَّاني: عَالِـمُ أُمَّةٍ: وهُـو الَّذِي يَنظُرُ مَا يَصلُحُ للنَّاسِ ويَروقُ لـهُمْ، فيُحرِّفُ النُّصُوصَ مِنْ أجْلِ أنْ يُوافِقَ أهْواءَ النَّاسِ، وهَذَا كَثِير.

الثَّالث: عَالِـمُ مِلَّةٍ: وهُوَ الَّذِي يَقُول بالمِلَّةِ، ويَنتصِرُ لـهَا، وهَذَا الأخِيرُ هُوَ العَالِـمُ الرَّبانيُّ.

فهَؤُلاءِ الَّذِين ﴿يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ مِنْ أَيِّ الأصنافِ الثَّلاثَةِ؟ الجَوابُ: أنَّ هَذَا عَالِمُ دولَةٍ، وعَالِمُ الأُمَّةِ أيْضًا؛ لأنَّهم يَنظُرُونَ مَا يَصلُحُ للنَّاسِ فيُحرِّفُونَ الكَلِمَ عَنْ مَواضِعِهِ مِنْ أجْلِهِمْ.

[١] قَوْلُهُ: ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ تَوعَّدَهُمُ اللهُ تعَالَى عَلَى هَذَا الفِعْل، وعَلَى نَتَائِجِ هَذَا الفِعْل، عَلَى الفِعْل فِي قَوْلِهِ: ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ وعَلَى نَتَائِجِهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾؛ لأَنَّ هَذَا الَّذِي كَتَبَتْ أيدِيهِمْ سَيكُونُ لَهُ نتائِجُ سيِّئةٌ، سينْصَرِفُ النَّاسُ عَنِ الدِّينِ، ويَأخُذُون بِمَا كَتَبَ هَؤُلَاءِ.

والشَّاهِدُ مِنْ هَذَا قَوْلُهُ تعَالَى: ﴿يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ وهَذَا يدُلُّ عَلَى أنَّ الكُتُبَ السَّابقَةَ قَدْ حَصَلَ فِيهَا مَا حَصَلَ.

[٢] وقَالَ تعَالَى: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ هَذَا أيضًا فِيهِ بَيَانُ كَتْمِ عُلَمَائِهِمْ لِـمَا نَزَلَتْ بِهِ التَّورَاةُ، ممَّا يدلُّ عَلَى أنَّ التَّوراةَ لَيْست محفُوظَةً.

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝٧٨﴾[1] ....

---

[١] قَالَ تعالَى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ هذِهِ الآيَةُ نتكلَّمُ عليْها لفظًا ثمَّ مَعْنًى:

قَالَ تعالَى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ هُنَا يحسُنُ الوَقْفُ ثُمَّ تبتَدِئ فتقُول: ﴿وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ لأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ رَدٌّ لقولِهِ ﴿لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾

﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ قِفْ هُنَا أيْضًا، ثمَّ ابْتَدِئ وقُلْ: ﴿وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾.

أمَّا مَعْنَى الآيَةِ: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ﴾ واللَّيُّ نوعَانِ:

لَيٌّ معنَوِيٌّ: وهُو التَّحرِيفُ المعنَويُّ.

لَيٌّ لفْظِيٌّ: وهُوَ التَّحرِيفُ اللَّفظِيُّ.

وجعَلَ بَعْضُ العُلَماءِ مِنَ اللَّيِّ اللَّفظِيِّ: أنْ تتْلُوَا النُّصُوصَ غيرَ القُرآنيَّةِ -بتلاوَةِ النُّصُوص القُرآنيَّةِ، يَعْني تَقْرَأُ الأحَادِيثَ- وكأنَّما تَقْرَأ القُرْآنَ؛ لأنَّكَ إذا قَرأْتَ الحَدِيثَ بنغْمَةِ قِرَاءَةِ القُرْآن أوْهَمَ السَّامِعَ أنَّه قُرآنٌ فيدْخُلُ ضِمْنَ قَوْلِهِ: ﴿يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [آل عمران:٧٨].

قَالَ: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ يَعْني أنَّه أنْزَلَ هَذَا واللهُ لمْ يُنزِلْهُ، وهُمْ يعلَمُونَ أنَّهُم كاذِبُونَ.

مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾[1] [آل عمران:٧٨- ٧٩].

---

[١] قَالَ تعالَى: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران:٧٩] لَا يُمْكِن هَذَا! وهَذِه الآيَةُ رَدٌّ عَلَى النَّصارَى الَّذِين قَالُوا: إنَّ عِيسَى ابْنُ اللهِ أَو أَنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ، وزَعمُوا أَنَّ المَسيحَ أَتَاهُم بذَلِكَ؛ فقَالَ اللهُ تعالَى: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ ﴾ وإِذَا جَاءَ فِي القُرْآن ﴿ مَا كَانَ ﴾ فهُو نَفْيٌ إمَّا لانْتِفَائِهِ شَرْعًا وإمَّا لانْتِفَائِهِ كَوْنًا، وإمَّا لانْتِفَائِهِ شَرْعًا وكَوْنًا.

المُهمُّ: أنَّ «مَا كَانَ» و«مَا يَنْبَغِي» ومَا أَشْبَهَ ذَلِك مِنَ التَّعبيرَاتِ فِي القُرْآن تَدُلُّ عَلَى أنَّ الشَّيْء مُمتنِعٌ غَايَةَ الامْتِنَاعِ.

فيَمتَنِعُ غَايَةَ الامتِنَاعِ أنْ يُؤتِيَ اللهُ بَشَرًا الكِتَابَ والحُكْمَ والنُّبوَّةَ ثُمَّ يقُولَ للنَّاسِ: كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللهِ، لَا يُمْكِن أبدًا، بَل إنَّ الَّذِي آتَاهُ اللهُ الكِتَابَ والحُكْمَ والنُّبوَّةَ أبْعَدُ النَّاسِ عَنْ أَنْ يَقُولَ ذَلِك، وأَشَدُّ النَّاس قَوْلًا فِي النَّهيِ عَنِ الغُلوِّ، فَقَدْ نَهَى النَّبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أنْ يُغلَى فِيهِ كَمَا غَلَتِ النَّصارَى فِي المَسيحِ ابْنِ مَرْيمَ؛ ولَمَّا قَالَ لَهُ رَجُلٌ: مَا شَاءَ اللهُ وشِئْتَ؛ قَالَ: **«أجعلْتَنِي للهِ نِدًّا، بَل مَا شَاءَ اللهُ وحدَهُ»** فالرُّسلُ عَلَيْهِمُ الصَّلاة والسَّلام يَنهَون عَنِ الشِّركِ ويَأمُرُونَ بالتَّوحيدِ وتحقيقِ التَّوحيدِ وإِكْمَالِ التَّوحيدِ، وهُمْ أبعَدُ النَّاسِ عَنْ أنْ يقُولَ أحدُهم: كُونُوا عِبادا لِي مِنْ دُونَ اللهِ.

ويُؤخَذُ مِنْ هَذِهِ الآيَةِ الكَريمَةِ: أَنَّ مَنْ وَرِثَ الأنبياءَ لَا يُمْكِن أنْ يقُولَ للنَّاسِ: كُونُوا عِبَادا لِي مِنْ دُونَ اللهِ، وهُمُ العُلَماءُ، فَلَا يُمْكِن للعَالِمِ أنْ يُلزِم النَّاسَ بقَولِهِ؛ لأنَّه لَوْ أَلْزَمَ النَّاس بقَولِهِ فكأنَّما قَالَ: كُونُوا عِبادًا لِي مِنْ دُونِ اللهِ.

وبهَذَا نَعرِفُ الرَّدَّ عَلَى أُولِئكَ المشَايخِ كَبيرِي العَمائِمِ الَّذِين يَغرُّون شُعوبَهم ويَستخْدِمُونَهم تمَامًا، حتَّى بلَغَنِي مِنَ المشَايخِ مَنْ يقُولُ: أنَا شَيْخٌ أنَا معصُومٌ أنَا يحِلُّ لِي أنْ أتزَوَّجَ ألْفَ امرَأةٍ، وفِعْلاً يتزوَّجُونَها! وبَعْض المشَايخِ فِي جِهَةٍ مَا؛ يقُولُون لِي: إنَّ عندَهُم خمْسِينَ امرَأةً تزوُّجًا لَا تسرِّيًا لأَنَّهُ مَعصُومٌ! أَو لأنَّه قَد وَصَلَ إِلَى الغَايةِ! ولهَذَا يقُولُون: إنَّ عبَادَة الأنبيَاءِ وسيلَةٌ فلَمْ يَصلُوا للغَايَةِ وعِبَادَتهُمْ عبادَةُ العَوَامِّ، أمَّا الخَواصُّ فعِبادَتُهم خَاصَّةٌ لَا يحتَاجُونَ إِلَى أمْرٍ ولَا نَهْيٍ؛ يقُولُون: لأنَّهُم وَصَلُوا للغَايَةِ! أرَأيْتَ لَوْ سَافَرْتَ إِلَى مَكَّة فالعَصَا معكَ والجَمَل مَعَكَ، وإذَا وصلْتَ إِلَى مكَّةَ وضَعْتَ العَصَا! وسيَّبْتَ الجَمَلَ.

فَأَلْقَتْ عَصَاهَا وَاسْتَقَرَّ بِهَا النَّوَى كَما قَرَّ عَينًـا بالإِيَـابِ المُسَـافِرُ[1]

فهُمْ يقُولُون: العِبَادَاتُ وسائِلُ، إِذِ الوُصولُ للغَايَةِ هُو الحقيقَةُ، إِذَا وَصَلَ الإِنْسَانُ إِلَى الحقِيقَةِ والغَايَةِ فَلَا أمْرَ ولَا نهْيَ، بَلْ يَفعَلُ مَا يشَاءُ ويحْكُمُ مَا يُريدُ، وهَذَا هُو الكُفْرُ بعَينِهِ!.

المُهمُّ: أنَّ العُلَماءَ لَا يُمْكِن أن يقُولُوا للنَّاسِ: كُونُوا عِبَادًا لنَا! ولَا يُمْكِن للنَّاسِ أنْ يقُولُوا: قَولُنا هو المعصُومُ، وقَوْلُ غَيرِنَا هُو الخَطأُ؛ بَل يَعترِفُون بالخَطَأِ والصَّوابِ، ولكنَّهُم يَرونَ أنَّهُم يجِبُ علَيْه الأخْذُ بالصَّوابِ وإنْ خَالَفَ النَّاس؛ إلَّا إِذَا خَالَفَ إجمَاعًا مِنَ الأُمَّة فَما خَالَفَ إجمَاعَ الأُمَّةِ فهُو ضَلَالٌ.

---

(١) اختلف في قائله، فقيل: مُعَقِّر بن أوس بن حمار، وقيل: عبد ربه السلمي أو سليم بن ثمامة الحنفي، انظر: الاشتقاق لابن دريد (ص:٤٨١)، ولسان العرب (١٥/ ٦٥).

﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿ لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ ﴾[1] [المائدة:١٥-١٧].

---

[١] قَالَ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ [المائدة:١٥] الشَّاهِدُ قَوْلُهُ: ﴿تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ والمُرادُ برَسُولِ اللهِ هُوَ مُحَمَّدٌ صَلَواتُ اللهِ وسلَامُه عَلَيْه؛ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿ لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ ﴾ [المائدة:١٧] وهَذَا مِمَّا أَخْفَوه؛ إِذْ أَخْفَوا أَنَّ المَسيحَ دَعَا إِلَى التَّوحيدِ، مَعَ أَنَّ المَسيحَ وجَميع الرُّسلِ كُلُّهم يَدْعُون إِلَى التَّوحيدِ؛ ولهَذَا يسأَلُه اللهُ يَوْم القِيامَة ﴿ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّ ﴾ هَذَا الحَقُّ للهِ وَحْدَهُ، ولَيسَ لِي أَنْ أَقُولَ ذَلِكَ: ﴿إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥ﴾ وهَذَا تَأكِيدٌ لنَفْيهِ لأَنَّ اللهَ تعالى لَمْ يَعلَمْ أَنَّه قَالَهُ، فيكُونُ ذَلِكَ مِنْ بَابِ التَّأكيدِ لنَفْيِهِ؛ ﴿تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ﴾ [المائدة:١١٦].

الشَّاهِدُ مِنْ سِيَاقِ هَذِهِ الآيَاتِ: بَيَانُ أَنَّ الكُتُبَ الَّتِي عِنْد أَهْل الكِتَابِ كُلُّها دَخلَهَا التَّحرِيفُ والتَّبدِيلُ والتَّغيير



فَصْلٌ

ونُؤمِنُ بأَنَّ اللهَ تَعَالَى بَعَثَ إِلَى النَّاسِ رُسلًا ﴿مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾[1] [النساء:١٦٥].

---

[١] «ونُؤمِنُ بأَنَّ اللهَ تعَالَى بَعَثَ إِلَى النَّاس رُسُلًا ﴿مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء:١٦٥]» نُؤمِنُ بذَلِك أنَّ اللهَ تعالى لم يترُكِ الخَلْقَ سُدًى، بَلْ أَرْسَل إِلَيْهِمُ الرُّسلَ مُبشِّرِينَ ومُنذِرين؛ مُبشِّرينَ بالثَّوابِ لِمَنْ أطَاعَ، ومُنذِرينَ بالعِقَابِ لَمنْ عَصَى؛ ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء:١٦٥].

وهَذِه الآيَةُ فِيهَا رَدٌّ عَلَى الجَبريَّةِ الَّذِين يقُولُون: إنَّ الإِنْسانَ مُجبرٌ عَلَى عَمَلِهِ؛ لأَنَّه لَوْ كَانَ الإِنْسَانُ مُجبرًا عَلَى عَملِهِ لَكَانَ لَهُ الحُجَّةُ، سَوَاءٌ بُعِثَ لَهُمُ الرُّسلُ أَم لم يُبعَثُوا، لَكِنْ بَعْثُ الرُّسلِ يَقطَعُ الحُجَّةَ، وفِيها أيضًا: رَدٌّ عَلَى مَنْ قَالُوا: إنَّه لَا عُذْرَ بالجَهْلِ؛ لأَنَّ اللهَ تعالَى قَالَ: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ مفهُومُه: لَوْلَا الرُّسلُ لكَانَ للنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ لأَنَّهُم كَانُوا جَاهِلينَ.

فالصَّوابُ الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ، والذِي تَدُلُّ عَلَيْه الأدِلَّةُ: أنَّ الإِنْسانَ معذُورٌ بالجَهْلِ، فإِنْ كانَ يَنتسِبُ للإسلَامِ فِيمَا يفعلُهُ فهُوَ مُسلِمٌ وإنْ فعَلَ مَا يُكفِّرُ، وإِنْ كَانَ لَا يَتنسِبُ للإِسلَامِ فهُو كَافِرٌ لكنَّهُ إنْ كَانَتِ الحُجَّةُ لم تبلُغه فإِنَّ القَولَ الرَّاجحَ بأنَّه يُمتحَنُ يَومَ القِيامَة بمَا شَاءَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ، ثُمَّ إمَّا إِلَى الجنَّةِ وإمَّا إِلَى النَّارِ.

ونُؤمِنُ بأَنَّ أوَّلَـهم نُوحٌ، وآخِرَهُم مُحمَّد صلَّى اللهُ عليْه وعَليهِمْ أجْمَعِينَ[1] ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ [النساء:١٦٣]، ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب:٤٠].

والشَّاهِدُ قَوْلُه: ﴿رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾.

وقَالَ تعالَى: ﴿وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ﴾ يَعْني: مَا مِنْ أُمَّة إلَّا خَلا فِيهَا نَذِيرٌ وجَاءَها رُسُلٌ.

[١] قَوْلُه: «**ونُؤمِنُ بأَنَّ أوَّلَـهم نُوحٌ، وآخِرَهُم مُحمَّد صلَّى اللهُ عَلَيْه وعَلَيْهِمْ أجْمَعِينَ**»؛ «**أوَّلُـهم نُوحٌ**» ودَليلُ ذَلِكَ مِنَ القُـرْآنِ والسُّنَّةِ؛ فمِـنَ القُـرْآن قَـولُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ إِلَى أَنْ قَالَ ﴿رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ﴾ وهَذَا وَحْيُ الرِّسالَةِ، أمَّا وَحْيُ النُّبوَّةِ فقَدْ كَانَ قبلَهُ؛ إذ كَانَ فِي آدمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، لَكِنَّ وَحْيَ الرِّسالَةِ الَّذِي أكَّدَهُ اللهُ بقَولِهِ: ﴿رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ﴾ وهَذَا كَانَ أوَّلُهُ فِي نُوحٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

ومِنَ الأدِلَّةِ قَوْلُهُ تعالَى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحٗا وَإِبۡرَٰهِيمَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَ﴾ [الحديد:٢٦] فذَكَرَ اللهُ تعالى أنَّه أرْسَلَ نُوحًا وإبْراهِيمَ عليهما السلام، وأنَّ النُّبوَّةَ والكِتابَ كَانَا فِي ذُرِّيتِهِما، وهَذَا يَدُلُّ عَلَى أنَّهُ لا رَسُولَ قَبْلَ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وبهَذَا نَعرِفُ أنَّ مَنْ قَالَ مِنَ المُؤرِّخِينَ: «إنَّ إدرِيسَ كَانَ جَدَّ نُوحٍ» أنَّ هَذَا القَوْلَ قوْلٌ بَاطِلٌ؛ لأنَّه يَسْتلزِم أن يكُون هُناكَ رَسُولٌ قَبْلَ نُوحٍ وهُوَ مخالِفٌ للقُرآنِ؛ فمَنْ زَعَمَ أنَّ إدرِيسَ قَبْلَ نُوحٍ فقَدْ أخْطَأَ خطَأً عظِيمًا، ولَوْلَا أنَّ ذَلِك صَدَرَ عَنِ اجتِهَادٍ لقُلْنا: إنَّه تكذِيبٌ للقُرآنِ.

وأمَّا السُّنَّةُ فدَليلُها -بأنَّ نوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ أوَّلُ الرُّسلِ-: أنَّه فِي حَدِيثِ الشَّفاعَةِ المُتَّفقِ عليْه: أنَّهُم يأتُونَ إِلَى نُوحٍ ويذكِّرُونَه بنِعْمَةِ اللهِ، ومِنْهَا: أنَّه أوَّلُ رَسُول أرسَلَهُ اللهُ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ، وهَذَا صَرِيحٌ بأَنَّ أوَّلَ الرُّسلِ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

أمَّا آخِرُهم فهُوَ مُحمَّد عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ ودَلِيلُ ذَلِك قَوْلُهُ تعالَى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب:٤٠] فالآيَةُ هُنَا جَمَعَتْ بَيْنَ الرِّسالَةِ والنُّبوَّة؛ فقَالَ: ﴿رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ ورُبَّما يكون المُتوقَّع: (ولكن رَسُول الله وخاتم المرسلين) ولكِنَّهُ قَالَ: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ لأنَّه لَنْ يَكُون بعْدُ نبيٌّ ولَا رَسُولٌ، حتَّى مَنِ ادَّعَى النُّبوَّةَ دُونَ الرِّسالَةِ فهُوَ كَاذِبٌ؛ وكَافِرٌ أيْضًا لتكذِيبِهِ القُرْآن والسُّنَّة.

ومِنْ أجْلِ كَوْنِه خَاتَمَ النَّبيِّين كَانَت شريعَتُهُ صالحَةً لكُلِّ زَمَانٍ ومَكَانٍ، وهَلْ مَعْنَاها أنَّها تتغيَّرُ بتَغيُّرِ الزَّمانِ؟ أَو مَعْناها أنَّ مَنْ تمسَّكَ بِهَا صَلَح لَهُ الزَّمانُ فِي كُلِّ وَقْتٍ؟ الجَوَابُ: الثَّاني بِلَا شَكٍّ.

ولهَذَا قَدْ يتوَهَّمُ بَعْضُ النَّاس أنَّ مَعْنَى «صالحَةٌ لكُلِّ زَمانٍ ومَكَانٍ» أنَّها تتكيَّفُ بتكيُّفِ النَّاس، وأنَّ النَّاس إِذَا كَانَ عندَهُم عمَلٌ كَثِيرٌ يُلهِيهم عَنِ الصَّلاة قُلْنا لهُمْ: أنْ لَا تُصلُّوا الظُّهرَ والعَصْرَ لأنَّه وَقْتُ عَمَلٍ، أَوْ فاجمَعُوهُمَا إِلَى المَغْرِبِ والعِشَاءِ!!

وقَدْ بلغَنِي أنَّ بَعْض العُمَّالِ يجمَعُ الصَّلواتِ الخَمْسَ كُلَّها عِنْد النَّوم، ولَا أدْرِي عَنِ الفَجْرِ يجمَعُها مَعَهَا أَو يؤخِّرها!! لَكِن الصَّلوات الأرْبَع قَطْعًا يقُولُون لِي: إنَّ بَعْضَ العُمَّال يجمَعُها.

وأنَّ أفضلَهم محمَّدٌ[١]، ....

فلَوْ قُلْنا: إنَّ الدِّينَ يتكيَّفُ. لكَانَ هَذَا صَحِيحًا، لكنَّهُ غَلَطٌ، بَل مَعْنَى قَوْلِهِ: «صَالِحٌ لِكُلِّ زَمَانٍ ومَكَانٍ» أنَّه لا يُنافِي الإصلَاحَ ولَا الصَّلاحَ فِي أَيِّ زَمنٍ كَانَ، فتمسَّكْ بالدِّينِ يَصلُحْ لَكَ أمْرُ الدِّينِ والدُّنيَا.

[١] قَوْلُهُ: «**وأنَّ أفضلَهُم محمَّد**» عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ وهُوَ كَذَلِكَ لأنَّه خَاتمُهم، ولأنَّهُ أكثرُهم أتْبَاعًا، ولأنَّ الكتَابَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْه أعظَمُ الكُتُبِ؛ ولأسبابٍ كَثِيرَةٍ.

ومِمَّا يدُلُّ عَلَى ذَلِك: أنَّه لـمَّا أُسرِي بِهِ إِلَى بَيْتِ المَقْدِسِ كَانَ الإمَامُ مُحمَّدًا ﷺ(١)، وهَذَا يدُلُّ عَلَى أنَّه أفضَلُهُم، إذْ يَؤُمُّ القَومَ أتْقَاهُم للهِ وأكرَمُهم عِنْدَ اللهِ، وفِي يَوْم القِيامَة يَأتِي النَّاسُ أكابرَ الأنبياءِ لطَلَبِ الشَّفاعَةِ حتَّى تنتَهِيَ إِلَى النَّبيِّ محمدٍ ﷺ، وهَذَا يدُلُّ عَلَى أنَّه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أفضَلُ الرُّسُلِ؛ ومِنْ بَعدِهِ إبرَاهِيمُ.

فإنْ قَالَ قَائِل: كَيْف يَكُونَ ذَلِكَ، وقَدْ قَالَ اللهُ تعالَى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [النحل:١٢٣] ومِنَ المعلُومِ أنَّ التَّابعَ أقَلُّ درجَةً مِنَ المَتبُوعِ؟

فيُقالُ: هُنَا لَا تفاضُلَ؛ لأنَّ المِلَّتَيْنِ واحِدَةٌ وهِيَ التَّوحِيدُ، لَكِن ذَكَرَ إبرَاهيمَ لأنَّ اليَهودَ يقُولُون: نَحْن أوْلَى بإبرَاهِيمَ، والنَّصارَى يقُولُون: نَحْن أولَى بإبرَاهِيمَ، والعَرَبُ يقُولُون: نَحْن أتْبَاعُ إبرَاهِيمَ؛ فقَالَ اللهُ تعالى لَهُ: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾، وعَلَى هَذَا فَما خَالَفَ هَدْيَ الرَّسُولِ فقَدْ خَالَفَ هَدْيَ إبراهيمَ، فيكُونُ فِي ذَلِك إقَامَةُ الحُجَّةِ عَلَى مَنْ قَالَ: إنَّه أوْلَى بإبرَاهيمَ مِنْ مُحمَّد عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ولهَذَا قَالَ عَزَّوَجَلَّ مُصرِّحًا بذَلِكَ فِي آلِ عِمْـرَانَ: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب ذكر المسيح ابن مريم والمسيح الدجال، رقم (١٧٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ثُمَّ إبراهِيمُ، ثُمَّ مُوسَى، ثُمَّ نُوحٌ، وعِيسَى ابْنُ مرْيمَ[١]، ....

وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أَي: الَّذِين اتَّبعُوهُ فِي زَمَنِ الرِّسالَةِ، أمَّا بعْدَ بعثَةِ الرَّسُول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فأَوْلَى النَّاس بإبْراهيمَ مُحمَّد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

[١] يقُولُ المؤلِّفُ: «ثُمَّ إبراهِيمُ ثُمَّ مُوسَى ثُمَّ نُوحٌ وعِيسَى ابنُ مَريمَ» المُؤلِّف ذكَرَ الثَّلاثَةَ الأُولَى بـ«ثُمَّ» الدَّالةِ عَلَى التَّرتيبِ، وذكَرَ الرَّابعَ والخَامِسَ بالوَاوِ؛ لأَنَّه لَـمْ يَكُن هُناكَ دَليلٌ وَاضِحٌ عَلَى أنَّ عِيسَى أفضَلُ مِنْ نُوحٍ أَو أنَّ نُوحًا أفضَلُ مِنْ عِيسَى، فمِنَ العُلَماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ من قدَّمَ نُوحًا لأَنَّه لبِثَ فِي قَومِهِ أَلْفَ سَنَةٍ يدْعُوهم إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وقَالَ: ﴿وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا﴾ [نوح:٧] وتوعَّدُوه فقَالُوا: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾ [الشعراء:١١٦] فآذَوهُ إيذاءً عظِيمًا، وكَانَ يمُرُّون بِهِ وهُوَ يصنَعُ السَّفينَةَ بأَمْرِ اللهِ فيَسخَرُون منْهُ بقَوْلِهم: هَذَا يتَوعَّدُنا بأَنْ سنَغْرَقُ وينجُو بسَفينَتِهِ!! فيَسخَرُون منه، ولكِن قَالَ: ﴿إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ [هود:٣٨-٣٩].

مَسْألة: مَا الجمْعُ بَيْنَ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [البقرة:٢٥٣]، وقَولِ النَّبيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لأَبِي هُريرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «لا يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ: أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى»(١)؟

الجَوابُ: أَنَّ هَذَا قَالَهُ النَّبيُّ ﷺ لئَلَّا يفخَرَ أَحدٌ برَسُولِهِ عَلَى الآخَرِينَ، كَما جَرَى بَيْنَ اليَهوديِّ والأنصَاريِّ، كَما في الحَديث المذكور.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، رقم (٣٤١٦)، ومسلم: كتاب الفضائل، باب في ذكر يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، رقم (٢٣٧٦).

وهُمُ المَخصُوصونَ في قَوْلِهِ تعالَى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب:٧].

ونعْتَقِدُ أنَّ شريعَةَ مُحمَّدٍ ﷺ حاوِيَةٌ لفَضَائِلِ شَرَائِعِ هَؤلاءِ الرُّسلِ المَخصُوصِينَ بالفَضْلِ؛ لقَولِهِ تعالَى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾[1] [الشورى:١٣].

وأمَّا اعتقَادُ ذَلِكَ فِي القَلْبِ فيَجِبُ أنْ نَعتَقِدَ هَذَا: أنَّ الرُّسلَ بَعْضهم أفضَلُ مِنْ بَعْضٍ؛ قَالَ تَعالَى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ [الإسراء:٥٥]، وقَالَ تَعالَى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَـٰتٍ﴾ [البقرة:٢٥٣]، فهَذَا يجِبُ اعتِقَادُه.

أمَّا باللِّسانِ فَلَا نُفاضِلُ؛ لأنَّا إنْ كُنَّا فِي مُخاصمَةٍ مَعَ أصحَابِ الرُّسلِ الآخرِينَ فَلَا شَكَّ أنَّ فِيهَا عداوَةً وبغضَاءَ ورُبَّما تَصِلُ إِلَى حَدِّ المُقاتلَةِ، وأمَّا فِي غَيرِ ذَلِكَ فإنَّه لَا يَنْبَغِي أن نُفاضِلَ خوفًا مِنْ أنْ يُؤدِّيَ ذَلِكَ إِلَى تَنقُّصِ حَقٍّ مَفرُوضٍ.

[١] قوله: «ونَعتَقِدُ أنَّ شريعَةَ مُحمَّدٍ ﷺ حَاوِيَةٌ لفضَائِلِ شَرَائعِ هَؤُلاءِ الرُّسلِ المخصُوصينَ بالفَضْلِ» «حاوِيَةٌ» يَعْنِي جَامِعَة، فشَريعَةُ النَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ جامِعَةٌ لجَمِيعِ الفضَائلِ الَّتِي اشْتمَلَتْ عَلَيْها الرِّسالاتُ السَّابقَةُ.

ودَليلُ ذَلِكَ قَوْلُه تَعالَى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ﴾ وهَؤُلاءِ الأربعَةُ مَعَ نبيِّنَا هُمْ أُولُو العَزْمِ؛ والقَاعدَةُ القَعيدَةُ الأصيلَةُ فِي هَذَا قَالَ: ﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ﴾ وهَذَا فِيما بَيْنَ العَبْدِ وربِّهِ وهُوَ إصلَاحٌ للفَـرْدِ، ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى:١٣] هذا فِيما بَيْنَ العَبْدِ وبَيْنَ إخْـوانِهِ

ونُؤمِنُ بأَنَّ جَمِيعَ الرُّسلِ بَشَرٌ مخلوقُون[١]،.........................

وهُو إصلَاحُ المجتَمَعِ، فالدِّينُ اشتمَلَ عَلَى هَذَا كُلِّه: عَلَى إصلَاحِ مَا بيْنَ الفَرْدِ ومَا بَيْنَ رَبِّهِ وعَلَى إصلَاحِ مَا بَيْنَهُ وبَيْنَ العِبَادِ.

وقَوْلُهُ: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ﴾ وهِيَ أَنْ تَعبُدَ اللهَ تَعَالَى مُخلِصًا لَهُ الدِّينَ عَلَى شَريعَةِ النَّبيِّ ﷺ.

وقَوْلُهُ: ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ يَعْنِي: ولَا تكُونُوا فِرَقًا كُلُّ فِرقَةٍ تُضلِّلُ الأخرَى وتُبدِّعُها وتُنكِرُ علَيْهَا.

ولهَذَا نَرَى أنَّ التَّحزُّبَ وُقُوعٌ فِيمَا نَهَى اللهُ عَنْهُ مِنَ التَّفرُّقِ؛ لأنَّه لَا يجُوزُ للأُمَّة الإسْلاميَّةِ أنْ تتَّخِذَ أحْزابًا، وأنَّ هذِه تَعْنِي قَتْلَ الإسْلام؛ لأنَّ اللهَ قَالَ: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال:٤٦].

لَكِنْ لَوْ كَانَ هُناكَ أحزَابٌ كافرَةٌ مُلحدَةٌ، سَوَاءٌ كَانَتْ تُسمَّى بالإسْلام أَو لَا فهُنَا لا بُدَّ أن نُقيمَ حِزبًا يُضادُّهم مِنْ بَابِ مُعالجَةِ الشَّيْء بضِدِّهِ، أمَّا إذَا لَمْ يَكُن أحزَابٌ فإنَّه لَا يجُوزُ أن نتحَزَّبَ فنَقُول: هَذَا إخْوَانيٌّ! وهَذا تبلِيغِيٌّ! وهَذا إصْلَاحيٌّ! وهَذا سَلَفِيٌّ! وهَذَا أثرِيٌّ! إلَى آخِرِ مَا يُوجَدُ فِي السَّاحَةِ الآنَ! فهَذَا -لَا شَكَّ- خِلافُ مَا جَاءَت بِهِ الشَّريعَةُ، ولمِاذَا لَا تتَّفِقُ هَذِه الأُمَّةُ عَلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ: أنْ لَا نَعبُدَ إلَّا اللهَ ولَا نُشرِكَ بِهِ شَيْئًا! أمَّا أنْ نتَّخذَ مناهِجَ، كُلُّ أُمَّة لـها منْهَجٌ، كُلُّ فِرقَةٍ لـهَا منهَجٌ، فهَذَا يَعْني شَمَاتَةَ الأعدَاءِ، وتفرُّقَ الأهوَاءِ، نسْأَلُ اللهَ العَافيَةَ!.

[١] وقَوْلُهُ: «**ونُؤمِنُ بأنَّ جَمِيعَ الرُّسلِ بَشَرٌ**» يَعْنِي لَا مَلَائِكَة «**مَخْلُوقون**» يَعني لَا أرْبَاب، ولَـوْلَا رَحْمَةُ اللهِ بنَا لَـمَا أرْسـلَ الرُّسلَ؛ فلـمَّا قَالُـوا: «لَوْلَا أُنزِلَ إلَيْه مَلَكٌ»

لَيْسَ لـهُمْ مِنْ خَصَائِصِ الرُّبوبيَّةِ شَيْءٌ[١]، قَالَ اللهُ تَعالَى عَن نُوحٍ وهُوَ أَوَّلُـهم: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ﴾[٢] [هود:٣١]،

مَاذَا قَالَ اللهُ؟ قَالَ: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾ [الأنعام:٩] وهذِهِ المشكلَةُ لأَنَّه لَا يُمْكِن أن يُرسِلَ ملكًا إِلَى بشَرٍ، فلَوْ كَانَ الَّذِين فِي الأَرْض مَلائِكةً لكَانَ كَما قَالَ اللهُ تعالَى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء:٩٥] لكِنَّ الَّذِين يمْشُونَ فِي الأَرْض مُطمئنِّينَ هُمُ البشَرُ، فالحكْمَةُ والرَّحمَةُ تَقتَضِي أنْ لَا يُرسَلَ إِلَيْهم إِلَّا بَشَرٌ، إذَنْ: فالأنْبياءُ بَشرٌ لَا مَلائِكَة، ولَا يَليقُ بالحكمَةِ والرَّحمةِ الإلهيَّةِ أن ينزِلَ إِلَى هَؤُلاءِ البَشَرِ أَحدٌ مِنَ المَلائِكة.

قوله: «مَخْلُوقُون» يَعْنِي: وليْسُوا خَالِقِينَ، بل مَربُوبُون لهُمْ رَبٌّ.

[١] قوله: «ولَيْسَ لـهُمْ مِنْ خصَائِصِ الرُّبوبيَّةِ شَيْءٌ» فخَصَائِصُ الرُّبوبيَّةِ الَّتِي لرَبِّ العَالِمينَ لَا يملِكُها الأنبياءُ ولَا غَيْرُ الأنبياءِ إنَّما هِيَ للهِ؛ حتَّى إنَّ رَجُلًا قَالَ لرَسُولِ اللهِ ﷺ: «مَا شَاءَ اللهُ وشِئْتَ» فأنْكرَ علَيْه وقَالَ لَهُ: «أَجَعلْتَني للهِ نِدًّا، بَلْ مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ» فَأنكرَ علَيْه قوله: «مَا شَاءَ اللهُ وشَئْتَ» وأرشَدَهُ إِلَى العِبارَةِ السَّليمَةِ وهِيَ: «مَا شَاءُ اللهُ وحْدَهُ».

[٢] وقوله: «قَالَ اللهُ تَعَالَى عَن نُوحٍ وهُوَ أوَّلهم: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ﴾» «لَا أقُولُ لكُم» يَعْنِي: قومَه ﴿عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ أَي: خزائِنُ الرِّزقِ والرَّحمَةِ ليسَتْ عنْدِي بَلْ عِنْد اللهِ وَحْدَهُ، هُو الَّذِي يرزُقُ ﴿وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ وإنَّما عِلمُهُ عِنْد اللهِ؛ قَالَ اللهُ تعالَى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن:٢٦-٢٧].

....

وقوله: ﴿وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ لَمْ يَقُلْ: ولسْتُ بملَك،، يَعْني أنَّ هَذَا معلُومٌ، فكُلٌّ يَعرِفُ أنَّ نُوحًا بشَرٌ ولَيْس مَلَكًا، لَكِن يقُولُ: «لَا أقُولُ» يَعْني لَا أدَّعِي «أنِّي مَلَكٌ».

وعَلَى هَذَا؛ فالَّذِين قَالُوا: إنَّ أحدًا يُدبِّر هَذَا الكَوْن غَيْرَ الله عَزَّوَجَلَّ قولُهم كُفْر، لأنَّه لَا مُدبِّر للأَمْرِ إلَّا اللهُ عَزَّوَجَلَّ، قَالَ اللهُ تعالَى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾؟ الجَوابُ: ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ [يونس:٣١].

وهَذَا وهُمْ مُشرِكُونَ وكُفَّارٌ، والآنَ هُناكَ أُناسٌ يَنتَسِبونَ للإِسلَامِ يقُولُونَ: إنَّ مُدبِّرَ الكَوْن هُمُ القُطْبُ الفُلانيُّ مِنَ الصُّوفيَّةِ، أَوِ الإمَامُ الفُلانيُّ مِنَ الرَّافضَةِ، يقُولُونَ: هُمُ المُدبِّرونَ للكَونِ! وهَذَا القَوْلُ كُفْرٌ، تنزَّهَ عَنْهُ أَهْلُ الجَاهِليَّةِ وأسْنَدُوا تَدْبيرَ الأُمورِ إِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

وهُناكَ أيْضًا مَنْ يقُول: إنَّ الأولياءَ أفضَلُ مِنَ الرُّسل وأفضَلُ مِنَ الأنبياءِ؛ لأنَّ الأوْلِياءَ -مِنَ الولايَةِ- الَّذِينَ يَلُونَ اللهَ عَزَّوَجَلَّ والنَّبِيُّ مُخبِرٌ بشَيْءٍ مِنْ أُمُورِ الغَيْبِ، والرَّسُولُ خَادِمٌ! كَما تُرسِلُ خَادِمَكَ إِلَى السُّوقِ ليَشتَرِيَ لَكَ حَاجَةً، ويُنشِدُونَ عَلَى هَذَا قَوْلًا، وهو أكذَب الأقْوالِ، يقُولُ قَائِلُهم:

مَقَــامُ النُّبُــوَّةِ فِي بَــرْزَخٍ ... فُوَيْــقَ الرَّسُــولِ وَدُونَ الــوَلِي

قَاتَلَهُمُ اللهُ! فقَوْلهُم: «مَقَامُ النُّبوَّةِ فِي برزَخٍ فُويقَ الرَّسُول» يَعْنِي: ولَيْس رَفيعًا جدًّا بلْ فُويقَ الرَّسُول، وبالنِّسْبةِ للوَلِيِّ: انحطَاطٌ فهُوَ دُونَ الوَلِيِّ.

وأمَرَ اللهُ تعالَى مُحمَّدًا وهُوَ آخرُهم أنْ يقُولَ: ﴿لَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّى مَلَكٌ﴾ [الأنعام:٥٠]........................

فعَلَى زَعمِهِمْ يَكُون التَّرتيبُ: الوَلِيُّ أوَّلًا ثُمَّ النبيُّ ثُمَّ الرَّسُولُ، مَعَ أَنَّهُم كَاذِبُونَ فِي هَذَا، ولَو قُلْنا: إنَّ الوَلِيَّ مِنَ الولايَةِ لقُلنَا: حتَّى الكُفَّارُ أولياءُ؛ كَمَا قَالَ تعالَى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ ۝٦١ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّ﴾ [الأنعام:٦١-٦٢] فجعلَهُ مَولًى، فنقُول: أولياءُ اللهِ؟!

وقَدْ وَصفَهُم اللهُ تَعالَى بوَصْفٍ أدقَّ مَا يَكُونُ مِنَ الأوصَافِ، فقَالَ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۝٦٣﴾ [يونس:٦٢-٦٣] وهَؤُلاءِ هم أولياءُ اللهِ.

[١] وقَوْلُهُ: «**وأَمَرَ مُحمَّدًا وهُوَ آخرُهُم أنْ يقُول:** ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾» هَذه الجُملة هِيَ الجُمْلةُ الَّتِي قَالَهَا نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ﴾ كذَلِكَ، ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّى مَلَكٌ﴾ نَفْس الشَّيْءِ، فأَمَرَهُ اللهُ تعالى أنْ يقُولَها، ولَا شَكَّ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أعبدُ النَّاس للهِ وأوفاهُم لَهُ فلا بُدَّ أنَّه قَالَ هَذا.

إِذَن: اتَّفقتْ كلمَةُ الرُّسلِ عليهِمُ الصَّلاة والسَّلام أوَّلُهم وآخرُهم عَلَى هذِهِ الجمَلِ:

١- أنَّهُم لَا يعلَمُونَ الغيبَ.

٢- ولَيْس عندَهُم خزائنُ اللهِ.

٣- وليْسُوا مِنَ المَلائِكة.

وقوله: «**وأن يقُولَ**» يَعْني مُحمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وأنْ يقُولَ: ﴿لَآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِى نَفۡعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾[١] [الأعراف:١٨٨] وأنْ يقُولَ: ﴿إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلۡ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنۡ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدًا﴾[٢] [الجن:٢١-٢٢].

---

[١] قوله: «﴿لَآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِى نَفۡعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأعراف:١٨٨]»؛ قوله: ﴿لَآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِى﴾ يَعْني: لَا أملِكُ أنْ أنْفعَ نفْسِي ولَا أضُرَّها ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾، و«إلَّا» هُنَا الظَّاهرُ أنَّها استثْنَاءٌ مُنقطِعٌ، يَعْني: لَكِن مَا شَاءَ اللهُ أنْ يقعَ مِنْ نفعٍ أَو ضُرٍّ فيقَعُ، ولَيْسَ المَعْنَى لَا أملِكُ إلَّا مَا شَاءَ اللهُ أنْ أملِكَ، فالظَّاهِرُ أنَّه مُنقَطِعٌ، ويجُوزُ أنْ يَكُون مُتَّصلًا، لَكِنَّ المَقصُودَ أنَّ الرَّسُول عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لَا يمْلِكُ لنَفْسِهِ نَفْعًا ولَا ضرًّا؛ فَمَاذَا لَوْ قِيلَ: إنَّه لَا يَمْلِكُ لنَفْسِهِ ولَكِن يمْلِكُ لغَيْرِهِ؟ قُلْنا: هَذَا أبعَدُ، فمَنْ «لَا يملِكُ أن ينْفَعَ نفْسَهُ أَوْ يَضرَّها»؛ فعَدَمُ نفعِ غَيرِهِ وضَررِهِ مِنْ بَابِ أَوْلَى لَا شَكَّ.

[٢] وأمَرَهُ «أنْ يقُولَ: ﴿قُلۡ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾» «﴿ضَرًّا﴾» فِي أبْدانكِمْ و﴿رَشَدًا﴾ فِي عُقُولِكُمْ وتَصرُّفكُم فَلَا أملِكُ هَذَا.

وقوله: «﴿قُلۡ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنۡ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدًا﴾» ﴿لَن يُجِيرَنِي﴾ أَيْ لَنْ يَمنعَنِي مِنَ اللهِ؛ أي إنْ أرَادَ بِي سُوءًا فَلَا أحَدَ يَمنعُنِي مِنَ اللهِ، ﴿وَلَنۡ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدًا﴾ يَعْنِي: لَنْ أجِدَ مِنْ دُونِهِ مَلْجأً ومَلاذًا لَوْ أرَادَنِي بسُوءٍ، فأَنَا لَا أمْلِكُ أنْ أُدافِعَ لَا أنْ أمْتنِعَ بأَحدٍ؛ وهَذَا يقُولُهُ الرَّسُولُ للأُمَّةِ كُلِّها.

والعَجَبُ أنَّ قومًا مِنَ النَّاس ادَّعوا محبَّةَ الرَّسُول عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وكذَّبُوه ضِمنًا فِي قَوْلِهِ: ﴿لَآ أَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ فصَارُوا يدَّعونَ الرَّسُول عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؛ بأنْ يجلِبَ لهُمُ الخَيْرَ ويدْفَعَ عنهُمُ الشَّرَّ ويقُولُونَ: هَذَا مِنْ تعظِيمِه وهَذَا مِنْ محبَّتِهِ؛

وإِذَا نُهُوا عَنْ ذَلِكَ قَالُوا للنَّاهِي: أَنْتَ تَبْغِضُ الرَّسُول! أَنْتَ مُتنقِّص للرَّسولِ! ومَا أَشْبه ذَلِكَ؛ فأيُّ الفريقَينِ أحَقُّ بالصَّوابِ؟ الجَوابُ: النَّاكِر؛ أَمَّا المُثبِتُ فهُوَ أَعْدَى مَنْ يَكُونَ للرَّسُولِ ﷺ لأَنَّه كَذَّبه وَوَقَعَ فِي مَا نَهى عنْهُ، حيْثُ قَالَ: «لَا تَغْلُوا فِيَّ»، ولكنَّه أَبَى إِلَّا أن يَغْلُوَ فِي الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

فَمَا وظِيفَةُ الرَّسُولِ إِذَا انْتَفَتْ عنْهُ هذِهِ الصِّفاتُ؟

الجَوابُ: قَالَ تعَالَى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾ فقَطْ ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آل عمران:٢٠]؛ ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [الكهف:١١٠]؛ فوَظيفتُهم البلَاغُ: أنْ يُبلِّغُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْهم، أَمَّا أنْ ينْفَعُوا النَّاس أَو يَضرُّوهُمْ فَلَا، لَكِن يَأْتِي إِنسَانٌ يُلَبِس على العَامَّة، فيقُولُ: الرَّسُول نَفَعني، فدَلَّني عَلَى الخَيرِ وبَيَّن لِيَ الخَيرَ، وحَذَّرني مِنَ الشَّرِّ وبَيَّنَ لِي طُرُقَ الشَّرِّ فنَفَعَنِي.

والجوابُ عَن هَذا أن نَقُول: هَذا للرَّسولِ ولغَيرِهِ، حتَّى إن العُلَماء يَفعَلُون مِثْلَ ذَلِكَ، لَكِن لا يَملِكُ الرَّسُول أن يُوفِّقَك أنْ تَهتَدِيَ، وهَذَا هُوَ بَيْتُ القَصِيدِ: «أنَّ الرَّسُول لَا يملِكُ»، أَمَّا أنْ يبلِّغَ الرِّسالَةَ فالرَّسُول يملِكُ هَذا كغَيرِهِ، فحتَّى العُلَماء يملِكُون ذَلِك الشَّيْء، لَكِن يمْلِكُ أن يهْدِيَكَ ويُوفِّقَك؟ كَلَّا؛ فَمَا استَطَاعَ أن يَهدِي عَمَّهُ الَّذِي دَافَعَ عنْهُ واستَمَاتَ فِي المُدافعَةِ عَنْهُ، مَا مَلَكَ أَنْ يَنفَعَهُ وهُوَ يدْعُوه عِنْد مَوتِهِ فِي أَضْيَقِ مَا يكُونُ: «قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ عِنْد اللهِ» فعَجزَ الرَّسُول عَن ذَلِك عَجْزًا، فآخِرُ مَا قَالَ أَبُو طَالبٍ: إِنَّه عَلَى مِلَّةِ عبْدِ المُطَّلِبِ[1].

(١) أخرجه البخاري: كتاب مناقب الأنصار، باب قصة أبي طالب، رقم (٣٨٨٤)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الدليل على صحة إسلام من حضره الموت، رقم (٢٤)، من حديث المسيب بن حزن.

ونُؤمِنُ بأنَّهُم عَبيدٌ مِنْ عِبادِ اللهِ أكرَمَهُمُ اللهُ تعالَى بالرِّسالَةِ[١]، ووصَفَهُم بالعُبوديَّةِ فِي أعْلَى مَقامَاتِهِمْ، وفِي سِياقِ الثَّناءِ عَلَيْهِمْ؛ فقالَ فِي أوَّلِهِمْ نُوحٍ: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾[٢] [الإسراء:٣]، وقَالَ اللهُ تعالَى فِي آخِرِهِمْ مُحمَّدٍ ﷺ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾[٣] [الفرقان:١].

---

[١] وقوله: «ونُؤمِنُ بأنَّهُم عَبيدٌ مِنْ عِبادِ اللهِ أكرَمَهُمُ اللهُ تعالَى بالرِّسالَةِ» نعَمْ، نُؤْمِن بهَذَا، ولَا شَكَّ أنَّ اللهَ منَّ عليهِمْ بالرِّسالَةِ أعظَمَ المِنَّةِ، وأنَّ الرِّسالَةَ مِنْ أكْبَرِ النِّعمِ، بَل هِيَ أكبَرُ النِّعمِ بعْدَ الهِدايَةِ للإسلَامِ، وحينَئِذٍ نَقُول: مَنْ وَرِثَ الأنبياءَ فِي عِلْمِهِمْ ودَعْوَتِهم إِلَى اللهِ واستقَامَةِ حَالِهِ فقَدْ أكرَمَهُ اللهُ، وكُلُّ مَسْأَلَةٍ يمُنُّ اللهُ عَلَيْكَ بعِلْمِهَا فهِيَ إكرَامٌ مِنَ اللهِ لَكَ، لأنَّكَ زِدْتَ عَلَى الجَهْلِ مَرتَبَةً، فيَجِبُ عَلَى طَالِبِ العِلْم أن يشْعُرَ بأنَّ اللهَ تَعالَى أكْرَمَهُ بِما مَنَّ علَيْه بطَلَبِ العِلْم كَما أكْرَمَ الرُّسلَ بالرِّسالَةِ.

[٢] وقوله: «ووَصَفَهُم بالعُبوديَّةِ فِي أعْلَى مَقَامَاتِهِمْ، وفِي سِياقِ الثَّناءِ عَلَيْهِمْ؛ فقَالَ فِي أوَّلهم نُوح: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء:٣]» فوَصَفَهُ اللهُ بالعُبوديَّةِ فِي مَقَامِ الثَّناءِ أنَّه عَبْدٌ شَكُورٌ؛ ولهَذَا لَـمَّا قِيلَ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ علَيْه وعَلَى آلِهِ وسَلَّم: كَيْفَ تَقُوم اللَّيلَ إِلَى هَذَا الحَدِّ؟ يَعنِي: إِلَى أنْ تَتورَّمَ قَدَمَاهُ؛ قَالَ: «أفَلَا أكُونُ عَبْدًا شَكُورًا»(١).

[٣] وقوله: «وقَالَ اللهُ تعالَى فِي آخِرِهم مُحمَّد ﷺ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجمعة، باب قيام النبي ﷺ الليل، رقم (١١٣٠)، ومسلم: كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة، رقم (٢٨١٩)، من حديث المغيرة بن شعبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقَالَ فِي رُسُلٍ آخَرِينَ: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾[١] [ص:٤٥] ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾[٢] ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾، وقَالَ فِي عِيسَى ابْنِ مَريَمَ: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾[٣].

عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان:١]» فوَصَفَ الرَّسُولَ ﷺ بالعُبودِيَّةِ فِي أعْلَى المقَامَاتِ وهِيَ مقَامُ الرِّسالَةِ.

[١] قَوْلُهُ: «وَقَالَ فِي رُسُلٍ آخَرِينَ: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [ص:٤٥]» أُولِي الأيدِ: أَي القُوَّةِ فِي دِينِ اللهِ: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ﴾ وإبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ هُو الثَّاني مِنَ البَشرِ فِي الفضِيلَةِ: ﴿وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾ هَؤُلاءِ -أيضًا- مِنَ الرُّسُلِ، ووُصِفُوا بالعُبودِيَّةِ.

[٢] قَوْلُهُ: «﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ﴾» أَيْ: ذَا القُوَّةِ ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾.

[٣] قَوْلُهُ: «﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ وقَالَ فِي عِيسَى ابْنِ مَريَمَ: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾» إِذَنِ: العُبودِيَّةُ وَصْفٌ للرُّسلِ عليهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ، وهُوَ مِنْ مَنَاقِبِهِمْ وفَضَائِلِهِمْ.

يَقُولُ العَاشِقُ لمَعشوقَتِهِ(١):

لَا تَــدْعُني إِلَّا بِيَــا عَبْــدَهَا ... فَإِنَّـــهُ أَشْرَف أســـمائي

نعُوذُ باللهِ! يَقُول: إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَدعُوَني بأَشْرَفِ وأَحبِّ الأَسْماءِ إِليَّ فقُلْ: يَا عَبْدَ فُلانَةٍ؛ لأَنَّه يُحِبُّها حُبًّا شَدِيدًا، فقَلْبُه مُعبَّدٌ بِهَا.

---

(١) البيت غير منسوب، وانظر: تفسير القرطبي (١/ ٢٣٢)، و تفسير ابن كثير (١/ ٥٠).

وَنُؤْمِنُ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَى خَتَمَ الرِّسَالَاتِ بِرِسَالَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَأَرْسَلَهُ إِلَى جَمِيعِ النَّاسِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[1] [الأعراف:١٥٨].

وقَالَ الشَّاعِرُ(١):

وَمِـمَّا زَادَنِـي شَرَفًـا وَتِيهًـا ... وَكِـدْتُ بِأَخْمَصِـي أَطَـأُ الثُّرَيَّـا

دُخُولِي تَحْتَ قَولِكَ يَا عِبَادِي ... وَأَنْ صَيَّرْتَ أَحْمَدَ لِـي نَبِيًّـا

«بِأَخْمَصِي» أَيْ: بقَدَمِي. «أَطَأُ الثُّرَيَّا» فأَكُونُ فوقَها، «يَا عبَادِي» أَيْ عِبَادَ الشَّرعِ لَا القَدَرِ.

[١] قَوْلُهُ: «ونُؤمِنُ أَنَّ خَتْمَ الرِّسالَاتِ برَسَالِةِ مُحَمَّد ﷺ وأرْسَلَهُ إِلَى جَمِيع النَّاس لقَولِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾».

فقَولُهُ تعَالَى: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ﴾ وصَفَهُ اللهُ تعَالَى بثَلَاثَةِ أشياءَ: رَسُولٌ، نَبيٌّ، أُميٌّ.

أَمَّا «رَسُولٌ» فظَاهِرٌ لأَنَّه أُمِرَ بتَبَلِيغِ الشَّرِيعَةِ، وأَمَّا «نَبيٌّ» فظَاهِرٌ أَيْضًا لأَنَّه نُبِّئَ

---

(١) البيتان ينسبان للقاضي عياض، انظر: حاشية قليوبي (١/ ٧)، حاشية البجيرمي على شرح الخطيب (١/ ١١).

....

وأُوحِيَ إِلَيْهِ، وأَمَّا كَوْنُه «أُميًّا» فظَاهِرٌ لأَنَّه مِنَ العَرَبِ، والعَرَبُ أُمِّيون كَما قَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [الجمعة:٢].

فإِنْ قَالَ قَائِل: وَصْفُ الرِّسالَةِ وصْفٌ مطْلُوبٌ؛ وَصْفُ ثَناءٍ ومَدْحٍ، وكذَلِكَ النُّبوَّةُ؛ لَكِن وَصْفُ الأميَّةِ هَل يَأْتِي للمَدْحِ أَو لَا؟

فالجَوابُ فِي هَذَا المَقَامِ: أنَّه صِفَةُ مدْحٍ؛ لأَنَّ كَوْنه أُميًّا ويَأْتِي بهَذَا الكتَابِ العَظِيمِ الَّذِي فِيهِ الزَّكاءُ والحِكْمَةُ يدُلُّ عَلَى أنَّه رَسُولُ اللهِ حقًّا؛ إِذْ إِنَّ الأُميَّ لَا يُمْكِن أن يَأْتِيَ بمِثْلِ هَذَا، فيَكُونُ وصفُهُ بالأُميَّةِ تأكِيدًا لصِحَّةِ نُبوَّتِهِ صلَّى اللهُ علَيْه وعَلَى آلِهِ وسَلَّمَ، وحينَئذٍ ينْقَلِبُ هَذَا الوَصْفُ مَدْحًا.

وهُنَا فائِدَة: إذَا كَانَ المقصُودُ: مِنَّةُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ عَلَى عُمُومِ النَّاس ببَعْثِ الرَّسُولِ ﷺ تجِدُ التَّعبيرَ القُرآنيَّ يقُولُ: «مِنْ أنفسِهِمْ» وإِذَا كَانَ المَقْصُودُ العَربَ تجِدُهُ يقُولُ: «منهُمْ»؛ فقَولُهُ تَعالَى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران:١٦٤]، وقَالَ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [الجمعة:٢].

فإِذَا كَانَ المقصُودُ الإِيمانَ والإِسْلامَ فهُو «مِنْ أنفسِهِمْ» فيَعُمُّ جَمِيع النَّاس، وإِذَا كَانَ المقصُودُ النَّسبَ قِيلَ: «منهُمْ»؛ وهَذِه القَاعدَةُ تحْمِيكَ مِنَ الخَطَأِ أَوِ النِّسيَانِ.

وقَوْلُهُ تعَالَى: «﴿ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾» صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ؛ ﴿يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ﴾ كَما قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة:٢٨٥].

وقَوْلُهُ: ﴿وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾ أَيِ: القُرآنُ الكَرِيمُ.

إذَنِ: النَّبيُّ ﷺ مُكلَّفٌ أنْ يُؤمِنَ بأَنَّه رَسُولُ اللهِ، وأنْ يُؤمِنَ بالقُرآنِ كغَيرِه.

وقَوْلُهُ تعالَى: ﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ «اتَّبِعُوه» أي: اتَّبِعُوا شَرِيعَتَهُ، وقَوْلُهُ: ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ هَذا للتَّعليلِ؛ أي: لأجْلِ أنْ تهتَدُوا.

فالشَّاهِدُ قَوْلُهُ تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ والَّذِين قَالُوا: إنَّه رَسُولٌ إِلَى العرَبِ فقَطْ؛ هَلْ آمَنُوا بِرسالَتِهِ إِلَى العَرَبِ؟ لَا، لَمْ يُؤمِنُوا بِهَا، فنَقُولُ لهُمْ: لَو كُنْتُمْ آمنتُمْ بأَنَّه رَسُولٌ إِلَى العربِ لزِمَكُم أنْ تُؤمِنُوا بأَنَّه رَسُولٌ إِلَى العَالَمِينَ، لأَنَّ اللهَ قَالَ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا﴾ [الجمعة:٢]. وقَالَ تَعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ فلِماذَا تصدِّقُونه فِي شَيْءٍ وتُكذِّبونَه فِي شَيْءٍ؟! ومَعْلُومٌ أنَّ مَنْ آمَنَ ببَعْض وكَفَر ببَعْضٍ فقَدْ كَفَرَ بالكُلِّ.

والدَّلِيل عَلَى أنَّ اللهَ خَتمَ بِهِ الرِّسالَاتِ قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب:٤٠].

وهَذِهِ الآيَةُ سقَطَتْ مِنِّي سَهْوًا وإلَّا فقَدْ كَانَ يَنْبَغِي أن تُذكَرَ فِي المتْنِ؛ لأَنَّه إنْ قِيلَ: مَا الحُكْمُ؟ فالجواب: الحُكْمُ خَتْمُ الرِّسالَاتِ بِرِسالَةِ مُحمَّد ﷺ، فكَانَ يَنْبَغِي أن يُذْكَرَ الدَّلِيل، فالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾.

وكَوْنُه خَاتَمَ النَّبيِّينَ يُفْهَمُ مِنْ عُمُومِ الرِّسالَةِ، لكنَّه باللَّازِم، وكَوْنُ الشَّيْء يُذْكَرُ بالمطَابقَةِ أَوْلَى مِنْ كَوْنِهِ يُذكَرُ باللَّازِم، وإلَّا فلَا شَكَّ أَنَّنا إِذَا قُلْنا: مُحَمَّدٌ ﷺ رَسُولُ اللهِ إِلَى النَّاس إِلَى يَوْمِ القِيامَة لَزِمَ أنْ يَكُون خاتَمَهُم.

وَنُؤْمِنُ بِأَنَّ شَرِيعَتَهُ ﷺ هِيَ دِينُ الإِسْلَامِ الَّذِي ارْتَضَاهُ لِعِبَادِهِ، وَأَنَّ اللهَ تَعَالَى لَا يَقْبَلُ مِنْ أَحَدٍ دِينًا سِوَاهُ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾[١] [آل عمران:١٩] وَقَوْلِهِ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[٢] [المائدة:٣]..............................

---

[١] قَوْلُهُ: «نُؤمِنُ أَنَّ شَرِيعَتَهُ هِيَ دِينُ الإِسْلام، الَّذِي ارْتَضَاهَا اللهُ لعِبَادِهِ، وأنَّ اللهَ لَا يَقْبَلُ لعِبَادِهِ دِينًا سِوَاهُ؛ لقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾»، وهَذِه الآيَةُ حَصْرٌ لتَعرِيفِ رُكنَيْهَا: «الدِّين» و«الإِسْلَام» وكِلَاهُما معرَّفةٌ، وإذَا كَانَ رُكنَا الجُملَة مَعرِفَةً صَارَتْ دَالَّةً عَلَى الحَصْرِ، فالدِّينُ عِنْد اللهِ هُو الإِسْلَامُ.

وبعْدَ بعثَةِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليْه وعَلَى آلِهِ وسَلَّم لَا يُرَادُ بالإِسْلامِ إِلَّا الدِّينُ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُحمَّد ﷺ، وأَمَّا قَبْلَ بعثَتِهِ فيُطلَقُ الإِسْلام عَلَى كُلِّ دِينٍ قَائِم، ولهَذَا قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟﴾ [المائدة:٤٤]؛ وقَالَتْ مَلِكَةُ سَبأٍ: ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [النمل:٤٤].

لَكِن بعْدَ بعثَةِ الرَّسُول ﷺ لَا إِسْلَامَ إِلَّا شرِيعتُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

[٢] وقَوْلُهُ: «﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾» أكمَلتُ لكُمْ دينكُمْ أَي: جعلْتُه كَامِلًا ولَيْس المَعنَى أَنَّنِي ختَمْتُه؛ لأَنَّه قَد نَزَلَتْ آيَاتٌ بعْدَ هذِهِ الآيَةِ.

وقَوْلُهُ: «﴿ٱلْيَوْمَ﴾» «أل» هُنَا للعَهْد الحُضُوريِّ، أَي: اليَومَ الَّذِي نَزَلَتْ فِيهِ هذِهِ الآيَةُ وهُوَ يَوْمُ عرفَةَ كَمَا صَحَّ ذَلِك عَنْ عُمرَ بْنِ الخَطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حِينَ قَالَ لَهُ يهودِيٌّ: لقَدْ أَنْزَلَ اللهُ علَيْكُمْ آيَةً لَوْ نزلَتْ علَيْنَا لاتَّخذنَاهَا عِيدًا! قَالَ: مَا هِيَ؟

وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[1] [آل عمران:٨٥].

قَالَ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ قَالَ: إِنِّي لأَعْلَمُ أَيْنَ نزلَتْ ومَتى نزَلَتْ؛ نزَلَتْ يَوْمَ عرَفَةَ عَلَى النَّبيِّ صلَّى اللهُ علَيْه وعَلَى آلِهِ وسلَّمَ وهُوَ واقِفٌ بعَرَفَةَ.

وقَوْلُهُ تعالَى: ﴿أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ فِيه دَلِيلٌ عَلَى أنَّ جَمِيعَ البِدَعِ ليسَتْ مِنَ الدِّينِ، لَوْ كَانَ مِنَ الدِّينِ لذَكَرَهَا اللهُ عَزَّوَجَلَّ، وفِيهِ تحْذِيرٌ بليغٌ مِنَ البِدَعِ لأَنَّ المُبتَدِعَ ظَاهِرُ فعلِهِ يُناقِضُ الآيَةَ لأنَّ هذِهِ البِدْعَةَ الَّتِي اتَّخذَها دِينًا جاءَتْ بعْدَ نُزُولِ الآيَةِ فمُقتضَى هَذَا المُبتدِعِ: أَنَّه يقُولُ: الدِّينُ لمْ يكْمُلْ، والآيَةُ يقُولُ اللهُ فِيهَا: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ فنَقُولُ عَلَى زَعمِكَ: الدِّينُ لَمْ يَكمُلْ إلَّا ببِدْعَتِكَ!

وهَذِه مَسْأَلَةٌ خطِيرَةٌ جدًّا لو تأَمَّلَها أَهْلُ البِدَعِ لخَافُوا مِنْها: أن تكُونَ بدْعَتُهم تكْذِيبًا للقُرآنِ، لأَنَّ هَذَا المُبتدِعَ يقُولُ: هَذَا دِينٌ؛ ونَقُولُ: أَيْنَ هُو فِي القُرْآنِ والسُّنَّة؟ فهُو غَيْرُ مَوجُودٍ، فصَحَّ أنَّ بدعتَكَ تُكذِّب قَوْلَه تعَالَى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾

[١] وقَوْلُهُ: «﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾» «مَنْ يَبتَغِ» أَي: يطلُبُ غَيْرَ الإِسْلام دينًا يَدِينُ اللهَ بِه، فلَنْ يُقبلَ مِنْهُ، وهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الخَاسِرِينَ، والَّذِي يشْهَدُ لِهَذِهِ الآيَةِ مِنَ السُّنَّةِ قَوْلُ الرَّسُولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ علَيْه أَمْرُنا فَهُوَ رَدٌّ**»(١).

فأُولَئِكَ النَّصارَى فِي كَنَائِسِهِم، الَّذِينَ يَبْكُون ويَخشَعُون ويتَرَنَّمُون بالصَّلاةِ لَا يُقبَلُ مِنهم، وهُمْ فِي الآخِرَةِ مِنَ الخَاسرِينَ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة، رقم (١٧١٨)، من حديث عائشة.

وَنَرَى أَنَّ مَنْ زَعَمَ اليَوْمَ دِينًا قَائِمًا مَقْبُولًا عِنْدَ اللهِ سِوَى دِينِ الإِسْلَامِ، مِنْ دِينِ اليَهُودِيَّةِ أَوِ النَّصْرَانِيَّةِ أَوْ غَيْرِهِمَا، فَهُوَ كَافِرٌ[١]، ثُمَّ إِنْ كَانَ أَصْلُهُ مُسْلِمًا يُسْتَتَابُ، فَإِنْ تَابَ وَإِلَّا قُتِلَ مُرْتَدًّا؛ لِأَنَّهُ مُكَذِّبٌ لِلْقُرْآنِ[٢].

---

[١] قَوْلُهُ: «وَنَرَى أَنَّ مَنْ زَعَمَ اليَوْمَ دِينًا قَائِمًا مَقْبُولًا عِنْدَ اللهِ سِوَى دِينِ الإِسْلَامِ، مِنْ دِينِ اليَهُودِيَّةِ، أَو دِينِ النَّصرانيَّةِ، أَو غَيرِهِمَا، فَهُوَ كَافِرٌ»؛ لأَنَّه مُكَذِّب للهِ؛ فإِنَّ اللهَ تَعَالَى يقُولُ: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ إذَنْ: هُوَ كَافِرٌ لتكذِيبِهِ.

[٢] قَوْلُهُ: «ثُمَّ إِنْ كَانَ أَصْلُه مُسلمًا يُستتَابُ، فإِنْ تَابَ وإِلَّا قُتِلَ مُرتَدًّا؛ لأَنَّه مُكذِّبٌ للقُرآنِ» فإِنْ كَانَ أَصْلُه كَافرًا وادَّعَى أَنَّ دينَهُ مَقبُولٌ عِنْد اللهِ فهَل يُستتَابُ ويُقتَلُ؟ لا يُستتَابُ، بَلْ يُعامَلُ مُعامَلَةَ الكُفَّارِ، فيُدْعَى إِلَى الإِسْلام، فإِنْ أَبَى فيُلزَمْ بالجِزْيَةِ، فإِنْ أَبَى قُوتِلَ.

فإِنْ قِيلَ: مَا حُكْمُ الدَّعوَةِ إِلَى توحِيدِ الأَدْيَانِ؟

فالجَوابُ: أَنَّنا نَرَى أَنَّ الَّذِي يَدْعُو إِلَى وحْدَةِ الأَدْيَانِ -بمَعْنَى أَنْ يقُولَ: إِنَّ كُلَّ الأديانِ مَقبولَةٌ- نَرَى أَنَّه دَاعٍ إِلَى الكُفْرِ؛ لأَنَّه لَيْسَ هُناكَ دِينٌ فِي الأَرْضِ سِوَى الإِسْلامِ، فكُلُّ الأديَانِ غَيْرُ الإِسْلامِ بَاطِلَةٌ، ولَا تُعتَبَرُ دِينًا، فمَنْ دَعَا إِلَى تَوحِيدِهَا أَيْ: إِقْرَارِهَا وأَنَّهَا مَقبُولَةٌ عِنْد اللهِ فهُوَ لَا شَكَّ أَنَّه مُرتَدٌّ عَنِ الإِسْلامِ، ودَاعٍ إِلَى الكُفْرِ.

أَمَّا مَنْ دَعَا إِلَى تَوحِيدِ الأَدْيَانِ -بمَعْنَى أَنْ نجعَلَ كُلَّ إنسَانٍ عَلَى دِينِهِ- فننْظُر، إِنْ كَانَ مُرادُهُ إبطَالَ الجِهَادِ ومَسحَهُ مِنْ قَائمَةِ الإِسْلامِ فهَذَا مُرتَدٌّ.

....

وإنْ كَانَ قصْدُه أنَّ الأُمَّةَ الإسْلاميَّةَ اليَوْمَ لَا تَستَطِيعُ أنْ تحفَظَ نفسَهَا، فَضْلًا عَن أَنْ تُحاوِلَ إصْلَاحَ غيرِهَا، فهَذَا صَحِيحٌ، ولا بُدَّ مِنْ ذَلِك، أَيْ لَا بُدَّ مِنْ إقَامَةِ المعَاهَدَةِ؛ لأَنَّنا عَاجِزُونَ فِي الوَاقِعِ أَتَمَّ العَجْزِ، ولَا يُغرَّنكُمُ التَّطبِيلُ والتَّهويلُ!.

فالمُهمُّ: أنَّ الَّذِين يَدْعُونَ إِلَى توحِيدِ الأَدْيَانِ إنْ أَرَادُوا أن تكُونَ دِينًا مَقبُولًا عِنْد اللهِ فهَذِهِ رِدَّةٌ؛ لأَنَّها تَكذِيبٌ للقُرآنِ، وإنْ أرادُوا بالتَّوحيدِ أن نجْعَلَ كُلَّ إنسَانٍ عَلَى دِينِهِ ونَسكُتَ، فهَذَا أيْضًا إبطَالٌ للجِهَادِ فِي سَبيلِ اللهِ، وإنْ أرادُوا بهَذَا المصَالحَةَ والمهَادنَةَ مَا دُمْنَا عَاجِزينَ فهَذَا حَقٌّ، والإنْسَانُ يجِبُ أن ينظُرَ إِلَى الوَاقِعِ، والرَّسُولُ عَلَيهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -أحْكَمُ الخَلْقِ- نَظَرَ إِلَى الوَاقِعِ فِي صُلْحِ الحُديبيَةِ، والْتَزَمَ بما يَظنُّه بَعْضُ الثَّائرين عنْدَنا انهزَاميَّةً، حيْثُ وَافَقَ عَلَى الشُّروطِ القَاسِيَةِ التِي عجزَ عَنِ الصَّبْرِ عَلَيْها مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْهَا فِي بَادِئِ الأَمْرِ، مِثْلَ عُمرَ بْنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَجزَ أنْ يَصْبرَ؛ لأنَّه نظَرَ إِلَى الأَمْرِ مِنْ بَادئِهِ لَا مِنَ العُمْقِ، فجَاءَ إِلَى الرَّسُولِ ﷺ يقُولُ: لَهُ كَيْفَ نُعطِي الدَّنيَّةَ فِي دِينِنَا؟ وكَيْفَ نفْعَلُ؟ لكِن أجَابَهُ الرَّسُولُ ﷺ بجَوَابٍ مُقنِعٍ، قَالَ: «إِنِّي رَسُولُ اللهِ» أَيْ: ولَنْ أَحِيدَ عَنْ تَوجِيهِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ «وَلَسْتُ أَعْصِيهِ، وَهُوَ نَاصِرِي»(١). ثلَاثُ جُمَلٍ تُسكِّتُ كُلَّ إنسَانٍ: رَسُولُ اللهِ، ولسْتُ أَعْصِيهِ، وَهُوَ نَاصِرِي؛ أَي: أَنَّ النَّصرَ لا بُدَّ أنْ يَكُون لِي.

فذَهَبَ عُمَرُ إِلَى أَبِي بَكْرٍ يقُولُ لَهُ مِثْلَ مَا قَالَ للرَّسولِ عَلَيهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فرَدَّ علَيْه مِثْلَ مَا قَالَ الرَّسُول عَلَيهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ تمَامًا، وبِهِ نَعرِفُ أنَّ أبَا بكْرٍ أقْوَى جأشًا،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد، رقم (٢٧٣١)، من حديث المسور ابن مخرمة، ومروان بن الحكم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

....

وأشَدُّ تَثْبيتًا مِنْ عُمرَ، وغَيرَةً مِنْ بَابِ أَوْلَى؛ لأَنَّه صَبَرَ فِي مَواطِنِ الشِّدَّةِ أَكْثَرَ مِنْ صَبْرِ عُمَرَ، هَذَا مَوْطِنٌ.

والمَوطِنُ الثَّاني: عِنْدَ مَوتِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فإِنَّ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَـمَّا قِيلَ: إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ مَاتَ وأُعلِنَ موتُهُ قَامَ خَطِيبًا فِي النَّاسِ فِي المسْجِدِ، يقُولُ: إِنَّ الرَّسُول ﷺ لَم يَمُتْ، يَعْني: إنَّما أُغْمِيَ عَلَيْه «وليبْعثنَّهُ اللهُ، فَلَيُقطِّعَنَّ أَيْدِي رِجَالٍ وأَرجُلَهُم»(١)، وأَنْكَرَ ذَلِك أَشَدَّ الإِنكَارِ، فقَامَ خَطِيبًا وهُوَ مَنْ هُوَ!.

لكنَّ أَبَا بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هُوَ أَشَدُّ النَّاس -فيمَا نَظُنُّ- مُصيبةً بالرَّسولِ ﷺ، وكَانَ الرَّسُول ﷺ فِي ذَلِكَ اليَوم قَدْ رُئِيَ مِنْهُ نَوعٌ مِنَ النَّشاطِ، فخَرَجَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى بُستَانٍ لَهُ فِي السُّنحِ، فجَاءَهُ الخَبَرُ أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ مَاتَ فجَاءَ إِلَى الرَّسُول ﷺ ودَخَلَ بتُؤُدَةٍ، ورَبَاطَةِ جَأْشٍ، وطُمأنينَةٍ، وكَشَفَ عَنْ وَجْهِهِ، فإِذَا هُوَ قَدْ مَاتَ، فقَبَّلَهُ يبكِي، ويقُولُ: «بأَبِي أَنْتَ وأُمِّي طِبْتَ حَيًّا ومَيِّتًا، واللهِ لَا يجمَعُ اللهُ عَلَيْك موتَتَينِ، أَمَّا المَوتَةُ الأُولَى فقَدْ مِتَّهَا»، ثُمَّ خَرَجَ إِلَى النَّاسِ وإِذَا النَّاس قَد مَاجُوا وهَاجُوا، ووَجَدَ عُمرَ يتكَلَّم، فقَالَ لَهُ: عَلَى رِسْلِكَ! تَأَنَّ! ثُمَّ صَعِدَ المنْبِرَ، وخطَبَ النَّاس تِلْكَ الخُطْبَةَ العَظِيمَةَ، الَّتِي تَستحِقُّ أَنْ تُكتَبَ بمِدَادِ الذَّهبِ، فقَالَ: «أَمَّا بعْدُ: فمَنْ كَانَ يَعبدُ مُحَمَّدًا فإِنَّ مُحَمَّدًا قَد مَاتَ -يَعْنِي ولتَمُتْ عِبادَةُ مَنْ عَبدَهُ-، ومَنْ كَانَ يعبدُ اللهَ فإِنَّ اللهَ حَيٌّ لَا يمُوتُ».

ثُمَّ قَرَأَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَوْلَهُ تعَالَى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر:٣٠] وقَوْلَهُ تَعَالَى:

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب أصحاب النبي ﷺ، باب قول النبي ﷺ: «لو كنت متخذًا خليلًا»، رقم (٣٦٦٧)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

....

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ [آل عمران:١٤٤] قَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ قَرَأَهَا أَبُو بَكْرٍ فَمَا تُقِلُّنِي رِجْلَايَ، فَبَرَكَ إِلَى الأَرْضِ وعجزَ أَنْ يَقِفَ، فَأَيْقَنَ أَنَّه الحَقُّ، وهَذَا مَوطِنٌ عَظِيمٌ جِدًّا، ومَعَ ثَبَاتِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هَذَا الثَّبَاتَ العظِيمَ، وعجزَ عَنْ تَحَمُّلِهِ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ومَا أَكْثَرَ مَنْ كَانُوا مِثْلَ عُمرَ فِي ذَلِك الوَقْتِ.

أَمَّا المَوطِنُ الثَّالث: فإِنَّه حِينَ مَاتَ النَّبيُّ ﷺ ارتَدَّ مَنِ ارتَدَّ مِنَ العَرَبِ، وعَزَمَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَى قِتَالِهِمْ، وعَارَضَهُ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ كَيْف نُقَاتِلُهُم وقَدْ قَالَ الرَّسُول ﷺ: «**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ**»[(١)]. وقِيلَ لَهُ: كَيْفَ تُرسِلُ جَيْشَ أُسامَةَ إِلَى أَطْرَافِ الشَّامِ ونَحْن نحتَاجُ إِلَيْهِ؟ فأَجَابَ أَبُو بَكْرٍ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فقَالَ لَهُ: «وَاللهِ لَوْ مَنَعُونِي عِقَالًا أَوْ عَنَاقًا كَانُوا يُؤَدُّونَهَا لِرَسُولِ اللهِ ﷺ لَقَاتَلْتُهُمْ، وَاللهِ لَأُقَاتِلَنَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ» والزَّكَاةُ حَقُّ المَالِ، وقَالَ فِي جَيشِ أُسَامَةَ: وَاللهِ لَا أَحُلُّ رَايَةً عقَدَهَا الرَّسُولُ ﷺ[(٢)]، ثُمَّ كَانَت النَّتِيجَةُ -وَالحَمْدُ للهِ- أَنْ غُلِبَ المُرتدُّونَ، وأُخِذَتِ الزَّكَاةُ مِنْ أَمْوَالِهِمْ، وبالنِّسْبَةِ للجَيْشِ فإِنَّه صَارَ لأَهْلِ المدينَةِ هيبَةٌ عظِيمَةٌ فِي قُلُوبِ العَرَبِ، قَالُوا: هَؤُلاءِ أَرسَلُوا جُيوشَهُمْ إِلَى الشَّامِ لتُقَاتِلَ، إِذَن فعِنْدَهُم قُوَّةٌ! فهَابَهُم النَّاسُ.

والمُهِمُّ: أَنَّ أَبَا بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَشَدُّ الصَّحابة ثَبَاتًا فِي مَواطِنِ الشِّدَّةِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب وجوب الزكاة، رقم (١٣٩٩)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله، رقم (٢٠)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) انظر: مصنف عبد الرزاق (٥/ ٤٨٢-٤٨٣)، وسنن سعيد بن منصور (٢/ ٣٦٨).

وَنَرَى أَنَّ مَنْ كَفَرَ بِرِسَالَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ إِلَى النَّاسِ جَمِيعًا فَقَدْ كَفَرَ بِجَمِيعِ الرُّسُلِ[١]، حَتَّى بِرَسُولِهِ الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ مُؤْمِنٌ بِهِ مُتَّبِعٌ لَهُ[٢]، لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء:١٠٥]........

---

[١] قَوْلُهُ: «وَنَرَى أَنَّ مَنْ كَفَرَ بِرِسَالَةِ مُحَمَّد ﷺ إِلَى النَّاسِ جَمِيعًا فقَدْ كَفَرَ بجَمِيعِ الرُّسُلِ» مَنْ كَفَرَ بِرِسَالَةِ الرَّسُول ﷺ كَفَرَ بجَمِيعِ الرُّسلِ، ومَنْ كَفَرَ بعُمومِ رِسالَتِهِ فقَدْ كَفَر بجَمِيع الرُّسلِ؛ لأَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ لَمْ يَأْتِ ويقُولُ: إنَّه رَسُولٌ فقطْ، بَل قَالَ: إنَّه «رَسُولٌ»، و«إِلَى النَّاس جَمِيعًا»، فمَنْ كَفَرَ بأَصْلِ الرِّسالَةِ فهُوَ كَافِرٌ، ومَنْ كَفَرَ بعُمُومِ الرِّسالَةِ فهُوَ أيْضًا: كَافِرٌ؛ لأَنَّه مَا آمَنَ بالرِّسالَةِ عَلَى مَا جاءَتْ بِهِ، ثُمَّ مَنْ كَفَرَ بِهِ فهُو كَافِرٌ بجَمِيعِ الرُّسلِ حتَّى برَسُولِهِ الَّذِي يزْعُمُ أَنَّه مُتَّبعٌ لَهُ.

[٢] قَوْلُهُ: «حتَّى برَسُولِهِ الَّذِي يَزْعُم أَنَّه مُؤمِنٌ بِه، مُتَّبعٌ لَهُ» فالنَّصارَى -مثلًا- إذَا قَالُوا: نَحْن لَا نُؤْمِن أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولٌ إِلَى الخَلْقِ، قُلْنا: أَنْتُمُ الْآنَ كَفَرَةٌ بعِيسَى، ونَقولهُا بمِلْءِ أفْواهِنَا، ونُريدُ أنْ تَصِلَ إِلَى أسماعِهِمْ: إنَّهُم كُفَّارٌ بعِيسَى، وإِنَّ عِيسَى لَوْ خَرَجَ لقَاتَلَهُمْ، والعَجَبُ أنَّ مُحَمَّدًا ﷺ بشَارَةُ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ومَعَ ذَلِكَ يُكذِّبُونَ بِهِ؛ لأَنَّ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ يقُولُ: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف:٦]، فهَلْ يُبشِّرُ بشَيْءٍ لَا يستَفِيدُ مِنْهُ المُبَشَّر؟!

الجَوابُ: لَا، فكَأَنَّهُ يقُولُ: آمنِوا بِهِ فهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ؛ لأَنَّه بشَّرَهُم، والبشَارَةُ هِيَ الإِخْبَارُ بمَا يَسُرُّ، وهُمْ يقُولُونَ: إنَّ الَّذِي بَشَّرَنَا بِهِ أحمَدُ، والَّذِي جَاءَ هُو مُحَمَّد!!

والجَوابُ عَلَى ذَلِك: مِنْ وَجْهَينِ:

فَجَعَلَهُمْ مُكَذِّبِينَ لِجَمِيعِ الرُّسُلِ مَعَ أَنَّه لَمْ يَسْبِقْ نُوحًا رَسُولٌ؛ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ[1] وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّاۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾[2] [النساء:١٥٠-١٥١].

الأَوَّلُ: هَل تمنَعُونَ مِنْ تعدُّدِ الأسماءِ؟! فاسْمُهُ أحمَدُ واسْمُه محُمَّد؛ كِلاهُما، ولَا مَانِعَ.

الثَّاني: أنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ [الصف:٦]. فدلَّ عَلَى أَنَّه لَيْسَ هُناكَ نَبيٌّ مُنتظَرٌ ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم﴾ و«جَاءَ» فعْلٌ مَاضٍ، يَعْني جاءَ بَني إسرَائيلَ أحمَدُ: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ إِذَن: مَنْ كَفَر بمُحمَّدٍ ﷺ فقَدْ كَفَر بجَمِيع الرُّسلِ، ونَقُولُ لَهُ: أَنْتَ كفَرْتَ أيضًا بمَنِ اتَّبعْتَ، والدَّليل: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ مَعَ أَنَّ قومَ نُوحٍ لمْ يُكذِّبُوا إِلَّا نُوحًا، ولم يُوجَدْ رَسُول قبْلَهُ، إذَنْ: كذَّبُوا بالمُرسلِينَ الَّذِين بعدَهُ؛ وذَلِك لأَنَّ مَنْ كَذَّبَ برَسُولٍ فقَدْ كَذَّبَ بجَمِيع الرُّسلِ، إذْ إنَّ الوحْيَ واحِدٌ.

[١] قَوْلُهُ: «**فجعَلَهُم مُكذِّبينَ بجَمِيعِ الرُّسلِ مَعَ أَنَّه لَمْ يَسبِقْ نُوحًا رَسُولٌ، وقَالَ تعَالَى:** ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾» فيُؤمِنُون باللهِ ولَا يُؤمِنُون بالرُّسلِ، أَو يُفرِّقُون بيْنَ الرُّسلِ.

[٢] وقَوْلُهُ: «﴿وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّاۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾»، ﴿أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ أَي بَيْنَ الإِيمانِ والكُفْرِ ﴿سَبِيلًا﴾ أَيْ:

وَنُؤْمِنُ بِأَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدَ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللهِ ﷺ[١]، ....

طَرِيقًا يتخلَّصُون بِهِ مِنْ هَؤلاءِ وهؤلاءِ، وذَلِكَ صَادِقٌ تمَامًا عَلَى المُنافقِينَ، فالمُنافقُونَ يُؤمِنُون ببَعْضٍ ويَكفُرونَ ببعْضٍ: ﴿وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا﴾ أَيْ: أحقُّ ذَلِك حَقًّا: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾.

وليُنتبَّهْ لـهَاتَيْنِ الفَائدَتينِ:

الأُولَى: مَنْ كذَّب رَسُولًا واحدًا فقَدْ كذَّبَ جَمِيعَ الرُّسلِ.

الثَّانيَةُ: مَنْ آمَنَ ببَعْضٍ وكفَرَ ببَعْض فقَدْ كفَرَ بالجَمِيع.

ويترَتَّبُ عَلَى ذَلِك: مَنْ آمَنَ ببَعْض الشَّريعَةِ دُونَ بَعْض، مِثْلَ مَنْ يُؤمِنُ بأنَّ الصَّلاةَ فرْضٌ رُكنٌ مِنْ أركَانِ الإسْلامِ ولَكِن لَا يُؤمِنُ بأنَّ الزَّكاةَ رُكْنٌ مِنْ أركَانِ الإسْلامِ، فهَذَا قَدْ كَفَرَ بالجَمِيع، قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [البقرة:٨٥].

ومِنْ ذَلِك أيضًا مَنْ يَعتَقِدُ حِلَّ الحُكمِ بغَيْرِ مَا أنزَلَ اللهُ، ويجعَلُه قَانونًا مَشْرُوعًا يُرجَعُ إِلَيْه عِنْد التَّنازُعِ، دُونَ الرُّجوعِ إِلَى الكِتَابِ والسُّنَّة، ثُمَّ هُو يُصلِّي، ويصُومُ، ويزكِّي، نَقُول: إنَّه كافِرٌ، وَلَو صلَّى وصَامَ، ولَو زعَمَ أَنَّه مُسلِمٌ؛ لأنَّه آمَنَ ببَعْضٍ وكَفَرَ ببعْضٍ.

[١] قَوْلُهُ: «**ونُؤمِنُ بأنَّه لَا نَبِيَّ بَعْدَ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللهِ ﷺ**» مُستنِدِينَ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب:٤٠]. فَلَا نَبِيَّ بعدَهُ، وبهَذَا نعرِفُ أنَّ مُسيلِمَةَ كَذَّابٌ. والَّذِين جَاؤُوا بعْدَ الرَّسُولِ ﷺ يقُولُونَ: إنَّهُم أنبياءُ؛ كذَّابُونَ

وَمَنِ ادَّعَى النُّبُوَّةَ بَعْدَهُ أَوْ صَدَّقَ مَنِ ادَّعَاهَا فَهُوَ كَافِرٌ؛ لِأَنَّهُ مُكَذِّبٌ لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَإِجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ[١].

وَنُؤْمِنُ بِأَنَّ لِلنَّبِيِّ ﷺ خُلَفَاءَ رَاشِدِينَ خَلَفُوهُ فِي أُمَّتِهِ عِلْمًا وَدَعْوَةً وَوِلَايَةً[٢]،

أَيْضًا، ومَا أكثَرَ مَا يُوجَدُ فِي بَعْضِ البُلْدَانِ الإِسْلاميَّةِ، مَنْ يخرُجُ ويقُولُ: إنَّه نَبِيٌّ يُوحَى إِلَيْهِ، وأَنَا أَسْمَعُ أَنَّه يُوجَدُ الْآنَ فِي أفرِيقِيا وفِي آسِيَا أُنَاسٌ يَدَّعُون هَذَا، هَؤلاءِ نَقُولُ: إنَّهُم كفرَةٌ، ومَنْ صدَّقَهُم فهُو كَافِرٌ.

[١] قَوْلُهُ: «ومَنِ ادَّعَى النُّبوَّةَ بَعْدَهُ، أَوْ صَدَّق مَنِ ادَّعَاهَا فهُو كَافِرٌ؛ لأنَّه مُكذِّبٌ للهِ ورَسُولِهِ، وإجماعِ المُسلمِينَ».

فهَذِهِ قَواعِدُ عظِيمَةٌ، يَغْفُلُ عنْهَا كَثِير مِنْ طُلَّابِ العِلْمِ؛ فليُنتَبَهْ لَـهَا؛ فالدِّينُ الإِسْلاميُّ دِينٌ مُتميِّز، دِينٌ مُحكَمٌ، لَا يُمْكِن أن يُنسخَ بأيِّ دِينٍ آخَرَ.

[٢] الخِلافَةُ لَا شَكَّ أنَّها واجِبَةٌ، فيَجِبُ أَنْ يَكُون للأُمَّةِ الإِسْلاميَّةِ خَليفَةٌ يقُودُها بكِتَابِ اللهِ وسُنَّةِ رَسُولِهِ صلَّى اللهُ علَيْه وعَلَى آلِهِ وسلَّمَ، ولَا يُمْكِن أن تبْقَى الأُمَّةُ بِلَا إمَامٍ، ولهَذَا كَانَ نَصْبُ الإمَامِ فَرْضًا عَلَى المُسلمِينَ إذْ لَا قِوَامَ للأُمَّةِ إلَّا بقَائِدٍ، حتَّى الحيوَانَاتُ لا بُدَّ لها مِنْ قَائِدٍ، فمثلًا: الفِرْقُ مِنَ الطُّيورِ؛ فإنَّه شَاهَدَ النَّاسُ الَّذِين يَعتنُونَ بصَيدِ الطُّيورِ: أنَّه إذَا جَاءَت المجمُوعَاتُ الكَبيرَةُ منْهَا فإِذَا لَـهَا قَائِدٌ مُتقدِّمٌ مِنَ الطُّيورِ تتَبَعُهُ، وكذَلِكَ الظِّباءُ -وهِيَ الغِزْلَانُ- إِذَا جَاءَتِ الطَّائفَةُ الكَبيرَةُ منْهَا لا بُدَّ لـها مِنْ قَائِدٍ يتقَدَّمُها مِنَ الغِزْلَانِ؛ ولذَلِكَ كَانَ الحُذَّاقُ مِنَ الرُّماةِ إِذَا رَأَوُا الفِرْقَ يَقتُلونَ الأمامِيَّ المُتقدِّمَ، فإِذَا قَتَلُوه صارَتِ الفَوْضَى بَيْنَ الفِرْق، لأنَّهُم لَيْسَ لَهُمْ قَائِدٌ، لكِنَّهُم فورًا يَنتَخِبُون وَاحِدًا مِنْهُم.

وكَذَلِكَ أيْضًا فِي الغِزْلَانِ؛ فقَدْ حدَّثَنا النَّاسُ لـمَّا كَانَتِ الجزيرَةُ العَرَبيَّة فِيها كَثِيرٌ مِنَ الظِّباءِ تتوَالَدُ وتَأتِي مِنْ أفريقِيا قَبْلَ فَتْحِ قَنَاةِ السُّويسِ، يقُولُونَ: نَجِدُ عشَرَاتٍ مِنَ الغزْلانِ لها قَائدٌ واحدٌ يقُودُها، فأَوَّلُ مَا نَبْدَأُ نَبْدَأُ بالطَّرَفِ من الفِرْقِ، فنَصِيدُ القَائِدَ، فإِذَا صِدْنَاهُ ماجَتِ الغِزْلانُ وسَهُلَ علينَا صَيدُها، لكنَّهُم يقُولُونَ: سُبحَانَ اللهِ! فِي الحَالِ يَنتَخِبُون أمِيرًا ويتقَدَّمُ.

فأقُولُ: لا بُدَّ للأُمَّةِ الإِسْلاميَّةِ مِنْ إمَامٍ، ولهَذَا كَانَ منْصِبُ الخِلَافَةِ عظِيمًا جدًّا جدًّا، حتَّى إنَّ النَّبيَّ ﷺ أمَر المُسافِرِينَ إِذَا كَانُوا ثلَاثَةً أنْ يُؤَمِّرُوا أحدَهُم(١) لئَلَّا تَقَعَ الفَوضَى.

قَوْله: «**وَنُؤمِنُ بأَنَّ للنَّبيِّ ﷺ خُلفَاءَ رَاشدِينَ، خَلفُوهُ فِي أُمَّتِهِ عِلْمًا ودَعْوَةً وولَايَةً**» عَلَى المُؤمِنِينَ، فنَحْنُ نُؤْمِنُ بالخِلَافَةِ الرَّاشدَةِ، وبالخُلفَاءِ، وهُمْ: أَبُو بكْرٍ، وعُمرُ، وعُثمَانُ، وعليٌّ، نُؤْمِنُ بأَنَّ هَؤُلاءِ خُلفَاءُ لرَسُولِ اللهِ ﷺ خلَفُوه فِي أُمَّتِهِ عِلْمًا ودَعْوَةً ووِلَايَةً عَلَى المُؤمِنينَ:

«**علمًا**» فعِنْدَهُم مِنَ العِلْم مَا لَيْسَ عِنْد غيرِهِمْ.

«**ودَعوَةً**» فهُمْ دُعَاةٌ إِلَى اللهِ وإِلَى دِينِ اللهِ.

«**ووِلَايَةً**» عَلَى المُؤمِنِينَ أَيْ لـهُمُ الوِلايَـةُ، والسَّيطـرَةُ التَّامَّـةُ عَـلَى المُؤمِنِينَ، ولـهَذَا يُسمَّـون أُمـراءَ المُؤمِنِينَ، فيُقَـالُ: أَمِيرُ المُؤمِنِينَ عُمـرُ، أَمِيرُ المُؤمِنينَ عُثـمانُ،

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الجهاد، باب في القوم يسافرون يؤمرون أحدهم، رقم (٢٦٠٨)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

....

أَمِيرُ الْمُؤمِنِينَ عَلِيٌّ، أَمَّا أَبُو بَكْرٍ فجَمَعَ بَيْنَ أَمْرَينِ: بَيْنَ كَوْنِهِ خليفَةَ رَسُولِ الله، وأَمِيرَ الْمُؤمِنِينَ، ولهَذَا لَا نَقُول: إنَّه خلِيفَةٌ ولَيْس أَمِيرَ الْمُؤمِنِينَ، بَل هُوَ أَمِيرُ الْمُؤمِنِينَ وخليفَةٌ، ولَا يُوجَدُ أحَدٌ مِنَ الأُمَّة يصْدُق عليْه أَنَّه خلِيفَةُ رَسُولِ الله إلَّا أَبُو بكْرٍ، أَمَّا عُمَرُ فهُو خلِيفَةُ أَبِي بكْر، حيْثُ استخْلَفَهُ أَبُو بكْرٍ عَلَى الْمُؤمِنِينَ، وعُثْمانُ كذَلِكَ خليفَةُ عُمرَ، لَكِنَّ الخليفَةَ لرَسُولِ الله هُو أَبُو بكْرٍ، وهُوَ أَمِيرُ الْمُؤمِنِينَ أَيْضًا.

ويدلُّ عَلَى أَنَّه قَد يُقتصَرُ عَلَى الوَصْفِ الخَاصِّ مَعَ وُجُودِ الوَصْفِ العَامِّ، أَنَّ النَّبيَّ ﷺ قَالَ ذَاتَ يَوْم: «لَيْتَ أَنَّا نَرَى إِخْوَانَنَا»، قَالُوا: يَا رَسُولَ الله أَلَسْنَا إِخْوَانَكَ؟ قَالَ: «لَا، أَنْتُمْ أَصْحَابِي، إِنَّمَا إِخْوَانِي الَّذِينَ يَأْتُونَ مِنْ بَعْدِي وَيُؤْمِنُونَ بِي»[1]؛ فهَلِ المَعنَى أَنتُمْ أصحَابِي ولسْتُمْ إخْوَانِي؟ الجَوابُ: لَا، والمَعْنَى: بَلْ أَنتُم أصحَابِي، والصُّحبَةُ أَخَصُّ مِنَ الأُخوَّةِ، فالنَّبيُّ ﷺ أحيَانًا قَدْ يَنفِي وَصْفًا لوُجودِ وصْفٍ هُو أَخصُّ مِنْهُ.

فهُنَا أَبُو بكْرٍ خَلِيفَةُ الرَّسُول ﷺ وأَمِيرُ الْمُؤمِنِينَ أيضًا؛ لأَنَّ إِمْرَتَهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ ثَابتَةٌ بإِجْمَاعِ الْمُؤمِنِينَ، كُلُّ المُسلمِينَ بَايَعُوا لَهُ، وكُلُّ الْمُؤمِنِينَ يشْهَدُونَ بأَنَّه خَيْرُ هذِهِ الأُمَّةِ بعْدَ نبيِّهَا، حتَّى عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كَانَ يُعلِنُ عَلَى مِنْبَرِ الكُوفَةِ، وهُوَ أَمِيرُ الْمُؤمِنِينَ، يُعلِنُ صَرَاحَةً بأَنَّ خَيْر هَذِهِ الأُمَّةِ أَبُو بكْرٍ، ثُمَّ عُمَرُ، والعَجَبُ أَنَّ الرَّافضَةَ يدَّعُونَ ولايتَهُم لعَلِيٍّ، وهُمْ يُكذِّبون عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؛ لأَنَّه إِذَا قَالَ: خَيْرُ هذِهِ الأُمَّةِ أَبُو بكْرٍ، ثُمَّ عُمَرُ، وهُوَ قَد بَايَعَ أَبَا بَكْرٍ، وبَايَعَ عُمَرَ، يَعْنِي أَنَّه

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الطهارة، باب استحباب إطالة الغرة والتحجيل، رقم (٢٤٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وَبِأَنَّ أَفْضَلَهُمْ وَأَحَقَّهُمْ بِالخِلَافَةِ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ[١]،...............

كَذَّابٌ فِيمَا يقُولُ، وأنَّه مُنافِقٌ، بَايَعَ عَلَى خلَافِ مَا فِي قَلبِهِ!! وهَذَا أَكْبَرُ طَعْنٍ فِي عَلِيِّ ابْنِ أَبِي طَالِبٍ، ومَعَ ذَلِكَ يدَّعُون أَنَّهُمْ أولِيَاؤُهُ: ﴿وَمَا كَانُوٓاْ أَوۡلِيَآءَهُۥٓۚ إِنۡ أَوۡلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ [الأنفال:٣٤].

فعَلَى كُلِّ حَالٍ نَحن نَقُول: إنَّ للنَّبِيِّ ﷺ خلفَاءَ خَلفُوه فِي الأُمَّةِ، علمًا، ودعوةً، ووِلايَةً، فهُمْ خُلفَاءُ الرَّسُول ﷺ فِي أُمَّتِه فِي هَذِهِ الأُمُورِ الثَّلاثَةِ.

[١] قَوْلُهُ: «وَبِأَنَّ أَفْضَلَهُمْ، وَأَحَقَّهُمْ بِالخِلَافَةِ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقِ» نُؤمِن بأنه أفضَلُهُمْ، وأنَّه أحقُّهُم بالخِلَافَةِ، أمَّا كَوْنُه أفضلَهُمْ، وأحبَّهُم إِلَى الرَّسُول ﷺ فلأَنَّهُ سُئِلَ أَيُّ الرِّجالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ فقَالَ صَراحَةً: «أَبُو بَكْرٍ»(١)، وقَالَ عَلَنًا عَلَى المِنْبَرِ: «لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ»(٢). والخَلِيلُ هُوَ صَافِي المَحبَّةِ البَالِغِ ذِروَتَها، ولـهَذَا امْتَنَعَ الرَّسُولُ ﷺ أن يجعَل لَهُ مِنْ أُمَّتِهِ خَلِيلًا؛ لأَنَّ قَلْبَهُ قَدِ امتلَأَ بمَحبَّةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

ونُؤمِنُ كَذَلِكَ بأنَّه أحقُّهُمْ بالوِلَايَةِ؛ لوُجُودِ شَواهِدَ كَثِيرَةٍ مِنْ أهمِّهَا مَا يَلِـي:

أَوَّلًا: أنَّ الرَّسُـولَ ﷺ خلَّفَهُ عَلَى أُمَّتِه فِي إمَامَـةِ الصَّـلاة(٣)، والصَّـلاةُ أفضَلُ

(١) أخرجه البخاري: كتاب أصحاب النبي ﷺ، باب قول النبي ﷺ: «لو كنت متخذًا خليلًا»، رقم (٣٦٦٢)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رقم (٢٣٨٤)، من حديث عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب أصحاب النبي ﷺ، باب قول النبي ﷺ: «سدوا الأبواب إلا بابُ أبي بكر»، رقم (٣٦٥٤)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رقم (٢٣٨٢)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب حد المريض أن يشهد الجماعة، رقم (٦٦٤)، ومسلم:

شَعَائِرِ الإِسْلام، فجعَلَهُ خليفةً لَهُ علَيهِمْ فِي أعظَمِ شعَائِرِ دِينِهِمْ، وهِيَ الصَّلاةُ، فكَيْف لَا يَكُون خلِيفةً فِي أُمُورِ دُنياهُمْ؟!

ثانيًا: أنَّ الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ خَلفَهُ عَلَى أُمَّتِه فِي قِيادَةِ الحَجِيجِ، سَنَةَ تِسْعٍ مِنَ الهِجْرَةِ، والحُجَّاجُ دَائرَتُهم أوسَعُ مِمَّن فِي المدينَةِ، فجعَلَهُ الأَمِيرَ علَيْهِمْ[(١)].

ثالثًا: أنَّ الرَّسُول ﷺ قَالَ: «لَا يَبْقَى فِي المَسْجِدِ بَابٌ إِلَّا سُدَّ إِلَّا بَابُ أَبِي بَكْرٍ»[(٢)]. ممَّا يدلُّ عَلَى أنَّه الخَلِيفَةُ بعدَهُ، حتَّى يسهُلَ وُصولُ النَّاس إلَيْهِ، لأَنَّ بَابَهُ فِي المَسْجِدِ، وحتَّى يسْهُلَ وُصولُهُ هُو أيضًا إِلَى النَّاس.

رابعًا: أنَّ الرَّسُول ﷺ قَالَ لامْرأةٍ أَتَتْهُ فِي حَاجَةٍ، فوَعَدَها العَامَ القَادِمَ، قَالَتْ: أَرَأَيْتَ إنْ لَمْ أَجِدْكَ؟ قَالَ: «فَأْتِ أَبَا بكْرٍ»[(٣)]. وهَذَا كالنَّصِّ الصَّريح عَلَى أنَّه الخَلِيفَةُ مِنْ بَعدِهِ، وأيضًا قَالَ ﷺ: «يَأْبَى اللهُ والمُؤْمِنُونَ إِلَّا أَبَا بَكْرٍ»[(٤)]. والأدِلَّةُ عَلَى هَذَا كَثِيرَةٌ،

= كتاب الصلاة، باب استخلاف الإمام إذا عرض له عذر من مرض، رقم (٤١٨)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الحج، باب لا يطوف بالبيت عريان، رقم (١٦٢٢)، ومسلم: كتاب الحج، باب لا يحج البيت مشرك، رقم (١٣٤٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب الخوخة والممر في المسجد، رقم (٤٦٦)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب من فضائل أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رقم (٢٣٨٢)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري: كتاب أصحاب النبي ﷺ، باب قول النبي ﷺ: «لو كنت متخذًا خليلًا»، رقم (٣٦٥٩)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب من فضائل أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رقم (٢٣٨٦)، من حديث جبير بن مطعم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه البخاري: كتاب الأحكام، باب الاستخلاف، رقم (٧٢١٧)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رقم (٢٣٨٧)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

ثُمَّ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ[١]،..............................

فَلَا شَكَّ أنَّ أَبَا بكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هُو أفضَلُ الأُمَّةِ، وأحقُّهُم بخِلافَةِ النَّبيِّ ﷺ.

وهَلْ بَايَعَ الصَّحابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أبَا بكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؟

نعَمْ، بَايَعُوه كُلُّهُم؛ إلَّا أنَّه قِيلَ: إنَّ عليَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمْ يُبايعْهُ حتَّى مَاتَتْ فَاطمَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا(١)، وقَدْ مَاتَتْ بَعْدَهُ بأَشْهُرٍ بَعْدَ النَّبيِّ ﷺ.

وسَببُ ذَلِك: أنَّها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عتَبتْ عَلَى أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا حِينَ مَنَعَهَا مِنْ مِيرَاثِ أَبِيهَا فِي فَدك والمدِينَةِ وَغيرِهَا؛ فغَضِبَتْ علَيْه لـمَّا مَنعَها مِنْ مِيرَاثِ أَبِيهَا، لَكِنَّ أبَا بكْرٍ قَالَ: «واللهِ إنَّ قَرابَةَ الرَّسُول أحَبُّ إلَيَّ مِنْ قَرَابَتِي ولَكِن لَا أُورِّثُها شَيْئًا لَمْ يَجعَلْهُ اللهُ لَـهَا»، بَل قَالَ النَّبيُّ ﷺ: «نَحْنُ مَعَاشِرَ الأنبيَاءِ لَا نُورَثُ مَا تَرَكْنَا صَدَقَةٌ» وكَيْف أُعطِيها هَذَا! فمَنَعَها، وهَذَا مِنْ شَجَاعتِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فهِيَ امرَأَةٌ صَار فِي نفسِهَا شَيْء؛ ويُقَالُ: إنَّها لَمْ تُبايعْ أَبَا بكْرٍ، وأَنَّ عليًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أجَّل المُبايعَةَ لتَطييبِ قَلْبِ فَاطِمَةَ، ورُبَّما كَانَ يُراودُها أنْ تُبَايعَ هِيَ، فاللهُ أعلَمُ.

لَكِنَّ عليَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بَايَعَ كَما بَايَعَ النَّاس، وكَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقُولُ عَلَى مِنبَرِ الكُوفَةِ وهُوَ خليفَةٌ لَا يخْشَى أحَدًا؛ يقُولُ: خَيْرُ هذِهِ الأُمَّةِ بعْدَ نَبيِّها أَبُو بكْرٍ ثُمَّ عُمَرُ. رَضِيَ اللهُ عنْكَ يَا عَلِيُّ! كَانَ لَا يَخافُ فِي اللهِ لومَةَ لائِمٍ، ويقُولُ الحَقَّ.

[١] قَوْلُهُ: «ثُمَّ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ» الَّذِي حصلَتْ لَهُ البيْعَةُ بعَهْدِ أَبِي بَكْرٍ، يَعْنِي أَنَّ أبَا بكْـرٍ عَهِدَ إِلَى عُمَـرَ بخِلَافَةِ المُسلمِينَ، وإِذَا كَانَ هُو خليفَةً عَلَى المُسلمِينَ

(١) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب غزوة خيبر، رقم (٤٢٤٠)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب قول النبي ﷺ: «لا نورث ما تركنا فهو صدقة»، رقم (١٧٥٩)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

ثُمَّ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ[١]، ....

فتَصرُّفُه فِي تَولِيَةِ الخَلِيفَةِ صَحِيحَةٌ، بمُقتضَى الشَّريعَةِ، لأنَّه مَا دَامَ خَليفَةً عَلَى المسلمِينَ فلَهُ أن يُخلِّفُ مَنْ يراهُ أهْلًا للخلَافَةِ، ثُمَّ إنَّه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لم يخلِّفْ أَحدًا مِنْ أبنَائِهِ أَو أقَاربِهِ، وإنَّما خلَّفَ رَجُلًا يَرى أنَّه خَيْرُ النَّاس عَلَى أُمَّةِ مُحمَّد ﷺ، يَعْني أنَّه لَا يُتَّهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي كَوْنِه خلَّف عُمَرَ.

[١] قَوْله: «ثُمَّ عُثْمَانُ بْنُ عفَّانَ» عثْمَانُ بْنُ عفَّانَ تولَّى عَنْ طَرِيقِ الانتِخَابِ، لكنَّه لَيْسَ عَلَى انتخَابِ الغَربيِّينَ، المَبنيِّ عَلَى الدِّينَارِ والدِّرهَمِ، بَلِ انتخَابِ الحَقِّ والعَدْلِ.

وذَلِكَ أنَّ عُمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ شدِيدُ الوَرَعِ، وكأنَّهُ عِنْد موتِهِ لَمْ يَرَ أحَدًا بعَينِهِ أحَقَّ مِنْ غيرِهِ، وإلَّا لَكَانَ لَهُ أُسوَةٌ بأَبِي بَكْرٍ، فكَانَ يُسلِّي نفْسَهُ ويقُولُ: إنْ أَستخْلِفُ فقَدِ استخْلَفَ أَبُو بَكْرٍ، وإنْ لَمْ أَستخْلِفْ فَقَدْ تَرَكَ الاستخْلَافَ مَنْ هُو خَيْرٌ مِنِّي، يَعْني الرَّسُولَ ﷺ، فرَأَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بثَاقِبِ رَأيِهِ أنْ يجعَلَ المسألَةَ شُورَى بَيْنَ مَنْ تُوفِّي عنهُمُ الرَّسُول ﷺ وهُوَ رَاضٍ عَنْهُمْ، يتشَاوَرُونَ مَنْ يَتوَلَّى الخِلَافَةَ، وجَعَلَ ابنَهُ عَبْدَ اللهِ يُشاركُهُم، لكنَّه لَا يُشاركُهم فِي الرَّأي، بَل يحضُرُ الجلسَاتِ فقَطْ، تَطْييبًا لقَلْبِهِ.

وعَلَى هَذا فنَقُول: إنَّ استخلَافَ عُثمَانَ وَفْقَ المَنْهَجِ الصَّحِيحِ السَّليمِ؛ لأنَّه انْتُخِبَ مِنْ بَيْنِ أعضَاءٍ وضعَهُم عُمَرُ وهُوَ الخليفَةُ، فهَؤُلاءِ الأعضَاءُ نُصِبُوا بمُقتضَى الشَّريعَةِ، ثُمَّ انتخَبُوا عُثمَانَ أيضًا بمُقتضَى الشَّريعَةِ؛ لأنَّهم حِينَما انتخَبُوا عيَّنُوا عثمَانَ وعليًّا، ثُمَّ عرَضُوا عَلَى عليٍّ أنْ يقُوم بحقِّهَا، ومَا ذَكرُوا مِنْ شُرُوطٍ، لكنَّه تهيَّب ذَلِك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقبِلَها عُثمَانُ، فصَارَ الخَليفَةَ حتَّى عِنْد عَليِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، لأنَّه سلَّم، وعَاهَدَ كَما عَاهَدَ غيرُهُ.

ثُمَّ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ[١].

[١] قَوْلُهُ: «ثُمَّ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ» عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ آلت إِلَيْه الخِلافَةُ بِلَا شَكٍّ بعْدَ عُثْمَانَ، ولَكِن لم تكُنِ الخِلَافَةُ فِي عَهْدِهِ محَلَّ اتِّفاقٍ، بَلْ خَرَجَ عليْه مَنْ خَرَجَ، لَكِن بتأويلٍ حِسَابهم عَلَى الله تَعَالَى فِيه، وحصلَتِ الفِتنَةُ العظِيمَةُ، والتَّفرُّقُ مِنْ بعْدِ مَقْتَلِ عُثْمانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وجُعِلَ بأسُ النَّاسِ بينَهُم، ولَكِن مَعَ ذَلِك نَحْن نُقرُّ بأنَّ الخليفَةَ هُو عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، وأنَّه لَا حَقَّ لُمعاويَةَ، ولَا غَيْرِهِ فِي الخِلَافَةِ.

وبعْدَ مَوْتِ عَلِيٍّ صَارَ الخَلِيفَةُ مِنْ بعْدِهِ ابنُهُ الحسَنُ بْنُ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، خَلِيفَةً بمُقتضَى الشَّرِيعَةِ، ولكنَّهُ لتَوفيقِهِ، وتَسدِيدِهِ، وسِيادَتِهِ، وشَرفِهِ، تَنازَلَ عَنِ الخِلافَةِ بعْدَ سِتَّةِ أَشْهُرٍ، حِينَ تمَّتِ الثَّلاثُونَ سَنَةً، الَّتِي قَالَـها الرَّسُولُ ﷺ: «الخِلَافَةُ بَعْدِي ثَلَاثُونَ سَنَةً»(١). فتَنازَلَ عنْهَا لُمعاوِيَة تنازُلًا شَرعيًّا؛ لأَنَّ النَّبيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَشَارَ إِلَى ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ للحَسَنِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ، وَلَعَلَّ اللهَ أَنْ يُصْلِحَ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ»(٢). فنَالَ السِّيادَةَ فِي الدُّنيَا والآخِرَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. أَمَّا أَخُوهُ الحُسَيْنُ فقَدْ شارَكَهُ السِّيادَةَ فِي الآخِرَةِ، فقَدْ قَالَ النَّبيُّ ﷺ: «الحَسَنُ وَالحُسَينُ سَيِّدَا شَبَابِ أَهْلِ الجَنَّةِ»(٣).

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٥/ ٢٢٠)، وأبو داود: كتاب السنة، باب في الخلفاء، رقم (٤٦٤٦)، والترمذي: كتاب الفتن، باب ما جاء في الخلافة، رقم (٢٢٢٦)، من حديث سفينة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الصلح، باب قول النبي ﷺ للحسن بن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «ابني هذا سيد»، رقم (٢٧٠٤)، من حديث أبي بكرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه الإمام أحمد (٣/ ٣)، والترمذي: كتاب المناقب، باب مناقب أبي محمد الحسن بن علي، رقم (٣٧٦٨)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَهَكَذَا كَانُوا فِي الخِلَافَةِ قَدَرًا كَمَا كَانُوا فِي الفَضِيلَةِ شَرْعًا[١]،..............

لَكِنَّ السِّيادَةَ فِي الدُّنيَا والآخِرَةِ إِنَّما هِيَ للحَسَنِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهُوَ أفضَلُ مِنَ الحُسَينِ بِلَا شَكٍّ؛ لِـمَا لَهُ مِنَ الأَيَادِي الفَاضِلَةِ، والمنَّةِ عَلَى المُؤمنينَ عُمُومًا، حَيْثُ تنَازَل عَنِ الخلافَةِ الَّتِي يَسْعَى إِليْهَا أكثرُ النَّاس؛ تنَازَلَ عَنْهَا مِنْ أَجْلِ الإصلَاحِ، وحقْنِ الدِّماءِ، فهُوَ حقِيقةً هُو الَّذِي فَدَى النَّاسَ بتنَازُلِهِ عَنِ الخلَافَةِ، فجَزَاهُ اللهُ خيرًا عَنْ أُمَّةِ مُحَمَّد.

[١] قَوْلُهُ: «وَهَكَذَا كَانُوا فِي الخِلَافَةِ قَدَرًا كَمَا كَانُوا فِي الفَضِيلَةِ» قَدْ أجمَعَ أَهْل السُّنَّة عَلَى تفضِيلِ أَبِي بكرٍ ثُمَّ عُمَرَ بِدُونِ نِزَاعٍ، ثُمَّ اختلَفُوا فِي عثمَانَ وعَليٍّ، فمِنْهُم مَنْ قَالَ: عَليٌّ أفضَلُ، ومنْهُمْ مَنْ قَالَ: عثمَانُ أفضَلُ، ومنْهُمْ مَنْ قَالَ: أَبُو بَكْرٍ، ثُمَّ عُمَرُ، ثُمَّ عثمَانُ، وسَكَتَ، ومنْهُمْ مَنْ تَوقَّفَ، لَكِنِ استَقَرَّ أَمْرُ أَهْلِ السُّنَّةِ والجَماعَةِ -بعْدَ ذَلِك- عَلَى أنَّ عثْمَانَ أفضَلُ مِنْ عليٍّ، والمفَاضلَةُ بَيْنَ عثمَانَ وعَليٍّ ليسَتْ مِنْ بَابِ العقيدَةِ، بَل هِيَ من بَابِ الاجتهَادِ.

لَكِنَّ الَّذِي مِنَ العقِيدَةِ هُو الخلَافَةُ، فإِنَّ أَهْل السُّنَّة مُجمِعُون عَلَى أَنَّ الخليفَةَ بعْدَ عُمَرَ هُو عثمَانُ بْنُ عفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، لَمْ يختلِفْ أَحَدٌ فِي ذَلِك، ومَنْ طَعَنَ فِي ذَلِكَ وقَالَ: «إِنَّ عَليًّا أفضَلُ مِنْ عُثمَانَ فقَدْ أَزْرَى -أَي عَابَ- عَلَى المهَاجِرِينَ والأنصَارِ» كَمَا جَاءَ ذَلِك عَن بَعْض السَّلف، بَل وقَدح فِيهِمْ حَيثُ قدَّمُوا مَنْ لَيْسَ بأفضَلَ، عَلَى مَنْ هُو أفضَلُ».

وقَالَ الإِمَامُ أحمَدُ بْنُ حنبَلٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَنْ طَعَن فِي خِلَافَةِ وَاحِدٍ مِنْ هَؤلاءِ فهُو أَضَلُّ مِنْ حمَارِ أَهْلِهِ»[(١)]، ومعلُومٌ أَنَّ مَنْ قَالَ: عَليٌّ أَحَقُّ بالخلَافَةِ مِنْ عثمَانَ فَقَدْ طَعَنَ

(١) أخرج ابن الجوزي في المناقب (ص:٢٢٠) بمعناه، وانظر: مجموع الفتاوى (٣/ ١٥٣).

فِي خلافَةِ عثمانَ، ولهَذَا كَانَ الرَّافضَةُ يَطعنُونَ فِي خلافةِ الثَّلاثَةِ كُلِّهِمْ؛ لأَنَّهم يقُولُون: إنَّ عليًّا أحقُّ مِنْهم بالخلافَةِ، فلهَذَا يطعَنُون فِي خلَافَةِ أَبِي بَكْرٍ، وعُمَرَ، وعُثمانَ، ويقُولُونَ: إنَّها خِلافَةٌ جَائرَةٌ ظَالمَةٌ، لَيْسَ لها حَقٌّ، ولكنَّهُم كذَبُوا فِي ذَلِك، ولَا غرابَةَ أن يقُولُوا هكَذَا؛ لأنَّهم لَا يرونَ الصَّحابَةَ شَيْئًا، بَل يطعَنُون فيهِمْ جُملَةً وتفصِيلًا إلَّا مَا استَثْنَوا مِنْ آلِ البيْتِ.

والمُهمُّ أنَّ لدينَا مسألَتَينِ:

المسألَةُ الأُولَى: الخِلافَةُ، وأنَّها عَلَى التَّرتيبِ الآتِي: أَبُو بكْرٍ، ثُمَّ عُمَرُ، ثُمَّ عثمانُ، ثُمَّ عَلِيٌّ، بإجمَاعِ أَهْل السُّنَّةِ، بَلْ وإجمَاعِ الصَّحابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ولَا يجُوزُ لأحَدٍ أنْ يطعَنَ فِي خِلَافَةِ وَاحِدٍ منهُمْ، بَل هُمُ الخلفَاءُ عَلَى هَذَا التَّرتيبِ.

والمسْألَةُ الثَّانيَةُ: التَّفضِيلُ، فقَدِ اتَّفقُوا عَلَى أنَّ أبَا بكْرٍ، ثُمَّ عُمَرُ، أفضَلُ الصَّحابَةِ، حتَّى عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَانَ يخطُبُ عَلَى مِنبَرِ الكُوفَةِ، بعْدَ خِلافَتِهِ، ويقُولُ: خَيْرُ هذِهِ الأُمَّة أَبُو بكْرٍ، ثُمَّ عمَرُ[1]،وأحْيانًا يقُولُ: ثُمَّ عُثمانُ، فهُمْ فِي الفضِيلَةِ كمَراتبِهِمْ فِي الخلَافَةِ، عَلَى مَا استقَرَّ عليْه أَمْرُ أَهْلِ السُّنَّةِ والجماعَةِ، وإنْ كَانَ هُناكَ خِلَافٌ قَدِيمٌ فِي المفاضَلَةِ بَيْنَ عَلِيٍّ وعُثمانَ، لَكِن لَمْ يَقَعْ خِلَافٌ فِي المفاضَلَةِ بَيْنَ أَبِي بَكْرٍ وعُمَرَ.

قَوْلُهُ: «وهَكَذَا كَانُوا فِي الخِلَافَةِ قَدَرًا» وشَرْعًا أيضًا، فاللهُ عَزَّ وَجَلَّ وَفَّقَ الصَّحابةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ إلَى أنْ يَكُونَ الخلِيفَةُ بعْدَ رَسُول الله ﷺ أبَا بَكْرٍ، ثُمَّ عُمرَ، ثُمَّ عثمان، ثُمَّ عليًّا.

(١) أخرجه الإمام أحمد (١/ ١٠٦). وأخرج البخاري: كتاب المناقب، باب قول النبي ﷺ: «لو كنت متخذا خليلا»، رقم (٣٦٧١)، عن محمد ابن الحنفية قال: قلت لأبي أي الناس خير بعد رسول الله ﷺ؟ قال: أبو بكر، قلت: ثم من؟ قال: ثم عمر.

وَمَا كَانَ اللهُ تَعَالَى -وَلَهُ الحِكْمَةُ البَالِغَةُ- لِيُولِّيَ عَلَى خَيْرِ القُرُونِ رَجُلًا، وَفِيهِمْ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنْهُ وَأَجْدَرُ بِالخِلَافَةِ[١].

وَنُؤْمِنُ بِأَنَّ المَفْضُولَ مِنْ هَؤُلَاءِ قَدْ يَتَمَيَّزُ بِخَصِيصَةٍ يَفُوقُ فِيهَا مَنْ هُوَ أَفْضَلُ مِنْهُ[٢]، لَكِنَّهُ لَا يَسْتَحِقُّ بِهَا الفَضْلَ المُطْلَقَ عَلَى مَنْ فَضَلَه؛ لِأَنَّ مُوجِبَاتِ الفَضْلِ كَثِيرَةٌ مُتَنَوِّعَةٌ.

---

[١] قَوْلُهُ: «**وَمَا كَانَ اللهُ -وَلَهُ الحِكْمَةُ البَالِغَةُ- لِيُولِّيَ عَلَى خَيْرِ القُرُونِ رَجُلًا، وفِيهِمْ مَنْ هُو خَيْرٌ مِنْهُ، وأَجْدَرُ بالخِلَافَةِ**» هَذَا احْتِجَاجٌ بِمُقتضَى الحِكْمَةِ.

فإنْ قَالَ قَائِل: أَلَيْسَ قَدْ وُلِّيَ فِي الخِلَافَةِ عَلَى المُسلِمِينَ وفيهِمْ مَنْ هُو خَيْرٌ مِنْهُ؟

فالجَوابُ: بَلَى، ولَكِن لَيْسَ فِي زَمَنِ خَيْرِ الأُمَّةِ، صَحِيح أَنَّه وُلِّي بعْدَ الخُلفَاءِ الرَّاشِدِينَ عَلَى الأُمَّةِ الإِسْلاميَّةِ مَنْ هُو لَيْسَ خَيْرَ الأُمَّة، ولَكِن نَحْن نتكَلَّمُ عَلَى خَيْرِ الأُمَّة؛ فَمَا كَانَ اللهُ تَعَالَى لِيُولِّيَ عَلَى هَذَا الشَّعبِ المُختَارِ رَجُلًا وفيهِمْ مَنْ هُو خَيْرٌ منْهُ؛ لأَنَّ هَذَا تَأبَاهُ حِكْمَةُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وأَمَّا مَا بعْدَ ذَلِك فَلَا شَكَّ أنَّ مِنَ الخُلفَاءِ مَنْ هُو أَدْوَنُ وأَدْوَنُ وأَدْوَنُ بكَثِيرٍ مِنْ كَثِيرٍ مِنَ الشُّعوبِ.

[٢] قَوْلُهُ: «**ونُؤمِنُ بأَنَّ المَفضُولَ مِنْ هَؤُلاءِ قَدْ يتمَيَّزُ بخَصِيصَةٍ يَفُوقُ فِيهِ مَنْ هُو أفضَلُ مِنْهُ**» المَفضُولُ مِنْ هَؤلاءِ رُبَّما يَكُونُ لَهُ خَصِيصَةٌ يتمَيَّزُ بِهَا عَن غَيرِهِ، لَكِنَّ الفَضْلَ المُقيَّدَ لَا يَسْتلزِمُ الفضْلَ المُطلقَ.

وهَذِهِ المسأَلَةُ لا بُدَّ مِنَ الانتباهِ لـهَا حتَّى تزُولَ إشكَالَاتٌ كَثِيرَةٌ؛ فالفَضْلُ المطلَقُ شَيْءٌ، والمُقيَّدُ شَيْء، فَلَا يتعَارَضَانِ، ولَا يلزَمُ مِنْ ثُبُوتِ الفَضْلِ المُقيَّدِ أنْ يَثْبُتَ الفَضْلُ المطلَقُ، ولَا يلزَمُ مِنَ الفضلِ المُطلَقِ أنْ يَنتَفِي الفضْلُ المُقيَّدُ، فمَثَلًا مِنَ الصَّحابَةِ

مِنْ هَؤُلاءِ الخلفَاءِ مَنْ لَهُ مَيزَةٌ خَاصَّةٌ، فالشَّيطَانُ يَفرُّ مِنْ عُمرَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ولكنَّه لم يَرِدْ مثْلُ ذَلِك فِي أَبِي بكْرٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، مَعَ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ أفضَلُ مِنْهُ.

وعثمانُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ لَهُ الرَّسُول ﷺ حينَما جهَّزَ جَيْشَ العُسرَةِ: «**مَا ضَرَّ عُثْمَانَ مَا فَعَلَ بَعْدَ الْيَوْمِ**»[(١)]. وقَالَ ﷺ: «**مَنْ يَشْتَرِي بِئْرَ رُومَةَ، وَلَهُ الجَنَّةُ**»، فَاشْتَرَاهَا عُثْمَانُ[(٢)]. وتَزَوَّج عثمانُ اثنتَينِ منْ بنَاتِ الرَّسُول عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ، ولم يحصُلْ ذَلِك لغَيرِهِ، فلَهُ مَيزَاتٌ، ولَا يلزَمُ مِنْ ذَلِك أن يَكُون أفضَلَ مِنْ عُمرَ؛ لأنَّ عُمرَ فضْلُه مُطلَقٌ، وهَذا فضْلٌ مُقيَّدٌ.

وعليُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ لَهُ مَيزَاتٌ أيضًا، قَالَ النَّبيُّ ﷺ يَوْمَ خيبرَ: «**لَأُعْطِيَنَّ هَذِهِ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلًا يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ، يَفْتَحُ اللهُ عَلَى يَدَيْهِ**»[(٣)] فميَّزَهُ بالمحبَّةِ، وبأنَّهُ يُفتح عَلَى يدَيْهِ، وحِينَ سَأَلَ عنْهُ قَالُوا: إنَّه يَشتكِي عينَيْهِ، فأَمَرَ بِهِ فأُتِي بِهِ فبَصَقَ فِي عَينِيهِ، فبَرَأَ كَأَنْ لَمْ يَكُن بِهِ وَجَعٌ، ثُمَّ أعطَاهُ الرَّايَةَ، وقَالَ ﷺ: «**انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بسَاحَتِهِمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلَامِ، وَأَخْبِرْهُمْ**

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٥/ ٦٣)، والترمذي: كتاب المناقب، باب في مناقب عثمان بن عفان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، رقم (٣٧٠١)، من حديث عبد الرحمن بن سمرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٢) علقه البخاري: كتاب المساقاة، باب في الشرب ومن رأى صدقة الماء، (٣/ ١٠٩)، ووصله الإمام أحمد (١/ ٧٤-٧٥)، والترمذي: كتاب المناقب، باب في مناقب عثمان بن عفان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، رقم (٣٧٠٣)، والنسائي: كتاب الأحباس، باب وقف المساجد، رقم (٣٦٠٨)، من حديث عثمان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب دعاء النبي ﷺ الناس إلى الإسلام والنبوة، رقم (٢٩٤٢)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل علي بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، رقم (٢٤٠٦)، من حديث سهل بن سعد رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اللهِ فِيهِ، فَوَاللهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ»، وهَذِه خَصِيصَةٌ لَمْ تَكُنْ لأَبِي بكْرٍ، ولَا لعُمَرَ، لَكِن لَا يَلزَمُ مِنْ ذَلِك أن يَكُونَ عَلِيٌّ أفضَلَ مِنْهُما.

كذَلِكَ أيضًا لـمَّا خلَّفَهُ فِي غزْوَةِ تبُوك، وجَزِعَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقَالَ: تُخلِّفُنِي فِي النِّساءِ والذُّرِّيَّةِ! أَو كَلِمةً نحْوَهَا، قَالَ ﷺ: «أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى! إِلَّا أَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي»(١)، وهَذِهِ خَصِيصَةٌ لَهُ؛ لأَنَّه خَلَّفَه فِي أهلِهِ كَمَا خَلَّفَ هَارُونَ مُوسَى فِي قَومِهِ.

المُهِمُّ: أنَّ الخَصِيصَةَ المُقيَّدَةَ لَا تُنافِي الفضِيلَةَ المُطلقَةَ.

بلْ أعظَمُ مِنْ ذَلِك: أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ مَنْ أدرَكَ أُويسًا القَرْنِيَّ أنْ يطلُبَ مِنْهُ الدُّعاءَ(٢)، وهَذِهِ الخَصِيصةُ لَمْ تكُنْ لأحدٍ مِنَ الصَّحابَةِ أبَدًا، مَعَ أَنَّ الصَّحابَةَ أفضَلُ مِنْ أُويسٍ، فأَبُو بكْرٍ وعُمرُ وعثْمانُ وابْنُ مَسعُودٍ وابْنُ عبَّاسٍ وغيرُهُم أفضَلُ مِنْ أُويسٍ بِلَا شَكٍّ، لَكِن هذِهِ خَصِيصَةٌ لَهُ؛ ولَمْ يَأمُرِ الرَّسُولُ ﷺ أحَدًا أنْ يطْلُبَ مِنْ أَبِي بَكْرٍ، ولَا مِنْ عُمَرَ، ولَا مِنْ عُثْمانَ، ولَا مِنْ عَلِيٍّ، ولَا مِنْ غَيرِهِمْ: أَنْ يدْعُوَ لَهُمْ، فَلَا نَقُولُ: إنَّ هَذِهِ الخَصِيصَة تقتَضِي أنْ يَكُون أويسٌ أفضَلَ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب غزوة تبوك، رقم (٤٤١٦)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب من فضائل علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رقم (٢٤٠٤)، من حديث سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب من فضائل أويس القرني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رقم (٢٥٤٢)، من حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بلفظ: «فمن لقيه منكم فليستغفر لكم».

بَل إنَّ الرَّسُولَ ﷺ أخبَرَ بأنَّ العَامِلينَ فِي أَيَّامِ الصَّبرِ للوَاحِدِ مِنْهم أجْرُ خَمْسِينَ مِنَ الصَّحابَةِ(١)، ولَا يلزَمُ مِنْ هَذا أن يَكُونَ هَؤُلاءِ أفضَلَ مِنَ الصَّحابَةِ؛ لأَنَّ هذِهِ الخَصِّيصة مُقيَّدةٌ فِي هَذَا الزَّمنِ الصَّعبِ الضَّنْكِ؛ لأَنَّك إذَا رَأَيْتَ المجتمَعَ لَا يعمَلُ بعِبَادَةِ اللهِ ثَقُلَ علَيْك أن تعْبُدَ اللهَ وحدَكَ، وأيضًا رُبَّما تُتَّخذ هُزُوًا فتَتَصبَّرُ وتتحَمَّلُ؛ فنَالُوا هذِه الخَصِّيصةَ بسَبَبِ مَا يُعانُونَ مِنَ الضِّيقِ والمُضايقَةِ، لَكِن لَا يلزَمُ مِنْ هَذَا أن يكُونُوا أفضَلَ مِنَ الصَّحابَةِ.

وهَذِهِ قاعَدَةٌ تنفعُكَ: أنَّ الفضْلَ منْهُ مُطلَقٌ ومِنْهُ مُقيَّدٌ، ولَا يلزَمُ مِنَ الفضْلِ المقيَّدِ أنْ يَكُونَ أفضَلَ مِنَ المُطلَقِ، ولَا يلزَمُ مِنَ الفضْلِ المُطلَقِ أنْ لَا يَكُون للمَفضُولِ فضْلٌ مُقيَّدٌ؛ ولهَذَا قَالَ: **«ونُؤْمِنُ بأَنَّ المَفضُولَ مِنْ هَؤُلاءِ قَد يتمَيَّزُ بخَصِيصَةٍ يَفُوقُ فِيه مَنْ هُو أفضَلُ مِنْهُ؛ لكنَّه لَا يَستحِقُّ بِهَا الفضْلَ المُطلَقَ عَلَى مَنْ فَضَلَه؛ لأَنَّ مُوجِباتِ الفضْلِ كثِيرَةٌ مُتنوِّعةٌ»** فقَدْ يَثْبُتُ خصِّيصَةٌ مِنْها لشَخْصٍ دُونَ الآخرِ.

وقَدْ ظَهَرَ فِي الآونَةِ الأخيرَةِ مَنْ تكلَّمُوا فِيمَا جَرَى بَيْنَ الصَّحابَةِ وهَؤُلاءِ خَرجُوا عَنْ مَنْهَجِ أَهْلِ السُّنَّةِ والجماعَةِ وأحدَثُوا الفِتَنَ، ونَشْرُ مَا جَرَى بَيْنَ الصَّحابَةِ فِتْنَةٌ -والعِيَاذُ باللهِ-؛ لأنَّ العَوامَّ سيقُولُونَ: إِذَا كَانَ هَذَا بَيْنَ الصَّحَابَةِ، فهُوَ محَلُّ خلَافٍ وإزَالَةُ عدَالَةٍ؛ ثُمَّ إِذَا جرَتْ بَيْنَ الصَّحابَةِ هذِهِ الفتنَةُ وإراقَةُ الدِّماءِ فنحْنُ مِنْ بَابِ أَوْلَى!.

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي، رقم (٤٣٤١)، والترمذي: كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة المائدة، رقم (٣٠٥٨)، وابن ماجه: كتاب الفتن، باب قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡ﴾، رقم (٤٠١٤)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَنُؤْمِنُ بِأَنَّ هَذِهِ الأُمَّةَ: خَيْرُ الأُمَمِ وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ[١]؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

ولذَلِكَ يَحْرُمُ نَشْرُ مَا جَرَى بَيْنَ الصَّحابَةِ بالنِّسْبة للعَوامِّ، أمَّا طلبَةُ العِلْم فلا بُدَّ أن يطَّلِعُوا، ولذَلِكَ ننصحُ كُلَّ مُسلِمٍ عَنْ سَمَاعِ الأشرِطَةِ الَّتِي تُنْقَلُ فِيها هَذِهِ الأُمورُ، أَو قِراءَةُ الكُتُبِ الَّتِي يُكتَبُ فِيهَا هَذَا الأَمْر؛ لئَلَّا يقَعَ الإِنسانُ فِي فتنَةٍ، ولا بُدَّ -مَعَ ذكْرِ هذِهِ الأُمورِ- أن يَمِيلَ إِلَى إِحْدَى الطَّائفتَينِ، ولا بُدَّ أن يَمِيلَ لأَنَّ الإِنْسَانَ بَشَرٌ، لَكِن مَنْ عصَمَهُ اللهُ أعْرَضَ عَنْ هَذَا كُلِّهِ، وقَالَ: مَا جَرَى بَيْنَ الصَّحَابَةِ فإِنَّه عَنِ اجتهَادٍ والمُخطِئُ لَهُ أجْرٌ والمُصِيبُ لَهُ أجرَانِ.

[١] قَوْلُهُ: «ونُؤمِنُ بأَنَّ هذِهِ الأُمَّةَ: خَيْرُ الأُمَمِ، وأكْرَمُها عَلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ» وأنَّها خَيْرٌ مِنْ بَنِي إِسرَائِيلَ ومِمَّنْ وَرَاءَ بَنِي إِسرَائيلَ؛ لقَولِ اللهِ تَعَالَى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ وهَذَا عَامٌّ: ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ فهُمْ خيرٌ حتَّى مِنْ بَنِي إِسرَائيلَ.

وأمَّا قَوْلُهُ تعَالَى عَن بَنِي إِسرَائيلَ: ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٤٧]. فالمُرادُ عَلَى العَالمِينَ الَّذِين سبقُوهم، أَو كَانُوا فِي زَمَانِهِم، وأمَّا أنَّهُم أفضَلُ مِمَّن بعدَهُم فمَنْ بعْدَهُم لَمْ يَأتِ بعْدُ حتَّى يَكُونَ هُناكَ مُفضَّلٌ ومُفضَّلٌ عَلَيْه، فبَنُو إِسرَائِيلَ لَا شَكَّ أنَّهم أفضَلُ الأُمَمِ السَّابقِينَ لَهُمْ، والَّذِين فِي وَقْتِهم، أمَّا مَنْ بعْدَهُم فإِنَّهُم لَمْ يَأتُوا حتَّى يُفضَّلُوا عليهِمْ، ولهَذَا قَالَ تعالَى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ وهَلْ بَقِي أُمَّةٌ بعْدَ هذِهِ الأُمَّةِ؟ لَا، إِذَنْ: لَهُمُ الخَيرِيَّةُ المُطلَقَةُ، فهُمْ خَيْرُ العَالمِينَ، نسْأَلُ اللهَ أن يجعَلَنا وإِيَّاكُم منْهُم.

وَنُؤْمِنُ بِأَنَّ خَيْرَ هَذِهِ الأُمَّةِ: الصَّحَابَةُ ثُمَّ التَّابِعُونَ ثُمَّ تَابِعُوهُمْ[١]،.........

ولكِنْ وَصَفَهُم بأوصَافٍ: ﴿تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ وبَنُو إسرَائِيلَ كَانُوا لَا يتناهُونَ عَنْ مُنْكَرٍ فعلُوهُ، ولَا يتَآمَرُون بمَعرُوفٍ أيضًا، فلذَلِكَ فُضِّلتْ هذِهِ الأُمَّة عَلَى غيرِهَا بأسبَابٍ كَثِيرَةٍ، مِنْها هذِهِ الميزَةُ العظِيمَةُ، وهِيَ الأَمْرُ بالمعرُوفِ، والنَّهيُ عَنِ المُنْكَرِ، والإِيمَانُ باللهِ.

فإذَا قَالَ قَائِل: لمَاذَا أَخَّرَ الإِيمَانَ باللهِ عَنِ الأَمْرِ بالمعرُوفِ والنَّهيِ عَنِ المنْكَرِ؟

فالجَوابُ: لأَنَّ الإِيمَانَ باللهِ يَكُون مِنهُم ومِنْ غيرِهِمْ، حتَّى الأُمَمُ السَّابقَةُ تُؤمِنُ باللهِ، لَكِنَّ المَيزَةَ العَظِيمَةَ الَّتِي حَصَلُوا بِهَا عَلَى هذِه الفضِيلَةِ هِيَ: الأَمْر بالمعرُوفِ والنَّهي عَن المنكَرِ.

[١] قَوْلُهُ: «ونُؤمِنُ بأَنَّ خَيْر هذِهِ الأُمَّةِ الصَّحابَةُ» جِنسًا، وأَمَّا أفرادًا فِفِي مَعنَى واحِدٍ فَقَطْ وهُوَ الصُّحبَةُ، فالصُّحبَةُ لَا أحَدَ يُساويهِمْ فِيهِ أبَدًا؛ لأَنَّ كُلَّ مَنْ بعدَهُم لَيْسَ صحَابيًّا، ولَكِن هُناكَ أشيَاءُ أُخرَى كَمَا قُلْنا فِيمَا سَبَقَ: مُوجِبَاتُ الفضْلِ كثِيرَةٌ، قَدْ يفُوقُ فِيهَا التَّابعِيُّ صحَابيًّا مِنَ الصَّحَابَةِ، وكَمَا ذَكَرْنَا آنِفًا، أنَّ أجْرَ الوَاحِدِ فِي أيَّام الصَّبْرِ كأَجْرِ خَمْسِينَ مِنَ الصَّحابَةِ، وقَدْ يُوجدُ مِنَ التَّابعِينَ مَنْ يَكُون إمَامًا فِي الدَّعوَةِ إِلَى اللهِ إمَامًا فِي الأَمْر بالمعرُوفِ والنَّهي عَنِ المنْكَرِ، إمَامًا فِي كُلِّ شَيْءٍ مِنْ مُتعلِّقاتِ الدِّينِ، ولَا يُوجدُ هَذا فِي صحَابِيٍّ جَاءَ إِلَى المَدِينَةِ فآمَنَ بالرَّسُولِ ﷺ ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَى إِبلِهِ، لَكِنَّ الصُّحبَةَ لَا يُمْكِن أن ينالَهَا أحَدٌ بعدَهُم.

إذَنْ: باعتبَارِ «العُموم»: هُمْ أفضَلُ الخلْقِ بعْدَ الأنبياءِ، وأمَّا باعْتِبَارِ «الخُصُوصِ» يَعْنِي: كُلَّ فَرْدٍ بانفرَادِهِ؛ فهَذِهِ قَدْ يَكُون لِمَنْ بعدَهُم فضَائِلُ لَمْ تَأْتِ لهَذَا الفَرْدِ المُعيَّنِ.

وبِأَنَّهُ لا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ هَذِه الأُمَّةِ عَلَى الحَقِّ ظَاهِرِينَ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَـهُمْ أَوْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ[١].

قَوْلُهُ: «ثُمَّ التَّابِعُونَ» نَقول فيهِمْ مَا قُلْنا فِي الصَّحَابَةِ، يَعْنِي: هَذِهِ الطَّبَقَةُ مِنَ الأُمَّةِ -مِنْ حَيْثُ الجِنْسُ- أفضَلُ مِمَّن بعدَهُمْ، لَكِن قَدْ يَكُونُ فِي أَتْبَاعِ التَّابِعِينَ مَنْ هُوَ أفضَلُ بكَثِيرٍ مِنَ التَّابِعِينَ.

قَوْلُهُ: «الصَّحابَةُ ثُمَّ التَّابعُونَ ثُمَّ تَابعُوهُم»؛ هَذِه القُرونُ الثَّلَاثَةُ هِيَ القُرُونُ الَّتِي يُعبِّر عنْهَا العُلَماء بالقُرُونِ المفضَّلَةِ، الَّتِي وردَتْ فِي حدِيثِ عمْرَانَ بْنِ حُصَينٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ فإن النَّبيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَالَ: «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ»(١). ثُمَّ تَأتِي الطَّبَقَاتُ الكَثِيرَةُ المتنوِّعَةُ، قَالَ شَيْخُ الإِسْلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «وكُلَّما بَعُدَ العَهْدُ بالرِّسالَةِ ضَعُفَتِ الفَضِيلَةُ»(٢)، وهَذَا يُؤخَذُ مِنْ قَولِ أنسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حِينَ شَكَا النَّاسُ إِلَيْه مَا يجِدُونَهُ مِنَ الحَجَّاجِ بْنِ يُوسُفَ الثَّقفيِّ، قَالَ: إِنِّي سَمِعْتُ رَسُول اللهِ ﷺ يقُولُ: «لَا يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ إِلَّا وَمَا بَعْدَهُ شَرٌّ مِنْهُ حَتَّى تَلْقَوا رَبَّكُمْ»(٣).

[١] قَوْلُهُ: «وبِأَنَّه لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ هَذِهِ الأُمَّة عَلَى الحَقِّ ظَاهِرِينَ، لَا يَضرُّهُم مَنْ خَذَلَـهم، أَو خَالَفَهُم، حتَّى يَأتِـيَ أَمْرُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ» نُؤْمِن بذَلِكَ لقَوْلِ النَّبيِّ ﷺ: «لَا تَـزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِـي عَلَى الحَقِّ ظَاهِـرِينَ لا يَضُرُّهُـمْ مَنْ خَالَفَهُـمْ، حَتَّى يَأْتِـيَ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الشهادات، باب لا يشهد على شهادة جور إذا أشهد، رقم (٢٦٥٢)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، رقم (٢٥٣٣)، من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) نقله عنه بنحوه ابن القيم في اجتماع الجيوش الإسلامية (٢/ ٢١٨).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الفتن، باب لا يأتي زمان إلا الذي بعده شر منه، رقم (٧٠٦٨).

أَمْرُ اللهِ»(١)، وهَذِه بُشْرَى سَارَّةٌ لِهَذِهِ الأُمَّة، أَنَّه لَن يُعدَم الحَقُّ مِنْها جَمِيعًا، بَل لَا بُدَّ أن يَكُون فِيهَا مَنْ هُو عَلَى الحَقِّ ظَاهِرٌ، بمَعْنى: أَنَّه يُبيِّنُ الحَقَّ ويُوضِّحُهُ، ولَا يلزَمُ مِنْ ذَلِكَ أن يَكُون مُنتصِرًا، بَل هُو مَنصُورٌ، ولكنَّهُ لَيس بمُنتصِرٍ، بمَعْنى أَنَّه قَد يَكُون لَيس عندَهُ القُدرَةُ عَلَى الجِهَادِ، إِلَّا أَنَّه معصُومٌ مِنْ أَنْ يُقضَى عَلَيْه، والوَاقِعُ شَاهِدٌ بذَلِكَ -والحَمْدُ للهِ-، فإِنَّ الأُمَّةَ الإِسْلاميَّةَ لَمْ تَزَلْ فِيهَا طَائِفَةٌ مَنصُورَةٌ عَلَى الحَقِّ إِلَى الْآنَ، وإِلَى أَنْ يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ؛ لأَنَّ النَّبيَّ ﷺ أخبَرَ، وخَبرُهُ صَادِقٌ، لَا يُمْكِن أَنْ يتخَلَّفَ.

وهذِهِ الـ«طَّائِفَةُ» هُمْ أَهْلُ السُّنَّةِ والجَمَاعَةِ، كَمَا قَالَ شَيْخ الإِسْلام رَحِمَهُ اللَّهُ فِي الواسِطِيَّةِ: «أَمَّا بعْدُ؛ فهَذَا اعْتِقَادُ الفِرْقَةِ النَّاجيَةِ المَنصُورَةِ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ أَهْلِ السُّنَّة والجَمَاعَةِ...»(٢).

وأَمَّا مَنْ قَالَ: إِنَّ المُرادَ بذَلِك: مَنْ جَاهَدَتْ فهَذا لَيْس بلازِمٍ؛ لأَنَّ الجِهَادَ قَد يقُومُ سُوقُه عِنْد القُدرَةِ والقُوَّةِ، وقَدْ لَا يقُومُ عِنْد العَجْز؛ لقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن:١٦]. وقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ [الحديد:١٤]. والمُرَادُ بأَمْرِ اللهِ تَعَالَى هُو أن يُقضَى عَلَى كُلِّ مُؤمِنٍ؛ لأَنَّه فِي آخِرِ الزَّمانِ تَهُبُّ رِيحٌ تقبِضُ نفْسَ كُلِّ مُؤمِنٍ، حتَّى لَا يَبْقَى إِلَّا شِرَارُ الخَلْقِ وعَلِيهِمْ تقُومُ السَّاعَةُ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾، رقم (٧٤٦٠)، ومسلم: كتاب الإمارة، باب قوله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق»، رقم (١٠٣٧).
(٢) انظر: العقيدة الواسطية (ص٥٤).

وَنَعْتَقِدُ أَنَّ مَا جَرَى بَيْنَ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ مِنَ الفِتَنِ، فَقَدْ صَدَرَ عَنْ تَأْوِيلٍ اجْتَهَدُوا فِيهِ[١]، فَمَنْ كَانَ مِنْهُمْ مُصِيبًا كَانَ لَهُ أَجْرَانِ، وَمَنْ كَانَ مِنْهُمْ مُخْطِئًا فَلَهُ أَجْرٌ وَاحِدٌ وَخَطَؤُهُ مَغْفُورٌ لَهُ.

وَنَرَى أَنَّهُ يَجِبُ الكَفُّ عَنْ مَسَاوِئِهِمْ، فَلَا نَذْكُرُهُمْ إِلَّا بِمَا يَسْتَحِقُّونَهُ مِنَ الثَّنَاءِ الجَمِيلِ، وَأَنْ نُطَهِّرَ قُلُوبَنَا مِنَ الغِلِّ وَالحِقْدِ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ[٢]؛............

---

[١] قَوْلُهُ: «**وَنعْتَقِدُ أَنَّ مَا جَرَى بَيْنَ الصَّحابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ مِنَ الفِتَنِ فقَدْ صَدَرَ عَن تأوِيلٍ اجْتَهدُوا فِيه**» مَنْ قَرَأَ تَاريخَ الصَّحابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَجدَ فِيه مَا يُحزِنُه، مِنَ القِتَالِ بينَهُمْ والفتَنِ، سَوَاءً كَانَ مَعَ عائشَةَ والزُّبيرِ ومَنْ قَابلَهُما رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، أَو كَانَ مَعَ معاوِيَةَ وعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، لَكِن نعلَمُ أَنَّ ذَلِك صَدَرَ عَن تأوِيلٍ، ومَا صَدَرَ عَن تأويلٍ واجتهَادٍ فإنَّه إنْ أَصَابَ فاعلُه الحَقَّ فلَهُ أَجْرَانِ، وإنْ أَخْطَأَ فلَهُ أَجْرٌ وَاحِدٌ، ولَا يَمنعُ مِنْ هَذَا أنْ نَقُول: أَولَاهُم بالحَقِّ كَذَا وكَذَا، فمَثَلًا: القِتَالُ الجَارِي بَيْنَ مُعاويَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَا شَكَّ أَنَّ الأقرَبَ إِلَى الحَقِّ فِيهِ هُو عَلِيُّ ابْنُ أَبِي طَالِبٍ؛ لأنَّ الرَّسُول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالَ لعَمَّارٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**وَيْحَ عَمَّارٍ تَقْتُلُهُ الْفِئَةُ البَاغِيَةُ**»(١). وقَدْ قتلَهُ أصحَابُ معاوية، لَكِن مَعَ ذَلِك لَا يجُوزُ أنْ نُضمِرَ لهُمْ بُغضًا، ولَا كَرَاهَةً، بَل نَقُولُ: مَا صَدَرَ مِنهم فهُو صَادِرٌ عَنْ تَأوِيلٍ واجْتِهَادٍ، وهُمْ بَيْنَ صَاحِبِ سَعْيٍ مَشكُورٍ، أَوِ اجتِهَادٍ مغفُورٍ، فمَنْ أَصَابَ فلَهُ أَجْرَانِ، ومَنْ أَخطَأَ فلَهُ أَجْرٌ.

[٢] قَوْلُهُ: «**وَنَرَى أَنَّه يجِبُ أنْ نكُفَّ عَنْ مُساوئِهِمْ، فَلَا نَذْكُرُهم إِلَّا بِمَا**

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب التعاون في بناء المسجد، رقم (٤٤٧)، ومسلم: كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيتمنى أن يكون مكان الميت، رقم (٢٩١٥)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

يَستحقُّونَهُ مِنَ الثَّناءِ الجَمِيلِ، وأنْ نُطهِّـر قُـلوبَنا مِنَ الغِـلِّ والحِقْدِ عَلَى أحَدٍ مِنْهُم» وأمَّا أنْ ننْشُرَ مَساوِئَهُم بَيْنَ النَّاسِ، ونَقُولُ: فُلانٌ فَعَل كَذَا، وفُلانٌ فَعَل كَذَا، فَلَا شَكَّ أَنَّه مُحَرَّمٌ؛ لأَنَّهُ إِذَا كَانَ هَذَا حَرَامًا بالنِّسْبَةِ لغَيرِهِمْ فكَيْف بالنِّسْبَةِ لَهُمْ؟!

والطَّعنُ فِي الصَّحابَةِ لَيْسَ أمْرًا هَيِّنًا؛ لأَنَّ الطَّعنَ فِي الصَّحابَةِ يتضَمَّنُ الطَّعنَ فيهِمْ، والطَّعنَ فِي الشَّريعَةِ، والطَّعنَ فِي الرَّسُولِ ﷺ، والطَّعنَ فِي جَانِبِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فالطَّعنُ فيهِمْ -فِي الحقيقَةِ- طَعْنٌ فِي أرْبَعِ جهاتٍ:

أولًا: طَعنٌ فيهِمْ، وهُوَ وَاضِحٌ.

ثانيًا: أَنَّه طَعْنٌ فِي الشَّريعَةِ، لأَنَّهُم هُمُ الواسِطَةُ بينَنَا وبَيْنَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وهُمُ الَّذِين نَقَلُوا الشَّريعَةَ إِلَيْنَا، فإِذَا طَعنَّا فيهِمْ صَارَتِ الشَّريعَةُ مَشْكُوكًا فِي صِحَّتِها، وعَزْوِهَا إِلَى الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ثالثًا: أَنَّه طَعْنٌ فِي الرَّسُولِ ﷺ، وذَلِك أَنَّ مَنْ كَانَ أصحَابُه عَلَى جانبٍ مِنَ الفِسْقِ والفُجُورِ، فإِنَّ ذَلِك قَدْحٌ فِي مَقَامِهِ؛ لأَنَّ العُرْفَ بَيْنَ النَّاس أَنَّ الرَّجُلَ الشَّريفَ إِذَا كَانَ مَنْ حَوْلَهُ مِنْ أَصْحَابِهِ قَدْ طُعِنُوا بالفِسْقِ والفُجورِ وغيرِهِما فَلَا شَكَّ أَنَّ هَذَا قَدْحٌ فِيهِ، وإن لَمْ يَكُن مثلَهُم فِي الفُجورِ والفِسْقِ؛ لأَنَّ الوَاجِبَ علَيْه أن يَصْطَحِبَ أُنَاسًا شُرفَاءَ، أَمَّا أَنْ يُصاحِبَ أُنَاسًا عَلَى جَانِبٍ مِنَ الفُجُورِ والفُسُوقِ فهَذَا لَا شَكَّ أَنَّه عَيْبٌ فِيهِ، وإنْ لَمْ يَكُن هُو عَلَى شَاكِلَتِهِمْ مِنَ الفُجُورِ وغيرِهِمْ.

رابِعًا: أَنَّه طَعْنٌ فِي جَانِبِ حِكْمَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، أَنْ يُهيِّئَ لِهَذَا الرَّسُول الكَريمِ الَّذِي هُـو أفضَلُ الخَلْقِ عِنْد اللهِ عَزَّوَجَلَّ أُنَاسًا فَجَرَةً كُفَّارًا فُسَّاقًا، كَما يقُـولُه الرَّافِضَةُ

لِقَوْلِهِ تعَالَى فِيهِمْ: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَـٰتَلَ أُوْلَـٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ وَقَـٰتَلُواْ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾[1] [الحديد:١٠].

فِي أصحَابِ الرَّسُولِ ﷺ، إلَّا نفرًا قَلِيلًا، ومَنْ كَانَ مِنْ آلِ البَيْتِ، وإِذَا كَانَ كذَلِكَ وَجَبَ علَيْنا أن نَكُفَّ عَنْ مَساوئِهِمْ، وأَنْ لَا نُظهِرَها للنَّاسِ، حتَّى ولَو فَرضْنَا أنَّ إنسَانًا يقْرَأُ فِي كتَابِ (البِدايَة والنِّهايَة)، وأَتَى علَى وَقْعَةِ الجَمَلِ، أَو صِفِّين، أَو غيْرِهَا ممَّا يَخدِشُ كرَامَةَ الصَّحابَةِ عِنْدَ العَامَّةِ، الَّذِين لَا يَفهَمُونَ، فالوَاجِبُ أنْ لَا تُقرأ، أمَّا إنْ كُنَّا نُرِيدُ أنْ نَقرَأَها عَلَى طَلَبَةِ العِلْمِ؛ لنُمحِّصَ مَا فِيهَا؛ لأَنَّه دَخلَها الزَّغلُ والكَذِبُ، فإِنَّه لَا بأسَ؛ بَل قَد يجِبُ.

كذَلِكَ يجِبُ أنْ نُطهِّرَ قُلوبنَا مِنَ الغِلِّ والحقْدِ عَلَى أحَدٍ مِنْهم حتَّى لو كُنَّا نَرى أَنَّه أخطَأَ، فإِنَّه لَا يجُوزُ لَنا أنْ نَحمِلَ حِقْدًا أَو غِلًّا علَيْه، بَل نَقُولُ: عفَا اللهُ عَنْهُ، وإِذَا كَانَ الَّذين انْصَرَفُوا فِي أُحُدٍ قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِيهِمْ: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾ [آل عمران:١٥٢]. مَعَ أَنَّه عَزَّوَجَلَّ قَالَ: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْأَخِرَةَ﴾ [آل عمران:١٥٢]. فبيَّنَ عَزَّوَجَلَّ أنَّ مِنْهُم مَنْ كَانَ يُقاتِلُ للدُّنيَا، ومَع هَذَا قَالَ: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾، فكَيْف لَا نَعفُو نَحنُ عمَّا حَصلَ مِنْهُمْ، بمَعْنى أن لَا نَحمِلَ حِقْدًا ولَا غلًّا علَى أحَدٍ مِنْهُم، وإنْ كُنَّا نَرى أَنَّه أخطَأَ، وأنَّ قَبِيلَهُ هُو المُصِيبُ.

[١] قَوْلُهُ: «لقَولِهِ تَعَالَى فيهِمْ: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَـٰتَلَ أُوْلَـٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ وَقَـٰتَلُواْ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾» المُرادُ بالفَتحِ هُنا صُلحُ الحديبيةِ، لَا فَتحُ مكَّةَ، والدَّلِيل عَلَى أَنَّه صُلحُ الحُديبيَّةَ مَا جَرى بيْنَ عَبْدِ الرَّحمنِ بْنِ عَوفٍ، وخَالِدِ بْنِ الوَلِيدِ، حَيْثُ قَالَ النَّبيُّ ﷺ لخَالِدٍ: «لا تَسبُّوا أَصْحَابِي فَوالَّذي نَفْسِي بِيدِهِ لَوْ أَنَّ أَحدَكُمْ أَنْفقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهبًا مَا بَلغَ مُدَّ أَحدِهِمْ

....

وَلَا نَصِيفَهُ»(١)، وعبْدُ الرَّحمَن بْنُ عوْفٍ مِنَ الْمهاجِرِينَ الأَوَّلِينَ، بخِلَافِ خَالِدِ بْنِ الوَلِيدِ، فإِنَّه أسْلَمَ بَعْدَ ذَلِك.

وقوله: ﴿مِنۢ بَعۡدُ﴾ بالضَّمِّ مَعَ أنَّها سُبِقَتْ بحَرْفِ الجرِّ، وذَلِكَ لأَنَّها هُنَا مَبنيَّةٌ ولَيْستْ مُعرَبَةً.

﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ لـمَّا ذكَرَ اللهُ تَعالَى فضْلَ مَنْ أنْفقَ مِنْ قَبْلِ الفَتْحِ وقَاتَلَ فإنَّه قَدْ يَذْهَبُ القَلْبُ إِلَى التَّنقُّصِ مِنْ حَقِّ الْمُفضَّل عليْهِمْ، فقَالَ: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ وإنِ اخْتلَفُوا فِي الفضْلِ، وهَذِهِ طَرِيقَةُ القُرْآنِ، أَنَّه تَعالَى إِذَا ذَكر مُفضَّلًا ومُفضَّلًا عليْه، ذَكَرَ المَنقبَةَ العَامَّةَ للجَمِيعِ، قَالَ اللهُ تَعالَى: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ ٧٨ فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَ﴾ [الأنبياء:٧٨-٧٩]. قَدْ يَبْدُر إِلَى الذِّهنِ التَّنقُّص مِنْ حَقِّ داوُد عَلَيهِ السَّلَامُ، فقَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ دفْعًا لهَذَا: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ﴾ وذَكَرَ مَنقبَةً خاصَّة لَهُ فِي مُقابلِ قَوْلِهِ: ﴿فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَ﴾، وفِي قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ هَلِ: ﴿ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ وَصْفٌ لَموصُوفٍ مُعيَّنٍ، أَوِ المُرادُ الوِعْدَة الحُسنَى؟

الجَوابُ: إِذَا قُلْنا: الحُسْنَى هِيَ الجنَّةُ، وأنَّها وَصْفٌ مُختصٌّ بِهَا قُلْنا المَعْنَى: وكُلًّا وعَدَ اللهُ الجنَّةَ، كَما قَالَ تَعالَى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞ﴾ [يونس:٢٦]. وإذَا قُلْنا: إنَّهَا وَصْفٌ للشَّيءِ الأحسَنِ فإنَّنَا لَا نَرى أنَّ شَيْئًا أحسَنُ مِنَ الجَنَّةِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب أصحاب النبي ﷺ، باب قول النبي ﷺ: «لو كنت متخذًا خليلًا»، رقم (٣٦٧٣)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب تحريم سب الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ رقم (٢٥٤١) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَى فِينَا: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[1] [الحشر:١٠].

---

[١] قَوْلُهُ: «وَقَوْلُ اللهِ تَعَالَى فينَا: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾» فسُؤَالُ المغْفِرَةِ لهُمْ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ وسُؤَالُهُمْ نَفْيَ الغِلِّ عَنْهُمْ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ ولَمْ يَقُل للَّذين سَبقُونا بالإِيمان؛ لأَنَّهم سَأَلُوا أَنْ لَا يَكُونَ فِي قُلُوبهِمْ غِلٌّ لَا للسَّابقِينَ ولَا للَّاحِقِينَ.

وهَذِهِ الآيَةُ معطُوفَةٌ عَلَى آيتَينِ سَابقتَين، حيْثُ ذَكَرَ اللهُ تعالَى الفَيْءَ: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر:٨-٩].

وقَدْ قَالَ الإِمَامُ مالِكٌ رَحِمَهُ اللَّهُ: إنَّ الرَّافِضَةَ لَا حَقَّ لهُمْ فِي الفَيْءِ(١)، لأَنَّه لَا يُمْكِن أَنْ تنطِقَ ألسِنَتُهم بهَذَا القَوْلِ: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ بَلْ إِنَّهم يَشتُمُونَهُم، ويَلعنُونَهم، وقُلُوبُهم مُمتلئَةٌ حِقْدًا وغِلًّا عَلَى الَّذِين سبقُوهُم بالإِيمان، ولهَذَا قَالَ الإِمامُ مَالِكٌ: إنَّهُم لَا حَظَّ لهُمْ فِي الفَيْءِ.

---

(١) انظر: النوادر والزيادات (٣/ ٣٩٨)، وتفسير القرطبي (١٨/ ٣٢)، وتفسير ابن كثير (٨/ ١٠٢).

فَصْلٌ

وَنُؤْمِنُ بِاليَوْمِ الآخِرِ وَهُوَ يَوْمُ القِيَامَةِ، الَّذِي لَا يَوْمَ بَعْدَهُ[١]، حِينَ يُبْعَثُ النَّاسُ أَحْيَاءً لِلْبَقَاءِ، إِمَّا فِي دَارِ النَّعِيمِ، وَإِمَّا فِي دَارِ العَذَابِ الأَلِيمِ.

---

[١] قَوْلُهُ: «**فَصْلٌ: ونُؤمِنُ باليَومِ الآخِرِ، وهُوَ يَوْمُ القِيامَة، الَّذي لَا يَوْمَ بعْدَهُ**»، وهَذَا أَحَدُ أركَانِ الإِيمان السِّتَّةِ، قَالَ ﷺ حِينَ سَأَلَهُ جِبْرِيلُ عَن الإِيمانِ فقَالَ: «أَنْ تُؤْمِنَ باللهِ، ومَلائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَبِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»(١)، وهُوَ الرُّكنُ الخَامِسُ مِنْهَا، يقُولُ المُؤلِّفُ: هُو يَوْمُ القِيامَة.

ثُمَّ بَيَّنَ وَجْهَ وَصْفِهِ بـ«**الآخِرِ**»، فقَالَ: «**الَّذِي لَا يَوْمَ بَعْدَهُ**» فهُو آخِرُ مرحَلَةٍ؛ لأنَّ الإِنْسانَ لَهُ مراحِلُ: المرحَلَةُ الأُولَى: فِي بطْنِ أُمِّه، والثَّانِيَةُ: فِي الدُّنيَا، والثَّالِثَةُ: فِي البَرْزَخِ، والرَّابعَةُ: يَوْم القِيامَةِ؛ فهِيَ المرحَلَةُ الأخِيرَةُ، ولهَذَا يَغْلَطُ مَنْ يَقُولُ فِي الميِّتِ: إِنَّه نُقِلَ إِلَى مَثْواهُ الأخِيرِ؛ لأَنَّ المثْوَى الأخيرَ هُو إمَّا الجنَّةُ وإمَّا النَّارُ، ولَو كَانَ الإِنْسانُ يعتَقِدُه تمامًا لَكانَ كَافِرًا؛ لأَنَّ مَنْ قَالَ: إنَّ المثْوَى الأخِيرَ هِيَ القُبُورُ فقَدْ أَنْكَرَ البَعْثَ، ويكُونُ كَافِرًا، ومَعَ الأَسَفِ أَنَّ هذِهِ الكلِمَةَ شَائعَةٌ بَيْنَ النَّاس، فكَثِيرًا مَا نَسمَعُها فِي الصُّحفِ وغَيْرِ الصُّحفِ، وهَذَا غَلَطٌ.

قَوْلُهُ: «**وَنُؤْمِنُ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ**»؛ لأنَّ اللهَ تَعالَى ذَكَرَهُ فِي كِتابِهِ، وذَكَرَهُ النَّبِيُّ ﷺ فِي سُنَّتِهِ، وكَثِيرًا مَا يقْرِنُ اللهُ تَعَالَى بَيْنَ الإِيمان بِهِ، واليَوْمِ الآخِرِ؛ لأنَّ الإِيمان باليَومِ

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام، رقم (٨)، من حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فَنُؤْمِنُ بِالبَعْثِ، وَهُوَ إِحْيَاءُ اللهِ تَعَالَى المَوْتَى، حِينَ يَنْفُخُ إِسْرَافِيلُ فِي الصُّورِ النَّفْخَةَ الثَّانِيَةَ: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾[1] [الزمر:٦٨].

الآخِرِ هُو الَّذِي يُوجِبُ للإنسَانِ أنْ يُسارِعَ إِلَى الخَيْرِ، وأنْ يَبْتَعِدَ عَنِ الشَّرِّ؛ لأَنَّه يعْلَمُ أنَّ الجَزَاءَ الكَامِلَ سيكُونُ يَوْمَ القِيامَة.

واليَومُ الآخِرُ: مَا بعْدَ قِيام السَّاعَةِ إِلَى أَبَدِ الآبدِينَ، وأمَّا قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ فالمُرَادُ بِهِ المَوْقِفُ، قَبْلَ أنْ يَؤُول أَهْلُ الجَنَّةِ إِلَى الجَنَّةِ وأَهْلُ النَّارِ إِلَى النَّارِ، يَعْنِي: مَا فِيهِ مِنَ الحِسَابِ والمَوْقِفِ والشِّدَّةِ.

قَوْلُهُ: «**حِينَ يُبعَثُ النَّاس أحيَاءً للبَقَاءِ، إمَّا فِي دَارِ النَّعِيمِ، وإمَّا فِي دَارِ العَذَابِ الأَلِيمِ**» حِينَ يُبعَثُ النَّاس للبقَاءِ أَبَدًا إِلَى مَا لَا نِهَايَةَ لَهُ.

[١] قَوْلُهُ: «**فنُؤمِنُ بالبَعْثِ، وهُوَ إحيَاءُ اللهِ تَعَالَى المَوْتَى، حِينَ ينفُخُ إسرَافِيلُ فِي الصُّورِ النَّفخَة الثَّانيَة،** ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾» فالإيمَان بالبَعْثِ، وهُوَ إحيَاءُ اللهِ المَوْتَى، حِينَ يَنفُخُ إسرَافِيلُ فِي الصُّورِ النَّفخَةَ الثَّانيَةَ فيَخرُجُ النَّاس مِنْ قُبُورِهم أحياءً.

وإسرَافِيلُ مَلَكٌ مِنَ المَلائِكَةِ، وهُوَ أحَدُ المَلائِكَةِ الثَّلاثَةِ الَّذِين يذْكُرُهم النَّبيُّ ﷺ فِي اسْتِفْتَاح صلَاةِ اللَّيلِ: «**اللَّهُمَّ رَبَّ جَبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ...**»(١)،

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، رقم (٧٧٠)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وإنَّما ذكرَ هَؤلاءِ الثَّلاثَةَ؛ لأَنَّ كُلَّ واحِدٍ مِنْهم مُوكَّلٌ بِمَا فِيهِ حياةٌ، فجِبْرِيلُ مُوكَّلٌ بالوَحْيِ، الَّذِي فِيهِ حَيَاةُ القُلُوبِ، وإسرَافِيلُ مُوكَّلٌ بالنَّفْخِ فِي الصُّورِ، الَّذِي فِيهِ حَيَاةُ الأَبْدَانِ يَوْمَ القِيامَة، ومِيكَائِيلُ مُوكَّلٌ بالقَطْرِ والنَّباتِ، الَّذِي فِيهِ حياةُ الأَرْضِ.

وقَوْلُهُ: «حِينَ يَنْفُخُ إِسْرَافِيلُ النَّفْخَةَ الثَّانِيَةَ» أفادَنا المُؤلِّف أنَّه لَيْسَ هُناكَ إِلَّا نَفْخَتَانِ:

النَّفخَةُ الأُولَى: فِيهَا الفَزَعُ ثُمَّ الصَّعْقُ.

والنَّفْخَةُ الثَّانِيَةُ: فِيهَا البَعْثُ والإحياءُ، قَالَ اللهُ تَعالَى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر:٦٨].

وعَلَى هَذَا فيكُونُ في قَوْلِ اللهِ تَعالَى فِي سُورَةِ النَّمْلِ: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾ [النمل:٨٧]. المُرَادُ بِهَا النَّفْخَةُ الَّتِي فِيهَا الصَّعقَةُ، فيَفزَعُ النَّاس؛ لهَولِ مَا سَمِعُوا مِنَ الصَّوتِ العَظِيمِ، ثُمَّ يمُوتُون إِلَّا مَنْ شَاءَ اللهُ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ﴾ أفَادَتِ الآيَةُ الكَريمَةُ أنَّ بيْنَ النَّفختَينِ مُهلَةً؛ لأَنَّ ثُمَّ تُفِيدُ التَّرتِيبَ والتَّراخِيَ، وهَذِهِ المُهلَةُ قَالَ فِيهَا أَبُو هُريرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -فِيمَا رَواهُ عَنِ النَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-: «إِنَّ بينَهُما أرْبعِينَ»، فسَأَلُوهُ أرْبَعِينَ يَوْمًا أَو سَنَةً أَو شَهْرًا، كُلَّما قَالُوا شَيْئًا قَالَ: «أَبَيْتُ»، يَعْني أَنِّي لَا أُخبِرُكم بذَلِك؛ لأَنَّ النَّبيَّ ﷺ

فَيَقُومُ النَّاسُ مِنْ قُبُورِهِمْ لِرَبِّ العَالَـمِينَ حُفَاةً بِلَا نِعَالٍ، عُرَاةً بِلَا ثِيَابٍ، غُرْلًا بِلَا خِتَانٍ: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾[1] [الأنبياء:١٠٤].

إنَّما قَالَ: «أَرْبَعِينَ» وسَكَتَ(١). فاللهُ أعلَمُ بذَلِكَ.

[١] قَوْلُهُ: «**فَيَقُومُ النَّاسُ مِنْ قُبُورِهم لِرَبِّ العَالَمِينَ حُفَاةً بِلَا نِعَالٍ، وَعُرَاةً بِلَا ثِيَابٍ، غُـرْلًا بِلَا خِتَانٍ**: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾» وإذَا نظَرْتَ إِلَى أَوَّلِ بَدْءِ الخَلْقِ وجَدْتَ أنَّ الإِنْسانَ يخرُجُ مِنْ بطْنِ أُمِّه حَافِيًا، عَارِيًا، أغْرَلَ، فهُمْ يُحشَرُونَ بِلَا نِعَالٍ، وعُراةً بِلَا ثيَابٍ، وغُرْلًا غَيْرَ مَخْتُونينَ، بمَعْنَى أنَّ اللهَ يَردُّ إِلَيْهم مَا أُخِذ فِي حيَاتِهِمْ، ممَّا فِيه حيَاةٌ.

وهَلِ الإِنْسَانُ الَّذِي أُخِذَتْ كُليتُهُ تُردُّ إِلَيْهِ؟

الجَوابُ: نعَمْ، لكِن قَد يقُولُ قَائِل: إنَّها لَا تُردُّ؛ لأنَّها أُخِذَتْ بغَيْرِ شَرْعٍ، بخِلَافِ جلْدَةِ الخِتَانِ فإنَّها مَأخُوذَةٌ بأَمْرِ اللهِ ورَسُولِهِ، ولَكِنَّ ظَاهِرَ الآيَةِ: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ أنَّ الإِنْسانَ يُعادُ بجَمِيعِ أجْزَائِهِ، حتَّى مَنْ قُطِعَتْ يدُهُ، أَوْ مَنْ قُطِعَتْ رِجْلُهُ، أَو تفرَّقَتْ أجْزاؤُه، فَلَا بُدَّ أن يُعادَ كَما خُلِقَ.

فإِنْ قَالَ قَائِل: كَيْفَ يتحمَّلُون أن يبقَوْا خمسِينَ ألفَ سَنَةٍ عَلَى هَذِهِ الحَالِ؟ وكيفَ يُمْكِن أن يَكُونَ الرِّجالُ والنِّساءُ فِي مكَانٍ وَاحِدٍ وهُمْ عُراةٌ؟

قُلْنا: أمَّا الجوابُ عَنِ الأَوَّلِ فإِنَّ أحْوالَ الأَبْدانِ يَوْمَ القِيامَةِ ليسَتْ كأحْوالِـهَا

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، رقم (٤٨١٤)، ومسلم: كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ما بين النفختين، رقم (٢٩٥٥).

فِي الدُّنيا، بَلْ يُعطِيها اللهُ مِنَ القُوَّةِ والصَّبرِ والتَّحمُّل مَا لَا يَكُون فِي الدُّنيَا، ولهَذَا تَدنُو الشَّمسُ مِنْهم مقدَارَ مِيلٍ ولَا يَحْتَرِقُون، بينَما الشَّمْسُ لَوْ تَنزِلُ عَنْ مَسَارِهَا فِي الدُّنيَا مقْدَارَ شعْرَةٍ وَاحِدَةٍ لأحرَقَتِ الأَرْضَ كُلَّها بمَنْ عَلَيْهَا.

وأَمَّا كَوْنُ الرِّجالِ والنِّساءِ فِي مكَانٍ وَاحِدٍ فقَدْ أَجابَ عنْهُ النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بأَنَّ الإِنْسانَ مشغُولٌ عَنْ هَذَا الأمْرِ، وأَنَّ الأَمْر أعظَمُ مِنْ أَنْ يُهمَّهم ذَلِكَ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس:٣٧]. سبْحَانَ اللهِ! أعانَنَا اللهُ وإِيَّاكُم عَلَى هَذَا!.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَـٰعِلِينَ﴾ فأكَّدَ اللهُ ذَلِك بأمرَينِ: بأَنَّه وَعْدٌ وَاجِبٌ عَلَى اللهِ، فلَمْ يَقُل وَعْدًا مِنَّا، بَلْ قَالَ: ﴿وَعْدًا عَلَيْنَآ﴾، وأكَّدَ ذَلِك بأَنَّه قَادِرٌ علَيْه بقَولِهِ: ﴿إِنَّا كُنَّا فَـٰعِلِينَ﴾، بيْنَما الكُفَّارُ يقُولُونَ: مَنْ يُحْيي العِظَامَ وهِيَ رَمِيمٌ فقَالَ اللهُ: ﴿وَعْدًا عَلَيْنَآ﴾ أَي: ثَابِتٌ وَاجِبٌ عَلَيْنا، وللهِ تَعَالَى أنْ يُوجِبَ عَلَى نَفْسِهِ مَا شَاءَ، أَمَّا نَحْن فلَا نُوجِبُ عَلَى اللهِ شَيْئًا، وإِنَّما نُؤْمِن بأَنَّ عَلَى اللهِ أشيَاءَ وَاجبَةً، أَوجَبَها هُو عَلَى نفْسِهِ، قَالَ تَعالَى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ﴾ [النساء:١٧]. وقَالَ تَعالَى: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [الأنعام:١٢]. وهُنَا قَالَ: ﴿وَعْدًا عَلَيْنَآ﴾ فأَوجَبَ اللهُ هَذا الوَعْدَ علَيْه عَزَّوَجَلَّ، وهُوَ أصْدَقُ القَائلِينَ، وأَوفَى الوَاعِدِينَ: ﴿إِنَّا كُنَّا فَـٰعِلِينَ﴾ وأكَّدَ هَذا الفِعْل، حَيْثُ أَتَى بِهِ مُؤكَّدًا بـ«إِنَّ»، وأَتَى بِهِ باسْمِ الفَاعِلِ: ﴿فَـٰعِلِينَ﴾، ولَمْ يَقُل: إِنَّا كُنَّا نفعَلُ؛ لتَحقُّقِ وُقُوعِهِ، وأَنَّه لَا بُدَّ منْهُ.

وَنُؤْمِنُ بِصَحَائِفِ الأَعْمَالِ، تُعْطَى بِاليَمِينِ، أَوْ مِنْ وَرَاءِ الظُّهُورِ بِالشِّمَالِ[١] ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا[٢] ۝٩﴾..

---

[١] قَوْلُهُ: «نُؤْمِنُ بِصَحَائِفِ الأَعْمَالِ، تُعطَى باليَمِينِ أَو مِنْ وَرَاءِ الظُّهُورِ بالشِّمالِ» صحَائِفُ الأعمالِ هِيَ الَّتِي كُتِبَتْ فِيهَا الأعْمال، فكُلُّ شَيْءٍ يُكتَبُ، قَالَ اللهُ تعالَى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٨]. وقَالَ تعالَى ﴿فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٩].

فهَذِهِ الكُتُبُ يَوْمَ القِيامَة تُنشَرُ، وتُفتَحُ للإنسَانِ، قَالَ تعالَى: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ۝١٣ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ﴾ [الإسراء:١٣-١٤]. وقَالَ تعالَى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف:٨٠].

وهَذِه الصَّحائِفُ تُعطَى باليَمِينِ؛ قَالَ اللهُ تعالَى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الحاقة:١٩]، وتُعطَى مِنْ وَرَاءِ الظُّهورِ بالشِّمالِ، قَالَ اللهُ تَعالَى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾ [الحاقة:٢٥]. وَقَالَ تعالَى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ﴾ [الانشقاق:١٠]. وفَهِمْنا مِنْ كَلَامِ المُؤلِّفِ أنَّه لَا تَنَافِيَ بَيْنَ ذِكْرِ الشِّمالِ ووَرَاءِ الظَّهْرِ، وأَنَّ الإِنْسانَ يُعطَى كتَابه بالشِّمالِ، ولَكِن تُلوَى يدُهُ، حتَّى تكُونَ مِنْ وَرَاءِ الظَّهرِ، كَمَا أَنَّه جعَلَ كتَابَ اللهِ وراءَ ظهْرِه فِي الدُّنيا، جعَلَ اللهُ كتَابَ عملِهِ وَرَاءَ ظَهْرِهِ فِي الآخِرَةِ، خِزْيًا وعَارًا.

[٢] قَوْلُهُ: «﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾» والحَسابُ اليَسِيرُ هُو: أَنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ يَوْمَ القِيامَة يخْلُو بعَبْدِهِ

وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾[1] [الانشقاق:٧-١٢].

المُؤْمِنِ، لَيْسَ عِنْدَهُ أَحَدٌ، ويُقرِّرُه بذُنُوبِهِ، فيَقُولُ: فَعَلْتَ كَذَا، وفعَلْتَ كَذَا، وفعَلْتَ كَذَا، ويُقرُّ ولَا يُمْكِن أن يُنكِرَ، حتَّى إِذَا ظَنَّ أَنَّه هَلَكَ، قَالَ اللهُ تَعَالَى -مُمتنًّا علَيْه-: «سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا»، وهَذِهِ نعمَةٌ سَابقَةٌ «وأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ»(١)، وهَذِهِ نعمَةٌ لاحِقَةٌ، ولهَذَا قَالَ: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ لَو أَنَّنا فكَّرْنا فِي الذُّنوبِ الَّتِي نعمَلُها، دُونَ أن يطَّلِعَ عَلَيْها النَّاس لوَجَدْنَاها عظِيمَةً كَثِيرَةً، ولَكِن بسترِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ ومَنِّهِ وكرَمِهِ سترَها علَيْنا، أَمَّا لَوْ نُوقِشَ الإِنْسانُ الحسَابَ لهَلَكَ، فكمَا قَالَ النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «مَن نُوقِشَ الحِسَابَ عُذِّبَ»(٢)، أَي صَارَ مُستحقًّا للعَذَابِ.

﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾ أهلُهُ فِي الجنَّةِ؛ لأَنَّ لَهُ أهلِينَ فِي الجنَّةِ ينقَلِبُ إِلَيْهم مَسرُورًا، وظَاهِرُ الآيَةِ الكَرِيمَةِ أَنَّه مِنْ حِينِ أَنْ يَكُون كذَلِكَ يظْهَرُ علَيْه السُّرورُ، ورُبَّما يَكُون النَّاس فِي غَمٍّ وهَمٍّ، لَكِنْ هُو مَسرُورٌ.

وعُلِمَ مِنْ هذِهِ الآيَةِ الكَرِيمَةِ أَنَّ الحسَابَ يقَعُ بعْدَ أَنْ يُعطَى الإِنْسَانُ كتَابَهُ، وهَذَا هُوَ التَّرتِيبُ العَقلِيُّ، أَنْ يُعطَى الإِنسانُ كَشْفَ الحسَابِ، ثُمَّ بعْدَ ذَلِك إِذَا تَأَمَّلَهُ ورَاجعَهُ يُحاسَبُ علَيْه ويُناقَشُ، فإِتْيَانُ الكتَابِ يَكُونُ قَبْلَ الحِسَابِ.

[١] قَوْلُهُ: «﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾» يَعْنِي يَدْعُو بالثُّبورِ -والعياذُ باللهِ- واثُبُورَاهُ، واعَارَاهُ، واخِزْيَاهُ، ومَا أَشْبهَ ذَلِكَ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾، رقم (٤٦٨٥)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله، رقم (٢٧٦٨)، من حديث ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب من نوقش الحساب عذب، رقم (٦٥٣٦)، ومسلم: كتاب الجنة، باب إثبات الحساب، رقم (٢٨٧٦)، من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾[١] [الإسراء:١٣-١٤].

وَنُؤْمِنُ بِالمَوَازِينِ تُوضَعَ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا[٢]،............

---

[١] قَوْلُهُ: «﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾» قَالَ بَعْضُ السَّلَف: واللهِ لقَدْ أنصَفَكَ مَنْ جعلَكَ حَسِيبًا عَلَى نَفْسِك، يُخرِج لَهُ يَوْم القِيامَة كِتَابًا مَنشُورًا مَفتُوحًا، فَلَا يُكلِّفُه فتْحَهُ، ويُقَالُ لَهُ: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ وهَذا هُو غايَةُ العَدْلِ والإنصَافِ: أَنَّه هُو بنَفْسِهِ يُحاسِبُ نفسَهُ، بِناءً عَلَى مَا فِي كِتَابِهِ.

إِذَنْ: نُؤمِن بالصَّحائِفِ، وأنَّ النَّاس يُؤتَون إمَّا باليَمِينِ، وإمَّا بالشِّمالِ، وتَأمَّلْ مَا فِي سُورَةِ الحَاقَّةِ، قَالَ تعالَى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ﴾ [الحاقة:١٩]؛ يُريه النَّاسَ مُفتخرًا بِه، مُتحدِّثًا بنعمَةِ اللهِ علَيْه؛ وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ﴾ [الحاقة:٢٥]. يتمَنَّى أَنَّه هُو لم يطَّلِعْ علَيْه، ولَا يُطْلِع علَيْه النَّاسَ؛ لأَنَّه خِزْيٌ وعَارٌ، والعِياذُ باللهِ.

[٢] قَوْلُهُ: «**ونُؤمِنُ بالمَوازِينِ تُوضَعُ يَوْم القِيامَة فَلَا تُظلَمُ نفْسٌ شَيْئًا**» «الموازِينُ» جمْعُ ميزَانٍ، والمَوَازِينُ ذُكِرَتْ فِي الكِتَابِ والسُّنَّة مرَّةً بالجَمْعِ، ومَرَّةً بالإفرَادِ، فقَالَ اللهُ تعالَى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأنبياء:٤٧]. وقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «كَلِمَتَانِ حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ، خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي المِيزَانِ»(١). والجمْعُ بينَهما

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الدعوات، باب فضل التسبيح، رقم (٦٤٠٦)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء، رقم (٢٦٩٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

يَسيرٌ جدًّا: وهُوَ أنَّ المَوَازِينَ جُمِعَتْ إمَّا لكثْرَةِ مَا يُوزَنُ بِهَا، وإمَّا لكثْرَتها باعتبَارِ الأشخَاصِ -كُلُّ إنسَانٍ لَهُ مِيزَانٌ-، وإمَّا باعتبَارِ الأُمَمِ.

وأمَّا الإفرَادُ فهُو مُفرَدٌ يُرادُ بِهِ العُمُومُ؛ لأنَّهُ للجنْسِ.

ثُمَّ مَا الَّذِي يُوزَنُ، هَل يُوزَنُ العَمَلُ، أَوِ العَامِلُ، أَو تُوزَنُ الصَّحائِفُ؟

الجَوابُ: كُلُّ هَذَا وَرَدَ، فورَدَ مَا يدلُّ عَلَى أنَّ الَّذِي يُوزَنُ العَامِلُ، وذَلِكَ فِيمَا صَحَّ فِي قِصَّة ابْنِ مَسعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّه خَرَجَ يَمْشِي ذَاتَ يَوْمٍ، وكَانَتِ الرِّيحُ شَدِيدَةً، فجَعَلَتْ تكْفَأُ ثِيَابَهُ، وكَانَتْ سَاقَاهُ دَقِيقَتَيْن، فأَخْبَرَ النَّبيَّ ﷺ: «أَنَّهُما فِي المِيزَانِ مِثْلُ جَبَلِ أُحُدٍ»[1]. وهَذَا يدلُّ عَلَى أنَّ الَّذِي يُوزَنُ العَامِلُ، ورُبَّما يُستَدَلُّ لَهُ بقَولِهِ تعَالَى: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف:١٠٥]. عَلَى أنَّ فِي الآيَةِ مَعْنًى آخَرَ، وهُوَ أنْ لَا نُقِيمَ لهُمْ وَزْنًا، يَعْنِي لَيسُوا عنْدَنا بشَيْءٍ، ولَا نَعتَبِرُهم شَيْئًا.

وأمَّا أنَّ الَّذِي يُوزَنُ العَمَلُ، ففِيهَا هَذِهِ الآيَاتُ الَّتِي سَاقَهَا المُؤلِّفُ، قَالَ تعَالَى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [الزلزلة:٧-٨]. إذَنِ الَّذِي يُوزَنُ هُو العَمَلُ، وقَالَ الرَّسُولُ ﷺ فِي: «سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ سُبْحَانَ اللهِ العَظِيمِ»[2] إنَّهُما: «ثَقِيلَتَانِ فِي المِيزَانِ».

فإِذَا كَانَ الَّذِي يُوزَنُ العَمَلُ، فَفِي ذَلِكَ إشْكَالٌ، وهُوَ أنَّ العَمَلَ مَعنًى مِنَ المَعانِي، ولَيْس جِسْمًا يُوزَنُ فكَيْف يَكُون ذَلِكَ؟

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (١/ ١١٤) من حديث علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، (١/ ٤٢٠) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الدعوات، باب فضل التسبيح، رقم (٦٤٠٦)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء، رقم (٢٦٩٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الجَوابُ: عَن ذَلِك أنْ يُقالَ: إنَّ اللهَ تَعَالَى يجْعَلُ هَذِهِ المَعَانِيَ أجْسَامًا، كَمَا أَنَّه تَعَالَى يجْعَلُ المَوْتَ -وهُوَ مَعْنًى- في صُورَةِ كَبْشٍ وهُوَ جِسْمٌ، واللهُ عَلَى كُلِّ شَيْء قَدِيرٌ، فهُو قَادِرٌ عَلَى أنْ يجْعَلَ هَذِهِ المَعَانِي أجْسَامًا مَشهُودَةً مَرئيَّةً.

أمَّا أنَّ الَّذِي يُوزَنُ هُو صحَائِفُ الأعْمَالِ، فذَلِكَ كَمَا فِي حَدِيثِ صَاحِبِ البِطَاقَةِ، الَّذِي تُمَدُّ لَهُ سجلَّاتٌ عظِيمَةٌ كَثِيرَةٌ، فِيهَا ذُنُوبٌ، فَإِذَا رَأَى أَنَّه قَدْ هَلَكَ قِيلَ لَهُ: إنَّ لَكَ عنْدَنا حسَنَة، ويُؤتَى ببطَاقَةٍ فِيهَا «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»، فيَقُولُ: يَا رَبِّ! ومَا هذِهِ البطَاقَةُ بالنِّسْبة لهَذِهِ السِّجلَّات؟ فيُقَالُ: إنَّكَ لَا تُظلَمُ، ثُمَّ تُوضَعُ البِطَاقَةُ فِي كِفَّةٍ، والسِّجلَّاتُ فِي كِفَّةٍ، فتَطِيشُ السِّجلَّاتُ[1]، وتثْقُلُ البطَاقَةُ، فهَذَا يدلُّ عَلَى أنَّ الَّذِي يُوزَنُ الصَّحائِفُ.

فكَيْفَ الجَمْعُ؟ لأَنَّ هذِهِ أخْبَارٌ، وليْسَتْ أحْكامًا، حتَّى نَقُولَ: إنَّه يُمْكِن أن يَنْسَخَ بَعْضُها بَعْضًا.

الجمْعُ أنْ يُقَالَ: أمَّا بالنِّسْبةِ للصَّحائِفِ والأعْمَالِ نَفْسِها فَلَا مُنَافَاةَ، إذْ يُمْكِن أنْ تَكُونَ الأعْمَالُ تُوزَنُ بالصَّحائِفِ، فإِذَا ثَقُلَ العَمَلُ لَزِمَ مِنْ ذَلِكَ ثِقَلُ الصَّحيفَةِ، أمَّا بالنِّسْبةِ للعَامِلِ، وأَنَّه هُوَ الَّذِي يُوزَنُ فرُبَّما نَقُول: إنَّ هَذَا يقَعُ لبَعْضِ النَّاس دُونَ بَعْض، وهَذِه مَسْأَلَةٌ تَرجِعُ إِلَى مَشِيئَةِ اللهِ، لَيْسَ للعَقْلِ فِيهَا تَدخُّلٌ.

قَوْلُهُ: «**فَلَا تُظلَمُ نفْسٌ شَيْئًا**» شَيْئًا نكِرَةٌ فِي سِيَاقِ النَّفْي فتَعُمُّ أيَّ شَيْء.

(١) أخرجه الإمام أحمد (٢/ ٢١٣)، والترمذي: كتاب الإيمان، باب ما جاء فيمن يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله، رقم (٢٦٣٩)، وابن ماجه: كتاب الزهد، باب ما يرجى من رحمة الله يوم القيامة، رقم (٤٣٠٠)، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا.

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾[1] [الزلزلة:٧-٨]. ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝١٠٢ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾[2] ۝١٠٣ ....

---

[١] قَوْلُهُ: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ مِثْقَالُ الذَّرَّةِ يُضْرَبُ مَثَلًا للقِلَّةِ، كَمَا فِي قَوْلِ الرَّسُول ﷺ: «مَنِ اقْتَطَعَ مِنَ الأَرْضِ شِبْرًا»(١).

وكذَلِكَ مَنْ يعمَلُ دُونَ الذَّرَّةِ فإنَّه يَراهُ، فَمَا دَامَ ذَكَرَ الذَّرَّةَ هُنَا لبيَانِ القِلَّةِ، فهُو عَلَى سَبيلِ المِثَالِ، ولَيْسَ عَلَى سَبِيلِ التَّحدِيدِ.

[٢] قَوْلُهُ: «﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝١٠٢ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾» وفِي هذِهِ الآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى أنَّ الميزَانَ حسِّيٌّ، وهُوَ كذَلِكَ، وقَالَتِ المعتزِلَةُ: إنَّه لَيْسَ حسِّيًّا، ولَيْس هُنَاكَ كِفَّتَانِ، وإنَّما المُرادُ بالميزَانِ إقَامَةُ العدْلِ، فأنْكَرُوا مَا جَاءَ بِهِ القُرْآنُ صَرِيحًا ومَا جَاءَت بِهِ السُّنَّةُ صَرِيحَةً أيضًا، بِناءً عَلَى أنَّهُم يتلقَّون العقَائِدَ مِنْ عُقُولِهم، وكُلُّ شَيْءٍ استبْعَدتْهُ عقُولُهم فإنَّهُم يُنكِرونَهُ، ولَا شَكَّ أنَّ هَذَا غَلَطٌ، وأنَّه يَسْتَلزِمُ لوازِمَ باطِلَةً، كتكذِيبِ خَبَرِ اللهِ وخَبَرِ رَسُولِهِ ﷺ وتحرِيفِهِما إِلَى مَعَانٍ بَعِيدَةٍ.

إذَنِ الميزَانُ -عَلَى مَا نَعتَقِدُ- ميزَانٌ حسِّيٌّ، لَهُ كِفَّتانِ تُوزَنُ فِيهِ الأعْمَالُ، أَو صحَائِفُ الأعْمَالِ، أَوِ العُمَّالُ، حَسَبَ مَا جَاءَت بِهِ النُّصُوصُ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المظالم، باب إثم من ظلم شيئًا من الأرض، رقم (٢٤٥٢)، ومسلم: كتاب المساقاة، باب تحريم الظلم وغصب الأرض وغيرها، رقم (١٦١٠)، من حديث سعيد ابن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾[١] [المؤمنون:١٠٢-١٠٤] ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[٢] [الأنعام:١٦٠].

وَنُؤْمِنُ بِالشَّفَاعَةِ العُظْمَى لِرَسُولِ اللهِ ﷺ خَاصَّةً[٣]،..................

---

[١] قَوْلُهُ: «﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾» هَؤُلاءِ الكُفَّارُ تلْفَحُ وُجوهَهُم النَّارُ، وذَكَرَ الوُجوهَ لأَنَّها أَشَدُّ مَا يَكُون تَأَثُّرًا؛ ولأَنَّها إِذَا عُذِّبَتِ الوُجُوهُ كَانَ ذَلِكَ أَذَلَّ بالنِّسْبَةِ للإِنْسَانِ.

[٢] قَوْلُهُ: «﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾» هَذَا بَيَانُ كَيْفَ تَكُونُ المَوَازِينُ، فـ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا﴾ وهَذا أَدْنَى مَا يُثَابُ علَيْه المَرْءُ بالنِّسْبَةِ إِلَى الحَسَنَةِ، وإِلَّا فَإِنَّ الحسَنَةَ بعَشْرِ أمثالِها، إِلَى سَبْعِ مِئَةِ ضِعْفٍ، إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ، لَكِنَّ أَدْنَى مَا يَكُونُ أَنَّ لَهُ عشرَ أمثالِها.

وعُلِمَ مِنْ قَوْلِهِ تعالَى: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ﴾ ﴿وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ﴾: أَنَّه لَوْ كَانَ هُناكَ مَا يُبطِلُ الحسَناتِ فإِنَّهَا لَا تَنفَعُه، مِثْلَ أَنْ يرتَدَّ الإِنْسانُ -والعِيَاذُ باللهِ- فإِنَّه لَا تَنْفَعُهُ الحسَنَاتُ ولَوْ فعلَها فِي الدُّنيَا؛ لأَنَّ اللهَ تَعالَى قَالَ: ﴿مَن جَاءَ﴾ فَلا بُدَّ أَنْ تَكُونَ الحسَنَاتُ وَاصِلَةً إِلَى الإِنْسَانِ يَوْم القِيامَةِ، وكَذَلِكَ السَّيِّئَاتُ؛ لأَنَّ الإِنْسانَ قَدْ يعْمَلُ السَّيِّئَةَ ثُمَّ يَتُوبُ منْهَا، فَلَا يَكُونُ قَدْ أَتَى بِهَا.

[٣] قَوْلُهُ: «**ونُؤمِنُ بالشَّفاعَةِ العُظْمَى لرَسُولِ اللهِ ﷺ خَاصَّةً**».

وقَوْلُهُ: «**نُؤمِنُ**»، ومِثْلُها: «**نَقُول**» يَعْنِي: مَعْشَر أَهْل السُّنَّةِ والجَماعَةِ؛ لأَنَّ هذِهِ عقِيدَةٌ مَبنِيَّةٌ عَلَى ذَلِكَ.

والشَّفاعَةُ هِيَ: «التَّوسُّطُ للغَيْرِ بِجَلْبِ منْفَعَةٍ أَو دَفْعِ مَضرَّةٍ» فمَثلًا: الشَّفاعَةُ لأَهْلِ الجَنَّةِ أَنْ يَدخُلوا الجَنَّةَ هذِهِ جَلْبُ منفعَةٍ، والشَّفاعَةُ فيمَنْ دَخَلَ النَّارَ أَنْ يَخْرُجَ مِنْها هذِهِ دَفْعُ مضَرَّةٍ.

فنُؤمِنُ بالشَّفاعَةِ العُظْمَى للرَّسُول صلَّى اللهُ عليْه وعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، و«**الشَّفاعَةُ العُظْمَى**» اسْمُ تفضِيلٍ مِنَ العَظَمَةِ؛ لأَنَّها أَعْظَمُ الشَّفاعَاتِ، وهَذِه الشَّفاعَةُ اتَّفقَ عَلَى الإِيمَان بِهَا أَهْلُ السُّنَّةِ والجَماعَةِ، والخَوارِجُ، والمعتَزِلَةُ.

والشَّفاعَةُ العُظْمَى للنَّبيِّ ﷺ خاصَّةً لَا يُشارِكُهُ فِيهَا أَحَدٌ، لَا نَبيٌّ مُرسَلٌ، ولَا مَلَكٌ مُقرَّبٌ، ولَا أحَدَ، فهِيَ للرَّسولِ وَحْدَهُ، وهِيَ مِنَ المقَامِ المحْمُودِ الَّذِي قَالَ اللهُ تَعالَى فِيهِ: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا﴾ [الإسراء:٧٩]. فهُوَ مَقامٌ يحمَدُهُ عَلَيْه الأَوَّلُونَ والآخِرُونَ، ويعتَرِفُونَ بالفَضْلِ للرَّسُولِ صَلَواتُ اللهِ وسَلَامُهُ عَلَيْه.

وأَمَّا مَا قِيلَ مِنْ أنَّ المَقامَ المَحْمُودَ هُوَ جُلُوسُ النَّبيِّ ﷺ عَلَى العَرْشِ مَعَ اللهِ تَعالَى، فهَذَا القَوْلُ غيْرُ صَحِيحٍ؛ لأَنَّ الجُلُوسَ عَلَى العَرْشِ خَاصٌّ باللهِ تَعَالَى، لَا يثْبُتُ لغَيرِهِ.

فإنْ قَالَ قَائِلٌ: كَيْف نجْمَعُ بيْنَ حَدِيثِ الشَّفاعَةِ العُظْمَى حينَما يسْجُدُ النَّبيُّ ﷺ تَحْتَ العَرْشِ، ثُمَّ يَأذَنُ لَهُ، فيَقُولُ: رَبِّي أُمَّتِي أُمَّتِي، وبَيْنَ مَا وَرَدَ مِنْ أنَّ هذِهِ الشَّفاعَةَ تكُونُ لجَمِيعِ الخَلْقِ؟

فالجَوَابُ: أنَّ هَذَا إمَّا أنْ يَكُونَ مِنْ بَابِ التَّخصِيصِ؛ لفَضْلِ الأُمَّةِ، وإلَّا فهِيَ عَامَّةٌ، كَما جاءَتْ فِي الأَحَادِيثِ الأُخْرَى.

يَشْفَعُ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى بِإِذْنِهِ لِيَقْضِيَ بَيْنَ عِبَادِهِ، حِينَ يُصِيبُهُمْ مِنَ الهَمِّ وَالكَرْبِ مَا لَا يُطِيقُونَ[١]، فَيَذْهَبُونَ إِلَى آدَمَ ثُمَّ نُوحٍ ثُمَّ إِبْرَاهِيمَ ثُمَّ مُوسَى ثُمَّ عِيسَى حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ[٢].

---

[١] قَوْلُهُ: «**يَشْفَعُ عِنْد اللهِ تَعالَى بِإِذْنِهِ لِيَقْضِيَ بَيْنَ عِبادِهِ، حِينَ يُصيبُهُم مِنَ الـهَمِّ والكَرْبِ مَا لَا يُطيقُونَ**» يَوْمُ القِيامَة يَوْمٌ مِقْدارُهُ خَمْسُونَ أَلْفَ سَنَةٍ، لَا بِناءَ، ولَا شَجَرَ، ولَا ثَوْبَ، ولَا شَيْءَ، مَعَ الزِّحامِ الشَّدِيدِ العَظِيمِ: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾؛ وفِي هَذَا اليَومِ العَظِيمِ يَلحَقُ النَّاسَ فِيهِ مِنَ الهَمِّ والكَرْبِ مَا لَا يُطيقُونَ، ويَطلُبونَ شَفِيعًا إِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ يُنجِّيهِمْ مِنْ هَذَا المَوْقِفِ.

[٢] قَوْلُهُ: «**فيَذْهَبُونَ إِلَى آدَمَ، ثُمَّ نُوحٍ، ثُمَّ إِبْراهِيمَ، ثُمَّ مُوسَى، ثُمَّ عِيسَى، حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ**» يُلْهَمُون أَنْ يذْهَبُوا إِلَى آدَمَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فيَذهَبُونَ إِلَيْه ويذْكُرونَ مِنْ مَناقِبِهِ وفَضائِلِه؛ لِيَشْفَعَ لَهُمْ عِنْد اللهِ، فيَعتَذِرُ بأَنَّه عَصَى رَبَّهُ بأَكْلِهِ مِنَ الشَّجَرَةِ، مَعَ أَنَّه تَابَ مِنْهُ، لَكِن لـمَّا كَانَ مَقامُ الشَّفاعَةِ مَقامًا عَظِيمًا -فَلَا بُدَّ أن يَكُون الشَّافِعُ لَيْسَ بينَهُ وبَيْنَ المَشْفُوعِ إِلَيْه مَا يَثْلِبُ مقَامَهُ- اعْتَذَرَ بأَكْلِهِ مِنَ الشَّجرَةِ، مَعَ أَنَّه تَابَ وحَسُنتْ حَالُه مِنْ بعْدِ ذَلِك، لَكِنَّ الإِنْسَانَ الَّذِي قَد عَصَى مَنْ يُرِيدُ الشَّفاعَةَ إِلَيْه سَوْفَ يَكُون فِي وَجْهِهِ حَيَاءٌ وخَجَلٌ. واعتذارُهُ بأَكْلِهِ مِنَ الشَّجرَةِ يدلُّ عَلَى أنَّ مَا وَرَدَ مِنْ أَنَّ المُرادَ بقَوْلِهِ تَعالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الأعراف:١٨٩-١٩٠]؛ «أَنَّ حَوَّاءَ لـمَّا حَمَلَتْ أَتَاهـا الشَّيطَانُ، وقَالَ لَـهَا ولآدَمَ: أَنَا صَاحِبُكُما الَّذِي أخْرجتُكُما مِنَ الجَنَّةِ،

سَمِّيَاهُ عبْدَ الحَارِثِ -أَيِ الوَلَدَ- وإِلَّا فسَيخرُجُ مَيِّتًا»، وفِي النَّهايَةِ سمَّيَاهُ عبْدَ الحَارِثِ[١]، هذِهِ القِصَّةُ لَا شَكَّ أنَّها مكذُوبَةٌ، فكَيْف يَأتِي إلَيْهِما ليقْبَلَا كَلَامَهُ، وهُوَ يقُولُ: أَنَا صَاحِبُكُما الَّذِي أخرجْتُكُما مِنَ الجَنَّةِ، فهَلْ هَذَا كَلَامٌ مُتوسِّلٍ ومُتضرِّعٍ لقَبُولِ قَوْلِهِ؟! أَو إنَّ هَذَا ممَّا يُوجِبُ النُّفُور من قَوْلِهِ؟! الثَّاني: بِلَا شَكٍّ.

وأيضًا: لَو أنَّ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَعَلَ ذَلِكَ -وحَاشَاهُ مِنْهُ- لَكَانَ شِرْكًا، والشِّرْكُ أعظَمُ مِنَ الكَبَائِرِ، فَضْلًا عَنِ الصَّغَائِرِ، ولَوْ كَانَ كذَلِكَ لاحَتَجَّ بِهِ آدَمُ أكْثَرَ ممَّا يحْتَجُّ بأَكْلِهِ مِنَ الشَّجرَةِ.

والمُهِمُّ: أنَّ هذِهِ القِصَّةَ مكذُوبَةٌ، وقَدْ ذَكَرْنَاهَا فِي شَرحِنَا لـ(كِتَابِ التَّوحِيدِ)، وذَكَرْنَا سَبْعَةَ أَوْجُهٍ، تَدُلُّ عَلَى بُطلَانِها[٢].

ثُمَّ بعْدَ ذَلِكَ يُلهِمُهُمُ اللهُ أنْ يَذْهَبُوا إِلَى نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ويسَأَلُونَهُ أنْ يشْفَعَ لَهُمْ عِنْدَ اللهِ، فيَعْتَذِرُ مِنْهم بأنَّه سأَلَ مَا لَيْس لَهُ بِهِ عِلْمٌ، حَيْثُ قَالَ تعَالَى: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ [هود:٤٥]. فقَالَ اللهُ تعَالَى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ وفِي رِوايَةٍ: أنَّهُ اعْتَذَرَ أنَّه دَعَا عَلَى قَوْمِهِ بقَوْلِهِ: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح:٢٦].

ثُمَّ يُلهِمُونَ أنْ يذْهبُوا إِلَى إبرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ويذْكُرُون مِنْ مَنَاقِبِهِ وفضَائِلِهِ؛ ليَشْفَعَ لَهُمْ عِنْدَ اللهِ، فيَعتَذِرُ بأنَّه كَذَبَ ثَلَاثَ كَذَبَاتٍ، وهُوَ لَمْ يَكْذِبْ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ،

(١) أخرجه الإمام أحمد (٥/ ١١)، والترمذي: كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة الأعراف، رقم (٣٠٧٧)، من حديث سمرة بن جندب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) انظر: القول المفيد على كتاب التوحيد (٢/ ٢٩٩).

ولكِنَّهُ تَأويلٌ وتوريَةٌ، والتَّوريَةُ حقِيقَتُها صِدْقٌ، وظَاهِرُها كَذِبٌ، لَكِن لكَمَالِ إبرَاهِيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -الَّذِي وَصَفَهُ رَبُّهُ بأَنَّه وَفَّى- رَأى أنَّ هَذَا يُوجِبُ الخَجَلَ أنْ يشْفَعَ عِنْد اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ثُمَّ يُلهمُونَ أنْ يَأتُوا إلَى مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فيعتَذِرُ بأَنَّه قتَلَ نفْسًا لَمْ يُؤمَرْ بقَتْلِهَا، وهِيَ نَفْسُ القِبطِيِّ الَّذِي قتَلَهُ حِينَ استَغَاثَهُ الإسرَائيليُّ عَلَيْه، وكَانَ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَويًّا، فوَكَزَهُ وكْزَةً وَاحِدَةً فقَضَى عَلَيْه.

ثُمَّ يُلهَمُون أنْ يذْهبُوا إلَى عِيسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ولَكِنَّ عِيسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَا يَعتَذِرُ بشَيْءٍ، لَكِنْ يَدُلُّ عَلَى مَنْ هُوَ أفْضَلُ مِنْهُ، وهُوَ مُحَمَّد ﷺ، ويقُولُ: اذْهَبُوا إلَى مُحَمَّد ﷺ، وكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يقُولُ: نَفْسِي! نَفْسِي!.

فيَأْتُونَ إلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، وهَذَا الأَمْر الَّذِي وَقَعَ بإلْهَامِ اللهِ لهَؤُلاءِ النَّاس؛ ليتَبيَّنَ بِهِ فَضْلُ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَلَى غَيْرِه؛ لأَنَّ أرْبعَةً مِنهُمْ يَعتَذِرُون بشَيْءٍ مِمَّا يُوجِبُ الخَجَلَ وهُمْ آدَمُ، ونُوحٌ، وإبرَاهِيمُ، ومُوسَى، علَيْهِم الصَّلاة والسَّلام، والخَامِسُ لَا يذْكُرُ خطيئَةً، ولكنَّهُ يعتَرِفُ أنَّ فِي السَّاحَةِ مَنْ هُو أفضَلُ مِنْهُ، وهُوَ مُحَمَّد ﷺ، الذِي غَفَرَ اللهُ لَهُ مَا تقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ ومَا تَأخَّرَ، فيَشفَعُ إلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ أن يُخَلِّصَ النَّاسَ مِمَّا هُمْ فِيهِ، ويَقْضِي بينَهُمْ، فيُجِيبُهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ، ويَقْضِي بَيْنَ العِبَادِ.

هَذِهِ الشَّفاعَةُ تُسمَّى عِنْد العُلَماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ الشَّفاعَةَ العُظْمَى، وهِيَ لكُلِّ النَّاس، مُؤمِنِهِمْ وكَافِرِهِمْ، بَرِّهِم وفَاجِرِهم، ولَمْ يَختَلِفْ فِيهَا أحَدٌ مِنْ أهْلِ القِبْلَةِ، بَل كُلُّ أَهْلِ القِبْلَةِ -المُبتدِعَةِ وأَهْلُ السُّنَّةِ- يُؤمِنُونَ بِهَا.

وَنُؤْمِنُ بِالشَّفَاعَةِ فِيمَنْ دَخَلَ النَّارَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا، وَهِيَ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَغَيْرِهِ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالمَلَائِكَةِ[١]، ....

---

[١] قَوْلُهُ: «وَنُؤمِنُ بالشَّفَاعَةِ فيمَنْ دَخَلَ النَّارَ مِنَ المؤمنِينَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا، وهِيَ للنَّبيِّ ﷺ وغَيرِهِ مِنَ النَّبيِّينَ، والمُؤمنِينَ، والمَلائِكَةِ» هذِهِ الشَّفاعَةُ لثَلاثَةِ أَصْنَافٍ: وهُمُ الأنبياءُ، والمُؤمِنُون، ويَشْمَلُ الصِّدِّيقِينَ، والشُّهداءَ، والصَّالحِينَ، والثَّالِثُ المَلائِكة، إذَنْ هِيَ عَامَّةٌ فيمَنْ يشْفَعُ، وفيمَنْ دَخَلَ النَّار أنْ يَخرُجَ مِنْهَا، وقَدْ تَواتَرَتِ الأحَادِيثُ فِي ذَلِك عَنْ رَسُولِ اللهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، كَمَا أَنْشَدَ ذَلِك بَعْضُ الفضَلَاءِ فقَالَ(١):

مِمَّا تَوَاتَرَ حَدِيثُ مَنْ كَذَبْ ... وَمَنْ بَنَى للهِ بَيْتًا وَاحْتَسَبْ
ورُؤْيَةٌ شَفَاعَةٌ وَالْحَوْضُ ... وَمَسْحُ خُفَّيْنِ وَهَذِي بَعْضُ

ولكِنْ أَنْكَرَ هذِهِ الشَّفاعَةَ طَائفتَانِ مُبتدعَتَانِ، وهُمَا: الخَوَارِجُ، والمعتزِلَةُ، مَعَ أَنَّهُمَا مِنْ أَهْلِ القِبْلَةِ، ويَنتَسِبونَ إِلَى الإِسْلامِ، وذَلِكَ بِنَاءً عَلَى أَصْلِهِمُ الفَاسِدِ، وهُوَ أن فَاعِلَ الكَبِيرَةِ مُخلَّدٌ فِي النَّارِ، وإِذَا كَانَ مُخَلَّدًا فِي النَّارِ فَلَا تنْفَعُ فِيهِ الشَّفاعَةُ، ولهَذَا لَوْ دَعَا الإِنْسانُ أَنْ يُخرَجَ مِنَ النَّارِ مَنْ هُو مُخَلَّدٌ فِيهَا كَانَ مُعْتديًا فِي الدُّعاءِ، فعَلَيْهِ أَنْ يتُوبَ، فلَوْ قَالَ مَثَلًا: اللَّهُمَّ أَخرِجْ أَبَا لَهَبٍ مِنَ النَّارِ، اللَّهُمَّ أَخْرِجْ أَبَا طَالِبٍ مِنَ النَّارِ، قُلْنا لَهُ: أَنْتَ الآنَ آثِمٌ، وعَلَيْكَ أَنْ تَتُوبَ وتَستغْفِرَ اللهَ؛ لأَنَّ اللهَ تَعالَى حَكَمَ عَلَيهِمْ بالخُلُودِ.

---

(١) ذكرهما الكتاني في نظم المتناثر (ص:١٨)، نقلًا عن الشيخ أبي عبد الله محمد التاودي في حواشيه على الجامع الصحيح.

وَبِأَنَّ اللهَ تَعَالَى يُخْرِجُ مِنَ النَّارِ أَقْوَامًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بِغَيْرِ شَفَاعَةٍ، بَلْ بِفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ[١].

وَنُؤْمِنُ بِحَوْضِ رَسُولِ اللهِ ﷺ[٢]، ....

[١] قَوْلُهُ: «وبِأَنَّ اللهَ يُخْرِجُ مِنَ النَّارِ أَقْوَامًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بغَيْرِ شَفَاعَةٍ، بَلْ بفَضْلِهِ ورَحْمَتِهِ» إِذَن: نُؤْمِن بالشَّفاعَةِ العُظْمَى للرَّسُولِ ﷺ، وهِيَ خَاصَّةٌ بِهِ، وبالشَّفاعَةِ الصُّغرَى، وهِيَ لَهُ ولغَيرِهِ، وهِيَ الشَّفاعَةُ فيمَنْ دَخَلَ النَّارَ أَنْ يَخْرُجَ مِنْهَا.

مَسْأَلَةٌ: الشَّفاعَةُ الَّتِي لأَبِي طَالِبٍ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَمْ تُقْبَلْ ولَمْ تُرَدَّ، والَّذي قُبِلَ: التَّخفِيفُ فِيهَا فَقَطْ؛ ولهَذَا كَانَ فِي ضَحْضَاحٍ مِنَ النَّارِ وعَلَيْهِ نَعْلَانِ فِي نَارٍ يَغْلِي مِنْهُما دِمَاغُهُ -والعِيَاذُ باللهِ-، ويَرَى أَنَّه أَشَدُّ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا وهُوَ أَهونُهُم عَذابًا لَكِن يَرَى أَنَّه أَشَدُّ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَقْوَى حُزْنُهُ -والعِياذُ باللهِ- فَهَذِهِ شَفَاعَةٌ مقبُولَةٌ مِنْ وَجْهٍ وغَيْرُ مَقبُولَةٍ مِنْ وَجْهٍ.

لَكِنْ يقَالُ: كَيْف نُجِيبُ عَنْ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر:٤٨]؟

قُلْنا: هَذا مَا نفَعَهُم النَّفعَ التَّامَّ، بل نَفَعت أبَا طالِبٍ بتخفِيفِ العَذابِ عنه، ثُمَّ هَذَا الرَّجُل ليسَتْ شَفَاعَتُهُ لقُربِهِ مِنَ الرَّسُول ﷺ، لَكِنْ لأَنَّه دَافَعَ عَنِ الإِسْلامِ وانْتَفَعَ الإِسْلامُ بِهِ، ومَنْ قَرَأَ السِّيرَةَ حِينَ بَعثَةِ الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَعْرِف مَا حصَلَ مِنْ أَبِي طَالِبٍ فِي الْمُجاهَدَةِ العَظِيمَةِ والدِّفاعِ عَنِ الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، واللهُ تَعالَى حَكَمٌ عَدْلٌ لَا يُضيعُ مَنْ دَافَعَ عَنْ دِينِهِ، فيَسَّرَ لَهُ مُحَمَّدًا ﷺ ليشْفَعَ لَهُ.

[٢] الحَوضُ المَورُودُ للرَّسولِ ﷺ، وهُوَ موجُودٌ الآنَ؛ لأَنَّ النَّبي ﷺ خَطَبَ النَّاس، وأَخْبَرَ أَنَّه يَرَى حَوضَهُ، وأَنَّ مِنبرَهُ عَلَى حَوضِهِ(١)، فهُو موجُودٌ، لكنَّه مِنْ عالَمِ

(١) أخرجه البخاري: كتاب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة، باب فضل ما بين القبر والمنبر،

مَاؤُهُ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ، وَأَحْلَى مِنَ العَسَلِ، وَأَطْيَبُ مِنْ رَائِحَةِ المِسْكِ[١]، طُولُهُ شَهْرٌ وَعَرْضُهُ شَهْرٌ[٢]، ....

الغَيْبِ، وعَالَـمُ الغَيْبِ لَا يُمْكِن أن يَكُونَ شَهَادَةً، كَمَا أَنَّ المَلَائِكَةَ مَوجُودُونَ ومَعَ ذَلِكَ لَا نُشاهِدُهم، فالحَوْضُ مَوجُودٌ، لَكِن يَكُونُ مَنظُورًا ومحْسُوسًا ومَلمُوسًا إِذَا كَانَ يومُ القِيامَة، فهُو حَوْضٌ حسِّيٌّ لَمائِهِ طَعْمٌ ورَائحَةٌ ولَهُ آنِيَةٌ.

[١] قوله: «**مَاؤُهُ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ**» وفِيمَا نَرى أَنَّه لَيْسَ هُناكَ شَيْء أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبنِ، لَكِن فِي يَوْمِ القِيامَة ماءُ حَوضِ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَشَدُّ بيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ، وهَذَا يَدُلُّ عَلَى طِيبِ مَنْظَرِهِ.

«**وَأَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ**» يدلُّ عَلَى طِيبِ مَذَاقِهِ وطَعْمِهِ، «**وَأَطْيَبُ مِنْ رَائِحَةِ المِسْكِ**» يدُلُّ عَلَى طِيبِ رَائِحتِهِ.

[٢] أَمَّا سِعَتُهُ فقَالَ: «**طُولُهُ شَهْرٌ وَعَرْضُهُ شَهْرٌ**» وهَذَا يدُلُّ عَلَى أَنَّهُ كَانَ مُستدِيرًا، لأَنَّه لَوْ كَانَ غَيْرَ مُستدِير لزَادتْ زَوايَاهُ عَلَى شَهْرٍ، إِذْ إِنَّ المُربَّعَ لا بُدَّ أَنْ يَكُونَ بَيْنَ الزَّاوِيَةِ ومُقابلَتها أَكْثَرُ مِنْ مُسطَّحِهِ، وعَلَى هَذَا فيَكُونُ الحَوْضُ مُستدِيرًا، وهَذَا هُوَ الغَالِبُ فِي الأَحْوَاضِ؛ فحِيَاضُ الإِبِلِ حينَما تُورَد عَلَيْها تكُونُ مُستدِيرَةً.

وقَوْلُهُ: «**طُولُهُ شَهْرٌ، وَعَرْضُهُ شَهْرٌ**» إِذَا قَالَ الرَّسُولُ ﷺ: طُولُهُ شَهْرٌ وعرْضُهُ شَهْرٌ، ومَا أَشْبه ذَلِك، فالمُرَادُ بِهِ سَيْرِ الإِبِلِ المُحمَّلَةِ؛ لأَنَّه فِي عَهْدِ الرَّسُول ﷺ لَا تُوجَدُ سَاعَاتٌ، ولَا سَيَّارَاتٌ، ولَا طَائِرَاتٌ، فيُحملُ مَا جاءَ بِهِ التَّقدِيرُ عَلَى مَا كَانَ مَعرُوفًا مأْلُوفًا.

= رقم (١١٩٦)، ومسلم: كتاب الحج، باب ما بين القبر والمنبر روضة من رياض الجنة، رقم (١٣٩١)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَآنِيَتُهُ كَنُجُومِ السَّمَاءِ حُسْنًا وَكَثْرَةً، يَرِدُهُ الْمُؤْمِنُونَ مِنْ أُمَّتِهِ[١]،..................

[١] قَوْلُهُ: «آنِيتُهُ كَنُجُومِ السَّماءِ» حُسْنًا وكَثْرَةً، والأَحَادِيثُ الوَارِدَةُ فِي ذَلِكَ مِنْها مَا لفظُهُ: «آنِيتُهُ كَنُجُومِ السَّماءِ»(١)، ومنْهَا مَا لَفظُهُ: «آنِيتُهُ عَدَدُ نُجُومِ السَّماءِ»(٢)، ولكنَّنا نَأخُذُ باللَّفْظِ الأَوَّلِ: «كنُجُومِ السَّماءِ» ليشمَلَ ذَلِك العددَ والحُسْنَ، فآنِيتُهُ مُضيئَةٌ، لامعَةٌ، كَثِيرَةٌ لَا تُحصَى، كَمَا أَنَّ نُجُومَ السَّماءِ لَا تُحصَى، لكنَّهَا ليسَتْ كنُجُومِ السَّماءِ فِي الحَجْمِ، لَكِن فِي مَنْظَرِ النَّاس: نُجُومُ السَّماءِ حسَنَةٌ، مُضيئَةٌ، كَثِيرَةٌ.

ويَستمِدُّ هَذا الحَوْضُ مِنَ الكَوْثَرِ، وهُوَ النَّهرُ العَظِيمُ الكَثِيرُ، الَّذِي أُعْطِيَهِ النَّبيُّ ﷺ فِي الجَنَّةِ، يَنطَلِقُ مِنْهُ ميزَابَانِ، يَصُبَّانِ فِي هَذَا الحَوْضِ، فأَهْلُ الجَنَّةِ -اللَّهُمَّ اجعَلْنا وإِيَّاكُمْ مِنْهم- يذُوقُونَهَا قَبْلَ دُخُولِها بوَاسِطَةِ هَذَا الحَوْضِ؛ لأَنَّ هَذَا الحَوْضَ يَصبُّ فِيه ميزَابَا الكَوْثَرِ، الَّذِي فِي الجَنَّةِ، ويَرِدُهُ الْمُؤْمِنُونَ مِنْ أُمَّتِهِ خَاصَّةً.

وهَلْ لبَقيَّةِ الأنبيَاءِ أَحْوَاضٌ؟

الجَوابُ: وَرَدَ فِي التِّرمذيِّ أَنَّ لكِلِّ نَبيٍّ حَوْضًا(٣).

لَكِنْ مِنَ المعْلُومِ أَنَّ الحَوْضَ الكَبِيرَ الوَاسِعَ الأعظَمَ هُو حَوْضُ النَّبيِّ ﷺ؛ لأَنَّ أُمَّتَه أكثَرُ الأُمَمِ، فهُمْ ثُلُثَا أَهْلِ الجَنَّةِ -أَيْ ثَمانُونَ فِي المِئَةِ والعِشْرِينَ-، فهُمْ أَكثَرُ النَّاس، فحَوضُهُم أعظَمُ الحِيَاضِ، وأكبرُهَا وأوسَعُها، يَرِدُهُ الْمُؤْمِنُون مِنْ أُمَّته،

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب في الحوض، رقم (٦٥٧٩)، ومسلم: كتاب الفضائل، باب إثبات حوض نبينا ﷺ، رقم (٢٢٩٢)، من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب في الحوض، رقم (٦٥٨٠)، ومسلم: كتاب الفضائل، باب إثبات حوض نبينا ﷺ، رقم (٢٣٠٣)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه الترمذي: كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، باب ما جاء في صفة الحوض، رقم (٢٤٤٣)، من حديث سمرة بن جندب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

مَنْ شَرِبَ مِنه لَـمْ يَظْمَأْ بَعْدَ ذَلِكَ[١].

وَنُؤْمِنُ بِالصِّرَاطِ الْمَنْصُوبِ عَلَى جَهَنَّمَ[٢]، ....

وسُهولَةُ ورُودِهِم علَيْه كسُهولَةِ وُرُودِهم عَلَى شَرْعِهِ، جَزاءً وِفاقًا، فمَنْ كَانَ ورُودُهُ عَلَى سُنَّة رَسُولِ اللهِ ﷺ وشَرْعِهِ سَهْلًا ويَنقَادُ للشَّرعِ ويُطبِّقُه مَا استطَاعَ فسَيكُونُ وُرودُهُ لهَذَا الحَوْضِ سَهْلًا مُيسَّرًا، والعَكْسُ بالعَكْسِ.

[١] قَوْلُهُ: «مَنْ شَرِبَ مِنْهُ لَمْ يَظْمَأْ بَعْدَ ذَلِكَ» أبَدًا، مَعَ أنَّ النَّاس يَرِدُون علَيْه وهُمْ عِطَاشٌ، فِي أشدِّ مَا يَكُونُ مِنَ الضَّرورَةِ إلَيْهِ، فإذَا شَرِبُوا منْهُ فَلَا ظمَأَ، لَا فِي عَرَصَاتِ القِيامَة ولَا فِي الجَنَّةِ.

مَسْأَلَةٌ: جَاءَ فِي حدِيثِ الشَّفاعَةِ عمَّنْ يُرَدُّون عَنِ الحَوْضِ فيقُولُ: إنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحدَثُوا بعْدَكَ(١)؛ فالمُرادُ بذَلِكَ أَهْلُ الرِّدَّةِ الَّذِين كَانُوا مُسلِمِينَ فِي عَهْدِ الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ثُمَّ ارْتَدُّوا، أمَّا الرَّافضَةُ فيَقُولُونَ: المُرادُ أبُو بَكْرٍ وعُمرُ لأنَّهما أحدَثا بعْدَهُ، حَيْثُ اغْتَصبا الخِلافَةَ مِنْ عَليِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، فيُقالُ: قَاتَلَكُمُ اللهُ! مَا الَّذِي أحدَثَا بعْدَهُ؟! فما أحدَثا فِي أُمَّتِهِ إلَّا الخَيْرَ.

[٢] قَوْلُهُ: «نُؤمِنُ بالصِّرَاطِ المَنْصُوبِ عَلَى جَهنَّمَ» يَعْني يُنصَبُ صِراطٌ عَلَى مَتْنِ جَهنَّم، أَي فَوْقَ ظَهْرِهَا، يَمُرُّ علَيْه النَّاسُ، عَلَى قَدْرِ أعمالِهِمْ.

وهَذَا الصِّراطُ اختَلَفَ العُلَماءُ فِيه: هَل هُو صِراطٌ عَلَى ظَاهِرِهِ، أَي أنَّه طَرِيقٌ حسِّيٌّ، وَاضِحٌ يَمـرُّ النَّاس بِهِ، بدَليلِ أنَّ عَلَى حَافَّتَيهِ كَلَالِيبَ، وأنَّه كَشَوْكِ السَّعْدَانِ،

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب كيف الحشر، رقم (٦٥٢٦)، ومسلم: كتاب الفضائل، باب إثبات حوض نبينا ﷺ، رقم (٢٢٩٥)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

يَمُرُّ النَّاسُ عَلَيْهِ عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ[١]، فَيَمُرُّ أَوَّلُهُمْ كَالبَرْقِ[٢] ثُمَّ كَمَرِّ الرِّيحِ[٣] ثُمَّ كَمَرِّ الطَّيْرِ وَأَشَدِّ الرِّجَالِ، وَالنَّبِيُّ ﷺ قَائِمٌ عَلَى الصِّرَاطِ يَقُولُ: يَا رَبِّ! سَلِّمْ سَلِّمْ![٤]

كَمَا قَالَ الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ(١)، وأنَّه دَحْضٌ ومَزلَّةٌ، أَو أنَّه أدقُّ مِنَ الشَّعْرِ، وأحَدُّ مِنَ السَّيفِ، وأنَّ النَّاس يَمرُّون عَلَى هَذَا الطَّريقِ الَّذِي أدقُّ مِنَ الشَّعرِ وأحدُّ مِنَ السَّيف؟

فِي هَذَا خلَافٌ بَيْنَ عُلَماءِ السُّنَّةِ: مِنْهُمْ مَنْ قَالَ بالثَّانِي، ومنْهُمْ مَنْ قَالَ بالأَوَّلِ، ولَيْسَ هُناكَ أدِلَّةٌ واضِحَةٌ تفصِلُ بيْنَ القولَينِ، فمُعتَقَدُنا فِي ذَلِكَ أَنْ نَقُول: اللهُ أعلَمُ، لَكِن نُؤْمِنُ بهَذَا الصِّرَاطِ.

[١] قَوْلُهُ: «يَمُرُّ النَّاسُ عليْه عَلَى قَدْرِ أعمالِهم» فِي الدُّنيَا، فالمُسارعُ فِي الخَيْرَاتِ يَكُون سَرِيعًا فِيه، والبَطيءُ فِي الخيرَاتِ يَكُون بَطِيئًا فِيه.

[٢] قَوْلُهُ: «فيَمُرُّ أَوَّلُهم كالبَرْقِ»، وأسرَعُ مَا يَكُونُ مُضيًّا هُو البَرْقُ فِيمَا نُشاهِدُ.

[٣] قَوْلُهُ: «ثُمَّ كمَرِّ الرِّيحِ» أَي مُرورِهَا، ولَا شَكَّ أنَّ الرِّيحَ فِي ذَلِكَ الوَقْتِ أسرَعُ مَا يَكُون تَصوُّرًا، ولَكِن فِي الوَقْتِ الحَاضِرِ وُجِدَ مَا هُو أسرَعُ؛ ثُمَّ قَالَ: «ثُمَّ كَمَرِّ الطَّيْرِ وأَشَدِّ الرِّجَالِ».

[٤] قَوْلُهُ: «وَالنَّبيُّ ﷺ قَائِمٌ عَلَى الصِّرَاطِ، يقُولُ: يَا رَبِّ سَلِّمْ سَلِّمْ» صَلَواتُ اللهِ وسلَامُهُ علَيْه، وهَلِ النَّبيُّ ﷺ فِي أسْفَلِ الصِّرَاطِ، أَو فِي أعْلَاهُ؟ اللهُ أعْلَمُ، والمُهِمُّ

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية، رقم (١٨٣)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

حَتَّى تَعْجزُ أَعْمَالُ العِبَادِ، فَيَأْتِي مَنْ يَزْحَفُ[١]، وَفِي حَافَتَي الصِّرَاطِ كَلَالِيبُ مُعَلَّقَةٌ مَأْمُورَةٌ، تَأْخُذُ مَنْ أُمِرَتْ بِهِ؛ فَمَخْدُوشٌ نَاجٍ وَمُكَرْدَسٌ فِي النَّارِ[٢].

أَنَّه قَائِمٌ عليْه يَدعُو اللهَ، يقُولُ: «يَا رَبِّ سَلِّم، يَا رَبِّ سَلِّم»(١)، ممَّا يدلُّ عَلَى عظَمَةِ الأَمْرِ؛ لأَنَّ الصِّراطَ دَحْضٌ مزلَّةٌ، وخَطرٌ عَظِيمٌ؛ لأَنَّ الَّذِي تحْتَهُ هُو النَّارُ -نسْأَلُ اللهَ أن يُجِيرَنا وإيَّاكُمْ مِنْها- فلَيْسَ الأَمْرُ بالـهَيِّنِ، ولـهَذَا خَاتَمُ الرُّسلِ، وإمَامُ المُتَّقِينَ، وإمَامُ المُوقِنِينَ يقُولُ: «يَا رَبِّ سَلِّمْ سَلِّم».

[١] قَوْلُهُ: «حَتَّى تَعْجزَ أَعْمَالُ العِبَادِ، فيَأْتِي مَنْ يَزْحَفُ» زَحْفًا أَيْ لَا يَستَطِيعُ القِيَامَ عَلَى قَدَمَيْهِ؛ لأَنَّ عملَهُ لَا يحمِلُه عَلَى أن يقُومَ.

[٢] قَوْلُهُ: «وَفِي حَافَتَي الصِّرَاطِ كَلَالِيبُ مُعَلَّقَةٌ مَأْمُورَةٌ، تَأْخُذُ مَنْ أُمِرَتْ بِهِ، فَمَخْدُوشٌ نَاجٍ وَمُكَرْدَسٌ فِي النَّارِ»، الكَلَالِيبُ فَوْقَ الصِّرَاطِ، تُؤمَرُ أَنْ تَأْخُذَ مَنْ يَمُرُّ حِينَ مُرورِهِ، وتُلقِيهِ فِي النَّارِ، ولـهَذَا قَالَ «فَمَخْدُوشٌ نَاجٍ» مِنْ هَذِهِ الكَلَالِيبِ، و«مُكَرْدَسٌ فِي النَّارِ» أعُوذُ باللهِ مِنْ ذَلِك!.

ثُمَّ إنَّ المُكردَسَ فِي النَّارِ إنَّما هُو مِنْ عُصاةِ المُؤمنينَ، لَا يُخلَّد فِيهَا؛ لأَنَّ الكَافِرِينَ لَا يَمُرُّونَ عَلَى هَذَا الصِّراطِ أصْلًا، ولَا يُمتَحنُون بِهِ؛ لأَنَّ مَأوَاهُم النَّار يُؤتَى بِهَا، وتُجرُّ بسَبْعِينَ أَلْفَ زِمَام، كُلُّ زِمَامٍ يَجُرُّهُ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ، وَهَذَا قَبْلَ الصِّرَاطِ، فيَذْهَبُ أَهْلُ النَّارِ إِلى النَّارِ، أمَّا العُصَاةُ وغَيْرُ العُصَاةِ مِنَ المُؤمِنِينَ فيَمُرُّون عَلَى هَذَا الصِّرَاطِ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، رقم (١٩٥)، من حديث أبي هريرة وحذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

فالمُكردَسُ فِي النَّارِ لَا يُخَلَّدُ فِيها، ثُمَّ هَلْ يُلقَى فِي النَّارِ، الَّتِي هِيَ نَارُ الكَافِرِينَ، أَو يُلقَى فِي نَارٍ أُخْرَى؟

فِي هَذَا قولَانِ للسَّلَفِ: فمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: إنَّه يُكرْدَسُ فِي نَارِ جهَنَّمَ، الَّتِي هِيَ نَارُ الكَافِرينَ، لَكِنَّ أعضاءَ السُّجودِ لَا تأكُلُها النَّارُ؛ لأَنَّ اللهَ تَعَالَى حَرَّمَ عَلَى النَّارِ أنْ تأكُلَ أعضاءَ السُّجودِ. وهِيَ الجبْهَةُ والأَنْفُ والكَفَّانِ والرُّكبتانِ وأطرَافُ القَدمِينِ.

لَكِنَّ بَعْضَ العُلَماءِ يقُولُ: هِيَ نَارٌ ليسَتْ كالنَّارِ الأُمِّ، وهِيَ النَّارُ الَّتِي تَفْنَى، وهَذَا ظَاهِرُ كَلَامِ ابْنِ القَيِّمِ فِي (الوَابِلِ الصَّيِّب)[1]، أنَّ النَّارَ الَّتِي تَفْنَى هِيَ نَارُ المُعذَّبينَ بذُنُوبِهِمْ فَقَطْ، لَا نَارُ الكَافِرِينَ، إذْ إنَّ نَارَ الكَافِرِينَ لَا تَفْنَى، وهِيَ أَشَدُّ عذَابًا مِنَ النَّارِ الَّتِي تفنَى، وأشَدُّ حرَارَةً.

ولكنَّ ظَاهِرَ النَّصِّ أنَّها النَّارُ الَّتِي للكَافِرينَ، لَكِنَّ مِنَ الجَائِزِ أنْ تكُونَ بَرْدًا وسَلَامًا عَلَى غَيْرِ الكَافِرِينَ، واللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

مَسْأَلَةٌ: قَولُ اللهِ تعَالَى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ هَل مَعنَى الوُرودِ هُو المُرورُ عَلَى الصِّرَاطِ؟

الجَوابُ: هَذَا فِيهِ قَوْلَانِ لأَهْلِ العِلْم، ذَكَرَهُما ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2] وغَيرُهُ مِنَ المُفسِّرِينَ، فقِيلَ: إنَّ المُرادَ بالوُرودِ هُو المُرورُ عَلَى الصِّرَاطِ، وقِيلَ: إنَّ المُراد بالوُرودِ أنَّهُم يُلقُون فِيهَا كُلَّ أحَدٍ يَدْخُلُ النَّارَ، لَكِنَّ المُؤمنَ لَا تَضرُّه؛ والأَوَّلُ أقربُ.

---

(١) الوابل الصيب (ص:٢٠).

(٢) تفسير ابن كثير (٥/ ٢٢٣-٢٢٧).

وَنُؤْمِنُ بِكُلِّ مَا جَاءَ فِي الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مِنْ أَخْبَارِ ذَلِكَ اليَوْمِ وَأَهْوَالِهِ، أَعَانَنَا اللهُ عَلَيْها[١] وَيَسَّرَهَا عَلَيْنَا بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ.

وَنُؤْمِنُ بِشَفَاعَةِ النَّبِيِّ ﷺ لِأَهْلِ الجَنَّةِ أَنْ يَدْخُلُوهَا، وَهِيَ لِلنَّبِيِّ ﷺ خَاصَّةً[٢].

---

[١] قَوْلُهُ: «ونُؤمِنُ بكُلِّ مَا جَاءَ فِي الكِتَابِ والسُّنَّة مِنْ أَخْبَارِ ذَلِك اليَوْمِ وأَهْوَالِهِ، أَعَانَنَا اللهُ عَلَيْهَا» هَذَا كَلَامٌ عَامٌّ، والمُرادُ بـ«السُّنَّةِ» السُّنَّةُ الصَّحِيحَةُ الَّتِي هِيَ حُجَّةٌ، وذَلِكَ لأَنَّه وَرَدَتْ أَحَادِيثُ ضَعِيفَةٌ كَثِيرَةٌ، فِيمَا يتعلَّقُ بأَهْوَالِ الآخرَةِ، لَكِنْ كُلَّمَا تكلَّمنا عَن دَلِيلٍ مِنَ السُّنَّةِ فهُوَ مِنَ السُّنَّةِ الصَّحِيحَةِ الَّتِي هِيَ حُجَّةٌ.

قَوْلُهُ: «مِنْ أَخْبَارِ ذَلِكَ اليَوْمِ وأَهْوَالِهِ أَعَانَنَا اللهُ عَلَيْهَا»، وقَدْ قَالَ اللهُ تعالَى مُجمِلًا أَهْوالَهُ: ﴿يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا﴾ [المزمل:١٧].

[٢] قَوْله: «ونُؤمِنُ بشَفَاعَةِ النَّبِيِّ ﷺ لأَهْلِ الجنَّةِ أَنْ يدْخُلُوها، وهِيَ للنَّبِيِّ ﷺ خَاصَّةً» وذَلِكَ أَنَّ أَهْل الجَنَّة إِذَا عَبَروا الصِّراطَ وُقِفوا عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الجنَّةِ والنَّارِ، يُقتَصُّ لبَعضِهِمْ مِنْ بَعْض، وتُغسَلُ قُلُوبُهم مِنَ الغِلِّ والحِقْدِ، حتَّى يدْخُلُوا الجنَّةَ عَلَى أحسَنِ وَجْهٍ، وإِذَا جَاؤُوا إِلَى أَبْوَابِ الجَنَّةِ لَمْ يجِدوهَا مفتُوحَةً، أَمَّا أَهْلُ النَّارِ فكَمَا يقُولُ تَعالَى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ فورًا؛ وذَلِكَ إِهانَةً لهُمْ، ومُبادرَةً بالعُقُوبَةِ عَلَيْهِمْ.

أَمَّا أَهْلُ الجنَّةِ فيَدخلُونَها فإِذَا جَاءُوهَا وجَدُوها مُغلقَةً، فيَحتَاجُون إِلَى شفَاعَةٍ، والَّذِي يشفَعُ لهُمْ هُو الرَّسُولُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وهَلِ النَّاس فِي ذَلِك الوَقْتِ يذْهَبُون فَورًا إِلَى الرَّسُولِ ﷺ؛ لأَنَّهُم عَرَفُوا أَنَّ غيرَهُ مِنْ أولِيَاءِ اللهِ لَا يستَطِيعُ أنْ يَشفَعَ، أَوْ أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ يشْفَعُ بِدُونِ سُؤَالٍ؟

اللهُ أعلَمُ ولَا أدْرِي، فَما بَلَغَنِي فِي هَذَا عِلْمٌ.

والمُهِمُّ: أنَّ الرَّسُولَ ﷺ يشْفَعُ أنْ تُفتَحَ أبْوَابُ الجَنَّةِ لأَهْلِهَا، وغيرهُ لَا يشْفَعُ؛ لأنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إذَا شفَعَ وفُتحتِ الأبْوَابُ مَا احْتَجْنا إِلَى شَفَاعَةٍ فقَدِ انْتَهَى كُلُّ شَيْء، ودخَلَ أَهْلُ الجنَّةِ الجنَّةَ، بشفَاعَةِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ علَيْه وَعَلَى آلِهِ وسلَّمَ، وهَذِه شفَاعَةٌ خاصَّةٌ لَهُ، كَمَا أنَّ لَهُ شفَاعَةً أُخْرَى خاصَّةً بِه، وهِيَ شفَاعَتُه فِي كَافِرٍ، والكَافِرُ لَا يُمْكِن أن يَشْفَعَ فِيهِ؛ لأَنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء:٢٨].

والكَافِرُ غَيْرُ مرتَضًى عِنْد اللهِ، إلَّا كَافرًا وَاحِدًا استَأذَنَ الرَّسُولُ ﷺ رَبَّه أنْ يشْفَعَ لَهُ فأَذِنَ لَهُ، وهُوَ أبُو طَالِبٍ، وأذِنَ اللهُ لنَبيِّهِ أنْ يشفَعَ لَهُ لَا لأنَّه عَمُّ الرَّسُول، فأَبُو الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أقْوَى صِلَةً مِنْ عمِّهِ، ومَع ذَلِكَ لَمْ يشْفَعْ لَهُ، بَل أُمُّ الرَّسُول ﷺ، والأُمُّ أحَقُّ النَّاس بحُسْنِ الصُّحبَةِ، ومَع ذَلِكَ لَمْ يَأذَنِ اللهُ لرَسُولِهِ ﷺ أنْ يَستَغْفِرَ لَـهَا[1]، وهِيَ أُمُّه، والاستِغْفَارُ شفَاعَةٌ؛ لأَنَّ اللهَ لَا يَغفِرُ لعَدوِّهِ إطْلاقًا.

فاستَأذَنَهُ أنْ يَزُورَ قَبرَهَا فأَذِنَ لَهُ أنْ يَزُورَ قَبرَهَا، اعتبَارًا وحنَانًا طَبيعيًّا، لَا دِينيًّا، ولكِنَّهُ لَمْ يَدعُ لَـهَا بالمغْفِرَةِ ولَا بالرَّحمَةِ، ولَا شَفَعَ لَـهَا، مَعَ أنَّ صِلتَهَا بِهِ أقْوى مِنْ صِلَةِ أَبِي طَالِبٍ، وَصِلَةُ أَبِي الرَّسُول بالرَّسُولِ ﷺ أقْوَى مِنْ صِلَةِ عَمِّهِ به، لَكِنَّ اللهَ أذِنَ للرَّسُول أن يشْفَعَ لأَبِي طَالِبٍ؛ لأَنَّ أَبَا طَالِبٍ حَصَلَ مِنْهُ سَعْيٌ مشكُورٌ فِي الدِّفَاعِ

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجنائز، باب استئذان النبي ﷺ ربه عَزَّوَجَلَّ في زيارة قبر أمه، رقم (٩٧٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

عَنِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فإنَّه دَافَعَ ونَاضَلَ عَنْهُ، وعَادَى قُريشًا مِنْ أجْلِهِ، وقَالَ: «واللهِ لَا نُسلِمُه لَكُمْ»، فشَكَرَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ لَهُ هَذَا الصَّنيعَ.

فأَذِنَ اللهُ تعالى لرَسُولِهِ ﷺ أنْ يشْفَعَ فِيهِ، فشَفَعَ لَهُ، لَكِن كَانَ فِي ضَحْضَاح مِنْ نَارٍ، علَيْه نَعْلانِ يغْلِي منْهُما دِمَاغُهُ، ويَرَى أنَّه أشَدُّ النَّاس عذَابًا[1]، ولَا يَرَى أَنَّ غَيرَهُ مثْلُهُ، ولَا أنَّ غَيْرَهُ أهْوَنُ مِنْهُ؛ لأنَّه لَوْ رَأَى أنَّ غَيْرَهُ مِثْلُهُ هَانَ عَلَيْه الأمْرُ؛ لأَنَّ الإِنْسَانَ إِذَا شَارَكَهُ غَيرُهُ فِي المأْسَاةِ أَو صَارَ أعظَمَ مِنْهُ خَفَّت علَيْه، وهَانَتْ علَيْه، ولهَذا يقُولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الزخرف:٣٩]. أَيْ: لَا ينْفَعُكم، ولَا يتَسَلَّى بعضُكُم ببَعْضٍ، وقَالَتِ الخَنْسَاءُ تَرثِي أخَاهَا صَخْرًا[2]:

وَلَـوْلَا كَثْـرَةُ البَـاكِينَ حَـوْلِي ... عَـلَى إِخْـوَانِهِمْ لَقَتَلْـتُ نَفْسِـي
وَمَـا يَبْكُـونَ مِثْـلَ أَخِـي وَلَكِـنْ ... أُسَـلِّي الـنَّفْسَ عَنْـهُ بِالتَّأَسِّـي

فأَبُو طَالِبٍ أهْوَنُ أَهْل النَّارِ عذَابًا، مَعَ هَذَا العذَابِ العظِيمِ -والعِيَاذُ باللهِ-، فعَلَيْهِ نعْلَان مِنْ نَارٍ يغْلِي منْهُما دِمَاغُهُ، وهُوَ أعْلَى مَا فِي جَسَدِهِ، فَما بَالُكَ بِما دُونَهُ ممَّا قَرُبَ مِنَ النَّعلَينِ اللَّذينِ مِنَ النَّارِ؟! فهُو أَشَدُّ وأَشَدُّ، وإِنَّهُ ليَرَى أَنَّه أَشَدُّ أَهْل النَّارِ عذَابًا.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار، رقم (٦٥٦٤)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب شفاعة النبي ﷺ لأبي طالب، رقم (٢١٠)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) ديوان الخنساء (ص:٧٢).

وَنُؤْمِنُ بِالجَنَّةِ وَالنَّارِ:

فَالجَنَّةُ: دَارُ النَّعِيمِ، الَّتِي أَعَدَّهَا اللهُ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِينَ المُتَّقِينَ[١]،................

هَذِهِ الشَّفاعَةُ خَاصَّةٌ بالنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَا أَحَدَ يَشْفَعُ لأَيِّ إنسَانٍ كَافِرٍ مَهْمَا كَانَ، حتَّى لَوْ فَرَضْنَا أنَّ كَافِرًا مِنَ النَّاس دَافَعَ عَنِ الإِسْلامِ اليَوْمَ، وصَارَ مَعَ المُسلِمِينَ عَلَى أعدَائِهِ، فَلَا أحَدَ يشفَعُ لَهُ؛ لأَنَّ هذِهِ الشَّفاعَةَ: «خَاصَّةٌ فِي خَاصٍّ لخَاصٍّ»، فهِـيَ «خَاصَّةٌ» بالنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، «فِي خَاصٍّ»: وهُوَ أَبُو طَالِبٍ، حتَّى الرَّسُولُ ﷺ لَا يشْفَعُ لأَحَدٍ غَيْرِ أَبِي طَالِبٍ. «لخَاصٍّ»: وهُوَ دفَاعُه عَن الإِسْلام أعظَمَ مُدافعَةٍ.

[١] قَوْلُهُ: «**ونُؤْمِنُ بالجَنَّةِ والنَّارِ، فالجَنَّةُ دَارُ النَّعيمِ، الَّتِي أعَدَّهَا اللهُ تَعَالَى للمُؤمِنِينَ المُتَّقِينَ**»، «**أعدَّهَا اللهُ**» يَعْني هِيَ الآنَ موجُودَةٌ، قَالَ اللهُ تعَالَى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أُعدَّتْ أَي: هُيِّئَتِ الْآنَ، والنَّبِيُّ ﷺ دَخَلَهَا، ورَأَى فِيهَا قَصْرًا لعُمرَ بْنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(١)، وسَمِعَ فِيها خَشْخَشَةَ بِلَالٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٢). ورَأَى فِيهَا مِنَ النَّعيمِ مَا رَأَى، فهِيَ مَوجُودَةٌ الْآنَ، أعَدَّها اللهُ للمُؤمِنِينَ المُتَّقِينَ، وقَولُنا: «للمُؤمِنِينَ» هَذَا مَا يتعَلَّقُ بالقُلُوبِ، و«المُتَّقِينَ» هذَا مَا يتعَلَّقُ بالجَوَارِحِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب أصحاب النبي ﷺ، باب مناقب عمر بن الخطاب أبي حفص القرشي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رقم (٣٦٧٩)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب من فضائل عمر رضي الله تعالى عنه، رقم (٢٣٩٤)، من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب أصحاب النبي ﷺ، باب مناقب عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رقم (٣٦٧٩)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب من فضائل أم سليم أم أنس بن مالك وبلال، رقم (٢٤٥٧)، من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فِيهَا مِنَ النَّعِيمِ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ[١]، ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[٢] [السجدة:١٧٠].

---

[١] قَوْلُهُ: «فِيهَا مِنَ النَّعِيمِ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ» لَيْسَ فِي الدُّنيَا مثْلُ نَعِيمِ الآخِرَةِ، ولَا سُمِعَ بِمِثْلِ هَذَا النَّعِيمِ، مِنْ حُسْنِ الأَصْوَاتِ، والكَلَامِ الطَّيِّبِ، تَحِيَّتُهُم فِيهِ سَلَامٌ، لَا فِيهَا غَوْلٌ ولَا تَأْثِيمٌ، إِلَّا قِيلًا سَلامًا سَلامًا.

وقَوْلُهُ: «وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ» فَلَا يُمْكِن أن يَخْطُرَ عَلَى قَلْبِكَ هَذَا النَّعيمُ أَبدًا، فكُلُّ مَا نَرى مِنَ النَّعِيمِ فِي الدُّنيَا فهُو جُزْءٌ لَا يُنسَبُ بالنِّسْبَةِ لنَعِيمِ الآخِرَةِ، إِلَّا إِذَا نُسبَتِ الذَّرَّةُ للشَّمْسِ؛ لقَولِ اللهِ تَعالَى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾.

[٢] قَوْلُهُ: «﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾» ﴿نَفْسٌ﴾: نكِرَةٌ فِي سيَاقِ النَّفْي، فأيُّ نَفْسٍ لَا يُمكِن أبدًا أنْ تعْلَمَ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ، أقَرَّ اللهُ أعيُنَنا وأعينكُم بذَلِكَ!.

وقَوْلُهُ تعالَى: ﴿جَزَآءً بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ جزاءٌ عظِيمٌ فِي عَمَلٍ يَسِيرٍ، وفِي الحدِيثِ القُدُسيِّ: «أَعْدَدْتُ لِعِبَادِيَ الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ»(١).

هَذِهِ هِيَ الجنَّةُ، ولَا يَنْبَغِي أن نَقُولَ: إنَّ الجَنَّةَ هِيَ البُسْتَانُ الكَثِيرُ الأشجَارِ،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة، رقم (٣٢٤٤)، ومسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها، رقم (٢٨٢٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَالله عَنْهُ.

وَالنَّارُ: دَارُ العَذَابِ الَّتِي أَعَدَّهَا اللهُ تَعَالَى لِلْكَافِرِينَ الظَّالِمِينَ، فِيهَا مِنَ العَذَابِ وَالنَّكَالِ مَا لَا يَخْطُرُ عَلَى البَالِ[1]، ....

الَّذِي تُغَطى أرضُهُ بالزُّروع وهوَاؤُه بأغصَانِ الأشجَارِ؛ لأنَّكَ لَوْ قُلتَهُ لهَانَ النَّعِيمُ، حتَّى لَوْ فُرِضَ أنَّ الجَنَّةَ فِي اللُّغةِ العَرَبيَّة هكَذَا مَعْنَاهَا، فإِنَّ جنَّةَ الآخِرَةِ لَيْسَتْ كذَلِكَ، بَل أعظَمُ وأعظَمُ بكَثِيرٍ، ومَنْ شَاءَ البَسْطَ فِي هَذَا فليَرْجِعْ إِلَى مَا أُلِّف فِي هَذَا.

[١] قَوْلُهُ: «**وَالنَّارُ دَارُ العَذَابِ، الَّتِي أعَدَّهَا اللهُ تَعَالَى للكَافِرِينَ الظَّالِمِينَ، فِيهَا مِنَ العَذَابِ والنَّكَالِ مَا لَا يَخْطُرُ عَلَى البَالِ**».

يقُولُ النَّبيُّ ﷺ: «**إِنَّهَا فُضِّلَتْ عَلَى نَارِ الدُّنْيَا كُلِّهَا بِتِسْعَةٍ وَسِتِّينَ جُزْءًا**»(١)، أَضِفْ إِلَيْهَا تَمَامَ السَّبعِينَ، فكُلُّ نَارِ الدُّنيا -نَارُ الحطَبِ، أَو نَارُ الغَازِ، أَو نَارُ الجَازِ-؛ عَلَى أعظَمِ مَا فِيها فإِنَّ نَارَ الآخِرَةِ فُضِّلَتْ عَلَيْها بتِسْعَةٍ وسِتِّينَ جُزْءًا، ومَنْ يتصَوَّرُ هذِهِ النَّارَ؟! نسْأَلُ اللهَ العَافِيَةَ!.

وقَوْلُهُ: «**فِيهِ مِنَ النَّكَالِ مَا لَا يَخْطُرُ عَلَى البَالِ**» قَالَ اللهُ تَعالَى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾ [النساء:٥٦]. فإِذَا نَضِجَتْ وصَارَتْ لَا تُحِسُّ مِنْ عَذَابِ النَّارِ بُدِّلَتْ بجُلودٍ أُخْرَى جدِيدَةٍ فِي الحَالِ؛ ليَذُوقُوا العَذَابَ، كُلَّما أَرَادُوا أن يخْرُجُوا مِنْهَا، وأقبَلُوا عَلَى شَاطِئِ السَّلَامَة، أُعِيدُوا فِيهَا، وصَارَ هَذَا أَعْظَمَ فِي العَذَابِ عَلَيْهِمْ؛ لأَنَّهُم لَوْ بقُوا مُستقرِّينَ أَيِسُوا وانْتَهَى الأَمْرُ، لَكِنْ إِذَا أُعْلُوا حتَّى يقُولُوا: خرَجْنا خرَجْنا! أُعِيدُوا وأُركِسُوا فِيهَا، صَارَ هَذَا أعظَمَ -والعِيَاذُ باللهِ- وهَكَذَا أَبَدَ الآبِدِينَ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب صفة النار، رقم (٣٢٦٥)، ومسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في شدة حر نار جهنم، رقم (٢٨٤٣)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا﴾[1] [الكهف:٢٩].

---

[١] قَوْلُهُ: «﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا﴾» قَوْلُهُ: «الظَّالمِينَ» أَيْ ظُلم الكُفْرِ لا مُطلَقُ الظُّلم؛ لقَولِهِ تعَالَى: ﴿وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، وقَوْلُهُ: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَا﴾ السُّرادِقُ: هُو عِبارَةٌ عَمَّا يكُون عِنْد مَدْخَلِ البَابِ، يَعْنِي: أنَّ العَذَابَ مُحِيطٌ بهِمْ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، قَالَ اللهُ تعَالَى: ﴿لَهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ ظُلَلٞ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحۡتِهِمۡ ظُلَلٞۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾ [الزمر:١٦].

وقَوْلُهُ تعَالَى: ﴿وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ﴾ ولا بُدَّ أنْ يَستَغِيثُوا؛ لأَنَّهُم يجِدُون مِنَ العَطَشِ مَا لَا يخْطُرُ عَلَى البَالِ، وإِذَا اسْتَغَاثُوا: ﴿يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَ﴾ والمُهْلُ هُو رَدِيءُ الزَّيتِ، الَّذِي يَكُونُ فوقَهُ مِنْ أَوْسَاخِهِ، يَعني أَنَّهُ كَرِيهُ المَنْظَرِ، وكَرِيهُ الرَّائحَةِ ﴿يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَ﴾ قَبْلَ أَنْ يَصِلَ إِلَى الفَمِ؛ فبمُجرَّدِ مَا يُقرِّبه هَذَا الظَّالمُ إِلَى وَجْهِهِ، يَشْوِي الوَجْه، ويتَساقَطُ الوَجْه -والعِيَاذُ باللهِ- وإِذَا سُقُوا سُقُوا مَاءً حَمِيمًا فقَطَّعَ أمعاءَهُمْ، ومَع ذَلِك أَحيَانًا: ﴿يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ﴾ فيشْرَبُون الحَمِيمَ فِي بُطُونِهِمْ ويُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُوسِهِمْ: ﴿يُصۡهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمۡ وَٱلۡجُلُودُ﴾، سَبْحَانَ اللهِ! هُنَاكَ سُقُوا مَاءً حَمِيمًا فقَطَّعَ أمعاءَهُمْ؛ لأَنَّه دَخَلَ إِلَى الأمعَاءِ، وهُنَا يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ الرُّؤوسِ، ولكِنَّهُ لا يُقطِّعُ الأمعَاءَ، لكنَّه يَصهرُهَا، قَالَ تعَالَى: ﴿يُصۡهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمۡ وَٱلۡجُلُودُ ٢٠ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنۡ حَدِيدٖ﴾ أعاذَنَا اللهُ وإِيَّاكُم مِنْهَا! يقُولُ تعَالَى: ﴿بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا﴾ صَدَقَ اللهُ! إِنَّه بِئْسَ الشَّرَابُ.

وَهُمَا مَوْجُودَتَانِ الآنَ[١]، وَلَنْ تَفْنَيَا أَبَدَ الآبِدِينَ[٢]، ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا﴾[٣] [الطلاق:١١] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا[٤] ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾[٥] [الأحزاب:٦٤-٦٦].

---

[١] قَوْلُهُ: «وَهُمَا مَوْجُودَتَانِ الْآنَ» أَيِ الجنَّةُ والنَّارُ، أَمَّا الجنَّةُ فيُؤخَذُ مِنْ قَوْلِهِ تعَالَى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ وفِي النَّار يُؤخَذُ مِنْ قَوْلِهِ تعَالَى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ ومِنَ السُّنَّةِ الظَّاهِرَةِ المَشهُورَةِ عَن رَسُولِ الله ﷺ.

[٢] قَوْلُهُ: «وَلَنْ تَفْنَيَا أَبَدَ الْآبِدِينَ» ودَلِيلُ ذَلِك:

[٣] قَوْلُهُ: «﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا﴾» فالشَّاهِدُ هُو قَوْلُهُ: ﴿أَبَدًا﴾ هَذَا صَرِيحٌ فِي التَّأبِيدِ.

[٤] وقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ الشَّاهِدُ قَوْلُهُ: ﴿أَبَدًا﴾.

[٥] قَوْلُهُ: «﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾» ﴿يَٰلَيْتَنَآ﴾ ولَكِن التَّمنِّي رَأْسُ مَالِ المَفَالِيسِ، وهَذَا التَّمنِّي ينفعُهم لَوْ كَانَ ذَلِكَ فِي وَقْتِ الإمكَانِ، أَمَّا الْآنَ فَلَا، فإِذَا انْتَقَلَ الإِنْسَانُ مِنَ الدُّنيَا، وعِنْدَ انتِقَالِهِ مِنَ الدُّنيَا لَا يَنفَعُ النَّدمُ، فهَذَا فِرْعَونُ حِينَما أدرَكَهُ الغَرَقُ: ﴿قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس:٩٠]؛ فقِيلَ لَهُ: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

وانظُرِ الذُّلَّ والعَارَ والخِزْيَ عَلَى هَذَا الخَبِيثِ، الَّذِي كَانَ مُتكبِّرًا عَلَى بَنِي إسرَائِيلَ، كَيْفَ صَرَّحَ الْآنَ أَنَّه مُتَّبِعٌ لَهُمْ بقَولِهِ: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ ولَمْ يَقُل: آمَنْتُ باللهِ، ولَا قَالَ: بِرَبِّ العَالَمِينَ رَبِّ مُوسَى وهَارونَ، كَمَا قَالَهُ السَّحرَةُ، بَلْ قَالَ: آمَنْتُ بالَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إسرَائِيلَ، فكَأَنَّهُ الْآنَ يقُولُ: أَنَا تَبعٌ لهُمْ، فَأُذِلَّ فِي الدُّنيَا قَبْلَ الآخِرَةِ -والعِيَاذُ باللهِ- ولكنَّهُ لَمْ ينْفَعْهُ.

وهَؤُلاءِ يقُولُونَ: يَا ليتَنَا أطَعْنَا اللهَ وأطَعْنَا الرَّسُولَ، ولَكِن لَا يُمْكِن هَذَا، ويقُولُون -أيْضًا- إِذَا وُقِفُوا عَلَى النَّارِ: ﴿يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام:٢٧]. قَالَ اللهُ تعَالَى: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام:٢٨].

وتَأبِيدُ النَّارِ كتَأبِيدِ الجَنَّةِ سَوَاءٌ، فيَجِبُ عَلَيْنَا أنْ نعتَقِدَ عقِيدةً دَلَّ عَلَيْها كِتَابُ رَبِّنَا، وسُنَّةُ نَبيِّنا ﷺ، بأَنَّ النَّارَ مُؤبَّدَةٌ، ولَا يُهِمُّنا مَنْ قَالَ بخِلَافِ ذَلِكَ، بَلْ مَنْ قَالَ بخِلَافِ ذَلِكَ نَرَى أَنَّهُ أخْطَأَ، فإنْ كَانَ مَبنيًّا عَلَى عقِيدَةٍ وأَسَاسٍ وقَاعِدَةٍ كَمَا يقولُه مَنْ يقُولُ بمَنْعِ تَسلْسُلِ الحوَادِثِ، كالجَهميَّةِ وغَيرِهِمْ، فهُوَ ضَالٌّ، ومَنْ قَالَهَا عَنْ حُسْنِ قَصْدٍ -ونَحْن نعْلَمُ أنَّه حَسَنُ القَصْدِ- فهُوَ مُخطِئٌ، ولنَا أنْ نَصِفَه بأنَّهُ ضَالٌّ؛ لأَنَّ كُلَّ مَنْ خَالفَ الحَقَّ فهُوَ ضَالٌّ، لَا فِي العَقِيدَةِ ولَا فِي غَيْرِهَا، ولهَذَا لـمَّا قِيلَ لابْنِ مَسعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي قِصَّةِ أَبِي مُوسَى الأَشْعرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حِينَ أَفْتَى فِي مَسْأَلَةٍ فَرضيَّةٍ، قَالَ: قَد ضَلَلْتُ إِذَنْ ومَا أنَا مِنَ المُهتَدِينَ؛ لأَنَّ أَبَا مُوسَى الأشعَرِيَّ قَالَ للسَّائِلِ: وَأْتِ ابْنَ مَسعُودٍ فَسَوْفَ يُوافِقُنِي عَلَى ذَلِكَ(١).

(١) أخرجه البخاري: كتاب الفرائض، باب ميراث ابنة الابن مع بنت، رقم (٦٧٣٦).

فعَلَى كُلِّ حَالٍ: مَنْ خَالَفَ فِي هَذا -أَعْنِي فِي أبدِيَّةِ النَّارِ-: إِنْ كَانَ مَبنيًّا عَلَى عقِيدَةٍ، وعلَى مَنْهَجٍ، وعلَى قَاعِدَةٍ فهُو ضَالٌّ ومُبتدِعٌ؛ وإِنْ كَانَ عَنْ حُسْنِ نِيَّةٍ واجتِهَادٍ فهُوَ مُخطِئٌ، سَواءٌ كَانَ ابْنَ تيميَّةَ، أَو ابْنَ القَيِّمِ، أَوْ غَيرَهُمَا، نَحْن لَا يَهمُّنا الرِّجَالُ، إِنَّما الَّذِي يهمُّنا هُوَ الَّذِي قَالَ بِهِ الرِّجَالُ.

فإِنْ قَالَ قَائِل: أُشْكِلَ عَلَيَّ قَوْلُهُ تعالَى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود:١٠٨] فقَالَ: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾؟

فالجَوابُ: لـمَّا قَالَ تَعالَى: ﴿مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ يَفْهَمُ الفَاهِمُ أَنَّهم خَالِدُونَ فِيهَا مُدَّةَ دَوامِ السَّمَواتِ والأَرْضِ فَقَطْ وبَعْدَ ذَلِك تَفْنَى أَو يُخرجُونَ مِنْها فقَالَ: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ فقولُهُ: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ أَيْ مِنَ الزَّمنِ، وهَذَا التَّوجِيهُ لَا إِشْكَالَ فِيهِ أَبدًا، ويَبْقَى عندَنا أَنَّه أَهْلُ النَّارِ قَالَ: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود:١٠٧] أيضًا لَا إِشْكَالَ فِيهَا؛ لأَنَّ الجنَّةَ فضلٌ فقَالَ فِيهَا: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ والنَّارَ عَدْلٌ فقَالَ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ فكَأَنَّه يقُولُ: لَا اعْتِرَاضَ لأَنَّ اللهَ يفْعَلُ مَا يُرِيدُ.

ثُمَّ إِنَّه قَالَ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ دَفْعًا لَمِا يَظُنُّ الظَّانُّ أَنَّ هَذَا فِيهِ شَيْءٌ مِنَ الظُّلمِ أَو نَحْوُ ذَلِكَ؛ فقَالَ ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾.

وقَوْلُهُ: ﴿مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ (مَا) مَصدريَّةٌ ظَرفيَّةٌ، وتَقْدِير الكَلَامِ: مُدَّةَ دَوامِ السَّمَـوات والأَرْض، ولْنفرِضْ أَنَّها مِئَةُ أَلْفِ مِليونِ سَنَةٍ مثَلًا، فإِذَا جاءَت

الآيَةُ هكَذَا مَا دامَتِ السَّمَوات والأَرْض -أَي مُدَّةَ السَّموات والأَرْض- فيَفْهَمُ مِنْها الإِنْسانُ أَنَّهُمْ خَالِدُون فِيهَا مَثَلًا مِئَةَ أَلْفِ مِليون؛ فقَدَّرنا هَذا، أو بَعْدَ ذَلِك تَنتَهِي؛ إمَّا بإِخْرَاجِهِم أَو بفَنائِهِمْ؟.

فلَمَّا قَالَ تعالى: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ يَعْني إِلَّا مُدَّة زَائِدَةً عَلَى ذَلِك شَاءَهَا اللهُ، وَهَذَا أَقْرَبُ الأَشْيَاءِ؛ لأَنَّ هَذَا تَحَدَّث عَنِ المُستقبَلِ ولَيْسَ عَنِ المَاضِي، فبَعْضُ النَّاسِ قَالَ: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ أَي مُدَّةَ دَوامِهِمْ فِي الدُّنيَا وفِي القَبْرِ وفِي يَوْم القِيامَة مَا دَخلُوهَا حتَّى الْآنَ؛ فنَقُول: هَذا غَيْرُ صَحِيحٍ؛ ولَيْسَ بظَاهِرٍ، فقَدْ تَأَمَّلْتُ الأَقْوالَ، وأحسَنُ مَا يُطمَأَنُّ إِلَيْه هُو مَا ذَكَرْتُهُ؛ لأَنَّ اللهَ يتحَدَّثُ عَنْ شَيْءٍ مُستقبَلٍ لَا عَنْ شَيْء مَاضٍ.

مَسْأَلَةٌ: بالنِّسْبَةِ لوَصْفِ الجنَّةِ ونعِيمِهَا يُوجَدُ بَعْض النَّاس وخَاصَّةً بَعْض الشَّبابِ مَنْ يُكثِرُون فِي قِراءَةِ مَا يتعلَّقُ بأَوْصَافِ الحُورِ العِينِ خَاصَّةً مَا ذَكَرَهُ الإِمَامُ ابْنُ القَيِّم فِي (نُونيَّتِهِ) وغَيْرُه ممَّا قَد يُثِيرُ شَهوتَهُم ولَكِن مَعَ ذَلِك إِذَا نُصِحُوا يقُولُونَ: نَحْن نتصَبَّرُ بهَذَا فهَلْ هَذَا لَهُ وَجْهٌ؟ أَمْ أَنَّهُم يُنْصَحُونَ بالابتِعَادِ عَنْ هَذَا؟

الجَوابُ واللهِ لَا أَرَى قَوْلَـهم هَذَا، ولِمَاذَا أَيْضًا لَا يَذكُرُون النَّارَ ووَعِيدَها، النَّاسُ الْآنَ هُمْ إِلَى ذِكرِ الوَعِيدِ أَحْوجُ مِنهُم إِلَى ذِكْرِ الوَعْدِ؛ لأَنَّ غَالِبَ النَّاس فَتَنَتْهُ الدُّنيَا فيَحتَاجُ إِلَى كَابِحٍ، فالنَّاسُ ليسُوا مُقبِلينَ الْآنَ حتَّى نذْكُر لـهُمُ الأَشْيَاءَ الَّتِي تَحثُّهُم عَلَى التَّقدُّمِ، بلِ النَّاسُ الْآنَ مُدبِرونَ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللهُ؛ فلِهَذَا نَرى أَنَّ الإِنْسَانَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُرجِّحَ أَحَدَ الجَانبِينِ عَلَى الآخَرِ -التَّرغِيبَ والتَّرهِيبَ- نَرى فِي الوَقْتِ الحَاضِرِ أَنْ نُقدِّمَ التَّرهِيبَ، عَلَى أَنِّي أَنَا لَا أُوافِقُ عَلَى هَذَا، لَكِن أَقُولُ: إِذَا كَانَ ولَا بُدَّ، فالَّذِي يَنبَغِي أَنْ نَسلُكَ طريقَة القُرْآن: تَرغِيب وتَرهِيب.

وَنَشْهَدُ بِالجَنَّةِ لِكُلِّ مَنْ شَهِدَ لَهُ الكِتَابُ وَالسُّنَّةُ: بِالعَيْنِ، أَوْ بِالوَصْفِ[١]:

فَمِنَ الشَّهَادَةِ بِالعَيْنِ: الشَّهَادَةُ لِأَبِي بَكْرٍ، وَعُمَرَ، وَعُثْمَانَ، وَعَلِيٍّ، وَنَحْوِهِمْ مِمَّنْ عَيَّنَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ[٢].

---

[١] قَوْلُهُ: «ونشْهَدُ بالجَنَّةِ لكُلِّ مَنْ شَهِدَ لَهُ الكِتَابُ والسُّنَّة، بالعَيْنِ أَو بالوَصْفِ»، فالشَّهادَةُ بالجنَّةِ أَو بالنَّارِ لَا تكُونُ إِلَّا لِمَنْ شَهِدَ لَهُ النَّبيُّ ﷺ، أَو جَاءَ فِي القُرْآنِ.

وقَوْلُهُ: «بِالْعَيْنِ، أَوْ بالْوَصْفِ» يَعْني الشَّهادَة قَدْ تكُونُ بالعَينِ، بأنْ يشْهَدَ لرَجُل بعينِه أنَّه فِي الجنَّةِ، فمِنْ ذَلِك قَولُ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ [الليل:١٧-٢١]، وهَذِه نزلَتْ فِي أَبِي بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بإجماعِ المُفسِّرينَ كُلِّهم أَو جُلِّهم، ورُبَّما يُقالُ: إنَّ مِنْ دَلائِلِ ذَلِك قَوْلُهُ تعالَى: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة:٤٠] فإنَّه بإجماعِ المُسلِمينَ أنَّ المُرادَ بصَاحبِهِ هُنَا أبو بكْرٍ، وصَاحِبُ الرَّسُول ﷺ الَّذِي لَا يُفارِقُه فِي الشِّدَّةِ والرَّخاءِ، هُو أحقُّ النَّاسِ بأَنْ يُشهَدَ لَهُ بالجنَّةِ، وهَذَا الدَّلِيل عَلَى شَهادَةِ القُرْآنِ لَهُ بالجنَّةِ، أمَّا السُّنَّةُ فأمْرُها ظَاهِرٌ.

[٢] قَوْلُهُ: «فَمِنَ الشَّهادَةِ بالعَيْنِ الشَّهادَةُ لأَبِي بكْرٍ، وعُمَرَ، وعُثْمَانَ، وعَلِيٍّ ونحوِهِمْ مِمَّن عَيَّنهُمُ النَّبيُّ ﷺ» مثْلَ العَشَرَةِ المُبشَّرينَ بالجنَّةِ، وثَابِتِ بْنِ قَيْسِ بن شَمَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقَدْ شَهِدَ لَهُ النَّبيُّ ﷺ بالجنَّةِ، وعُكَّاشَةِ بنِ مِحْصَنٍ شَهِدَ لَهُ النَّبيُّ ﷺ بالجنَّةِ، وسَعدُ بْنُ مُعاذٍ شَهِدَ لَهُ الرَّسُول ﷺ بالجنَّةِ، وبلَالٌ، المُهِمُّ: أنَّهُم كثِيرُونَ، فالَّذِينَ عيَّنَهُمُ النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، يجِبُ أن نشْهَدَ لهُم بأعيانِهِمْ أنَّهُم فِي الجنَّةِ، تَصدِيقًا لرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَمِنَ الشَّهَادَةِ بِالوَصْفِ: الشَّهَادَةُ لِكُلِّ مُؤْمِنٍ أَوْ تَقِيٍّ[١].

[١] قَوْلُهُ: «**ومِنَ الشَّهادَةِ بالوَصْفِ الشَّهادَةُ لِكُلِّ مُؤمِنٍ أَو تَقِيٍّ**» كُلُّ مُؤمِنٍ نَشهَدُ لَهُ بالجَنَّةِ، وكُلُّ تَقِيٍّ نَشهَدُ لَهُ بالجنَّةِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى فِي الجنَّةِ: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ فكُلُّ مُتَّقٍ فهُوَ فِي الجنَّةِ، لَكِن لَا نشْهَدُ لفُلَانٍ الَّذِي رَأَيْنَاهُ فِي ظَاهِرِ حالِهِ مُتَّقِيًا أَنَّه مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ، لَكِن نَقُول: نَرجُو لَهُ أن يَكُون مِنْ أَهْل الجنَّةِ، أَمَّا أَنْ نشْهَدَ لفُلانٍ مِنَ النَّاسِ أَنَّه فِي الجنَّةِ فَلَا؛ لأَنَّ الرَّجُلَ قَدْ يعمَلُ بعمَلِ أَهْل الجَنَّةِ -فِيمَا يظهَرُ للنَّاسِ- وهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، كَمَا ثَبَتَ ذَلِك عَنِ الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ علَيْه وعَلَى آلِهِ وسلَّمَ أَنَّه قَالَ: «**إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ -فِيمَا يَبْدُو للنَّاسِ- وَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ**»(١).

وسببُ هَذَا الحَدِيثِ: أَنَّ رَجُلًا كَانَ مَعَ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي غَزْوَةٍ، وكَانَ شُجَاعًا مِقْدَامًا، لَا يَدَعُ للعدوِّ شَاذَّةً ولَا فَاذَّةً إِلَّا قَضَى عَلَيْهَا، فقَالَ الرَّسُول ﷺ: «**إِنَّه مِنْ أَهْلِ النَّارِ**»، فعَظُمَ ذَلِك عَلَى الصَّحابَةِ وخَافُوا، وقَالُوا فِي أنفُسِهم: كَيْف يَكُون هَذَا الرَّجُل مِنْ أَهْلِ النَّارِ! إِذَنْ: أَيْنَ نكُونُ نَحْنُ؟ فقَالَ أحَدُ الصَّحابَةِ: واللهِ لأَلْزمَنَّهُ، يَعْنِي: أُتابِعُه، فكَانَتِ النَّهايَةُ أَنَّه أُصِيبَ بسَهْمٍ -أَيْ هَذَا الرَّجُل الشُّجاعُ-، ومعْلُومٌ أَنَّ الرَّجُل الشُّجاعَ إِذَا أُصِيبَ صَارَ ذَلِكَ عِنْدَهُ عَظِيمًا كَبِيرًا، فعَظُمَ ذَلِك علَيْه فجَزِعَ، فأَخَذَ بسَيْفِهِ واستَلَّهُ، ثُمَّ وَضَعَهُ عَلَى صَدْرِه واتَّكَأَ علَيْه، حتَّى خَرَجَ مِنْ ظهْرِهِ -والعِيَاذُ باللهِ-، فقَتَلَ نَفْسَهُ، فأَصْبَحَ الرَّجُل غَادِيًا إِلَى رَسُولِ اللهِ، فقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللهِ، فقَالَ الرَّسُول ﷺ: «**بِمَ؟**» وهُوَ يعرِفُ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد، باب لا يقال فلان شهيد، رقم (٢٨٩٨)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه، رقم (١١٢)، من حديث سهل بن سعد الساعدي.

أَنَّه يشْهَدُ بذَلِك، لَكِنْ ليُبيِّنَ الآيَةَ التِي دَلَّتْ عَلَى أَنَّه رَسُولُ الله؛ قَالَ: إنَّ الرَّجُل الَّذِي ذكَرْتَ أَنَّه مِنْ أَهْل النَّار فعَلَ كَيتَ وكَيتَ، فقَالَ الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ فِيمَا يَبْدُو للنَّاسِ، وهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ» أسْأَلُ اللهَ أَلَّا يجعَلَنِي وإِيَّاكُم منْهُم.

فالمسأَلَةُ خَطِيرَةٌ، ولَكِن لِيبشرِ العَبْدُ أَنَّ اللهَ لَنْ يخْذُلَ عبْدَهُ المُخلِصَ أبدًا، فمتَى كَانَ الإِنْسان مُخلِصًا للهِ مُبتغِيًا مَرضَاتَهُ فلَنْ يخذُلَه؛ لأَنَّ اللهَ أكرَمُ مِنْ أنْ يخْذُلَ عبْدَهُ المُؤمِنَ، وإِذَا كَانَ اللهُ تَعَالَى يقُولُ: «مَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شِبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا»(١). فَلَا يُمكِن أنْ يخْذُلَه اللهُ أَبدًا، لَكِن قَد يَكُونُ فِي القَلْبِ -أجارَنَا اللهُ وإِيَّاكُمْ وأعَاذَنا وإِيَّاكُم- سَرِيرَةٌ خَبِيثَةٌ، بَاطنَةٌ ككَراهَتِهِ للحَقِّ، أَو لبَعْض الحَقِّ، وحِقْدٌ عَلَى المُؤمِنينَ وغِلٌّ، ومَا أَشْبهَ ذَلِكَ مِنَ الأُمُورِ الَّتِي تهْوِي بِهِ فِي مكَانٍ سَحِيقٍ.

ولهَذَا أَنَا أُكرِّر دَائِمًا: أنْ يُركِّزَ الإِنْسَانُ عَلَى تَطْهِيرِ القَلْبِ، قَالَ تعَالَى: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ فطَهِّرْ قلبَكَ مِنَ الشِّركِ، والغِلِّ، والحِقْدِ، وكَرَاهَةِ مَا أَنْزَلَ اللهُ، حتَّى ولَو كَانَ فِي أمْرٍ سَهْلٍ، فلَا تكْرَهْ شَيْئًا مِمَّا شَرَعَهُ اللهُ أَبدًا؛ لأَنَّه رُبَّما يُختَمُ للإنسَانِ -أجارَنا اللهُ وإِيَّاكُم- بسُوءِ الخَاتمَةِ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾، رقم (٧٤٠٥)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب الحث على ذكر الله تعالى، رقم (٢٦٧٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فالحَاصِلُ: أنَّنا لَا نشْهَدُ بالجَنَّةِ للرَّجُل إِذَا رَأيناهُ مُتَّقيًا ظَاهِرًا، لَكِن نَقُولُ: نَرجُو أنَّه مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ.

وكذَلِكَ -أيضًا- الشَّهَادَةُ، فلَوْ أَنَّ رَجُلًا قُتِلَ فِي صَفِّ المُسلِمِينَ -قتلَهُ الكُفَّارُ- وهُوَ مُجاهِدٌ، فَلَا نَشْهَدُ لَهُ بالشَّهادَةِ أبَدًا، وقَدْ تَرجَمَ الإمَامُ البُخارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ لِهَذِهِ المسألَةِ بقَولِهِ فِي الصَّحِيحِ: «بَابٌ: لَا يُقَالُ فُلانٌ شَهِيدٌ» واستدَلَّ لذَلِكَ بقَولِ النَّبيِّ ﷺ: «مَا مِنْ مَكْلُومٍ يُكْلَمُ فِي سَبِيلِ اللهِ -وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَنْ يُكْلَمُ فِي سَبِيلِهِ- إِلَّا جَاءَ يَوْمَ القِيَامَةِ وَجُرْحُهُ يَثْعَبُ دَمًا اللَّونُ لَوْنُ الدَّمِ، والرِّيحِ رِيحُ المِسْكِ»[1]، فقَالَ: «وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَنْ يُكْلَمُ فِي سَبِيلِهِ» فجَعَلَ العِلْمَ فِي ذَلِك إِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، لَا إِلَى الظَّاهِرِ.

وذَكَر فِي (الفَتْحِ): أثَرَ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «إِنَّكُم تَقُولُون: فُلانٌ شَهِيدٌ، وفُلَانٌ شَهِيدٌ، ولعَلَّهُ أنْ يَكُونَ فَعَلَ كَذَا وكَذَا، يَعْنِي غَلَّ، ولَكِن قُولُوا: مَنْ مَاتَ أَو قُتِل فِي سَبِيلِ اللهِ فهُوَ شَهِيدٌ»[2]، و(مَنْ) هذِهِ عَامَّةٌ.

إِذَنْ: قُلْ كُلُّ مَنْ قُتِل فِي سَبِيلِ اللهِ فهُوَ شَهِيدٌ، لَكِن لَا تَقُلْ: فُلانٌ شَهِيدٌ؛ لأَنَّه قَدْ يَكُونُ دِفَاعُه فِي قَلبِهِ عَن حَمِيَّةٍ وعَصبيَّةٍ ومَا أَشْبه ذَلِك، لَكِن مَعَ الأَسَفِ الشَّدِيدِ أَنَّ كلمَةَ (شَهِيد) الْآنَ صَارَتْ رَخيصَةً، كَمَا كَانَتْ كلِمَةُ (شَيْخ) فتَجِدُ أَنَّه يُقَال للإِنسَانِ الَّذِي لَا يعرِفُ كُوعَهُ مِنْ كرسُوعِه، يُقَال لَهُ: شيْخٌ! ونجِدُ أَنَّ الَّذِي يجْلِسُ فِي مجْلِسٍ كُلُّهم عـوَامّ، ثُمَّ يقُومُ ويتكَلَّمُ بكَلَامٍ فَصِيحٍ بيِّن، وعَنْ شجَاعَةٍ فيقـولُون:

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد، باب من يجرح في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ، رقم (٢٨٠٣)، ومسلم: كتاب الإمارة، باب فضل الجهاد والخروج في سبيل الله، رقم (١٨٧٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) انظر: فتح الباري (٦/ ٩٠).

....

هَذَا العَالِمُ! هَذَا الجِهبِذُ الَّذِي لَا نَظِيرَ لَهُ! فيَكُونُ عندَهُم شَيْخَ الشُّيوخِ.

وكذَلِكَ سَهُلَتِ الْآنَ كلمَةُ (إمَام) فلَوْ كَتَب الإِنْسَانُ كِتَابًا مُختَصرًا مِنْ أبسَطِ مَا يكُونُ، وأقَلِّ مَا يكُونُ، قَالُوا: هَذَا إمَامٌ، مَعَ أنَّ الإمَامَ لَا بُدَّ أنْ يَكُونَ جِهْبِذًا، عَالِمًا كبِيرًا متبُوعًا، فليسَ كُلُّ إنسَانٍ يُؤلِّفُ كِتَابًا يُقَالُ لَهُ: إمَامٌ، ولذَلِكَ لـمَّا اختلَفَتِ المفَاهِيمُ، صَارَتِ الألقَابُ تُشوِّشُ فعِنْدما تَقرَأُ كِتَابًا صَغِيرًا أَلَّفَهُ أحدُ النَّاس، وتَقُولُ قَالَ: الإمَامُ فُلانُ بْنُ فُلانٍ، فيَظُنُّ السَّامِعُ أَنَّه إمَامٌ مِنْ أكَابِرِ العُلَماء، ولَا يجُوزُ أنْ نصِفَ الإِنْسَانَ بِمَا لَا يستَحِقُّ لأَنَّ فِيهِ شَيْئًا مِنَ الكَذِبِ.

وعَلَى كُلِّ حَالٍ: الْآنَ رَخُصَتْ كلمَةُ (شهِيد)، حتَّى يُقَالَ للإنسَانِ إِذَا قتَلَ نفسَهُ إنَّه شهِيدٌ، فمَثلًا الَّذِين يضَعُونَ المُتفجِّرَاتِ فِي بُطُونِهم، ويمُوتُونَ بِهَا، يُقَالُ عِند بَعْضِ النَّاس: إنَّه شَهِيدٌ، ونَحْن نَقُول: إنَّه يُعذَّبُ بِمَا قتَلَ بِهِ نفْسَهُ فِي نَارِ جهَنَّمَ، لكنَّنَا لَا نُعَيِّنه، بَل نبْرَأُ إِلَى اللهِ مِنْ هَذَا، ونَقُول: كُلُّ إنسَانٍ قتَلَ نفسَهُ فإنَّه يُعذَّبُ بِمَا قتَلَ نفْسَهُ فِي جهنَّم، أمَّا هَذَا الرَّجُلُ فَلَا نَقُول: إنَّه فِي جهَنَّمَ؛ لأَنَّه قَدْ يفْعَلُ هَذَا مُتأوِّلًا، ظَانًّا أنَّ هَذَا حَقٌّ، فهَذَا لَا يُعذِّبُه اللهُ عَزَّوَجَلَّ، أرَأَيْت أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قتَلَ مُشرِكًا بعْدَ أنْ أدرَكَهُ هَارِبًا، فقَال المُشرِكُ: «لَا إله إلَّا الله»، فقَتَلَهُ مُتأوِّلًا، يظُنُّ أَنَّه قَالَهَا تَعوُّذًا مِنَ القَتْلِ، وخَوفًا منْهُ، ونَحْن لَوْ وَقَعَتْ لنَا هذِهِ كُنَّا نظُنُّ كَمَا يظُنُّ أُسَامَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأَنَّه قَالَ ذَلِكَ تَعوُّذًا مِنَ القَتْلِ، لَكِنَّ الرَّسُول ﷺ وَبَّخَهُ وقَالَ مُكـرِّرًا علَيْه: «أَقتَلْتَهُ بَعْدَ أَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ!»[1]، حتَّى قَالَ أُسامَةُ: تمَنَّيْتُ أَنِّي لَـمْ

(١) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب بعث النبي ﷺ أسامة، رقم (٤٢٦٩)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب تحريم قتل الكافر بعد أن قال: لا إله إلا الله، رقم (٩٦)، من حديث أسامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أَكُنْ أَسْلَمْتُ؛ حتَّى يَكُونَ هَذَا الذَّنْبُ ممَّا يُغفَرُ لِي بالإِسْلامِ.

والمُهمُّ: أنَّ الشَّهادَةَ أمْرٌ مُهمٌّ وخَطِيرٌ جِدًّا، فإِذَا فعَلَ الإِنْسانُ فِعْلَةَ المُؤمِنِ التَّقِيِّ فقُلْ: أحسَبُه كَذَلِكَ واللهُ حَسِيبُهُ، وأَرْجُو لَهُ التَّوفِيقَ، أَرْجُو لَهُ الجَنَّةَ، أَرجُو لَهُ الثَّوابَ؛ حتَّى تَسلَمَ.

والحَمْدُ للهِ؛ فإِنَّه لَا يَضرُّه إِذَا لم يُشْهَد لَهُ بأَنَّه شَهِيدٌ -لَوْ كَانَ شَهِيدًا عِنْد اللهِ، ولَا ينْفَعُه إِذَا شَهدْنا أَنَّه شَهِيدٌ -وهُوَ لَيْسَ شَهِيدًا عِنْد اللهِ، إذَنْ: مَا الفَائِدَة أنْ نُعرِّضَ أنفُسَنا لشَيْءٍ مُحرَّمٍ عَلَيْنَا؛ لأَجْلِ إرْضَاءِ بَعْض النَّاس.

مَسْأَلَةٌ: بَعْضُ العُلَماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ قَالَ: إنَّ الأُمَّةَ إِذَا اتَّفقَتْ عَلَى الثَّناءِ لشَخْصٍ بأَنَّه مِنْ أَهْل الخَيْرِ والتَّقوَى والإِيمان فلَنَا أَنْ نشْهَدَ لَهُ بالجنَّةِ، مثْلَ الأئمَّةِ الأَرْبعَةِ، وسُفيَانَ الثَّوريِّ وسُفيانَ بْنِ عُيينَةَ وغَيرِهمْ مِنَ العُلَماء الَّذِين اتَّفقتِ الأُمَّةُ عَلَى الثَّناءِ علَيْهِم، قَالَ: إنَّه يجُوزُ أنْ نشهَدَ لهُمْ بالجَنَّةِ، واستَدَلَّ لذَلِكَ بقَوْلِ الرَّسُولِ ﷺ حِينَ مَرَّتْ جَنَازَةٌ فَأَثْنَوا عَلَيْهَا خيْرًا، قَالَ: «وَجبَتْ»، وَجنَازَةٌ أُخْرَى أَثْنَوا عَلَيْها شَرًّا قَالَ: «وَجبَتْ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا وَجبَتْ؟ قَالَ: «أَمَّا الأَوَّلُ فأَثْنَيْتُم علَيْه خيرًا، فوَجَبَتْ لَهُ الجَنَّةُ، وَأَمَّا الثَّاني فأَثْنَيْتُم علَيْه شرًّا، فَوَجَبَتْ لَهُ النَّارُ، أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللهِ فِي الْأَرْضِ»[1].

وممَّنْ ذَهَبَ إِلَى هَذَا المَذْهَبِ شَيْخ الإِسْلامِ ابْنُ تيمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ[2]، ولَكِن عَامَّةُ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب ثناء الناس على الميت، رقم (١٣٦٧)، ومسلم: كتاب الجنائز، باب فيمن يثنى عليه خيرا أو شرا من الموتى، رقم (٩٤٩)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (١١/ ٥١٨).

وَنَشْهَدُ بِالنَّارِ لِكُلِّ مَنْ شَهِدَ لَهُ الكِتَابُ وَالسُّنَّةُ، بِالعَيْنِ، أَوْ بِالوَصْفِ:

فَمِنَ الشَّهَادَةِ بِالعَيْنِ: الشَّهَادَةُ لِأَبِي لَهَبٍ، وَعَمْرِو بْنِ لُحَيٍّ الخُزَاعِيِّ، وَنَحْوِهِمَا[١].

المُؤَلِّفِين فِي العقَائِدِ لَا يذكُرونَ هَذَا الثَّالثَ، وهُوَ الذِي اتَّفقَتِ الأُمَّةُ عَلَى الثَّناءِ علَيْه أَوِ القَدْحِ فِيهِ.

وأَنَا أَقُولُ لكُمْ وأُكرِّرُ: أَيُّ فائِدَةٍ لشَهَادَةٍ أَشْهَدُ بِهَا وأَنَا بَيْنَ الإِثْمِ والسَّلامَةِ؟! فأَنَا إِذَا شَهِدْتُ لهَذَا الَّذِي اتَّفقَتِ الأُمَّةُ عَلَى الثَّناءِ علَيْه بأَنَّه مِنْ أَهْل الجَنَّةِ فأَنَا الآنَ بيْنَ الإِثْمِ والسَّلامَةِ، ولَيْسَ بَيْنَ الإِثْمِ والغَنيمَةِ، ولَوْ كَانَ بَيْنَ الإِثْمِ والغَنِيمَةِ لقُلْنَا: ننْظُر أَيُّهما أرجَحُ، ومعلُومٌ أَنَّ الإِنْسانَ سَوْفَ يُرجِّحُ جَانِبَ السَّلامَةِ عَلَى احْتِمالِ الإِثْمِ.

فنَحْنُ نَقُول: هَؤُلاءِ الأئِمَّةُ نَشْهَد لهُمْ بالخَيْرِ، وأَنَّهم يُرجَى أَنْ يكُونُوا مِنْ أَهْل الجَنَّةِ، ولَكِنَّ شهَادَتَنا لهُمْ بالجَنَّةِ لَا تُوجِبُ لهُمُ الجَنَّةَ لَوْ لَمْ يكُونُوا مِنْ أَهْلِهَا، وعدَمُ شهَادتِنا لهُمْ بالجَنَّةِ لَا تمْنَعُ دُخولَهُم الجنَّةَ لَوْ كَانُوا مِنْ أَهلِهَا، فالسَّلامَةُ أسلَمُ.

[١] قَوْلُهُ: «ونَشْهَدُ بالنَّارِ لكُلِّ مَنْ شَهِدَ لَهُ الكِتَابُ والسُّنَّة بالعَيْنِ أَو بالوَصْفِ، فمِنَ الشَّهادَةِ بالعَيْنِ الشَّهادَةُ لأَبِي لَهَبٍ» بأَنَّه مِنْ أَهْل النَّارِ؛ «نشْهَدُ» بدَلِيلِ القُرْآن، قَالَ تعَالَى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ [المسد:١-٣].

وكذَلِكَ أيْضًا: «عَمْرُو بنُ لُحَيٍّ الخُزَاعِيُّ» شهِدَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّه يجُرُّ قصْبه

وَمِنَ الشَّهَادَةِ بِالوَصْفِ: الشَّهَادَةُ لِكُلِّ كَافِرٍ أَوْ مُشْرِكٍ شِرْكًا أَكْبَرَ، أَوْ مُنَافِقٍ[١].

-أَي: أمعاءَهُ- فِي النَّارِ(١)، فنَشْهَدُ لَهُ، ونَقُول: عَمرُو بْنُ لُحَيٍّ الخُزَاعيُّ نشْهَدُ أَنَّه فِي النَّارِ.

وكذَلِكَ كُلُّ مَنْ شَهِدَ لَهُ رَسُولُ اللهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بعَيْنِه فِي النَّارِ فإنَّنا نشْهَدُ بِهِ.

[١] قَوْلُهُ: «ومِنَ الشَّهادَةِ بالوَصْفِ: الشَّهادَةُ لِكُلِّ كَافِرٍ، أَو مُشرِكٍ شِرْكًا أكْبَرَ، أَو مُنافِقٍ» فكُلُّ كَافرٍ فِي النَّارِ، وكُلُّ مُشرِكٍ شِرْكًا أكْبَرَ فهُو فِي النَّارِ، وكُلُّ مُنافقٍ فهُو فِي النَّارِ، وهَذَا عُمُومٌ نَشْهَدُ بِه، أمَّا عَلَى سَبيلِ التَّعيينِ فَلَا.

كَمَا يُوجَدُ الْآنَ رُؤسَاءُ كفَرَةٌ يمُوتُونَ، فهَل نشْهَدُ لهُمْ أنَّهُم فِي النَّارِ بعَينِهِمْ؟

الجَوابُ: أنَا أَرَى أنَّ الاحتِيَاطَ وبرَاءَةَ الذِّمَّةِ أنْ لَا نشْهَدَ، ولَيْسَ شَهَادَتُنا لهَذَا بالنَّارِ -فِي التَّحرُّز منْهَا- كشَهَادَتِنَا لكَافِرٍ مُعلِنٍ كفْرَهُ -لَكِن مَا مَاتَ عَلَى الكُفْرِ- فهَذَا رُبَّما يُهدَى فِيمَا بعْدُ، لَكِنْ إنسَانٌ مَاتَ عَلَى الكُفْرِ ونشْهَدُ أنَّه إلَى آخِرِ لحْظَةٍ مِنْ حَيَاتِهِ: مَا علمْنَا أنَّه أسْلَمَ، فالشَّهادَةُ لهَذَا بالكُفْرِ قَريبَةٌ، لَكِن مَعَ هَذَا نَقُول: الاحتِيَاطُ أَلَّا تشْهَدَ، فإِنَّ شهَادَتَكَ لَهُ بالنَّارِ إِنْ كَانَ لَيْسَ مِنْ أهلِهَا فلَنْ تُؤثِّر، وإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِهَا فَلَا حَاجَةَ لشَهَادَتِكَ، فهُو مِنْ أَهْلِ النَّارِ، لهَذَا نَرَى أَنَّ الشَّهادَةَ بالنَّارِ لكَافِرٍ عَلَى قَيْدِ الحيَاةِ لَا تجُوزُ بِلَا شَكٍّ؛ لاحتِمَالِ أن يُسْلِم، وكَمْ مِنْ كَافِرٍ أَسْلَمَ، أَمَّا إِذَا مَاتَ عَلَى الكُفْرِ ولَمْ نعْلَمْ أَنَّه قَالَ يومًا مِنَ الدَّهْرِ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» فهَذَا أَيْضًا لَا نشْهَدُ لَهُ بالنَّارِ احتيَاطًا. ومعلُومٌ أنَّ الحُكْمَ الاحتيَاطيَّ لَيْسَ كالحُكمِ المَجزُومِ بِهِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التفسير، باب ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ﴾، رقم (٤٦٢٣)، ومسلم: كتاب الجنة، باب النار يدخلها الجبارون، رقم (٢٨٥٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَنُؤْمِنُ بِفِتْنَةِ القَبْرِ: وَهِيَ سُؤَالُ المَيِّتِ فِي قَبْرِهِ عَنْ رَبِّهِ وَدِينِه وَنَبِيِّه[١]،......

فإِنْ قِيلَ: إِذَا حكَمْنا عَلَى يهُودِيٍّ أَو نصرَانيٍّ بأَنَّه كَافِرٌ، فهَلْ يلزَمُ مِنْ ذَلِكَ أَنْ يدْخُلَ النَّارَ بِدُونِ تُردُّد؟

فالجَوابُ: نعَمْ، ولَا شَكَّ فِيهِ؛ لأَنَّ الرَّسُول ﷺ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ ثُمَّ لَا يُؤْمِنُ بِمَا جِئْتُ بِهِ إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ»(١)، فنَصَّ عَلَى اليَهودِيِّ والنَّصرانيِّ، لَكِن لَا نجْزِمُ بأَنَّ هَذَا الرَّجُل بعَينِهِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ.

لَكِن كُلُّ يهُودِيٍّ فهُو فِي النَّارِ وكُلُّ نصْرَانيٍّ فهُو فِي النَّارِ، كَمَا نَقُول: كُلُّ مُؤْمِنٍ فهُو فِي الجَنَّةِ، لَكِن لَا نشْهَدُ لشَخْصٍ مُعيَّن بأنَّه مِنْ أَهْل الجَنَّةِ؛ وإِنْ كُنَّا نَرى مُؤْمِنًا يُقِيمُ الصَّلاةَ ويُؤتِي الزَّكاةَ ويُحبُّ اللهَ ورسُولَهُ فَلَا نجْزِمُ بعَينِهِ، ففَرْقٌ بَيْنَ الشَّهادَةِ بالعَيْنِ والشَّهادَةِ بالوَصْفِ.

[١] قَـوْلُهُ: «ونُؤمِـنُ بفِتْنَةِ القَبْرِ: وهِيَ سُـؤَالُ المَيِّتِ فِي قَبْرِهِ عَـنْ رَبِّه، ودِينِهِ، ونَبيِّهِ» نُؤْمِن بِهَا حقًّا؛ لأَنَّ القُـرْآن أَشَـارَ إِلَيْهَا، والنَّبِـيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بيَّنَها بيَانًا وَاضِحًا.

وفِتْنَةُ القَبْرِ: أَنَّ الإِنْسانَ يُسأَلُ فِي قَبرِهِ: مَنْ رَبُّك؟ ومَا دِينُك؟ ومَنْ نَبيُّك؟ ثَلاثُ مسَائِلَ، وعلَيْها بَنَى شَيْخُ الإِسْلام مُحَمَّد بنُ عبْدِ الوَهَّابِ رسَالَتَهُ الصَّغيرَةَ المُباركَةَ وهِيَ: (ثَلاثَةُ الأُصولِ) أَو (الأُصُولُ الثَّلاثَةُ).

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ، رقم (١٥٣)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فـ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْآخِرَةِ ﴾[١] [إبراهيم:٢٧] فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ: رَبِّيَ اللهُ، وَدِينِي الإِسْلَامُ، وَنَبِيِّي مُحَمَّدٌ، وَأَمَّا الكَافِرُ وَالْمُنَافِقُ فَيَقُولُ: لَا أَدْرِي! سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا فَقُلْتُهُ[٢].

---

[١] قَوْلُهُ: «فـ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْآخِرَةِ ﴾» نسأَلُ اللهَ عَزَّوَجَلَّ أَنْ يجعَلَنا وإِيَّاكُمْ مِنْهُمْ، يُثَبِّتُهم اللهُ بالقَوْلِ الثَّابتِ وهُوَ قَولُ الحَقِّ: ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْآخِرَةِ ﴾، قَوْلُهُ: ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ﴾ الظَّاهِرُ أَنَّها مُتعلِّقَةٌ بـ﴿ يُثَبِّتُ ﴾، يَعْنِي: أَنَّ اللهَ يُثَبِّتُهم بالقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الحَيَاةِ، وهَذَا أحسَنُ مِنْ أن نَقُولَ: إنَّهَا مُتعلِّقَةٌ بـ: ﴿ٱلثَّابِتِ﴾، بَل نَقُولُ مُتعلِّقَةٌ بـ﴿ يُثَبِّتُ ﴾ فِي الحَياةِ الدُّنيا وفِي الآخِرَةِ، ولـهَذَا كَانَ الْمُؤمِنُون حقًّا تُثبَّتُ أقدامُهم عِنْد الجِهادِ، فَلَا يَفِرُّونَ، ولَا يَنهزِمُون.

[٢] قَوْلُهُ: «**فَيَقُولُ المُؤمِنُ: رَبِّيَ اللهُ، وَدِينِي الإِسْلَامُ، ونَبِيِّي مُحَمَّد** ﷺ، **أَمَّا الكَافِرُ والمُنافِقُ فيَقُولُ: لَا أَدْرِي، سَمِعْتُ النَّاس يقُولُونَ شَيْئًا فقُلْتُهُ**» وَرَدَ الحَدِيثُ بلفْظِ: «**وأَمَّا الكَافِرُ أَوِ المُنافِقُ**»(١) وإذَا طَبَّقْتَ هَذَا الجَوابَ، وهُوَ قَوْلُهُ: «**سَمِعْتُ النَّاسَ يقُولُونَ شَيْئًا فقُلْتُه**»، وجدْتَهُ ينطَبِقُ عَلَى المُنافِقِ.

فالمُنافِقُ يُسْأَلُ لَكِن لَا يستَطِيعُ أَنْ يُجِيبَ -حتَّى وإِنْ كَانَ فِي الدُّنيَا يُجِيبُ بأفصَحِ عِبَارَةٍ-، ولَكِن فِي القَبْرِ لَا يُجِيبُ، يَقُولُ: «هَاهْ، هَاهْ، لَا أَدْرِي»، وتَأَمَّل فِي

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب الميت يسمع خفق النعال، رقم (١٣٣٨)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وأخرجه البخاري: كتاب الكسوف، باب صلاة النساء مع الرجال في الكسوف، رقم (١٠٥٣)، ومسلم: كتاب الكسوف، باب ما عرض على النبي ﷺ في صلاة الكسوف، رقم (٩٠٥)، من حديث أسماء بنت أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، بلفظ: «وأما المنافق، أو المرتاب».

وَنُؤْمِنُ بِنَعِيمِ القَبْرِ لِلْمُؤْمِنِينَ: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[1] [النحل:٣٢].

قَوْلِهِ: «هَاه، هَاه» تجِدْه كأنَّه يعلَمُ الشَّيْء ولكِنَّه نَسِيَهُ، أَو عجزَ عَنِ النُّطقِ بِه، وهَذَا يَكُونُ أَشَدَّ حَسْرَةً مِمَّا لَوْ كَانَ لَمْ يَعْرِفْهُ، فلَوْ ضَاعَت لَكَ مِئَةُ رِيالٍ مثلًا كَانَ ذَلِك أَشَقَّ علَيْك مِمَّا لَوْ لَمْ تَملكْهَا مِنْ قَبْلُ، وهكَذَا العِلْم إِذَا أَضَعْتَه بعْدَ حُصُولِهِ صَارَ أَشَدَّ علَيْك مِمَّا لَوْ لَمْ تُدرِكْه أَوَّلًا.

إِذَنِ: الَّذِي يَظْهَرُ أَنَّ الَّذِي يُسْأَلُ هُو المُؤمِنُ والمُنافِقُ، أَمَّا الكَافِرُ فَلَا يسْأَلُ؛ لأَنَّه لَا حَاجَةَ لسُؤالِهِ؛ لأَنَّ الامتحَانَ إِنَّمَا هُو للاختِبَارِ، والكَافِرُ ساقِطٌ مِنْ أَصْلِهِ، ولذَلِكَ فالكُفَّار يَوْم القِيامَة لَا يُحاسَبُون، وإِنَّما تُنشَرُ أعمالُهم، ويُخْزَوْنَ بِهَا، ويقَالُ: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لَكِن لَوْ ثَبتَ عَنِ الرَّسُول ﷺ ثُبُوتًا صَرِيحًا لَا شَكَّ فِيهِ أَنَّ الكَافِرَ يُسْأَلُ فنَقُول: سَمِعْنَا، وصَدَّقْنا، وآمَنَّا، أمَا ولفْظُ الحَدِيثِ هكَذَا: «**سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا فَقُلْتُه**» فإِنْ ذَلِك إِنَّما يَكُون جَوابًا مِمَّن قَالَ ذَلِك، وهُوَ المُنافِقُ الَّذِي لَمْ يَصِل الإِيمَان قَلْبه، ثُمَّ المَعنَى يقْتَضِي أَلَّا يُسأَلَ الكَافِرُ؛ لأَنَّ السُّؤالَ للاختِبَارِ والامتحَانِ، والكَافِرُ سَاقِطٌ مِنَ الأَصْلِ، نسأَلُ اللهَ أَنْ يُثبِّتَنا وإِيَّاكُم بالقَولِ الثَّابتِ فِي الحَيَاةِ الدُّنيا وفِي الآخِرَةِ.

[١] قَوْلُهُ: «وَنُؤْمِنُ بنَعِيم القَبْرِ للمُؤمنِينَ»؛ مِنْ عَقِيدَةِ أَهْلِ السُّنَّة والجَماعَةِ: إِثْبَاتُ نَعِيمِ القَبْرِ، ودَلِيلُهُ: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ هَؤُلاءِ الَّذِين تتوفَّاهُمُ المَلائِكَةُ طَيِّبِينَ: أَي: طيِّبِينَ فِي العَقِيدَةِ، طَيِّبِي العَمَلِ، يقُولُونَ -أَيِ المَلائِكَةُ- حَالَ تَوفِّيهِمْ: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، أَي: فِي ذَلِكَ اليَوْمِ.

فإذا قَالَ قَائِل: يُشْكِل عَلَى هَذَا: أَنَّ الميِّتَ المُؤمِنَ يُدفَنُ فِي الأرْضِ، فكَيْف تَقُولُ المَلائِكَةُ: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ﴾؟

قُلْنا: لأَنَّه ثَبَتَ فِي الحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «أَنَّهُ يُوَسَّعُ لِلإِنْسَانِ المَيِّتِ فِي قَبْرِه، وَأَنَّهُ يُفْتَحُ لَهُ بَابٌ إِلَى الجَنَّةِ، فَيَأْتِيهِ مِنْ رَوْحِهَا وَنَعِيمِهَا مَا تَقَرُّ بِهِ عَيْنُهُ»[1]. نسْأَلُ اللهَ أَنْ يجعَلَنِي وإيَّاكُم مِنْهُمْ.

وقَوْلُهُ تعَالَى: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ الباءُ هُنَا للسَّببيَّةِ، فإنْ قُلْتَ: إنَّهَا للسَّببيَّةِ فقَدْ سَلِمْتَ، وإنْ قُلْتَ: إنَّها للعِوَضِ أَشْكَلَ علَيْك هَذَا مَعَ قَوْلِ النَّبيِّ ﷺ: «لَنْ يَدْخُلَ الجَنَّةَ أَحَدٌ بِعَمَلِهِ». قَالُوا: ولَا أنت يَا رَسُول الله؟ قَالَ: «وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بِرَحْمَتِهِ»[2]، وفِي القُرْآنِ الكَرِيمِ آيَاتٌ مُتعدِّدةٌ، يقُولُ اللهُ تعالَى فِيها: ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾.

فنَقُـول: مَا أَسْهَـلَ الجَمْعَ بَيْنَ هَذَا الحَديث وبَيْنَ الآيَات! فـالبَاءُ فِي الآيَات للسَّببيَّة، يَعْني: بِسَبَبِ العَمَل، والبَاءُ فِي الحَدِيثِ للمُعَاوضَةِ، كَما تَقُولُ: اشْتَريتُ منْكَ الثَّوبَ بدِرْهمٍ، فَلَا يُمْكِن لأَحدٍ أنْ يَدْخُلَ الجَنَّةَ عِوَضًا عَنْ عَمَلِهِ، ولَكِن يَدْخُلُ الجَنَّةَ بسَبَبِ عمَلِهِ، والفَرْقُ ظَاهِرٌ.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٤/ ٢٨٧)، وأبو داود: كتاب السنة، باب في المسألة في القبر وعذاب القبر، رقم (٤٧٥٣)، من حديث البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب المرضى، باب تمني المريض الموت، رقم (٥٦٧٣)، ومسلم: كتاب صفة القيامة، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله تعالى، رقم (٢٨١٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

....

وَلَو أنَّ اللهَ تَعَالَى أرَادَ أنْ يُعاوضَكَ واللهِ لتَخسرَنَّ خسَارَةً مُؤكَّدةً؛ لأنَّكَ لَوْ أحصيْتَ مَا أنعمَ اللهُ بِهِ علَيْك بنوعٍ واحِدٍ مِنَ النِّعمِ، لَكَانَ يَستَغْرِقُ جَمِيع أعمَالِك، فمَثلًا النَّفَس الَّذِي لَا يَشُقُّ عَلَيْك، ولَا يُتعِبُك ولَا يُكلِّفُك هُو نعمَةٌ كَبِيرَةٌ عظِيمَةٌ، لَا يَعرِفُ قَدْرَها إلَّا مَنِ ابْتُلِي بضِيقِ النَّفَس، فهَذِهِ النِّعمَةُ لَوْ أنَّها قُوبِلَتْ بعَمَلِ الشَّخْصِ فكَمْ نِسْبَةُ عَملِكَ بالسَّاعاتِ؛ يَعْني هل هي ثلَاثُ ساعَاتٍ فِي اليَومِ واللَّيلَةِ، وقَد تكُون أربَعًا، وقد تكُون خَمْسًا؛ وقَدْ يَستَغرِقُ الإِنْسَانُ وقتَهُ كُلَّه فِي طَاعَةِ اللهِ؛ حتَّى النَّومُ فإنَّهُ يَنامُ لِيَستَعينَ بِهِ عَلَى طَاعَة الله ويُرِيحَ جِسْمَهُ ويُعطِي نفْسَهُ حَظَّهَا، وبِهَذَا يَكُون النَّومُ عبادَةً.

وحَقِيقَةً؛ فالمُوفَّقُ يَستَطِيعُ أنْ يجعَلَ أوْقَاتَهُ وحَرَكَاتِهُ وسَكَنَاتِهُ جَمِيعَها عبادَةً، فإنْ أكَلَ نَوَى بذَلِك التَّنعُّمَ بكَرَمِ الله وبفَضْلِ اللهِ، واللهُ تَعَالَى يُحبُّ مِن عبْدِهِ إذَا أنعَمَ علَيْه نعمَةً أنْ يَرَى أثَرَ نِعْمَتِهِ علَيْه، فيَنْوِي بأَكْلِهِ وطَعَامِهِ وشَرَابِهِ التَّقوِّيَ عَلَى طَاعَة اللهِ، فصَارَ ذَلِك عبادَةً، ويَنْوِي بذَلِك القِيامَ بوَاجِبِ نفْسِهِ؛ لأَنَّ الإِنْسان يجِبُ علَيْه أن يُراعِيَ نفْسَهُ، حتَّى إنَّه إِذَا جَاعَ وخَافَ المَوْتَ وَجَبَ علَيْه أن يَأكُلَ وُجُوبًا، فإنْ قَالَ: لَا يجِبُ، وأَنَا صَابِرٌ عَلَى المَوْتِ، قُلنا: بَل يجِبُ أنْ تَأكُلَ لتُؤدِّيَ النفْسُ حقَّها، فصَارَ أكْلُكَ الْآنَ عِبادَةً، وكَذَا اللِّباسُ؛ فإنَّكَ تَلْبَسُ الثَّوبَ تَستُرُ عَورتَكَ ولتتَنعَّمَ بِهِ بالوِقَايَةِ مِنَ البَردِ أَو الحَرِّ، قالَ تَعالَى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ [النحل:٨١] إلَى آخرِهِ.

المُهمُّ: واللهِ إنَّه تفُوتُ علَيْنا أشياءُ كثِيرَةٌ، تَضِيعُ علَيْنا، وكُلُّه بِسَببِ الغَفْلَة عَن النِّيَّةِ، وإلَّا فلَوِ استحْضَرْنا النِّيَّةَ لكَانَتْ كُلُّ حركَاتِنا وسَكَنَاتِنا عبادَةً نُثابُ علَيْهَا.

وَنُؤْمِنُ بِعَذَابِ القَبْرِ لِلظَّالِمِينَ الكَافِرِينَ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾[1] [الأنعام:٩٣].

أَقُولُ: لَوْ أَنَّ أَحَدًا قَابَلَ نعْمَةَ اللهِ نَوْعًا وَاحِدًا مِنْ نعْمَةِ اللهِ علَيْك بعَمَلِكَ الصَّالح لاستَغْرَقَ كُلَّه.

ثُمَّ نَقُول -كَمَا قَالَ بَعْضُ العُلَمَاءِ-: إنَّ تَوفِيقَكَ للشُّكرِ نعْمَةٌ تَستَوجِبُ الشُّكرَ؛ لأَنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاس حُرِمَ الشُّكر، فإِذَا أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْك ووَفَّقَكَ لشُكْرِ النِّعمَةِ، واستَعَمَلْتها فِي طَاعَةِ مَولَاكَ فهَذِهِ نعْمَةٌ تحتَاجُ إِلَى شُكْرٍ، وفِي هَذَا يَقُولُ الشَّاعِرُ(١):

إِذَا كَانَ شُكْرِي نِعْمَةَ اللهِ نِعْمَةً ... عَلَيَّ لَهُ فِي مِثْلِهَا يَجِبُ الشُّكْرُ

فَكَيْفَ بُلُوغُ الشُّكْرِ إِلَّا بِفَضْلِهِ ... وَإِنْ طَالَتِ الْأَيَّامُ وَاتَّصَلَ الْعُمْرُ

[١] قَوْلُهُ: «ونُؤمِنُ بعذَابِ القَبْرِ للظَّالمِينَ الكَافِرينَ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾».

قَوْلُهُ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ أَي: لَوْ تَرى هَؤُلاءِ لرَأَيْتَ أَمْرًا عَجبًا، فجَوَابُ «لَوْ» مَحْذُوفٌ، ويُحذَفُ فِي مِثْلِ هَذَا لِيَذْهَبَ الذِّهْنُ كُلَّ مَذْهَبٍ فِي تَقْدِيرِهِ.

وقَوْلُهُ: ﴿إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ المُرادُ بِهِمُ الكَافِرُونَ؛ لقَوْلِهِ تعَالَى: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة:٢٥٤].

---

(١) البيتان لمحمود بن الحسن الوراق، انظر: الفاضل للمبرد (ص:٩٥)، والصناعتين لأبي هلال العسكري (ص:٢٣٢).

....

وقَوْلُهُ: ﴿فِي غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ﴾ أيْ: فِي السَّكرات الَّتي تَغمرُهُم.

وقَوْلُهُ: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ﴾ أَيِ: المَلائِكَة الَّذِين كُلِّفُوا بقَبْضِ أروَاحِهم مَادُّو أيْدِيهم.

وقَوْلُهُ: ﴿أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ﴾ هَذَا يدلُّ عَلَى أنَّهم شَحيحُون جِدًّا فِي نُفُوسِهم، ولَا يَودُّون أنْ تَخْرُجَ نُفوسُهم؛ لأنَّهُم -والعِياذُ باللهِ- يُبشَّرُون بغَضب مِنَ اللهِ، وعِقَابٍ مِنَ اللهِ، فتَنفِرُ النَّفسُ، وتتفرَّق فِي الجَسَدِ، هَرَبًا ممَّا أُنذرَتْ بِهِ، يقُولُون: ﴿أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ﴾ أعطُونَا إيَّاهَا! وتَصوَّر هَذَا المشْهَدَ، وكَأَنَّ هَؤُلاءِ لَا يُرِيدُونَ أنْ يُعطُوا أنفُسَهم للمَلائِكَة!.

ثُمَّ قَالَ تعَالَى: ﴿ٱلْيَوْمَ﴾، «أل» للعَهْدِ الحُضُوريِّ: أَيْ يَوْم تَأْتِي المَلائِكَة لقَبْضِ أرْواحِهم: ﴿تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ أَي: تجْزَونَ عَذَابَ الذُّلِّ: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾، بسَببَينِ:

الأَوَّلُ: الكَذِبُ عَلَى اللهِ.

والثَّاني: الاستكبَارُ عَن عِبَادَةِ اللهِ، والبَاءُ هُنَا السَّببيَّةِ.

فهَذَانِ دَليلَانِ مِنَ القُرْآن عَلَى نَعِيمِ القَبْرِ وعَلَى عَذَابِهِ، وهُنَاكَ أدلَّةٌ أُخرَى.

أمَّا السُّنَّةُ: فقَدْ تَواتَرَتْ بذَلِكَ تَواتُرًا لَا نَظِيرَ لَهُ، فإنَّ جَمِيعَ الأحَادِيثِ الوَاردَةِ فِي التَّواتُر لَا يُمْكِن أنْ تَكُونَ كأحَادِيثِ عَذَاب القَبْرِ؛ لأَنَّ عَذَابَ القَبْرِ كُلُّ النَّاسِ يَقُولُه، فكُلُّ مُسلِمٍ يقُولُ فِي صَلاتِهِ: أَعُوذُ باللهِ مِنْ عَذَابِ جهَنَّمَ، ومِنْ عَذَابِ القَبْرِ؛ لأَمْرِ النَّبيِّ ﷺ بذَلِكَ، فهُوَ يُشْبِهُ أنْ يَكُونَ كتَواتُرِ القُرْآن، الَّذِي يقْرَؤهُ الصَّغيرُ والكَبيرُ.

وَالأَحَادِيثُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ مَعْلُومَةٌ.

فَعَلَى الْمُؤْمِنِ أَنْ يُؤْمِنَ بِكُلِّ مَا جَاءَ بِهِ الكِتَابُ وَالسُّنَّةُ مِنْ هَذِهِ الأُمُورِ الغَيْبِيَّةِ[١]، وَأَلَّا يُعَارِضَهَا بِمَا يُشَاهِدُ فِي الدُّنيا[٢]، فَإِنَّ أُمُورَ الآخِرَةِ لَا تُقَاسُ بِأُمُورِ الدُّنيا لِظُهُورِ الفَرْقِ الكَبِيرِ بَيْنَهُمَا، وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ[٣].

---

[١] يَقُول الْمُؤلِّف: «والأَحَادِيثُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ معْلُومَةٌ، فعَلَى المُؤمِن أنْ يُؤمِنَ بكُلِّ مَا جَاءَ بِهِ الكتَابُ والسُّنَّة مِنْ هذِهِ الأُمُورِ الغَيبِيَّةِ» حتَّى يَكُونَ مِنَ الْمُؤمنِينَ حَقًّا، والْمُؤمنُونَ: هُمُ الَّذِين يُؤمنُون بالغَيْبِ.

[٢] قَوْلُهُ: «وأَلَّا يُعارِضَها بِمَا يُشاهِدُ فِي الدُّنيَا» لأَنَّ بَعْض النَّاس -والعِيَاذُ باللهِ- يُنكِرُ عذَابَ القَبْرِ، وفتْنَةَ القَبْرِ، ويقُولُ: كَيْف يَكُونُ هَذَا، ونَحْن نَحْفُر القَبْرَ فِي أوَّلِ يَوْم أَو ثَانِي يَوْم بعْدَ وَضعِ المَيِّتِ فِيه، ونجِدُ أَنَّ القَبْرَ هُوَ هُوَ لَمْ يُوسَّعْ، ولَيْسَ فِيهِ آثَارُ عذَابٍ، ونجِدُ أَنَّ البَدَنَ كذَلكَ لَمْ يتغَيَّرْ، وكيفَ يُقعَد الإِنْسانُ فِي قَبْرِهِ، وهُوَ يوضَعُ علَيْه اللَّبِن؟! ومَا أَشْبه ذَلِك، فيَقيسُونَ أُمُور الآخِرَة بأُمُور الدُّنيَا، وهَؤُلَاءِ ليسُوا بمُؤمِنِينَ؛ لأَنَّهُم لَا يُؤمِنُون إِلَّا بِمَا يُشاهِدُون، فلَيْسُوا مُؤمِنِينَ بالغَيْبِ؛ بَلِ الْمُؤمِنُ بالغَيْبِ يقُولُ فِيمَا أَخبَرَ اللهُ بِهِ ورَسُولُهُ: حَقًّا حَقًّا حقًّا، أَمَّا هَؤُلاءِ -والعِيَاذُ باللهِ- فهُمْ قَومٌ مُلحِدُون، لَا يُؤمِنُونَ إِلَّا بِمَا يُشاهِدُونَ.

فنَقُول: نَحْن لَا نُعارِضُ هَذَا بِمَا نُشاهدُه فِي أُمُور الدُّنيَا؛ لأَنَّ أُمُورَ الآخِرَةِ لَا تُقَاسُ بأُمُور الدُّنيا؛ لظُهُورِ الفَرْقِ؛ وهُوَ ظَاهِرٌ.

[٣] قَوْلُهُ: «فَإِنَّ أُمُورَ الآخرَة لَا تُقَاسُ بأُمُورِ الدُّنيا؛ لظُهورِ الفَرْقِ الكَبيرِ بينَهُما. واللهُ المستَعَانُ» علَى أَنَّنا نَقُول لـهَؤُلاءِ: أَلَيْسَ الوَاحِدُ منْكُمْ فِي مَنَامِهِ يرَى فِي الرُّؤيَا أَنَّه

قَدْ زَارَ أصْدِقاءَه، وأَنَّه قَدْ وَصَل البَلَدَ الفُلَانيَّ، وأَنَّه قَامَ؛ وهُوَ عَلَى فِرَاشِهِ لم يتَغَيَّرْ، حتَّى لحَافُهُ لَمْ يَسقُطْ عَن ظَهْرِهِ، ومَعَ ذَلِكَ يَرَى أشْيَاءَ كَثِيرَةً، مَعَ أنَّ تَعلُّقَ الرُّوح بِالبَدَنِ فِي المنَام أقْوَى مِنْ تَعلُّقِ الرُّوح بالبَدَنِ بعْدَ المَوْتِ، فإِذَا كَانَ هَذَا للرُّوحِ فِي حَالِ الوَفَاةِ الصُّغرَى، فَمَا بَالُكَ فِي الميتَةِ الكُبْرَى؟!

فالمُهمُّ: أنَّه يجِبُ علَيْنا -فِيمَا يتعَلَّقُ بأُمُورِ الآخِرَةِ- أن نُؤْمِنَ ونُسلِّمَ، ولَا نَقُول: «كيفَ؟» و«لِـمَ؟» النَّاسُ يَوْمَ القِيامَة فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، تَرَى المُؤمِنِينَ يسعَى نُورُهم بَيْنَ أيدِيهِمْ وبأَيْمانِهِمْ، والكَافِرُون فِي ظُلمَةٍ لَيْسَ عنْدَهُم نُورٌ، والمقَامُ وَاحِدٌ، والزَّمَنُ واحِدٌ، لَكِنَّ أُمُورَ الآخِرَةِ لَا تُقَاسُ أَبَدًا بأُمُورِ الدُّنيَا، ولهَذَا قَالَ: «لِظُهُورِ الْفَرْقِ بينَهُمَا واللهُ المستعَانُ»، وهَذَا هُوَ الفَرْقُ بيْنَ المُؤمِن حقًّا، والمُنكِرِ والمُتردِّدِ، المُؤمِنُ يقولُ: سمعْنَا، وصَدَّقْنا، وآمَنَّا، وهَذَا حَقٌّ ولَا إِشْكَالَ فِيهِ، والمُلحِدُ يتَرَدَّدُ أَو يُنكِرُ.



فَصْـلٌ

وَنُؤْمِنُ بِالقَدَرِ: خَيْرِهِ وَشَرِّهِ، وَهُوَ تَقْدِيرُ اللهِ تَعَالَى لِلْكَائِنَاتِ حَسْبَمَا سَبَقَ بِهِ عِلْمُهُ وَاقْتَضَتْهُ حِكْمَتُهُ[١].

---

[١] قَوْلُهُ: «ونُؤمِنُ بالقَدَرِ خَيرِهِ وشَرِّهِ، وهُوَ تَقْدِيرُ اللهِ تَعالَى للكائِنَاتِ حَسْبما سَبَقَ بِهِ علْمُهُ واقتضَتْهُ حِكْمَتُهُ» نُؤْمِنُ بالقَدَرِ خَيرِهِ وشَرِّهِ؛ لقَوْلِ الرَّسُولِ ﷺ في حديثِ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «الْإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، ومَلائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، ورُسُلِهِ، واليَوْمِ الآخِرِ»(١)، وقَدْ تقَدَّمَ الكَلَامُ -وللهِ الحَمْدُ- عَلَى هذِهِ الخَمْسِ، وبَقِيَ السَّادِسُ: وهُوَ الإِيمانُ: «بِالقَدَرِ خَيْرِهِ وشَرِّهِ».

فالإِيمَانُ بالقَدْرِ وَاجِبٌ؛ لأَنَّهُ مِنَ الإِيمَانِ باللهِ، والقَدَرُ هُوَ تَقْدِيرُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى للكَائنَاتِ، حسْبَما تَقْتضِيهِ حِكمَتُهُ وعِلْمُه.

وقَوْلُهُ: «خَيْرِهِ وشَرِّهِ» فالمُقدِّرُ للخَيْرِ هُوَ اللهُ تعالى، والمُقدِّرُ للشَّرِّ هُوَ اللهُ، فكُلُّ مَا فِي الكَوْنِ مِنْ خَيْرٍ وشَرٍّ، ونِعَمٍ وبَلَاءٍ، وفَقْرٍ وغِنًى، وعِزٍّ وذُلٍّ، وإِيمَانٍ وكُفْرٍ، كُلُّه مِنَ اللهِ، لَا يُوجَدُ شَيْء خَرَجَ عَنْ مُلكِهِ.

لَكِن يبْقَى النَّظَرُ: كَيْف يَكُونُ الشَّرُّ مِنَ اللهِ؟!

نَقُولُ: نعَمْ، يَكُونُ الشَّرُّ مِنَ اللهِ، لكنَّه لَيْسَ إِلَى اللهِ؛ لقَوْلِ النَّبيِّ ﷺ في دُعَاءِ

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام، رقم (٨)، من حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

....

الاستِفْتَاحِ: «وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ»(١).

وانْتَبِهْ للفَرْقِ الدَّقِيقِ بَيْنَ قَوْلِكَ: «الشَّرُّ مِنَ اللهِ»، و«الشَّرُّ لَيْسَ إِلَى اللهِ»:

فقَولُ: «الشَّرُّ مِنَ اللهِ» يَعْنِي أَنَّ هذِه الشُّرورَ الَّتِي يُحدِثُها اللهُ عَزَّوَجَلَّ شُرُورٌ خلَقَها اللهُ، مِثْلَ الحَرِيقِ الَّذي يُتلِفُ أَمْوَالًا وأَنْفُسًا شَرٌّ خَلَقَهُ اللهُ، والعَواصِفُ المُدمِّرةُ خلَقَها اللهُ، والفَيضَانَاتُ المُغرِقَةُ خلَقَهَا اللهُ، والأَوْبِئَةُ المُهلِكَةُ خلَقَها اللهُ وكُلُّها شَرٌّ، والمَعَاصِي، والكُفْرُ، والإِلحَادُ، والتَّطاحُنُ بَيْنَ المُؤمِنِينَ والكُفَّارِ شَرٌّ لَكِنْ خَلَقَهُ اللهُ، إِذَنْ: كُلُّ شَيْءٍ مِنَ اللهِ تعالى.

لَكِنَّ «الشَّرَّ لَيْسَ إِلَيْهِ»، بمَعْنَى أَنَّ هَذَا الشَّرَّ الكَائِنَ فِي المَخْلُوقِ لَيْسَ شرًّا بالنِّسْبة لِفعْلِ اللهِ؛ لأَنَّ اللهَ تَعَالَى لَا يُقدِّرُه إِلَّا لِحِكْمَةٍ، فإِذَا كَانَ تَقْدِيرُهُ لِحِكْمَةٍ كَانَ خَيرًا بالنِّسْبةِ للغَايَة الحمِيدَة، فالإِنْسانُ قَدْ يُصابُ بالمَرَضِ ويتَأَذَّى بِهِ ويَشُقُّ علَيْه، لَكِنَّ هَذَا المَرَضَ رُبَّما يَكُون سَبَبًا فِي اسْتِقَامَتِهِ؛ لأَنَّ الإِنْسَانَ لَا يُمْكِن أَنْ يَعْرِفَ قَدْرَ الصِّحَّةِ تمَامًا حتَّى يُصَابَ بالمَرَضِ:

فأَنْتَ الْآنَ تتنَفَّسُ بسُهُولَةٍ، وتتكَلَّمُ بسُهُولَةٍ، وتَقْضِي حَاجتَكَ بسُهُولَةٍ، لَكِن لَوْ أُصِبْتَ بعَائِقِ ضِيقِ التَّنفُّس عَرَفْتَ قَدْرَ نعْمَةِ اللهِ علَيْك بالنَّفَسِ، ولَو أُصِبْتَ بحَبْسِ البَوْل عَرَفْتَ نِعْمَةَ اللهِ علَيْك بسُهُولَةِ إِخْرَاجِهِ، ولَو أُصِبْتَ بسَلَسِ البَوْلِ -عَكْسَ الحَبْسِ- عَرَفْتَ نعْمَةَ اللهِ علَيْك بالقُدْرَةِ عَلَى حَبْسِهِ؛ فكَثِيرٌ مِنَ النَّاس استَقَامُوا حِينَ ابْتُلُوا ببَلَاءٍ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، رقم (٧٧١)، من حديث علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وحدَّثني رَجُلٌ أنَّهُ كَانَ مِنْ أشَدِّ النَّاسِ إلحادًا، لَا يُصلِّي، ولَا يتحَاشَى عَنْ زِنًا، وَلَا عَنْ مُخدِّراتٍ، ولَا عَنْ خُمُورٍ، فَاسِقٌ بمَعْنى الكَلِمَةِ، فلَمَّا مَاتَ أَبُوهُ الَّذِي كَانَ عَاجِزًا عَن تَربيتِهِ، فيقُولُ: لـمَّا مَاتَ أَبِي وعَرَفْتُ المُصيبةَ آمَنْتُ؛ فآمَنَ لأنَّه عرَفَ اللهَ عَزَّوَجَلَّ واستَقَامَ وصَارَ مِنَ المُسْتقِيمينَ الَّذِين نشْهَدُ لهُمْ بالخَيْرِ. إذَنْ: هذِهِ المُصيبةُ الَّتِي حصَلَتْ لَهُ بفقْدِ أَبِيهِ صَارَتْ خيْرًا لَهُ.

إِذَنِ: الشُّرورُ الَّتِي تَكُونُ فِي مَفْعُولَاتِ اللهِ ليْسَتْ شَرًّا بالنِّسْبَةِ لِفعْلِ اللهِ؛ لأَنَّ فِعْلَ اللهِ كُلُّه خَيْر، والشَّرُّ يَكُونُ فِي المَفْعُولاتِ.

فانْتَبِهْ للفَرْقِ الدَّقيقِ، حتَّى لَا يُشْكِلَ علَيْك، وعلَيْهُ فقَولُ الرَّسُولِ ﷺ: «وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ» أَيْ: تُؤمِنَ بالمقدُورِ خَيرِهِ وشَرِّهِ، أمَّا القَدَرُ الَّذِي هُو تقْدِيرُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ فَواللهِ إنَّهُ كُلُّهُ خَيْر.

فإِنْ قِيلَ: هَلْ وُجُودُ الشَّيطَانِ خَيْر؟

فالجَوابُ: نعَمْ، فلَوْلَا وُجُودُ الشَّيطَانِ مَا عرَفْنَا قَدْرَ الطَّاعَاتِ؛ لأَنَّ الَّذِي يُجاهِدُنا عَلَى الطَّاعَاتِ هُوَ الشَّيطَانُ، والَّذِي يُوسْوِسُ لَنَا بالمعَاصِي هُوَ الشَّيطَانُ، ولَا نَعرِفُ قَدْرَ النِّعمَةِ إلَّا بذَلِك، ولَوْلَا وُجُودُ الشَّيطَانِ مَا كَانَ هُنَاكَ كافِرٌ، ولَمْ يَستَقِمِ الجِهَادُ، ولَا الأَمْرُ بالمعْرُوفِ، ولَا النَّهيُ عَنِ المَنْكرِ، وهُلمَّ جرًّا، وكَذَلِكَ أيضًا: الأفَاعِي والسِّباعُ فوُجودُهَا خَيْر، وذَلِكَ لتَعْرِفَ قَدْرَ نِعمَةِ اللهِ علَيْك، ثُمَّ إنَّ الأفْعَى بالنِّسْبة للبَعِيرِ كذَيْلِ البَعِيرِ، ومَعَ ذَلِكَ الأفْعَى لَوْ أمْسكَتْكَ لأهلَكَتْكَ، بينَما البَعيرُ تَأتِي إلَيْكَ مُنقَادَةً بكُلِّ سُهُولَةٍ، بَلْ إنَّ الصَّبيَّ الصَّغيرَ الَّذِي أقَلُّ مِن

سَاقِ البَعِيرِ يقُودُها بكُلِّ سُهُولَةٍ، ويُبرِكُهَا، ويَحمِلُ عَلَيْهَا، ويَركَبُها وهِيَ تَجترُّ -أَيْ تَعلِكُ الطَّعامَ- ومَع ذَلِكَ تعرِفُ قَدْرَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ ورَحمتَهُ وحِكمَتَهُ، وأشياءَ كثِيرَةً يطُولُ شَرْحُها.

والمُهِمُّ: أنْ تُؤمِنَ بأَنَّ كُلَّ مَا وَقَعَ فِي السَّمواتِ أَوْ فِي الأَرْضِ، فإنَّهُ بتَقْدِيرِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، مِنْ خَيْرٍ أَو شَرٍّ.

والعجَبُ أنَّ المعتزِلَةَ الَّذِين يَزْعُمُون أنَّهُم يُنزِّهُونَ اللهَ عَزَّوَجَلَّ يقُولُونَ: إنَّ المعَاصِيَ مِنْ فِعْلِ العَبْدِ، وليْسَتْ مِنَ اللهِ، قَالَ قَائِلُهُمْ: «سُبحَانَ مَنْ تنزَّهَ عَنِ الفَحْشَاءِ»: لأَنَّ اللهَ قَالَ فِي كتَابِهِ: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ [الأعراف:٢٨]. وهَذِهِ المَقُولَةُ مِنْهُمْ ظَاهِرُهَا الرَّحمَةُ، وباطِنُها العذَابُ، فقَولُهُ: «سُبحَانَ مَن تَنزَّهَ عَنِ الفَحْشَاءِ»، يُرِيدُ أنَّ زِنَا الزَّانِي لَيْسَ بتَقْدِيرِ اللهِ، فقَالَ لَهُ السُّنِّي: سبْحَانَ مَنْ لَا يَكُون فِي مُلكِهِ إلَّا مَا يشَاءُ، فخَصَمَهُ؛ لأَنَّك إِذَا قُلْتَ: إنَّ المعَاصِيَ ليْسَت مِن مخلُوقَاتِ اللهِ صَارَ فِي مُلكِ اللهِ مَا لَا يُرِيدُ، وصَارَ مُلْكُ اللهِ قَاصِرًا لَا يَعُمُّ كُلَّ شَيْءٍ.

قَوْلُهُ: «**وَهُوَ تَقْدِيرُ اللهِ سبْحَانَهُ للكَائنَاتِ، حَسْبَما سَبَقَ بِهِ عِلْمُهُ**» إذَنِ اللهُ عَزَّوَجَلَّ عَالِمٌ بكُلِّ شَيْءٍ، حتَّى الَّذِي لَمْ يقَعْ فهُوَ عَالِمٌ بِه، لَكِن هُنَا إِشْكَالٌ، وهُوَ قَوْلُ اللهِ تعَالَى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [محمد:٣١]. وقَالَ تعَالَى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤٢]. فهَاتَانِ الآيَتَانِ وأمثَالُهما تَقتَضِيانِ تجدُّدَ عِلْمِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، ونَحْن نَقُول: إنَّ عِلْمَ اللهِ أزَلِيٌّ، فكَيْفَ نُجِيبُ عَنْ هذِهِ الآيَاتِ؟

نَقُولُ: الجَوابُ عَنْ هذِهِ الآيَاتِ مِنْ وَجْهَينِ:

الوَجْهُ الأَوَّلُ: أَنَّ عِلْمَهُ بِهَا بَعْدَ وُقُوعِهَا عِلْمٌ بوُقوعِهَا، وعِلْمُه بِهَا قبْلَ وُقُوعِهَا عِلْمٌ بأَنَّهَا ستَقَعُ، وبينَهُما فَرْقٌ، فأَنَا مَثَلًا عِنْدَما أَعْرِفُ أَنَّه سيُؤذَّنُ للظُّهرِ السَّاعَةَ الثَّانيَةَ عشْرَةَ وعشْرَ دَقَائِقَ، هَذَا عُلِمَ بِهِ قَبْلَ وُقُوعِهِ، فإذَا أُذِّنَ فِي هَذَا الوَقْتِ فهَذَا عِلْمٌ لَيْسَ مُتجدِّدًا؛ لأَنَّه سَبَقَ أَنِّي عَالِمٌ بذَلِك، لكنَّه علم بِهِ بَعْدَ وُقُوعِهِ، فعِلْمُ اللهِ بالكَائنَاتِ قَبْلَ وُقُوعِهَا هُو عِلْمٌ بأَنَّهَا ستَقَعُ، وعلْمُهُ بِهَا بعْدَ وُقُوعِهَا هُو عِلْمٌ بأَنَّهَا وَاقِعَةٌ.

الوَجْه الثَّاني -وهُوَ أَسَدُّ- أن نَقُولَ: عِلْمُ اللهِ قَبْلَ وُقُوعِهَا عِلْمٌ لَا يتَرَتَّبُ عَلَيْه ثوَابٌ ولَا عِقَابٌ، وعِلْمُهُ بعْدَ وُقُوعِهَا هُوَ العِلْمُ الَّذِي يتَرَتَّبُ علَيْه الثَّوابُ والعِقَابُ، وعَلَى هَذَا فقَولُهُ: ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ﴾ أَي: عِلْمًا يتَرَتَّبُ علَيْه الثَّوابُ والعِقَابُ؛ لأَنَّ العِلْمَ الأَوَّلَ لَا يتَرَتَّبُ علَيْه ثوَابٌ ولَا عقَابٌ؛ لأَنَّ هَذَا المُبتَلَى لَمْ يُوجَدْ أَصْلًا، واللهُ عَزَّوَجَلَّ عَلِمَ أَنَّ العَاصِيَ سيَعْمَلُ هذِهِ المَعْصيَةَ قبلَ كُلِّ شَيْء، عِلْمًا أَزَليًّا، لَا يَزَالُ فِي نَفْسِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، قَبْلَ أَنْ يُخلَق هَذَا المَخلُوقُ، الَّذِي عَصَى اللهَ، لَكِنَّ علمَهُ بعْدَ المعصيَةِ هُوَ العِلْمُ الَّذِي يتَرَتَّبُ علَيْه الثَّوابُ والعِقَابُ.

وإِنَّما قُلْنا ذَلِكَ؛ لأَنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ فِي كِتَابِهِ: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج:٧٠].

قَوْلُهُ: «وَاقْتَضَتْ حِكْمَتُهُ» والحكْمَةُ وَضْعُ الأَشياءِ فِي مَواضِعِهَا.

واعْلَم أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ يقَعُ مِنَ الكائِنَاتِ، وكُلُّ شَيْءٍ يَحْكُمُ اللهُ بِهِ مِنَ المَشْرُوعَاتِ، فهُو عَلَى وَفْقِ الحِكْمَةِ، وإذَا آمَنْتَ بذَلِك فإنَّكَ سَوْفَ تعْلَمُ أَنَّ الوَاقِعَ شَرْعًا أَو الوَاقِعَ

قَدَرًا لَا اعْتِرَاضَ علَيْه بوَجْهٍ مِنَ الوُجُوهِ؛ لأَنَّ الإِنْسَانَ -لِقُصُور عِلْمِهِ- قَدْ يتَرَاءَى أنَّ هَذَا الشَّيْء مُخَالِفٌ للحِكْمَةِ، فإِذَا تَرَاءَى لَكَ أنَّ هَذَا الشَّيْء مخالِفٌ للحِكْمَةِ فاتَّهِمْ رَأيكَ؛ لأَنَّ الَّذِي قدَّره أَو شَرَعَهُ هُو اللهُ عَزَّوَجَلَّ، وهُوَ أحكَمُ الحَاكِمِينَ، فَلَا يُمْكِن أن يُوجَدَ شَيْء مِنَ الكَائِنَاتِ أَو مِنَ المشْرُوعَاتِ إِلَّا وهُوَ عَلَى وَفْقِ الحِكْمَةِ، ولذَلِكَ يَجِبُ أن نُسلِّمَ للشَّرعِ، ونَستسْلِمَ للقَدَرِ، لَوْ لَـمْ نَفْعَلْ ذَلِك لـمَا رَضِينا باللهِ ربًّا؛ لأَنَّ الَّذِي يَرضَى باللهِ ربًّا هُوَ الَّذِي يُسلِّم لشَرْعِهِ، ويَستسْلِمُ لقَدَرِه، ويقُولُ: لَا شَكَّ أنَّ هَذَا لِحِكْمَةٍ عَظِيمَةٍ، إمَّا أنْ أَعلَمَها الْآنَ، وإمَّا أنْ أَعلَمَها بعْدَ الْآنَ.

فمَثَلًا قَد يُرِيدُ الإِنْسَانُ شَيْئًا مِنَ الأشيَاءِ، ثُمَّ يجِدُ مَوانِعَ تمْنَعُه مِنْ فِعْلِهِ، أَو مُقتضَياتٍ تَقتَضِي أنْ يفْعَلَ غَيرَهُ، فتَجِدُه يندَمُ ويتكَدَّرُ، وإِذَا بالأَمْرِ يَكُونُ الخيرَةُ فِيمَا اختَارَهُ اللهُ لَهُ، ويعْلَمُ أَنَّه لَوْ فعَلَ الأَمْر عَلَى مَا قَدَّره هُو سَوْفَ ينْعَكِسُ عَلَيْه، لَكِنَّ اللهَ قَدَّرَ الأَمْر عَلَى خِلَافِ مَا يُرِيدُ لِحِكْمَةٍ، وهِيَ مِنْ مصلَحَةِ العَبْدِ.

وكذَلِكَ قَد يَنْقل الإِنْسَانُ وظيفَتَهُ مِنْ بلَدِهِ إِلَى بَلَدٍ آخَرَ، فتَجِدُهُ يتكَدَّرُ، كَيْف أذهَبُ عَن أصْحَابِي الَّذِين كُنْت معَهُم إِلَى بَلَدٍ لَا أَعْرِفُه، ثُمَّ يُقدَّرُ لَهُ فِي هَذَا البَلَدِ أن يكسِبَ عِلْمًا، وصَلَاحًا، وتَعلِيمًا، وإِرْشَادًا، لَمْ يَكُنْ يَكسِبُها مِن قَبْلِ، أَو يكْتَسِبُ مَالًا وغِنًى لَمْ يَكُن مُهيَّئًا لَهُ مِنْ قَبْل، إِذَنِ: الخِيرَةُ بِمَا وَقَعَ لَا بِمَا قَدَّرَهُ الإِنسان، فلِذَلِكَ يجِبُ علَيْنَا أنْ نعتَقِدَ مُقتَضَى قَوْلِهِ تعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان:٣٠]. وأنَّ الحِكْمَةَ فِي كُلِّ مَا قَدَّرَهُ اللهُ وشَرعُهُ، وأَنْتَ سِرْ مَعَ القَدرِ حَيْثُ سَارَ، تَجِدِ الطَّمأنينَةَ والاستِرَاحَةَ التَّامَّةَ، لَكِن فِي المَعْصِيةِ لَا تَرْضَى بِهَا.

وَلِلْقَدَرِ أَرْبَعُ مَرَاتِبَ:

المَرْتَبَةُ الأُولَى: العِلْمُ، فَنُؤْمِنُ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَى بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ، عَلِمَ مَا كَانَ وَمَا يَكُونُ وَكَيْفَ يَكُونُ، بِعِلْمِهِ الأَزَلِيِّ الأَبَدِيِّ[١]، فَلَا يَتَجَدَّدُ لَهُ عِلْمٌ بَعْدَ جَهْلٍ، وَلَا يَلْحَقُهُ نِسْيَانٌ بَعْدَ عِلْمٍ.

---

[١] قَوْلُهُ: «وللقَدَرِ أَرْبَعُ مَرَاتِبَ: المَرْتَبَةُ الأُولَى: العِلْمُ، فنُؤمِنُ بأَنَّ اللهَ بكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ، عَلِمَ مَا كَانَ، ومَا يَكُونُ، وكَيْفَ يَكُونُ، بعِلْمِهِ الأزَلِيِّ الأَبدِيِّ» عِلْمُهُ «الأزَليُّ»: يَعْني أَنَّه لَيْسَ بحَادِثٍ، «الأَبدِيُّ»: يَعْنِي أَنَّه لَيْسَ بمُنقَطِعٍ، أَمَّا عِلْمُ مَنْ سِوَى اللهِ تَعَالَى فلَيْسَ أزَليًّا ولَا أبدِيًّا؛ لأَنَّهُ يَسبِقُهُ جَهْلٌ ويَلحَقُهُ نِسيَانٌ، فكُلُّنَا أَخْرجَنَا اللهُ مِنْ بُطُونِ أمَّهاتِنا لَا نَعلَمُ شَيْئًا، حتَّى الطِّفْلُ لَا يعرِفُ أُمَّه إِلَّا بعْدَ مُدَّةٍ، ثُمَّ جعَلَ اللهُ لنَا السَّمعَ والأَبْصارَ والأفئِدَةَ، فبالسَّمْعِ والبَصَرِ نُدرِكُ المَعلُومَاتِ وبالأفئِدَةِ نَعقِلُها، إِلَّا أَنَّه يحدُثُ لنَا نِسيَانٌ، لَكِنَّ عِلْمَ اللهِ أزَليٌّ لَيْسَ بحَادِثٍ، أبَدِيٌّ لَيْسَ بزَائِلٍ.

إِذَنْ: نُؤْمِن بأنَّ اللهَ تَعَالَى بكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ بعِلْمِهِ الأزِليِّ والأبَدِيِّ فَلَا يتَجدَّدُ لَهُ عِلْمٌ بَعْدَ جَهْلٍ ولَا يلْحَقُهُ نِسيَانٌ بَعْدَ عِلْمٍ، قَالَ تَعَالَى فِي قِصَّةِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ سَأَلَهُ فِرعَونُ: ﴿فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ۝٥١﴾ يَعْنِي: مَا شَأنُها؟ أَخْبِرْنا عنْهَا؛ فقَالَ لَهُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾ [طه:٥١-٥٢].

إِذَنْ: فيَجِبُ أَنْ تعلَمَ أَنَّ اللهَ بكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ عَالِمٌ، حتَّى بأَفعَالِكَ فإِنَّ اللهَ عَالِمٌ بِهَا.

الْمَرْتَبَةُ الثَّانِيَةُ: الكِتَابَةُ، فَنُؤْمِنُ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَى كَتَبَ فِي اللَّوْحِ المَحْفُوظِ مَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ[١]:..

[١] قَوْلُهُ: «**المَرتَبةُ الثَّانيَةُ: الكِتَابَةُ، فنُؤمِنُ بأَنَّ اللهَ تَعَالَى كَتَبَ فِي اللَّوحِ المَحفُوظِ مَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ القِيامَةِ**» اللَّوحُ المحفُوظُ يَعْنِي المَحفُوظَ عَن الأَيْدِي، والمَحفُوظُ عَنِ التَّغيِيرِ، فهُوَ لَوْحٌ لَا ينالُهُ أحَدٌ، ولَا يتغَيَّرُ مَا فِيهِ.

هَذَا اللَّوحُ هَلْ هُوَ مِنْ خَشَبٍ، أَو مِنْ حَدِيدٍ، أَو مِنْ فِضَّةٍ أَو مِنْ ذَهَبٍ، أَو مِنْ نُورٍ؟ نَقُولُ: اللهُ أعْلَمُ.

نُؤمِنُ بأَنَّه لَوْحٌ محفُوظٌ، كَتَبَ اللهُ تَعَالَى فِيه مقَادِيرَ الخَلْقِ، مَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ القِيامَة، وكَيْفِيَّةُ الكِتَابَةِ أنَّ اللهَ تَعَالَى لـمَّا خَلقَ القَلَمَ، قَالَ لَهُ: اكْتُبْ، فقَالَ لَهُ القَلَمُ: يَارَبِّ مَاذَا أَكْتُبُ؟ -فهُوَ قَدْ سَمِعَ وأَطَاعَ أَيْضًا-، ولَكِنَّ الأَمْرَ مُجمَلٌ، لم يُبيِّنْ فِيهِ المَكتُوبُ، قَالَ: اكْتُبْ مَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْم القِيامَة، فكَتَبَ بأَمْرِ اللهِ مَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ القِيامَةِ، فانْظُرْ خُضُوعَ الكَائِنَاتِ للهِ وأنْتَ يَا ابْنَ آدَمَ لَا تخْضَع إِلَّا بشَرْطٍ، فهذا القَلَمُ فِيمَا نعْلَمُ أنَّه جمادٌ فقَالَ: اكْتُبْ مَا هُو كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ القِيامَةِ، فكَتَبَ مَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ القِيامَةِ بعِلْمِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، كُلُّ مَا كَانَ أَو مَا يَكُونُ فِي الدُّنيا للإِنْسَانِ أَو لأيِّ أحدٍ، فهُوَ مَكتُوبٌ فِي اللَّوحِ المَحفُوظِ، قَالَ النَّبيُّ ﷺ: «**فَجرَى فِي تِلْكَ السَّاعَةِ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ**»(١).

فإِنْ قِيلَ: وَرَدَ عَنِ النَّبيِّ ﷺ أَنَّهُ سَمِعَ صَرِيفَ الأَقْلَامِ لَيْلَةَ المِعْرَاجِ، فهَلِ القَلَمُ كَتَبَ وانْتَهى، أَو أنَّ هُنَاكَ أشياءَ تُكتَبُ؟

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٣١٧)، وأبو داود: كتاب السنة، باب في القدر، رقم (٤٧٠٠)، والترمذي: كتاب القدر، رقم (٢١٥٥)، من حديث عبادة بن الصامت رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾[١] [الحج:٧٠].

المَرْتَبَةُ الثَّالِثَةُ: المَشِيئَةُ، فَنُؤْمِنُ بِأَنَّ اللهَ تَعالَى قَدْ شَاءَ كُلَّ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، لَا يَكُونُ شَيْءٌ إِلَّا بِمَشِيئَتِهِ: «مَا شَاءَ اللهُ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ»[٢].

فالجَوابُ: أنَّ هُناكَ أشْياءَ تُكتَبُ كِتَابَةً يوميَّةً: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾، أمَّا الكِتَابَةُ العُموميَّةُ فقَدْ كَتَبَ ما هُوَ كائِنٌ إِلَى يَوْم القِيامَةِ، فاللهُ أعْلَمُ، لَكِن مَا فِي اللَّوحِ المَحفُوظِ لَا يتغَيَّرُ، ومَا فِي أَيْدِي المَلائكَةِ، أَو ما لَهُ أسبَابٌ مُعينَةٌ فقَد يتغَيَّرُ.

[١] والدَّلِيلُ عَلَى العِلْم والكِتَابَةِ:

قَوْلُهُ: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ﴾ أَيِ المعلُومُ ﴿فِي كِتَابٍ﴾ هِيَ الثَّانيَةُ: ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

قَوْلُهُ: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ الاستِفْهامُ للتَّقرِيرِ، مثْل: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾، ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى﴾، وأمثَالُ هَذَا كَثِيرٌ.

قَوْلُهُ: ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ يَعْنِي: إنَّ كتابَةَ ذَلِك عَلَى اللهِ يسِيرَةٌ، فاللهُ عَزَّوَجَلَّ لَمْ يحتَجْ إِلَى أدوَاتٍ، أَو إِلَى مِدادٍ أَو مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، بَلْ بكلِمَةٍ وَاحِدَةٍ «اكْتُبْ مَا هُوَ كَائِنٌ»، وهَذَا عَلَى اللهِ يَسِيرٌ، فهَذِهِ الآيَةُ تضَمَّنَتِ الدَّلِيلَ للمَرتبتَيْنِ العِلْمِ والكِتَابَةِ.

[٢] قَوْلُهُ: «المرتبَةُ الثَّالثَةُ: المشِيئَةُ؛ فنُؤمِنُ بأَنَّ اللهَ تَعَالَى قَدْ شَاءَ كُلَّ مَا فِي السَّمواتِ والأَرْضِ، لَا يَكُونُ شَيْء إِلَّا بمَشِيئَتِهِ؛ لقَوْلِ المُسلِمِينَ جَمِيعًا، مَا شَاءَ اللهُ كَانَ، ومَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ» إِذَن: فالكَائِنَاتُ كُلُّها بمَشيئَةِ اللهِ، مِثْل فِعْلِ العَبْدِ،

المَرْتَبَةُ الرَّابِعَةُ: الخَلْقُ، فَنُؤْمِنُ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَى: ﴿خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الزمر:٦٢-٦٣].

والمَطَرِ، وخَلْقِ الإنسَانِ، فكُلُّ شَيْء بمَشيئَةِ اللهِ، سَواءٌ كَانَ منْ أفعَالِهِ الَّتِي لَا يفْعلُهَا إلَّا هُوَ، أَو مِنْ أفعَالِ العِبَادِ.

ثُمَّ اعْلَمْ أنَّ المَشِيئَةَ نوعَانِ: مَشيئَةٌ سابِقَةٌ، وهَذِهِ تَابعَةٌ للعِلْمِ، ومشِيئَةٌ لاحِقَةٌ، وهَذِهِ مُقَارنَةٌ للفِعْلِ، يَعْني قَدْ شَاءَ اللهُ -مثلًا- أنْ يفْعَلَ كَذَا وكَذَا، فِي يَوْم كَذَا وكَذَا، فِي سَاعَةِ كَذَا وكَذَا، فِي بَلَدِ كَذَا وكَذَا، هَذا شَاءَهُ مِنْ قَبْلُ، وهُوَ كَائِنٌ فِي عِلْمِهِ عَزَّوَجَلَّ، لَكِنَّ المَشِيئَةَ الحَادِثَةَ الَّتِي بِهَا يَكُونُ الفِعْل هذِهِ مُتأخِّرةٌ عَنِ الكِتَابَةِ.

[١] قَوْلُهُ: «المَرْتَبَةُ الرَّابِعَةُ: الخَلْقُ» يَعْنِي أنَّ اللهَ تعالى خَلَقَ كُلَّ شَيْء.

[٢] قَوْلُهُ: «فنُؤمِنُ بأَنَّ اللهَ تعَالَى: ﴿خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾».

قَوْلُهُ: ﴿خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾، فكُلُّ شَيْء مخْلُوقٌ للهِ، فالإنْسَانُ، وعمَلُهُ، وحركَتُهُ، كُلُّها مخْلُوقَةٌ للهِ، بَلْ كُلُّ حَرَكَةٍ فهِيَ خَلْقٌ للهِ، وكُلُّ سُكُونٍ فهُوَ خَلْقُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

والعَجَبُ أنَّ الجَهمِيَّةَ استدَلُّوا بالآيَةِ الكَرِيمَةِ عَلَى أَنَّ القُرْآن مخْلُوقٌ، وهَذَا الاستدِلَالُ باطِلٌ؛ لأنَّ المخلُوقَ مُنفصِلٌ بَائِنٌ عَنِ الخَالِقِ، إِذْ إِنَّ المخْلُوقَ يَسْتلزِم ثلاثَةَ أشْيَاءَ: خَالِقًا، وخَلْقًا، ومخْلُوقًا.

فالمخْلُوقُ إذَنْ: لَيْسَ مِنْ صِفَاتِ الخَالِقِ؛ وأمَّا الخَلْقُ فهُوَ مِنْ صِفَاتِ الخَالِقِ؛ لأَنَّه بَائِنٌ مُنفصِلٌ عَنْهُ.

....

وعَلَى هَذَا فالقُرآنُ كَلامُ اللهِ تعالى وهُوَ مِنْ صفَاتِ المتكلِّمِ؛ ولَيْس شَيْئًا بَائِنًا مُنفَصلًا محسُوسًا، يُنْظَر بالعَيْنِ؛ إِذَنْ: كَيْف تَقُولُون: إنَّ اللهَ خَالِقُ القُرْآن، هَذَا لَا يُمْكِن أبدًا؛ بَلِ القُرْآن وصْفُهُ؛ لأنَّه كَلامُهُ، ووصْفُ الإِنْسان لَيْسَ من مَفعُولاتِهِ، فمَثلًا: لَوْ أعطَيتُكَ تمرَةً وأكلْتَها، هَلْ فعلُكَ هُو التَّمرَةُ؟ لَا، بَل إنَّ التَّمرَةَ مأكُولَةٌ، والأكْلُ غيرُ المأكُولِ؛ وهَل أنْتَ الأكْل؟ لَا، أنْتَ آكِلٌ، ومضْغُكَ أكْلٌ، والمَمْضُوغُ مَأْكُولٌ.

إذَنْ: فيَجِبُ عَلَى الإِنْسانِ أنْ يُفرِّقَ بيْنَ المفعُولِ البَائِنِ، وبَيْنَ الفِعْل الَّذِي هُو وصْفُ الفَاعِلِ؛ فالقُرآنُ كَلامُ اللهِ، والآيَةُ لَا تدُلُّ عَلَى أنَّ القُرْآن مخلُوقٌ، لأَنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ فيلزَمُ أنْ يَكُون المَخلُوقَ بَائِنًا مُنفَصلًا عَنِ الخَالِقِ.

قَوْلُهُ: «﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾» وكِيلٌ أَي: حَفِيظٌ.

قَوْلُهُ: «﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾» المَقَالِيدُ المَفَاتِيحُ، يَعْني أنَّ مفَاتِيحَ الأُمورِ كُلّها بيَدِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

مَسْأَلَةٌ: هَلْ مَذْهَبُ الأشَاعِرَةِ فِي بَابِ القَدَرِ مِثْل مذهَبِ أَهْلِ السُّنَّةِ؟

نَقُولُ: لَا، بَل مَذْهَبُ الأَشَاعِرَةِ فِي بَابِ القَدَرِ يُشبِهُ مذهَبَ الجبرِيَّةِ، بَلْ هُوَ فِي الحَقِيقَةِ مذْهَبٌ لَا يُمكِن أنْ يتصَوَّرَهُ الإنسَانُ، لأَنَّهُم يقُولُونَ: «اللهُ خَالِقُ الفِعْل، وفعْـلُ العَبْدِ كَسْبُهُ» سُبْحَانَ اللهِ! فكَيْفَ هَـذَا؟ ولَكِن هُمْ تَنَاقَضُوا مِثْلَمَا تَنَاقَضُوا فِي الكَلَامِ، وهُـوَ أعظَـمُ مِنْ هَـذَا، إذْ قَالُـوا: إنَّ اللهَ يتكَلَّمُ، ولَكِـنَّ كَلامَـهُ فِي نَفْسِـهِ،

وَهَذِهِ المَرَاتِبُ الأَرْبَعُ شَامِلَةٌ لِمَا يَكُونُ مِنَ اللهِ تَعَالَى نَفْسِهِ وَلِمَا يَكُونُ مِنَ العِبَادِ، فَكُلُّ مَا يَقُومُ بِهِ العِبَادُ مِنْ أَقْوَالٍ[١] أَوْ أَفْعَالٍ أَوْ تُرُوكٍ فَهِيَ مَعْلُومَةٌ للهِ تَعَالَى مَكْتُوبَةٌ عِنْدَهُ، وَاللهُ تَعَالَى قَدْ شَاءَهَا وَخَلَقَهَا[٢]:

وَلَم يَسمَعْه جِبرِيلُ، فهُوَ مخْلُوقٌ، فهُوَ كَلَامٌ لَا يُفْهَم، وهُم يقُولُونَه ولَا يفْهمُونَه، ولهَذَا يُقَالُ: ثَلَاثَةُ أشياءَ لَيْسَ لَـهَا أَصْلٌ أَو لَيْسَ لَـهَا مَعنًى من جُملَتِهَا: الكَسْبُ عِنْد الأشْعرِيِّ.

[١] قَوْلُهُ: «كُلُّ مَا يقُومُ بِهِ العبادُ مِنْ أَقْوَالٍ» مثْلَ التَّسبِيحِ، والتَّكبِيرِ، والتَّهلِيلِ، وقِرَاءَةِ القُرْآنِ؛ «أَوْ أفْعَالٍ» كالصَّلَاةِ، والرُّكُوعِ، والسُّجُودِ، والقِيَامِ، والقُعُودِ؛ «أَوْ تُرُوكٍ»، كتَرْكِ الزِّنَا، والخَمْرِ، والرِّبَا، ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

فإِذَا قَالَ قَائِل: هَلِ التَّركُ فِعْلٌ؟

قُلْنا: نَعَمْ؛ لأَنَّ التَّركَ كفُّ النَّفْسِ عَنِ الفِعْل، فلكَونِهِ كفًّا صَارَ فِعْلًا، إِذَنْ: هُو مخْلُوقٌ للهِ عَزَّوَجَلَّ، فِفِعْلُك مخْلُوقٌ، وتَركُكَ مخْلُوقٌ.

[٢] قَوْلُهُ: «فهِيَ معْلُومَةٌ للهِ، مكْتُوبَةٌ عِنْدَهُ، واللهُ تَعَالَى قَدْ شَاءَهَا وخَلَقَهَا» نَحْنُ -والحَمْدُ للهِ- نُؤْمِنُ بذَلِكَ، خِلَافًا للَّذِينَ قَالُوا: إنَّ أَفْعَالَ العَبْدِ يَستَقِلُّ بِهَا العبْدُ مَشيئَةً وخَلقًا، ولَا مَشيْئَةَ للهِ فِي أفْعَالِ العبادِ، ولَا خَلْقَ للهِ فِي أفْعَال العبادِ وهَؤُلاءِ هُمْ: القَدريَّةُ الَّذِين هُمُ المعتزِلَةُ.

والغَرِيبُ أَنَّ القدرِيَّةَ أَحْيَانًا يكُونُونَ إخوانًا للجَهميَّة، وأَحْيَانًا يكُونُون أعْدَاءً لهُمْ، ففِي بَابِ الصِّفاتِ هُمْ إخْوَانٌ لَهُمْ، فكُلُّهم يقُولُ: إنَّ اللهَ معطَّلٌ عَنِ الصِّفَاتِ، ولكنَّهُم فِي بَابِ القَـدَرِ أعْدَاءٌ لَـهُم، فالجَبرِيَّةُ يقُولُـونَ: هَذَا كُلُّه مِنْ أفْعَالِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ،

﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[1] [التكوير:٢٨-٢٩] ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلُواْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة:٢٥٣] ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ﴾ [الأنعام:١٣٧] ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [الصافات:٩٦].

والعَبْدُ لَيسَ لَهُ فِعْلٌ، وإِنَّما تُنسَبُ الأَفْعَالُ إِلَيْه مجازًا، كَما يُنسَبُ الإحْرَاقِ إِلَى النَّارِ، فالنَّارُ لَا تُحرِقُ بنفْسِهَا، بمَعْنى أَنَّها لَا تَشَاءُ الإحْرَاقَ، كذَلِكَ فِعْلُ العَبْدِ يجْعَلُونه كإِحرَاقِ النَّارِ تمَامًا، بِدُونِ إِرَادَةٍ مِنَ العَبْدِ، وهَؤُلاءِ الجبرِيَّةُ هُمُ الجَهميَّةُ وهُمْ عَلَى طَرَفَي نَقِيضٍ مَعَ المعتزِلَةِ؛ لأَنَّ المُعتزلَةِ يقُولُونَ: الإِنْسَانُ مُستقِلٌّ بعَملِهِ.

قَوْلُهُ: «قَدْ شَاءَهَا وَخَلَقَهَا» والدَّلِيل: «﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ﴾» فأَضَافَ المَشيئَةَ والفِعْلَ للعَبْدِ، فإِضَافَةُ المَشيئَةِ للعَبْدِ فِي قَوْلِهِ تعَالَى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ﴾ وإِضَافَةُ الفِعْل للعَبْدِ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَن يَسۡتَقِيمَ﴾.

[١] قَوْلُهُ: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ فَلا يُمْكِن أَنْ نَشَاءَ الاستِقَامَةَ أَوِ الانْحِرَافَ -والعِيَاذُ باللهِ- إِلَّا بمَشيئَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، لَوْ أَرَادَ الإِنْسَانُ أَنْ يَستقِيمَ وأَرَادَ اللهُ أَنْ يُضلَّهُ فإِنَّه لَا يَستَطِيعُ إِلَّا بإِرَادَةِ اللهِ، ولَوْ أَرَادَ الإِنْسَانُ أَنْ يَضِلَّ وأَرَادَ اللهُ تَعالَى أَنْ يَستَقِيمَ لاستَقَامَ ولَمْ يَضلَّ، قَالَ تَعالَى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

وهَذِهِ الآيَةُ استدَلَّ بِهَا الجَبرِيَّةُ؛ فإِنَّهُم قَالُوا: إِنَّها تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الإِنْسَانَ لَا يَشَاءُ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ، وهِيَ فِي الحقِيقَةِ حُجَّةٌ عَلَيهِم؛ لأَنَّ الجَبرِيَّةَ يُنكِرُون مشيئَةَ العَبْدِ، والآيَةُ تُثبِتُ ذَلِكَ.

وقَالَ تعالَى: ﴿وَلَوْ شَاءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ وقَالَ تعالَى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ وقَالَ تعالَى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ والَّذِي نَقَلَ اللهُ عَنْهُ هَذَا القَوْلَ هُوَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، قَالَ تعالَى: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات:٩٥-٩٦] فالآيَةُ صَرِيحَةٌ فِي أَنَّ اللهَ خَلَقَ الإنسَانَ، وصَرِيحَةٌ فِي أَنَّ اللهَ تَعَالَى خلَقَ عَمَلَهُ.

وهَذَا بِنَاءً عَلَى أَنَّ (مَا) مَصدرِيَّةٌ، أَيْ: خَلَقَكُمْ وعَمَلَكُم، وهِيَ عَلَى كَوْنِهَا مَصدرِيَّةً واضِحَةٌ فِي أَنَّ اللهَ خلَقَ عمَلَ العَبْدِ، لَكِن هُنَاكَ احتِمَالٌ أَنْ تَكُونَ (مَا) اسمًا مَوصُولًا، أَي: خَلَقَكُم وخلَقَ الَّذِي تعمَلُونه، أَي: خَلَقَ مَفعُولَكُم، وقَدْ قِيلَ: إِذَا جَاءَ الاحْتِمَالُ زَالَ الاستِدْلَالُ، فنَقُولُ: حتَّى عَلَى القَوْلِ بأَنَّ (مَا) اسْمٌ مَوصُولٌ، أَي: خَلَقَ الَّذِي تَعمَلُونَ، فهِيَ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ عَمَلَ العَبْدِ مَخْلُوقٌ؛ لأَنَّه إِذَا كَانَ مَفعُولُهُ مَخْلُوقًا ففِعْلُه من بَابِ أَوْلَى فِي الوَاقِعِ، إِذْ إِنَّ المخلُوقَ ناتِجٌ عَن مَخْلُوقٍ، فيَكُونُ هَذَا دَلِيلًا عَلَى أَنَّ عَمَلَ العَبْدِ مَخْلُوقٌ مِنَ الوَجْهَينِ وفِيهِ رَدٌّ عَلَى القَدرِيَّةِ.

مَسْأَلَةٌ: مَنْ يُنكِرُ العِلْم والكتَابَةَ هَل يُعتبَرُ مُنكِرًا للمَشِيئَة والخَلْقِ؟

نَقُولُ: نَعَمْ، قَالَ شَيْخ الإِسْلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: إِنَّ غُلاةَ القَدرِيَّةِ قَدِيمًا كَانُوا يُنكِرُون العِلْمَ والكتَابَةَ، ومُنكِرُوه اليَوْمَ قَلِيلٌ، وهَذَا فِي زمَنِ شَيْخ الإِسْلام، فهُمْ يُنكِرُون

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ٣٨١).

المشيئَةَ والخَلْقَ، لَكِن يقُولُونَ: إنَّ اللهَ عَالِمٌ بذَلِك، والحَقِيقَةُ: أَنَّهُم إِذَا قَالُوا إنَّ اللهَ عَالِـمٌ بذَلِكَ فهُمْ مخصُومُونَ.

ولـهَذَا قَالَ الشَّافعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: نَاظِرُوهُم بالعِلْمِ، إنْ أنْكَرُوه فقَدْ كَفَرُوا، وإنْ أَقَرُّوا بِهِ خُصِمُوا[1]، وهَذِه كلمَةٌ حقِيقيَّةٌ، ومَتأخِّرُو القَدريَّةِ يقُولُونَ: إنَّ اللهَ عالِـمٌ وكَاتِبٌ، لَكِن لَا يشَاءُ ولَا يخْلُقُ؛ فنَقُول كَمَا قَالَ الشَّافعيُّ: هَلْ تُقرُّونَ بأَنَّ اللهَ عَالِـمٌ؟ قَالُوا: نَعَم، وهَل تُقرُّون بأَنَّ اللهَ كَتَبَ كُلَّ شَيْءٍ؟ قَالُوا: نَعَمْ، فنَقُول: هَل تُقرُّونَ بأَنَّ ذَلِكَ بمَشِيئَتِهِ؟ قَالُوا: لَا، فنَقُولُ: أَنْتُم الْآنَ خُصِمْتُم، فَمَا دُمْتُم أقَررْتُم بأَنَّه عَالِـمٌ بهَذِهِ الأَشْيَاءِ، وعَالِـمٌ بكُلِّ شَيْءٍ، وَشَاءِ كُلَّ شَيْءٍ، فهَل وقَعَ مَا وقَعَ مِنَ العَبْدِ عَلَى وَفْقِ مَعْلُوم اللهِ، أَو عَلَى خِلَافِ مَعلُومِهِ؟

فإِنْ قَالُوا: عَلَى وَفْقِ معْلُومِهِ؛ قُلْنا: هَذَا الَّذِي نُرِيدُه، وقَدْ خُصِمْتُمْ، وإنْ قَالُوا: عَلَى خِلَافِ مَعلُومِهِ؛ قُلْنا: كَفَرْتُم؛ لأَنَّه يَلْزَمُ مِنْ هَذَا أَنَّ الأَشْيَاءَ تَقَعُ عَلَى خِلَافِ معْلُومِ اللهِ، فيَكُونُ اللهُ تعالى جاهلًا!.

الخُلاصَةُ: أنَّ مراتِبَ القَدرِ الَّتِي يجِبُ الإِيمان بِهَا أرْبَعٌ: العِلْم، والكِتَابَةُ، والمشِيئَةُ، والخَلْقُ، وبدَأْنا بالعِلْمِ؛ لأَنَّه هُوَ السَّابِقُ، فإِنَّ اللهَ لَمْ يَزَلْ ولَا يَزَالُ عَلِيمًا، ثُمَّ بالكِتَابَةِ؛ لأَنَّهَا بعْدَهُ، ثُمَّ بالمَشيئَةِ؛ لأَنَّها بَعْدَ ذَلِكَ أَيْضًا، ولَكِنَّ المَشيئَةَ فِيهَا شَيْءٌ مُقَارِنٌ، وفِيهَا شَيْءٌ سابِقٌ، فالشَيْءُ السَّابِقُ هُوَ أَنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ بعِلْمِهِ القَدِيم شَاءَ كُلَّ مَـا أَرَادَ أَنْ يفْعَلَهُ مِنَ الأَصْلِ، لَكِـنَّ المَشيئَةَ المُقارِنَةَ هِيَ مُـرادُنا هُنَا، وتكُـونُ المشيئَةُ

(١) انظر: شرح العقيدة الطحاوية (ص:٢٤٧).

المقَارِنَةُ عِنْد الفِعْل: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢] وبعْدَ المَشيئَةِ يَكُونُ الخَلْقُ، وعَلَى هَذَا فيَجِبُ أنْ تُذكَرَ المَرَاتِبُ مُرتَّبَةً.

وقَدْ جُمِعَتْ فِي بَيْتٍ:

عِلْـمٌ كِتَابَـةُ مَوْلَانَـا مَشِـيئَتُهُ ... وَخَلْقُـهُ وَهْـوَ إِيجَـادٌ وَتَكْـوِينُ

ولَمَّا ذَكَرْنا هَذَا فقَدْ يَفْهَمُ الإِنْسانُ مِنْ ذَلِك مَا فهمَتْهُ الجهمِيَّةُ، مِنْ أَنَّ الإِنْسانَ مُجبَرٌ عَلَى عملِهِ، مُوافقَةً للقَدَرِ المكْتُوبِ، فنَقُول: ولكِنَّا مَعَ ذَلِك نُؤْمِن بأَنَّ اللهَ تَعَالَى جَعَلَ للعَبْدِ اخْتِيَارًا وقُدْرَةً بِهِمَا يَكُونُ الفِعْلُ.

مَسْأَلة: بالنِّسبَةِ لعمَلِ الأَسْبَابِ الَّتي حَثَّ عَلَيْها الشَّرعُ والتَّسلِيمُ للقَدَرِ؛ وذَلِكَ فِيمَا إِذَا ذَهَبَ إِلَى حَاجَةٍ يعْمَلُها أَو يُحصِّلُها ثُمَّ تَعسَّرت، فهُو طَلَبُ الأَسبَابِ، أَوْ كطَالِبٍ يَدرُسُ ثُمَّ رَسَبَ؛ فهَل نَقُولُ: لَا تُذَاكِرِ لأَنَّ اللهَ قَدَّر عَلَيْكَ أَنْ تَرسُبَ؟

الجَوابُ: لَا، بَل نَقُـولُ: اللهُ قَـدَّر علَيْك الرُّسوبَ الحَاصِل، لَكِـنَّ المُستقبَلَ لَا نَدْرِي مَا بِهِ، ولهَذا نَحنُ لَا نَعْلَمُ أَبدًا أَنَّ اللهَ قدَّرَ الشَّيْءَ إِلَّا بَعْدَ أَنْ يقَعَ، ولَكِن إِذَا وَقَعَ لَا نَقُولُ: واللهِ نَحْن استقْلَلْنا بِه، ونَقُول: نجْزِمُ أَنَّ اللهَ شاءَهُ منْ قَبْلُ، وليَظَلَّ يُحاوِلُ فِي ذَلِكَ؛ فالأَسْبَابُ مِنَ القَدَرِ؛ ولـهَذَا فِي مَسْأَلةِ الطَّاعُونِ أَنَّ أَمِيرَ المُؤْمنِينَ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رَحلَ مِنَ المدينَةِ إِلَى الشَّامِ وفِي الطَّرِيقِ جَاءَهُ الخَبَرُ بأَنَّ الشَّامَ قَدْ وَقعَ فِيهَا الطَّاعُونُ، والطَّاعُونُ وَباءٌ مُعْدٍ مُهلِكٌ، فتوَقَّفَ وشَاوَرَ الصَّحَابَةَ وجَاءَ بِهِمْ أَفْرَادًا بالنَّوعِ، جَاءَ بهم جَمِيعًا وشَاورَهُم، واستقَرَّ الرَّأيُ عَلَى أن يَرجِعُوا وأَلَّا يُلقُوا بأَيْدِيهِـمْ إِلَى التَّهلُكَة، فجَـاءَ أَبُو عُبيدَةَ عَامِـرُ بْنُ الجَرَّاحِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

الَّذي قَالَ فِيه الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «أَمِينُ هَذِهِ الأُمَّة أَبُو عُبيدَةَ عَامِرُ بْنُ الجَرَّاحِ»[(١)] والَّذِي قَالَ عُمَرُ عِنْدَ استشهَادِه: لَو كَانَ أَبُو عُبيدَةَ حَيًّا لجعلْتُه خلِيفَةً لأَنَّ الرَّسُول ﷺ قَالَ إِنَّهُ: «أَمِينُ هَذِهِ الْأُمَّةِ»؛ جَاءَ إِلَى عُمَرَ وقَالَ: يَا أَمِيرَ المُؤمِنينَ كَيْف نَرْجِعُ؟ أَفِرَارًا مِنْ قَدَرِ اللهِ؟ قَالَ: «نَعَمْ، نَفِرُّ مِنْ قَدَرِ اللهِ إِلَى قَدَرِ اللهِ»[(٢)].

فِفِعْل الأسبَابِ مِنْ قَدَرِ اللهِ، وتَرْكُ العمَلِ مِنْ قَدَرِ اللهِ، وعَدَمُ تَأْثِيرِ الأَسْبَابِ مِنْ قَدَرِ اللهِ؛ فكُلُّ شَيْءٍ مِنْ قَدَرِ اللهِ.

ثُمَّ ضَرَبَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَهُ مثلًا، فقَالَ: أرَأَيْتَ لَوْ كَانَ لَكَ إبلٌ وكَانَ هُنَاكَ وَادٍ لَهُ شُعبتَانِ شُعبَةٌ مُخْصِبَةٌ طَيِّبَةٌ وشُعبَةٌ مُجدِبَةٌ، أتَرْعَاهُ فِي المُخْصِبَةِ الطَّيِّبَةِ أَم فِي المُجدِبَةِ؟ قَالَ: فِي المُخْصِبَةِ؛ قَالَ: تَرَاهَا بقَدَرِ اللهِ أَو بغَيْر قَدَرِ اللهِ؟ قَالَ: بقَدَرِ اللهِ؛ قَالَ: فنَحْنُ الْآنَ نَعدِلُ عَنْ هذِهِ البلَادِ الَّتِي فِيها الوَبَاءُ إِلَى بلَادٍ سَالِمَةٍ بقَدَرِ اللهِ.

مَسْأَلة: إذَا قَالَ قَائِل: تكرَّرَ ذهَابُ شخْصٍ إِلَى الطَّبِيبِ ولَمْ يَجِدْهُ، فَما كَيْفِيَّةُ الاستسْلَامِ للقَدَرِ؟

الجَوابُ: أَنَّه إِذَا وَقَعَ مَا تكرَهُهُ قُلْ: «قَدَّرَ اللهُ، ومَا شَاءَ اللهُ فعَلَ» وفِي الحَدِيثِ: «المُؤمِنُ القَوِيُّ خَيْرٌ وأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ المُؤمِـنِ الضَّعِيفِ، وفِي كُلٍّ خَيْرٌ؛ احْرِصْ عَلَى

(١) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب قصة أهل نجران، رقم (٤٣٨٢)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب فضائل أبي عبيدة بن الجراح رضي الله تعالى عنه، رقم (٢٤١٩)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الطب، باب ما يذكر في الطاعون (٥٧٢٩)، ومسلم: كتاب السلام، باب الطاعون والطيرة، رقم (٢٢١٩)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وَلَكِنَّنَا مَعَ ذَلِكَ نُؤْمِنُ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَى جَعَلَ لِلْعَبْدِ اخْتِيَارًا وَقُدْرَةً بِهِمَا يَكُونُ الفِعْلُ[١]، وَالدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ فِعْلَ العَبْدِ بِاخْتِيَارِهِ وَقُدْرَتِهِ أُمُورٌ:

الأَوَّلُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾[٢] [البقرة:٢٢٣]...............

مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِهِ ولَا تَعْجَزْ»، وكلِمَةُ «وَلَا تَعْجَزْ» هَذِهِ سَدٌّ للبَابِ الَّذِي ذُكِرَ، وهو: «تكرَّر إِلَى الطَّبِيبِ ولَمْ يجِدْهُ» فَلَا تَعْجَزْ مَا دَامَ فِي الأَمْر حِيلَةٌ فافْعَلْ، «وإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ» يَعْنِي: بعْدَ فِعْلِ الأَسْبَابِ، «فَلَا تَقُلْ: لَو أَنِّي فعلْتُ كَذَا لَكَانَ كَذَا وكَذَا، ولَكِن قُلْ: قَدَرُ اللهِ، ومَا شَاءَ فَعَلَ» فالأُمُورُ الوَاقِعَةُ تَارةً تكُونُ بمُحاولَتِكَ أَنْتَ وتَعْجَزُ عَنْهَا وتَارَةً تكُونُ مِنَ اللهِ مُباشَرَةً كالمَرَضِ والحَادِثِ ومَا أَشْبه ذَلِكَ فكُلُّها يجِبُ علَيْك أن تستَسْلِمَ، لَا الشَّيْءُ الَّذِي فعَلْتَ أسبَابَهُ ولَمْ تَنْجَحْ، ولَا الشَّيْءُ الَّذِي لَيْسَ لَكَ فِيه قُدرَةٌ ولَا حِيلَةٌ ووَقَعَ علَيْك.

[١] قَوْلُهُ: «ولكِنَّنا مَعَ ذَلِك نُؤْمِن» أَيْ مَعَ إِيمَانِنَا بهَذِهِ المَرَاتِبِ الأَرْبَعِ «نُؤْمِن بأَنَّ اللهَ تَعَالَى جَعَلَ للعَبْدِ اختيَارًا وقُدْرةً بهمَا» البَاءُ للسَّببيَّةِ «يَكُون الفِعْلُ» فلَوْلَا اختِيَارُ العَبْد للشَّيءِ مَا حَصَلَ الفِعْل، ولَوْلَا قُدرَتُه مَا حَصَلَ الفِعْلُ، أَرَأَيتَ لَو أَنَّك تُرِيدُ أَنْ تَكْتُبَ رِسَالَةً، فَإِنَّه لَا يُمْكِن أَنْ تَكتبُها بِلَا إِرَادَة، ولَو كُنْت لَا تَستَطِيعُ الكتَابَةَ -إِمَّا لجَهلِكَ بِهَا، أَو عَجزِكَ عَنْهَا- فإِنَّه لَا يُمكِن أن تكتبُها أيضًا.

إِذَنْ: فعلُ كُلِّ إنسَانٍ مَقْرونٌ بإِرَادَةٍ وقُدْرَةٍ، فلَوْلَا الإِرَادَةُ لَمْ يَفْعَلْ، ولَوْلَا القُدْرَةُ لَمْ يقَعْ مِنْهُ الفِعْلُ.

[٢] ولهَذَا قَالَ المؤلِّفُ: «والدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ فِعْلَ العَبْدِ باخْتِيَارِهِ وقُدرَتِهِ أُمُورٌ: الأَوَّلُ: قَـوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾» قَـوْلُهُ: «ائْتُوا»: فعْلٌ، و«شِئْتُم»: إِرَادَة

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً﴾[١] [التوبة:٤٦] فَأَثْبَتَ لِلْعَبْدِ إِتْيَانًا بِمَشِيئَتِهِ وَإِعْدَادًا بِإِرَادَتِهِ[٢].

الثَّانِي: تَوْجِيهُ الأَمْرِ وَالنَّهْيِ إِلَى العَبْدِ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ لَهُ اخْتِيَارٌ وَقُدْرَةٌ لَكَانَ تَوْجِيهُ ذَلِكَ إِلَيْهِ مِنَ التَّكْلِيفِ بِمَا لَا يُطَاقُ[٣]، ....

ومَشِيئَةٌ، فأثْبَتَ للعَبْدِ فِعْلًا ومَشيئَةً، والمَعْنَى ائْتُوا النِّسـاءَ فِي قُبُلِهِنَّ مِـنْ أَيِّ جِهَـةٍ شِئْتُمْ.

[١] قَوْلُهُ: «وقَوْلُهُ تعَالَى: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً﴾» فعِنْدَنا إِرَادَةٌ وإعدَادٌ، فالإرَادَةُ هِيَ المشِيئَةُ، والإعدادُ هُو الفِعْلُ.

[٢] قَوْلُهُ: «فَأَثْبَتَ للعَبْدِ إِتْيَانًا بمَشيئَتِهِ» وهِيَ قَوْلُهُ تعَالَى: ﴿فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾، «وإعدادًا بإِرَادتِهِ»: وهِيَ قَوْلُهُ تعالَى: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً﴾ وهَذَا الدَّلِيل الأَوَّلُ مِنَ الأَثَرِ.

والآيَاتُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ، والعَقْلُ والحِسُّ يُوافِقُ ذَلِكَ، فكُلُّ النَّاسِ يَعرِفُونَ أَنَّ أفعالَـهُمْ بإِرَادَتِهِمْ، وقُدرَتِهِمْ.

[٣] قَوْلُهُ: «**الثَّاني: تَوجِيهُ الأَمْرِ والنَّهيِ إِلَى الْعَبْدِ**»، فمَثَلًا قَوْلُهُ تعالَى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وقَوْلُهُ تعالَى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ﴾ مُوجَّهٌ للعَبْدِ، «**ولَو لَـمْ يَكُن لَهُ اختيَارٌ وقُدرَةٌ لكَانَ تَوجِيهُ ذَلِك إِلَيْه مِنَ التَّكلِيفِ بِمَا لَا يُطَاقُ**» فلَوْ وَجَّهَ الأَمْرَ إِلَى مَنْ لَا إِرَادَة لَهُ لَكَانَ هَذَا تكلِيفًا لمَا لَا يُطَاقُ، ولَو وَجَّهَ الأَمْرَ إِلَى مَنْ يَعجزُ عَنْهُ لَكَانَ أيضًا تكلِيفًا لِـمَا لَا يُطاقُ.

وَهُوَ أَمْرٌ تَأْبَاهُ حِكْمَةُ اللهِ تَعَالَى وَرَحْمَتُهُ وَخَبَرُهُ الصَّادِقُ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[١] [البقرة:٢٨٦].

الثَّالِثُ: مَدْحُ المُحْسِنِ عَلَى إِحْسَانِهِ، وَذَمُّ المُسِيءِ عَلَى إِسَاءَتِهِ، وَإِثَابَةُ كُلٍّ مِنْهُمَا بِمَا يَسْتَحِقُّ[٢]،..

---

[١] ولهَذَا يَقُولُ: «وَهُوَ أَمْرٌ تَأْبَاهُ حِكْمَةُ اللهِ تَعَالَى ورَحمتُهُ، وخبرُهُ الصَّادقُ فِي قَوْلِهِ تعَالَى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾» لأَنَّ اللهَ أَحْكَمُ مِنْ أنْ يأمُرَ العَبْدَ بِمَا لَا يُمْكِن أن يفعلَهُ، إذْ إنَّ أمْرَ العبْدِ بِمَا لَا يُمْكِن أن يفعَلَهُ يُعتبَر سَفهًا.

فمَثَلًا: لَوْ وَجَّهْتَ إِلَى امْرَأةٍ عَجُوز ضعِيفَةِ البَدَنِ أنْ تحمِلَ (الصُّندُوقَ التَّجوري) صنْدُوقَ الدَّراهِم الثَّقِيلِ، لعُدَّ هَذَا سفَهًا، فلَوْلَا أنَّ الإِنْسَانَ يعْمَلُ باختِيَارِهِ وإِرَادَتِهِ لكَان توجِيهُ الأَمْر إِلَيْه سفهًا تأْبَاهُ الحِكْمةُ، وتَأبَاهُ الرَّحمَةُ أيْضًا؛ لأنَّ اللهَ أرْحَمُ بعَبدِهِ أنْ يُكلِّفَه ما لَا يطِيقُ؛ ويَأبَاهُ -أيضًا- خبَرُهُ الصَّادِقُ أَيْ: خَبَرُ اللهِ فِي قَوْلِهِ تعَالَى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة:٢٨٦]. وانْتَبِهْ لهَذَا الوَجْه فإنَّه وَجْهٌ جَيِّدٌ جِدًّا، ونَرُدُّ بِهِ عَلَى الجَبْرِيَّةِ.

[٢] قَوْلُهُ: «الثَّالثُ: مدْحُ المُحسِنِ عَلَى إحْسَانِهِ، وذَمُّ المُسيءُ عَلَى إسَاءَتِهِ، وإثَابَةُ كُلٍّ منْهُما بِمَا يَستَحِقُّ» هَذَا ممَّا يدلُّ عَلَى أَنَّ فِعْلَ العبْدِ بإرَادَتِه واختِيَارِهِ، ولَوْ كَانَ بغَيْر إِرَادَة ولَا اختِيَارٍ، فهَلْ يتوجَّهُ أنْ نَلُومَ المُسيءَ، ونُثْنِيَ عَلَى المُحسِنِ؟ الجَوابُ: لَا، فإذَا كَانَ فِعْلُ العبْدِ بغَيْر إرَادَة ولَا اختيَارٍ -بَل ولَا قُدرَةٍ-؛ فَلَا فَرْقَ بَيْنَ المُحسِنِ والمُسيءِ، ولَا يُمْكِن أنْ يتَوجَّهَ المَدْحُ والثَّناءُ إِلَى المُحسِن والذَّمُّ والقَدْحُ إِلَى المُسيءِ؛ لأَنَّ كُلًّا منْهُما يفْعَلُ بِدُونِ اخْتيَارٍ وبدُونِ قُدرَةٍ، مَعَ أَنَّ القُرْآنَ والسُّنَّة مملُوآنِ بالثَّناءِ والمَدْحِ للمُحسنِينَ، والذَّمِّ والقَدْحِ للمُسيئِينَ.

وَلَوْلَا أَنَّ الفِعْلَ يَقَعُ بِإِرَادَةِ العَبْدِ وَاخْتِيَارِهِ لَكَانَ مَدْحُ الْمُحْسِنِ عَبَثًا، وَعُقُوبَةُ الْمُسِيءِ ظُلْمًا[١]، وَاللهُ تَعَالَى مُنَزَّهٌ عَنِ العَبَثِ وَالظُّلْمِ.

الرَّابعُ: أَنَّ اللهَ تَعَالَى أَرْسَلَ الرُّسُلَ ﴿مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء:١٦٥]، وَلَوْلَا أَنَّ فِعْلَ العَبْدِ يَقَعُ بِإِرَادَتِهِ وَاخْتِيَارِهِ، مَا بَطَلَتْ حُجَّتُهُ بِإِرْسَالِ الرُّسُلِ[٢].

---

[١] قَوْلُهُ: «**وَلَوْلَا أَنَّ الفِعْلَ يقَعُ بِإِرَادَةِ العَبْدِ واختِيَارِهِ لَكَانَ مَدْحُ الْمُحسِنِ عَبَثًا وعَقُوبَةُ الْمُسيءِ ظُلْمًا**» هَذَا أَيضًا فِي العُقُوبةِ والثَّوابِ، فإِذَا قُلْنا: إِنَّ الْمُحسِنَ يفْعَلُ بِدُون إِرَادَة وبدُونِ اختِيَارٍ، صَارَ مَدْحُه عَبَثًا، إِذْ كَيْف تمْدَحُه عَلَى شَيْء لم يفْعَلْهُ باختِيَارِهِ، كذَلِكَ أيضًا عُقوبَةُ المُسيءِ تكُونُ ظُلمًا؛ لأَنَّك عَاقبْتَهُ عَلَى شَيْء لَا يستَطِيعُ التَّخلُّص مِنْهُ، وهَذَا ظُلْمٌ.

ولذَلِكَ كَانَ الجبرِيَّةُ يقُولُونَ: إِنَّ اللهَ تَعالَى لَهُ أَنْ يُعاقِبَ أَصْلَحَ النَّاس وأعبَدَ النَّاس، وليسَتْ عقُوبتُه ظُلمًا، فإِذَا قُلْنا: كَيْف لَا يكُون ظُلمًا واللهُ تعَالَى يقُولُ: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه:١١٢]. قالُوا: ولَكِنَّ هَذَا لَيسَ ظُلمًا، أَليْسَ الخَلْقُ كُلُّهم عِبَادَ اللهِ؟ قُلْنا: بَلَى، قَالُوا: إِذَنْ لَهُ أَنْ يَفْعَلَ بعِبَادِهِ مَا شَاءَ. فنَقُول: نَعَمْ، لَهُ أَنْ يفْعَلَ مَا شَاءَ، لكِنَّه قَد حَرَّمَ الظُّلمَ عَلَى نفْسِهِ!.

[٢] قَوْلُهُ: «**الرَّابِعُ: أَنَّ اللهَ تَعَالَى أَرْسَلَ الرُّسلَ:** ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ **ولَوْلَا أَنَّ فِعْلَ العَبْدِ يقَعُ بإِرَادَتِهِ واختِيَارِه، مَا بطَلَتْ حجَّتُه بإِرسَالِ الرُّسل**»، فاللهُ تَعَالَى أَرسَلَ الرُّسلَ مُبشِّرينَ ومُنذِرينَ، ثُمَّ قَالَ: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾، فلَولَا أنَّ الإِنسان يَفْعَلُ باختِيَارِهِ

الخَامِسُ: أَنَّ كُلَّ فَاعِلٍ يُحِسُّ أَنَّه يَفعَلُ الشَّيْءَ أَوْ يَترُكُهُ بِدُونِ أَيِّ شُعُورٍ بِإِكْرَاهٍ، فَهُوَ يَقُومُ وَيَقْعُدُ، وَيَدْخُلُ وَيَخْرُجُ، وَيُسَافِرُ وَيُقِيمُ بِمَحْضِ إِرَادَتِهِ، ولَا يَشْعُرُ بِأَنَّ أَحَدًا يُكْرِهُهُ عَلَى ذَلِكَ، بَلْ يُفَرِّقُ تَفْرِيقًا وَاقِعِيًّا بَيْنَ أَنْ يَفعَلَ الشَّيْءَ بِاخْتِيَارِهِ وَبَيْنَ أَنْ يُكرِهَهُ عَلَيْهِ مُكْرِهٌ. وَكَذَلِكَ فَرَّقَ الشَّرْعُ بَيْنَهُما تَفرِيقًا حُكْمِيًا، فَلَمْ يُؤَاخِذِ الفَاعِلَ بِمَا فَعَلَهُ مُكْرَهًا عَلَيْهِ فِيما يَتعَلَّقُ بِحَقِّ اللهِ تَعالَى[١].

وإِرَادَتِهِ مَا قَامَت الحُجَّةُ بِإِرْسَالِ الرُّسلِ؛ لأَنَّ الَّذِين أُرسِلَ إِلَيْهم قد يقُولُونَ: يَا رَبَّنا لَا نَستَطِيعُ أَنْ نَفعَلَ، ولَا أَنْ نَترُكَ! فالأَمْرُ لَيسَ إِلَيْنَا، وعَلَيْهِ فيَكُونُ إِرْسَالُ الرُّسلِ لَيْسَ فِيهِ فَائِدَة، فإِذَا قُلْنا: إِنَّ الإِنْسانَ لَيْسَ لَهُ إِرادَة ولَا اختِيَارٌ، فَما الفَائِدَةُ مِنْ أَنْ تُرسِلَ رَسُولًا لشَخْصٍ لَا يَستَطِيعُ شَيْئًا؟ لَا فَائِدَةَ ولَا مَعْنى؛ واللهُ عَزَّوَجَلَّ أَخبَرَ بأَنَّ إرسَالَ الرُّسلِ تَقُومُ بِهِ الحُجَّةُ؛ لأَنَّ النَّاس يعْصُونَ الرُّسلَ باختيَارِهِمْ، ويُطِيعُونَهم باختيَارِهِمْ، وهَذَا وَجهٌ وَاضِحٌ، وكُلُّ هَذِهِ الأَوْجُهِ رَدٌّ عَلَى الجَبريَّةِ.

قَوْلُهُ: «مَا بَطلَتْ» دُخُولُ اللَّامِ عَلَى «مَا» ضَعِيفٌ.

[١] هَذَا أيضًا: وَجهٌ محَسُوسٌ ظَاهِرٌ.

فكُلُّ إنسَانٍ يُحسُّ أَنَّه يفعَلُ الشَّيْءَ باختِيَارِهِ، يَأتِي الإِنْسَانُ الشَّيءَ ولَا يَشْعُر أَنَّ أَحَدًا يُكرِهُهُ؛ كذَلِكَ أيضًا يَترُكُ الشَّيْء ولَا يُحِسُّ أَنَّ أَحدًا يُكرِهُهُ، ولَوْ كَانَ الإِنْسَانُ لَيسَ لَهُ إِرَادَةٌ لَكانَ يُكرَهُ عَلَى هَذَا الشَّيْء، بَل إِنَّ الإِنْسانَ يُفرِّقُ بَيْنَ مَا فَعَلَهُ باخْتيَارِهِ، ومَا فعَلَهُ بإِكْرَاهٍ.

فلَوْ قُلْتَ -مَثَلًا- لشَخْصٍ: قُمْ، فقَالَ: واللهِ مَا لِي إِرَادَةٌ فِي القيَامِ، فقُلْتَ: قُمْ وإلَّا فسَوطٌ فِي ظَهرِكَ، وقَامَ خَوفًا مِنَ السَّوطِ، فهَذَا مُكرَهٌ؛ ففَرقٌ بَيْنَ أنْ تَقُول لَهُ: قُمْ،

فيقُولُ: أهْلًا وسهلًا، فيقُومُ، فهَذَا قَامَ باختيَارِهِ.

إذَنْ: كُلُّ إنسَانٍ يُحسُّ بالفَرْقِ بَيْنَ مَا يفْعَلُهُ كُرْهًا، ومَا يفْعَلُهُ عَن رِضًا، أمَّا الجَبريَّةُ فيقُولُونَ: كُلُّها سَواءٌ؛ فشَخْصٌ ألْقَاكَ مِنَ السَّطحِ إِلَى الأَرْضِ -فهَذَا نُزُولٌ قَهرِيٌّ- وإنسَانٌ نَزَلَ مِنَ السَّطْحِ إِلَى الأَرْضِ بالدَّرَجِ -وهَذَا نُزُولٌ اختيَارِيٌّ لا شَكَّ-؛ وكلٌّ يَعرِفُ الفَرْقَ بَيْنَ هَذَا وهَذَا، وهُمَا عِنْد الجَبريَّةِ سَواءٌ!! فانْظُرْ كَيْف العُقُولُ؟! ولـهَذا نَحْنُ نَقُول: إنَّ المعتزِلَةَ أقْرَبُ إِلَى المَعقُولِ مِنَ الجبرِيَّةِ، لأَنَّ الجَبريَّةَ قَولُـهُم لَا يُتصوَّرُ أنْ يقبَلَهُ أحَدٌ.

ولذَلِكَ يقُولُ: «**بَلْ يُفرِّقُ تَفرِيقًا وَاقعيًّا عَلَى أنْ يفْعَلَ الشَّيْءِ باختِيَارِهِ وبَيْنَ أَنْ يُكرِهَهُ عليْه مُكرِهٌ، وكذَلِكَ فَرَّق الشَّرع بينَهُما تَفريقًا حُكمِيًّا: فلَمْ يُؤَاخَذِ الفَاعِلُ بِمَا فعَلَهُ مُكرَهًا عليْه فِيمَا يتعَلَّق بحَقِّ اللهِ**»، فهَلِ المُكرَهُ عَلَى الشَّيْءِ يُعاقِبُه اللهُ؟ لَا؛ حتَّى إنَّ اللهَ تَعالَى قَالَ فِي أعْظَمِ الذُّنوبِ: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ [النحل:١٠٦]. فأعظَمُ الذُّنوبِ عِنْدَ اللهِ تَعالَى الكُفْرُ ولَوْ أُكْرِهَ الإِنْسانُ علَيْه وقلْبُهُ مُطمئِنٌّ بالإِيمَانِ لَمْ يَكفُرْ والبَاقِي مِنْ بَابِ أَوْلَى.

وقَولُنا هُنَا: «**فِيمَا يتعَلَّقُ بحَقِّ اللهِ**» احْترَازًا مِمَّا يتعلَّقُ بحَقِّ الآدمِيِّ، فإِنَّ الإِنْسَانَ إِذَا أُكرِهَ عَلَى إتْلَافِ مَالِ رَجُلٍ وأتْلفَهُ فعَلَيْهِ الضَّمانُ بمَالِ الآدمِيِّ، ولَو أُكْرِهَ عَلَى قَتْلِ إنسَانٍ مِثْلَ ما لَو أنَّ رجلًا ظَالمًا جائرًا قَالَ لآخَرَ: اقْتُلْ هَذَا وإِلَّا قَتلْتُكَ فهَلْ يقتُلُهُ؟ لَا يقْتُلُه، حتَّى لَوْ قَالَ لَهُ: اقْتُلْهُ وإِلَّا قتَلْتُكَ، فإِنَّه لَا يَقْتُلُهُ، ويَصْبِرُ عَلَى تحمُّلِ القَتْلِ؛ لأَنَّه لَا يجُوزُ استِبْقَاءُ نفسِهِ بإِتْلافِ غَيْرِهِ.

ونَرى أنَّه لَا حُجَّةَ للعَاصِي عَلَى معصِيتِهِ بقَدَرَ اللهِ تَعالَى؛ لأَنَّ العَاصِيَ يُقدِمُ عَلَى المعصِيَةِ باختِيَارِهِ، مِنْ غَيْرِ أنْ يعْلَمَ أنَّ اللهَ تَعالَى قدَّرَها عَلَيْه[١]،............

ولَو أنَّ امرَأةً فِي بَطْنِها جَنِينٌ حيٌّ وقِيلَ لَـهَا: إمَّا أنْ نَقْتُلَ الجَنِينَ وتَسلَمِينَ أنْتِ وإمَّا أن يَبْقَى الجَنِينُ وتَهلِكِينَ؟ فإنَّهُ: لَا يجُوزُ قَتْلُ الجَنِينِ، بَل يبْقَى الجَنِينُ ولَوْ مَاتَتِ المرْأَةُ.

وإِذَا قَالَ العَقْلانِيُّونَ إِذَا بَقِيَ الجَنِينُ ومَاتَتِ الأُمُّ لَا بُدَّ أنْ يمُوتَ الجَنِين حينَئِذٍ نكُونُ قَد قتَلْنا نَفْسَينِ، وإِذَا قتَلْنا الجَنينَ وأخرجْناه قتَلْنا نفْسًا واحِدَةً، والعَقْلُ يَرَى أنَّ قَتْلَ نفْسٍ واحِدَةٍ أهْونُ مِنْ قَتْلِ نفْسَينِ؛ فَما الجَوابُ؟ فنَقُول: إذَا بَقِيَ الجَنِينُ فِي بَطْنِ الأُمِّ ومَاتَتِ الأُمُّ ثُمَّ مَاتَ الجَنِينُ فمَوْتُ الجَنِين هُنَا بِفعْلِ اللهِ لَا بِفعلِنَا، لَكِن لَوْ قتَلْنا الجَنِينَ صَارَ المَوتُ بِفعلِنا فَلَا يحِلُّ. وهَذِهِ شُبْهَةٌ واقِعَةٌ.

إِذَنْ: قَولُنا فِي «حَقِّ اللهِ تعالَى» احترَازًا مِنَ الإكرَاهِ فِي حَقِّ الإنسَانِ.

ولَو قَالَ لَكَ قَائِلٌ: إمَّا أنْ تذْبَحَ هذِهِ البَهِيمَةَ وإلَّا حَبَسْتُكَ -وهِيَ لَيْسَتْ للقَائِلِ-؛ فذَبحتَها مُكرَهًا، فإنَّه لَا يسقُطُ حَقُّ الآدَميِّ بَل تَضْمَنُها لصَاحبِهَا.

[١] قَوْلُهُ: «**ونَرى أنَّه لَا حُجَّةَ للعَاصِي عَلَى معصِيتِهِ بقَدَرِ اللهِ تَعالَى**»، وهَذَا يحتَجُّ بِهِ العُصَاةُ كَثِيرًا إِذَا نَصَحْتَهُ وقُلْتَ لَهُ: هَذَا حَرَامٌ، وتكسِبُ بِهِ آثامًا، قَالَ العَاصِي: هَذَا قَدَرُ اللهِ! ولَا أستَطِيعُ أنْ أرْفَعَ القَدَرَ! فكَيْفَ تَلومُنِي! فيحتَجُّ بالقَدَرِ.

فنَقُولُ: لَا حُجَّة لَهُ عَلَى المعَاصِي بقَدَرِ اللهِ؛ «**لأَنَّ العَاصِيَ يُقدِمُ عَلَى فِعْلِ المعصِيَةِ باخْتِيَارِهِ مِنْ غَيرِ أنْ يَعلَمَ أنَّ اللهَ قدَّرَها عليْه**» إلَّا بَعْدَ الوُقُوعِ يَعْلَمُ أنَّ اللهَ قدَّرَها عليْه؛ لَكِـن قَبْلَ ذَلِكَ لَا يَعْلَمُ؛ فنَقُـول: أنْتَ أَقْدَمْتَ عَلَى المَعصِيَةِ قَبْلَ أنْ تعْلَـمَ أنَّ

إذْ لَا يَعْلَمُ أحدٌ قَدَرَ اللهِ تَعالَى إلَّا بَعْدَ وُقُوعِ مَقدُورِهِ: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾[1] [لقمان:٣٤]........................

اللهَ قدَّرَها عليْك؛ فكَيْف تحتَجُّ بشَيْءٍ لَيْسَ حُجَّةً لَكَ؟! إذَنْ: لَا حُجَّةَ لَهُ عَلَى المعصِيَةِ بالقَدَرِ.

وذَكرُوا أنَّ أمِيرَ المُؤمنِينَ عُمرَ بنَ الخَطَّابِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قُدِّمَ إلَيْه سَارِقٌ فأَمَر بقَطْعِ يَدِهِ؛ فقَالَ: مَهْلًا يَا أمِيرَ المُؤمنِينَ، واللهِ مَا سرَقْتُ إلَّا بقَدَرِ اللهِ، قَالَ عُمَرُ: ونَحْنُ لَا نقْطَعُ يدَكَ إلَّا بقَدَرِ اللهِ، فاحتَجَّ علَيْه بمِثْلِ مَا احتَجَّ بِهِ، مَعَ أنَّ أمِيرَ المُؤمنِينَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ لَهُ حُجَّتَانِ: حُجَّةٌ يُرِيدُ أنْ يُلزِمَ بِهَا الخَصْمَ وهِيَ الاحتجَاجُ بقَدَرِ اللهِ، وحُجَّةٌ أُخْرَى وهِيَ الاحتِجَاجُ بشَرْعِ اللهِ، يَعْني إذَا قطَعْنَا يَدَ السَّارقِ قطَعْنَاهُ بشَرْعِ اللهِ وبقَدَرِ اللهِ، لَكِن إذَا سَرَقَ فَقَدْ سَرَقَ بقَدَرِ اللهِ لَا بشَرْعِ اللهِ.

[١] قَوْلُهُ: «إذَنْ لَا يَعْلَمُ أحَدٌ قَدَرَ اللهِ تَعالَى إلَّا بَعْدَ وُقُوعِ مَقدُورِهِ قَالَ تَعالَى: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾»: فَلَا أحَدَ يدْرِي ماذَا يَكْسِبُ غدًا لَكِن يُقدِّر ويقُولُ: غدًا سَوفَ آتِي للدَّرسِ وأقْرَأُ الكِتَابَ الفُلانيَّ، سَوْفَ أُراجِعُ محفُوظَاتِي، سَوْفَ أُراجِعُ مُقرَّراتِي، ومَا أشْبَهَ ذَلِك، لَكِن لَا يَعلَمُ أنَّه كَاسبُه؛ لأنَّه لَا يُمْكِن أنْ يَكُون كَاسِبًا لَهُ حتَّى يَعْمَلهُ فِعْلًا، ولذَلِك يقُولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾.

ونَحْن نُقَدِّر ونُقدِّر وإذَا بالقَدَرِ عَلَى خِلَاف مَا قدَّرْنا، فيُحَالُ بينَنَا وبيْنَ مَا قَدَّرْنا، إمَّا بنَقْضِ العَزِيمَةِ وانصرَاف العَزِيمَةِ إلَى شَيْء آخَر، وإمَّا بحُدُوث سَبَبٍ يقْتَضِي أنْ لَا نفعَلَ مَا كُنَّا قَدَّرْنَاهُ، ولهَذَا قَالَ اللهُ تَعالَى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾.

....

لَكِن لَوْ قُلْتَ ذَلِك عَلَى سَبِيلِ الإخبَارِ -وهُنَا فَرْقٌ دَقِيقٌ- فهَلْ يلْزَمُ أنْ تَقُول: إنْ شَاءَ اللهُ؟ يَعْني: إذَا قَالَ لَكَ إنسَانٌ: هَلْ تُسافِرُ غدًا؟ فقُلْتَ: نعَمْ، وأنْتَ لَا تُرِيدُ أَنَّكَ تُسافِرُ فِعْلًا إنَّما تُرِيدُ غدًا، يَعْنِي حَسَبَ مَا فِي نِيَّتِكَ فهَذَا يجُوزُ دُونَ أن تَقُولَ: إنْ شَاءَ اللهُ؛ لأَنَّه إخْبَارٌ عمَّا فِي نفْسِكَ وما فِي نَفْسِكَ أمرٌ وَاقِعٌ لَا يَحْتَاجُ أنْ تقُول: إنْ شَاءَ اللهُ؛ لأَنَّ اللهَ قَدْ شَاءَهُ.

أمَّا إِذَا قُلْتَ: أُسافِرُ غَدًا، بمَعْنى أَنِّي أفْعَلُ السَّفرَ، فَلَا بُدَّ أنْ تَقُول: إنْ شَاءَ اللهُ، ولهَذَا جَاءَتِ الآيَةُ الكَرِيمَةُ: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا﴾ يَعْنِي فَاعلُهُ فعْلًا.

فانْتَبِهْ لهَذَا الفرْقِ، إذَنْ: لا بُدَّ مِنْ ذِكْرِ المشِيئَةِ إِذَا أَرَدْتَ الفِعْل، أَمَّا إِذَا أَرَدْتَ الإخبَارَ عمَّا فِي نفْسِكَ فهَذَا لَا يَحْتَاجُ إِلَى ذِكْرِ المَشيئَةِ، لأَنَّ اللهَ قَدْ شَاءَهُ وأوْقَعَهُ فِي نفْسِكَ.

ولهَذَا مَنَعَ بَعْضُ العُلَماء أن تَقُول عَن شَيْءٍ فعَلْتَهُ: إِنِّي فعَلْتُه إنْ شَاءَ اللهُ، كقَولِهِ: أَنَا لبِسْتُ ثَوْبِي إنْ شَاءَ اللهُ، لَكِنْ لَوْ قَالَ بَعْدَ الصَّلاة: إنْ شَاءَ اللهُ فهَذَا يَستَقِيمُ؛ لأَنَّ الصَّلاة قَد تُنْفَى لانتِفَاءِ رُوحِهَا وخُشُوعِهَا مثَلًا، فيَقُولُ: إنْ شَاءَ اللهُ أَيْ أنَّه صَلَّى صَلَاةً مَرضيَّةً عِنْدَ اللهِ، لَكِن إذَا أرَادَ بقَولِهِ: صلَّيْتُ، أَيْ فَعَلَ فِعْلًا فَلا حَاجَةَ أنْ يقُولَ: إنْ شَاءَ اللهُ لأَنَّه صَلَّى.

فالحَاصِلُ: أنَّ قَوْلَه تعَالَى: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ يدلُّ عَلَى أَنَّه لَا حُجَّةَ للعَاصِي بقَدَرِ اللهِ لأَنَّه لَا يَدْرِي مَاذَا قَدَّرَ اللهُ علَيْه، فهُو قَدْ أَقْدَمَ عَلَى شَيْءٍ بمُجرَّدِ هَوَى نَفسِهِ.

فكيفَ يَصِحُّ الاحتِجَاجُ بحُجَّةٍ لَا يعلَمُها المحتَجُّ بِهَا حِينَ إقْدَامِهِ عَلَى مَا اعتَذَرَ بِهَا عنْهُ، وقَدْ أَبْطَلَ اللهُ تعالَى هذِهِ الحُجَّةَ بقولِهِ: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَاۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾[1] [الأنعام:١٤٨].

---

[١] قَوْلُهُ: «فكَيْفَ يَصِحُّ الاحْتِجَاجُ بحُجَّةٍ لَا يعلَمُهَا المُحتَجُّ بِهَا حِينَ إقْدَامِهِ عَلَى مَا اعْتَذَرَ بِهَا عَنْهُ، وقَدْ أَبْطَلَ اللهُ تَعَالَى هذِهِ الحُجَّةَ بقَوْلِهِ: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَاۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾»؛ لقَدْ أَبْطَلَ اللهُ تعالى هذِهِ الحُجَّةَ بقَوْلِهِ: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾ يَعْنِي: إِذَا جَادَلْتُموهُمْ فِي الشِّرْكِ: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾، وَهُمْ قَدْ حَرَّمُوا السَّائِبَةَ والوَصِيلَةَ والحَامِيَ والبَحِيرَةَ، كذَلِكَ قَالَ اللهُ تعالَى مِثْلَ ذَلِكَ التَّكْذِيبِ: ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ لأَنَّهُم يحتَجُّونَ بالقَدَرِ وهُمْ يَعْلَمُونَ أنَّهُم لا حَجَّةَ لَهُمْ فِيهِ، ولكِنَّهُم يحتَجُّون بذَلِك دَفْعًا للمُنَاظَرَةِ والمُجادَلَةِ ﴿حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَا﴾ هذِهِ الجُمْلَةُ تدُلُّ عَلَى أنَّه لا حُجَّةَ لَهُمْ، ولَوْ كَانَ لَهُمْ حُجَّةٌ مَا ذَاقُوا بأْسَ اللهِ، ولكَانَ اللهُ عذَرَهُم، ولَمْ يُنْزِلْ بِهِمْ بَأسَهُ؛ فدَلَّ عَلَى أنَّ حجَّتَهُم باطِلَةٌ.

ومَا الجَوابُ عَن قَوْلِ اللهِ تَعالَى للرَّسُولِ ﷺ: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُواْۗ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًاۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ [الأنعام:١٠٧] فجعَلَ المَشيئَةَ عُذْرًا فِي شِرْكِهِمْ؟ وفِي آيَةٍ أُخْرَى أبطَلَ هَذَا العُذْرَ، والقُرآنُ لَا يتنَاقَضُ؟

ونَقُول للعَاصِي المُحتجِّ بالقَدَرِ: لماذَا لَمْ تُقدِمْ عَلَى الطَّاعَةِ مُقَدِّرًا أنَّ اللهَ تَعَالَى قَد كتبَهَا لَكَ، فإنَّه لَا فَرْقَ بينهَا وبَينَ المَعصِيةِ فِي الجَهْلِ بالمَقدُورِ قبْلَ صُدُورِ الفِعْلِ منْكَ؟[١] ....

الجَوابُ أنْ نَقُولَ: قَالَ اللهُ تَعَالَى ذلِكَ للرَّسُولِ ﷺ تَسْلِيةً لَهُ حتَّى يَرْضَى بشِرْكِهِمْ رضًا قَدرِيًّا لَا شَرعِيًّا، لأَنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ قَبْلَ هَذَا: ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟﴾ فذَكَرَ اللهُ ذَلِك تسلِيَةً للرَّسولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ حتَّى يرْضَى ويُسلِّمَ بالقَدَرِ، ولَوْ أَنَّ المُشرِكِينَ احتَجُّوا بمَشيئَةِ اللهِ رضًا بمَشِيئَةِ اللهِ ولَكِن أَقْلَعُوا عَن شِركِهِمْ لصَحَّتْ حُجَّتُهم، لكنَّهُم قَالُوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾ استِمرَارًا عَلَى شِرْكِهِمْ.

وهَذَا فَرْقٌ دَقِيقٌ يَجِبُ عَلَى طَالِبِ العِلْمِ أن يَنْتَبِهَ لَهُ، فقَوْلُ الله تَعَالَى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟﴾ هِيَ نفْسُ قَوْلِ المُشرِكِينَ: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾، ولَكِن بينَهُما فَرْقٌ، فالمُشرِكُونَ قَالُوا ذَلِكَ احْتِجَاجًا بقَدَرِ اللهِ عَلَى مَعْصِيتِهِ واللهُ ذَكَرَ ذَلِكَ تَسلِيَةً للرَّسُولِ ﷺ ورِضًا بقَدَرِ اللهِ حتَّى لَا يَهْلِكَ: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف:٦].

[١] قَوْلُهُ: «ونَقُولُ للعَاصِي المُحتَجِّ بالقَدَرِ: لـماذَا لَمْ تُقْدِمْ عَلَى الطَّاعَةِ مُقدِّرًا أنَّ اللهَ تَعَالَى قَد كتبَهَا لَكَ؟! فإنَّه لَا فَرْقَ بيْنَهَا وبَيْنَ المَعصِيَةِ فِي الجَهْلِ بالمَقْدُورِ قَبْلَ صُدُورِ الفِعْلِ مِنْكَ».

نَقُولُ للعَاصِي: لمَاذَا لَا تُقدِمُ عَلَى الطَّاعَةِ مُقدِّرًا أنَّ اللهَ تعالى قَد كتبَهَا، كَمَا أَقْدَمْتَ عَلَى المَعْصِيةِ مُقدِّرًا أنَّ اللهَ قَدْ كَتبَهَا لَكَ؛ إِذْ لَا فَرْقَ بَيْنَ هَذَا وهَذَا، فالكُلُّ غَـيْرُ معْلُـومٍ عنْدَكَ، وحَيْثُ لَا تعْلَـمُ أَنَّ اللهَ قَـدَّرَ عـلَيْك الخَيْرَ أَو الشَّرَّ إِلَّا إِذَا وَقَـعَ،

وهَذَا لـَمَّا أخبرَ النَّبيُّ ﷺ الصَّحابَةَ بأَنَّ كُلَّ واحِدٍ قَدْ كُتِبَ مَقعَدُهُ مِنَ الجَنَّةِ ومقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ قَالُوا: أفَلَا نَتَّكِلُ ونَدَعُ العَمَلَ؟ قَالَ: «لَا، اعْمَلُوا فكُلٌّ مُيسَّرٌ لِـمَا خُلِقَ لَهُ»[١].

فنَقُولُ: لمَاذَا لَـمَّا هَمَمْتَ بالمعصِيةِ لَـمْ تُقدِّرْ أَنَّ اللهَ كَتَبَ لَكَ الطَّاعَةَ فتَعمَلَها؟ إذْ لَا فَرْقَ بَيْنَها وبَيْنَ المَعصِيةِ فِي الجَهْلِ بالمُقدُورِ قَبْلَ صُدُورِ الفِعْلِ مِنْكَ، وبذَلِكَ بطَلَتْ حُجَّتُكَ، ونَقُولُ: أنْتَ إِذَا قَدَّرْتَ أنَّ السَّيِّئَةَ كُتِبَتْ لَكَ فقَدْ أَسَأْتَ الظَّنَّ باللهِ، ورَأَيْتَ نَفْسَكَ لسْتَ أهْلًا للعِبَادَةِ؛ فلِمَاذَا لَمْ تُقدِّرْ أَنَّ اللهَ كتبَكَ مِنَ المُتَّقِينَ فتتَّقِيَ اللهَ، فأَنْتَ الْآنَ قَدَّرْتَ أنَّ اللهَ كَتبَكَ مِنَ المُسِيئِينَ العَاصِينَ، وهَذَا لَا حُجَّةَ لَكَ فِيهِ.

[١] قَوْلُهُ: «وهَذَا لـَمَّا أخبرَ النَّبيُّ ﷺ الصَّحابَةَ بأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ قَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ الجَنَّةِ ومَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ؛ قَالُوا: أَفَلَا نَتَّكِلُ وَنَدَعُ العَمَلَ؟ قَالَ: «لَا، اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيسَّرٌ لِـمَا خُلِقَ لَهُ» إنَّ النَّبيَّ ﷺ كَانَ ذَاتَ يَوْمٍ -وابنَتُهُ تُدفَنُ- عَلَى شَفِيرِ القَبْرِ؛ فقَالَ: «مَا مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ الجَنَّةِ وَمَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ» كُتِبَ فِي عِلْمِ اللهِ «فقَالُوا يَا رَسُولَ اللهِ: أفَلَا نتَّكِلُ وندَعُ العَمَلَ» ما دَامَ الشَّقِيُّ كُتِبَ شَقيًّا والسَّعِيدُ كُتِبَ سعِيدًا ألَا نتَّكِلُ فقَالَ: «لَا»، ثُمَّ ذَكَرَ جُمْلَةً لَوِ اجْتَمَعَ أَكْبَرُ الفُصحَاءِ عَلَى أنْ يَعبُرُوا بمِثْلِهَا -اخْتِصارًا- مَا استَطَاعُوا؛ قَالَ: «اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِـمَا خُلِقَ لَهُ» وأَنْتَ إِذَا عَمِلْتَ فأَنْتَ مُيسَّرٌ لِـمَا خُلِقتَ لَهُ، فَلَا تتَّكِلْ عَلَى الكِتَابِ، ثُمَّ قَرَأَ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾ وهُوَ فِعْلٌ اختيَارِيٌّ فـ﴿أَعْطَىٰ﴾ أَيْ فَعَلَ المَأْمُورَ؛ لأَنَّ فِيهِ تكلُّفًا للفِعْلِ فهُوَ بذْلُ النَّفسِ: ﴿وَاتَّقَىٰ﴾ أَيِ المَعَاصِي، ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ أَي التَّصدِيقِ بالأخبَارِ.

ونَقُولُ للعَاصِي المُحتَجِّ بالقَدَرِ: لَوْ كُنْتَ تُرِيدُ السَّفرَ لمَكَّةَ وكَانَ لَـهَا طَرِيقَانِ، أَخْبرَكَ الصَّادِقُ أَنَّ أَحدَهُما مَخُوفٌ صَعْبٌ والثَّاني آمِنٌ سَهْلٌ، فإِنَّكَ ستَسْلُكُ الثَّانيَ ولَا يُمْكِنُ أَنْ تَسلُكَ الأَوَّلَ وتَقُول: إِنَّه مُقدَّرٌ عَليَّ؛ ولَو فعَلْتَ لعدَّكَ النَّاسُ فِي قِسْمِ المجَانِينِ[١].

فإِذَا رَأَيتَ أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَـنَّ علَيْك بالإِعْطَـاءِ، والاتِّقَـاءِ، والتَّصـدِيقِ بالإِخْبَارِ فأَبْشِرْ: أَنَّ اللهَ سييَسِّرُك لليُسرَى، كَما قَالَ اللهُ تَعَالَى لنَبِيِّه صلَّى اللهُ علَيْه وعَلَى آلِهِ وسَلَّم: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ﴾؛ وقَد قَالَ: ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾.

فهَذَانِ دَلِيلَانِ، والدَّلِيلُ الثَّالثُ:

[١] قَوْلُهُ: «**وَنقُولُ للعَاصِي المُحْتَجِّ بالقَدَرِ: لَوْ كُنْتَ تُرِيدُ السَّفرَ لمَكَّةَ وكَانَ لَـهَا طَرِيقَانِ، أَخبَرَكَ الصَّادِقُ: أَنَّ أَحدَهُما مَخُوفٌ صَعْبٌ والثَّاني آمِنٌ سَهلٌ فإِنَّك ستَسلُكُ الثَّانيَ، ولَا يُمْكِن أن تَسلُكَ الأَوَّلَ وتَقُول: إِنَّه مُقدَّرٌ عليَّ؛ ولَو فعَلْتَ لعَدَّكَ النَّاس فِي قِسْمِ المجَانِينِ**» فإِنسَانٌ سيُسَافِرُ إِلَى مَكَّةَ؛ فتَقُول لَهُ: إِذَا سَافَرْتَ مَعَ الطَّرِيقِ الأَيْسَرِ فإِنَّه صَعْبٌ ومَخُوفٌ، ممتَلِئٌ بقُطَّاعِ الطَّرِيقِ، مُمتلِئٌ أَودِيَةً وجِبالًا؛ فهُو خَطَرٌ علَيْك، والطَّرِيقُ الأَيْمَنُ سهْلٌ مُعبَّد آمِنٌ مُيسَّر، فقَالَ: سأَذْهَبُ مَعَ الطَّرِيقِ الأَعْسَر، تَقُولُ لَهُ: لمَاذَا؟ فقَالَ: إِنَّه مُقدَّرٌ مكتُوبٌ علَيَّ، سيقُولُ النَّاس عنْهُ: مجْنُونٌ وسَفِيهٌ، كَيْف يسلُكُ الطَّرِيقَ المَخُوفَ وعندَهُ الطَّرِيقُ السَّهلُ الآمِنُ، ثُمَّ يقُولُ: مكتُوبٌ علَيَّ! فالآنَ أَمَامَكَ طَرِيقَانِ بيَّنَهُما اللهُ عَزَّوَجَلَّ لَكَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد:١٠]. أَي: دَلَلْنَاهُ عَلَى الطَّرِيقَينِ طَرِيقٌ سَهْلٌ آمِنٌ وَاضِحٌ غَايَتُه رِضَا اللهِ والجَنَّةُ،

ونَقُول لَهُ أيضًا: لو عُرِضَ علَيْك وظيفَتَانِ إحداهُمَا ذَاتُ مُرتَّبٍ أكْثَر، فإنَّكَ سَوْفَ تَعمَلُ فِيهَا دُونَ النَّاقِصَةِ، فكَيْفَ تَختَارُ لنَفسِكَ فِي عَمَلِ الآخِرَةِ مَا هُو الأَدْنَى ثُمَّ تحتَجُّ بالقَدَرِ؟![١]

وطَرِيقٌ آخَرُ مخُوفٌ كُلُّه قُطَّاعُ طَرِيقٍ وشَوْكٌ وشَيَاطِينُ، وغَيرُهُم أَيُّهما يَسلُكُ؟ الأَوَّلُ؛ فكَما أنَّه طَلَبُ الشَّرعِ فهُو أيضًا مُقتَضَى العَقْلِ لَكِن هَؤلاءِ -نسأَلُ اللهَ العَافيَةَ- زَاغُوا فأَزَاغَ اللهُ قُلوبَهُم، وقَدْ قَالَ اللهُ تَعالَى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ القُرْآنُ: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت:٤٤]. نسْأَلُ اللهَ العَافِيَةَ، اللَّهُمَّ اهْدِنا صِرَاطَكَ المُستَقِيمَ.

[١] قَوْلُهُ: «ونَقُولُ أيْضًا: لَوْ عُرِضَ علَيْك وَظيفَتَانِ؛ إحْداهُمَا ذَاتُ مُرتَّب أكْثَر، فإِنَّكَ سَوْفَ تَعمَلُ فِيهَا دُونَ النَّاقِصَةِ، فكَيْفَ تَختَارُ لنَفسِكَ فِي عَمَلِ الآخِرَةِ مَا هُو الأَدْنَى ثُمَّ تحْتَجُّ بالقَدَرِ؟!» هَذا لَا نُخاطِبُ بِهِ الكَافِرَ فقَطْ، بَل حتَّى المُؤمِنُ الكَسُولُ نُخاطِبُه بِهِ، لَوْ عُرِضَ علَيْك وظيفَتَانِ إحْداهُما المُرتَّبُ لَـهَا (عَشَرَةُ آلَافٍ) والثَّانية (خمسَةُ آلَافٍ) ستختَارُ الأُولى بِلَا شَكٍّ.

ولـهَذَا حتَّى الَّذِي لَا يحْصُلُ إلَّا عَلَى (خمسَةِ آلَافٍ) كُلَّما جَاءَ وَقْتُ التَّرقية يُطَالِبُ ويَتْعَبُ فِي المطالَبَةِ، وهَذَا باعْتِبَارِ الوَاقِعِ لَا باعتِبَارِ المُوافَقَةِ، فأَنَا لَا أَرَى أنَّ المُوظَّفَ يَطلُبُ التَّرقيةَ؛ لأَنَّ النَّبيَّ ﷺ قَالَ: «مَا جَاءَكَ مِنْ هَذَا المَالِ وأنْتَ غَيْرُ مُشْرِفٍ وَلَا سَائِلٍ فَخُـذْهُ، وَمَا لَا فَـلَا تُتْبِعْهُ نَفْسَكَ»(١)، فلَا تَطلُبْ تَرقيَةً؛ لأَنَّ المَالَ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب من أعطاه الله شيئًا من غير مسألة ولا إشراف نفس، رقم (١٤٧٣)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب إباحة الأخذ لن أُعطي من غير مسألة، رقم (١٠٤٥)، من حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ونَقُولُ لَهُ أيضًا: نَرَاك إِذَا أُصبْتَ بمَرضٍ جِسمِيٍّ طرَقْتَ بَابَ كُلِّ طَبِيبٍ لعِلَاجِكَ، وصَبَرْتَ عَلَى مَا ينَالُكَ مِنْ أَلَمِ عمليَّةِ الجِرَاحَةِ وعَلَى مَرَارَةِ الدَّواءِ.

فلِمَاذَا لَا تَفْعَلُ مِثْلَ ذَلِك فِي مرَضِ قَلبِكَ بالمعَاصِي؟[١]

فِي الحقِيقَة مِنَ المَالِ العَامِّ الَّذِي هُو مِن مَالِ المُسلِمِينَ عُمُومًا.

فالحَاصِلُ: أَنَّنا نَقُولُ لهَذَا الرَّجُلِ الكَسُولِ: لَوْ عُرِضَ علَيْك وظيفتَانِ إِحْدَاهُما أَكْثَرُ مُرتَّبًا أَخذْتَ الأَكْثَرَ، فكَيْفَ تَخْتَارُ الأفضَلَ فِي أَمْرِ الدُّنيا ولَا تَخْتَارُ الأَفْضَلَ فِي أَمْرِ الآخِرَةِ. وهَذَا دَلِيلٌ وَاضِحٌ.

والعَجِيبُ أَنَّ هَؤُلاءِ المُحتجِّينَ بالقَدَرِ -وهُمُ الفُسَّاقُ والعُصَاةُ- تَجِدُهُم أَكْثَرَ النَّاسِ مُسَابقةً فِي أُمُورِ الدُّنيا يُطالِبُون بالتَّرقِيَاتِ ويَخْتَارُونَ الوظَائِفَ الكَبِيرَةَ، ولَا يُمْكِن فِي يَوْمٍ مِنَ الأَيَّامِ أنْ يحتَجُّوا بالقَدَرِ، فهُمْ يحتَجُّونَ بالقَدَرِ فِي شَيْء ولَا يحتَجُّون بِهِ فِي شَيْءٍ آخَرَ.

[١] قَوْلُهُ: «ونَقُول لَهُ أيْضًا: نَرَاكَ إِذَا أُصِبْتَ بمَرَضٍ جِسميٍّ طرَقْتَ بَابَ كُلِّ طَبِيبٍ لعِلَاجِكَ، وصَبَرْتَ عَلَى مَا ينَالُكَ مِنْ أَلَمِ عملِيَّةِ الجِرَاحَةِ وعَلَى مرارَةِ الدَّواءِ، فلِمَاذا لَا تفعَلُ مِثْلَ ذَلِك فِي مَرَضِ قَلْبِكَ بالمَعَاصِي؟!»؛ هَذَا وَجْهٌ جيِّدٌ! فهؤُلَاءِ المُتْرَفُونَ إِذَا أُصِيبَ أَحَدُهُم بالزُّكَامِ مَثَلًا تجِدُ أَنَّه يَرتعِشُ جَسَدُهُ خَوْفًا مِنَ المَوْتِ، ويَطلُبُ كُلَّ طَبِيبٍ لِيُدَاوِيَهِ مِنْ هَذَا المَرَضِ، لَكِنَّ مَرَضَ القَلْبِ لَا يُبَالِي بِهِ، فمَرَضُ القَلْبِ الَّذِي أَظْلَمَ قَلْبَهُ بآثَامِهِ ومَعَاصِيهِ لَا يهتَمُّ بِهِ، ولَا يَذْهَبُ إِلَى عَالِمٍ ويَقُولُ: علِّمْنِي كَيْف أُصلِّي؟ كَيْف أُزكِّي؟ كَيْف أصُومُ؟ ولَا يذْهَبُ لرَجُلٍ عَابِدٍ يجلِسُ معَهُ سَاعَةً يزْدَادُ قَلْبُه رِقَّةً وخُشُوعًا، ولـهَذَا كَانَ بَعْضُ السَّلفِ إِذَا لَقِيَ أخَاهُ يقُولُ:

«يَا فُلانُ اجْلِسْ بِنَا نُؤْمِن سَاعَةً»، يَعْنِي: نتَذَاكَر أَمْرَ الآخِرَةِ، أَمْرَ الجَزَاءِ، أَمْرَ الأعمالِ، هَلْ نَحْنُ مُفرِّطُونَ؟ هَلْ نَحْن مُستَقِيمُونَ؟ ومَا أَشْبه ذَلِكَ تَجِدُه، ولَا يُحاوِلُ هَذَا أبدًا، لَكِن فِي أمْرَاضِ الأجْسَامِ يَكُونُ كالبَرْقِ فِي السَّبْقِ إِلَيْهِ، يطْلُبُ كُلَّ طَبِيبٍ مِنْ أجْلِ أنْ يُعالِجَهُ ويَنظُرَ مَا فِيهِ.

وعَلَى كُلِّ حَالٍ: إنَّ هَؤُلاءِ الَّذِين يحتَجُّونَ بالقَدَرِ عَلَى المَعَاصِي لَوْ خاطبْتَهُم فِي مسَائِلِ الدُّنيَا لوَجَدْتَهُم لَا يستَدِلُّون بالقَدَرِ ولَا كأنَّه شَيْءٌ مَقدُورٌ؛ «فَلِماذَا لَا تَفْعَلُ مِثْلَ ذَلِك فِي مَرَضِ قَلْبِكَ فِي المَعَاصِي». فأَصْبَحَ العَاصِي لَا حُجَّةَ لَهُ فِي مَعصيَتِهِ بقَدَرِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، ولهَذَا لَا يجُوزُ لَنَا أبَدًا أن نُصادِمَ الشَّرعَ بالقَدَرِ، فالشَّرعُ والقَدرُ كِلاهُمَا صِنوَانِ، لَا يُكذِّبُ أحدُهُما الآخَرَ، بَل يُساعِدُ أحدُهُما الآخَرَ، والقَدرُ كَمَا قَالَ بَعْضُ العُلَماءِ: القَدرُ سِرٌّ مكتُومٌ، أَي مكتُومٌ عَنِ الخلْقِ لَا يعلمُونَهُ؛ إذْ لَا يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ إلَّا اللهُ، قَالَ تَعالَى: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ ولـمَّا قَالَتِ الجَارِيَةُ مَعَ جَوارٍ يُغنِّينَ ويَنْدُبْنَ فيمَنْ قُتِلَ مِنْ آبَائِهِنَّ فِي أُحُدٍ أَو فِي بَدْرٍ دَخلَ النَّبيُّ ﷺ علَيْهِنَّ فقَالَتْ إحْدَاهُنَّ:

وفِينَا رَسُولٌ يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ.

نهَاهَا الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وقَالَ: «**لَا تَقُولِي هَكَذَا، ولَكِن قُولِي مَا كُنْتِ تَقُولِينَ**»[1] أمَّا هكَذَا فَلَا، فغَلَّق عنْهَا بَابَ الشَّرِّ وفتَحَ لَـهَا بَابَ المُبَاحِ فلَمْ يَقُل لَـهَا لَا تتكَلَّمِي أبدًا، بَل بيَّنَ المَمنُوعَ ثُمَّ بيَّنَ الجَائِزَ، وهَذِه طرِيقَةُ القُرْآنِ والسُّنَّةِ: إذَا ذَكَرَ المَمْنُوعَ ذَكَرَ المُباحَ لئَلَّا ينسَدَّ الطَّرِيقُ أمَامَ الإنسَانِ، ومعْلُومٌ أنَّ الإِنْسان إِذَا قِيلَ لَـهُ:

(١) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، رقم (٤٠٠١)، من حديث الربيع بنت معوذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

ونُؤمِنُ بأَنَّ الشَّرَّ لَا يُنسَبُ إِلَى اللهِ تَعَالَى لكَمَالِ رَحْمَتِهِ وحِكْمَتِهِ، قَالَ النَّبيُّ ﷺ: «والشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ» رَوَاهُ مُسلِمٌ. فنَفْس قَضَاءِ اللهِ تَعَالَى لَيسَ فِيهِ شَرٌّ أَبدًا، لأَنَّهُ صَادِرٌ عَنْ رَحْمَةٍ وحِكْمَةٍ[١]، ....

لَا تفْعَلْ كَذَا! مِنْ أَوَّلِ الأَمْـر تَضِيقُ علَيْه نفسُهُ، والدَّلِيل مِنَ القُرْآن قَـوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ [البقرة:٢٧٥]. وقَـوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا﴾ [البقرة:١٠٤].

ومن السُّنَّةِ قَولُ النَّبيِّ ﷺ: «لَا تَقُولُـوا: مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتَ، ولَكِـن قُولُـوا: مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ»(١)، وقَوْلُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «بِـعِ التَّمْرَ بِالدَّرَاهِمِ ثُمَّ اشْتَرِ بِالدَّرَاهِمِ جَنِـيبًا»(٢). أَيْ تمرًا طَيِّبًا، وكَانُوا يَبِيعُونَ التَّمْرَ بالتَّمْرِ مُتفَاضِلًا بِنَاءً عَلَى اختِلَافِ الرَّداءَةِ والجَوْدَةِ فأَرْشَدَهُمُ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إِلَى المُباحِ ومنَعَهُم مِنَ المُحرَّمِ.

[١] قَوْلُهُ: «ونُؤمِنُ بأَنَّ الشَّرَّ لَا يُنسَبُ إِلَى اللهِ تَعَالَى لكَمَالِ رَحْمَتِهِ وحِكْمَتِهِ قَالَ النَّبيُّ ﷺ: «والشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ» رَوَاهُ مُسلِمٌ(٣). فنَفْسُ قضَاءِ اللهِ تَعَالَى لَيْسَ فِيه شَرٌّ أَبدًا، لأَنَّه صَادِرٌ عَن رَحْمَةٍ وحِكْمَةٍ»: فَلَا يُقَالُ بيدِهِ الخَيْرُ والشَّرُّ؛ لكَمَالِ رَحمَتِهِ وحِكْمَتِهِ قَالَ النَّبيُّ ﷺ: «وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ».

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (١/ ٢١٤)، والنسائي في الكبرى رقم (١٠٧٥٩)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب البيوع، باب إذا أراد بيع تمر بتمر خير منه، رقم (٢٢٠١-٢٢٠٢)، ومسلم: كتاب المساقاة، باب بيع الطعام مثلا بمثل، رقم (١٥٩٣)، من حديث أبي هريرة، وأبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، رقم (٧٧١)، من حديث علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وإنَّما يَكُونُ الشَّرُّ فِي مَقضيَّاتِهِ، لقَوْلِ النَّبيِّ ﷺ فِي دُعاءِ القُنُوتِ الَّذِي علَّمَهُ الحَسَنَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَقِنِي شَرَّ مَا قَضَيْتَ»[١] ....

ولَـوْ أَنَّ المُؤلِّفَ -وَفَّقَـهُ اللهُ ورَحِمَهُ- جَـاءَ هُنَا بالحَدِيثِ أَوَّلًا لَكَـانَ أحسَـنَ، فلَوْ قَالَ: «ونُؤمِنُ بأَنَّ الشَّرَّ لَا يُنْسَبُ إِلَى اللهِ لقَوْلِ النَّبيِّ ﷺ: «وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ»؛ ولأَنَّ ذَلِكَ يُنافِي كَمَالَ رَحْمَتِهِ وحِكْمَتِهِ»، لَكَانَ أجودَ، لَكِنَّ الإِنْسانَ عِنْدَ التَّأْلِيفِ قَدْ يَغِيبُ عَنْهُ بَعْضُ الشَّيْءِ.

وهُنَا نَقُولُ: الشَّرُّ لَا يُنسَبُ إِلَى اللهِ أَبدًا، والدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ مِنَ الأَثَرِ قَوْلُ النَّبيِّ ﷺ: «والشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ»، ولأَنَّ هَذَا يُنافِي كَمَالَ الرَّحمَةِ والحِكْمَةِ، إِذْ إِنَّ الرَّحِيمَ لَا يُمْكِنِ أَنْ يُرِيدَ الشَّرَّ أَبدًا، فالرَّحِيمُ إِنَّما يُرِيدُ الخَيرَ، كَذَلِكَ أَيْضًا: حِكْمَتُهُ تَأْبَى أَنْ يُرِيدَ الشَّرَّ، لأَنَّه جَلَّ وَعَلَا حَكِيمٌ، وإِذَا كَانَ الحَكِيمُ يَنتَفِي عنْهُ فِعْلُ السَّفَهِ الَّذِي لَيسَ فِيه خَيرٌ ولَا شَرٌّ فكَيْفَ بِفِعْلِ الشَّرِّ؟!.

إِذَنْ: هُنَا دَلِيلٌ أَثَرِيٌّ ودَلِيلٌ نَظرِيٌّ عَلَى أَنَّ الشَّرَّ لَيسَ إِلَى اللهِ:

الدَّلِيلُ الأَثَرِيُّ هُوَ: قَوْلُهُ ﷺ: «الشَّرُّ لَيسَ إِلَيْكَ».

والدَّلِيلُ النَّظريُّ: أَنَّ ذَلِك يُنافِي كَمَالَ الرَّحمَةِ والحِكْمَةِ.

[١] قَوْلُهُ: **«وإنَّما يَكُونُ الشَّرُّ فِي مَقضِيَّاتِهِ؛ لقَوْلِ النَّبيِّ ﷺ فِي دُعاءِ القُنُوتِ الَّذِي علَّمَهُ الحَسَنَ:** «وَقِنِي شَرَّ مَا قَضَيْتَ»؛ قَوْلُهُ: «فِي مَقضَيَّاتِهِ» أَيْ: مَفعُولَاتِهِ، وأَمَّا فِعْلُهُ فلَيْسَ فِيهِ شَرٌّ؛ لقَوْلِ النَّبيِّ ﷺ فِي دُعاءِ القُنُوتِ الَّذِي عَلَّمَهُ الحسَنَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَقِنِي شَرَّ مَا قَضَيْتَ»(١) ولَـمْ يَقُل: شَرَّ قَضَائِكَ، وحَتَّى لَوْ فُرِضَ أَنَّ لَفْظَ الحَدِيثِ:

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الوتر، باب القنوت في الوتر، رقم (١٤٢٥)، والترمذي: كتاب الصلاة،

فأَضَافَ الشَّرَّ إِلَى مَا قَضَاهُ، ومَعَ هَذَا فَإِنَّ الشَّرَّ فِي المَقضِيَّاتِ لَيْسَ شَرًّا خَالِصًا مَحْضًا، بَلْ هُوَ شَرٌّ فِي مَحَلِّهِ مِنْ وَجْهٍ، خَيْرٌ مِنْ وَجْهٍ[١]، أَوْ شَرٌّ فِي مَحَلِّهِ، خَيْرٌ فِي مَحَلٍّ آخَرَ[٢].

شَرَّ قَضَائِكَ. لَكَانَ المَعْنَى شَرَّ مَقضيَّاتِكَ.

و«مَا» اسْمٌ مَوصُولٌ بمَعْنى «الَّذِي»، أَيْ: شَرَّ الَّذِي قَضَيْتَ، فيَكُونُ هُنَا التَّصرِيحُ بأَنَّ الشَّرَّ إِنَّمَا هُوَ فِي المَقضيَّاتِ.

[١] قَوْلُهُ: «**فَأَضَافَ الشَّرَّ إِلَى مَا قَضَاهُ**» يَعْنِي: لَا إِلَى قَضَائِهِ، «**وَمَعَ هَذَا فَإِنَّ الشَّرَّ فِي المَقْضِيَّاتِ لَيْسَ شَرًّا مَحْضًا خَالِصًا، بَل هُو شَرٌّ مِنْ وَجْهٍ خَيْرٌ مِنْ وَجْهٍ**» وعَلَى هَذَا فَلَا يتمَحَّضُ الشَّرُّ حتَّى فِي مَقْضيَّاتِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

فعنْدَنَا: «قَضَاءٌ»، و«مَقضيٌّ»؛ فالقَضَاءُ لَا شَرَّ فِيهِ إِطْلَاقًا وأَمَّا المَقضِيُّ ففِيهِ شَرٌّ، لكنَّه شَرٌّ مِنْ وَجْهٍ خَيْرٌ مِنْ وَجْهٍ آخَرَ، ولَا يُمْكِن أن يَكُونَ فِي مَقضيَّاتِهِ شَرٌّ محْضٌ أبدًا، لأَنَّهُ إِذَا كَانَ فِيهِ شَرٌّ مَحْضٌ صَارَ سَفَهًا.

فتَبيَّنَ أَنَّه تعالى لَيسَ فِي قَضَائِهِ الَّذِي هُو فِعْلُهُ شَرٌّ مُطْلقًا، ولَيسَ فِي مَقضيَّاتِهِ شَرٌّ محْضٌ؛ إذَنِ: الشَّرُّ المحْضُ مُنتَفٍ فِي مَفعُولَاتِهِ وفِي فِعْلِهِ تعالى.

[٢] قَوْلُهُ: «**بَلْ هُو شَرٌّ فِي مَحَلِّهِ مِنْ وَجْهٍ، خَيْرٌ مِنْ وَجْهٍ، أَو شَرٌّ فِي مَحَلِّهِ، خَيْرٌ فِي مَحَلٍّ آخَرَ**»: إِذَنْ: لا بُدَّ مِنْ خَيْرٍ؛ إِمَّا فِي نَفْسِ المَحَلِّ، أَو فِي مَحَلٍّ آخَرَ.

= باب ما جاء في القنوت في الوتر، رقم (٤٦٤)، والنسائي: كتاب قيام الليل، باب الدعاء في الوتر، رقم (١٧٤٥)، وابن ماجه: كتاب إقامة الصلاة، باب ما جاء في القنوت في الوتر، رقم (١١٧٨)، من حديث الحسن بن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

فالفَسَادُ فِي الأَرْضِ مِنَ: الجَدْبِ والمَرَضِ والفَقْرِ والخَوْفِ شَرٌّ، لكِنَّه خَيْرٌ فِي مَحَلٍّ آخَرَ[١]. قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم:٤١].

وقَطْعُ يَدِ السَّارِقِ ورَجْمُ الزَّاني شَرٌّ بالنِّسْبةِ للسَّارقِ والزَّانِي فِي قَطْعِ اليَدِ وإزهَاقِ النَّفْسِ[٢]،..........................

---

[١] قَوْلُهُ: «فَالْفَسَادُ فِي الأَرْضِ مِنَ الجَدْبِ والمَرَضِ والْفَقْرِ والخَوْفِ شَرٌّ» الجَدْبُ ضِدُّه الخَصْبُ، فكَونُ الأَرْض مُجْدِبةً لَيْسَ فِيهَا نباتٌ فهَذَا شَرٌّ، لأَنَّهُ يَهلِكُ بسَببِهِ المَوَاشِي والأنْعَامُ، بَلْ والآدَمِيُّ أحْيانًا، وكَذَا المَرَضُ والفَقْرُ، والجهْلُ شَرٌّ؛ «لَكِنَّهُ خَيْرٌ فِي مَحَلٍّ آخَرَ»؛ فمَثَلًا يقُولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾: هَذَا فسَادٌ وهُوَ شَرٌّ، لَكِنْ قَالَ تعَالَى: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾؛ إذَنِ: الرُّجوعُ خَيْرٌ لَا شَكَّ، وإِذَاقَةُ النَّاس بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا خَيْرٌ أَيْضًا لأَنَّها تَعجِيلٌ للعُقُوبَةِ فِي الدُّنيَا وعُقوبَةُ الدُّنيَا أَهْوَنُ مِنْ عُقُوبَةِ الآخِرَةِ. فاتَّضَحَ أنَّ الشَّرَّ لَا يَكُون شرًّا مَحْضًا حتَّى فِي مَفعُولاتِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، لأَنَّ فعْلَهُ كُلَّه حِكْمَةٌ.

[٢] قَوْلُهُ: «وقَطْعُ يَدِ السَّارقِ ورَجْمُ الزَّانِي شَرٌّ بالنِّسْبَةِ للسَّارقِ والزَّانِي فِي قَطْعِ اليَدِ وإِزْهَاقِ النَّفْسِ»: ففِي السَّارقِ تُقطَعُ يدُهُ وهَذَا شَرٌّ، كذَلِكَ الزَّانِي المُحصَنُ يُرجَمُ، وهَذَا شَرٌّ؛ لأَنَّهُ يمُوتُ.

لَكِنْ فِي المثَالِ الأَوَّلِ وهُوَ الفسَادُ فِي الأَرْضِ إِنَّما كَانَ شَرًّا فِي محلِّهِ خَيرًا فِي محَلٍّ آخَرَ، أمَّا المِثَالُ الثَّاني فهُوَ شَرٌّ وخَيْرٌ فِي محلِّهِ فِي نَفْسِ الوَقْتِ.

لكنَّه خيرٌ لـهُما مِنْ وَجهٍ آخرَ، حَيْثُ يَكُون كفَّارَةً لـهُما فَلَا يجْمَعُ لـهُمَا بيْنَ عُقوبتي الدُّنيَا والآخِرَةِ[١]، وهُوَ أيضًا خيْرٌ فِي محلٍّ آخرَ، حَيْثُ إنَّ فِيهِ حمَايَةَ الأمْوَالِ والأَعْرَاضِ والأَنْسَابِ[٢].

---

[١] قَوْلُهُ: «لَكِن خَيْرٌ لـهُمَا مِنْ وَجْهٍ آخَرَ؛ حَيْثُ يَكُون كفَّارَةً لـهُمَا»: فإِنَّ هذِهِ الحُدودَ تكُونُ مُكفِّرَةً للذُّنوبِ.

قَوْلُهُ: «فَلَا يجْمَعُ لـهُمَا بَيْنَ عُقوبتَي الدُّنيَا والآخِرَةِ» فالسَّارِقُ إِذَا قُطِعَتْ يدُهُ ولَوْ مِنْ غَيْرِ توبَةٍ صَارَ ذَلِكَ كفَّارَةً لَهُ عَنِ العُقُوبةِ فِي الآخِرَةِ، أمَّا إِذَا تَابَ فالْأَمْرُ ظَاهِرٌ، أنَّه تُرْفَعُ عَنْهُ العُقُوبَةُ فِي الآخِرَةِ، وكذَلِكَ يُقَالُ فِي الزَّانِي.

[٢] قَوْلُهُ: «وهُوَ أيْضًا خيْرٌ فِي محَلٍّ آخرَ» أَي قَطْعُ يَدِ السَّارِقِ ورَجْمُ الزَّانِي خَيْرٌ فِي محلٍّ آخَرَ، «حَيْثُ إنَّ فِيهِ حمَايَةَ الأَمْوالِ والأَعْرَاضِ والأَنْسَابِ»؛ فحِمايَةُ الأَمْوالِ يَكُونُ فِي قَطْعِ يَدِ السَّارِقِ، فكُلُّ إنسَانٍ يَعرِفُ أنَّ يدَهُ ستُقطَعُ لَوْ سَرَقَ فإِنَّه يَتْرُكُ السَّرقَةَ، ورَجْمُ الزَّانِي فِيهِ حِمَايَةٌ للأَعْرَاضِ وفِيهِ حِمَايَةٌ للأَنْسَابِ، فكُلُّ إنسَانٍ يَعرِفُ أنَّهُ إِذَا زَنَى وهُوَ محُصَنٌ رُجِمَ فإِنَّه لَنْ يَزْنِيَ؛ فنَحفَظُ أعْرَاضَ بَنِي آدَمَ ونحْفَظُ أنسَابَهُمْ، إِذْ لَوْ أَنَّ الإِنْسانَ يَزنِي كُلَّما شَاءَ لاختَلَطَتِ الأنسَابُ فَلَا يُدرَى هَذَا الولَدُ مِنَ الوَطءِ الحَلَالِ أَو مِنَ الوَطءِ الحَرَامِ؟!

فإِذَا قَالَ قَائِل: أَيُّهما أهَمُّ حمَايَة الأبدَان أَمِ الأَمْوال؟

فالجَوابُ: حمَايَةُ الأبدَانِ، لَكِنَّ المصلَحَةَ العَامَّةَ تَربُو عَلَى المصلحَةِ الخَاصَّةِ، فحِمايَةُ أمْوالِ النَّاس مصلَحَةٌ عَامَّةٌ، وقَطْعُ يَدِ السَّارِقِ ضَرَرٌ خَاصٌّ، فالمسَائِلُ العَامَّةُ مقدَّمَةٌ عَلَى الخَاصَّةِ، ولـهَذَا قطَعْنا يَـدَ السَّارِقِ مِنْ أجْلِ أَنَّه سَرَقَ رُبُعَ دِينَارٍ وهُـوَ مَا

يُساوِي خَمْسَةً وعشرينَ رِيَالًا تَقْرِيبًا أَو أقلَّ، ولَو أنَّ جَانِيًا قَطَعَهُ لألْزَمْنَاهُ بِنِصْفِ الدِّيةِ وهِيَ خَمْسُونَ بَعِيرًا.

فإِذَا قِيلَ: كَيْفَ تكُونُ قيمَةُ اليَدِ خَمْسينَ بَعِيرًا وإِذَا سَرقَتْ فَخِذَ البَعِيرِ قُطِعَتْ؟!

فنَقُولُ: أمَّا الأَوَّلُ فحِمَايَةٌ للأبْدَانِ والأنْفسِ، وأمَّا الثَّاني فحِمَايَةٌ للأمْوالِ، ولهَذَا قَالَ بَعْضُ أَهْلِ العِلْمِ رَحِمَهُمُ اللَّهُ: إنَّ قَطْعَ يَدِ السَّارِقِ برُبُعِ دِينَارٍ حمَايَةٌ للأمْوالِ، وإِنَّ جَعْلَ دِيَتَها نِصْفَ دِيَةِ النَّفسِ حمَايَةٌ للنُّفوسِ؛ وهَذَا هُوَ الحَقُّ.

انْتَهَى الكَلَامُ عَلَى الأُصُولِ السِّتَّةِ؛ وهِيَ: «الإِيمَانُ باللهِ، ومَلائِكتِهِ، وكُتُبِهِ، ورُسُلِهِ، واليَومِ الآخِرِ، والقَدَرِ خَيرِهِ وشَرِّهِ»، وهَذِهِ هِيَ أُصُولُ الإِيمَانِ الَّتِي بَنَى أَهْلُ السُّنَّةِ والجَمَاعَةِ إِيمَانَهُمْ عَلَيْهَا.



فَصْــلٌ

هَذِهِ العَقِيدَةُ السَّامِيَةُ المتضمِّنَةُ لِهَذِهِ الأُصُولِ العَظِيمَةِ تُثْمِرُ لمعتَقِدِهَا ثَمَرَاتٍ جَلِيلَةً كَثِيرَةً[١].

---

[١] هذِهِ العَقِيدَةُ -فِي الحقيقَةِ- تُثْمِرُ ثمَرَاتٍ جَلِيلَةً، لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَو أَلْقَى السَّمْعَ وهُوَ شَهِيدٌ، فكَثِيرٌ مِنَ النَّاس -نسْأَلُ اللهَ أَنْ لَا يجعَلَنَا مِنْهُمْ- يقْرَؤُونَ هذِهِ الْأَرْكَانَ ويُجِيدُونَها تمَامًا، لَكِنْ عَلَى أَنَّها أمُورٌ نظرِيَّةٌ لَا تُثْمِرُ سُلُوكًا طَيِّبًا ومَنْهَجًا سَلِيمًا، بَلْ نَظرِيًّا؛ فالإِيمَانُ باللهِ يتضَمَّنُ كَذَا، والإِيمَانُ بالمَلائكةِ يتضَمَّنُ كَذَا، والإِيمَانُ بالكُتُبِ يتضَمَّنُ كَذَا، والإِيمَانُ بالرُّسُلِ يتضَمَّنُ كَذَا، والإِيمَان باليَوْمِ الآخِرِ يتضَمَّنُ كَذَا، والإِيمَان بالقَدَرِ يتضَمَّنُ كَذَا، لَكِنَّ كثيرًا مِنْهم لَا يُثْمِرُ لَهُ هَذَا الإِيمَانُ السُّلوكَ الصَّوابَ، وإِذَا شِئْتَ أَنْ تَرَى ذَلِك فانْظُر إِلَى العَالَمِ الكَثِيرِ الَّذِي يَدخُلُ المَدَارِسَ والمعَاهِدَ والجَامِعَاتِ، أُمَمٌ لَوْ أَنَّ هذِهِ الأُمَمَ تُطبِّق حقيقَةَ مَا قَرَأَتْ لأَصْبحَ الشَّعبُ شَعْبَ الخُلفَاءِ الرَّاشدِينَ، لَكِنَّ الوَاقِعَ أَنَّ كُلَّ دِراستِنَا إِنَّما هِيَ دِرَاسَاتٌ نظرِيَّةٌ، والدَّلِيلُ عَلَى هَذَا: أَنَّ الطَّالبَ يقْرَأُ أَنَّ بِرَّ الوَالدَينِ وَاجِبٌ، فتَجِدُ عامَّتَهُم لَا يَبرُّ بوَالِدَيهِ؛ فيقْرَأُ أَنَّ صلَةَ الرَّحمِ واجبَةٌ، وهَلْ كُلُّ إِنسَانٍ يَصِلُ رَحِمَهُ؟ بَعضُ النَّاسِ لَا يَصِلُونَ أرحَامَهُم، فتَجِدُ أَنَّه يَزُورُ صديقَهُ صَبَاحًا ومسَاءً، لكنَّه لَا يزُورُ قَرِيبَهُ إِلَّا فِي السَّنَةِ مَرَّة أَو عِنْد المنَاسبَاتِ؟! وتجِدُ أَنَّ الطَّالبَ يعرِف أَنَّ الكذِبَ حَرَامٌ ومَعَ ذَلِك يكْذِبُ، ويقرَأُ أَنَّ الغِشَّ حرَامٌ ثُمَّ يَأتِي ويقُولُ: هَلِ الغِشُّ فِي الامتِحَانِ حرَامٌ؟ يسْأَلُ عَن شَيْءٍ يعرِفُ حُكمَهُ، أَو يَأتِي ويقُولُ: هَلِ الغِشُّ فِي الإِنجلِيزِيَّةِ والفِيزيَاءِ

فالإِيمَانُ باللهِ تَعَالَى وأسْمَائِهِ وصِفَاتِهِ يُثْمِرُ للعَبْدِ محبَّةَ اللهِ وتَعظِيمَهُ المُوجِبَينِ للقِيَامِ بأَمْرِهِ واجْتنَابِ نَهْيِهِ[١]، ....

والكيمَياءِ حَرَامٌ؟ فنَقُول لَهُ: أليْسَتْ مَادَّةً مِنَ المَوادِّ؟!

والمُهِمُّ: أنَّ أُصُولَ الإِيمَان السِّتَّةَ الَّتِي بيَّنَها الرَّسُولُ ﷺ لَا تنْفَعُ الإِنْسانَ إلَّا إِذَا قَبِلَها وتَأثَّرَ وانْتَفَعَ بِهَا، أمَّا مجرَّدُ النَّظَرِ فأَنَا ضَامِنٌ أنَّه يُوجَدُ فِي الكُفَّارِ مَنْ يَدْرُسُ هذِهِ الأشْيَاءَ دراسَةً وافِيَةً، ويكُونُ عنْدَهُ مِنَ الاستنبَاطَاتِ واستِخْرَاجِ الفَوائِدِ أكْثَرَ ممَّا عِنْدَ كَثِيرٍ مِنَ النَّاس.

فتجِدُ مِنَ الكُفَّارِ مَنْ يُؤلِّفُونَ فِي اللُّغةِ العَربيَّة ويُحلِّلُونها فِقْهًا وتَعْبِيرًا ومَعَ ذَلِك هُمْ كُفَّارٌ، فلِهَذَا نسْأَلُ اللهَ أَنْ يُعينَنَا عَلَى الانتِفَاعِ بِمَا عَلِمْنَا.

قَوْلُهُ: «**فَصْلٌ: هذِهِ العَقِيدَةُ السَّاميَةُ المُتضمِّنَةُ لـهَذِهِ الأُصُولِ العَظِيمَةِ تُثْمِرُ لمعتَقِدِها ثمَرَاتٍ جليلَةً كثِيرَةً**» قولُه: «هذِهِ العَقِيدَةُ السَّاميَةُ» أي العَالِيَةُ، أي أنَّها تُثْمِرُ إِذَا وَجَدَتْ أَرْضًا قَابِلَةً وإِلَّا فَلَا، فلَوْ أَنَّكَ بذَرْتَ الحَبَّ فِي أَرْضٍ سَبِخَةٍ فإِنَّها لَا تُثْمِرُ، لَكِنْ فِي روْضَةٍ مِنْ رِيَاضِ الأَرْض تجِدُ أنَّها تُثْمِرُ إِذَا صَادَفَتْ محَلًّا قَابِلًا.

[١] قَوْلُهُ: «**فالإِيمَانُ باللهِ تَعَالَى وبأَسْمَائِهِ وصِفَاتِهِ يُثْمِرُ للعَبْدِ محبَّةَ اللهِ وتعظِيمَهُ المُوجِبَيْن للقِيَامِ بأَمْرِهِ واجتِنَابِ نَهْيِهِ**»؛ فالإِيمَانُ باللهِ عَزَّوَجَلَّ يتضَمَّنُ محبَّةَ اللهِ لِمَا فِي أَسمَائِهِ مِنَ المَغْفِرَةِ والرَّحمَةِ والحِكْمَةِ...إلخ، وتُثْمِرُ كذَلِكَ الخَوْفَ والتَّعظِيمَ، فَإِذَا آمَنْتَ بأَنَّه سَمِيعٌ بَصِيرٌ عَلِيمٌ شَدِيدُ العِقَابِ، خِفْتَهُ وعظَّمْتَهُ، وهَذَا الحُبُّ والتَّعظِيمُ بِهِمَا يَكُونُ القِيَامُ بالأَمْرِ والنَّهي، فبِالحُبِّ يَكُونُ فِعْلُ الأَوَامِرِ؛ لأَنَّ فِعْلَ الأَوَامِرِ تُوصِلُ إِلَى محبَّةِ اللهِ، فَإِذَا أحبَّ اللهَ سَعَى فِي الأَسْبابِ المُوصِّلَةِ إِلَيْه عَزَّوَجَلَّ، وبالتَّعظِيمِ يَكُون اجتِنَابُ النَّواهِي، لأَنَّك إِذَا عظَّمْتَهُ خَشِيتَ مِنْ عُقُوبَتِهِ ومَا ارتكَبْتَ مَعصِيتَه.

والقِيَامُ بأَمْرِ اللهِ تَعَالَى واجتِنَابُ نَهْيِهِ يحْصُلُ بِهِمَا كَمَالُ السَّعادَةِ فِي الدُّنيَا والآخِرَةِ للفَرْدِ والمُجتَمَعِ[١]:..

[١] قَوْلُهُ: «**والقِيَامُ بأَمْرِ اللهِ تَعَالَى واجْتِنَابِ نَهْيِهِ يحْصُلُ بِهِمَا كَمَالُ السَّعادَةِ فِي الدُّنيَا والآخِرَةِ للفَرْدِ والمُجتَمَعِ**»: وهَذِهِ ثَمَرَةٌ عظِيمَةٌ، فأحيانًا يُفَضِّلُ الإِنْسَانُ محبَّةَ اللهِ عَلَى جَزَائِهِ، لأَنَّه يجِدُ فِي قَلْبِهِ النَّعيمَ والسُّرورَ والانشِرَاحَ والطُّمأنينَةَ بمَحبَّةِ اللهِ، ويقُولُ: إنْ كَانَ أَهْلُ الجنَّةِ فِي مِثْلِ هَذَا النَّعِيمِ فَلَا نعِيمَ بعْدَهُ؛ فقَدْ تَرِدُ عَلَى القَلْبِ أشيَاءُ: غفْلَةٌ ووَعْيٌ، وصِحَّةٌ ومَرَضٌ، وفِي بَعْضِ الأَحْيَانِ يصِلُ إِلَى درَجَةٍ عاليةٍ، وذَلِكَ لِـمَا تُشاهِدُه مِنْ رَحمَتِهِ وإحسَانِهِ وفضْلِهِ.

ولذَلِكَ جَاءَ فِي الأَثَرِ: «أَحِبُّوا اللهَ لِـمَا يَغْذُوكُمْ بِهِ مِنَ النِّعمِ»(١)، وتَأمَّل فِي نفسِكَ، وإِذَا اللهُ قَد عافَاكَ ورزَقَكَ وأمَّنكَ ويَسَّر أمُورَكَ فتُحبَّهُ، ولَوْ جاءَتْك نِعْمَةٌ طَارِئَةٌ -فالنِّعمُ الدَّائمَةُ قَد لَا يَرَى الإِنْسَانُ فِيهَا كَبِيرَ فَضْلٍ- بأَنْ رُزِقْتَ وَلَدًا مَثَلًا؛ أَلَيْسَتْ تَزْدَادُ محبَّتُك للهِ؟ بلَى، تَزْدَادُ، وبِلَا شَكٍّ تَعرِفُ نعْمَتَهُ عَلَيْك، ولذَلِكَ كَانَ مِنَ المَشْرُوعِ عِنْد تجدُّدِ النِّعمِ: أنْ يَسجُدَ الإِنسانُ شُكْرًا للهِ، فأَحِبَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ لِـمَا يغْذُوك بِهِ من النِّعم.

ثُمَّ هُناكَ مرتبَةٌ ومنزِلَةٌ عاليَةٌ أعْلَى مِنْ هذِهِ وهي أنْ تُحِبَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ لكَمَال حِكمَتِهِ وكَمَالِ رحمَتِهِ وكَمَالِ شَريعَتِهِ وكَمَالِ قضَائِهِ، وهَذَا أَشَدُّ مِنَ الأَوَّلِ: أن تُحبَّ اللهَ لكَمَال صِفَاتِهِ لَا لكَمَال فضْلِهِ وإحسَانِهِ عَزَّوَجَلَّ فقَطْ.

(١) أخرجه عبد الله بن أحمد في فضائل الصحابة رقم (١٩٥٢)، والآجري في الشريعة رقم (١٧٦٠)، والحاكم في المستدرك (٣/ ١٤٩-١٥٠)، والبيهقي في الشعب رقم (٤٠٤)، من حديث ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا.

﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[1] [النحل:٩٧].

---

[١] إذَن: الإيمان باللهِ يُثْمِرُ هذِهِ الثَّمرَةَ الجَليلَةَ، وهَذِهِ الثَّمرَةُ الجَليلَةُ لَيْسَ فَوقَها سعَادَةٌ، واللهِ! لَا القُصورُ ولَا الأزوَاجُ ولَا البنونَ ولَا المرَاكِبُ الفخمَةُ ولَا كُلُّ نعيمٍ يُساوِي هَذَا، ولهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ هذِهِ الجُمْلَةُ حاليَّة -قَيْدٌ-، فَلَا ينْفَعُ العمَلُ الصَّالحُ بِدُونِ إيمَانٍ.

ثم قال تعالى: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ -مَا أعظَمَ القُرْآنَ والمتكلِّمَ به!- فلَمْ يَقُل: فلنرزُقَنَّهُ أَو فلنُكثِرنَّ مالَهُ، بَل قَالَ: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾، والحياةُ الطيِّبَةُ تكُونُ حتَّى مَعَ الأمرَاضِ، بَل حتَّى مَعَ الفقْرِ، وحتَّى مَعَ البَلاءِ يَكُونُ الإِنْسَانُ مُطمَئِنًّا صَابِرًا عَلَى قَضَاءِ اللهِ وقدَرِهِ رَاضِيًا بِهِ ربًّا.

وهَذِه هِيَ الحياةُ الطيِّبَةُ، فلَا ينظُر عِنْد المصَائِبِ إلَّا إلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، يسأَلُهُ الثَّوابَ ويَرجُوه إزالَةَ المحنَةِ، وحينَئِذٍ تَطِيبُ حياتُهُ، لَكِن الَّذِي لَيْسَ عِنْده إيمَانٌ، أَو عنْدَهُ إيمَانٌ لَكِن نَاقِصُ العمَلِ؛ تجِدُه يجِدُ كُلَّ مُصيبَةٍ حَسْرَةً فِي قَلْبِهِ؛ لأَنَّه لَا يرجُو ثَوابًا ولَا تكفِيرًا للسَّيِّئاتِ، إذْ إنَّ همَّهُ أنْ يَكُون فِي هذِهِ الدُّنيا مُنعَّمًا، فإذَا فَاتَهُ النَّعِيمُ ولَو فِي لحْظَةٍ واحِدَةٍ حَزِنَ ودَامَ قَلقُهُ، لَكِنَّ الَّذِي مَعَ اللهِ صَابرٌ عَلَى قضَائِهِ محُتَسِبٌ لثَوابِهِ تجِدُهُ دَائمًا مَسرُورًا، حتَّى عِنْد المصَائِبِ يحْزَنُ لكنَّه لَا يَرَى أَنَّ ذَلِك انتِقَامٌ مِنَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، بَل لمصْلَحَةِ هَذَا الرَّجُلِ؛ ولذَلِكَ قَالَ: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ فهَذا جَزَاءُ الدُّنيا.

أمَّا فِي الآخِرَةِ فقَالَ: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ أي بثوابِ أحسْنِ العَمَلِ، فإنَّهُم يُثَابُون أحسْنَ الثَّوابِ فِي كُلِّ عَمَلٍ، والأعْمالُ تختَلِفُ وثَوابُها يختَلِفُ، لَكِن يُجزَى عَلَى كُلِّ عمَلٍ بأحسْنِ جزاءٍ، ولَيْس المَعنَى أنَّه يُجزى جَزاءَ الصَّلاة عَلَى مَنْ فعَلَ طاعَةً يَسِيرَةً، بَلِ المَعْنَى أنَّه يُجزَى أحْسَنَ جَزاءٍ عَلَى كُلِّ عمَلٍ، وكلُّ عَمَلٍ بحَسَبِهِ.

يقُولُ بَعْض السَّلفِ رَحِمَهُمُ اللَّهُ: «لَوْ يَعْلَمُ المُلُوكُ وأبناءُ المُلُوكِ مَا نَحْن فِيه لجَالَدُونا بالسُّيوفِ» مَعَ أنَّ المُلُوكَ قَدْ كمُلَتْ لهُمُ الدُّنيا، فهُمْ مُعزَّزُون مُكرَّمُون تَخدمُهم النَّاس وتُسهِّل أُمُورَهم -لَكِن ليسَتْ راحَةُ قُلُوبِهِمْ كرَاحَةِ المُؤمِنِ المتَّصلِ قَلْبُه باللهِ أبَدًا مَهْما كَانَ-، وتجِدُهم ينامُون عَلَى غمٍّ ويقُومُون عَلَى هَمٍّ، لَكِنَّ المُؤمنَ ينامُ عَلَى طَاعَةِ اللهِ ويقُومُ عَلَى طَاعَةِ اللهِ، فتَجِدُه عِندَ نومِهِ يقُولُ: «بِاسْمِكَ رَبِّي وَضَعْتُ جَنْبِي وبِكَ أَرْفَعُهُ إِنْ أَمْسَكْتَ نَفْسِي فَارْحَمْهَا، وَإِنْ أَرْسَلْتَهَا فَاحْفَظْهَا بِمَا تَحْفَظُ بِهِ عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ»(١). ويُفوِّضُ أمْرَهُ إِلَى اللهِ، وعنْدَ القِيَامِ يقُولُ: «الحَمْدُ للهِ الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَ مَا أَمَاتَنَا وَإِلَيْهِ النُّشُورُ»(٢)، تجِدُه دائِمًا عَلَى ذِكْرِ اللهِ عِنْد نومِهِ وعنْدَ يَقَظَتِهِ ودائِمًا قَلْبُهُ حَيٌّ بذِكْرِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

مَسْأَلَةٌ: المَصَائِبُ إِذَا أَصَابَتْ إنسَانًا فهِيَ تكفِيرٌ للذُّنُوب ولَيْس فِيهَا ثَوابٌ، فِيهَا حَظٌّ مِنَ القَضَـاءِ، وإِذَا صَبَرَ وإِذَا احْتَسَبَ الأجْرَ صَـارَ فِيهَا تكفِيرٌ للذُّنُـوب وأجْـرٌ،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الدعوات، باب التعوذ والقراءة عند المنام، رقم (٦٣٢٠)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع، رقم (٢٧١٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الدعوات، باب ما يقول إذا نام، رقم (٦٣١٢)، من حديث حذيفة.

ومِنْ ثَمَرَاتِ الإِيمَانِ بالمَلائِكَةِ:

أَوَّلًا: العِلْمُ بعَظَمَةِ خَالِقِهِمْ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وقُوَّتِهِ وسُلطَانِهِ[١].

يَعْني الأَجْرُ لَا يَكُون إِلَّا لِمَنِ احْتَسَبَ الأَجْرَ عِنْد اللهِ، أَمَّا التَّكفِيرُ للذُّنُوب فهُو بمُجرَّدِ مَا تُصيبُهُ المُصيبَةُ يُكفَّرُ بهَا الذُّنُوب؛ ولَكِن هَلْ يُصَابُ غَيرُ المُذنِبِ؟

الجَوابُ: نَعَمْ، رُبَّما يُصَابُ غَيْرُ المُذنِبِ رِفْعَةً لدَرَجَاتِهِ، لَيْسَ فِي هَذا شَكٌّ، فالرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كَانَ يُوعَكُ كَما يُوعَكُ الرَّجُلانِ مِنَّا، فيَكُونُ فِي ذَلِك رِفْعَةٌ لدَرَجَاتِهِ، ولأَجْلِ أنْ تَتِمَّ درَجَةُ الصَّابرِينَ فِي حَقِّهِ؛ ولهَذَا أَصْبَرُ النَّاس عَلَى أقدَارِ اللهِ وعَلَى المصَائِبِ وعَلَى شَرْعِ اللهِ هُو الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

[١] قَوْلُهُ: «**وَمِنْ ثَمَراتِ الإِيمَان بالمَلائِكَةِ: أَوَّلًا: العِلْمُ بعظمَةِ خَالِقِهِمْ** تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ **وقَوَّتِهِ وسُلطَانِهِ**»: لأنَّ عظمَةَ المخلُوقِ تدُلُّ عَلَى عظمَةِ الخَالِقِ ولا بُدَّ، فالمَلائِكَةُ -عليهم الصَّلاة والسَّلام- أقْوِياءُ فِي كُلِّ شَيْء حتَّى فِي دَارِ العُقوبَةِ؛ قَالَ تَعالَى: ﴿عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم:٦]. غلاظُ الطَّبائِعِ، شِدادُ الأجسَامِ أقْوياءُ.

وكذَلِكَ أيْضًا المَلائِكَةُ الآخَرُون كلُّهُم أقْوِياءُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ۝١٩ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء:٢٠]. ولَا يستَطِيعُ هَذَا أحَدٌ مِنَ البَشَرِ.

إذَنْ: فإذَا عرَفْتَ قُلُوبَهُم وعَظَمْتَهُم استَدْلَلْتَ بهَذه المعرِفَةِ عَلَى عظمَةِ خَالِقِهِمْ؛ فجِبرِيلُ -صلَواتُ اللهِ وسَلَامُهُ علَيْه- رَآهُ النَّبِي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى صُورَتِهِ التِي خُلِقَ عَلَيْها مرَّتَينِ، مَرَّةً فِي الأَرْضِ، ومَرَّةً فِي السَّماءِ، لَهُ سِتُّ مئَةِ جَناحٍ

ثانيًا: شُكْرُه تَعَالَى عَلَى عِنَايتِهِ بعِبَادِهِ، حَيْثُ وَكَّل بهِمْ مِنْ هَؤُلاءِ المَلائِكَةِ مَنْ يَقُومُ بحِفظِهِمْ وكتَابَةِ أعمَالِـهِمْ وغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ مَصَالِحِهِمْ[١].

قَدْ سَدَّ الأُفُقَ(١)، وهُوَ مَلَكٌ وَاحِدٌ مِنْ مَلائِكَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ فكَيْفَ بالمَلائِكَةِ الآخَرِينَ.

إِذَنِ: الإِيمان بالمَلائِكة يَسْتَلزِمُ الإِيمان بعظَمَةِ الخَالِقِ عَزَّوَجَلَّ؛ لأَنَّ قُوَّةَ المخْلُوقِ تدُلُّ عَلَى قُوَّةِ الخَالِقِ.

[١] قَوْلُهُ: «ثَانِيًا: شُكْرُهُ تَعَالَى عَلَى عِنَايتِهِ بعِبَادِهِ، حَيْثُ وَكَّل بهِمْ مِنْ هَؤُلاءِ المَلائِكَةِ مَنْ يَقُومُ بحِفْظِهِمْ وكِتَابَةِ أعْمَالِـهِمْ وغَيْرِ ذَلِك مِنْ مَصَالِحِهِمْ» إِذَا آمَنَّا بالمَلائِكَةِ ووظَائِفِهِمْ وأعمَالِهِمْ أَوْجَبَ لنَا ذَلِكَ شُكْرَ اللهِ تعالَى عَلَى عنَايتِهِ بِنَا، قَالَ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ﴾ معطُوفَةٌ عَلَى (الَّذِينَ) يَعْنِي: والَّذِينَ حَولَهُ: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۝٧ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّـٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٨ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [غافر:٧-٩].

دُعاءٌ عظِيمٌ جِدًّا، كل يَوْم بَل كُلّ سَاعَةٍ بَل كُلّ لحظَةٍ، وهُمُ المُقرَّبُونَ عِنْد اللهِ، فالَّذِينَ يحمِلُونَ العَرْشَ ومَنْ حولَ العَرْشِ مِمَّن لَا يَحْمِلُهُ هذِهِ وظِيفَتُهُم. فهَذِهِ عنَايَةٌ مِنَ اللهِ بِنَا أَنْ سَخَّرَ لنا هَؤُلاءِ المَلائِكَةَ المُقرَّبِينَ بهَذَا الدُّعاءِ العَظِيمِ.

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة النجم، رقم (٣٢٧٨)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وأيضًا هُناكَ مَلائِكةٌ يحفظُونَنا، قَالَ تَعَالَى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد:١١]، جنُودٌ مغيَّبونَ عنْكَ يحفَظُونَك مِنْ بَيْنِ يَديْكَ ومِنْ خلْفِكَ بأَمْرِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وهَذِهِ مِنَ العِنَايةِ التَّامَّةِ بالعِبَادِ -ولله الحَمْد-.

كذَلِكَ مَلائِكةٌ مُوكَّلُون بكِتَابَةِ أعمَالِنَا لئَلَّا تَضِيعَ، فهُمْ مُوظَّفُون لذَلِكَ؛ قَالَ تَعالَى: ﴿كَلَّا بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ٩ وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ١٠ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ١١ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ﴾ [الانفطار:٩-١٢] ولَا يجْهَلُونَهُ ولَا يُفرِّطُونَ فِيهِ.

ولَو سَأَلْتُك الْآنَ: مَاذَا عَمِلْتَ فِي هَذَا الشَّهْـرِ؟ فإِنَّكَ لَا تَستَطِيعُ أنْ تُحصِيَ مَا عَمِلْتَ، لَا مِنَ الخَيْرِ ولَا مِنَ الشَّرِّ، ولَو كَانَ عِنْدَك أحَدٌ مِنَ البَشَرِ يكْتُبُ أعمَالَكَ ليْلًا ونَهَارًا سرًّا وجِهَارًا لتَعِبَ ومَا أمْكَنَهُ أنْ يفْعَلَ ذَلِكَ.

وأيضًا هُناك مَلائِكةٌ يحفظُونَك إذَا مِتَّ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام:٦١]، وهُمْ لَا يُفرِّطُون فِي هذِهِ الرُّوحِ الَّتِي قبَضُوها، ولَا يُمكِّنُون أحدًا مِنَ السُّلطَةِ عَلَيْهَا، بَل يحفَظُونَها إِلَى أنْ تَنتَهِيَ مُهمَّتُهم.

وأيضًا هُناك مَلائِكَةٌ مُوكَّلُون بالقَطرِ، والَّذِي يَنتَفِعُ بالقَطْرِ هُمُ النَّاس بنُو آدَمَ.

وكذَلِكَ مُوكَّلُون بالنَّباتِ وَغيرِ ذَلِكَ، ولذَلِكَ قَالَ المُؤلِّفُ: «وغَيْرُ ذَلِكَ مِنْ مَصَالِحِهِمْ».

أليْسَ هَذَا مِنْ نِعمَةِ اللهِ؟! بلَى؛ إذَنْ: علَيْنَا أنْ نَذْكُرَ نعْمَةَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ بهؤُلَاءِ المَلائِكَةِ الَّذِينَ وُكِّلُوا بِنَا إِلَى هَذَا الحَدِّ العَظِيمِ.

ثالثًا: محبَّةُ المَلائِكَةِ عَلَى مَا قَامُوا بِهِ مِنْ عِبَادَةِ اللهِ تَعَالَى عَلَى الوَجْهِ الأكْمَلِ واستغْفَارِهِمْ للمُؤمِنينَ[١].

ومِنْ ثَمَراتِ الإِيمَانِ بالكُتُبِ:

أوَّلًا: العِلْمُ برَحْمَةِ اللهِ تَعَالَى وعنَايتِهِ بخَلْقِهِ، حَيْثُ أَنْزَلَ لِكُلِّ قَوْمٍ كِتَابًا يَهدِيهِمْ بِهِ[٢].

---

[١] قَوْلُهُ: «**ثَالثًا: محبَّةُ المَلائِكَةِ عَلَى مَا قَامُوا بِهِ مِنْ عِبَادَةِ اللهِ تعَالَى عَلَى الوَجْهِ الأكْمَلِ واستغْفَارُهم للمُؤمِنِينَ**» فنحبُّهُم لسَبَبينِ:

السَّببُ الأوَّلُ: قِيامُهُم بطَاعَةِ اللهِ، وهَذَا وَاجِبٌ علَيْنَا أنْ نُحِبَّ كُلَّ مَنْ قَامَ بطَاعَةِ اللهِ مِن المَلائِكَةِ والآدَمِيِّينَ والجِنِّ، وهَذِهِ هِيَ المَحبَّةُ فِي اللهِ الَّتِي هِيَ مِنْ أَوْثَقِ عُرَى الإِيمَانِ باللهِ، فنَحْنُ نُحِبُّ المَلائِكة لأَنَّهُم يقُومُونَ بأَمْرِ اللهِ تعالى.

السَّببُ الثَّاني: أنَّهُم يَستَغْفِرُونَ للمُؤمِنِينَ.

فهذِهِ ثَمَراتٌ جليلَةٌ للإِيمَانِ بالمَلائِكة، ولَيْسَ المُرادُ أنْ نُؤمِن بالمَلائِكَةِ إيمانًا نظَرِيًّا بأنْ نعرِفَ أنَّ هُناكَ مَلائِكَةً يفعَلُون كَذَا وكَذَا، بَل لَا بُدَّ أنْ تَكُونَ هذِهِ الثَّمراتُ فِي قلُوبِنا، وقَدْ يَكُون هُناكَ ثمَرَاتٌ أُخرَى، ولَكِن نَحْنُ ذَكَرْنا هُنَا حَسَبَ مَا تيَسَّر.

[٢] قَوْلُهُ: «**ومِنْ ثَمَراتِ الإِيمَانِ بالكُتُبِ: أَوَّلًا: العِلْمُ برَحْمَةِ اللهِ تَعالَى وعنَايتِهِ بخَلْقِهِ، حَيْثُ أَنْزَلَ لِكُلِّ قَومٍ كِتَابًا يَهدِيهِمْ بِهِ**»: المُؤلِّفُ يُركِّزُ علَى مَا يتعلَّقُ باللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّ ذَلِكَ هُو أَصلُ الأُصولِ كُلِّها، فأَصلُ الأُصولِ «الإِيمان باللهِ عَزَّوَجَلَّ ومحبَّةُ اللهِ وتعظِيمُ اللهِ والإِخْبَاتُ إِلَى اللهِ والتَّوبَةُ إِلَى اللهِ» هَذَا أَصلُ كُلِّ شَيْءٍ.

ثَانيًا: ظُهُورُ حِكْمَةِ اللهِ تَعَالَى، حيثُ شَرَعَ فِي هَذِهِ الكُتُبِ لِكُلِّ أُمَّةٍ مَا يُنَاسِبُهَا[١] ....

وقَالَ: «أَوَّلًا: العِلْمُ برَحْمَةِ اللهِ وعنَايتِهِ بخَلْقِهِ، حَيْثُ أَنْزَلَ لِكُلِّ قَوْمٍ كِتَابًا يَهدِيهِمْ بِهِ»، ولَو شَاءَ لَمْ يُنزِّلْ كتَابًا ولَمْ يُرسِلْ رَسُولًا لكنَّه لا أحَدَ أحَبُّ إِلَيْه العُذْرُ مِن اللهِ عَزَّوَجَلَّ، حيثُ أنْزَلَ الكُتُبَ رحمَةً بالعِبَادِ، وأَرْسَلَ الرُّسلَ رحمَةً بالعِبَادِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةً لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧]؛ فيَتَبيَّنُ لنَا بهذَا رحمَةُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وعنَايتُهُ بالخَلْقِ وأنَّه لم يَكلْهُم إِلَى عُقُولِهِمْ، ولَو وَكَلَنا إِلَى عُقُولِنا فلا يُمْكِن أن نَعرِفَ كَيْفَ نَتَوَضَّأُ أَوْ كَيْف نُصلِّي أَوْ كَيْفَ نَصُومُ، ولَكِن رَحِمَنا اللهُ بإِنْزَالِ الكُتُبِ وإِرْسَالِ الرُّسلِ حتَّى نَهتَدِيَ بذَلِكَ إِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

[١] قَوْلُهُ: «ثَانيًا: ظُهُورُ حِكْمَةِ اللهِ تَعَالَى، حَيْثُ شَرَعَ فِي هذِهِ الكُتُبِ لِكُلِّ أُمَّةٍ مَا يُنَاسِبُها، وكَانَ خَاتَمُ هذِهِ الكُتُبِ -القُرْآنُ العَظِيمُ- مُنَاسِبًا لجَمِيعِ الخَلْقِ فِي كُلِّ عَصْرٍ ومَكَانٍ إِلَى يَوْمِ القِيامَة» إِذِ الشَّرائِعُ كُلُّها الَّتِي جَاءَتْ بِهَا الكُتُبُ تَدُورُ عَلَى أَصْلَينِ:

الأَوَّلُ: مَا يتعَلَّقُ بعِبَادَةِ اللهِ.

الثَّاني: مَا يتَعَلَّقُ بمُعامَلَةِ عِبَادِ اللهِ.

أَمَّا الأَوَّلُ: فإِنَّ الشَّرائِعَ لَا تَخْتَلِفُ فِي أُصُولِهِ.

وأَمَّا الثَّاني: فتَخْتَلِفُ اخْتلَافًا عظِيمًا؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗا﴾ [المائدة:٤٨]، فيُشَرِّعُ للعِبَادِ مَا يُصلِحُهم فِي دِينِهِمْ ودُنيَاهُمْ، ولِذَلِكَ حِينَ قَدِمَ النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ المدِينَةَ وجَدَهُم يُلقِّحُون النَّخلَ -والتَّلْقِيحُ هُو التَّأبِيرُ،

وكَانَ خَاتَمُ هذِهِ الكُتُبِ -القُرآنُ العَظِيمُ- مُنَاسِبًا لِجَمِيعِ الخَلْقِ فِي كُلِّ عَصْرٍ ومَكَانٍ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ[١].

بأنْ يُؤخَذُ مِنْ طَلْعِ الفَحْلِ ويُوضَعُ فِي طَلْعِ الأُنْثَى مِنَ النَّخْلِ ثُمَّ يَكُونُ الثَّمر طَيِّبًا، وإِذَا لَمْ يُفْعل ذَلِكَ صَارَ الثَّمَرُ رَدِيئًا لَا يُؤكَلُ-، فيَصعَدُون إِلَى الفَحْلِ وينزِلُون، ويَصعَدُونَ إِلَى الأُنْثَى وينزِلُونَ؛ فرَأَى النَّبيُّ ﷺ أنَّ فِيهِ تكرَارًا وإضَاعةَ وَقْتٍ، وكَانَ النَّبيُّ ﷺ لَا يَعرِفُ أنَّ النَّخلَ يُعمَلُ بِهِ هَذَا الشَّيْء، وإِلَّا فهُوَ يَعرِفُ النَّخلَ فِي القُرْآنِ المكِّيِّ، لَكِن قَالَ مَا أرَى ذَلِكَ يُجدِي شَيْئًا أو كَلِمَةً نحْوَها، لـمَّا قَالَ الرَّسُول ﷺ هَذَا الكَلَامَ ظَنَّ الصَّحابَةُ أنَّه وَحْيٌ فقَالُوا: الحَمْدُ للهِ الَّذِي أرَاحنَا؛ إِذَنْ لَا نَصْعَدُ الفِحَالَ ولَا نصْعَدُ الإنَاثَ، وتَركُوا التَّأبِيرَ فِي تِلْك السَّنَة، فظَهَرَ الثَّمر رَدِيئًا شِيصًا لَا يُؤكَلُ، فأَتَوا إِلَى النَّبيِّ ﷺ فقَالَ: «اصْنَعُوا مَا شِئْتُمْ، أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأُمُورِ دُنْيَاكُمْ»(١).

والمُرادُ: أعْلَمُ بالصَّنائِعِ الَّتِي يَكُونُ فِيهَا مصلَحَتُكُمْ، ولَيْسَ بالأحْكَام، فأحْكَامُ الشَّرع شَامِلَةٌ أُمُورَ الدِّينِ والدُّنيَا، لَكِن كَيْفَ نَصْنَعُ وكَيْفَ نُصلِحُ فهَذَا كُلُّ إنسَانٍ فِيهِ أعلَمُ بِمَا يُمارِسُ، ومِنْ قَولِ النَّبيِّ ﷺ: «أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأُمُورِ دُنْيَاكُمْ» انظُرْ إِلَى الشَّرِيعَةِ، وكَيْفَ شَرَعَ اللهُ لِكُلِّ أُنَاسٍ مَا يُنَاسِبُ حَالَـهُمْ وزَمَانَهُم قَالَ تَعَالَى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة:٤٨].

[١] قَوْلُهُ: «وكَانَ خَاتَمُ هذِهِ الكُتُبِ -القُرْآنُ العَظِيمُ- مُنَاسِبًا لِجَمِيعِ الخَلْقِ فِي كُلِّ عَصْرٍ ومَكَانٍ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ»: القُرْآنُ الكَرِيمُ لا بُدَّ أنْ يَكُون مُنَاسِبًا للخَلْقِ يَوْم القِيامَةِ. وذَلِكَ لأَنَّهُ كِتَابُ الخَلْقِ إِلَى يَوْم القِيامَةِ، بينَمَا الكُتُبُ السَّابقَةُ كُتُبٌ مُؤقَّتةٌ

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الفضائل، باب وجوب امتثال ما قاله شرعًا، رقم (٢٣٦٣)، من حديث عائشة وأنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

....

صَالحَةٌ فِي زَمَانِهَا، ولَكِنها فِي غَيْرِ زَمَانِهَا غَيْرُ صَالحَةٍ، أما هَذَا القُرْآنَ فصَالِحٌ لِكُلِّ زمَانٍ ومَكَانٍ وأمَّة؛ لأنَّه لَا كِتَابَ بعْدَهُ، وحَيْثُ إنَّه لَا كِتَابَ بَعْدَهُ لا بُدَّ أنْ يَكُون صَالحًا لكُلِّ زَمَانٍ ومَكَانٍ، لأنَّ النَّاسَ سَوْفَ يحتَاجُونَ وسَوْفَ تَتغيَّرُ حَوائِجُهُم.

ولهَذَا يَنْبَغِي لطَالبِ العِلْم بالنِّسْبة لمعَالجَةِ المُعاملَاتِ الطَّارئَةِ الحَادثَةِ فِي زَمَانِنا هَذَا: أنْ يَعْمل كُلَّ مَا يُمكِنُ فِي تَنزيلِ هَذِهِ المُعاملاتِ عَلَى النُّصُوص الشَّرْعيَّةِ، وألا يُحرِّم عَلَى النَّاس ممَّا ابْتُلُوا بِهِ إلَّا مَا دلَّ الدَّلِيلُ عَلَى تحرِيمِهِ تحرِيمًا يتمَكَّنُ الإنْسان مِنْ أنْ يمنَعَ عبَاد اللهِ ممَّا يعمَلُونَ؛ بمَعْنى ألَّا يتسرَّعَ، فالنَّبيُّ ﷺ كَانَ يَرْعَى الأَحْوالَ حتَّى فِي الرِّبَا، فبيعُ الرُّطبِ بالتَّمرِ حَرَامٌ فإنَّ النَّبيَّ ﷺ: سَئِلَ عَنْ بَيْعِ الرُّطبِ بالتَّمرِ فقَالَ: «أيَنْقُصُ إذَا جفَّ؟» قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: «فَلَا إذَنْ»[1]. لَكِن رَخَّص فِي العَرَايَا مُراعَاةً لأحْوَالِ النَّاس، والعَرَايَا أَنْ يَكُونَ رَجلٌ فقِيرٌ عنْدَه تمْرٌ مِنَ العَامِ المَاضِي ويُرِيدُ أنْ يشتَرِيَ الرُّطبَ الجَنيَّ اللَّذيذَ ولَيْسَ عنْدَه مَالٌ يَشتَرِي بِهِ هَذَا التَّمرَ؛ فرَخَّصَ لَهُ النَّبيُّ ﷺ أنْ يَشتَرِيَ الرُّطبَ عَلَى رُؤُوسِ النَّخلِ بتَمْرٍ، وكَانَ فِي الأَوَّلِ يقُولُ: «أيَنْقُصُ إذَا جَفَّ؟» قَالُوا: نَعَمْ قَالَ: «فَلَا إذَنْ»؛ فمُراعَاةً لحَاجَةِ الإنْسان رَخَّصَ فِي بَيْعِ الرُّطبِ بالتَّمرِ مَعَ أنَّه حرَامٌ، لَكِن تخرَصُ النَّخلَةُ، أَي: يُخرَصُ ثَمرُها، فيُقَالُ: إذَا اسْتَوى وكَانَ تمرًا بلَغَ مِئَةَ صَاعٍ فيُعطَى مِنَ التَّمرِ مِئَة صَاعٍ؛ أَيْ بقَدْرِ الرُّطبِ إذَا جَفَّ، ولَا بُدَّ مِنْ هَذَا، ليَكُونَ بَيْعُ التَّمرِ بتَمْرٍ، مُتسَاويًا حسَبَ الخَرْصِ، فأجَازَهُ للحَاجَةِ.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (١/ ١٧٩)، وأبو داود: كتاب البيوع، باب في التمر بالتمر، رقم (٣٣٥٩)، والترمذي: كتاب البيوع، باب ما جاء في النهي عن المحاقلة والمزابنة، رقم (١٢٢٥)، والنسائي: كتاب البيوع، باب اشتراء التمر بالرطب، رقم (٤٥٤٥)، وابن ماجه: كتاب التجارات، باب بيع الرطب بالتمر، رقم (٢٢٦٤)، من حديث سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

....

إذَنْ: يجبُ أنْ نَنْظُرَ فِي المُعامَلَاتِ الطَّارِئَةِ الْآنَ، فإذَا كَانَت ممَّا تعُمُّ بِهِ البَلْوَى، ولَا يُمْكِنُ للنَّاسِ العَمَلُ إلَّا بذَلِك، وهُوَ لَا يُنَافِي نَصًّا شَرعيًّا وَاضِحًا فَلْيَسَعْنا العمَلُ بجَوازِهِ، لِئَلَّا نضيِّق علَى النَّاسِ، وثِقْ أَنَّكَ إِذَا ضَيَّقْتَ عَلَى النَّاس فِي أَمْرٍ فِيهِ اشتِبَاهٌ فسَوْفَ يرتَكِبُون مَا هُو وَاضِحٌ ولَا يُبالُونَ؛ لأَنَّ أكْثَرَ النَّاس إنَّما يُرِيدُ أَنْ تُقضَى حَاجَتُهُ فِي الدُّنيَا ولَا يُهمُّهُ، وتجِدُه مَثَلًا إِذَا قُلْتَ: هَذَا حَرَامٌ، وهُوَ يَرَى أَنَّه ضُيِّقَ علَيْه قَالَ: الدِّينُ يُسْرٌ وأنْتَ مُتشَدِّدٌ! ويبحَثُ عَن عَالِمٍ آخَرَ أسْهَلَ، وهَذَا هُوَ الوَاقِعُ!!.

إذَنِ: القَاعِدَةُ الَّتِي يَنْبَغِي للمُفتِينَ أنْ يَنهجُوهَا هِيَ أَنَّه إِذَا فُتِحَ للنَّاسِ بَابٌ فِي أَمْرٍ ابْتُلُوا بِهِ ولَيْس فِي هَذا الأَمْرِ نَصٌّ بالمَنْعِ وهُوَ ممَّا تدْعُو الحَاجَةُ إِلَيْه -أَو الضَّرُورةُ أحيَانًا-، فليَكُنْ ذَلِك واسِعًا لَكَ أَنْ تُفتِيَهم بالجَوازِ حتَّى يَأْتُوا الأَمْرَ وَهُمْ فِي طُمأنينَةٍ، لَيسُوا قَلِقِينَ وحَتَّى لَا يَنْتَهِكُوا المُحرَّماتِ الَّتِي قُلْتَ: إنَّها مُحرَّماتٌ، بَل إنَّ كُلَّ إنسَانٍ مُسلِمٍ يجِدُ الفَرْقَ بَيْنَ أن يفْعَلَ شَيئًا يَعتَقِدُ أَنَّه حلَالٌ وبَيْنَ أنْ يفعَلَ الشَّيْءَ وهُوَ يعتَقِدُ أَنَّه حَرَامٌ؛ لأَنَّ الثَّانِيَ سَوْفَ يُوجِبُ فِي قَلْبِهِ ظُلْمَةً ووَحْشَةً بينَهُ وبَيْنَ رَبِّهِ عَزَّوَجَلَّ لأَنَّه يفْعَلُهُ وهُوَ يعتَقِدُ أَنَّه يفْعَلُه وهُوَ عَاصٍ للهِ فيَقَعُ فِي قَلْبِهِ الوَحْشَةُ مِنْ رَبِّه عَزَّوَجَلَّ -وهُوَ لا بُدَّ أَنْ يفعَلَهُ-؛ وإلَّا لقُلْنَا: اتْرُكْه؛ ليَكُونَ بينَهُ وبَيْنَ رَبِّهِ وحْشَةٌ حتَّى يتُوبَ، لَكِنه يَعرِفُ أَنَّه لَنْ يَتْرُكَ هَذَا الشَّيْءَ.

إذَنْ: كُلُّ مَا حَدَثَ مِنْ أمْرِ المُعامَلَاتِ بَيْنَ النَّاس ولَيْس فِيهِ نَصٌّ بالتَّحرِيمِ، والحَاجَةُ دَاعِيَةٌ إِلَى ذَلِكَ -أَوِ الضَّرورَةُ أحْيَانًا- فالأَمْرُ عندَكُمْ فِيهِ وَاسِعٌ، خُصُوصًا وأَنَّنَا نَقُولُ: الأَصْلُ فِي المُعامَلَاتِ الحِلُّ، فهَذِهِ المَسَائِلُ تحْتَاجُ إِلَى نَظَرٍ دَقِيقٍ.

فمثلًا: هذِهِ الأَوراقُ النَّقديَّةُ الَّتِي نتعامَلُ بِهَا يقُولُ بَعْضُ العُلَماء: لَيْسَ فِيهَا رِبًا إطْلَاقًا لَا رِبَا نَسيئَةٍ ولَا رِبَا فَضْلٍ، وهَذِه المسألَةُ مَوجُودَةٌ فِي كُتُبِ الخِلافِ بَعْدَ أَنْ حدَثَتْ هذِه الأوراقُ، وممَّنْ عَالَجَ هذِهِ المسأَلَةَ كَثِيرًا وبحَثَها بَحْثًا دَقِيقًا شَيخُنَا عبْدُ الرَّحمنِ بنُ سعْدِي رَحِمَهُ اللَّهُ فِي (الفَتَاوى السّعديَّة)[1]، ويَكفِينَا أنْ نَقُول: فقَهَاءُ الحنابِلَةِ رَحِمَهُمُ اللَّهُ؛ قَالُوا إنَّ الفُلُوسَ عُروضٌ مُطلقًا، يَعْني: لَيْسَ فِيهَا زكَاةٌ ولَا يجْرِي فِيهَا الرِّبَا، وصَرَّحُوا تَصرِيحًا بَالِغًا؛ فقَالُوا: لَا ربَا فِي الفُلُوسِ، لأَنَّ الفُلوسَ نقْدٌ ولَكِن لَيْسَتْ ذهَبًا ولَا فِضَّةً، إذَن: فالأَورَاقُ هذِهِ نقْدٌ وليسَتْ ذَهَبًا ولَا فضَّةً، ولَو قَالَ قَائِل: أُريدُ أنْ تُطبقُوا كَلامَ فقهَاءِ الحنَابِلَةِ عَلَى هَذِهِ الأَوْرَاقِ، قُلْنا: لَوْ طبَّقْنَا كَلامَهُمْ عَلَى هذِهِ الأَوْراقِ لقُلْنَا: لَيْسَ فِيها رِبًا.

وأَنَا أَقُولُ هَذَا مُذكِّرًا ولَيْسَ مُقرِّرًا، وإلَّا فأَنَا أَرَى أَنَّه يجْرِي فِي هَذِهِ الأَوْرَاقِ ربَا النَّسيئَةِ فَقَطْ، أمَّا رِبَا الفَضْلِ فَلَا، اللَّهُمَّ إلَّا أنْ تكُونَ مِنْ نَقْدٍ مِثْلَ: دَراهِمَ سُعوديَّةٍ بدَرَاهِمَ سُعوديَّةٍ فأَنَا أَتوقَّفُ فِيهَا؛ مثَالُ ذَلِك: لَوْ أَعْطَيتَنِي مِئَةً مِنْ فِئَةِ عَشَرَةٍ، وأُعطِيكَ تِسعِينَ مِنْ فِئَةِ خَمْسَةٍ، فهُنَا كُلُّها أوْرَاقٌ، وقِيمَةُ المِئَةِ مِن الورَقَة ذَاتِ العشرَةِ هِيَ قِيمَةُ المِئتَينِ مِنْ فِئَةِ خمْسَةٍ؛ فهَذِهِ المسْأَلَةُ أَتوقَّفُ فِي أنْ تُعطِيني أَقَلَّ مِنْ قِيمَتِهَا فِي نِظَامِ الدَّولَةِ.

أَمَّا نَقْدٌ سُعوديٌّ بنَقْدٍ مثَلًا مِصريٍّ أَو سُودانيٍّ أَو شَاميٍّ أَو عِرَاقِيٍّ أَو غَيْرِ ذَلِكَ فَلَا بَأْسَ ولَو تَفَاضَلَ، ولَكِن لا بُدَّ أنْ يَكُون يَدًا بِيَدٍ.

وشَيخُنا عبْدُ الرَّحمَنِ رَحِمَهُ اللَّهُ يقُولُ: لَا يُشترَطُ أنْ تكُونَ يَدًا بِيَدٍ أيْضًا،

(١) الفتاوى السعدية (ص:٣١٣) [ط. المعارف].

فلَوْ أعْطَيتَنِي مَثَلًا عَشَرَةً ولَمْ تَأخُذْ عِوضَها إلَّا العَصْرَ، لَكِنَّ المَمنُوع هُو التَّأجِيلُ؛ إلَّا أنَّ كَلامَ شَيخِنَا رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي هذِهِ المسْأَلَةِ فِيهِ نَظَرٌ، لأنَّهُ إذَا جَازَ تَأخِيرُ القَبْضِ جَازَ التَّأجِيلُ، لكِنِّي أرَى أنَّه يجْرِي فِيهَا رِبَا النَّسيئَةِ دُونَ رِبا الفَضْلِ[1].

أقُولُ هَذَا مِنْ أَجْلِ أنْ لَا تَعْجَبَ إذَا قَالَ بَعْضُ النَّاس الْآنَ: هَذِهِ البُنُوكُ لَا يُنكَرُ عَلَيْهَا، لأنَّها لَا تتعامَلُ بذَهَبٍ وفِضَّةٍ، والَّتِي نَصَّ الشَّرعُ عَلَى أنَّه يجْرِي فِيهَا الرِّبَا هِيَ الذَّهَبُ والفِضَّةُ، بَلْ تَتَعامَلُ بأَوْراقٍ، وهَذِهِ الأَوْرَاقُ هِيَ الفُلُوسُ الَّتِي ذَكَرَ فِيهَا العُلَماءُ أنَّ لَيْسَ فِيهَا رِبًا، لكِنِّي أقُولُ ذَلِك مُذكِّرًا لَا مُقرِّرًا؛ وإلَّا فأَنَا أُنكِرُهَا.

فالوَاجِبُ عَلَى الإِنْسَانِ أنْ يَبنِيَ فقهَهُ عَلَى الفِقْهِ فيكُونَ فَقِيهًا فَقِيهًا، ولِيَتَبَصَّرْ بالأُمُورِ تَبصُّرًا كَامِلًا، وأنْ يعرِفَ مَا يُضطرُّ النَّاسُ إلَيْه ومَا هُمْ فِي حَاجَةٍ إلَيْه ولَيْسَ فِيه نَصٌّ واضِحٌ عَلَى المنْعِ والتَحرِيمِ، أمَّا إذَا كَانَ فِيهِ نَصٌّ عَلَى المنْعِ والتَّحرِيمِ فوَاللهِ لَوْ عَمِلَ كُلُّ أَهْلِ الأَرْض بِهِ مَا أطعْنَاهُمْ، ولقُلْنَا: هَذَا حَرامٌ! فاعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ، فمَنْ شَاءَ فليُؤْمِنْ ومَنْ شَاء فليَكْفُرْ، لَكِن شَيْءٌ لَيْسَ فِيه نَصٌّ فِي التَّحرِيمِ والحَاجَةُ أَو الضَّرورَةُ داعِيَةٌ إلَيْه وهُوَ مِنَ المُعامَلاتِ الَّتِي الأَصْلُ فِيهَا الحِلُّ فيجِبُ أنْ نتَأمَّلَ حتَّى نَجِدَ للنَّاسِ مَخْرَجًا.

وإنَّما أطَلْنا الكَلام فِي هَذَا لأنَّه نَافِعٌ؛ لأنَّه فِي الحقِيقَةِ أَصْلٌ مِنْ أُصُولِ الفُتيَا فكَثِيرٌ مِنَ النَّاس يَكُون ظَاهريًّا فِي كَلامِ الفقهَاءِ مثَلًا، ولَا يُبَالِي ولَا ينْظُرُ فِي حاجَاتِ النَّاس ولَا ضَرُورةِ النَّاس، وهَذَا غَلَطٌ.

---

(١) انظر الكلام على الأوراق النقدية والخلاف فيها في رسالة (الربا، طريق التخلص منه في المصارف) لشيخنا المؤلف رَحِمه اللهُ (ص: ٢٠).

ثالثًا: شُكْرُ نِعمَةِ اللهِ تَعَالَى عَلَى ذَلِكَ[١].

---

[١] قَوْلُهُ: «ثَالثًا: شُكْرُ نعمَةِ اللهِ تَعَالَى عَلَى ذَلِك» يَعْنِي مِنْ ثَمَرَاتِ الإِيمَان بالكُتُبِ: أَنْ تَشكُرَ اللهَ عَزَّوَجَلَّ عَلَى هذِهِ الكُتب الَّتِي أنزَلَها عَلَى الرُّسلِ، إِذْ لولَاهَا مَا عرَفَ النَّاس كَيْف يَعبُدُونَ اللهَ عَلَى الوَجْهِ الَّذِي يَرضَاهُ، لَكِنَّ اللهَ تَعَالَى مِنْ نِعمَتِه ورحمَتِه بخَلْقِه أَنْزَلَ هذِهِ الكُتُبَ، فَإِذَا عَلِمْتَ ذَلِكَ أَوْجَبَ لَكَ شُكْرَ نعمَةِ اللهِ تَعَالَى عَلَى هذِهِ الكُتُبِ.

وليُعلَمْ أَنَّ الشُّكرَ يتعلَّقُ باللِّسانِ والجوَارِحِ والقَلْبِ، ولَا يَكُونُ إِلَّا فِي مُقابَلَةِ نعْمَةٍ، والحَمْدُ يختَصُّ باللِّسانِ والقَلْبِ، ويَكُونُ فِي مُقابَلَةِ نِعْمَةٍ وَغَيرِهَا، فبَيْن كُلِّ وَاحِدٍ منْهُما عُمُومٌ وخُصُوصٌ مِنْ وَجْهٍ، فالشُّكرُ يتعلَّقُ بالقَلْبِ حيْثُ يُؤمِنُ الإِنْسانُ أَنَّ هذِهِ النِّعمَةَ فَضلٌ محْضٌ مِنَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ لَيسَ لَهُ بِهَا كسْبٌ، وأَنَّ اللهَ تَعالَى هُو المُستحِقُّ للشُّكرِ علَيْهَا.

أَمَّا اللِّسانُ فعبَّر اللهُ عنْهُ بقَولِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى:١١].

وأَمَّا الجَوارِحُ فأَنْ تَقُومَ بطَاعَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، قَالَ تعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾ [المؤمنون:٥١]، وقَالَ تعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ﴾ [البقرة:١٧٢].

فجَعَلَ الشُّكرَ فِي مُقابلَةِ العَمَلِ الصَّالِحِ، فدَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّ العمَلَ الصَّالِحَ شُكْرٌ؛ ولهَذَا قَالَ النَّبيُّ ﷺ: «إِنَّ اللهَ أَمَرَ المُؤمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ المُرْسَلِينَ»(١).

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب، رقم (١٠١٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فهَذِهِ ثَلَاثُ مُتعلَّقَاتٍ؛ ولهَذَا قَالَ الشَّاعِرُ[١]:

أَفَـادَتْكُمُ الـنَّعْمَاءُ مِنِّـي ثَلَاثَـةً يَـدِي ولِسَـانِي وَالضَّمِيرَ المُحَجَّبَا

والضَّميرُ المحجَّبُ: هُوَ القَلْبُ، ومعْنَى أفَادَتْكُم هذِهِ الثَّلاثَةَ أَنَّكُم ملكتُمونِي فِي مَشَاعِرِي ومَقَالِي وفِعَالِي.

والحَمْدُ يَكُونُ باللِّسانِ والقَلْبِ، ولكِنَّهُ يَكُونُ مُقَابِلَ نِعْمَةٍ وفِي مُقَابِلِ كَمَالِ المَحمُودِ، فنَحْنُ نحمَدُ اللهَ عَزَّوَجَلَّ لكَمَالِ نعْمَتِهِ علَيْنَا، ولكِمَالِ أوْصَافِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الَّتِي يَستحَقُّ عَلَيْها الحَمْدَ، فصَارَ هُوَ أضيَقَ مِنَ الشُّكرِ باعْتِبَارِ متعلَّقِه، وأعَمَّ مِنَ الشُّكرِ باعتبَارِ سَبَبِهِ، فالشُّكرُ سببُه النِّعمَةُ، والحَمْدُ سببُهُ النِّعمَةُ وكمَالُ المحمُودِ.

مَسْألة: مَنِ اتَّكَلَ عَلَى السَّببِ فِي حُصُولِ النِّعمِ هَلْ يَكُونُ شَاكِرًا؟

الجَوابُ: لَا، لأنَّه لَمْ يُقِمْ فِي قَلبِهِ خَالِصَ الشُّكرِ، يَعْني: كَثِيرٌ مِنَ النَّاس إِذَا عالجَهَ طَبيبٌ مِنَ الأطِبَّاءِ وشُفِي مِنَ المَرَضِ تجِدُهُ -نسْأَلُ اللهَ السَّلامَةَ والعَافِيَةَ- يُحِبُّ الطَّبِيبَ عَلَى هَذا، ورُبَّما أكثَرَ ممَّا يُحِبُّ اللهَ، لأنَّه يَشتَغِلُ بالسَّببِ ويَنْسَى المُسبِّبَ وهَذِهِ مَسْأَلَةٌ خَطِيرَةٌ جِدًّا عَلَى الإنْسَانِ، فأَنْتَ إِذَا شَفَاكَ اللهُ عَلَى يَدِ إنسَانٍ إمَّا بقَرَاءَةٍ أَو مُعالجَةٍ فقُلِ: الحَمْدُ للهِ الَّذِي شَفَانِي عَلَى يَدِ هَذَا الرَّجُلِ، واشْكُر لهَذَا الرَّجُل بقَدْرِ مَا فعَلَ مِنَ السَّببِ، لَا أنْ تَنْسَى اللهَ عَزَّوَجَلَّ؛ فكَثِيرًا مَا يُعالَجُ الإنْسانُ بأَشَدِّ الأدويَةِ تَأْثِيرًا وأعْلَمِ الأطِبَّاءِ خِبرَة ومَعَ ذَلِك لَا يُشفَى، إذَنِ: الشِّفاءُ بيَدِ اللهِ ومَا هَذَا الطَّبِيبُ إلَّا سببٌ.

(١) انظره في غريب الحديث للخطابي (١/ ٣٤٦)، والفائق للزمخشري (١/ ٣١٤) غير منسوب.

وَمِنْ ثَمَرَاتِ الإِيمَانِ بِالرُّسُلِ:

أَوَّلًا: العِلْمُ برحمَةِ اللهِ تَعَالَى، وعنَايتِهِ بخَلْقِهِ، حَيْثُ أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ أُولَئِكَ الرُّسلَ الكِرَامَ للهِدَايَةِ والإِرْشَادِ[١].

---

[١] قَوْلُهُ: «وَمِنْ ثَمَرَاتِ الإِيمَانِ بالرُّسلِ: أَوَّلًا: العِلْمُ برحمَةِ الله عَزَّوَجَلَّ وعنَايتِهِ بخَلْقِهِ، حيْثُ أَرْسَلَ إلَيْهم أُولَئِكَ الرُّسلَ الكِرَامَ للهِدَايَةِ والإِرْشَادِ»: نَحْنُ إِذَا آمَنَّا بالرُّسلِ أَوْجَبَ لنَا ذَلِك أنْ نعْلَمَ رَحمَةَ اللهِ تَعَالَى بالخَلْقِ؛ لأَنَّه لَوْلَا الرُّسلُ مَا اهْتدَينا، ولَوْلَا اللهُ مَا اهْتَدَى الرُّسُلُ.

ولـهَذَا كَانَ النَّبيُّ ﷺ يقُولُ:

«اللَّهُـمَّ لَـوْلَا أَنْـتَ مَـا اهْتَـدَيْنَا وَلَا تَصَـدَّقْنَا وَلَا صَـلَّيْنَا»(١).

فالرُّسلُ هُمُ الـهُدَاةُ الأَدِلَّاءُ عَلَى خَيْرٍ، ولَوْلَا أَنَّهُم أُرْسِلُوا مَا عَرَفْنَا كَيْف نَعْبُدُ اللهَ؟ يَعْني: لَوْ سَلَّمْنا بأَنَّنَا نَعرِفُ اللهَ مَعرِفَةً إجماليَّةً وأَنَّ كُلَّ مخْلُوقٍ يَعرِفُ أَنْ لا بُدَّ لَهُ مِنْ خالِقٍ عقْلًا؛ فإِنَّنَا لَا نَستَطِيعُ أَنْ نَعبُدَ هَذَا الخَالِقَ؛ لأَنَّه مَنِ الَّذِي يستَطِيعُ أَنْ يعرِفَ كَيْفَ يتَوضَّأ أَو يُصلِّي أَو يُزكِّي أَو يَصُومُ أَو يَحُجُّ؟ لَا أَحَدَ يَستَطِيعُ إِلَّا بِهِدَايَةِ اللهِ تَعَالَى عَلَى أَيْدِي الرُّسلِ.

ومنْهَا أيضًا: أَنْ نعْلَمَ عِنَايَةَ اللهِ بالخَلْقِ؛ حيْثُ لَمْ يترُكْهُم سُدًى، بَلْ أَرْسَلَ الرُّسلَ وبَيَّنَ الطُّرُقَ وحَذَّر مِنَ الْمخالَفَةِ ورَغَّب في الْموافَقَةِ؛ وهَذَا كُلُّه يدُلُّ عَلَى عنايَةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بهؤُلاءِ الخَلْقِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب غزوة الخندق، رقم (٤١٠٦)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب غزوة الأحزاب، رقم (١٨٠٣)، من حديث البراء رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

ثانيًا: شُكْرُهُ تَعَالَى عَلَى هَذِهِ النِّعمَةِ الكُبْرَى[١].

ثالثًا: محبَّةُ الرُّسلِ، وتوقِيرُهُم، والثَّناءُ عَلَيْهِمْ، بِمَا يَلِيقُ بِهِمْ[٢]،..........

---

[١] قَوْلُهُ: «ثَانيًا: شُكْرُهُ تَعَالَى عَلَى هَذِهِ النِّعمَةِ الكُبْرَى» فإِرْسَالُ الرُّسلِ نِعمَةٌ كُبْرَى عظِيمَةٌ، أبلغُ مِنْ أيِّ نِعْمَةٍ فِي الدُّنيَا مَهْمَا عَظُمَتْ، ونَحْن إِذَا اعْتَقَدْنا أَنَّهَا نِعْمَةٌ وأنَّه يجِبُ شُكرُهَا فإنَّنَا سَوْفَ نَعتَنِي بِمَا جَاءَت بِهِ الرُّسلُ -عَلَيهِمُ الصَّلاة والسَّلام- عِلمًا وفَهمًا وعَمَلًا؛ ولهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ هَذَا الفَهْمُ: ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [ص:٢٩] هَذَا العَمَل، فالقُرآنُ لم ينزِلْ لمُجرَّدِ التِّلاوةِ فقَطْ، بَل نَزَلَ للتِّلاوَةِ ولبركَتِهِ؛ إِذِ الحَرْفُ بعَشْرِ حسَنَاتٍ، لَكِنَّ الأَهَمَّ مِنْ ذَلِك هُو تدبُّرُ الآياتِ وتفهُّمُها، والعَمَلُ بِهَا: ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾.

قالَ شَيْخ الإِسْلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لَو أنَّ النَّاس أُعْطُوا كتَابَ طِبٍّ -مَثَلًا- ليعْلَمُوا بِه، فإِنَّه لَا يُمْكِن لِـمَنْ أخَذَ هَذَا الكِتَابَ -ليَعرِفَ بِهِ الطِّبَّ- أنْ يَستغْنِيَ عمَّن يشْرَحُهُ لَهُ، ولَا يُمْكِن أن يدعَهُ بِلَا تَفهُّم لمَعْناهُ، هَذَا وهُوَ طبٌّ جسَدِيٌّ ولأَمْرٍ زَائِلٍ، فكَيْفَ بطِبِّ القُلُوبِ الَّذِي هُو القُرْآن؟! إِذَنْ: فَلَا بُدَّ أَنْ نفْهَمَ مَعانِيَ هَذَا القُرْآن لنعْمَلَ بِهِ.

[٢] قَوْلُهُ: «ثالثًا: محبَّةُ الرُّسلِ وتَوقيرُهُمْ والثَّناءُ علِيهِمْ بِمَا يَلِيقُ بِهِمْ» هَذا أيضًا مِنْ ثمَرَاتِ الإِيمَان بالرُّسلِ: أنْ تُحبَّ الرُّسلَ؛ حتَّى مَنْ لَمْ يُرْسَل إِلَيْكَ فإِنَّهُ يجِبُ علَيْك محبَّتُهُم وتَوقيرُهم واحتِرَامُهُم وتعْظِيمُهُم، حتَّى لَو أَنَّ أحَدًا سَبَّ رَسُولك فإِنَّه لَا يحِلُّ لَكَ أَنْ تَسُبَّ رَسُولَهُ؛ احترَامًا للرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي أَيِّ زمَانٍ.

....

كذلِكَ: الثَّناءُ عليْهِمْ بِمَا يَلِيقُ بِهِمْ، لَا أَنْ يُخرِجَهُم الإِنْسانُ بالثَّناءِ عَنْ طَورِ العُبوديَّةِ، فأَثْنِ علَيهِمْ بِمَا يَلِيق بهِمْ، وأَحْسَنُ وصْفٍ للرَّسولِ ﷺ مَا وَصَفَ بِهِ النَّبيُّ ﷺ نفسَهُ قَالَ: «إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ؛ فَقُولُوا: عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ»[1]. هَذَا أحْسَنُ ثَنَاءٍ: (عَبْدٌ)، ومَا أفخَرَ الإِنْسانَ إِذَا كَانَ عَبْدًا للهِ ورَسُولًا، ومَا أَعْظَمَ حَقَّ مَنْ كَانَ رَسُولًا إِلَى الخَلْقِ، فحِينَئذٍ تُعطِيهِ حَقَّهُ فِي جَانِبِ اللهِ وحَقَّهُ فِي جَانِبِ الخَلْقِ، هَذَا أَحْسَنُ وصْفٍ للرَّسولِ.

أمَّا أنْ تُثْنِيَ عَلَيْهِمْ بِمَا لَيْسَ فِيهِمْ فَلَا، مِثْلَ مَنْ يَقُولُ: إنَّ مُحَمَّدًا ﷺ يعلَمُ الغَيْبَ، وأَنَّه يُدبِّرُ الكَوْنَ، وكقَوْلِ البُوصيريِّ فِي بُردَتِهِ المَشهُورَةِ، يُخَاطِبُ الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ:

يَا أَكْرَمَ الْـخَلْقِ مَا لِي مَـنْ أَلُـوذُ بِـهِ ... سِوَاكَ عِنْدَ حُلُولِ الْـحَادِثِ الْعَمَـمِ

الحدَثُ العَامّ: كالزَّلازلِ والفَيضَانَاتِ ومَا أَشْبَهَ ذَلِك؛ يقُولُ: «مَا لِي مَنْ أَلُوذُ بِهِ سِواكَ»، إذَنِ: اللهُ لَا يَلوذُ بِهِ، وهَذَا شِرْكٌ أَكْبَرُ، بَلْ أعظَمُ مِنَ الشِّركِ، فهَذَا تَوحِيدٌ للرَّسُولِ ﷺ بالرُّبوبيَّةِ ونِسيَانُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

وقَالَ أَيْضًا:

إِنْ لَمْ تَكُنْ آخِذًا يَوْمَ المَعَـادِ يَـدِي ... عَفْـوًا وَإِلَّا فَقُـلْ يَـا زَلَّـةَ الْقَـدَمِ

فمَنِ الَّذِي يُعاقِبُ يَوْمَ المعادِ عَلَى هَذَا البيْتِ؟! الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ!

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾، رقم (٣٤٤٥)، من حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

يَعْنِي: إنْ لم تكُنْ عافيًا عَنِّي فقُلْ: يَا زَلَّةَ القَدَمِ! فَجَعَلَ اللهَ فِي الدُّنيا والآخِرَةِ لَا نَصِيبَ لَهُ. ثُمَّ قَالَ:

فَإِنَّ مِنْ جُـودِكَ الـدُّنيَا وضَرَّتَهَـا ... وَمِنْ عُلُومِكَ عِلْمَ اللَّوْحِ وَالْقَلَمِ

«مِنْ جُودِكَ» يَعْنِي: ولَيْسَ كُلَّ جُودِكَ، بَلْ مِنْ جُودِكَ، بَلْ مِنْ جُودِ الدُّنيَا وضَرَّتها وهِيَ الآخِرَةُ، ومِنْ عُلومِكَ عِلْمُ اللَّوحِ والقَلَمِ، يَعْني: بَعْضُ عُلُومِكَ، وإلَّا فإنَّك تعْلَمُ أكْثَر مِنْ هَذَا، قَالَ بَعْضُ العُلَماءِ: مَاذَا جَعَلَ للهِ بعْدَ ذَلِك؟ إذَا كَانَتِ الدُّنيَا والآخِرَةُ مِنْ جُودِ الرَّسُول ﷺ! فَما بَقِيَ للهِ شَيْءٌ! وهَذا لا شَكَّ أنَّ النَّبيَّ لَوْ سَمِعَهُ لقَتَلَ مَنْ قَالَهُ؛ لأنَّه إِذَا كَانَ يقُولُ لِمَنْ قَالَ: مَا شَاءَ اللهُ وشِئْتَ: «أَجَعَلْتَنِي للهِ نِدًّا»[1]. فكَيْفَ بمَنْ يقُولُ مِثْلَ هَذَا الكَلام؟!

والعَجَبُ أنَّ الَّذِينَ ابْتُلُوا ببِدْعَةِ الاحْتِفَالِ بالمَوْلِدِ يُرَدِّدُونَ مِثْلَ هَذَا الكَلامِ ويَرونَهُ مِنْ أفْضَلِ مَا يَكُونُ، ممَّا يدلُّ أنَّ البِدْعَةَ لَا تجُرُّ إلَّا إِلَى بِدْعَةٍ وبَلَاءٍ.

ومحَبَّةُ الرُّسلِ -عَلَيْهِمُ الصَّلاة والسَّلام- تَستلْزِمُ اتِّباعَهُـم ولَا بُـدَّ؛ لأَنَّ كُلَّ حَبِيبٍ يَرنُـو إِلَى حبِيبِهِ ويَنْظُـرُ مَاذَا يفْعَلُ؛ حتَّى إنَّه لَيقْتَدِيَ بِهِ، لَيْسَ فِي أعمَالِـهِ الاختيَاريَّةِ فحَسْب، بَلْ حتَّى فِي أعمَالِهِ غَيرِ الاختِيارِيَّةِ، كَما لَوْ كَانَ مُحدَّبًا تجِدُهُ يَمْشِي مُحدَّبًا، وكَما لَوْ كَانَ يتَمايلُ فِي مِشيَتِهِ خِلْقَةً تجِدُ هَذا يتَمايلُ فِي مِشيَتِهِ، فَضْلًا عَنِ الأَعْمَالِ الاختِيَارِيَّةِ، فإنَّ كُلَّ إنسَانٍ إِذَا صَدَقَتْ محَبَّتُهُ للشَّخْصِ فسَوْفَ يَكُونُ هَذَا الشَّخْصُ أُسوَتَهُ وقُدوتَهُ.

(١) أخرجه بمعناه الإمام أحمد (١/ ٢٨٣)، والنسائي في الكبرى رقم (١٠٧٥٩)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

لأَنَّهُم رُسُلُ اللهِ تَعَالَى وخُلاصَةُ عَبِيدِهِ[١]، ....

---

[١] قَوْلُهُ: «لأَنَّهُم رُسُلُ اللهِ تَعَالَى وخُلَاصَةُ عَبِيدِهِ» يَعْني: نُحبُّهم ونُوقِّرُهم لهَذَينِ السَّببينِ، أَنَّهُم رُسُلُ اللهِ تعالى، استَأْمَنَهُمُ اللهُ تَعَالَى عَلَى وَحْيِهِ، وحَكَّمَهُم فِي رِقَابِ عبادِهِ، وهَذَا مِنْ أَعْظَمِ الفَخْرِ لهُمْ: أَنَّهُم كَانُوا أُمناءَ حُكماءَ، يَعْنِي: يحْكُمُونَ بَيْنَ النَّاس وهُمْ أُمَنَاءُ اللهِ تعالى عَلَى وَحْيِهِ.

وقَوْلُهُ: «وخُلاصَةُ عَبِيدِه» لَا شَكَّ أَنَّ أَعْبَدَ النَّاس للهِ تعالى هُمُ الرُّسلُ، واقرَأْ فِي سِيرَةِ آخرِهِمْ وخَاتَمِهِم مُحَمَّد ﷺ يَتبيَّنْ لَكَ أَنَّه قَد حقَّقَ العُبوديَّة تحَقِيقًا تامًّا، ولَقَدْ وصَفَ اللهُ تعالى مُحَمَّدًا رَسُولَ الله ﷺ بالعُبوديَّةِ فِي أَعْلَى مَقَامَاتِها، فقَالَ تَعَالَى فِي الدِّفَاعِ عنْهُ: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البقرة:١٢٣]. وقَالَ حِينَ امتنَّ عليْه بإنْزالِ القُرْآن: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ [الفرقان:١]. وقَالَ حِينَ امتنَّ عليْه بالإسراءِ: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ [الإسراء:١]. وقَالَ فِي مَقَامِ مِنَّتِهِ عليْه بالمِعْرَاجِ: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ [النجم:١٠]. والآياتُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ.

وإِذَا كَانَ مُحَمَّد ﷺ من خُلاصَةِ العَبِيدِ، فإنَّنَا لَا نَشُكُّ فِي أَنَّه تجِبُ محَبَّتُهُ؛ لأَنَّه يجِبُ علَيْنا أنْ نُحِبَّ كُلَّ مَنْ كَانَ مُحِبًّا للهِ، وهَذَا هُوَ الحُبُّ فِي اللهِ الَّذِي هُوَ مِنْ أَوْثَقِ عُرَى الإِيمانِ.

مَسْأَلَةٌ: القَوْلُ الرَّاجِحُ أَنَّه إِذَا ذُكرَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ علَيْه وعَلَى آلِهِ وسَلَّم تجِبُ الصَّلاة علَيْه، وإِنْ كَانَ جُمُهورُ العُلَماءِ عَلَى عَدَمِ الوُجُوبِ، أَمَّا غَيرُهُ مِنَ الأَنْبِيَاءِ فَلَا تجِبُ الصَّلاةُ عَلَيهِمْ.

قَامُوا بعِبَادَتِهِ وتَبْلِيغِ رِسَالَتِهِ والنُّصْحِ لعِبَادِهِ والصَّبْرِ عَلَى أَذَاهُمْ[١].

فإنْ قَالَ قَائِل: هَلْ يَصْلُح أن نُصلِّيَ عَلَى الأنبياءِ ونُسلِّمَ عَلَيهِم؟

فالجَوابُ: نعَمْ، يَصْلُح أنْ نُصلِّيَ عليهِمْ ونُسلِّمَ، وكُلُّ نبيٍّ يَصلُحُ أنْ تُصلِّيَ عليْه وتُسلِّمَ، لَكِنْ غَيْرُ الأنْبياءِ هَلْ يُصلَّى عَلَيْهِمْ؟

الجَوابُ: إذَا كَانَ لسبَبٍ فَلَا بَأْسَ؛ لقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ﴾ [التوبة:١٠٣]، فَإِذَا جاءَ الإِنْسَانُ بزَكَاتِهِ وقَالَ: خُذْ هذِهِ الزَّكاةَ؛ فقُلِ: اللَّهُمَّ صَلِّ عليْه.

ويجُوزُ أيْضًا تبَعًا، كَما نَقُولُ فِي صَلاتِنَا: «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّد وعَلَى آلِ مُحَمَّد»، ويجُوزُ لشَخْصٍ مُعيَّنٍ بِدُونِ سَبَبٍ بشَرْط أَلَّا يُتَّخَذَ خَاصًّا بِهِ، كَما لَوْ نَقُولُ مَثَلًا -كُلَّما ذَكَرْنا أَبَا بَكْرٍ- قُلْنا: «صلَّى اللهُ علَيْه» فلَا يجُوزُ هَذَا.

مَسْأَلَةٌ أُخرَى: إذَا قُلْنا إنَّ حُكْمَ السَّابِّ للرَّسُولِ ﷺ القَتْلُ، فهَلْ كَذَلِكَ للرُّسلِ الآخَرِينَ؟

الجَوابُ: الظَّاهِرُ أنَّه إِذَا سَبَّهُم مِنْ حَيْثُ الرِّسالَة قُتِلَ، وفِي غَيْرِهَا لَا يُقْتَلُ، يَعْنِي لَوْ أَنَّ أَحدًا سَبَّ مُوسَى مثَلًا، أَو عِيسَى، أَو مَا أَشْبه ذَلِكَ؛ فالظَّاهِرُ أنَّه لا يُقتَلُ إِلَّا إِذَا كَانَ سبَّهُم لأَمْرٍ يتعَلَّقُ بالرِّسالَةِ.

[١] قَوْلُهُ: «قَامُوا للهِ بعِبَادَتِهِ»: ولَا شَكَّ فِي هَذَا: أَنَّ الرُّسلَ أَشَدُّ النَّاس قِيامًا بعِبَادَةِ اللهِ تعالى.

وقَوْلُهُ: «قَامُوا بِتَبْلِيغِ رِسَالَتِهِ»: بَلَّغُوها عَلَى حَسَبِ مَا أُمِرُوا، فلَمْ يُبالُوا بالتَّعذِيبِ، ولَا بالإِنْكَارِ، ولَا بالاسْتِهْزَاءِ، ولَا بالسُّخريةِ؛ بَل بَلَّغُوا كَما أُمِرُوا؛

قَالَ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ [المائدة:٦٧]. وقَالَ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب:٣٩].

وقَوْلُهُ: «والنُّصح لعِبَادِهِ» نعَمْ؛ فالرُّسلُ أنصَحُ الخَلْقِ للخَلْقِ، واقْرأْ سِيرَةَ خاتَمِهِمْ مُحمَّد ﷺ يتبيَّنْ لَكَ صِحَّةُ مَا قُلْنا.

وقَوْلُهُ: «والصَّبرُ عَلَى أذاهُمْ»: فقَدْ صَبرُوا عَلَى الأَذَى مَعَ أَنَّهُم أُشعِرُوا بالأذَى مِنْ حِينِ أُرسِلُوا، قَالَ اللهُ تَعالَى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ [الإنسان:٢٤]. لحُكمِهِ الشَّرعيِّ وحُكمِهِ القَدرِيِّ، ورُبَّما يَتوقَّع القَارِئُ: «إنَّا نَحْنُ نزَّلْنا القُرْآن تَنزيلًا: فاشْكُرْ نعمَةَ رَبِّك عَلَى ذَلِك» هكَذَا يَتوقَّعُ، لَكِنِ الله تعالى قَالَ: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ إشَارَةً إِلَى أَنَّه سَوفَ يَنالُهُ مِنْ جَرَّاءِ هَذَا التَّنزيلِ أذًى، وهَذَا هُو الوَاقِعُ؛ فقَدْ أُوذِيَ النَّبيُّ ﷺ أَشَدَّ الإيذَاءِ، ولكِنَّهُ صَابر، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا﴾ [الأنعام:٣٤]. وفِي هَذَا إشارَةٌ -واللهُ أعْلَمُ-: أنَّه إذَا حَصَلَ الإيذَاءُ فإنَّ النَّصرَ يَعقُبُهُ، ويُصدِّقُه الحَدِيثُ؛ وهُوَ قَوْلُ الرَّسُولِ ﷺ: «وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا»(١).

ومِنْ أشَدِّ مَا وَقَعَ بالرَّسُولِ ﷺ مِنَ الأَذَى: مَا وَقَعَ له حِينَ خَرَجَ إِلَى أَهْلِ الطَّائِفِ يدْعُوهُمْ إِلَى اللهِ تعالى؛ فإِنَّ أَهلَ مَكَّةَ كَذَّبُوه وآذَوهُ فخَرَجَ إِلَى الطَّائِفِ

(١) أخرجه الإمام أحمد (١/ ٣٠٧)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

لعَلَّهُم يَستَجِيبُونَ لَهُ، لَكِن -والعِيَاذُ بالله- قَابَلُوه بأَشَدِّ العَذَابِ، ذَكَرَ المُؤرِّخُون أَنَّهُم اصْطَفُّوا صَفَّين وجَعَلُوا يَرمُونَهُ بالحِجَارَةِ حتَّى هَرَبَ، لَا يَدْرِي أَيْنَ وَجْهُه، ولَمْ يُفِقْ إلَّا فِي قَرْنِ الثَّعالِبِ، فكأَنَّه يَمشِي وهُوَ لَا يَشْعُرُ بأَنَّه يَمْشِي، لَكِنَّ اللهَ دَلَّهُ للطَّرِيقِ، فلَمْ يُفِقْ إلَّا فِي قَرْنِ الثَّعالِبِ وإِذَا عَقِبُهُ قَدْ أُدْمِي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

ومَعَ ذَلِكَ انْظُرْ إِلَى حِلْمِهِ مَعَ قُدرَتِهِ، فقَد جَاءَ ملَكُ الجِبالِ بصُحْبَةِ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فقَالَ جِبْرِيلُ للنَّبِيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: هَذَا مَلَكُ الجِبَالِ قَدْ أَمَرَهُ اللهُ تَعالَى أَنْ يَفْعَلَ مَا تَقُول، فَسَلَّم علَيْه مَلَكُ الجِبَالِ، وأَخْبَرَهُ بأَنَّ اللهَ تَعَالَى أَمَرَهُ أَنْ يَفْعَلَ مَا يَقُولُ الرَّسُولُ ﷺ، وقَالَ لَهُ: إِنْ شِئْتَ أَطْبَقْتُ عَلَيهِمُ الأَخْشَبَينِ، يَعْنِي: جَبَلَيْ مَكَّة، ولَكِنَّ النَّبِيَّ ﷺ بحِلْمِهِ قَالَ: «أَسْتَأْنِي بِهِمْ» أَتَأَنَّى بهِمْ «لَعَلَّ اللهَ أَنْ يُخْرِجَ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا»[1]، علَيْه صَلَواتُ اللهِ وسَلَامُهُ، فلَمْ يَقُلِ النَّبِيُّ: مَنْ يُساعِدُني، مَنْ يَنصُرُني، مَعَ أَنَّ مُساعدَتَهُ ونَصْرَهُ عِبادَةٌ، لَكِن قَالَ: مَنْ يعبُدُ اللهَ لَا يُشرِكُ بِهِ شَيْئًا!.

فانْظُر إِلَى العَفْو عِنْد المَقْدِرةِ وعَدَم الانْتِقَام مَعَ العِزِّ فِي مِثْلِ الرُّسلِ -عَلَيهِمُ الصَّلاة والسَّلام-؛ فَلَا أَحَدَ أَصْبَرُ مِنَ الرُّسلِ عَلَى الأَذَى، وإِذَا كُنَّا نعْلَمُ أَنَّ الرُّسلَ أَنصَحُ الخَلْقِ للعِبادِ؛ فلنَنْظُر فِي مُحَمَّد ﷺ نَجِد أَنَّه أَنصَحُ الخَلْقِ لعِبَادِ اللهِ، ثُمَّ لنَنْظُرْ فِي كَلَامِهِ نجِده أَفصَحَ الكَلامِ وأَبيَنَ الكَلَامِ، ثُمَّ لنَنْظُر فِي عِلْمِهِ باللهِ وأَسْمائِهِ وصِفَاتِهِ نَجِد أَنَّه أَعلَمُ الخَلْقِ باللهِ عَزَّوَجَلَّ وأَسْمائِهِ وصِفَاتِهِ وأَحْكَامِهِ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم: آمين والملائكة في السماء، رقم (٣٢٣١)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين، رقم (١٧٩٥)، من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

....

فكَلامُ الرَّسُول ﷺ إذَنْ: تنطَبِقُ علَيْه الأَوْصَافُ الَّتِي يجِبُ عِنْدَ اجْتِماعِهَا قَبُولُ الكَلَامِ: الأَوَّلُ: العِلْمُ، والثَّانِي: الصِّدْقُ، والثَّالِثُ: النُّصحُ، والرَّابعُ: الفصَاحَةُ.

فكَلامُ الرَّسُول ﷺ مُتضمِّنٌ لِهَذِهِ الأَنْوَاعِ الأَرْبعَةِ، وكُلُّ كَلامٍ اجتَمَعَتْ فِيهِ الأَوْصَافُ الأَرْبعَةُ فإِنَّه يجِبُ أَنْ نَأْخُذَهُ بظَاهِرِهِ، وأَلَّا نَمِيلَ عَنْهُ يَمِينًا وَلَا شِمَالًا، وهَذَا مِنْ أَقْوى الأدِلَّةِ العقلِيَّةِ عَلَى وُجُوبِ قبُولِ مَا أَخْبرَ بِهِ النَّبيُّ ﷺ عَنْ رَبِّهِ بِدُونِ أَيِّ تَوقُّفٍ؛ لأَنَّنا لَوْ سَأَلْنَا هَلِ النَّبيُّ ﷺ حِينَما أَخْبرَ عَنْ رَبِّهِ: هَلْ هُوَ جَاهِلٌ؟ الجَوابُ: لَا، بَل هُو أَعْلَمُ النَّاس باللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ وهَلْ هُوَ كَاذِبٌ؟ لَا، بَل هُوَ أَصْدَقُ البَشَرِ كَلَامًا، وهَلْ هُو غَاشٌّ؟ لَا، بَل هُو أَنصَحُ الأُمَّةِ للأُمَّةِ، وهَلْ كَلامُهُ مُشتَمِلٌ عَلَى العِيِّ والتَّعقِيدِ وعَدَمِ الفَهْمِ؟ الجَوابُ: لَا، بَل كَلامُهُ أفصَحُ الكَلَامِ وأَبْيَنُ الكَلَامِ وأَحْسَنُ الكَلَامِ، بَل إنَّه حَظِي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بأَنَّ اللهَ تَعَالَى جَمَعَ لَهُ الكَلِمَ، واخْتَصَر لَهُ الكَلامَ اخْتِصَارًا، حتَّى إنَّه ليَأْتِي بالجُمْلَةِ اليَسِيرَةِ فتَحمِلُ المَعانِيَ العَظِيمَةَ، وذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللهِ علَيْه وعَلَى أُمَّتِهِ، صَلَوَاتُ اللهِ وسَلَامُهُ عَلَيْه.

ولَا شَكَّ أَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَصْبرُ الخَلْقِ؛ لأَنَّه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَحِقَه مِنَ الأَذَى مَا سَبَقَ ذِكْرُ بَعْضِهِ، ومِنْ أَعْجَبِ مَا لَحِقَهُ أَيْضًا مِنَ الأَذَى وأَشَدِّهِ إِهَانَةً، أَنَّه كانَ ذَاتَ يَوْمٍ يُصلِّي تَحْتَ الكَعْبَةِ -وآمَنُ مكَانٍ عَلَى وَجْهِ الأَرْض هُوَ الكَعْبَةُ والمَسجِدُ الحَرَامُ-، فكَانَ يُصلِّي كَما يُصلِّي سَائِرُ النَّاس وكَانَ حَولَهُ مَلَأٌ مِنْ قُرِيشٍ، فقَالَ بَعْضُهم لبَعْضٍ: أَيُّكُمْ يذهَبُ إِلَى جَزُور آلِ فُلانٍ -وكَانَ عندَهُم عِلْمٌ بأَنَّها ذُبِحتْ- فيَأْتِي بسَلَاهَا وفَرْثِهَا ودَمِها فيَضعُهُ عَلَى مُحَمَّد وهُوَ سَاجِدٌ؟ فانْبعَثَ أَشْقَاهُم وأَتَى بِهِ ووَضَعَهُ عَلَى ظَهْرِ النَّبيِّ ﷺ وهُوَ سَاجِدٌ، مَعَ أَنَّه لَوْ جَاءَ أَعرَابيٌّ بدَويٌّ مِنْ أَقْصَى

الجزيرةِ إِلَى مَكَّةَ لَمْ تَنَلْهُ قُرَيشٌ بسُوءٍ، وهَذَا مِنْهم يعرِفُونَه، ويَعرِفُون صِدْقَهُ وأَمَانَتَهُ؛ يفْعَلُون بِهِ مَا يفْعَلُون عِنْدَ بَيْتِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، نسْأَلُ اللهَ العَافِيَةَ.

فبَقِيَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ سَاجِدًا وهَؤُلاءِ يُقَهقِهُون ويضْحَكُون ويَتَمايلُون بِمَا فَعلُوا بمُحمَّدٍ رَسُولِ اللهِ ﷺ، حتَّى جَاءَتْه ابنَتُهُ الصَّغيرَةُ فَاطِمَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فأَزَالَتْ عَنْهُ السَّلَى والفَرْثَ والدَّمَ، ثُمَّ قَامَ وأَنْهَى صَلَاتَهُ وبَعْدَ السَّلامِ رَفَعَ يَدَيْهِ إِلَى رَبِّهِ عَزَّوَجَلَّ ودَعَا عَلَيْهِمْ، فَمَا أَفلَتَ مِنْهم وَاحِدٌ إِلَّا قُتِلَ، فكُلُّ هَؤُلاءِ قُتِلُوا فِي بَدْرٍ وسُحِبُوا فِي القَلِيبِ[1]، يُؤذِي النَّاس نَتَنُهُم، فأُخْزُوا -والعِيَاذُ باللهِ- فِي الدُّنيا وسيُخْزَون فِي الآخِرَةِ.

فالمُهِمُّ: أنَّ الرُّسلَ -عَلَيهِمُ الصَّلاة والسَّلام- صَبَرُوا صَبْرًا عظِيمًا عَلَى أَذَى قَومِهِمْ، فمُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ آذَاهُ قَومُهُ وكَانُوا هُمُ المُخْتَارِين مِنَ العَالَمِ فِي ذَلِكَ الوَقْتِ، آذَوهُ أَذِيَّةً؛ إِذْ يَسمعُونَهُ يُخاطِبُ اللهَ عَزَّوَجَلَّ ويَسمَعُونَ كَلَامَ اللهِ، ثُمَّ يقُولُونَ: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة:٥٥] أعُوذُ باللهِ! هَؤُلاءِ وهُمُ المختَارُونَ مِنْ شَعْبِهِ.

وكَانَ مِنْ جُملة أذِيَّتِهِمْ أَيْضًا: أَنَّه كَانَ يغْتَسِلُ مُستَتِرًا، وَلَا يُمْكِن أن يَغْتَسِلَ عُريَانًا، وكَانَتْ بَنُو إسرَائيلَ تَغْتَسِلُ عُرَاةً، فقَالُوا: إنَّ مُوسَى لَمْ يَستَتِرْ عَنَّا إِلَّا لأَنَّه آدَرُ -والأُدْرةُ مَرَضٌ فِي الخُصْيتَينِ، تنْتَفِخُ الخُصْيتَانِ بِه-، وقالُوا: فلِمَاذَا لَا يَغْتَسِلُ عَارِيًا

(١) أخرجه البخاري: كتاب الوضوء، باب إذا أُلقي على ظهر المصلي قذر أو جيفة، رقم (٢٤٠)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين، رقم (١٧٩٤)، من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ومِنْ ثَمَرَاتِ الإِيمَانِ باليَومِ الآخِرِ:[١]

كَمَا نَحن نَغتَسِلُ عُرَاةً! فأَرَاهُمُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى آيَةً قَهرِيَّةً عَلَى مُوسَى، فحَيْثُ كَانَ يَغْتَسِلُ ذَاتَ يَوْمٍ، وقَدْ وَضعَ ثَوبَهُ عَلَى حَجَرٍ، فهَرَبَ الحَجَرُ بالثَّوبِ بأَمْرِ اللهِ، فذَهَبَ مُوسَى يَشتَدُّ ورَاءَهُ، يقُولُ: ثَوبِي حَجَرُ! ثَوبِي حَجَرُ! فخَاطَبَهُ لأَنَّه هَرَبَ بثَوبِهِ، فِعْلَ العَاقِلِ الَّذِي يُخاطَبُ؛ حتَّى وَقَفَ الحَجَرُ عِنْد بَنِي إسرَائِيلَ، فشَاهَدُوا مُوسَى لَيْسَ فِيهِ إلَّا الخَيْرُ سَليمًا مُعافًى(١) وفِي ذَلِك يقُولُ اللهُ تَعالَى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴾ [الأحزاب:٦٩]. نسْأَلُ اللهَ أَنْ يرزُقَنا وإيَّاكُم تعظِيمَ رُسلِنا عَلَى الوَجْهِ الَّذِي يَرْضَاهُ عَنَّا، إنَّه عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

[١] قَوْلُهُ: «ومِنْ ثَمَرَاتِ الإِيمَانِ باليَوْمِ الآخِرِ» وهُوَ الإِيمَانُ الَّذِي يَقرِنُهُ اللهُ تَعَالَى دَائِمًا بالإِيمَانِ بِهِ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:٨]. والآيَاتُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ: أَنَّ اللهَ تَعَالَى يَقرِنُ الإيمان بِهِ بالإِيمَانِ باليَومِ الآخِرِ؛ لأَنَّ مَنْ لَمْ يُؤمِنْ باليَومِ الآخِرِ فَلَا يُمْكِن أَنْ يُصدِّقَ رُسُلًا، ولَا أَنْ يتعَبَّدَ بطَاعَةٍ؛ لأَنَّهُ يَرَى أَنَّه يَعِيشُ فِي هَذِهِ الدُّنيَا ما شَاءَ اللهُ أَنْ يَعِيشَ ثُمَّ يَنْتَهِي أَمْرُهُ، ولَا يُمْكِن لإنسَانٍ لَا يُؤمِنُ باليَومِ الآخِرِ أَنْ يَستَقِيمَ عَلَى طَاعَةٍ أَبَدًا، لَكِنَّ الإِيمَانَ باليَومِ الآخِرِ يَحْدُو الإِنْسانَ إِلَى العَمَلِ بطَاعَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ فِعْلًا لأَمْرِهِ وتَرْكًا لنَهْيِهِ، ولهَذَا دَائِمًا يُخَاطِبُ اللهُ بـ«الَّذينَ آمَنُوا»: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ إِشَارَةً إِلَى أَنَّ الإِيمَانَ مُقتضَاهُ هُو العَمَلُ الصَّالِحُ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الخضر مع موسى عليهما السلام، رقم (٣٤٠٤)، ومسلم: كتاب الحيض، باب جواز الاغتسال عريانًا في الخلوة، رقم (٣٣٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أوَّلًا: الحِرْصُ عَلَى طَاعَةِ اللهِ تَعَالَى رَغْبَةً فِي ثَوَابِ ذَلِكَ اليَوْمِ، والبُعْدِ عَنْ مَعصِيَتِهِ خَوْفًا مِنْ عِقَابِ ذَلِكَ اليَوْمِ[١].

ثانيًا: تَسلِيَةُ المُؤمِنِ عَمَّا يَفُوتُهُ مِنْ نَعِيمِ الدُّنيا ومَتَاعِهَا بِمَا يَرجُوهُ مِنْ نَعِيمِ الآخِرَةِ وثَوابِهَا[٢].

---

[١] قَوْلُهُ: «**أَوَّلًا: الحِرْصُ عَلَى طَاعَةِ اللهِ تَعَالَى رَغْبَةً فِي ثَوَابِ ذَلِكَ اليَومِ، والبُعْدِ عَنْ مَعصِيتِهِ خَوْفًا مِنْ عِقَابِ ذَلِك اليَومِ**»: هَذَا مِنْ ثَمَرَاتِهِ لَا شَكَّ؛ فإِنَّ الإِنْسانَ إِذَا آمَنَ باليَومِ الآخِرِ حَرَصَ عَلَى طَاعَةِ اللهِ رَغْبَةً فِي ثَوابِهِ، واجْتَنَبَ مَعْصِيَةَ اللهِ خَوْفًا مِنْ عِقَابِهِ.

[٢] قَوْلُهُ: «**ثَانيًا: تَسلِيَةُ المُؤمِنِ عَمَّا يَفُوتُهُ مِنْ نَعِيمِ الدُّنيا ومَتَاعِهَا بِمَا يَرْجُوهُ مِنْ نَعِيمِ الآخِرَةِ وثَوَابِهَا**»: لأَنَّ المُؤمِنَ إِذَا رَأَى أَهْلَ المعصِيَةِ مُنعَّمِينَ بِثِيَابِهِمْ وأبنائِهِمْ وأَهْلِيهِمْ وقُصُورِهِمْ ومَرَاكِبِهِمْ سَوفَ يمُوتُ غَمًّا، لَكِن إِذَا آمَنَ بِمَا أَعَدَّ اللهُ لَهُ فِي اليَوم الآخِرِ هَانَ عَلَيْه كُلُّ ذَلِك؛ ولِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا تَشْرَبُوا فِي آنِيَةِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَلَا تَأْكُلُوا فِي صِحَافِهَا فَإِنَّهَا لَـهُمْ فِي الدُّنيَا وَلَكُمْ فِي الْآخِرَةِ»⁽١⁾. ولَمَّا رَأَى عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ رَسُولَ اللهِ ﷺ نائمًا عَلَى حَصِيرٍ قَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِه بَكَى، فقَالَ لَهُ: «مَا يُبْكِيكَ؟» قَالَ: أَبْكِي لأَنَّ كِسْرَى وقَيْصَرَ يَعِيشَانِ فِيمَا يَعِيشَانِ فِيهِ مِنْ نَعِيمٍ وأَنْتَ عَلَى هَذِهِ الحَالِ، فقَالَ: «أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ لَـهُمُ الدُّنيَا وَلَنَا الْآخِرَةُ»⁽٢⁾.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأشربة، باب آنية الفضة، رقم (٥٦٣٣)، ومسلم: كتاب اللباس والأشربة، باب تحريم استعمال إناء الذهب والفضة على الرجال والنساء، رقم (٢٠٦٧)، من حديث حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قول الله تعالى: ﴿تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ﴾، رقم (٤٩١٣)،

وَمِنْ ثَمَرَاتِ الإِيمَانِ بِالْقَدَرِ:

أَوَّلًا: الاعتِمَادُ عَلَى اللهِ تَعَالَى عِنْد فِعْلِ الأَسْبَابِ؛ لأَنَّ السَّببَ والمُسبَّبَ كِلَاهُمَا بقَضَاءِ اللهِ وقَدَرِه[١].

ولا شَكَّ أنَّ هَذا تَسلِيَةٌ عظِيمَةٌ للمُؤمنِ، والتَّسلِيَةُ تُهوِّنُ عَلَى الإِنْسانِ المُصيبَةَ، ولهَذا قَالَتْ رَابعَةُ العَدويَّةُ لـمَّا أُصيبتْ فِي إِصْبعِهَا ولَمْ تتضَجَّرْ؛ ولَمْ تتَأَثَّرْ فقِيلَ لَـهَا فِي ذَلِكَ، فقَالَتْ: إنَّ حَلَاوَةَ أَجْرِهَا أَنْسَتنِي مرَارَةَ صَبرِهَا، سُبحَانَ اللهِ العَظِيمِ! كَلَام نَضِرٌ، علَيْه النُّورُ؛ لأَنَّ بضِدِّهَا تُداوَى الأشيَاءُ، فإِذَا آمَنَ باليَومِ الآخِرِ حَصَلَ لَهُ ذَلِك.

[١] قَوْلُهُ: «وَمِنْ ثَمَرَاتِ الإِيمَان بالقَدَرِ: أَوَّلًا: الاعتِمَادُ عَلَى اللهِ تَعَالَى عِنْد فِعْلِ الأَسْبَابِ؛ لأَنَّ السَّببَ والمُسَبَّب كِلَاهُمَا بقَضَاءِ اللهِ وقَدَرِه»: وهَذَا مِنْ أَهَمِّ ثَمَرَاتِ الإِيمَان بالقَدَرِ: أنَّ الإِنْسانَ يعْتَمِدُ عَلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ عِنْدَ فِعْلِ الأَسْبَابِ ولَا يَعتَمِدُ عَلَى السَّببِ؛ لأَنَّه إِذَا اعْتَمَدَ عَلَى السَّببِ خُذِلَ، وكَانَ مِنْ دُعَاءِ النَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «اللَّهُمَّ إِنْ تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي تَكِلْنِي إِلَى ضَعْفٍ وَعَجْزٍ وَعَوْرَةٍ، فَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي وَلَا إِلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِكَ طَرْفَةَ عَيْنٍ»(١).

= ومسلم: كتاب الطلاق، باب في الإيلاء واعتزال النساء وتخييرهن، رقم (١٤٧٩)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٥/ ١١٩، رقم ٤٨٠٣)، والحاكم في المستدرك (١/ ٥١٦-٥١٧)، من حديث زيد بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بلفظ: **«وأشهد أنك إن تكلني إلى نفسي تكلني إلى ضعف وعورة وذنب وخلل وخطيئة»**. وأخرجه الإمام أحمد (٥/ ٤٢)، وأبو داود: كتاب الأدب، باب ما يقول إذا أصبح، رقم (٥٠٩٠)، من حديث أبي بكرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بلفظ: **«اللهم رحمتك أرجو، فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين»**.

وانظُرْ إِلَى الرَّجُل الَّذِي آتاهُ اللهُ تَعَالَى مَا آتاهُ مِنَ الدُّنيا حيثُ قَالَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ﴾ [القصص:٧٨]. فافْتَخَرَ بنَفْسِهِ، مَعَ أَنَّ اللهَ تعالى هُو الَّذِي قَدَّرَ لَهُ ذَلِك، فإذَا آمَنْتَ بالقَدَرِ اعتَمَدْتَ عَلَى اللهِ عِنْدَ فِعْلِ الأسبَابِ، وانْظُرْ إِلَى قَوْلِ المُؤَلِّفِ: «عِنْدَ فِعْلِ الْأَسْبَابِ» لِتَرى أَنَّه لَا بُدَّ -مَعَ الاعْتِمادِ عَلَى اللهِ- مِنْ فِعْلِ السَّبَبِ، والإِنْسَانُ الَّذِي يتَّكِلُ ويقُولُ: إِنَّهُ مُتَّكِلٌ وَلَا يفْعَلُ السَّببَ هُوَ قَادِحٌ فِي حِكْمَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، إِلَّا إِذَا أَعيَتْكَ الأُمُورُ؛ حينَئِذٍ فاعْتَمِدْ عَلَى مُجَرَّدِ القَضَاءِ والقَدَرِ، ولهَذَا قَالَ ﷺ: «احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ، ولَا تَعْجَزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَذَا وكَذَا، ولكِنْ قُلْ: قَدَرُ اللهِ ومَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ (لَوْ) تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ»[١].

فأنْتَ افْعَلِ الأسبَابَ، ولَكِنِ اعْتَمِدْ فِي الأَسبَابِ عَلَى أَنَّها سَبَبٌ مَحْضٌ، وأنَّ اللهَ تَعَالَى لَوْ شَاءَ لأَبْطَلَ هَذَا السَّببَ بقَوْلِهِ: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾، وانْظُرْ إِلَى النَّارِ فَهِيَ مُحرِقَةٌ! وقَدْ أَضْرَمَ قَوْمُ إبرَاهِيمَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ نَارًا عَظِيمَةً وأَلْقَوهُ فِيهَا، فقَالَ اللهُ تَعَالَى للنَّارِ: ﴿كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء:٦٩]. فكَانَتْ بَرْدًا وسَلامًا عَلَيْه، مَعَ أَنَّها حَارَّةٌ مُهلِكَةٌ، فقِيلَ لَـهَا: ﴿كُونِي بَرۡدٗا﴾ وهُو ضِدُّ الحَرَارَةِ: ﴿وَسَلَٰمًا﴾ وهُو ضِدُّ الإِهْلَاكِ، وخَرَجَ سَلِيمًا.

والعَجَبُ أَنَّ بَعْضَ العُلَماء قَالَ: إِنَّ جَمِيعَ نِيرانِ الدُّنيَا فِي تِلْك السَّاعةِ كَانَت بارِدَةً حتَّى الَّذِين أَوقَدُوا النَّارَ عَلَى طعَامِهِمْ كَانَت بارِدَةً كأَنَّها ضَوءُ القَمَرِ والطَّعامُ

(١) أخرجه مسلم، كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض المقادير لله، رقم (٢٦٦٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

ثَانيًا: رَاحَةُ النَّفسِ وطُمأنِينَةُ القَلْبِ، لأَنَّه مَتَى عَلِمَ أَنَّ ذَلِك بقَضَاءِ اللهِ تَعَالَى، وأَنَّ المَكرُوهَ كَائِنٌ لَا محَالَةَ، ارْتَاحَتِ النَّفسُ واطمَأَنَّ القَلْبُ ورَضِيَ بقَضَاءِ الرَّبِّ، فَلَا أَحَدَ أَطْيَبُ عَيْشًا وأَرْيحُ نفسًا وأَقْوَى طُمأنينَةً مِمَّنْ آمَنَ بالقَدَرِ[1].

لَمْ يَنضُجْ فأَكَلُوه نِيئًا، هكَذَا قَالَ بَعْضُ العُلَماء، وهُوَ قَوْلٌ سَخِيفٌ لَا يُلتفَتُ إِلَيْهِ، لأَنَّ اللهَ تعالى قَالَ: ﴿يَـٰنَارُ﴾ فبنَاهَا عَلَى الضَّمِّ، والنَّكرَةُ إِذَا بُنِيَتْ عَلَى الضَّمِّ صَارَتْ مقصُودَةً، كالمَعْرفَةِ تمامًا؛ فكَمَا أَنَّ المَعرفَةَ تُعينُ الـمُعَرَّف، كذَلِكَ النَّكرَةُ المقصُودَةُ هِيَ كالمعْرفَةِ تمامًا، ولهَذا تُبنَى عَلَى الضَّمِّ فِي النِّداءِ، والقُرآنُ الكَرِيمُ قَالَ اللهُ فِيهِ: ﴿يَـٰنَارُ﴾ ولَمْ يَقُل: «يَا نَارًا»، ثُمَّ قَالَ: ﴿كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ وإِبْراهِيمُ فِي نَارٍ واحِدَةٍ ولَيْس فِي جَمِيع النِّيرانِ، وهَذَا مَا يدُلُّك عَلَى أَنَّ بَعْض العُلَماء يأخُذُونَ أَقْوَالَهم مِنَ الإسرَائِيلِيينَ دُونَ أن يُمَحِّصُوها، وإِلَّا فكُلُّ إنسَانٍ يقْرَأُ الآيَةَ يعْرِفُ أَنَّ هَذا القَولَ لَيْسَ بشَيْءٍ.

[١] قَوْلُهُ: «ثانيًا: رَاحَةُ النَّفْسِ وطُمأنِينَةُ القَلْبِ، لأَنَّه مَتَى علِمَ أَنَّ ذَلِك بقَضَاءِ اللهِ تَعَالَى، وأَنَّ المَكرُوهَ كَائِنٌ لَا محَالَةَ، ارْتَاحَتِ النَّفسُ واطمَأَنَّ القَلْب ورَضِي بقضَاء الرَّبِّ، فَلَا أَحَدَ أَطْيَبُ عَيْشًا وأَرْيحُ نَفْسًا وأَقْوَى طُمأنينَةً مِمَّن آمَنَ بالقَدَرِ»: وهَذا مُهِمٌّ جِدًّا، أَيْ رَاحَةُ النَّفسِ وطُمأنِينَةُ القَلْبِ عِنْد حُصُولِ المَكْرُوهِ، فأَنْتَ إِذَا سعَيْتَ فِي الأَسْبَابِ وحصَلَ مَا تكْرَهُ ولمْ يحصُلْ مَا تُرِيدُ وكُنْت مُؤمِنًا بالقَدَرِ، فمَقَامُك حينَئِذٍ التَّسلِيمُ والرِّضَا، وتَقُول: هَذَا الَّذِي قدَّر اللهُ ولَا يُمكِن أَنْ تتغَيَّر الحَالُ عمَّا كَانَ، فتَطمَئِن وتَقُول: إِذَا كَانَ هَذَا فِعْلَ رَبِّي بِي فأَنَا مِلْكٌ وعَبْدٌ لَهُ يَفْعَلُ بِي مَا شَاءَ، فتَطمئِنُّ وتَستَقِرُّ ولَا تَستحْسِرُ، وتفعَلُ الأسبَابَ المُنجيةَ الَّتِي جعَلَهَا اللهُ أَسْبَابًا، لَكِن إِذَا لمْ تُؤمِنْ بالقَدَرِ فلَا يُمْكِن أن تَصْبرَ؛ ولهَذَا انْظُر إِلَى القَومِ الَّذِين لَـمْ يُؤمِنُوا بالقَدَرِ

إِذَا أُصِيبُوا بكُربَةٍ يَنتَحِرُون ويَقتُلون أنفُسَهُم!!.

ولكِنْ إِذَا انْتحَرُوا هَل ينْجُون ممَّا هُمْ فِيه؟ الجَوابُ: لَا، بَل يقعُون فِيمَا هُو أشَدُّ، فهُمْ كالمُستجِيرِ مِنَ الرَّمضَاءِ بالنَّارِ، فَلَا يَظُنُّ هَذَا المسكِينُ أَنَّه إِذَا قَتَلَ نَفْسَهُ: كالبَهيمَةِ انْتهَى أمْرُهُ، بَلِ انتقَلَ إِلَى دَارِ الجَزَاءِ، وجزَاؤُه إِذَا قتَلَ نفْسَه أنْ يعذَّب بمَا قتَلَ بِهِ نفسَهُ فِي نَارِ جهَنَّم خَالدًا فِيها مُخَلَّدًا -والعِياذُ باللهِ-، ولَكِن مِثْلُ هَؤُلاءِ لَا يُؤمِنُونَ بذَلِك.

والمُهمُّ: أنَّ الإِيمَان بالقَضَاءِ والقَدَرِ يُوجِبُ راحَةَ النَّفسِ وطُمأنينَةَ القَلْبِ، فرُبَّما يَسْعَى إنسَانٌ مثلًا لحُصُولِ شَيْء ثُمَّ يحُولُ القَدَرُ بينَهُ وبَيْنَ هَذَا الشَّيْء، أَعْنِي قَدَرَ اللهِ، فتَجِدُه ينْدَمُ ويتَأَثَّرُ ثُمَّ يجِدُ فِيمَا بعْدُ أنَّ الخَيْرَ فِيمَا قَدَّرَ اللهُ؛ فقبْلَ سَنَواتٍ احْترَقَتْ طَائِرَةٌ سُعوديَّةٌ بعْدَ أنْ أَقْلَعَتْ مِنْ مطَارِ الرِّياضِ، ثُمَّ رَجَعَتْ لإِطْفَاءِ حَرِيقٍ بها، لَكِن قدَرُ اللهِ ومَا شَاءَ فَعَلَ، قَضَى الحَرِيقُ علَيْها وعَلَى مَنْ فِيهَا، مَعَ أَنَّ قَائِدَها فعَلَ كُلَّ سَبَبٍ تُمكِنُ بِهِ السَّلامَةُ، ولَكِن قَدْ مضَى القَدَرُ، وكَانَ من جُمْلة الرُّكابِ رَجُلٌ يَنتَظِرُ الإعلَانَ عَنْ رُكُوبِ الطَّائرَةِ فأخَذَهُ النُّعاسُ وأُعلِنَ عَنِ الطَّائرَةِ، واللهُ أعلَمُ: أنَّ نومَهُ كَانَ ثَقِيلًا، فلَمَّا استيقَظَ الرَّجُلُ وإِذَا النَّاس قَدْ رَكبُوا، فذهَبَ إِلَى أَهْلِ المطَارِ يُوبِّخُهم ويُبكِّتُهم، وفِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ أُعلِنَ أنَّ الطَّائرَةَ هبطَتْ فِي المطَارِ واحترَقَتْ.

سُبحَانَ اللهِ! فهَذَا قُدِّر لَهُ النَّجَاةُ ولَكِن كَرِهَ فِي الأَوَّلِ أَنْ يَكُون تخلَّفَ، لَكِن كَانَ تخلُّفُهُ خيرًا لَهُ -إِنْ شَاءَ اللهُ- إِنِ ازدَادَ ببقَائِهِ فِي الدُّنيَا خيرًا، وإلَّا فرُبَّما يَكُون طَولُ العَمْر شرًّا، فشَرُّ النَّاسِ مَنْ طَالَ عُمُرُهُ وسَاءَ عملُهُ، وانْظُرْ إِلَى الْآيَةِ الكَرِيمَة: ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء:١٩]،

فقولُه: ﴿شَيْـًٔا﴾ يَعْني: أَيَّ شَيْء يَكُونُ ويجْعَلَ اللهُ فِيهِ خَيرًا كثيرًا. ولَو كَانَتِ الآيَةُ: (فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوهن ويجعل الله فيهن خيرًا كثيرًا) لَكَانَ الخَيْرُ الكَثِيرُ خَاصًّا بالنِّساءِ، لَكِنْ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾.

وقَوْلُهُ: «وَأَنَّ المَكْرُوهَ كَائِنٌ لَا مَحَالَةَ»، يَعْني أَنَّه وَاقِعٌ لَا مَحالَة، ولَا يُمْكِن رَفْعُهُ، فإِذَا كَانَ لَا يُمْكِنُ رَفعُهُ فَما الفَائِدَةُ مِنَ الحُزْنِ والقَلَقِ والتَّعبِ النَّفسيِّ والتَّقدِيرَاتِ الَّتِي يُملِيهَا الشَّيطانُ عَلَى الإنْسَانِ؟ فيَقُولُ: لَيْتَكَ مَا فَعَلْتَ، ولَو مَا فَعَلْتَ لَكَانَ كَذَا وكَذَا، ومَا أَشْبَهَ ذَلِك.

وبهَذِهِ المُناسبَة أذْكُر كلِمَةً عَشِقَها بَعْضُ النَّاس فِي عَصْرِنا هَذَا، وهِيَ: «الحَمْدُ للهِ الَّذِي لَا يُحمَدُ عَلَى مَكْرُوهٍ سِوَاهُ» وهَذَا غَلَطٌ؛ لأَنَّ الرَّسُولَ ﷺ لَمْ يَقُل ذَلِكَ، ثُمَّ إنَّ هَذَا يُنبِئُ عَنِ احتِجَاجٍ عَلَى القَدَرِ، وأَنَّه لَمْ يَرْض بالقَدَرِ، لكنَّه رَغْمٌ عَنْه، وكانَ الرَّسُولُ ﷺ إِذَا أَصَابَهُ مَا لَا يُحِبُّ يقُولُ: «**الحَمْدُ للهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ**»[1]. وهَذِهِ كَلِمَةٌ طَيِّبَةٌ، ولَا يَنْسُبُ المَكرُوهَ وهُوَ يتَضَرَّعُ إِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، ويُعلِنُ أَنَّه مكْرُوهٌ، كأَنَّما يحتَجُّ عَلَى القَدَرِ، ثُمَّ يقُولُ: إِنِّي أَحْمَدُ اللهَ عَلَى ذَلِك، لَكِن يقُولُ: «الحَمْدُ للهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ»، وكَانَ إِذَا أَصابَهُ مَا يسرُّه قَالَ: «**الحَمْدُ للهِ الَّذِي بِنِعْمَتِهِ تَتِمُّ الصَّالِحَاتُ**»، وخيرُ الهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّد ﷺ.

فإِنْ قَالَ قَائِل: إِنَّ الَّذِين يقُولُونَ: «لَا يُحمَدُ عَلَى مَكْرُوهٍ سِوَاهُ» يقُولُون: نَحن

(١) أخرجه ابن ماجه: كتاب الأدب، باب فضل الحامدين، رقم (٣٨٠٣)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

ثالثًا: طَرْدُ الإِعجَابِ بالنَّفسِ عِنْدَ حُصُولِ المُرَادِ، لأَنَّ حُصُولَ ذَلِكَ نِعْمَةٌ مِنَ اللهِ بِمَا قَدَّرَهُ مِنْ أَسْبَابِ الخَيْرِ والنَّجَاحِ، فيَشْكُرُ اللهَ تَعَالَى عَلَى ذَلِكَ ويَدَعُ الإِعجَابَ[١].

لَا نقْصِدُ المعَارضَةَ، بَل نقْصِدُ أَنَّ المَخلُوقِينَ لَا يُحْمَدُونَ عَلَى المَكْرُوهِ ولَكِن يُعاقَبُونَ؟

فالجوابُ: هَذَا غلَطٌ، فَلَا تُقَالُ هُنَا، بَل يُقالُ كَمَا قَالَ النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «الحَمْدُ للهِ عَلَى كُلِّ حالٍ» أمَّا أنْ تَقُولَ: «عَلَى مَكرُوهٍ» فمَعْنَى ذَلِك: أَنَّكَ الْآنَ كَارِهٌ مَا حَصَلَ، وفِيهِ نَوْعٌ مِنَ الاعتِرَاضِ وإِنْ كَانُوا يقُولُونَ: لَا نَقْصِدُ ذَلِك؛ وإِنْ شَاءَ اللهُ هُو ظنُّنَا لِمَنْ فِيهِ الخَيْرُ، لَكِن نَقُولُ: عَدِّل العبَارَةَ إِلَى مَا قَالَهُ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «الحَمْدُ للهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ»؛ فإِنْ زَادَ: «ونَعُوذُ باللهِ منْ حَالِ أَهْلِ النَّارِ» فهُوَ تَكْمِيلٌ.

قَوْلُهُ: «ارتَاحَتِ النَّفسُ، واطمَأَنَّ القَلْبُ، ورَضِي بقَضَاءِ الرَّبِّ، فَلَا أحَدَ أطيَبُ عَيْشًا، وأَرْيحُ نَفسًا، وأقْوَى طُمأنِينةً، مِمَّن آمَنَ بالقَدَرِ» وصَدَقَ المُؤلِّفُ.

[١] قَوْلُهُ: «ثَالثًا: طَرْدُ الإِعْجَابِ بالنَّفْسِ عِنْد حُصُولِ المُرادِ؛ لأَنَّ حُصُولَ ذَلِك نعْمَةٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى بِمَا قَدَّرَهُ مِنْ أسبَابِ الخَيرِ والنَّجاحِ، فيَشكُرُ اللهَ عَلَى ذَلِكَ، ويَدَعُ الإِعْجَابَ»، وهَذَا أيضًا مِنْ أهَمِّ فَوائِدِ الإِيمَانِ بالقَدَرِ، أنَّ الإِيمَان بالقَدرِ يطْرُدُ الإعجَابَ بالنَّفسِ، قَالَ ﷺ: «اللَّهُمَّ لَوْلَا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا»(١)، هَذَا إِيمَانٌ بالقَدرِ. وأمَّا قَوْلُهُ تعَالَى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾ [الحجرات:١٧]. فهَذَا خلَافُ الإِيمَان بالقَدرِ: ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾؛ لَكِنَّ هَؤُلَاءِ أُعجِبُوا بإِيمَانِهِمْ، ومَنُّوا بِـهِ عَلَى الرَّسُـولِ ﷺ، فالإِيمَانُ بالقَدَرِ يطْـرُدُ الإعْجَابَ بالنَّفسِ عِند حُصُولِ المُرادِ،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب غزوة الخندق، رقم (٤١٠٦)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب غزوة الأحزاب، رقم (١٨٠٣)، من حديث البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

رَابِعًا: طَرْدُ القَلَقِ والضَّجرِ عِنْدَ فَوَاتِ المُرادِ أَو حُصُولِ المكرُوهِ، لأَنَّ ذَلِك بقَضَاءِ اللهِ تَعَالَى الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَواتِ والأَرْضِ وهُوَ كَائِنٌ لَا مَحَالَةَ، فيَصْبِرُ عَلَى ذَلِكَ ويحتَسِبُ الأجْرَ[١]،..........

وهَذَا قَالَ اللهُ تعَالَى ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [الحديد:٢٣].

قَوْلُهُ: «لِأَنَّ حُصُولَ ذَلِكَ نِعْمَةٌ مِنَ اللهِ بِمَا قَدَّرَهُ مِنْ أَسْبَابِ الخَيْرِ والنَّجَاحِ، فيَشْكُرُ اللهَ»، خِلافًا لِمَنْ قَالَ حِينَ ذُكِّرَ بنِعمَةِ اللهِ قَالَ: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص:٧٨] فلَمَّا قَالَ قَومُ قَارُونَ لَهُ: ﴿لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ قَالَ: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ يَعْني: لَيْسَ مِنْ فَضْل اللهِ، ولَكِن أَنَا عِنْدِي عِلْمٌ بالمكَاسِب فأُوتِيتُ ذَلِكَ، وإِذَا زَالَ الإعجَابُ بالنَّفسِ أَوْجَبَ ذَلِكَ شُكْرَ اللهِ عَلَى هذِهِ النِّعمَةِ، وعَلَى حُصُولِ مُرَادِهِ، وتَرَكَ الإِعْجَابَ.

مَسْأَلَةٌ: هَلْ يجُوزُ لرَجُلٍ أنْ يقُولَ فِي نِسبَةِ النِّعَمِ الَّتِي عِنْدَهُ مَثَلًا أنْ يَقُولَ: «أُوتيتُهُ بفَضْل اللهِ عَزَّوَجَلَّ ثُمَّ بخِبْرَتِي» أَو أنَّ هذِهِ الأُمورَ يَنْبَغِي أن يُحِيلَهَا دَائِمًا إِلَى اللهِ؟

الجَوابُ: لَا بَأْسَ أنْ يقُولَ هَذَا بشَرْط أنْ لَا يُغلِّب قَوْلَهُ: «بخِبْرَتِي» عَلَى قَوْلِهِ: «بفَضْلِ اللهِ»، فبَعْض النَّاس قَد يُقدِّمُ فضْلَ اللهِ لفْظًا لَكِن فِي قَلْبِهِ أَنَّ الخِبْرَةَ أَبْلَغُ فِي حُصُولِ هَذَا الشَّيْءِ، فإِذَا كَانَ يَخْشَى عَلَى نَفسِهِ مِنْ ذَلِكَ فَلَا يَقُلْ هَذَا، وإِذَا كَانَ يُرِيدُ أنْ يقُولَ: «بخِبْرَتِي» مِنْ أَجْل أنْ يَحُثَّ النَّاسَ عَلَى فِعْلِ الأَسبَابِ كَانَ هَذَا خيرًا.

[١] قَوْلُهُ: «رَابعًا: طَرْدُ القَلَقِ والضَّجَرِ عِنْد فواتِ المُرادِ، أَو حُصُولِ المكْرُوه؛ لأَنَّ ذَلِكَ بقَضَاءِ اللهِ تَعَالَى، الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَواتِ والأَرْضِ، وهُوَ كَائِنٌ لَا محَالَةَ،

وإِلَى هَذَا يُشِير اللهُ تَعَالَى بقَوْلِهِ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾[١] ....

فيَصْبِرُ عَلَى ذَلِكَ، ويَحْتَسِبُ الأَجْرَ» وهَذَا أيضًا من ثَمَرَاتِ الإِيمان بالقَدَرِ أَنَّه يطرُدُ القَلَقَ والضَّجرَ؛ لأَنَّ الإِنْسانَ يقُولُ فِي نَفْسِهِ: مَهْمَا كَانَ الأَمْر فلَا يُمْكِنُ أَنْ يتحَوَّلَ الحَالُ عمَّا كَانَ، فمَثَلًا: إِذَا فَعَلَ الإِنْسَانُ فِعْلًا ليُصلِحَ شَيْئًا مِنْ مَالِهِ فتَلِفَ المَالُ، كأَنْ يُصلِحَ قَلَمًا وعنْدَ إِصْلَاحِهِ انْكَسَرَ، هُو أَرَادَ بذَلِكَ الخَيْرَ، لَكِنَّ القَدَرَ كَانَ خِلَافَ ذَلِكَ، فَإِذَا حَصَلَ ذَلِكَ آمَنَ بقَضَاءِ اللهِ وقَدَرِهِ، وأَنَّ اللهَ الَّذِي قَدَّرَ هَذَا، وأَنَّه لَا يُمْكِن أن تَكُونَ الحَالُ غيرَ هذِهِ الحَالِ أَبَدًا، فَلَا يُمْكِن رَفْعُ مَا كَانَ أبدًا، ولَا منْعُ مَا قدَّر اللهُ، «اللَّهُـمَّ لَا مَانِـعَ لِـمَا أَعْطَيْتَ ولَا مُعطِـيَ لِـمَا مَنَعْتَ»، فيَصْبِرُ عَلَى ذَلِك ويَحْتَسِبُ الأَجْرَ.

[١] قَوْلُهُ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ قَوْلُهُ: ﴿مُّصِيبَةٍ﴾ فَاعِلٌ مَرفُوعٌ بالضَّمَّةِ المُقدَّرةِ عَلَى آخِرِهِ مَنَعَ مِنْ ظُهُورِهَا اشْتِغَالُ المَحلِّ بحَرَكَةِ حَرْف الجَرِّ الزَّائِدِ؛ و﴿مِن﴾ حَرْفُ جَرٍّ زَائِدٌ زَائدٌ؛ زَائِدٌ لَفْظًا زَائِدٌ مَعْنًى، فزَائِدٌ الأُولَى مِنَ اللَّازِمِ، وزَائِدٌ الثَّانيَةُ مُتعدٍّ.

وقَوْلُهُ: ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ كالجَدْبِ، وفسَادِ النَّباتِ، ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

وقَوْلُهُ: ﴿وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ كالمَرَضِ، والكَسْرِ، وفَوَاتِ الأَحبَّةِ، وغَيْرِ ذَلِكَ.

وقَوْلُهُ: ﴿إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ﴾ أَي مَكْتُوبٌ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا، والمُرادُ بالكِتَابِ هُنَا اللَّوحُ المحْفُوظُ، كتَبَ اللهُ تعالى فِيهِ مقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ.

وقَوْلُهُ: ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ الضَّـمِـيرُ هُـنَا وهِـيَ (هـا)، قِيلَ: إِنَّهَا تعُـودُ عَلَى

إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ[١] ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾[٢] [الحديد:٢٢-٢٣].

المُصيبَةِ، وقِيلَ: عَلَى الأرْضِ، وقِيلَ: عَلَى الأَنْفُسِ، والأَظْهَرُ أَنَّها عَلَى المُصيبَةِ؛ لأَنَّها هِيَ المُتحدَّثُ عنْها: ﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ أي بخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ.

[١] قَوْلُهُ: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ أَي: كَوْنُها فِي كتَابٍ ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾، فلَيْسَ يصْعُبُ علَيْهِ شَيْءٌ؛ لأَنَّه لـمَّا خلَقَ القَلَمَ قَالَ لَهُ: «اكْتُبْ»، قَالَ: ومَاذَا أَكْتُبُ، قَالَ: «اكْتُبْ مَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ»، فهُوَ يَسِيرٌ عَلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فكَلِمَةٌ وَاحِدَةٌ حَصَلَ بِهَا كُلُّ مُرادِ اللهِ.

[٢] قَوْلُهُ: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ اللَّامُ حَرْفُ جَرٍّ، و«كَيْ» حَرْفُ مَصدَرٍ يَنْصِبُ الفِعْلَ المُضارِعَ، و«لَا» نافيَةٌ، «تَأْسَوْا» فعْلٌ مضَارِعٌ مَنصُوبٌ بـ«كَيْ» وعلَامَةُ نَصْبِهِ حَذْفُ النُّونِ، والوَاوُ فاعِلٌ؛ وهُنَا نَقُول: إِنَّ «كَيْ» عَاملَةٌ بنَفْسِها لأَنَّه سبَقَهَا حَرْفُ الجَرِّ، وإِذَا سَبقَها حَرْفُ الجَرِّ صَارَتْ هِيَ النَّاصبَةَ، لَكِن لَوْ لَمْ يَكُن فِيهَا حرْفُ جَرٍّ بأَنْ قُلْتَ: جِئْتُ كَيْ أَقْرَأَ؛ صَارَ الفِعْل بعْدَهَا مَنصُوبًا بـ«أَنْ» مُضمرَة عَلَى رَأْيِ البَصرِيِّينَ، وعَلَى رَأْيِ المُيسِّرِينَ هِيَ ناصِبَةٌ بنَفْسِهَا، وهَذَا هُوَ القَوْلُ الرَّاجِحُ الراجِحُ؛ لأَنَّ مِنْ طَرِيقَتِنا أَنَّ النُّحاةَ إِذَا اخْتَلَفُوا عَلَى رَأْيينِ أَخَذْنَا بالأَسْهَلِ.

وقَوْلُهُ: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ أَي: لكَيْ لَا تحْزَنُوا عَلَى الأَمْرِ الَّذِي يفُوتُكُم مَا تُرِيدُونَ.

وقَوْلُهُ: ﴿وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ أَي: بِمَا حَصَلَ لَكُمْ، فَلَا تَفْرَحُوا بِهِ، أَي: فَرَحَ بَطَرٍ وأَشَرٍ وإِعْجَابٍ، ولَيْسَ المَعْنَى أَنْ لَا تَفْرَحَ بنعْمَةِ اللهِ، بَلْ إِنَّ اللهَ قَالَ:

﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾ [يونس:٥٨]. فأمَرَ بالفَرَحِ بفَضْلِ اللهِ ورَحمتِهِ، لَكِنَّ المُرادَ بالفَرَحِ المَنهيِّ عنْهُ هُو الفَرَحُ الحَامِلُ عَلَى الأشَرِ والبَطَرِ والإعجَابِ.

وقَوْلُهُ: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾، وإِذَا انْتَفَتْ محَبَّةُ اللهِ عَنِ العَبْدِ، فهَل تَثْبُتُ الكرَاهَةُ؟ الجوابُ: أمَّا فِي حَقِّ العَبْدِ فَلَا؛ لأَنَّ الإِنْسانَ قَدْ يَكُونُ لَا مُحِبًّا لَكَ ولَا مُبغِضًا لَكَ، وأمَّا فِي جَانِبِ اللهِ فالَّذِي يظْهَرُ لي أَنَّه مَتَى نَفَى المَحبَّةَ عَنْ شَيْءٍ فهُو إِثْبَاتٌ للكَرَاهَةِ؛ لأَنَّ اللهَ تعالى يقُولُ: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس:٣٢].

فإِنْ قَالَ قَائِلٌ: إنَّ قَولَكَ هَذَا يَهدِمُ قِسْمَ المُباحِ فِي الشَّريعَةِ الإِسْلاميَّةِ؛ لأَنَّ المُباحَ ممَّا لَا يُحبُّه اللهُ ولَا يكرَهُهُ، ولهَذَا لَمْ يُؤمَر بِهِ ولَمْ يُنْهَ عنْهُ.

فالجَوابُ أنْ نَقُول: إنَّ المُباحَ ممَّا يُحبُّهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ؛ لأَنَّ اللهَ تعالى يُحِبُّ أَنْ يَرَى أَثَرَ نِعمَتِهِ عَلَى عَبْدِهِ، فَإِذَا فَعَلَ الإِنْسانُ المُباحَ تمَتُّعًا بنِعْمَةِ اللهِ صَارَ محْبُوبًا إِلَى اللهِ، ولكِنَّهُ لَيْسَ محْبُوبًا لذَاتِهِ.

وعَلَى كُلِّ حَالٍ: إِذَا نَفَى اللهُ المَحبَّةَ عَنْ عَمَلٍ فهُوَ إِثْبَاتٌ للكَرَاهَةِ.

وقَوْلُهُ: ﴿كُلَّ مُخْتَالٍ﴾ فِي هَيئَتِهِ، ﴿فَخُورٍ﴾: فِي قَولَتِهِ؛ فالاخْتِيَالُ يعُودُ إِلَى الهيْئَةِ، بأَنْ يتبَخْتَرَ فِي مِشيَتِه، أَو يُسْبِلَ ثِيَابَهُ، أَو يُسْبِلَ عِمامَتَهُ، بأَنْ يُطيلَها عَنِ المُعتَادِ، أَوْ يُسبِلَ كُمَّه، بأَنْ يُوسِّعَهُ جِدًّا، وهَذَا مِنَ الخُيلَاءِ كَمَا قَالَهُ شَيْخُ الإِسْلَامِ ابْنُ تَيمِيَّةَ[1] رَحِمَهُ ٱللَّهُ، أَو يُسبِلَ مِشْلحَهُ، والمُهِمُّ أَنَّ اللهَ تَعَالَى لَا يُحِبُّ كُلَّ مُختَالٍ، سَواءٌ فِي هيْئَتِهِ أَو فَخُورٍ بقَولَتِهِ.

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٢٢/ ١٢٧).

فنَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى أنْ يثبِّتَنا عَلَى هذِهِ العَقِيدَةِ، وأنْ يُحقِّقَ لنَا ثَمَرَاتِهَا ويَزِيدَنا مِنْ فَضْلِهِ، وألَّا يُزِيغَ قُلوبَنا بعْدَ إذْ هَدَانَا؛ وأَنْ يَهَبَ لنَا مِنْهُ رحْمَةً، إنَّه هُوَ الوَهَّابُ. والحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ.

وصلَّى اللهُ وسلَّمَ عَلَى نَبِيِّنا مُحمَّد وعَلَى آلِهِ وأصْحَابِهِ والتَّابعِينَ لهُمْ بإِحْسَانٍ.

تمَّتْ بقَلَمِ مُؤلِّفِهَا

مُحمَّد الصَّالِح العُثَيمِينَ

في ٣٠ شَوَّال سَنَةَ ١٤٠٤هـ



فهرس الأحاديث والآثار

الحديث ——— **الصفحة**



فهرس الفوائد

الفائدة — الصفحة



فهرس الموضوعات

